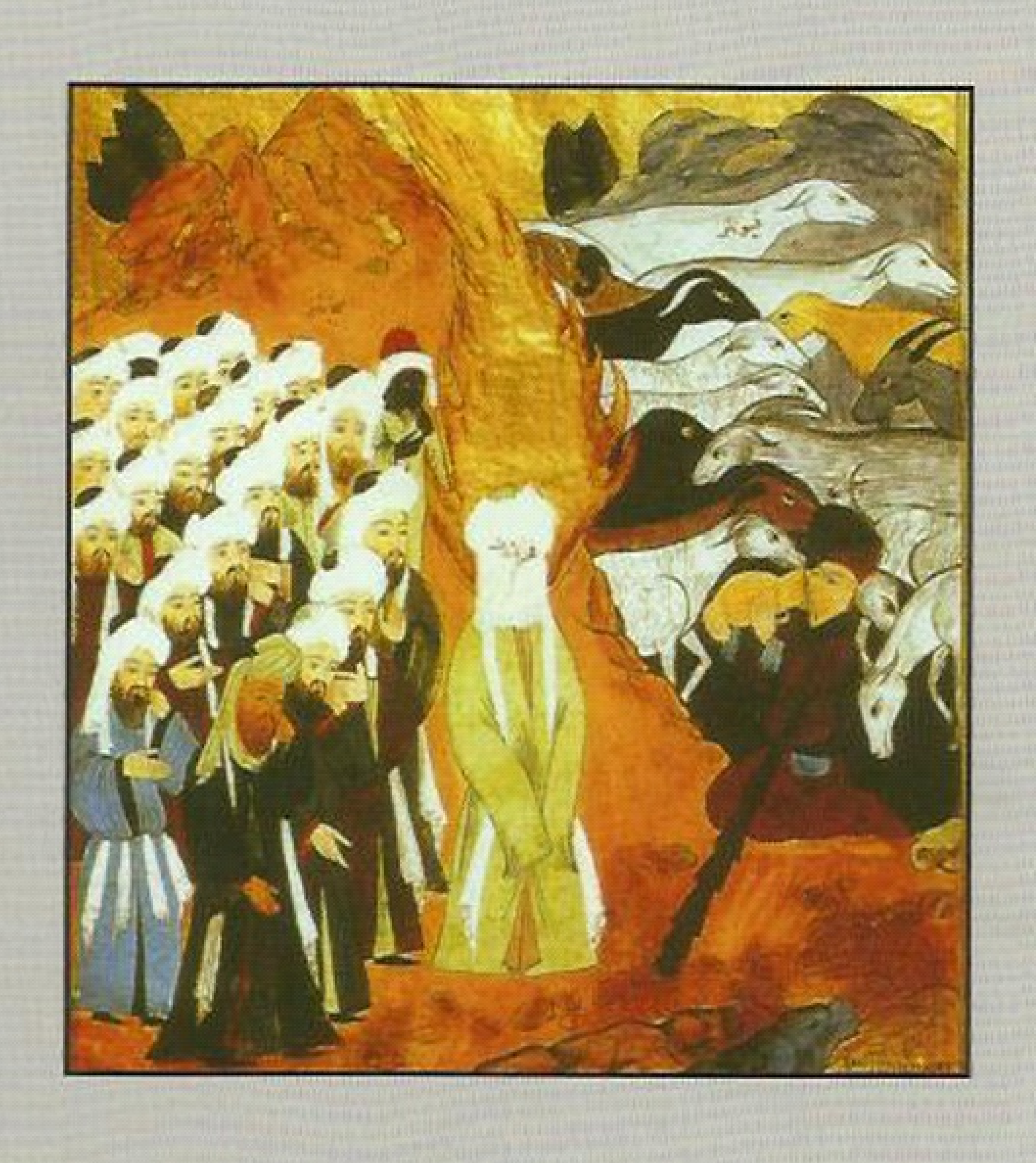
ابن قرناس

أحسن القصص

تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول



منشورات الجمل



ابن قرناس

أحسن القصص

تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر،
مع ترتيب السور حسب النزول

منشورات الجمل

ابن قرناس: أحسن القصص، (تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر، مع ترتيب السور حسب النزول)

الطبعة الأولى ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٣٥٢٢٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٢٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يوسف٣

ابن قرناس لا يمثل دين الله، وأضعف من أن يتقول على الله. لكنه سمح لعقله بالتفكير. فوجد أن دين الله لا يمكن أن يمثله غير كلام الله، وما عداه من أقوال فهي رأي شخصي لقائلها. ودين الله لا يقوم على الآراء الشخصية.

أرجو أن تقرأوا وتفكروا بما يُقرأ، فإن كان صواباً فليس لأنه كلام الكاتب، ولكن لأن الكاتب اهتدى للصواب. وإن كان خاطئاً، فلأن الكاتب بشر يخطئ، وبحاجة للعودة للصواب.

المؤلف

تمهيد

الأحداث التي وقعت زمن رسول الله لم يصلنا منها أي سجل بشري من شهود عيان على الإطلاق، وجُلُّ ما قيل عن تلك الفترة هو قصص مختلق، تعكس ميول من كتبها أو من اعتمدها وأقرها. وقد كتبت بعد الأحداث بعشرات السنين في العصر الأموي، وعدلت وبدلت في عصر العباسيين بعد مئات السنين من وقوعها في عصر الرسول. ولأن العباسيين استمروا في الحكم لقرون طويلة، فقد ترسخ كل ما كتب في عصرهم، وصبغ به تاريخ الإسلام، وكأنه هو بالفعل ما وقع، ولم يعد للتاريخ الحقيقي وجود.

وما يؤسف له لدرجة الحزن والأسى، عدم وجود كتاب واحد عن التاريخ الإسلامي اعتمد كتاب الله كمصدر، سواء ألفه مسلم أو غير مسلم. لأنه حتى عند من لا يؤمن بأن القرآن كتاب إلهي، فلا ينفي كونه الكتاب العربي الوحيد الذي كتب في عصر ميلاد الإسلام، ولم يعترض معاصروه على ما سجله من أحداث[1]، ما يجعله المصدر الوحيد المُوثّق والموثوق لتلك الفترة. وكل كتب السير والتاريخ، التي وصلتنا، اعتمدت قصصاً شفهية من مصادر يهودية ومسيحية ومجوسية وقرشية وثنية لكتابة تاريخ الإسلام، وهي ثقافات أهل بلاد جزيرة العرب والشام والعراق وفارس وما حولها في زمن الفتوح.

---

(١) قريش وغيرها ممن لم يؤمنوا، اعترضوا على ما يدعو إليه القرآن من إيمان بالبعث ورسالة محمد، لكنهم لم يعترضوا أبداً على ما يتناوله القرآن من أحداث حدثت عند نزول السور.

وإن كان هذا الكتاب أول محاولة لكتابة التاريخ الإسلامي ـ تعتمد كتاب الله وحده، كمصدر للمعلومات ـ فهذا ليس مدعاة للفخر، ولا يعني سبق تاريخي، بقدر ما يظهر كم هم المسلمون مبعدون عن كتاب الله، وكم هو مغيب عن حياتهم. برغم أنه الكتاب الوحيد الذي كتب في ذلك العصر، وبرغم أنه كتب بإشراف رسول الله، الذي رواه عن مصدره. وبرغم أن مصدره رب العالمين، وبرغم أنه كتب برعاية الله وحفظه، وبرغم أنه أغنى مصدر على الإطلاق لذلك الزمن، ويحوي تفاصيل دقيقة عن الأحداث التي وقعت فيه، لا يجاريه فيها مصدر آخر.

لكن مشكلته أنه لا يتوافق مع سياسات الحكام.

وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب سيجد القراء أن الأحداث التي يخبرنا بها القرآن، إما أنه لا وجود لها في كتب السير والتاريخ، أو أنها رويت بطريقة مخالفة عما في القرآن. مما يعني أن الكتاب العزيز قد احتفظ لنا بحقيقة التاريخ، التي حاول السلاطين طمسها.

كما سيجد القراء أن هناك جزءاً خاصاً بترتيب السور حسب النزول يسبق الموضوع الرئيسي للكتاب. ذلك أنه ما أن بدأ العمل في كتابة تاريخ الإسلام في عصر الرسول، حتى تبين أنه يستحيل أن يكتب هذا التاريخ قبل التعرف على ترتيب السور حسب النزول، لكي نستطيع قراءة الأحداث التي أخبر بها القرآن، قراءة منطقية. وحتى يمكن سرد الأحداث بترتيب تاريخي يتوافق مع ترتيب حدوثها، على اعتبار أن السورة سجل يقوم على توثيق الوقائع التي جرت فترة نزولها.

وبعون من الله وتوفيقه تم التوصل إلى ترتيب السور حسب النزول، والانتهاء من تدوينه. وكانت النية أن يظهر هذا العمل الهام والفريد في كتاب مستقل. إلا أنه لو فصل بكتاب مستقل، فسيحتاج من يقرأ كتاب تاريخ الإسلام إلى الرجوع إليه على الدوام. لذا تقرر أن يكون ترتيب السور حسب النزول جزءاً من كتاب تاريخ الإسلام.

وبدا وكأن كل شيء سيسير على ما يرام، ولكن؛ بمجرد أن عاودت العمل في كتابة تاريخ الإسلام، حتى برزت مواضيع كثيرة، تستحق أن يكتب عن كل واحد منها باستفاضة. ولو ضمنت في كتاب واحد مع تاريخ الإسلام فسيكبر حجمه، وتتشعب مواضيعه، بصورة غير مرغوبة ولا مقبولة. لذا عقدت العزم على عدم التطرق لها ما أمكن في كتاب تاريخ الإسلام، على أمل الكتابة عن كل موضع بكتاب مستقل إن شاء الله.

إلا أن تقديم كلمة موجزة عن صفة من صفات الخالق، وتعريف مختصر بالإسلام، وقريش، ونبذة عن حياة محمد، كانت من المواضيع التي لا يمكن تأجيلها أو فصلها عن تاريخ الإسلام لأنها جزء منه. والحديث عن قريش ومحمد لا بد أن يبدأ بإبراهيم، لأنه الأب لمحمد وقريش نسباً وديناً. ولا يمكن الحديث عن إبراهيم وابنه إسماعيل جد محمد وقريش، وترك الحديث عن ابن إبراهيم الآخر، إسحاق، جد بني إسرائيل. فكان لا بد من يكتب عن هذه المواضيع وتلحق بكتاب تاريخ الإسلام.

فأصبح الكتاب عبارة عن جزءين، وثيقي الصلة ببعض، كما يلي:

الجزء الأول: ترتيب سور القرآن حسب النزول

وهو الذي جاء في بداية الكتاب، لأنه يمثل الآلية التي بواسطتها استطعنا استنباط الأحداث وكتابة التاريخ من سور وآيات القرآن، ومن الضروري أن يطلع عليه القراء أولاً.

ويحتوي على مدخل يقدم للموضوع، يليه باب يناقش ترتيب السور الحالي الذي وضعه المفسرون ورجال الدين. ثم باب يستعرض المنهجية التي اتبعناها للتوصل لترتيب السور حسب نزولها، والخطوات العملية التي سرنا عليها من بداية العمل وحتى نهايته، ثم خاتمة مختصرة.

الجزء الثاني: تاريخ الإسلام «كما ورد من المصدر»

ويحتوي على ستة أقسام رئيسية، هي:

القسم الأول: ويمثل مدخلًا لكتاب تاريخ الإسلام، ويحتوي على تمهيد بعنوان: من كتب التاريخ الإسلامي؟ حيث يستعرض العوامل التي أثرت في كتابة التاريخ الإسلامي بهذه الصورة التي وصلتنا.

القسم الثاني: يستعرض المنهجية التي اتبعت لكتابة تاريخ الإسلام اعتماداً على القرآن كمصدر.

القسم الثالث بعنوان: ما قبل كتابة تاريخ الإسلام. ويقدم معلومات أساسية مستمدة من كتاب الله، عن صفة من صفات الخالق جل وعلا في فصل خاص. يليه فصل آخر للتعريف بالإسلام، وفصل آخر للتعريف بالقرآن. ثم فصل عن حياة محمد رسول الإسلام، يليه استعراض تاريخي عن إبراهيم وذريته. كونه الأب الأول للإسلام، وذريته هم قريش وبنو إسرائيل، الذين خاطبهم القرآن مباشرة، وكان لهم التأثير المباشر على تاريخ الإسلام.

القسم الرابع بعنوان: الفترة المكية. ويبدأ بمقدمة قصيرة عن مكة، ثم باب يروي الأحداث التاريخية التي وقعت في مكة، من بداية الدعوة وحتى هجرة رسول الله، مقسمة على سبعة فصول، كل فصل يروي أحداث مرحلة من مراحل الدعوة في مكة. بنفس تقسيم مراحل الدعوة في مكة التي عرفناها في ترتيب السور حسب النزول.

القسم الخامس بعنوان: يثرب. ويبدأ بمقدمة عن يثرب وسكانها. ثم فصل عن مقام الرسول في يثرب عندما قدم مهاجراً، وكيف تم اختياره. يليه فصل عن معنى «المدينة»، وكيف سمي بها مقام الرسول هناك. ثم الباب الذي يروي الأحداث التاريخية التي وقعت في العصر المدني منذ هجرة الرسول وحتى وفاته، مقسمة على ثمانية فصول. كل فصل يروي أحداث مرحلة من مراحل الدعوة في المدينة. بنفس تقسيم مراحل الدعوة في المدينة التي عرفناها في ترتيب السور حسب النزول.

القسم السادس بعنوان: استقراء المستقبل. حيث يختم الكتاب بباب يحوي ثلاثة فصول، هي:

فصل يستعرض أصناف المسلمين عند وفاة رسول الله. ثم فصل يبين الأوضاع السياسية في جزيرة العرب بعد وفاة الرسول. والفصل الثالث قراءة سريعة لما ستكون عليه الأحداث بعد عصر الرسول.

وهذا الكتاب، وإن كان يمثل محاولة أولى من نوعها، وغير متعمقة، إلا أنه زاخر بحقائق تاريخية تم استنباطها من القرآن، لم يسبق أن توصل لها أحد على الإطلاق من قبل. ستصحح الكثير مما ترسخ لدى الناس كمسلمات تاريخية، حول العالم، وليس المسلمين منهم فقط. وهي برهان يظهر كم أُبعِد القرآن عن حياة الناس، ليس فقط عن المسلمين ككتاب ديني، ولكن عن بحوث المؤرخين كمصدر تاريخي لا يجاريه مصدر آخر في غزارة المعلومات ودقتها.

ونكرر أسفنا لهذا الموقف المجافي لهذا الكتاب العظيم، خاصة ممن يعتبرون مفكرين وباحثين أكاديميين يعملون لخدمة البحث العلمي المجرد، إن كان هناك من يعمل لخدمة البحث العلمي المجرد. وكيف تجاهلوا عمداً الرجوع لهذا النبع الفريد، كمصدر تاريخي ـ ولو لم يؤمنوا به ككتاب من عند الله ـ ليس للفترة الإسلامية فقط، ولكن لتاريخ العصور القديمة في جزيرة العرب قبل الإسلام.

ترتيب السور
حسب النزول

مدخل

الكتابة عن ترتيب السور حسب النزول لم يكن هدفاً بحد ذاته، لولا أني وجدته من الضرورات القصوى عندما شرعت في الإعداد لكتابة تاريخ الإسلام في عصر محمد معتمداً القرآن الكريم كمصدر، دون الاستعانة بحديث أو تفسير، أو أي كتابات بشرية أخرى. فكان لابد من التعرف على ترتيب السور حسب نزولها، ليكون بالاستطاعة تتبع الأحداث وسردها بطريقة منطقية تتماشى مع تسلسلها التاريخي.

فتوقف العمل هناك، وبدأ العمل هنا، وكان لابد من مراجعة ما قاله المفسرون الذين يزعمون أن سورة العلق ـ والآيات الخمس الأولى تحديداً ـ هي أول ما نزل على رسول الله، معتمدين في ذلك على تصوراتهم عن كيفية الوحي، وتخيلهم أنه يتم عبر لقاء حسي فعلي بين محمد والملك المكلف بالتبليغ، والذي يقوم بتلقين الرسول الآيات المنزلة عليه، بنفس الطريقة التي يعرفها العرب للتعلم. والمتمثلة بتلاوة العبارة المراد تلقينها، على مسامع المتلقي، الذي يقوم بترديدها حتى يحفظها. وهذا الأسلوب بقي ساري المفعول في المدارس العربية القديمة ـ الكتاتيب ـ ولا زال ساري المفعول في المدارس الابتدائية العربية الحالية. وهو ما ظن المحدثون والمفسرون أنه جرى بين جبريل ـ الملك المكلف بالوحي ـ وبين محمد.

ولم تخرج كتابات المستشرقين حول ترتيب سور القرآن حسب النزول عن تبني ما قاله المفسرون والمحدثون وتعديلها قليلاً بما يتناسب مع تأويلاتهم وما

يرغبون توصيله من أفكار عن القرآن للقارئ الغربي. ولو أخذنا واحداً من أشهر كتب المستشرقين في هذا المجال، وهو تاريخ القرآن[1]، لوجدنا أنه لا يخرج كثيراً عن ترتيب المفسرين. بل نجده يتبنى كثيراً ما جاء في كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي[2] الذي لم يختلف عن سلف المفسرين، مع بعض التعديلات القليلة، دون اعتماد لمنهجية مستقلة ثابتة أو ضوابط واضحة. وتأكيداً لذلك، أننا لو ألقينا نظرة على العشرين سورة الأولى في الترتيب لدى المفسرين، لوجدنا أن هناك خمس عشرة سورة منها وردت في ترتيب نولدكه للعشرين سورة الأولى. كما أن من بين السور التي استبعدها عن أول السور نزولاً كانت الفاتحة، والتي أخرها للمرتبة الثامنة والأربعين، فيما وافق المفسرين في أن العلق هي الأولى في النزول.

والسلف يتحملون وزر ترتيب سور القرآن بالشكل الذي هي عليه في المصحف، وضياع الشكل الصحيح للترتيب حسب النزول. ولا أستطيع تصور أن الأتقياء من الصحابة لا يعرفون ترتيب السور حسب النزول، أو أنهم

---

(١) كتاب تاريخ القرآن قام بتأليفه المستشرق الألماني الشهير تيودور نولدكه (Theodor Noldeke) (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠)، وتمت طباعته في القرن التاسع عشر، ثم كان لابد من مراجعته وتنقيحه، للطبعة الثانية. فقام تلميذ نولدكه السابق فريدريش شفالي (Friedrich Schwally) بإعادة صياغة الجزء الأول من الكتاب بطلب من المؤلف الذي أعيته الشيخوخة. لكن شفالي توفي في العام ١٩١٩ قبل إكمال مهمته، فقام أوغوست فيشر (August Fischer) ببعض التصحيحات على الجزء الثاني من الكتاب، قبل وفاته. أما الجزء الثالث من الكتاب فقد انتقلت مهمة إنهائه إلى غوتهلف برغشترسر (Gotthelf Bergstraser) الذي توفي في العام ١٩٣٤، ليكمل العمل تلميذه أتو بريستل (Otto Pretzl) في مطلع العام ١٩٣٧. ويكون قد تعاقب على هذا الكتاب خمسة أشخاص من أجيال مختلفة. وهو ما جعل عمل المؤلف الأصلي «تيودور نولدكه» يتوارى خلف التعديلات المتلاحقة من الآخرين. ويقول شفالي في هذا المقام، أنه سعى للتوفيق بين النص الأصلي (لنولدكه) وبين عمله هو لكن هذا لم يكن ممكناً، «فقررت القيام بتعديلات جذرية أو بإضافة مقاطع كبيرة».

والنتيجة أن كتاب تاريخ القرآن لم يعد يحمل إلا القليل من عمل نولدكه، برغم أنه لا يزال يحمل اسمه، وينسب إليه.

(٢) عبد الرحمن بن الكمال الأسيوطي المشهور باسم جلال الدين السيوطي. ولد في القاهرة في العام ٨٤٩ هـ/ الموافق ١٤٤٥ م، وتوفي في القاهرة أيضاً ٩١١ هـ/ الموافق ١٥٠٥ م. له مئات المصنفات في اللغة والأدب والدين.

يعرفونها ولكنهم تعمدوا ترتيب سور المصحف بهذه الطريقة التي هي عليه الآن. ولا أدري هل كان المصحف الإمام، الذي كتب في عهد رسول الله، ومنه نُسخت المصاحف، قد رتبت السور فيه كما نزلت، أو أن كل سورة قد كتبت لوحدها، وجمعت في ذلك المصحف، ولما جاء النُّساخ للنسخ من ذلك المصحف لم يتمكنوا من التعرف على الترتيب.

ولو أن التدوين الكتابي من ثقافة قريش والعرب عموماً، لكان من السهل التعرف على الترتيب الصحيح لنزول السور، حتى لو ضاع من المصاحف المنسوخة. لأننا سنرث سجلات توثق فترة الدعوة وحياة محمد من شهود عيان، إضافة لتسجيل تواريخ نزول السور. لكن أمية العرب وما حدث لترتيب السور عند نسخ المصاحف جعلنا نفقد الترتيب الصحيح، ولم يعد بالإمكان التعرف على اليوم الذي نزل فيه الوحي للمرة الأولى، والشخص أو الأشخاص الذين استمعوا لمحمد وهو يتلو ما أوحي إليه للمرة الأولى، ولا نعرف أحداثاً كثيرة صاحبت استمرار الدعوة. كل هذا نتيجة لأن قريش، قوم أميون مثل غالبية قبائل جزيرة العرب. ولو كانوا أهل كتابة وتوثيق كاليونان أو الرومان، لوجد لدينا سجلات ضخمة عما صاحب الدعوة من أحداث في مكة والمدينة، حتى ولو عكست ميول كاتبها وزورت بعض الحقائق.

وأهمية التعرف على ترتيب السور حسب النزول تكمن في القدرة على ترجمة الأحداث ـ التي أخبر بها القرآن ـ إلى تاريخ، ولا يمكن استقراء التاريخ الإسلامي من القرآن قبل التعرف على ترتيب السور كما نزلت، وليس بترتيبها الحالي في المصحف، أو الترتيب الآخر الذي قال به المفسرون، وأخذه عنهم المستشرقون، بقليل من التصرف.

وفيما يلي جدولاً يبين ترتيب السور في المصحف، وعند المفسرين، وفي كتاب تاريخ القرآن.

الرقم	المصحف	المفسرون	نولدكه	الرقم	المصحف	المفسرون	نولدكه
١	الفاتحة	العلق	العلق	٥٨	المجادلة	سبأ	مريم
٢	البقرة	ن والقلم	المدثر	٥٩	الحشر	الزمر	ص
٣	آل عمرن	المزمل	المسد	٦٠	الممتحنة	غافر	يس
٤	النساء	المدثر	قريش	٦١	الصف	فصلت	الزخرف
٥	المائدة	الفاتحة	الكوثر	٦٢	الجمعة	الشورى	الجن
٦	الأنعام	المسد	الهمزة	٦٣	المنافقون	الزخرف	الملك
٧	الأعراف	التكوير	الماعون	٦٤	التغابن	الدخان	المؤمنون
٨	الأنفال	الأعلى	التكاثر	٦٥	الطلاق	الجاثية	الأنبياء
٩	براءة	الليل	الفيل	٦٦	التحريم	الأحقاف	الفرقان
١٠	يونس	الفجر	الليل	٦٧	الملك	الذاريات	بنو إسرائيل
١١	هود	الضحى	البلد	٦٨	ن والقلم	الغاشية	النمل
١٢	يوسف	الشرح	الشرح	٦٩	الحاقة	الكهف	الكهف
١٣	الرعد	العصر	الضحى	٧٠	المعارج	النحل	السجدة
١٤	إبراهيم	العاديات	القدر	٧١	نوح	نوح	فصلت
١٥	الحجر	الكوثر	الطارق	٧٢	الجن	ابراهيم	الجاثية
١٦	النحل	التكاثر	الشمس	٧٣	المزمل	الأنبياء	النحل
١٧	بنو إسرائيل	الماعون	عبس	٧٤	المدثر	المؤمنون	الروم
١٨	الكهف	الكافرون	ن والقلم	٧٥	القيامة	السجدة	هود
١٩	مريم	الفيل	الأعلى	٧٦	الإنسان	الطور	ابراهيم
٢٠	طه	الفلق	التين	٧٧	المرسلات	الملك	يوسف
٢١	الأنبياء	الناس	العصر	٧٨	النبأ	الحاقة	غافر
٢٢	الحج	الإخلاص	البروج	٧٩	النازعات	المعارج	القصص
٢٣	المؤمنون	النجم	المزمل	٨٠	عبس	النبأ	الزمر

الرقم	المصحف	المفسرون	نولدكه	الرقم	المصحف	المفسرون	تولدكه
٢٤	النور	عبس	القارعة	٨١	التكوير	النازعات	العنكبوت
٢٥	الفرقان	القدر	الزلزلة	٨٢	الانفطار	الإنفطار	لقمان
٢٦	الشعراء	الشمس	الإنفطار	٨٣	المطففين	الإنشقاق	الشورى
٢٧	النمل	البروج	التكوير	٨٤	الانشقاق	الروم	يونس
٢٨	القصص	التين	النجم	٨٥	البروج	العنكبوت	سبأ
٢٩	العنكبوت	قريش	الانشقاق	٨٦	الطارق	المطففين	فاطر
٣٠	الروم	القارعة	العاديات	٨٧	الأعلى	البقرة	الأعراف
٣١	لقمان	القيامة	النازعات	٨٨	الغاشية	الأنفال	الأحقاف
٣٢	السجدة	الهمزة	المرسلات	٨٩	الفجر	آل عمران	الأنعام
٣٣	الأحزاب	المرسلات	النبأ	٩٠	البلد	الأحزاب	الرعد
٣٤	سبأ	ق	الغاشية	٩١	الشمس	الممتحنة	البقرة
٣٥	فاطر	البلد	الفجر	٩٢	الليل	النساء	البينة
٣٦	يس	الطارق	القيامة	٩٣	الضحى	الزلزلة	التغابن
٣٧	الصافات	القمر	المطففين	٩٤	الشرح	الحديد	الجمعة
٣٨	ص	ص	الحاقة	٩٥	التين	محمد	الأنفال
٣٩	الزمر	الأعراف	الذاريات	٩٦	العلق	الرعد	محمد
٤٠	غافر	الجن	الطور	٩٧	القدر	الرحمن	آل عمرآن
٤١	فصلت	يس	الواقعة	٩٨	البينة	الإنسان	الصف
٤٢	الشورى	الفرقان	المعارج	٩٩	الزلزلة	الطلاق	الحديد
٤٣	الزخرف	فاطر	الرحمن	١٠٠	العاديات	البينة	النساء
٤٤	الدخان	مريم	الإخلاص	١٠١	القارعة	الحشر	الطلاق
٤٥	الجاثية	طه	الكافرون	١٠٢	التكاثر	النور	الحشر
٤٦	الأحقاف	الواقعة	الفلق	١٠٣	العصر	الحج	الأحزاب

الرقم	المصحف	المفسرون	نولدكه	الرقم	المصحف	المفسرون	نولدكه
٤٧	محمد	الشعراء	الناس	١٠٤	الهمزة	المنافقون	المنافقون
٤٨	الفتح	النمل	الفاتحة	١٠٥	الفيل	المجادلة	النور
٤٩	الحجرات	القصص	القمر	١٠٦	قريش	الحجرات	المجادلة
٥٠	ق	بني إسرائيل	الصافات	١٠٧	الماعون	التحريم	الحج
٥١	الذاريات	يونس	نوح	١٠٨	الكوثر	التغابن	الفتح
٥٢	الطور	هود	الإنسان	١٠٩	الكافرون	الصف	التحريم
٥٣	النجم	يوسف	الدخان	١١٠	النصر	الجمعة	الممتحنة
٥٤	القمر	الحجر	ق	١١١	المسد	الفتح	النصر
٥٥	الرحمن	الأنعام	طه	١١٢	الإخلاص	المائدة	الحجرات
٥٦	الواقعة	الصافات	الشعراء	١١٣	الفلق	التوبة	التوبة
٥٧	الحديد	لقمان	الحجر	١١٤	الناس	النصر	المائدة

ترتيب النزول عند المفسرين

لا يمكن أن تكون سور القرآن نزلت بالترتيب الذي قال به المفسرون، ولأدلل على صحة ما أقول بمثال، سآخذ أول سورة في ترتيبهم، وأناقشها مع القراء.

والمفسرون قالوا إن سورة العلق ـ والآيات الخمس الأولى تحديداً ـ هي أول ما نزل على رسول الله، وتلاها في النزول سورة القلم، معتمدين في ذلك على أمرين:

١. تصورهم الخاطئ عن كيفية تلقي الرسول للوحي.

٢. وظنهم أن القرآن ينزل على شكل جزء من آية أو آية أو آيات، وليس على شكل سورة كاملة.

وفيما يلي مناقشة هذين الأمرين:

كيفية نزول الوحي في تصورهم

المفسرون تخيلوا أن الوحي يتم عبر لقاء حسي بين محمد والملك المكلف بتبليغ الوحي، يقوم الملَك أثناء اللقاء بتلقين الرسول الآيات المنزلة عليه، بنفس الطريقة التي يعرفها العرب للتعلم. وهو ما ظن المحدثون والمفسرون أنه جرى بين جبريل، وبين محمد، ثم اختلقوا أحاديث لدعم ظنهم هذا. ومن تلك الأحاديث ما نسب لأم المؤمنين عائشة، والذي يظهر الرسول وهو لايدري ما حدث له، لولا ورقة بن نوفل الذي يقول عنه

الحديث: «وكانَ امْرءاً تَنصَّرَ في الجاهليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُبُ منَ الإنجيلِ بالعِبْرانيَّةِ ماشاءَ اللهُ أن يَكتُبَ، وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: ياابنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا تَرى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى. فقال له ورَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، ياليْتَني فيها جَذَعٌ، لَيْتني أكونُ حَيّاً إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئتَ بهِ إلاّ عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزَّراً. ثمّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ». رواه البخاري.

ولأن القصة مختلقة، ولأن ورقة بن نوفل لم يقل للرسول ما نسب إليه أنه قال، نجده لم يؤمن برسالة الإسلام، ولم ينصر الرسول ولم يؤازره مع أنه عاش لما بعد البعثة، إن كان لهذا الشخص وجود فعلي، ولم يكن مجرد شخصية وهمية اختلقها المؤرخون لدعم تأويلاتهم، وهو ما أظن.

ونحن لسنا بحاجة للبحث عن أقوال الزهري أو ابن جريج أو غيرهم من الإخباريين الذين تنسب لهم تلك الأخبار، لأنهم لم يكن لهم وجود في مكة عندما بعث رسول الله، ولم يكن لهم وجود في المدينة عندما هاجر، ولم يجتمع بالرسول منهم أحد أو يسأله أو ينقل عنه. فقد عاشوا بعد عصر رسول الله بعشرات السنين، ومع ذلك تبنينا قصصهم التي تخيلوها عن الكيفية التي كان رسول الله يتلقى بواسطتها الوحي، وتقاعسنا عن تحكيم عقولنا والتمعن فيما قاله الله سبحانه وتعالى الذي نزّل «الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».

وإلا فسنجد أن القرآن يخبرنا بكل وضوح أن الوحي ينزل مباشرة على قلب الرسول، يعني ذاكرته: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٩٧﴾ البقرة.

وهو ما تؤكده سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ

الرُّوحُ الْأَمِينُ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴿١٩٥﴾.

فمحمد كان يوحى إليه، أي ينسخ الوحي في ذاكرته، دون الحاجة للتلقين: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٥٢﴾ الشورى.

وقد أكد القرآن ذلك مرات عديدة، بصيغة «أوحينا إليك»، وبصيغة «أوحي إليك»، وبصيغة «يوحى إليك». وطمأن الله سبحانه نبيه بألا يحاول ترديد ما يجده قد نسخ في ذاكرته ليحفظه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴿١١٤﴾ طه.

فلن ينساه ما دام حياً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴿١٨﴾ القيامة.

وهكذا نجد أن الأدلة التي اعتمدها الإخباريون والمفسرون والمحدثون على أن الخمس الآيات الأولى من سورة العلق هي أول ما نزل على الرسول، تقوم على ظنهم بأن الوحي يتم بتلقين الملك لرسول الله الآيات وترديدها عليه حتى يحفظها، وهو ما ينفيه القرآن نفياً قاطعاً.

ولو تمعنا في سورة العلق بعيداً عن ظنون المفسرين، فسنجد أنها تتحدث عن أحد كبراء قريش وكيف أنه كان يزجر الرسول كلما رآه يصلي (بجوار الكعبة): ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴿٩﴾ عَبْداً إِذَا صَلَّى﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَه﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴿١٩﴾.

وهذا يؤكد أن هناك سورة نزلت، قبل العلق، تأمر بالصلاة، وهو ما يؤكد يقيناً أن العلق لم تكن أول سورة نزلت من القرآن.

قولهم بنزول القرآن آية آية

يقول سلف المفسرون والمحدثون والفقهاء إن القرآن لا تنزل السورة منه كاملة، ولكن ينزل منها الآية والآيتين وجزء من الآية. وإن بعض الآيات تنزل من آخر السورة قبل الآيات في أولها. وهذا القول لا يمكن لنا أن نحسن الظن به، لأنه يسهل تقطيع أوصال الآيات ويلغي السياق، ويفرغ كلام الله من معانيه، ويبعد القارئ عن فهمه كما نزل.

والقول بنزول القرآن آية آية فتح الباب على مصراعيه للقول بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وغيرها. وفيما يلي بعض الأمثلة على ما قالوا، وإن كان فيها إطالة ظننت أنها ضرورية:

ينقل الواحدي في كتابه أسباب النزول أن الله قد أنزل الآية ﴿٢٨٤﴾ من سورة البقرة، والتي تقول: ﴿........ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ......﴾ فاشتد وقعها على أصحاب الرسول، فأتوه ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها.

فأنزل الله في وقت لاحق: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴿٢٨٥﴾.

ثم أنزل الله فيما بعد، الآية التالية، وهي الأخيرة من البقرة، لنسخ ما سبق، ونصها: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٢٨٦﴾.

ولو صدقناهم، فنحن نوافقهم على أن الله لا يعلم ما يفعل، وينزل شيئاً ثم يندم أو يغير رأيه، أو أنه ينتظر ردة فعل الناس فيما يشرع فإن قبلوه أمضاه وإن رفضوه غيره (أستغفر الله).

ولو صدقناهم، فإن الآية ﴿٢٨٤﴾، قد تسببت بنزول الآية ﴿٢٨٥﴾، ولولاها لما نزلت ولما كانت في القرآن. وتسبب نزول الآية ﴿٢٨٥﴾ بنزول الآية ﴿٢٨٦﴾ بعد ذلك. وبناءً على ما تجرأوا ونسبوه لله، يكون الله قد أنزل الآية ﴿٢٨٤﴾، في أحد الأيام، ثم تراجع عما فيها، عندما أنزل في يوم آخر الآية ﴿٢٨٥﴾ التي تلغي العمل في الآية السابقة. ثم تراجع للمرة الثانية عما في الآية ﴿٢٨٥﴾، عندما أنزل في يوم آخر الآية ﴿٢٨٦﴾، التي أغلت العمل بما في الآية التي سبقتها. لكن الله ترك الآيتين المعطلتين، في المصحف، كحشو كلام لا يعمل به. ولو وافقناهم في اختلاقهم، واعتبرنا ما يقولون هنا مقياساً على بقية آيات سور القرآن، فلا بد أن هناك ثلثي القرآن حشو كلام، يقرأ، لكن لا يعمل به لأنه معطل أو منسوخ ـ حسب تعبيرهم. ولن يعود هناك مجال للتفكير بترابط الآيات، ولا بالسياق الذي نزلت ضمنه.

والآن دعونا نتدبر كلام الرحمن، وسنجد أن الآيات التي سبقت الآية ﴿٢٨٤﴾تتحدث عن تحريم الربا وضرورة نشر الإنفاق كبديل في المجتمع الإسلامي، ثم تؤكد الآية ﴿٢٨٢﴾ على ضرورة توثيق الدَّيْن. والدَّيْن هنا ليس هو الدَّيْن المتعارف عليه عندنا والذي يعني اقتراض مال بفوائد لمدة. لأن هذا هو الربا بعينه، ولو تم التحايل الشكلي المتمثل ببيع صوري لبضاعة ما، من المقرض للمقترض، وبسعر أعلى من قيمتها الحقيقية، أو بقيمة مضاف لها الفائدة. ثم شراء المقرض البضاعة مرة أخرى، عادة بمال أقل. والمتضرر جيئة وذهاباً هو المقترض. لكن الدَّيْن في الآية يعني ما يعرف بيننا بالقرض الحسن، أي اقتراض مبلغ من المال، على أن يسدد بلا زيادة بعد مدة. وهذا يكون لمن يرغب في التوسع في تجارته، أو يشتري سلع كمالية، أما سد حاجات المحتاج من مسكين ويتيم وعابر سبيل وغيرهم فهؤلاء قد أوجب لهم الإسلام توفير كل احتياجاتهم بلا مقابل، عن طريق ما سماه القرآن بالإنفاق، وهو مبالغ يدفعها الأغنياء لسد احتياجات الأقل حظاً، دون انتظار استرداد تلك الأموال بفوائد أو حتى بدون فوائد. وكتابة قيمة القرض، وتوثيقه بشهادة

شاهدين، حتى لا يضيع حق صاحب الجميل، المقرض. وتستمر الآية التالية ﴿٢٨٣﴾، في نفس السياق: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وكما هو واضح فالآية تحذر من كتمان الشهادة التي لا يعرف بها إلا الشاهد، وعليه ألا يخفيها ويكتمها، حتى لا يضيع الحق على صاحبه. ثم تأتي الآية ﴿٢٨٤﴾ التي تلاعب بها السلف، لتقول إن كتمتم الشهادة فالله يعلم ما في الصدور، وسيحاسبكم على ذلك: ﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهنا ينتهي موضوع البيع والإنفاق والربا والدين، ليأتي ختام السورة بهذا الشكل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴿٢٨٥﴾ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾.

في سياق وترابط واضح، دون أن يكون هناك ناسخ ومنسوخ، ودون أن ينزل جزء من الآية لوحده، أو يجثو أصحاب الرسول محتجين.

ولعل الناسخ والمنسوخ من أشد المعاول ضراوة في تخريب الدين من الداخل، وكمثال يؤكد ما نقول، سيجد القارئ للقرآن أن هناك عشرات الآيات التي تؤكد أن الدين خيار شخصي، ولا إكراه فيه. وأن الإسلام جاء لبناء دولة يتعايش فيها المسلم وغيره المسالم، تعايشاً إنسانياً بناءً. مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴿١٢٥﴾ النحل.

وقوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾ البقرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴿٢٠﴾ آل عمرآن.

وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴿٨٠﴾. وغيرها عشرات الآيات المنتشرة في كتاب الله.

وهناك آيات تؤكد أن الجهاد يعني الدفاع عن النفس، وليس البدء بمحاربة الناس، وأنه موجه لمن يبدأ الحرب ضد الإسلام، ولا وجود للسبي ولا استرقاق الناس، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴿١٩٣﴾ البقرة. (لاحظ أن الآيات تتحدث عن قريش التي استمرت في الحرب على الدين، بهدف القضاء عليه. ومع ذلك يقول تعالى فإن انتهوا فلا عدوان).

كل هذه الآيات تم مسخها وإلغائها بجرة قلم ممن وضعوا النسخ، قائلين أن الله قد غير رأيه وأنزل آيتين نسختا كل ما سبق، وهما: . . . . ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾.

وآية أخرى تقول: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴿٢٩﴾.

وكلا الآيتان من سورة براءة، ولا علاقة لهما بنسخ وناسخ، ولكنها تتحدث عن قريش ومن عاونها على حرب المسلمين، وليست عامة لكل الناس. لكن النسخ، ومعه التفسير، جاءا ليصورا الإسلام، كدين دموي، يهاجم الناس ويرغمهم على القبول بإحدى ثلاث أحلاهما علقم، فمن لا يقبل بالإسلام عليه دفع جزية، ومن لا يدفع فنساؤه حل لرجال المسلمين، ورجاله عبيد لهم، وأرضه ملكهم. وقد صبغ تاريخ الإسلام بهذه الصبغة لدرجة يصعب التصديق أن الإسلام دين للتسامح، وأن القرآن يخلو من كل هذه الأمور. ولازمت هذه الصورة حروب المسلمين، لدرجة أصبحت عنواناً لما سمي بالفتوح (كما يذكر التاريخ).

والناسخ والمنسوخ يحوي المضحك المبكي: فهم يقولون إن هناك آيات نزلت أولاً لتنسخ آيات ستنزل فيما بعد!

وهذا مثال على ذلك: ورد في سورة النساء المدنية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴿٩٣﴾.

والناسخون يقولون إن آية من سورة الفرقان نزلت بمكة نسخت آية النساء السابقة، وهذا نصها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴿٦٨﴾الفرقان.

وأعجب من ذلك قولهم في الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴿١٩٩﴾ الأعراف.

أن أولها «خذ العفو» منسوخ، ووسطها «وأمر بالمعروف» ليس منسوخ، وآخرها «وأعرض عن الجاهلين» منسوخ.

تصوروا لو صدقناهم، لوجب علينا أن نقرأ خذ العفو، ونعلم أنها تعني لا

تأخذ العفو، ونقرأ وأعرض عن الجاهلين، ونفهم وقاتل الجاهلين. (أعوذ بالله).

وللمزيد من العجب، أنظر الناسخ والمنسوخ لابن حزم، أو السيوطي، أو البغدادي، أو أي كتاب ناسخ ومنسوخ آخر، لا فرق.

ويكون ما سمي بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ عبارة عن معاول لهدم الدين وتفريغ الآيات من معانيها، وإلغاء السياق والترابط بين الآيات، بعد أن عجزوا عن العبث بكلام الله، وبقي القرآن كما نزل. لكن عدم التمكن من العبث بحروف القرآن لم يمنع من العبث بمعانيه، وتأويلها لغير ما أنزل الله. فبقيت الحروف، وتم التلاعب بالمعاني، باستخدام وسائل ظاهرها يدل على الحق (تفسير، فقه، حديث...)، وباطنها يعمل على ترسيخ عقائد مخالفة ومعارضة لما أنزل الله في كتابه، أو بعبارة أخرى، معاول هدامة تعمل على تخريب دين الله من الداخل.

وما قاموا به فتح الباب على مصراعيه لمن يرغب في مهاجمة الإسلام، حيث يجد تربة خصبة هيأها له سلف ما يسمى بعلوم الدين.

فالمفسرون يقولون على لسان سعيد بن جبير أنه عندما قرأ النبي ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴿٢٠﴾، ألقى الشيطان على لسان الرسول فنطق: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى». فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: إنه لم يذكر آلهتهم قبل اليوم بخير، فسجد المشركون معه، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴿٥٥﴾ الحج.

ولو صدقنا ما سبق فالرسول كان يهذي بما يسوس به الشيطان له ويقول للناس هو من عند الله.

وسورة النجم نزلت في السنوات الأولى للبعثة في مكة، بينما نزلت الحج بعدها بسنوات. لكن لأنهم قطعوا أوصال الآيات استباحوا لأنفسهم أن يختلقوا ما يشاءون من القصص حول نزول آية في سورة النجم، ووصلها بآيات سورة الحج، لكي يقولوا أن القرآن يحتوي على نصوص مصدرها الشيطان وليس الله.

وإلا فسورة النجم تبدأ بالتأكيد على أن الوحي الذي يتلوه الرسول على قريش حق، ومصدره الله، ونزل به على قلبه أحد الملائكة الذي سبق للرسول رؤيته مرتين، وأن رؤيته للملك حقيقة وليس خيال أو تهيؤات:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴿١١﴾.

ثم تسأل الآيات قريشاً: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴿١٢﴾؟

والمماراة هي الرهان: تقول لأحدهم: أماريك بعشرة دراهم إن أنت استطعت قراءة خطي.

وتكمل الآيات قائلة إن الرسول رأى الملك مرة أخرى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴿١٨﴾.

ثم تقول الآيات لقريش: إذا كان الرسول قد رأى الملك الذي يمده بالوحي من الله، فما الذي رأيتموه أنتم غير أصنامكم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴿٢٠﴾.

وهذا تجريح وسخرية بالأصنام وليس مديح لها. ثم تتواصل آيات السورة، دون أن يكون هناك مكان لخزعبلات المفسرين وقصصهم.

وقالوا عن تفسير قوله تعالى «فصل لربك وانحر» وعلى لسان سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الآية، يوم الحديبية، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: انحر وارجع، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطب خطبة الفطر والنحر، ثم ركع ركعتين، ثم انصرف إلى البُدن فنحرها، فذلك حين يقول: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ.

وبطبيعة الحال الحديبية التي تذكرها كتب التاريخ وقعت ـ كما يقولون ـ في السنة السابعة للهجرة، أما سورة المسد فنزلت في مكة وقبل الهجرة. لكن يبدو أن ابن جبير، أو من تقول عليه، علاقته ضعيفة بالقرآن، مثل بقية المفسرين، الذين جعلوا كلمة «ويل» واد في جهنم، مع أنها لفظ دال على الوعيد، وجعلوا الفلق جب مغطى في وادي ويل الجهنمي.

وما دمنا حول معاني الكلمات فلنذكر أن سلف اللغويين حكموا على ألفاظ في كتاب الله على أنها ليست عربية، ومن ذلك:

في سورة الفرقان ورد لفظ «أثاماً»: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾الفرقان٦٨ .

وبادر كل واحد منهم بعرض تصوراته عما عساه يكون معناها. فقال بعضهم هي واد في جهنم، مثلما قالوا عن كلمة «ويل». مع أنها تصريف من إثم، ولو خالف قواعد الصرف التي وضعت بعد القرآن بقرون.

ومنها لفظ العروة الوثقى الذي يدلنا السياق على أنها تعني الطريق المستقيم، نجدهم اختلفوا فيها أكثر من معنى أي لفظ آخر، لكن أظرفها كان قولهم إنها حلقة معدنية. وقد اختلقوا حديثاً لذلك رواه البخاري ومسلم، ولولا أنه طويل لوضعته هنا.

وكلمات كثيرة جدا، قالوا إنها كلمات أعجمية وليست عربية، مثل سندس، استبرق، سجيل............الخ

بل إن لفظة «القرآن» جعلوها آرامية أو سريانية.

وأظهروا أن كلام الله قد رسب في مادة النحو والصرف والإعراب واللغة العربية، وفيما يلي أمثلة من أقوالهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٩﴾المائدة.

الصابئون مرفوعة، وهو مخالف لقواعد النحو، التي تقول أنه يجب أن تكون منصوبة بالياء والنون، كونها معطوفة على اسم إن.

كما في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿١٧﴾الحج.

ومثله: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ طه٦٣

والصواب حسب قواعد النحو والصرف أن يقال: «إن هذين».

ويورد السجستاني في كتاب المصاحف أن أم المؤمنين عائشة سئلت عن هذا الخطأ فقالت: «هذا من عمل الكتاب، أخطأوا في الكتابة».

وكأن المصاحف لم تنسخ إلا بعد أن كتب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ للهجرة قواعده.

وسموا رسول الله «طه» لأن السورة بدأت هكذا: ﴿طه﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴿٥﴾.

وبنفس المنطق سموا رسول الله «ياسين» لأن السورة بدأت هكذا:

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

مع أن طه ويس حروف افتتاحية للسور مثل حم، وطس. . . الخ.

وللقرآن أسلوب فريد، لا يشابه أسلوباً آخر، لكن السلف بعلوم دينهم أخضعوا القرآن للأساليب البشرية، فضاعت معاني الآيات، وفيما يلي أمثلة على ما نقول:

يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ق.

القرآن هنا يتحدث بصيغة ما كان، لما سيكون، لأن الرسول مات قبل أن يستمع للمنادي، الذي لن ينادي إلا يوم القيامة. لكن السياق، يجعلنا نفهم أن «استمع يوم ينادي المنادي» استعارة تعني طلب الانتظار. وإن خالف القياس اللغوي الذي وضعه البشر لبناء الجمل.

ومثله: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾النجم

والآزفة القيامة التي لم تحل بعد، ومع ذلك قال أزفت أي حلت. لكن السياق يجعلنا نفهم أن الوعيد فيما سيكون ولم يكن بعد.

ومثله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾القمر

ولم تقترب الساعة ولم ينشق القمر، إلا عند المفسرين والمحدثين قياساً على قواعد اللغة. أما السياق فيقول أن الحديث عما سيكون. أي عندما تقع الساعة وينشق القمر.

ومثله: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يس

يوم القيامة لم يأت بعد ومع ذلك فالآية تقول «أدخل الجنة»

ويتحدث القرآن عما سيكون بصيغة ما كان، كما في الحديث الذي دار بين إبراهيم وضيفيه في سورة الذاريات: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴿٣٧﴾.

وفي القرآن يبدأ الحديث عن موضوع جديد باستخدام واو العطف، وكأنه استمرار لحديث سابق:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴿٣٢﴾ ص

والقرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴿١١﴾محمد

فهل ستصحح هذه الفقرة لأنها خالفت طريقة التعبير عند البشر، لتكون بهذا الشكل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴿٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴿١٠﴾.

ولو كتب أحدنا لآخر، الرجاء سؤال جدك متى مات؟

فإن هذه العبارة ليست مقبولة لأن الميت لا يمكن سؤاله، لكن القرآن يقول:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴿٤٥﴾ الزخرف

مع أن كل الرسل ماتوا قبل محمد ولا يستطيع سؤالهم. لكن السياق يعيننا على فهم المعنى المقصود.

والقرآن يقول: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴿٦﴾القلم

فهل نوافق قواعد النحاة على أن في كلام الله حروف زائدة لا لزوم لها، كحرف الباء في «بأيكم».

وما قدمناه كافٍ لإثبات أن كل ما يسمى بعلوم الدين، معاول لهدم الدين من الداخل بعد أن يئسوا من تحريف القرآن. فكيف نستطيع أن نصدق أن ترتيبهم للسور حسب النزول، كما يزعمون، صحيح. خاصة أن التمعن في ذلك الترتيب يظهر كم هو عشوائي لا يعتمد على أسس واضحة، لذا جاءت سور الرحمن والزلزلة والرعد والإنسان ونصف سورة الماعون مدنية عندهم، إضافة لتقطيع أوصال سور كثيرة بتفريق آيات السورة الواحدة على مكة والمدينة.

ثم كيف يكون لهم ترتيب للسور وهو ما يتعارض مع قولهم أن القرآن ينزل آية آية؟

أليس الأولى بهم ترتيب القرآن آية آية حسب النزول، كما يزعمون؟

ولو أنهم آمنوا بنزول القرآن سورة سورة وتناولوه بهذا المعنى فسيجدون أنه لن يكون هناك مجال لناسخ ومنسوخ ولا أسباب مختلفة للنزول، لأن السورة تنزل لتتناول ما وقع من أحداث وليس عما سيقع، أو عن افتراضات لن تقع.

المنهج المتبع
والخطوات العملية لترتيب السور

التعرف على ترتيب السور حسب النزول يحتاج لممارسة من نوع خاص، يمكن لأي شخص القيام بها، متى استطاع الوصول إلى درجة مقبولة من التجرد في قراءة القرآن. ودرجة القبول هذه يمكن قياسها بمدى القدرة على التسلح بنقاط أساسية عند القراءة، أهمها:

* تناول السور على أن كل سورة تنزل كاملة في وقت واحد، وليس آية آية، أو جزء من آية. ذلك أن السورة عبارة عن رسالة إلهية تنزل على الناس لتتفاعل مع ما يجري فترة نزولها. فإن كان هناك أحداث ومواضيع كثيرة طالت الرسالة، وإن قلت الأحداث قصرت الرسالة.

ولو نزلت آية أو آيتين لوحدها لأصبحت سورة، لذا وجد في القرآن سور قصار، بثلاث آيات فقط، وسور أطول بعشر أو عشرين آية، وسور متوسطة الطول، بخمسين وستين آية، وسور طوال تصل أطولها ـ البقرة ـ إلى ٢٨٦ آية.

والقول بأن القرآن ينزل على شكل الآية والآيتين وجزء من الآية، قول لا يمكن لنا أن نحسن الظن به، لأنه يسهل تقطيع أوصال الآيات ويلغي السياق، ويفرغ كلام الله من معانيه، ويبعد القارئ عن فهمه كما نزل، فهو يقضي على تلاحم الآيات وسياقها وربطها بالواقع والمحيط والظروف التي نزلت فيها، الذي نتعرف عليه من معرفة المرحلة التي نزلت فيها السورة.

لكن هناك استثناء واحد وحيد في كل القرآن، حيث نزلت آية واحدة في العهد المدني وألحقت بسورة نزلت في أوائل الفترة المكية، وهذا الاستثناء له سبب وجيه فريد من نوعه.

فقد نزل على الرسول سورة المزمل في مكة لتهيئته ليكون مستعداً لإنذار قريش، وهي مسؤولية صعبة وسيصحبها متاعب جمة، تحتاج أن يكون المكلف بها مستعداً لها نفسياً بدرجة تفوق الاستعداد البشري العادي، فنزلت السورة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴿١٠﴾.

وتواصل السورة إلى أن تقف عند نهاية الآية التي تقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴿١٩﴾.

وكل ما ورد في الآيات العشر الأولى من السورة، هو تعليمات خاصة بالرسول وحده دون المسلمين. فهو من يجب عليه أن يقوم جزء من الليل، ليقرأ القرآن ويتفكر بالرحمن الذي أرسله. لأن هذا سيعينه نفسياً على تحمل أعباء الدعوة، التي تتضمن قولاً لن يتقبله الناس «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا». وسينتج عن عدم قبولهم لما يقال، متاعب للرسول.

وعليه أن يكون مستعداً في أيام قادمة، أن يقضي كل النهار في الدعوة، ويكون قادراً على تحمل ما سوف يواجهه من متاعب نفسية وبدنية.

هذا التأهيل النفسي ضروري للرسول، قبل بداية الدعوة، وقد واظب عليه الرسول لعدة أشهر قبل أن تنزل عليه سورة المدثر التي تعلن بدء الدعوة الحقيقي: «يا أيها المدثر قم فأنذر».

لكن بعدما هاجر للمدينة وتأسست للإسلام دولة، لم يعد الرسول يواجه مشاكل نفسية ولا بدنية من المعارضين، لأن دولة الإسلام أصبح لها شوكة، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٠﴾﴾.

والآية تقول: لم تعد يا محمد بحاجة لقيام الليل، ومن حذا حذوك من المسلمين، ولو لم يكن واجباً عليهم، ولا مطلوباً منهم. فلا قيام ليل بعد الآن لتلاوة القرآن، الذي يمكنك أن تتلوا منه ما تشاء ساعة تشاء. وقيام الليل الذي كان لتهيئتك نفسياً في بداية الدعوة، أصبح الآن يعيقك ومن قلدك عن طلب المصالح الدنيوية والإنتاج في النهار، وسيكون مرهقاً للمرضى ولكل من له مساع أخرى، وفوق هذا فأنت يا محمد والمسلمون مقبلون على حرب مع الأعداء، وستدخلون معهم في معارك متواصلة، وهو ما يجعلكم بحاجة للنوم الكافي في الليل. فكما أنه في بداية الدعوة، كان محمد بحاجة للخضوع لبرنامج تأهيلي نفسي، يؤهله لتحمل أعباء الدعوة، والمتمثل بالسهر للتأمل والتلاوة، فإن الحاجة الآن تفرض عليه ألا يسهر وأن ينام بما يكفي ليكون قادراً على ما ينتظره طوال ساعات النهار. وكما أن السهر كان مطلوباً للحاجة وليس كعبادة، فإن إلغائه كان للحاجة التي أوجدها تغير الظروف. وبالتالي فليس هناك عبادات فرضت على محمد، وألغيت أو بدلت. ولكنها ضرورات واحتياجات تغيرت حسب الحاجة لها والتي أوجبتها الظروف المحيطة.

وتكون سورة المزمل رسالة إلهية كأي سورة أخرى، لكن الموضوع الذي

تحدثت عنه في العشر آيات الأولى احتاج لرسالة إلحاقية، فنزلت الآية ٢٠ كخطاب إلحاقي، كما يحدث في المخاطبات الرسمية أحياناً.

وهذا هو الاستثناء الوحيد في القرآن، الذي نزلت آية واحدة لوحدها، ولسبب من نوع خاص. وما عدا ذلك فهناك ١١٤ رسالة نزلت على الرسول في ١١٤ يوم مختلف على مدى فترة دعوته. نزل منها في مكة ٨٩ رسالة، وفي المدينة ٢٥.

ونزول السورة كاملًا يقطع الطريق على من يريد الاستشهاد بجزء من آية أو آية على عقيدة مبتدعة، ويجعلنا قادرين على قراءة الأحداث التي كانت جارية، أو الاستدلال على الأوضاع السائدة أثناء نزولها. ولا يصبح من الممكن أن يستدل بآية خارج سياق الآيات الأخرى في السورة كلها.

* القرآن ليس كالتوارة، ولا يجب أن يؤخذ وكأنه مثلها. ذلك أن التوراة نزلت دفعة واحدة على موسى وأمر بكتابتها على الألواح، لأنها كتاب تشريع فقط، وليس لها علاقة بما يحدث في الحياة العامة لبني إسرائيل عند نزولها. أما القرآن فهو رسائل تتفاعل مع تفاصيل الحياة اليومية في الفترة التي تنزل فيها كل سورة. لذا نزل مرتلًا على مدى سنوات الدعوة، التي يقول المؤرخون أنها بلغت قرابة ربع قرن.

والسورة تنزل لتتحدث عما يجري في الفترة التي نزلت فيها، وتقدم حلولًا للمشاكل القائمة، وتنهى عن أفعال قام بها الناس قبل نزولها، وتعطي الأوامر والإرشادات لما يجب فعله حيال موقف معين. ويمكن ملاحظة أن هناك أكثر من سبعين سورة من أصل ٨٩ سورة مكية، تخلو من أي تشريع. ولم تبدأ السور بفرض التشريعات إلا في أواخر العصر المكي ـ فيما عدا الصلاة والإنفاق والغش التجاري ـ ثم في المدينة بعدما أصبح للمسلمين دولة تحتاج لدستور وقوانين. وحتى بعد بدء نزول التشريعات استمرت السور بالتفاعل مع ما يجري من أحداث عند نزولها، واستمرت السور تشكل سجلًا يعكس ما

يجري في الفترة التي نزلت فيها. وإن كانت أكثر السور المكية لا تتحدث عن أي واقعة أو حدث، فإن هذا يعني أنه لم تقع أحداث خلال الفترة التي نزلت فيها هذه السور.

ويرد في القرآن قصص عن أحداث قديمة، وهي إما قصص عن الأمم السابقة وما حدث لهم، والخطاب في هذه السور موجه لقريش، بهدف أخذ العبرة والعظة مما حدث لتلك الأمم، نتيجة استمرارهم في الكفر، لئلا يحل بقريش الهلاك كما أهلكت تلك الأمم. أو يكون الخطاب موجه لبني إسرائيل والقصص يكون عن تاريخهم أو عن أشخاص منهم أو يعرفونهم من الأزمنة الغابرة، والهدف من هذه القصص إثبات صدق رسالة محمد، كونه لو لم يكن رسولاً لله وينزل عليه الوحي بمثل هذه القصص فليس هناك إمكانية من أن يعرف عنها شيئاً.

فسور القرآن تعتبر سجلاً للأحداث في الفترة التي نزلت فيها، ويجب أن تؤخذ على هذا الأساس. ولا تتحدث عن المستقبل، أو تفترض مواقف لم تحدث. وهذا لا ينفي أن كل تشريعات القرآن وإن فرضت بسبب حادثة أو موقف معين وقت الرسول، فهي تطبق على كل المسلمين في كل العصور.

* اعتبار القرآن كتاب تقع عليه العين للمرة الأولى، ولا علاقة له بكل ما نعرف أو علق في أذهاننا مما يسمى بالعلوم الدينية، كالفقه والحديث والتفسير والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، وقصص الأنبياء والسير وغيرها.

وفي البداية لن يكون تجاهل تلك العلوم الموروثة سهلًا، وسنجد أنفسنا نقرأ القرآن بألسنتنا، بينما أذهاننا تفهمه بالمعنى الموروث. لكن مع تكرار المحاولات والحرص على الاستمرار، سيبدأ الموروث يتوارى، ببطء، وبدرجات متفاوتة حسب القدرة على التخلص منه، والتي تختلف من شخص لآخر. وبناءً على إمكانية ترويض النفس على قراءة متجردة، إضافة لعوامل مساعدة أخرى، سنتعرف عليها في الأسطر التالية، يستطيع المرء أن يرى

ويفرق بين السور المكية والمدنية، في البداية، ثم بين سورة نزلت في أول البعثة وسورة أخرى نزلت في أواخر العصر المكي. ثم تتسع الدائرة، بحيث يتمكن من رؤية التشابه بين سورة وسور أخرى، أو الفروق التفصيلية بين سورة وأخرى، إلى أن يتمكن من الوصول لتقسيم السور لمجموعات يمكن الجزم أنها نزلت في فترة واحدة، وعندها يمكن التعرف على أي سورة نزلت قبل الأخرى في المجموعة الواحدة بالتمعن في المواضيع التي تتحدث عنها كل سورة. وكلما روضنا النفس على التجرد كلما توصلنا لرؤى جديدة أكثر وضوحاً.

* التسلسل المنطقي للمواضيع والأحداث، إذا كانت السور تنزل سورة سورة، فلا بد من التعرف على تسلسل المواضيع بشكل منطقي، للوصول لترتيب السور حسب النزول، وهذا يعني أن: يبدأ الوحي بالسور التي تُعرِّف الرسول والمرسل إليه، بالمرسل. وأن تكون أول الرسائل التي يتلقاها الرسول مناسبة تماماً للبدء. فليس من المتوقع أن يبدأ الوحي بسورة فيها وعد أو وعيد، أو تشرع بتناول الأحداث الجارية وتعالجها، أو تفرض تشريعات وتوجب عقوبات وحدود. ولا تكون السور التي تتحدث عن بدايات الدعوة تسبق السور التي تتحدث عن الهجرة. أو تسبق سورة تتحدث عن تعذيب قريش للمسلمين، سورة أخرى تتحدث عن بداية الدعوة، أو تسبق سورة مدنية سورة مكية.

وبالنسبة لتسلسل الأحداث، فلابد أن يكون هناك ملامح مشتركة بين السور التي نزلت في فترة زمنية واحدة. مثل أن تكون السور تتحدث عن فرض القتال والحث عليه، مما يشير إلى أنها نزلت في المدينة. فإن كان الحديث سابق لذكر أي معركة، فتكون السورة قد نزلت في بداية العصر المدني وقبل غزوة بدر، مثل سور الممتحنة والبقرة ومحمد والصف. . . . . . وهكذا.

ومن المهم جداً أن نتذكر أن السورة تنزل لتتحدث عما يدور وقت نزولها،

وهذا العامل يساعد في التعرف على الترتيب لأن السور التي تتناول نفس المواضيع ونفس الأحداث تكون قد نزلت في فترة واحدة. والسور القرآنية لا تتنبأ بأحداث ستقع، ولا تتحدث عن افتراضات وفرضيات، ولا عن أشخاص سيأتون، أو مذاهب ستنشأ، لذا من المهم التعرف على المرحلة التي نزلت فيها السورة لفهم الآيات. وما تتحدث عنه السورة من أحداث يعتبر عاملاً هاماً في تحديد موقع السورة من السور الأخرى حسب ترتيب نزولها. وهذا سنجده جلياً في السور المدنية، ولكنه ليس كذلك في السور المكية.

* سنة الأولين، ونقصد بها تلك العادة التي اعتادها الناس على الدوام في مواقفهم من الدعوة الدينية، والتي تسير على وتيرة واحدة دون تغيير، بغض النظر عن المكان أو الزمان أو طبيعة الدعوة. وموقف الناس من دعوة الرسل ـ والذي سبق وتحدثنا عنه بالتفصيل في كتاب سنة الأولين ـ يمر بأربع مراحل، لكل مرحلة موقف مختلف عن مواقف الناس من المراحل الأخرى. وقد ظهرت ملامح المرحلتين الأولى والثانية جلية في السور المكية، كما يلي:

١ . بدء الدعوة، واستقبال الناس لها يكون باللامبالاة، لأنهم لا يتصورون أنها ستستمر. لذا فالسور الأولى لبدء الدعوة لا تحتوي على أي ردة فعل لقريش ولم تقع أحداث بسببها. وسور هذه المرحلة عبارة عن سور تعرف محمد بمن أرسله، وتذكر قريش بنعم الله عليهم، وانه لا معبود مستعان غير الله.

٢ . استمرار الدعوة. وهنا تظهر ردة الفعل القوية من الغالبية العظمى من قريش، التي ترفض الدعوة رفضاً باتاً، بقيادة السادة والكبراء، مقابل قلة تقبل بها. وملامح سور هذه المرحلة ستكون عبارة عن وعد ووعيد، وتأكيد على البعث الذي تنكره قريش مع صور حسية لانهيار الكون ونشأة كون القيامة حيث البعث والحساب.

أما أهم ثلاثة عوامل في منهجنا لترتيب السور فهي: المخاطب، نوع الخطاب، والملامح:

المخاطب

وعندما نقول المخاطب فالمقصود هو المخاطب المعني وليس المخاطب المباشر. والمخاطب المعني هو المراد توصيل رسالة السورة إليه. أما المخاطب المباشر، فهو من تخاطبه الآيات مباشرة. وفيما يلي سنورد سورة الكافرون كمثال على ذلك: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴿٦﴾.

فالمخاطب المباشر في «قل» هو محمد، بحكم كونه الرسول، أما المخاطب المعني في السورة فهو قريش. وفي بعض الآيات يكون المخاطب المعني هو نفسه المخاطب المباشر.

وقد أمكن تبين عدد من المخاطب المعني في السور المكية، وأهمها: محمد، قريش، بني إسرائيل، المستضعفين، وكل الناس. مع ملاحظة أنه لكل مخاطب، هناك أنواع مختلفة من الخطاب.

والمخاطب المعني في مكة كان قريش، عموماً، في بداية الدعوة، لكنه تحول بعد أن أعلن الكبراء إصرارهم على الكفر. فبدأت الآيات تخاطب كل الناس، والمستضعفين، وبني إسرائيل بجانب قريش. وفي المدينة، كان المخاطب أهل يثرب، عموماً، من أعلن إسلامه، المؤمن منهم والمنافق، واليهود والنصارى والأعراب حول المدينة، إضافة لاستمرار مخاطبة قريش. والمقصود بقريش، الكبراء منهم. أما العبيد والموالي في مكة فتطلق عليهم الآيات لفظ المستضعفين.

نوع الخطاب

إذا كانت الآيات تعطي صوراً حسية ليوم القيامة والبعث والحساب والجنة والنار، أو تدعو الناس للتفكير بالمخلوقات للدلالة على وجود البعث، فهي

مكية في المعتاد. وإذا كانت تذكر الرسول باسمه محمد أو تؤكد أنه رسول لله فهي مدنية. هذا بوجه عام، وهناك تفاصيل كثيرة.

الملامح

ونقصد بالملامح هي تلك المواضيع التي تتكرر في سور مرحلة من المراحل بحيث تميزها عن سور المراحل الأخرى. وسنجد أن ملامح السور في أي مرحلة تتناسب مع الرسالة التي تريد السور إيصاله للمخاطب في تلك المرحلة. فقريش الذين لا يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت، تخاطبهم السور في المرحلة الرابعة بتقديم الصور الحسية لما في الجنة من نعيم وما في النار من جحيم لزيادة التأثير والإقناع بأن البعث سيقع، كما في السور التالية: الواقعة: ١٢ ـ ٤٤، ٥١ ـ ٥٦، ٩٠ ـ ٩٤، الغاشية: ١ ـ ١٦، المرسلات: ٢٨ ـ ٥٠، الحاقة: ١٩ ـ ٣٢، عبس: ٣٨ ـ ٤٢، الرحمن: ٤٣ ـ ٧٨، المطففين: ١٩ ـ ٢٨، يس: ٥٤ ـ ٥٨، الإنسان: ٤، ١٢ ـ ٢٢، الطور: ٢٠ ـ ٢٨.

وتقديم صوراً حسية لانهيار هذا الكون ونشأة كون جديد للقيامة، لتقول لقريش أن البعث لن يكون في هذه الدنيا، ولكنه سيكون في كون آخر سيخلقه الله بعد انهيار وتلاشي هذا الكون، كما ورد في السور التالية: القارعة: ٤ ـ ٥، الزلزلة: ١ ـ ٥، الانفطار: ١ ـ ٥، الانشقاق: ١ ـ ٥، التكوير: ١ ـ ١٤، الواقعة: ١ ـ ٦، ٤٦ ـ ٤٧، الفجر: ٢١، القيامة: ٧ ـ ١٣، المرسلات: ٨ ـ ١٣، الحاقة: ١٣ ـ ١٨، النبأ: ١٨ ـ ٢٠، يس: ٥١ ـ ٥٣ (الصور)، الطور: ٩ ـ ١٠، الرحمن: ٣٧ ـ ٣٨، ق: ٢٠(الصور).

وملامح أخرى مثل الحديث عن أن الأعمال تسجل وبناء على صحيفة الأعمال سيكون الحساب.

ولأن المرحلة الخامسة تغير فيها المخاطب من قريش فقط في المراحل

السابقة، إلى بني إسرائيل، والمستضعفين في مكة، وكل الناس، بجانب قريش، نجد أن من أهم ملامح هذه المرحلة الحديث عن بني إسرائيل وقصصاً من تاريخهم، لتؤكد لهم أن محمداً رسول لله، وإلا ما علم عن هذه القصص شيئاً.

وتقديم صور حسية عن الضعفاء الذين دخلوا النار وكيف أنهم يتخاصموا مع ساداتهم فيها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٣٣﴾ سبأ.

وهي صور حسية لما سيكون، لعل المستضعفين يؤمنوا وينقذوا أنفسهم.

ومن الملامح التي بدأت في هذه المرحلة دعوة كل الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴿٥﴾ فاطر.

وسنجد من أهم ملامح المرحلة السادسة، دفع الظلم، حيث أباحت السور للمسلمين الذين بدأوا يتعرضون للأذى الجسدي من قريش، بدفع الظلم عن طريق معاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى به.

وأهم ملامح المرحلة السابعة والأخيرة في مكة كان الحديث عن الهجرة، وعن التعذيب الجسدي الذي يتعرض له المسلمون على أيدي قريش.

تصنيف السور المكية إلى مراحل

في البداية تعرفنا على السور المدنية لأن الوقائع التي تتحدث عنها واضحة، وكنا سنقدم للقراء تصنيف السور المدنية أولًا، ثم نقدم تصنيف السور المكية، لتتوافق مع ما قمنا به فعلياً. لكننا قررنا تقديم تصنيف السور المكية أولًا، مراعاة لبعض القراء الذين يفقدون تركيزهم بسرعة، ويصعب عليهم متابعة الموضوع، ما لم نبدأ بما يتوافق مع الواقع التاريخي المنطبع في أذهانهم.

ولأننا قد تأكدنا أولًا أن عدد السور المدنية كان ٢٥ سورة، فإن ما بقي من إجمالي سور القرآن البالغ عددها ١١٤ سورة، سيكون مكي. ولا يخفى أن تصنيف ٨٩ سورة مكية إلى مراحل، وترتيبها حسب النزول ليس بالأمر الهين، لأن التصنيف والترتيب يقوم على الأحداث التي تتكلم عنها كل سورة ومقارنتها بالأحداث التي ذكرت في سور أخرى. وهذا قد يكون متيسراً في السور المدنية، أما السور المكية فلا وجود لأحداث خاصة بكل سورة. ومن المعتاد أن تنزل العديد من السور دون ذكر لواقعة واحدة، خاصة في النصف الأول من الدعوة في مكة. وكمثال على ذلك نورد أسماء ١٧ سورة، نزلت متتابعة في فترة واحدة، كلها تخلوا من ذكر حدث واحد، والسور هي: القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين.

لأن هذه المرحلة التي نزلت فيها هذه السور كانت مرحلة استمرار الدعوة،

حيث كانت قريش قد أعلنت كفرها، ولن تتراجع عنه. فكانت السور تنزل لتؤكد لهم أن هناك بعث وحساب، دون أن تجد من قريش آذان صاغية، دون أن يصاحب كفر قريش اي أذى جسدي، لمحمد ومن قد آمن معه. لذا سيلاحظ القراء أن عدداً من سور هذه المرحلة تبدو وكأنها سورة واحدة، تتكرر بعبارات مختلفة، مع بعض الإضافات. وكمثال هذا جدول لبعض السور ومواضيعها:

السورة	صور حسية لانهيار الكون	صحيفة الأعمال	تأكيد البعث	وعد	وعيد
القارعة «١١»	٤ ـ ٥	٦ ـ ١١	كل السورة	٦ ـ ٧	٨ ـ ١١
الزلزلة «٨»	١ ـ ٥	٦ ـ ٨	كل السورة	٧	٨

السورة	صور حسية لانهيار الكون	دعوة للتفكير	صحيفة الأعمال	وعد	وعيد	تأكيد البعث
الانفطار «١٩»	١ ـ ٥	٦ ـ ٨	٩ ـ ١٢	١٣	١٤ ـ ١٦	١٧ ـ ١٩
الانشقاق «٢٥»	١ ـ ٥	٦	٧ ـ ١٢	١٣-١٤،٢٤	٢٥	١٥ ـ ١٩

ولن نخوض في تفاصيل ما مررنا به حتى توصلنا لتصنيف السور على مراحل الدعوة في مكة، لأنها طويلة وقد تبدو معقدة، خاصة لمن يفقد التركيز بسهولة. لكن من المهم أن يطلع القراء على الخلاصة، بشكل مختصر، كما يلي:

١. في البداية أمكن تحديد ٢٧ سورة، المخاطب المعني بالدعوة فيها محصوراً بقريش فقط. ونوع الخطاب دعوة للإيمان بالبعث، وتصديق محمد، وهي كما يلي:

القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المرسلات، الإنسان، الملك، يس، الرحمن، المطففين، النجم، ن والقلم، الطور، نوح، القمر.

إضافة لسورة الجن التي تتحدث آياتها العشرين الأولى عن حادثة استماع الجن لمحمد وهو يتلو القرآن على قريش. وبقية السورة دعوة لقريش بالإيمان، فهي من نفس فترة السور السابقة.

ومثلها سورة عبس التي تروي ما وقع بين محمد والمسلم الأعمى في الآيات العشر، قبل أن تعود لدعوة قريش في بقية آياتها.

وقريب من السورتين السابقتين، سورة الهمزة، التي تتوعد أحد كبراء قريش في الآيات الأربع الأولى، قبل أن تعود بقية الآيات لمخاطبة عموم قريش: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴿٩﴾.

وهناك سور الفلق، الناس، والقدر. وهي سور نزلت لتجيب على تساؤلات قريش عمن يستعاذ به ومتى بدأ نزول الوحي، فهي أيضاً سور من نفس الفترة.

والضحى والشرح سورتان المخاطب المعني فيهما هو محمد، لكنهما تعكسان الوضع السائد، الذي يُظهر أن قريشاً قد آذته بالسخرية، فنزلت السور تشد من عضده بتذكيره بنعم الله عليه وتؤكد له أن الله معه. فهي من نفس فترة سورة الطور، التي تقول: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴿٤٨﴾. وسورة القلم: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

عَظِيمٍ﴿٤﴾ وفي مكان من نفس السورة: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴿٤٨﴾.

ليكون المجموع الكلي للسور التي تخاطب قريش لوحدها ٣٥ سورة.

٢. تم تحديد ٤٣ سورة المخاطب المعني فيها، المستضعفين الذين يتبعون الكبراء، وبني إسرائيل، وكل الناس، بجانب قريش، كما يلي:

* هناك ١٢ سورة يكون المخاطب المعني في بعض آياتها، كل الناس، بجانب مخاطبة قريش في آيات أخرى، وهي: فاطر: ٣،٥،١٥ ـ ١٧، الزمر: ٢٧، ٤١، سبأ: ٢٨، لقمان: ٣٣، الحج: ١، ٥، الشورى: ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴿٧﴾، بني إسرائيل: ١٠٥ ـ ١٠٦، إبراهيم: ١، ٤٤، ٥٢، يونس: ٥٧، ١٠٤، ١٠٨، الأعراف: ١٥٨، الأنبياء: ١ ـ ٢، والأنعام: ١٩.

٣. وحددت ٢٤ سورة المخاطب المعني في بعض آياتها، بني إسرائيل، بجانب قريش في آيات أخرى، وهي: ص: ١٧ ـ ٢٦، ٣٠ ـ ٤٩، الصافات: ٨٣ ـ ١٤٨، النازعات: ١٥ ـ ٢٦، الذاريات: ٢٤ ـ ٣٧ الأحقاف: ١٢ (مديح لكتاب موسى)، ١٠ (إسرائيلي أسلم)، الجاثية: ١٦ ـ ١٧، فصلت: ٤٥ (معاندة بني إسرائيل لدعوة موسى)، الدخان: ١٧ ـ ٣٣، مريم: ٢ ـ ٣٥، ٤١ ـ ٥٧، الكهف: ٦٠ ـ ٨٢ (موسى والفتى)، ٩ ـ ٢٦ (أصحاب الكهف)، ٨٣ ـ ٩٩ (ذو القرنين)، الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨، ٤٦ ـ ٥٦، ٦٣ ـ ٦٥، غافر: ٥٣ (ثناء على كتاب موسى)، النمل: ٧ ـ ٤٤، ٧٦ (القرآن يقص على بني إسرائيل تاريخهم)، الحجر: ٥١ ـ ٦٠، طه: ٩ ـ ٩٩، السجدة: ٢٣ ـ ٢٥ (ثناء على كتاب موسى)، المؤمنون: ٤٩ ـ ٥٢ (بني إسرائيل عاندوا موسى)، الفرقان: ٣٥ ـ ٣٦، الشعراء: ١٠ ـ ١٠٤، يوسف: ٤ ـ ١٠٢ (قصة يوسف)، الشورى: ١٣ ـ ١٤ (دين محمد مماثل لدين بني إسرائيل)، الأنبياء:

٤٨ ـ ٥٠ (التوراة مماثلة للقرآن)، ٧٨ ـ ٩١ (داوود وسليمان وآخرين)، ٥١ ـ ٧٣ (إبراهيم)، هود: ١٧ (التوراة والقرآن متماثلان)، ٩٦ ـ ٩٩ (موسى)، القصص: ٣ ـ ٤٩ (موسى وتفاصيل عن حياته ومع فرعون)، ٥٢ (إيمان بعض أهل الكتاب).

٤. وحددت خمس سور يكون المخاطب المعني في بعض آياتها كل الناس، وبعض آياتها، بني إسرائيل، وبعض آياتها قريش، وهي: سبأ: ٢٨، ١٠ ـ ١٤ (داوود)، ١٥ ـ ٢١ (عن سبأ)، الأعراف: الأعراف: ١٥٨، ١٠٣ ـ ١٥٦، ١٦٠ ـ ١٧٧، يونس: ٥٧، ٧٥ ـ ٩٣، إبراهيم: ١، ٤٤، ٥٢، ٥ ـ ٨، الأنعام: ١٩، ٢٠ (بعضهم أسلم)، ١١٤ (يعلمون أنه الحق).

٥. كما تم تحديد سور يكون المخاطب المعني في بعض آياتها، المستضعفون، والبعض بني إسرائيل، والبعض قريش، وهي: ص: ٥٩ ـ ٦١، الصافات: ٢٧ ـ ٣٤، فصلت: ٢٥، ٢٩ (إشارة للمستضعفين)، الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩، غافر: ٤٧ ـ ٥٠، الفرقان: ٢٧ ـ ٣١.

٦. وهناك سور يكون المخاطب المعني في بعض آياتها، بجانب قريش، كل الناس، والبعض بني إسرائيل، والبعض المستضعفين، وهي: سبأ: ٣١ ـ ٤٢، الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩، إبراهيم: ٢٠ ـ ٢١.

كما حددت سورة أخرى المخاطب فيها محمد، وهي الكوثر، إلا أنها تتحدث عن نعت أحد كبراء قريش محمداً بالأبتر، أي الذي لا ينجب. وهو ما يعني أنها نزلت بعد وفاة زوج النبي، خديجة، وسنعود للحديث عنه في القسم الثاني من الكتاب.

وهناك أربع سور قصار، هي الإخلاص، الكافرون، المسد، البروج، أمكن تصنيفها كما يلي:

الإخلاص:

نزلت ضمن الفترة التي نزلت فيها السور التي تتحدث عن قول قريش إن

الله اتخذ ولد، ويقصدون بذلك إن الملائكة بنات الله، كما تبين لنا الآيات.

والسور هي:

مريم: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴿٣٥﴾ مريم.

الصافات: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿١٥٤﴾.

يونس: ﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴿٦٨﴾ يونس.

بني إسرائيل: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴿٤٠﴾.

الكهف: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴿٤﴾.

المؤمنون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿٩١﴾.

الزخرف: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴿١٦﴾.

والمخاطب المعني في هذه السور كلها بني إسرائيل، بجانب قريش.

الكافرون:

نزلت ضمن سور تتحدث عن أن للكفار دينهم وللمؤمنين دينهم، ومن ذلك: الزمر: ١٤ ـ ١٥، يونس: ١٠٤ ـ ١٠٦.

المسد والبروج:

نزلتا في آخر مراحل الدعوة في مكة لأنهما تتحدثان عن تعذيب قريش المسلمين بالنار لتفتنهم عن دينهم، وهو ما أشارت له سور تلك الفترة، ومن

ذلك سورة العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴿٣﴾﴾، وفي قوله تعالى: ﴿﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴿١١﴾﴾.

ويكون العدد الكلي للسور المخاطب فيها كل الناس، والمستضعفين، وبني إسرائيل، بجانب قريش ٤٣ سورة.

ويتبقى ١١ سورة سنرجع الحديث عنها قليلا.

وإلى هنا نكون قد توصلنا إلى النتيجة التالية:

أن مجموعة السور التي كان المخاطب فيها قريشاً فقط، والبالغ عددها ٣٥ سورة، نزلت في مرحلة واحدة، لأن نوع الخطاب فيها متماثل، وقد نزلت قبل السور الأخرى، والبالغ عددها ٤٣ سورة، والتي تخاطب غير قريش. لأن الوحي نزل في مكة، التي تقطنها قريش، وكتتابع منطقي للأحداث فخطاب الدعوة سيتوجه أولاً إلى قريش، دون غيرها، ثم في فترة لاحقة، وبعد أن تبين أن قريش لن تؤمن مهما دعيت، يتغير الخطاب، ويتوجه إلى غيرها من الناس.

لكن المخاطب في المجموعات الأخرى لم يكن كافياً لتصنيفها كمراحل، ولزم الاستعانة بالعوامل المساعدة المتاحة في كل سورة، كالملامح والمواضيع والتسلسل المنطقي للأحداث، وغيرها.

وخلال هذه المرحلة أمكن تصنيف السور الـ ٤٣، كما يلي:

تم ملاحظة أن هناك سوراً تأمر الرسول والمسلمين بالصبر على الأذى.

وسور تعطيهم حق دفع الظلم ومعاقبة من يعتدي عليهم.

وسور أخرى تخبرنا أن المسلمين يتعرضون للتعذيب وأن البعض منهم ارتد والبعض صبر.

وهناك سور تأمر بالهجرة وأن بعض المسلمين هاجروا بالفعل.

ولو استعنا بعنصر التسلسل المنطقي للأحداث، لعرفنا أن السور التي تدعو للصبر والتسامح نزلت أولاً، لأنها تشير إلى أن المسلمين وإن كانوا يتعرضون لأذى نفسي، كالسخرية، فهم لم يتعرضوا بعد لأي أذى جسدي. ثم تأتي السور التي تعطي المسلمين حق دفع الظلم، لأنها تشير إلى أن الأوضاع تدهورت، وبدأوا يتعرضون للاعتداءات الجسدية. يلي ذلك السور التي تتحدث عن التعذيب والردة والهجرة، والتي تمثل المرحلة الأخيرة للدعوة في مكة.

وقد أمكن حصر ثماني سور هي آخر السور نزولاً في مكة، وبالتالي يمكن اعتبارها سوراً، للمرحلة الأخيرة من مراحل الدعوة في مكة، وهي كما يلي:

العنكبوت:

تبدأ السورة بالحديث عن شدة العذاب الذي يتعرض له المسلمون: الم﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٧﴾.

ثم تشير السورة إلى أن بعض من تعرض للتعذيب أعلن الكفر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴿١١﴾.

وتخبرنا أن قريشاً تعد الذين تحت التعذيب من المسلمين، بأنها ستتحمل عنهم أوزارهم يوم القيامة لو ارتدوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا

سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿١٣﴾.

وفي مكان آخر تحث السورة المسلمين على ترك مكة والهجرة: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴿٥٦﴾.

وتقول لهم إن كانوا يمتنعون عن الهجرة لئلا يخسروا أموالهم ومنازلهم في مكة، فسيرزقهم الله في المهجر، كما يرزق الدواب التي تنتقل من مكان لآخر دون أن تحمل أكلها على ظهورها لأنها ستجد ما تأكله أينما حلت: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦٠﴾.

والسورة ثاني سور هذه المرحلة نزولًا، بعد الأنعام، بدليل أنها أول سورة تتحدث عن التعذيب في الآيات ١ ـ ٧ السابقة. كما أنها السورة التي تأمر بالهجرة: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴿٥٦﴾.

البروج:

تسجل صورة حسية واضحة لقيام قريش بخد الأخاديد في الأرض وتسجير النار فيها وكيف أنها كانت تعذب المسلمين بالحرق بتلك النيران لفتنتهم عن دينهم وإجبارهم على الردة: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴿١٠﴾.

المسد:

تتوعد أبو لهب كواحد ممن كان يعذب المسلمين بالنار، وزوجته كانت ممن يجمع الحطب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا

كَسَبَ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴿٥﴾.

القصص:

تشير إلى أن المسلمين بدءوا يهاجرون، وذلك لأن بعض كبراء قريش كانوا يقولون للرسول أنهم لو آمنوا لأصبح حالهم حال المسلمين الذين يتسللون خفية خارج مكة، مهاجرين: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾.

النحل:

تتحدث عن الهجرة أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴿٤١﴾.

وفي مكان آخر تقول السورة: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١١٠﴾.

وتتوعد من يرتد عن دينه، مع التأكيد على أن من يعلن كفره بلسانه تحت التعذيب، وهو مؤمن فليس بكافر: ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿١٠٧﴾ أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴿١٠٨﴾ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴿١٠٩﴾.

الرعد:

تتحدث عن الذين صبروا من المسلمين على الأذى ولم يهاجروا: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ

يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴿٢٣﴾ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴿٢٤﴾.

مثلما تحدثت عن ذلك سور أخرى مثل النحل: ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٤٢﴾.

والعنكبوت: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٥٩﴾.

الحج:

والتي نرجح أنها آخر سورة نزلت في مكة، فهي تتحدث عن بعض من ارتد من المسلمين نتيجة التعذيب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴿١١﴾.

وتشير إلى أن هناك الكثير من المسلمين هاجروا: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴿٥٩﴾.

كما تخبرنا أن هناك بعض المسلمين أصيبوا بالقنوط واليأس: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴿١٥﴾.

وتقول إن قريش منعت المسلمين من دخول المسجد الحرام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٥﴾. وهو ما يشير إلى آخر التطورات التي تقوم بها قريش ضد المسلمين.

كما تشير إلى أن سورة الأنعام نزلت في هذه المرحلة لأنها تتحدث عن نفس المواضيع التي تتحدث عنها سور هذه المرحلة، ومن هذه المواضيع:

جدال قريش للرسول:

ذكرته سورة الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴿٣﴾﴾.

وفي مكان آخر من السورة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴿٩﴾﴾.

وفي مكان ثالث: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٦٩﴾﴾.

وهو ما كررته سورة الأنعام: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴿٢٥﴾﴾.

ومرة أخرى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلَّا تَخْرُصُونَ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴿١٤٩﴾﴾.

قريش تصد الناس عن الدين:

ذكر ذلك في سورة النحل: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاء مَا يَزِرُونَ﴿٢٥﴾﴾.

وفي سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴿٣٣﴾﴾.

وفي الأنعام: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴿٢٦﴾﴾.

ما يحل من المأكل:

ورد في الأنعام أولاً: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴿١٤٦﴾.

ثم تكرر في سور النحل بنفس العبارة تقريباً: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿١١٨﴾.

وسورة الأنعام نزلت قبل النحل بدليل أنها تقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴿١٤٦﴾.

بينما جاء في سورة النحل عن نفس الموضوع: ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿١١٨﴾.

فالأنعام قصت ما حرم على الذين هادوا من قبل سورة النحل.

وقد سميت هذه المرحلة: بمرحلة التعذيب والهجرة.

وفي وقت لاحق، أمكن التعرف على أربع سور يمكن تصنيفها في مرحلة خاصة بها تسبق المرحلة الأخيرة التي تحدثنا عنها في الأسطر السابقة. لأنها

وإن كانت تتحدث عن نفس المواضيع التي تتحدث عنها السور السابقة. مثل صد قريش للناس عن الإسلام، وجدالهم للرسول، وفرض بعض التشريعات، وغيرها، إلا أنها لا تشير لأي تعذيب يتعرض له المسلمون، ولا للهجرة، مما يعني أنها نزلت في مرحلة سابقة، والتي يمكن تسميتها مرحلة دفع الظلم، لأنها أول سور تبيح للمسلمين معاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى عليهم، وهو ما يشير لبدء قريش التعدي الجسدي على المسلمين. وبدء قريش بتعذيب المسلمين سيسبق الردة والهجرة بدون شك. والسور، هي: الشورى، الشعراء، هود، بني إسرائيل.

ولعل الشورى أول سورة نزلت في هذه المرحلة، لأنها أول من شرع للمسلمين دفع الظلم، بمعاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى به: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿٤٣﴾.

وتأتي سورة بني إسرائيل لتؤكد دفع الظلم ومعاقبة المعتدي: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴿٣٣﴾.

وسورة الشعراء تؤكد على الانتصار للظلم بالقصاص من الظالم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴿٢٢٧﴾. وتحذر سورة هود الرسول والمسلمين من التعدي على غير المعتدي أو معاقبته بأكثر مما اعتدى به عليهم، لأن هذا يدخل فيما يسمى بالطغيان: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١١٢﴾.

وتضيف سورة هود تحذير بعض المسلمين من موالاة أقاربهم المشركين: ﴿وَلَا تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴿١١٣﴾.

وهو ما يشير إلى أن بعض المسلمين قد استجاروا بأقاربهم المشركين أو والوهم لتفادي أذى قريش الذي بدأ يطال المسلمين جسدياً.

وهناك مواضيع أخرى تتشابه فيها سور هذه المرحلة، ومن ذلك على سبيل المثال:

فرض أوقات الصلاة الخمسة، الذي جاء على دفعتين. حيث فرض وقتي المغرب والفجر في سورة بني إسرائيل: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴿٧٩﴾.

ثم فرضت الثلاثة أوقات الأخرى، العشاء، وصلاة عند كل طرف من أطراف النهار، في سورة هود: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴿١١٤﴾.

وقد سميت هذه المرحلة بمرحلة الأذى البدني ودفع الظلم.

وإلى هنا نكون قد استطعنا حصر أربع سور لهذه المرحلة، وهي المرحلة ما قبل الأخيرة للدعوة في مكة. وثمان سور للمرحلة الأخيرة في مكة، مرحلة الهجرة. إضافة لسور المرحلة التي تسبق مرحلة الأذى ودفع الظلم، والتي سوف نسميها مرحلة تغير المخاطب والأحداث، وعدد سورها ٣٥ سورة. ليكون مجموع سور المراحل الثلاث الأخيرة في مكة، التي تم تصنيفها، ٤٧ سورة، من أصل ٨٩ سورة مكية. والباقي، وهو ٤٢ سورة، لابد من تصنيفها لمجموعات، كل مجموعة تمثل مرحلة من مراحل الدعوة في مكة.

وقد أمكن تصنيف سورة المدثر على أنها مرحلة قائمة بذاتها، تُعنى بتأهيل محمد ليكون قادراً على تحمل أعباء الدعوة، عن طريق الخضوع لبرنامج

تدريبي نفسي، يتمثل بالسهر للتأمل والتفكير بذات الله وذكره وتسبيحه، وتلاوة السور التي سبق وتنزلت عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾.

وهذا البرنامج كما تبين الآيات السابقة عبارة عن برنامج تأهيلي نفسي، على الرسول التقيد به لفترة من الزمن، ليكون قادراً، فيما بعد، على قضاء ساعات النهار في الدعوة، وتحمل ما سيسمعه من سخرية. والآيات تخبره أنه سيلقى عليه «قولاً ثقيلاً» والمقصود به الوحي، لأنه سيكون تأثيره ثقيل على قريش، التي من المتوقع ألا تؤمن به، لذا تتوعد الآيات من يكفر. ولابد أن الرسول بقي تحت التدريب لفترة من الزمن قبل أن تنزل عليه سورة أخرى تأمره ببدء الدعوة. وهذا ما يجعل سورة المزمل تمثل مرحلة من مراحل الدعوة لوحدها، يمكن تسميتها: مرحلة التأهيل النفسي.

كما أن سورة المزمل تعلن لقريش أن محمداً أصبح رسول الله إليهم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴿١٧﴾.

ولأن سورة المزمل تؤهل الرسول لتلقي الوحي والبدء بالدعوة «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً». فهذا يجعلنا نبحث عن سورة أخرى تأمر الرسول بالبدء بالدعوة، وكانت سورة المدثر.

التي تبدأ مخاطبة محمد: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ

فَكَبِّرْ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴿١٠﴾.

فهي بالفعل تأمر الرسول بالبدء بالدعوة «قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ»، وتأمره بالتخلص من كل ما له علاقة بالوثنية: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴿٦﴾.

وتؤكد ما أمرت به المزمل من التحلي بالصبر على الأذى لأن المتوقع هو أن قريش لن تستجيب لدعوته: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴿١٠﴾.

وتكون سورة المزمل تمثل مرحلة التأهيل النفسي، تلتها سورة المدثر لتمثل مرحلة بدء الدعوة الفعلي. لكن المدثر ليست أول ما نزل، لأنها نزلت بعد المدثر، على الأقل. وسورة المزمل ليست أول ما نزل، لأنها تأمر محمداً أن يتلو ما سبق ونزل عليه من القرآن أثناء تأمله في هدوء الليل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴿٤﴾.

فإن كان هناك سور قد نزلت على محمد قبل المزمل فعلينا أن نبحث عنها، وأيسر سبيل لذلك أن نبدأ بالبحث عن أول سورة نزلت.

أول ما نزل

هناك آية في سورة البقرة تنص بكل وضوح على أن القرآن بدأ النزول في رمضان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٨٥﴾.

والآية الثالثة في سورة الدخان تؤكد أن أول نزول القرآن كان في الليل: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴿٤﴾ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦﴾.

وتلك الليلة التي بدأ فيها نزول الوحي على محمد سماها القرآن ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴿٥﴾.

وقبل أن يجد محمد نصوص أول سورة وقد نسخت في ذاكرته، ظهر له الملك المكلف بتنزيل الوحي، ورآه محمد، وهو ما تؤكده الآية (٢٣) من سورة التكوير: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴿٢٥﴾.

وقد فصلت سورة النجم كيف حدثت رؤية محمد للرسول: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴿١٢﴾.

فقد ظهر الملك في الأفق أمامه، ثم هبط باتجاه محمد حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى، بحيث تبينه بكل وضوح وتأكد أن ما يرى حقيقة وليس تخيل أو أوهام.

وتقول سورة النجم أن محمداً رأى الملك ليس مرة واحدة بل مرتين،

والمرة الثانية رآه وقد هبط بقرب شجرة سدر على طرف مساحة معشبة من الأرض، وقد غشي السدرة هالة من النور أو أنها احترقت أو أصابها شيء غير طبيعي بسبب اقتراب الملك منها، وهو المخلوق من طاقة: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿١٧﴾.

ورؤية الملك لابد أنها تمت أثناء النهار، أما أول نزول الوحي فقد كان في الليل.

ولعل عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» هي أول ما نسخ في ذاكرة محمد من الوحي، لأنها تفتتح النزول «باسم الله» الذي صدر منه الوحي.

ولا يمكن تصور أن يبدأ الوحي بنص غير بسم الله الرحمن الرحيم، لأن الله جل وعلا قد فرض على المسلم أن يبدأ كل نشاط ينوي القيام به باسم الله.

فباسم الله تُطلق الجوارح أو كلاب الصيد أو السهام أو القذيفة، أو نضع الشباك للصيد: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿المائدة٤.

ونبدأ الأكل والشرب باسم الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿الأنعام١١٨.

وهذا نوح يركب السفينة ويبدأ رحلتها باسم الله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿هود٤١.

وسليمان يبدأ رسالة كتبها لملكة سبأ باسم الله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ النمل٣٠

والمقصود بالبدء باسم الله هو النشاط نفسه (الكتابة أو الحديث أو الفعل) وليس ما تحويه الرسالة أو الحديث من عبارات وألفاظ تعبر عما يقوله الشخص، ولا تعني أن الشخص يتحدث أو يكتب نيابة عن الله.

إذاً الوحي لا يمكن أن يفتتح بغير «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ».

وليس في القرآن سورة تبدأ آياتها بهذه العبارة سوى سورة الفاتحة. فهي السورة الوحيدة في القرآن التي تعتبر البسملة آية من آياتها.

وقد سميت السورة بالفاتحة، لأنها فاتحةٌ وبدايةٌ لنزول الوحي على محمد، وليست فاتحة لأي شيء آخر.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴿٧﴾.

وهي سورة بالفعل مناسبة لبداية وافتتاح الوحي، ومتميزة عن كل سور القرآن:

* فلا وجود فيها لتشريع ولا وعد ولا وعيد، ولا تخاطب بشراً بعينه، ولا تتحدث عن حادثة أو موضوع.

* وتبدأ بالبسملة التي هي عبارة عن تعريف لله على أنه الرحمن بذاته والرحيم لغيره. وهو تعريف يليق بمقامه، ولا يجوز لغيره. فالرحمن نعت متميز لا مثيل له، يعني أن الله رحمن بذاته. والرحمن صفة تعني أن الموصوف بها مصدر للرحمة، والله وحده هو مصدر الرحمة. وعندما نريد وصف الرحمن بأنه يرحم غيره نقول رحيم. فهو مصدر للرحمة «رحمان» ورحيم لغيره.

* وبعد البسملة، تقول السورة أن الحمد تكون لله خاصة، لأن ما يقدم لخلقه يستحق الحمد. والحمد أعلى درجات الشكر والعرفان، مثلما أن القسط أعلى درجات العدل.

* وهو رب العالمين، ولا رب أو معبود سواه في هذا العالم. سواء كان خافياً كما الآلهة المتعددة التي تعتقد بوجودها قريش، أو مشاهداً كالأصنام التي تعبدها.

* وهو الرحمن بذاته، الرحيم بغيره. وهو وحده ملك الدين، ولن يكون هناك ملك يحكم في ذلك اليوم بين الخلائق غيره. وقوله «مالك يوم الدين» أول تأكيد على وجود بعث وحساب، وهو ما ستصر قريش على إنكاره.

* وقوله «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» تعريف بأن الله وحده هو المعبود، وهو وحده القادر على العون.

* وتختم السورة بدعاء على لسان المرء، يطلب فيه من الله أن يهديه للصراط المستقيم والدين القويم الذي لم تعرفه قريش، ولم يعرفه محمد بعد.

وبهذه الملامح المتميزة والفريدة للسورة، وبتسميتها بالفاتحة، فهي بالفعل فاتحة الوحي الذي نزل على محمد، تعرفه بمن نزلت بأمره، وترشده من يعبد ومن يستعان ومن يُحمد.

وبما أن القرآن عبارة عن رسائل إلهية للناس تدعوهم للدخول في دينه سبحانه لنيل سعادة الدنيا، ورضا الله والجنة في الآخرة، وتحذر من يُعرض، مغبة الخزي في الدنيا، وجحيم النار في الآخرة، فمن الطبيعي ألا تبدأ هذه الرسائل بفرض التشريعات والحلال والحرام. ولكن البداية المنطقية تكون بتعريف الرسول بمن أرسله، وبالرسائل التي ستنزل عليه وكيف سيتلقاها، وكيفية تبليغها، وهو ما ينطبق على سورتي الفاتحة والأعلى والعلق، وهي السور الثلاث الأولى في ترتيب النزول على التوالي.

والفاتحة كما سبق وقدمنا رسالة لمحمد تعرفه بمن أرسله، وأنه المعبود وحده، ورافق نزولها رؤيته الملك المكلف بالوحي. وبعد فترة من الزمن - كان محمد يحتاجها ليدرك بالفعل أنه يتصل بالسماء، وأنه أصبح رسولاً لله - نزلت عليه سورة الأعلى وبنفس المسار الذي بدأته سورة الفاتحة، وهو حمد الله وتسبيحه مع بيان بعض صفاته سبحانه، وهو الرب الذي خلق كل شيء وقدر وجوده: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴿٥﴾.

ثم تؤكد الآيات لمحمد أن الوحي سيستمر بالنزول عليه بنفس الطريقة التي نزلت بها سورة الفاتحة، المتمثلة بنسخ النصوص في الذاكرة بطريقة لا يمكن نسيانها: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴿٧﴾.

وقلق محمد من نسيان الوحي فيه إشارة إلى أنه لا يعرف الكتابة، إذ لو كان يكتب لأمكنه تدوين ما ينزل عليه من الوحي لو خاف أن ينساه.

وتطمئنه الآيات أن الله سيسهل عليه مهمة التبليغ، وكل ما عليه هو تلاوة ما يتلقاه من وحي عليهم: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴿٩﴾.

مع الأخذ بالاعتبار أن الناس سينقسمون إلى مصدق ومكذب حيال الدعوة، وأن من يكذب فسيعذب بنار جهنم بعد الموت: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴿١٣﴾.

أما من صدق فعليه أن يقيم الصلاة لله بجانب الإيمان لكي يضمن الجنة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴿١٥﴾.

ولا يستغرب محمد لو لم يصدقه الغالبية، لأن الناس يميلون لتصديق ما يرون ويحسون به، على الأمور الغيبية التي يستحيل تأكيدها بطرق محسوسة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴿١٧﴾.

وتُختم السورة بالقول أن ما ستتلقاه وتدعو له يا محمد هو دين الله الذي تلقاه ودعا له قبلك إبراهيم وموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴿١٩﴾.

والأعلى سورة بالفعل تهيء الرسول لما هو مقبل عليه من أجواء مصاحبة للدعوة، وإن كانت الفاتحة نزلت للتعريف فقط، ولم تطلب من محمد أي نشاط جسدي، فإن هذه السورة تأمره بالتذكير «فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ»، كما تطلب منه أن يقيم الصلاة لله.

وبعد فترة من الزمن لا نستطيع تحديدها، نزلت سورة العلق، التي يمكن الاستدلال من بدايتها على أن محمداً بعد نزول سورة الأعلى التي تطلب منه أن يبدأ بالتذكير، قد يكون احتار كيف يفعل ذلك.

هل يخاطب قومه بكلماته الشخصية؟

ولو فعل هل يجيبهم بما يراه وهو مجرد رسول ينقل فقط ما يريد الله جل وعلى أن يوصله للناس؟

وأسئلة كثيرة جالت بذهنه، فجاءت سورة العلق لتقول له أن الدعوة عبارة عن رسالة تبليغ الناس برسائل ربهم، أي أن دوره هو دور الرسول لا أكثر ولا أقل. وكل ما عليه هو قراءة ما ينزل من الوحي على الناس: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴿٥﴾.

فكل ما عليك يا محمد هو أن تقرأ الوحي على الناس، باسم ربك الذي خلق كل شيء، ويعلم ما يتلاءم مع أذهانهم، وهو من علمهم كيف يقرأون ويكتبون ويصغون، وليس عليك أن تشرح لهم أو تقول لهم أكثر مما يوحى إليك.

وحتى في حال اعرضوا عنك ولم يصدقوا ما تتلو عليهم فمرجعهم لله وهو من سيحاسبهم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴿٨﴾.

وبقية السورة تخبرنا أن محمداً قد استجاب لأمر الله في سورة الأعلى الذي يأمره بالصلاة «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»، وداوم على أدائها في بيت الله الحرام، حيث منتدى قريش ومكان تجمعهم. مما أثار حفيظة أحد كبراء قريش، فكان ينهر محمداً كلما رآه يصلي، لأن صلاته جديدة وغير معروفة، ومخالفة للطقوس الموروثة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴿٩﴾

عَبداً إِذَا صَلَّى﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَه﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴿١٩﴾.

وبنزول هذه السور تكون الصورة قد اتضحت لمحمد، فهو رسول الله، وعليه أن يتلو ما يوحى إليه على قريش، وما عدا ذلك فكان يمضي حياته اليومية كالمعتاد.

والفاتحة والأعلى والعلق هي السور الوحيدة في القرآن التي نزلت لتعرف محمداً بالله وكونه أصبح مكلفاً بتبليغ الرسالة، لكنها ليست السور الوحيدة المعني فيها بالخطاب هو محمد. فهناك سور كالضحى والمسد والشرح، إلا أن هذه السور تنزل لتشد من عضد الرسول عندما تشتد المصاعب عليه. وهناك سورة المزمل التي نزلت لتؤهل الرسول ليكون قادراً على التبليغ، وسورة المدثر التي تأمره بالبدء بالإنذار. وفيما عدا ذلك فسور القرآن وإن كانت تخاطب محمداً إلا أن المعني بالخطاب هم الناس، سواءً كانوا قريش، الكبراء منهم أو المستضعفين، أو كانوا بني إسرائيل، النصارى منهم واليهود، أو كانوا كافة الناس، الوثني منهم والمجوس أو غيرهم.

وكما أن سور الفاتحة والأعلى والعلق، تعرف محمداً بالله وبعض صفاته وأنه أصبح رسولاً له سبحانه، فلابد أن توجد سور تعرف قريش بفحوى ما سيُدعون إليه، ولا يمكن أن تبدأ السور بوعيد قريش وتهديدهم، لذا كان يجب البحث عن سور تخاطب قريش بعبارات تعريف دون وعيد أو تهديد. وقد أمكن حصر ست سور تخاطب قريش، يمكن تصنيفها كسور تعريفية.

وأول سور هذه المجموعة، هي الفيل. وهي تُذكّر قريشاً بما حصل لأبرهة وجيشه الذي قدم من اليمن لكي يهدم الكعبة، وكيف أن بركاناً قد ثار بهم

وطمر معظمهم تحت نيران صخوره المنصهرة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴿٥﴾.

والسورة لا تخبر قريش بحادثة قديمة لا يعرفون عنها شيء، كما في السور التي تتحدث عن قوم نوح وعاد وثمود، ولكنها تذكرهم بحادثة عايشها ويتذكرها كثيرون منهم لازالوا على قيد الحياة، ويعرفون تماماً ما حدث لجيش أبرهة. وبكل تأكيد ذهبوا للمكان الذي ثار فيه البركان في مكان يسمى المغمس قريب من مكة، وشاهدوا كيف طمر أفراد الجيش الغازي، وكيف تحولت أجسادهم إلى ما يشبه العصف المأكول بفعل الحرارة الشديدة، وتبخر سوائل الجسم. وإنقاذ مكة من أصحاب الفيل نعمة من الله الذي أرسل لهم محمد ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كنعمة أخرى.

ثم نزلت سورة قريش المشابهة في نوع الخطاب للسورة قبلها: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴿٤﴾.

فالسورة تُذكّر قريشاً بأنهم يتمتعون بأمن وأمان في مكة وفي ترحالهم المتكرر صيفاً وشتاءً دون خوف أو وجل، بينما يتعرض غيرهم لسلب الأعراب ونهبهم في مواطنهم وفي سفرهم، فإن كانت هذه من نعم الله وفضله، فعليهم أن يعبدوه وحده.

والسورتان تخاطبان قريش وتذكرانهم ببعض نعم الله عليهم، التي يعرفونها حق المعرفة ويعيشونها، دون وعيد ولا تهديد. ودون ذكر لنار أو جنة، وإن طلبت سورة قريش أن يتوجه الناس بالعبادة لله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴿٣﴾.

ثم نزلت سورة العصر التي تؤكد أن من لا يؤمن سيخسر: ﴿وَالْعَصْرِ﴿١﴾

إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴿٣﴾.

تلا ذلك نزول سورة التين، التي تكرر ما ذكرته سورة قريش من أن مكة آمنة: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴿٣﴾.

وتكرر بألفاظ مختلفة، ما ذكرته سورة العصر من أنه يخسر من لا يؤمن: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴿٦﴾.

بعد ذلك نزلت سورة التكاثر التي تتحدث عن انغماس الناس في الدنيا، دون أن يعيروا اهتمامهم لما بعد الموت، وهو ما لا تؤمن به قريش: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴿٨﴾.

لتأتي آخر سورة في هذه المرحلة وهي العاديات، التي تؤكد ما تحدثت عنه سورة التكاثر بألفاظ مختلفة: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴿١١﴾. ولم تشر أي سورة من السور الأربع ١٨٩ التي تخاطب قريش إلى أي تعريف بالله، لأن قريش تعرفه سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴿٨٧﴾ المؤمنون.

ويمكن تسمية هذه المرحلة الأولى للدعوة في مكة، بمرحلة التعريف.

وفيما يلي جدول لسور هذه المرحلة يبين المواضيع والملامح، ويسهّل متابعة تطور الخطاب:

السورة	الافتتاحية	تسبيح وتعريف بالله	الله وحده المعبود والمعين	طلب الهداية
الفاتحة «٧»	بسم الله الرحمن الرحيم	٢ ـ ٤	٥	٦ ـ ٧

السورة	الافتتاحية	تسبيح وتعريف لله	الوحي سينسخ في الذاكرة	سيعينك الله في مهمتك
الأعلى «١٩»	سبح اسم ربك	١ ـ ٥	٦ ـ ٧	٨
الأمر بالتذكير	وعيد	وعد	الأمر بالإنفاق والصلاة	الدين واحد
٩	١١ ـ ١٣	١٤ ـ ١٥	١٤ ـ ١٥	١٨ ـ ١٩

السورة	الافتتاحية	تلاوة القرآن باسم الله	تعريف بالله	بعض صفاته الإنسان	تأكيد على أن البعث حق	وعيد لأحد كبراء قريش
العلق «١٩»	اقرأ باسم ربك	١	٢ ـ ٥	٦ ـ ٧	٨	٩ ـ ١٩

السورة	الافتتاحية	حديث عن إحدى نعم الله	دعوة للإيمان
الفيل «٥»	ألم تر كيف فعل ربك	١ ـ ٥	
قريش «٤»	لإيلاف قريش	٢، ٤	٣ ـ ٤

السورة	الافتتاحية	يخسر من لا يؤمن
العصر «٣»	قسم بالواو: والعصر	١ ـ ٣

السورة	الافتتاحية	التأكيد على أن مكة آمنة	يخسر من لا يؤمن	لماذا لا تؤمن قريش
التين «٨»	قسم بالواو: والتين	٣	٤ ـ ٦	٧ ـ ٨

السورة	الافتتاحية	الانغماس في الدنيا
التكاثر «٨»	ألهاكم التكاثر	كل السورة
العاديات «١١»	قسم بالواو: والعاديات	كل السورة

ونكون قد تعرفنا على ست مراحل من المراحل التي مرت بها الدعوة في مكة وبقي لدينا ٣١ سورة، كانت آخر السور التي تم تصنيفها، مروراً بالخطوات التالية:

* أول ملاحظة على هذه السور، هي أنها أول سور يتغير فيها المخاطب من قريش لوحدها في سور المراحل الأربع الأولى، إلى غيرها من المستضعفين وبني إسرائيل وبقية الناس. وقد استمرت سور المراحل اللاحقة بمخاطبتهم مثل هذه المرحلة.

* أن هذه السور تختلف عن سور المرحلتين الأخيرتين، لأن سورها تأمر بالصبر على الأذى والتسامح. ولا تتحدث عن دفع الظلم، ولا عن الهجرة والتعذيب. وهو ما يعني أن هناك أذى يقع على الرسول والمسلمين من قريش، لكنه ليس أذى بدنياً، وإلا لأمرت السور المسلمين بدفعه عن أنفسهم ومعاقبة المعتدي، كما دعت لذلك سور مرحلة دفع الظلم اللاحقة. وإن لم يكن ما يتعرض له المسلمون تعديات جسدية، فلابد أنه أذى نفسي، يتمثل بالسخرية كما صرحت بذلك عدة سور منها: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴿١٤﴾ الصافات.

وبناءً على ما سبق يمكن تسمية هذه المرحلة، مرحلة تغير الخطاب. ويكون موقعها سابق للمرحلة ما قبل الأخيرة، مرحلة دفع الظلم، ولاحق للمرحلة المسماة استمرار الدعوة.

وفيما يلي نبذة عن المعنيين بالخطاب في هذه المرحلة:

المستضعفون

وهم العبيد والموالي في مكة الذين يقومون بكل الأعمال الخدمية لكبراء قريش، عن طريق السخرة، ويتبعون ساداتهم في معتقداتهم، لذا بدأت الآيات تتوجه لهم في سور هذه المرحلة لينقذوا أنفسهم من النار، حتى لا يخسروا الدنيا والآخرة بسبب تبعيتهم للكبراء.

كما في سورة الصافات: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴿٣٣﴾.

وكما في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٣٣﴾ سبأ.

بنو إسرائيل

والمقصود بهم سكان يثرب من يهود ونصارى، وقد بدأت السور تعرفهم برسالة محمد بطريقة تلائم كون أسلافهم أتباع لدين الله الذي أنزل على موسى، وبالتالي فالسور تقص عليهم تفاصيل دقيقة من تاريخهم وقصص رسلهم وأنبيائهم، لتؤكد أن محمداً لا يمكن أن يعرف هذه القصص لو لم يكن رسولاً لله يتلقى الوحي. وتكاد لا تخلو سورة من سور هذه المرحلة والمراحل اللاحقة بعدها من حديث عن بني إسرائيل وأنبيائهم وتاريخهم.

كل الناس

أيضاً بدأت سور هذه المرحلة بتوجيه الدعوة لكل الناس، وبدأنا نقرأ آيات تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾ سبأ.

وتقول: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴿٥٢﴾ إبراهيم.

وتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴿٥﴾ فاطر.

ولم تعد الدعوة موجهة لقريش وحدها أو لأناس دون غيرهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴿٤٩﴾ الحج.

وتغير المخاطب لدعوة غير قريش جاء بعد أن مرت سنوات على استمرار دعوة قريش دون أن تستجيب للدعوة، وتأكد أنها لن تغير رأيها ولن تؤمن بمحمد ولو بقي يدعوهم كما بقي نوح في قومه. وبما أن محمد بعث لكل الناس في كل زمان، فلا بد من تغيير خاطب الدعوة إلى غير قريش، لأنه لو لم يتغير خطاب الدعوة لغير قريش، ومات محمد، فستدفن معه الدعوة. لأنه لن يبقى سوى أفراد قلة يؤمنون بالله واليوم الآخر، لكنهم لا يعرفون من تشريعات الدين سوى الصلاة والإنفاق. والدين أسلوب حياة متكامل ولم تكتمل تشريعاته إلا في أواخر حياة محمد، ولو مات في مكة فلن يكون خاتم النبيين، وسيرسل غيره ليكون رسولاً للعالمين.

وبما أن السور تأمر الرسول والمسلمين للصبر على أذى قريش ولا تأمرهم بدفع الظلم ومعاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى به، كما في سور المرحلة التالية، فهذا يشير إلى أن الرسول والمسلمين يتعرضون للسخرية والأذى النفسي، دون الأذى البدني. وهو ما يجعلنا نصنفها كمرحلة سابقة لمرحلة الأذى البدني ودفع الظلم، ويمكن تسميتها «مرحلة تغير المخاطب والأحداث» لأن الأحداث تسارعت بعد ذلك، بعدما كانت هادئة وكأن الأيام لا تتحرك طوال السنوات السابقة منذ بدء الدعوة.

سورة الحج مكية أم مدنية

الحج هي السورة الوحيدة التي احتوت على ملامح يمكن تصنيفها للوهلة الأولى على أنها مكية، وملامح أخرى يمكن تصنيفها على أنها مدنية. وهو ما جعل الجزم بمكيتها أو مدنيتها أمر في غاية الصعوبة، وفيما يلي بيان هذه الملامح وما آلت إليه نتيجة التصنيف للسورة في النهاية:

* **افتتاحية السورة**

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. والبداية بـ«يا أيها الناس» موجود في سورة النساء المدنية، ولا وجود لسورة مكية تبدأ بهذه العبارة. لكن التوافق بالافتتاحية لا يعني بالضرورة أن السورة مدنية، لأن هناك سوراً تتماثل في الافتتاح، وإن كان بعضها مكي وبعضها الآخر مدني. ومن ذلك سورة لقمان المكية التي تفتتح بقوله تعالى: ﴿الم﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥﴾.

وهو افتتاح مماثل لافتتاح سورة البقرة المدنية: ﴿الم﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥﴾. وعبارة «يا أيها الناس» وردت في سور عديدة، منها البقرة والنساء والحجرات المدنية، وسور مكية هي: الأعراف ولقمان والنمل ويونس وفاطر.

كما أن هناك آية في سورة الحج تذكر الصابئين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿١٧﴾﴾.

والصابئون ذكروا في ثلاث سور فقط في كل القرآن، وفي ثلاث آيات متشابه. والسورتان الأخريان بجانب الحج، مدنيتان، هما المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٩﴾﴾.

وسورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٦٢﴾﴾.

وبالتالي فتشابه الافتتاح مع سورة مدنية أو مكية، وتكرار ذكر عبارة أو لفظ في عدد من السور المكية والمدنية، لا يكفي وحده لتصنيف السورة، ويحتاج لملامح أخرى تسنده.

ومن الملامح المكية التي جاءت في سورة الحج:

*** ذكر الأمم السابقة**

ورد في سورة الحج ذكر للأمم السابقة في الآيات التالية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴿٤٨﴾﴾.

وذكر ما حل بالأمم السابقة يأتي في الآيات التي تخاطب قريش، لعلهم يأخذوا العبرة مما حل بتلك الأمم من هلاك نتيجة مواقفهم المعادية لدعوة الرسل المشابهة لموقف قريش من دعوة محمد، مما يجعلها إحدى ملامح

السور المكية. إلا أن ذكر الأمم السابقة للعبرة، أو مخاطبة قريش، قد ورد في سور مدنية، ومن ذلك ما جاء في سورة براءة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٧٠﴾﴾.

وبالتالي فلا يمكن أن يكون كافياً للجزم على مكية السورة.

*** القتال والهجرة في سورة الحج**

ورد في سورة الحج قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴿٣٩﴾﴾.

وفي البداية، اعتبرنا الآية ٣٩ هي الآية التي فرض فيها الجهاد على المسلمين، متأثرين بأقوال المفسرين التي ترسخت بيننا. لكن بعد تمعن في الآية وفي السياق أمكن ملاحظة أن الآية لا تطلب من المسلمين قتال المشركين، ولكنها تخبر أن المشركين يقومون بقتال المسلمين، وأن المسلمين يُقَاتلون من قبل المشركين، لكنهم لا يقومون هم بقتال المشركين، وليس هناك معارك ولا اشتباكات بينهم وبين المشركين. والجهاد يعني حرفياً: الدخول مع المشركين المعتدين بحرب ومعارك قتالية. وهو ما لم تقله الآية، التي تقول بأن الذين آمنوا يتعرضون للظلم وأن الله قادر على نصرتهم. وإن كان الأمر كذلك فالآية تصف ما يتعرض له المسلمون من أذى في مكة على يد المشركين، بأنه قتال. والمسلمون ـ خاصة المستضعفين من موالي وعبيد سابقين ـ تعرضوا لأذى شرس من كبراء مكة[1]، وهو ما تخبرنا عنه عدة

---

(١) سنبين بشكل أكثر عند الحديث عن مراحل الدعوة في مكة، أن المسلمين في مكة يتكونون من قلة ممن ينتسبون لقريش، ومعهم قلة من مستضعفي مكة، من الموالي والعبيد السابقين. وأن الأذى الجسدي قد لحق بالمستضعفين، دون من أسلم من قريش الذين لم يتعرضوا لأي أذى جسدي من أبناء قبائلهم المشركين.

سور، منها سورة البروج التي تعطي صوراً وصفية للأخاديد التي تحفرها قريش وتملؤها بالحطب وتشعل فيها النيران ثم تحضر المستضعفين من المسلمين وتعذبهم بالكي لإجبارهم على الردة عن الإسلام والافتتان في دينهم. وكان أبو لهب ممن يقومون بالتعذيب، وزوجته كانت ممن يجمع الحطب لتلك النيران، ولم يكن بإمكان المسلمين التجمع على شكل جيش والدخول في عراك حربي مع المشركين في مكة قبل الهجرة. إلا أن الآية ٣٩ من سورة الحج تُتبع بآية أخرى تقول: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٤٠﴾.

ومن الواضح أن الآية تتحدث عن مسلمين «أخرجوا» من ديارهم «مكة» وهو ما يؤكد أن السورة نزلت بعد خروجهم القسري (هجرتهم) من مكة للمدينة. وهذا قد يؤخذ على أن السورة نزلت بعد الهجرة، لو أن المسلمين قد خرجوا جميعاً من مكة مهاجرين للمدينة في وقت واحد. لكن هجرة المسلمين الإجبارية من مكة للمدينة قد استغرقت أشهراً، ولم تتم في يوم واحد، كما أن الرسول وصاحبه أبا بكر لم يهاجرا إلا بعد أن خرجت الغالبية العظمى من مكة.

وقد ورد في سورة النحل المكية، الحديث عن الهجرة وكأنه تكرار لما ذكر في سورة الحج، بعبارات مختلفة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٤٢﴾.

وهو ما يؤكد أن الهجرة بالفعل تمت على مدى شهور طويلة، وأن سوراً مكية نزلت بعد استمرار الهجرة للمدينة، لأن الرسول كان من آخر من هاجر.

وفي مكان آخر من سورة النحل التي نزلت على الرسول وهو ما زال في مكة، نقرأ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ

الْكَاذِبُونَ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿١٠٧﴾ أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴿١٠٨﴾ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١١٠﴾.

فهناك قتال ضد المسلمين في مكة، دون رد من المسلمين، وهو ما يمثل تعرضهم للظلم، المتمثل بسعي كبراء قريش إلى فتنة المسلمين عن دينهم وردهم للكفر بالقوة والجبروت وتحت وطأة التعذيب. وكان هناك من ارتد، بينما تمكن البعض من الهجرة.

وسورة القصص المكية تشير إلى أن المستضعفين من المسلمين كانوا يتسللون خارج مكة هرباً بدينهم وأنفسهم من قريش، بينما بقي فيها الرسول وبعض المسلمين خاصة القرشيين منهم الذين لم يتعرضوا للتعذيب: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾.

ونتيجة لما تقدم، يمكن القول إن الحديث عن الهجرة بصيغة الماضي لا يعني أن السورة قد نزلت في المدينة. كما أن الآية ٣٩ من سورة الحج لا تفرض الجهاد، ولكنها تقول إن المسلمين قد وقع عليهم الظلم من قريش. وقد جاءت عدة سور تجيز للمسلمين في مكة وتحثهم على دفع ذلك الظلم، بل وتصنف دفع الظلم[١] من صفات المؤمنين، وهو ما ذكرته سورة الشورى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا

---

(١) سنعاود الحديث عن دفع الظلم في فصول قادمة بشكل واف.

غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴿٣٩﴾ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿٤٣﴾ الشورى.

وقد كررت تأكيده سورة الصافات: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴿٢٢٧﴾.

مع الحرص على أن دفع الظلم يعني معاقبة الظالم وحده بنفس التعدي الذي اقترفه على المسلم، ولا يجيز للمسلمين بدء ظلم المشركين أو التعدي على الظالم بأكثر مما اعتدى به: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴿١٢٦﴾ النحل.

ولابد من ذكر آيات أخرى ذكرت في سورة الحج، تقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴿٥٩﴾.

وقوله تعالى «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا» لا يعني بالضرورة أن يكون القتل في ميدان المعركة، ولكن قد يكون نتيجة لاعتداء شخصي.

وقريباً من هذا الآيات التي ختمت بها سورة الحج، والتي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ

مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٧٨﴾.

وقوله «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»، لا تعني الجهاد في سبيل الله، الذي هو الدخول في قتال ومعارك، ولكن الجهاد في الله، يعني التمسك بالدين. لأن القرآن يسمي قتال الأعداء، جهاداً في سبيل الله وليس جهاداً في الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٧٤﴾ الأنفال.

وقتال في سبيل الله: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٤٤﴾ البقرة.

وبناءً عليه، فإن الآية ٣٩ من سورة الحج لا يمكن أن يفهم منها أنها تفرض قتال المشركين، لأن القتال لم يفرض في هذه السورة، ولكنه فرض في سورة البقرة المدنية، التي تقول بكل وضوح: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴿٢١٦﴾.

ولفظ «كتب عليكم» هنا يعني فرض عليكم، مثل قوله تعالى في نفس السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ.......﴿١٧٨﴾ البقرة.

ومثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴿١٨٠﴾ البقرة.

ومثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٨٣﴾ البقرة.

ويكون قد فرض في سورة البقرة وحدها على المسلمين، ما يلي: القتال، القصاص، الوصية، والصيام. واللفظ المستخدم في كل هذه التشريعات هو «كتب عليكم».

* دليل آخر على مكية سورة الحج

ورد في سورة الممتحنة المدنية نهي لبعض المسلمين من موالاة أقاربهم من مشركي قريش: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴿١﴾.

وتستمر السورة لتبين أن النهي عن الموالاة ليس لكل المشركين: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٩﴾.

وشاهدنا هنا هو «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ». فالمشركين قاتلوا المسلمين في الدين في مكة، وقتالهم يعني مطاردتهم وأذاهم والتضييق عليهم، ولا يعني معركة حربية بين المسلمين والمشركين. وهذا ما تحدثت عنه سورة الحج.

* ودليل آخر

جاء في الآيات التالية من سورة الحج نفسها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٢﴾.

فالآيات تذكر بكل وضوح أن قريشاً يتميزون من الغيظ كلما قرأ عليهم أفراد من المسلمين القرآن. وهذا كان يحدث في مكة، حيث كان الرسول

ومجموعة من المسلمين يتلون عليهم القرآن لدعوتهم لدين الله. وذكر هذا الحدث يؤكد أن الرسول وطائفة من المسلمين لازالوا يعيشون في مكة عند نزول سورة الحج ولم يهاجروا للمدينة بعد.

وتكون سورة الحج آخر السور التي نزلت في مكة، وبعد أن هاجر الكثيرون من مستضعفي المسلمين للمدينة هرباً من قتال المشركين لهم وتعذيبهم.

ونقدم في الصفحة التالية جدولاً لمراحل الدعوة في مكة، وسورها، والمخاطب فيها، ونوع الخطاب، وهو خلاصة كل ما ذكرنا في الصفحات السابقة:

اسم المرحلة	السور	المخاطب	نوع الخطاب
المرحلة الأولى/ التعريف	الفاتحة، الأعلى، العلق، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات. «٩»	محمد وقريش	تعريف محمد بالله، وأنه أصبح رسول، وتذكير لقريش بنعم الله وإبلاغهم أن هناك بعث
المرحلة الثانية/ التأهيل النفسي	المزمل	محمد وقريش	توجيهي إرشادي لمحمد تحذيري لقريش + إعلان محمد رسولا لله وتحذير من عصيانه
المرحلة الثالثة/ بدء الدعوة «الإنذار»	المدثر	محمد + وعيد أحد الكبراء، وقريش عموما	توجيه وأمر لمحمد + تحذيري لقريش
المرحلة الرابعة/ استمرار الدعوة	القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، الرحمن، النجم، ن والقلم، الطور، نوح، القمر. إضافة إلى الضحى، الشرح، الهمزة، والقدر. «٣٥»	قريش + بعض السور القصار وبعض الآيات في سور أخرى لشد أزر محمد والمسلمين.	دعوة للإيمان وتأكيد للبعث ووعيد لمن يكفر، ووعد لمن يؤمن + شحذ همة الرسول وتطمينه أن الله معه

اسم المرحلة	السور	المخاطب	نوع الخطاب
المرحلة الخامسة/ تحول المخاطب وتغير الأحداث	ص، الصافات، النازعات، الذاريات، الأحقاف، الجاثية، فاطر، فصلت، الدخان، الزخرف، غافر، مريم، الإخلاص، الكهف، سبأ، الكافرون، لقمان، ، النمل، الحجر، طه، السجدة، المؤمنون، المعارج، الفرقان، الزمر، الأعراف، يونس، إبراهيم، يوسف، الأنبياء، والكوثر. «٣١»	المستضعفون، بني إسرائيل، كل الناس، وقريش (وتغير المخاطب ميزها عن غيرها)	دعوة لكل الناس بما فيهم مستضعفو مكة وبنو إسرائيل، واستمرار دعوة قريش مع وعد للمؤمن ووعيد للكافر
المرحلة السادسة/ الأذى الجسدي ودفع الظلم	الشورى، بني إسرائيل، الشعراء، وهود. «٤»	بني إسرائيل، كل الناس، وقريش	نفس الخطاب السابق + أمر للمسلمين بدفع الظلم وهذه ميزة جديدة ميزتها عن غيرها من المراحل
المرحلة الأخيرة/ التعذيب والهجرة	الأنعام، العنكبوت، البروج، المسد، النحل، القصص، الرعد، والحج. «٨»	بني إسرائيل، كل الناس، وقريش	نفس الخطاب السابق + دفع الظلم + الأمر بالهجرة ووعيد من يرتد.

كما نقدم للقراء الذين يميلون للتفاصيل، جدولاً عاماً لأهم ملامح ومواضيع السور في المراحل الأربع الأخيرة للدعوة في مكة، على اعتبار أن المرحلة الرابعة هي البداية الفعلية للدعوة. مع ضرورة ملاحظة أمرين هامين:

١ . أن ملامح المرحلة هي تلك التي تبدأ بها أولاً، وإن استمرت لمراحل لاحقة.

٢ . وأن هناك بعض الملامح تبدأ في مرحلة، لكن لا يمكن أن تعتبر خاصة بتلك المرحلة.

ونعتذر لصغر الخط الذي اقتضته ضرورة عرض الصفحة:

الجدول العام لملامح المراحل الأربع الأخيرة للدعوة في مكة

الملامح والمواضيع	مرحلة استمرار الدعوة لقريش	مرحلة تغير المخاطب والخطاب	مرحلة الأذى الجسدي ودفع الظلم	مرحلة الهجرة
تقديم صور حسية عن انهيار هذا الكون ونشأة كون القيامة (حسية الكون)	القارعة: ٤ ـ ٥، الزلزلة: ١ ـ ٥، الانفطار: ١ ـ ٥، الانشقاق: ١ ـ ٥، التكوير: ١ ـ ١٤، الواقعة: ١ ـ ٦، ٤٦ ـ ٤٧، الفجر: ٢١، القيامة: ٧ ـ ١٣، المرسلات: ٨ ـ ١٣، الحاقة: ١٣ ـ ١٨، النبأ: ١٨ ـ ٢٠، يس: ٥١ ـ ٥٣ (الصور)، الطور: ٩ ـ ١٠، الرحمن: ٣٧ ـ ٣٨، ق: ٢٠ (الصور).	النازعات: ٦ ـ ٧، طه: ١٠٢ (الصور)، ١٠٥ ـ ١٠٧، الزمر: ٦٨، النمل: ٨٧ ـ ٨٨ المعارج: ٨ ـ ١٠، يونس: ٤ (الكون سينتهي، ثم ينشأ كون جديد)	إبراهيم: ٤٨ (سيتبدل الكون)	
البعث: إنكاره وتأكيده	القارعة: كل السورة، الزلزلة: كل السورة، الانفطار: كل السورة ١٧ ـ ١٩ خاصة، الانشقاق: ١٥ ـ ١٩، الواقعة: كل السورة وخاصة ٤٧ ـ ٩٥، القيامة: ٣ ـ ٤، ٦، ٣٦ ـ ٤٠، المرسلات: ١ ـ ٧، عبس: ٣٣ ـ ٣٧، يس: ٤٨ (تساؤل ساخر عن البعث)، الملك: ٢٥ (تساؤل ساخر عن البعث)، ق: ٣، الطور: ١ ـ ٨، النبأ: ١ ـ ٥ (تساؤل ساخر)، ١٧، ٣٩ (في وقت محدد).	الصافات: ١٥ ـ ٢١، مريم: ٦٦، سبأ: ٣، ٦ ـ ٩، النازعات: ٨ ـ ١٤، ٣٤ ـ ٤١، الذاريات: ١ ـ ١٤، ٢٠ ـ ٢٣، النازعات: ٤٢ (تسأل بسخرية عن البعث) السجدة: ١٠، السجدة: ٢٨ ـ ٢٩ (تساؤل ساخر عن البعث)، المعارج: ١ ـ ٤ (تساؤل ساخر عن البعث) يونس: ٤٨ ـ ٤٩، ٥٣، تأكيد البعث (٥٥).	بني إسرائيل: ٤٩ ـ ٥٠ (٤٩ ـ ٥٠)، هود: ٧ (إنكار)، ٨ (تساؤل عن وقوعه بسخرية)، الأنبياء: ٣٨، ٤١ (تساءل عنه بسخرية).	
تقديم صور حسية مألوفة عما في النار والجنة للترغيب والترهيب (حسية الجنة والنار)	الواقعة: ١٢ ـ ٤٤، ٥١ ـ ٥٦، ٩٠ ـ ٩٤، الغاشية: ١ ـ ١٦، المرسلات: ٢٨ ـ ٥٠، الحاقة: ١٩ ـ ٣٢، عبس: ٣٨ ـ ٤٢، الرحمن: ٤٣ ـ ٧٨، المطففين: ١٩ ـ ٢٨، يس: ٥٤ ـ ٥٨، الإنسان: ٤، ١٢ ـ ٢٢، الطور: ٢٠ ـ ٢٨.	ص: ٤٩ ـ ٥٨، الصافات: ٤٠ ـ ٥٠، ٦٢ ـ ٧٠، الكهف: ٢٩ ـ ٣١.		
وعد للمؤمن ووعيد للكافر	القارعة: ٦ ـ ١١، الانفطار: ١٣ ـ ١٦، الانشقاق: ١٣ ـ ١٤، ٢٤ ـ ٢٥، الشمس: ٩ ـ ١٠، الليل: ٥ ـ ١١، ١٤ ـ ٢١، الغاشية: ٢٣ ـ ٢٤، الفجر: ٢١ ـ ٣٠، القيامة: ٢٦ ـ ٣٥، المرسلات: عموم السورة، وتكرار ويل يومئذ للمكذبين، النبأ: ٢١ ـ ٣٧، ٤٠، ن والقلم: ٣٤، ٤٢ ـ ٤٥، الجن: ٢٣ ـ ٢٤، الرحمن: ٣٩ ـ ٤٢، المطففين: ٧ ـ ٢٤، يس: ٥٩ ـ ٧٦، الإنسان: ٤ ـ ٦، الملك: ٦ ـ ٧، ١٢، ق: ٢٤ ـ ٣٥، القمر: ٤٦ ـ ٤٨، ٥٤ ـ ٥٥، الطور: ١١ ـ ١٩.	فصلت: ٦ ـ ٨، ٢٧ ـ ٢٨، الذاريات: ١٥ ـ ١٦، ٥٩ ـ ٦٠، النازعات، ٣٧ ـ ٤١، ص: ٢٧، مريم: ٣٦ ـ ٣٨، ٦٠ ـ ٦٣، ٦٨ ـ ٧١، السجدة: ١٢ ـ ١٧، يونس: ٤.		

كل نشاط فعلي أو قولي أو ذهني يسجل ويحاسب عليه (صحيفة الأعمال)	القارعة: ٦ ـ ١١، الطارق: ٤، الزلزلة: ٧ ـ ٨، الانفطار: ١٠ ـ ١٢، الانشقاق: ٧ ـ ١٢، الحاقة: ١٩ ـ ٣٢، ٣٥ ـ ٣٧، النبأ: ٤٠، القيامة: ١٣، يس: ١٢، ٦٥، النازعات: ٣٥، النجم: ٣٨ ـ ٣٩، القمر: ٥١ ـ ٥٣.	الجاثية: ٢٢، ٢٨ ـ ٢٩، فصلت: ٢٥ ـ ٢٩، غافر: ١٧، الكهف: ٤٩، سبأ: ٣ ـ ٥، الأعراف: ٧ ـ ٩.	المؤمنون: ٦٢، ١٠٢ ـ ١٠٣، بني إسرائيل: ١٣ ـ ١٤، ٧١ ـ ٧٢، الأنبياء: ٤٧،	الرعد: ١٠ ـ ١١.
أنباء عما حدث لأمم سابقة + قصص سابقة للعبرة	الشمس: ١١ ـ ١٥ (باختصار)، الفجر: ٦ ـ ١٤، الحاقة: ٤ ـ ١٠، النجم: ٥٠ ـ ٥٥، نوح: كل السورة، ق: ١٢ ـ ١٥، ٣٦ ـ ٣٧، القمر: ٩ ـ ٤٣، ن والقلم: قصة للعبرة: ١٧ ـ ٣٣، يس: قصة للعبرة: ١٣ ـ ٢٣.	الصافات: ٧٥ ـ ٨٢، فصلت: ١٣ ـ ١٨، الكهف: ٣٢ ـ ٤٤، الأعراف: ٥٩ ـ ٩٥، النمل: ٤٥ ـ ٥٨، الأحقاف: ٢١ ـ ٢٨، الذاريات: ٤١ ـ ٤٦.	المؤمنون: ٢٣ ـ ٤٨، يونس: ٧١ ـ ٧٤، هود: ٢٥ ـ ٩٥، الشعراء: ١٠٥ ـ ١٩١، إبراهيم: ٩ ـ ١٧، الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٧،	العنكبوت: ١٤ ـ ٤٣،
الدين خيار شخصي بحت، مخير لا مسير	الشمس: ٧ ـ ٨، الليل: ١٢ ـ ١٣ (لمن يرغب النجاة)، التكوير: ٢٧ ـ ٢٨ (لمن يرغب النجاة)، البلد: ١٠، القيامة: ١٤ ـ ١٥، النبأ: ٣٩، عبس: ١١ ـ ١٢، يس: ٣، الإنسان: ٢٩ ـ ٣١.	الجاثية: ١٥، فصلت: ٤٦، الكهف: ٢٩، الزمر: ٤١، النمل: ٩٢.	بني إسرائيل: ١٥، يونس: ١٠٨،	القصص: ٨٤، الأنعام: ١٠٤،
دعوة للتفكير بالمخلوقات للاستدلال على قدرة الخالق على البعث (عقلانية)	عموم السور الانفطار: ٦ ـ ٨، الانشقاق: ٦، الغاشية: ١٧ ـ ٢٠، البلد: ٤ ـ ١٠، المرسلات: ١٦ ـ ٢٧، الحاقة: ١١ ـ ١٢، النبأ: ٦ ـ ١٦، عبس: ١٧ ـ ٣٢، النجم: ٣٥ ـ ٤٨، يس: ٣٣ ـ ٤٤، ٧٥، ٧٧ ـ ٨٣، الإنسان: ١ ـ ٢، الملك: ٣ ـ ٤، ١٣ ـ ٢٤، ٢٧ ـ ٣٠، ق: ٦ ـ ١١، ١٥ ـ ١٦، الطور: ٣٥ ـ ٤٤.	النازعات: ٢٧ ـ ٣٣، الذاريات: ٢٠ ـ ٢٣، ٤٧ ـ ٤٩، ص: ٩ ـ ١٠، الجاثية: ٣ ـ ٥، ١٢ ـ ١٣، فصلت: ٩ ـ ١٢، ٣٧ ـ ٤٠، غافر: ٥٧، مريم: ٦٧، الكهف: ٤٥، سبأ: ٢٢ ـ ٢٧، ٤٦، الأعراف: ٥٧ ـ ٥٨، ٩٧ ـ ١٠٠.	بني إسرائيل: ٦٦ ـ ٧٠،	النحل: ١ ـ ٢١،
قريش تتهم محمد بالجنون والشعر والكهانة والكذب والسحر . . (اتهام)	التكوير: ١٥ ـ ٢٥، الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠، الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣، ٤٨ ـ ٥٢، ن والقلم: ١ ـ ٦، ٥١ ـ ٥٢، يس: ٣ ـ ٥، ٦٩، النجم: ١ ـ ٤، الطور: ٢٩ ـ ٣٠، ٣٣ ـ ٣٤.	الصافات: ٣٥ ـ ٣٦، سبأ: ٤٣ ـ ٤٤، الأعراف: ١٨٤، الحجر: ٦، الأحقاف: ٧ ـ ٨، الذاريات: ٥٢.	المؤمنون: ٧٠، السجدة: ٣، بني إسرائيل: ٤٧ ـ ٤٨، الشورى: ٢٤، يونس: ٢، هود: ١٣، الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢، الأنبياء: ٣ ـ ٥.	الرعد: ٤٣،
قريش تعلن الكفر	الانشقاق: ٢٠ ـ ٢٢، الواقعة: ٤٥ ـ ٤٨، يس: ٧ ـ ١٠، ٤٦، القمر: ٣ ـ ٥، ق: ٥، القيامة: ٢٠ ـ ٢١ (تفضل الحياة الدنيا).	ص: ٢ ـ ٨، الجاثية: ٢٤ ـ ٢٦، ٣٢، فصلت: ٤ ـ ٥، غافر: ٦، ١٢، الزخرف: ٢٠ ـ ٢٢، تبعت سنة الأولين: ٢٣ ـ ٢٤، الكهف: ٥٤ ـ ٥٥، سبأ: ٤٥، الأعراف: ١٠١ ـ ١٠٢، الحجر: ١٣، الذاريات: ٥٢ ـ ٥٣.	المؤمنون: ٦٣ ـ ٧٧، بني إسرائيل: ٤٢ ـ ٤٤ (عقلانية لنفي الشرك)، الأنبياء: ٢١ ـ ٢٢ (نفي الشرك)،	النحل: ٣٧ (وضوح الحق لا يكفي)،

مخاطبة الرسول لشد عزمه والقيام بأعمال تعينه على تحمل المتاعب	الواقعة: ٧٤، ٩٥ ـ ٩٦، البلد: ١٧ ؛ يس: ٧٦، الإنسان: ٢٣ ـ ٢٨، ق: ٣٩ ـ ٤٠، الطور: ٤٨ ـ ٤٩، الضحى: كل السورة، الشرح: كل السورة.	طه: ١٣٠		
محمد ليس مسئولا عن الهداية	الغاشية: ٢٢، الجن: ٢٠ ـ ٢٢، الملك: ٢٦ (لايعلم الغيب)، ق: ٤٥.	الذاريات: ٥٥		
محمد لا يسأل أجرا مقابل الدعوة	ن والقلم: ٤٦، الطور: ٤٠.	ص: ٨٦، سبأ: ٤٧.	المؤمنون: ٧٢، الشورى: ٢٣، يوسف: ١٠٤.	الفرقان: ٥٧، الأنعام: ٩٠.
سخرية قريش من محمد والمسلمين والقرآن	المطففين: ٢٩ ـ ٣٣، النجم: ٥٩ ـ ٦٢، ن والقلم: ٥١، ٤٨ ـ ٥٠ (محمد فكر بالهرب نتيجة تأذيه من السخرية)، يس: ٤٧ (لو الدعوة صحيحة لأطعم الله المؤمنين به).	ص: ١٦، الصافات: ١٢ ـ ١٨، الجاثية: ٧ ـ ١٠، ٣٥، فصلت: ٢٦، الزخرف: ٦ ـ ٧، سبأ: ٢٩ ـ ٣٠، الأعراف: ١٨٧، الحجر: ١٠ ـ ١٢، النمل: ٧١ ـ ٧٢	الكوثر: كل السورة (رد على سخرية من شخص الرسول)	الرعد: ٣٢، الأنعام: ٣٣ (الرسول يتأذى من السخرية).
بشرى بالنصر على قريش	القمر: ٤٤ ـ ٤٥.	ص: ١١، الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣، غافر: ٥١.	يونس: ١٠٢ ـ ١٠٣، يوسف: ١١٠، إبراهيم: ٤٧، الأنبياء: ٩	
قريش تظن أن الملائكة بنات الله	النجم: ٢١ ـ ٢٢، ٢٧ ـ ٢٨، الطور: ٣٩.	الصافات: ١٤٩ ـ ١٦٠، الكهف: ٤ ـ ٥، الزمر: ٤، الزخرف: ١٥ ـ ١٩، ٨١.	المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢، بني إسرائيل: ٤٠، ١١١، يونس: ٦٨، الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨.	النحل: ٥٧ ـ ٦٠، ٦٢، الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠٣،
الجن منعوا من التجول في الفضاء	الجن: ٨ ـ ١٠، الرحمن: ٣٣ ـ ٣٦، الملك: ٥.	الصافات: ٦ ـ ١٠، الحجر: ١٦ ـ ١٨.		
خلق السموات والأرض	ق: ٣٨.	الأعراف: ٥٤.	يونس ٣، هود: ٧، السجدة: ٤.	الفرقان: ٥٩
لن ترى قريش أي معجزة حسية	القمر: ١ ـ ٢	غافر: ٧٨، الأعراف: ٢٠٣، الحجر: ٧ ـ ٨ (طلب رؤية الملائكة)، ١٤ ـ ١٥، طه: ١٣٣.	بني إسرائيل: ٩٠ ـ ٩٣، يونس: ٢٠، هود: ١٢، الشعراء: ٤،	الفرقان: ٧ ـ ٨، ٢٠ ـ ٢٢، العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١، الأنعام: ٧ ـ ٩، ١٣، ٣٦ ـ ٣٧، ٥٠، ١٠٩ ـ ١١١، ١٥٨.

القيامة بالنسبة لمن يموت كلمح البصر	يس: ٤٩ ـ ٥٠، القمر: ٥٠.	الصافات: ١٩، الأحقاف: ٣٥، النازعات: ١٣ ـ ١٤، ٤٦	المعارج: ٦ ـ ٧، الأنبياء: ٤٠.	النحل: ٧٧،
قريش تتربص بمحمد	الطور: ٣٠ ـ ٣٢، ٤٨.	غافر: ٥، الزمر: ٣٦، طه: ١٣٥، الزخرف: ٤١ ـ ٤٢.	بني إسرائيل: ٧٦ ـ ٧٧ (قريش تعمل على إخراج الرسول من مكة)، الشعراء: ١٦٧ (من المعتاد أن يعمل الكفار على طرد رسولهم).	
أنباء عن تاريخ وأنبياء بني إسرائيل وقصص تهمهم ولا تهم قريش		النازعات: ١٥ ـ ٢٦ (موسى وفرعون)، الذاريات: ٢٤ ـ ٣٧ (إبراهيم وضيفه)، ٣٨ ـ ٤٠ (موسى وفرعون)، ص: ١٧ ـ ٢٦، ٣٠ ـ ٤٩ (داوود وسليمان وآخرين)، الصافات: ٨٣ ـ ١٤٨ (إبراهيم وآخرين)، الجاثية: ١٦ ـ ١٧ (من مواقف بني إسرائيل)، فصلت: ٤٥ (من معاندتهم لدعوة موسى)، غافر: ٥٣ (ثناء على كتاب موسى)، غافر: ٢٣ ـ ٤٦ (موسى وفرعون وهامان وقارون وبني إسرائيل)، الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨ (إبراهيم)، ٤٦ ـ ٦٥ موسى وفرعون، وعيسى ابن مريم)، مريم: ٢ ـ ١٥ (زكريا ويحيا)، ١٦ ـ ٣٥ (حمل مريم بعيسى وولادته)، ٤١ ـ ٥٠ (إبراهيم وقومه)، ٥١ ـ ٥٧ (ذكر موسى، هارون، إسماعيل، وإدريس)، الكهف: ٩ ـ ٢٦ (أهل الكهف)، ٦٠ ـ ٨٢ (موسى والفتى)، ٨٣ ـ ٩٩ (ذو القرنين)، سبأ: ١٠ ـ ١٤ (داوود)، ١٥ ـ ٢١ (سبأ)، الأعراف: ١٠٣ ـ ١٥٦، ١٦٠ ـ ١٧٧ (موسى وفرعون، ومواقف بني إسرائيل من موسى)، ١٥٧ (استخدام الأمي لوصف محمد أثناء مخاطبة بني إسرائيل)، ١٥٧ (دعوة صريحة لبني إسرائيل)، الحجر: ٥١ ـ ٦٠، طه: ٩ ـ ٩٩ (موسى وفرعون وبني إسرائيل)، النمل: ٧ ـ ١٤ (موسى)، ١٥ ـ ٤٤ (داوود وسليمان وأهل سبأ)، ٧٦ (القرآن يخبر بني إسرائيل عن حقائق تاريخهم، الأحقاف: ١٢ (ثناء على كتاب موسى)، فاطر: ٣١ (القرآن مصدق لما قبله ولايختلف عنه). لقمان: قصة لقمان: ١٢ ـ ١٣، ١٦ ـ ١٩، الفرقان: ٣٥ ـ ٣٦ (موسى وفرعون)، المؤمنون: ٤٩ ـ ٥٢ (بنو إسرائيل عاندوا موسى) كما في (فصلت: ٤٥)، السجدة: ٢٣ ـ ٢٥ مديح لمؤمني بني إسرائيل زمن موسى، يونس: ٧٥ ـ ٩٣ (موسى وفرعون وبني إسرائيل)، يونس: ٩٤ ـ ٩٥ (دين محمد موافق لدين موسى)، يوسف: ٤ ـ ١٠٢ (قصة يوسف)،	بني إسرائيل: ١ ـ ٨، ١٠١ ـ ١٠٤ (التكليم ولمحات تاريخية)، الشورى: ١٣ ـ ١٤ (دين محمد وإبراهيم وموسى وعيسى واحد)، هود: ١٧ (دين محمد موافق لدين موسى)، هود: ٩٦ ـ ٩٩، الشعراء: ١٠ ـ ٦٨ (موسى وفرعون وبني إسرائيل)، ٦٩ ـ ١٠٤ (إبراهيم وقومه)، إبراهيم: ٥ ـ ٨ (موسى وقومه وفرعون)، ٣٥ ـ ٤١ (إبراهيم وقومه)، الأنبياء: ٢٤، ٤٨ ـ ٥٠ (الدين واحد)، الأنبياء: ٥١ ـ ٧٣ (إبراهيم وقومه)، ٧٩ ـ ٩١ (داوود وسليمان وآخرين)، ٩٢ (كل دعوات الرسل واحدة)، ٤٨ ـ ٤٩ (مديح لرسالة موسى).	القصص: ١ ـ ٤٥ (موسى وفرعون)، ٧٦ ـ ٨٢ (قارون)، النحل: ٦٣ ـ ٦٤ (القرى، يبين لأهل الكتاب كل ما لا يعرفوه أو اختلفوا فيه من دين وتاريخ)، ١٢٠ ـ ١٢٢ (إبراهيم لم يكن منهم)، ١٢٣ (الإسلام دينه).

مستضعفون وكبراء (التابع والمتبوع)		ص: ٥٩ ـ ٦١، الصافات: ٢٧ ـ ٣٤، فصلت: ٢٥ ـ ٢٩، غافر: ٤٧ ـ ٥٠، الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩، سبأ: ٣١ ـ ٤٢، الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩.	بني إسرائيل: ١٦ (الكبراء يقودون الكل للهلاك)؛ الأعراف: ٣٨ ـ ٣٩؛ إبراهيم: ٢٠ ـ ٢١.	القصص: ٦٢ ـ ٦٦.
آدم وإبليس		ص: ٧١ ـ ٨٥، الكهف: ٥٠، الأعراف: ١١ ـ ٢٥، الحجر: ٢٦ ـ ٤٣، طه: ١١٥ ـ ١٢٧.	بني إسرائيل: ٦١ ـ ٦٥.	
الأمر بمقابلة إساءة قريش بالإحسان		الجاثية: ١٤، فصلت: ٣٤ ـ ٣٥، غافر: ٥٥ (اصبر)، الزخرف: ٨٩، الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠١، الحجر: ٨٥، الأحقاف: ٣٥ (اصبر).	المؤمنون: ٩٦، المعارج: ٥ (اصبر)، يونس: ١٠٩ (اصبر وانتظر)،	
مخاطبة كل الناس		سبأ: ٢٨، الأعراف: ١٥٨، فاطر: ٣، ٥، ١٥ ـ ١٧، الزمر: ٢٧، ٤١	بني إسرائيل: ١٣ ـ ١٤، ٧١ ـ ٧٢ (القرآن خلاص لكل الناس)، الشورى: ٧ (التنذر أم القرى وما حولها)، يونس: ٥٧، ١٠٨، الأنبياء: ١ ـ ٢	الأنعام: ١٩، الحج: ١، ٥، ١٧، ٤٩.
الهجرة للحبشة		الزمر: ١٠		
قريش تعرف مساكن بعض الأمم السابقين		الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨، طه: ١٢٨.	السجدة: ٢٦، إبراهيم: ٤٥.	الفرقان: ٤٠، القصص: ٥٨.
محمد قد يموت قبل أن يرى تفوق المسلمين على قريش		غافر: ٧٧، الزخرف: ٤١ ـ ٤٢.	المؤمنون: ٩٣ ـ ٩٦، يونس: ٤٦، الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥.	الرعد: ٤٠،
قريش تجادل الرسول لدحض الحق		الزخرف: ٢٠ (لو شاء الله ما كفرنا)، ٣١ (لماذا محمد)، الكهف: ٥٦، ١٠٣ ـ ١٠٦ (تظن أنها على حق)، الأعراف: ٢٨ (لو شاء الله ما كفرنا)، ١٧٩ (كالأنعام).		الحج: ٣، ٩، ٦٨ ـ ٦٩.
المسلمون ضعفاء		مريم: ٧٣ ـ ٧٤، الأحقاف: ١١.	المؤمنون: ١٠٩ ـ ١١١ (قريش تسخر منهم)،	الأنعام: ٥٣.

المسلمون يشاركون في الدعوة		فصلت: ٣٣، الأعراف: ١٩٣، فاطر: ١٤.		الحج: ٧٢
محمد مجرد نذير وبشير		ص: ٦٥ ـ ٧٠، مريم: ٩٧، الكهف: ٢، الأعراف: ١٨٨، فاطر: ٢٣ ـ ٢٤، الأحقاف: ٩، فصلت: ٦ (محمد بشر)، النازعات: ٤٢ ـ ٤٥، الذاريات: ٥٠ ـ ٥١.	بني إسرائيل: ١٠٥، هود: ١ ـ ٥،	الفرقان: ٥٦،
تشريع		الأعراف: ٢٩، ٣١، ٣٣، (بداية وباختصار)	المؤمنون: ١ ـ ١١، ٥٧ ـ ٦١، المعارج: ٢٢ ـ ٣٥، بني إسرائيل: ٢٢ ـ ٣٩، الشورى: ٣٦ ـ ٤٣،	الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦، النحل: ٩٠ ـ ٩٦، الرعد: ١٨ ـ ٢٢، الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣،
دفع الظلم			بني إسرائيل: ٣٣، هود ١١٢، الشورى ٣٩ ـ ٤٢، الشعراء ٢١٧ ـ ٢٢٧.	النحل: ١٢٦
قريش تصد غيرها عن الإسلام		الزخرف: ٣٧، لقمان: ٦ ـ ٧، الأعراف: ٤٥.	إبراهيم: ٢ ـ ٣	النحل: ٢٤ ـ ٢٥، ٨٨، الأنعام: ٢٦، الحج: ٩.
الهجرة				النحل: ٤١، العنكبوت: ٥٦
البعض هاجر				العنكبوت: ٥٦، النحل: ١١٠، الحج: ٤٠، ٥٨.
البعض ارتد				النحل: ١٠٦ ـ ١٠٩، الحج: ١١، العنكبوت: ١٠ ـ ١١ (البعض منافقين).
البعض صبر على الأذى ولم يهاجر				النحل: ٤٢، ٩٦، العنكبوت: ٥٧ ـ ٥٩، ٦٩.

وبهذا نكون قد تمكنا من تصنيف تتابع أحداث الدعوة في مكة إلى سبع مراحل، بناءً على المنهج الذي اتبعناه لترتيب السور.

تصنيف السور المدنية إلى مراحل

ذكرنا أننا توصلنا للتعرف على السور المدنية وترتيبها حسب النزول قبل السور المكية، لأنها كانت أسهل بكثير من السور المكية. وسيلاحظ القراء أن كل مرحلة من مراحل الدعوة المدنية تحوي سوراً قليلة بالنسبة لمراحل الدعوة المكية. كما أن ترتيب السور ضمن المرحلة الواحدة ظاهر وبين، عكس السور المكية. ومع ذلك فترتيب ثلاث سور مدنية ليس جازماً، وهي البينة، الماعون، وبدرجة أقل الطلاق، لأن هذه السور الثلاث لا تتحدث عن أي وقائع أو أحداث.

والقرآن بدأ النزول في مكة بالفاتحة ومن ثم الأعلى، ثم العلق، لأنها سور تُعرف محمد بخالقه ومرسله، وتلا ذلك بقية سور المرحلة الأولى التي تذكر قريش ببعض نعم الله عليهم لتهيئتهم لقبول دينه، مثل الفيل وقريش، وسور أخرى تؤكد أن هناك بعث وحساب، وهو ما تنكره قريش. ولم يصاحب هذه السور وعيد ولا تهديد، ولا تشريعات، وإنما كانت سور تعريفية تهيئ الناس لتلقي الدعوة.

وعندما هاجر رسول الله للمدينة لم تكن السور الأولى التي نزلت عليه، تتحدث عن الخالق أو البعث والنشور، لأن بني إسرائيل يعرفون الله ويؤمنون بيوم القيامة. ولم تنزل السور الأولى في المدينة لتعرف أهلها بالرسول القادم إليهم من مكة، لأن الأخبار تواترت عنه، وعن مبعثه. كما أن هناك بعض بني إسرائيل والأوس والخزرج قد رأوه وآمنوا به، قبل هجرته، وهم من دعاه للقدوم ليثرب.

لذا فالسور المدنية الأولى إما أن تتوجه بخطاب لأهل يثرب، وبالذات بني إسرائيل منهم، لأنهم كبراء البلد وأغنياؤها، تدعوهم للدخول في الإسلام. أو أن تناقش الأوضاع والأحداث المصاحبة للهجرة والاستقرار في الموطن الجديد. وبناءً على ذلك يمكن التعرف على أي السور نزل أولاً في المدينة.

والذي رسخه الموروث لدى الناس أن سورة البقرة أول ما نزل في المدينة، وقد يكون السبب لأنها تتوجه لبني إسرائيل بخطاب طويل (الآيات ٣٩ ـ ١٤١) تذكرهم فيه بتفاصيل دقيقة عن تاريخهم طواها النسيان وغيبتها آلاف السنين التي مرت منذ عصر موسى، كدليل لا يقبل الشك بأن محمداً رسول لله. كما أنه خطابٌ يُعرف ويُقدم محمداً لبني إسرائيل في يثرب، مثلما كانت الفاتحة والأعلى وقريش والفيل والتكوير وبقية سور المرحلة الأولى في مكة خطابات تعريف للرسول ولقريش بأن محمداً أصبح رسولاً لله.

لكن سورة البقرة تتناول مواضيع عديدة أخرى تدل على أنها لم تنزل مباشرة بعد هجرة الرسول، ومن ذلك أنه من المستبعد أن يكون أول ما يشغل المسلمين في المدينة هو السؤال عن الأهلة (الآية ١٨٩)، وهم لازالوا لم يستقروا بعد. أو أن يستقبلهم الرسول بتشريعات عن المحيض والإيلاء والطلاق والنفقة والرضاعة وعدة المتوفى عنها زوجها. . (الآيات ٢٢٢ ـ ٢٤١)، وهو للتو وطأت قدماه يثرب.

ولن يكون من أولويات الرسول أن يتعرف بالمنافقين (الآيات ٨ ـ ٢٠، ٢٠٤ ـ ٢٠٦) وهو لم يستقر في مسكنه الجديد إلا قبل أيام. ومواضيع أخرى تتحدث عنها البقرة، توحي بأنها نزلت بعد فترة من الهجرة ولم تكن أول ما نزل في المدينة.

وقد أمكن تقسيم السور المدنية[1]، على ثماني مراحل، مرت بها الدعوة

---

(١) المقصود بالسور المدنية هو السور التي نزلت بعد هجرة الرسول للمدينة، ولا تعني بالضرورة أنها نزلت داخل حدود بلدة المدينة.

هناك، بناءً على تتابع الأحداث. فالمرحلة الأولى بدأت بهجرة الرسول وانتهت بنزول آيات الأمر بالقتال. تلتها مرحلة ثانية، بدأت بالأمر بالقتال وانتهت قبل وقوع معركة بدر. والمرحلة الثالثة للفترة الواقعة بين بدر ومعركة أحد. تلتها المرحلة الرابعة للفترة التي بين معركة أحد وحادثة الأحزاب. ثم مرحلة خامسة تعنى بالفترة التي بين الأحزاب وحتى ما قبل فتح مكة. ثم مرحلة سادسة، تتحدث عن فترة فتح مكة. والمرحلة السابعة، تتناول ما حدث بعد فتح مكة. ثم المرحلة الثامنة والأخيرة، تتحدث عن نهاية الدعوة.

وفيما يلي استعراض لهذه المراحل وسورها وما يميزها من ملامح:

مرحلة التوطن والاستقرار

وهي تلك الفترة التي تلت وصول رسول الله إلى المدينة، مهاجراً، واستقراره. وهذه المرحلة لا ذكر فيها لقتال المشركين، لأنه لم يفرض على المسلمين بعد. وقد نزل في هذه المرحلة أربع سور، نوردها فيما يلي مع ذكر الحد الأدنى من الملامح بما يكفي للتأكد من ترتيبها، دون استرسال:

الممتحنة

يمكن الجزم أن الممتحنة أول سورة نزلت في المدينة، وفي الأيام الأولى لهجرة الرسول. وقبل الاحتكاك المباشر مع بني إسرائيل أو الاستعداد لحرب قريش، وذلك بناءً على ما تتحدث عنه آياتها وما تعالجه من مواضيع.

حيث تبدأ السورة بنهي بعض المسلمين المهاجرين عن إبقاء صلات ود مع أقاربهم المشركين الذين للتو أجبروا الرسول والمسلمين على ترك مكة. الآيات: ١ ـ ٩.

وبقية الآيات: ١٠ ـ ١٣، تتحدث عن وصول مجموعة من نساء مكة كمهاجرات، وشك بعض المسلمين بصدقهن، فجاءت الآيات تطلب من المسلمين امتحان إيمانهن، فإن كن مؤمنات بالفعل، فيجب أن يبقين بين

المسلمين ولا يجوز إعادتهن للكفار. وتوجب الآيات انفصال أي مسلم أو مسلمة بزوجه من المشركين، وسن قوانين تضمن إعادة ما تم دفعه من صداق.

الحجرات

تخبرنا عن التصرفات الرعناء البعيدة عن التهذيب التي تفاجأ بها الرسول من جموع الأعراب الذين سارعوا للقائه في الأيام الأولى لوصوله المدينة. وكيف كانوا يتدافعون في مجلسه ويتسابقون على أماكن الجلوس بطريقة فجة، ويتحدثون بشكل جماعي رافعين أصواتهم. وإذا ما كان الرسول في حجرته وقت الراحة، كانوا لا يتورعون عن إزعاجه ويصرخون بمناداته بأصواتهم العالية. الآيات: ١ ـ ٥.

المجادلة

وفيها تواصل الآيات: ١١ ـ ١٣ النهي عن السلوكيات الفجة في مجلس الرسول والحديث معه والتي ذكرت في الحجرات. ولعلها أول سورة مدنية تتحدث عن المنافقين: ٥ ـ ١٠، ١٤ ـ ٢٢.

الجمعة

من أوائل السور المدنية التي تخاطب بني إسرائيل في يثرب، الذين يسمون غيرهم من الأمم بما فيهم بني إسماعيل، بالأميين: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٤﴾﴾.

ثم تذكر السورة أن بني إسرائيل تخاذلوا عن حمل أمانة وشرف هداية الناس لدين الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴿٧﴾.

وهو ما يدل على أن بني إسرائيل قد أعلنوا إعراضهم عن دعوة الرسول منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها محمد للمدينة.

وذكر الأميين في القرآن ورد في سورة مدنية أخرى، هي آل عمران، التي نزلت بعد غزوة بدر، في الآية ٧٥.

وسورة الأعراف المكية: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾.

وهي سورة نزلت بعد أن تحولت السور لمخاطبة كل الناس ومنهم بني إسرائيل. فتكون السور الثلاث، الأعراف، آل عمران، والجمعة، ذكرت الأميين لأنها تخاطب بني إسرائيل الذين يطلقون على غيرهم هذا اللقب. وهذا الخطاب لبني إسرائيل قبل أن يحدث بين المسلمين وبني إسرائيل مصادمات بسبب خيانتهم لمواثيقهم مع المسلمين والتآمر مع أعدائهم عليهم.

ودليل آخر على أن الجمعة نزلت في بداية الهجرة أنها تتحدث عن ترك بعض المسلمين الصلاة مع الرسول في يوم جمعة، والتسابق لاستقبال قافلة تجارية وصلت للتو، الآيات: ٨ ـ ١١. وهذا لابد أنه حدث قبل أن يعي المسلمون الجدد من يثرب أهمية الصلاة وتقديمها على منافع الدنيا.

مرحلة فرض القتال والاستعداد لحرب قريش

وهي تلك الفترة الواقعة بين فرض قتال المشركين وبين غزوة بدر، وعدد سورها ست سور، إضافة لآخر آية في سورة المزمل:

البقرة

وهي أطول سور القرآن وأكثرها تناولاً للمواضيع، ذلك أن المسلمين الجدد في يثرب تقاطروا على الرسول يسألونه أمور دينهم، فنزلت البقرة تجيب على تساؤلاتهم، لذا تردد لفظ «يسألونك» فيها سبع مرات، في الآيات: ١٨٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٧٣.

وفيما يلي بعض الأدلة الأخرى على أنها نزلت في هذه الفترة:

* تتحدث السورة عن تحويل القبلة في الآيات: ١٤٢ ـ ١٥٠، ١٧٧، ولابد أنه حدث في أول العهد المدني، ولا يمكن تصور أنه حدث في وقت متأخر. لأن تحويل القبلة هو في الواقع تصحيح الاتجاه الذي وجد الرسول مسلمي يثرب يتوجهون إليه في صلاتهم، وليس تغيير لقبلة عرفها الرسول منذ بداية الدعوة. وسنتحدث عن هذا الموضوع في القسم الثاني من الكتاب، لأنه من أهم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة.

* قتال المشركين فرض في هذه السورة، وفي الآيات: ١٩٠ ـ ١٩٤، ٢١٦ ـ ٢١٨، ٢٤٣ ـ ٢٤٤: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿٢١٦﴾ البقرة.

* والبقرة أول سورة تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله، وتجهيز الجيش والصرف على نفقات الحرب في الآيات: ١٩٥، ٢١٥، ٢٤٥، ٢٦١ ـ ٢٧٤، ٢٨٦.

النساء

إذا كانت البقرة كتب فيها قتال المشركين، فهذه السورة تهيئ المسلمين للقتال وتحثهم عليه وتنهاهم عن التراخي، في عدد من الآيات منها: ٧١ ـ ٨٤، ٩٥ ـ ٩٦.

آخر آية من سورة المزمل

نزلت في هذه المرحلة لأنها تخبر الرسول أن الله قد أعفاه من قيام الليل لتلاوة القرآن، الذي أمرته به السورة في بدايتها عندما نزلت عليه في مكة، لكي يكون مستعداً لما سيتعرض له من أذى نفسي أثناء الدعوة. والإعفاء جاء لأن الإسلام أصبح له دولة، ولم يعد الرسول صلوات الله عليه والمسلمون مضطهدين، يواجهون جبروت قريش. كما أن عليه وعلى المسلمين اليوم التحضير للقتال والسعي لكسب العيش ومتطلبات الحياة، ولن يكون هذا ممكنا لو أحيوا الليل أو جزء منه، في تلاوة القرآن الذي يمكنهم قراءة ما تيسر منه في أي وقت متاح: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٠﴾.

المائدة

تواصل الحديث عن بعض المواضيع التي ذكرتها سورتي البقرة والنساء، ومن ذلك ما يلي:

* ما يحرم من المآكل

أول ما ورد في سورة النحل المكية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ

الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١١٥﴾ النحل.

وهو ما كررته سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٧٣﴾ البقرة.

ثم جاءت المائدة بتفصيل أكثر: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٣﴾ المائدة.

* ورد تحويل القبلة في البقرة، وفي المائدة ورد فرض الوضوء للصلاة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٦﴾.

* الخمر

ورد ذكره للمرة الأولى في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴿٢١٩﴾.

ثم ورد في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن

كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴿٤٣﴾.

وقد ذكر في سورة البقرة أولاً لأن بعض المسلمين سألوا عنه الرسول، ثم ورد ثانية في المائدة لأن بعض المسلمين كان يحضر للصلاة وهو سكران. وفي سورة المائدة ورد التحريم للخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴿٩١﴾.

الماعون

سورة قصيرة تتوعد المنافقين الذين توعدتهم سورة النساء في العديد من الآيات، منها: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴿١٣٨﴾.

محمد

السورة تشرع بعض ضوابط القتال، وتسن قوانين الأسرى في الآيات: ٤ ـ ٩، ليعمل بها المسلمون في حروبهم المرتقبة. وتبين الآيات: ٢٠ ـ ٢٣، ردة فعل بعض المسلمين بعد فرض القتال. وتقول الآيات: ٢٥ ـ ٣١ أن هناك بعض المسلمين ارتد بعد فرض الجهاد.

وتخبرنا السورة أنه قد انقسم المسلمون لفريقين حيال القتال، فريق أعلن استعداده للخروج، والفريق الآخر كان لا يرغب في القتال، ويدعو لعدم الخروج، الآيات: ٣٣ ـ ٣٧. كما تخبرنا الآية ٣٨ أن بعض المسلمين أنفق لتجهيز الجيش ومصاريف القتال، والبعض الآخر امتنع عن الإنفاق. كل هذه الأحداث سبقت بالتأكيد غزوة بدر، التي كانت أول معركة في الإسلام.

الصف

هذه السورة استمرار للحديث عن مواقف المسلمين من الخروج للقتال

والإنفاق على تكاليف الحرب التي ذكرتها سورة محمد السابقة، وفي الآيات ١ ـ ٤ حث للمسلمين على ألا يتخاذلوا عن القتال وأن يقاتلوا كالبنيان المرصوص الذي لا يتزعزع.

والآيات: ١٠ ـ ١٤ تقول للمسلمين أن التجارة الرابحة ليست التي يمارسونها في السوق، ولكنها الخروج للقتال في سبيل الله وحماية دولة الإسلام والدفاع عن الدين، والإنفاق على تجهيز الجيش.

وهذه الآيات تشير إلى ما حدث من خروج بعض المسلمين من المسجد أثناء الصلاة الذي حدثتنا عنه سورة الجمعة السابقة.

مرحلة ما بعد غزوة بدر

نزل في هذه المرحلة أربع سور، نورد أهم ملامحها باختصار كما يلي:

الأنفال

أول سورة تخبرنا عما حدث في بدر بتفاصيل وافية، الآيات: ٧ ـ ١٤، ٤٢ ـ ٤٩. وهي أول سورة نزلت في هذه الفترة.

الحديد

التي ورد فيها: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم

بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١٢﴾.

وهذه الآيات تحث المسلمين على الاستمرار في الإنفاق على تجهيز جيش المسلمين لأن الحرب مع المشركين مستمرة، وسيكون هناك معارك أخرى. وبما أن بعض المسلمين امتنعوا عن الإنفاق في سبيل الله قبل غزوة بدر ـ كما تخبرنا الآية ٣٨ من سورة محمد ـ فإن هذه الآيات تقول أن من أنفق قبل الفتح، أي معركة بدر، له أجر أعظم عند الله ممن لم ينفق. وتدعو من لم ينفق للإنفاق مستقبلاً[١].

التغابن

نزلت مباشرة بعد الحديد بدليل أن آيات هذه السورة، تكرار لما ورد في السورة السابقة، وتأكيد لها، ومن ذلك:

ورد في سورة الحديد حديث عن قتلى المسلمين في بدر وخسائر مادية: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٣﴾.

وهو ما تكرر في سورة التغابن: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿٢٤﴾.

كما ورد في سورة الحديد حث على جعل الإنفاق في سبيل الله مقدم على

(١) الفتح هنا يقصد به غزوة بدر، لأنها نصر وفتح عظيم للمسلمين، ونقطة تحول هامة في مسيرة الإسلام.

كل مباهج الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٨﴾.

وهذا ما ورد في سورة التغابن: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴿٢٠﴾.

الطلاق

هذه السورة تكمل الحديث عن الطلاق الذي ذكر بداية في الآيات: ٢٢٨ ـ ٢٣٢ من سورة البقرة. وهي سورة من ثلاث سور مدنية لا تخبرنا عن أي حدث أو واقعة، يمكن أن نتعرف بواسطتها على وقت نزولها. لذا فهناك احتمال أن تكون نزلت في المرحلة السابقة أو في هذه المرحلة.

مرحلة ما بعد أحد

عدد سورها ثلاث، هي:

آل عمران

سورة تتحدث آياتها: ٥٦ ـ ١٨٦ بالتفصيل عما حدث في غزوة أحد.

التحريم

نزلت قبل سورة الأحزاب، لأنها تتحدث عن مشاكل عائلية للرسول مع زوجاته، في الآيات: ١ ـ ٥. وتقول الآيات إنه إن حدث ما يوجب الطلاق فسيبدله الله زوجات خيراً منهن: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴿٥﴾.

بينما حرم على الرسول أن يطلق أحداً من أزواجه أو يتزوج بغيرهن في سورة الأحزاب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴿٥٢﴾.

البينة

من السور التي تتوعد من لم يؤمن برسالة محمد من المشركين ومن أهل الكتاب، مما يعني أنها نزلت بعد أن أعلن أهل الكتاب في يثرب رفضهم دعوة محمد، وهو ما أشارت له سور سابقة بدأت بالآية ٥ من سورة الجمعة، التي وصفتهم بالحمار الذي يحمل الأسفار ولا يستفيد مما على ظهره.

مرحلة ما بعد غزوة الأحزاب

وقد نزل في هذه المرحلة ثلاث سور هي:

الأحزاب

وهي تخبرنا في الآيات: ٩ ـ ٢٧ عما حدث في غزوة الأحزاب، وتفضح تعاون بني إسرائيل مع أعداء المسلمين الغزاة.

النور

نزلت بعد سورة الأحزاب لأنها تبدأ الحديث عن تصرفات لا أخلاقية ضد نساء المسلمين صدرت من بعض المنافقين في المدينة، والذي لابد أنه حدث أثناء تغيب رجال المسلمين خارجها لحفر الخندق، وهي المناسبة الوحيدة التي مرت على المسلمين وأوجبت خروج كل الرجال من المدينة. إذ إنه أثناء خروج المسلمين لغزوتي بدر وأحد، قد بقي مجموعة منهم في المدينة.

المنافقون

نزلت على الأرجح بعد غزوة الأحزاب، لأنها تنقل لنا أن المنافقين كانوا يخططون لإخراج المسلمين بعد الرجوع للمدينة. ولم يخرج كل رجال المسلمين من المدينة إلا عندما كانوا يحفرون الخندق، كما سبق وذكرنا:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴿٨﴾.

مرحلة فتح مكة

وعدد سورها اثنين، هما:

الفتح

التي تخبرنا بتفاصيل ما حدث للرسول والمسلمين منذ خرجوا من المدينة وحتى فتحت مكة.

الروم

تتحدث عن هزيمة المسلمين ضد الروم، والمعركة الوحيدة التي التقى فيها المسلمون بالروم في وقت الرسول هي معركة مؤتة، التي انهزم فيها المسلمون ضد القساسنة.

مرحلة قلاقل ما بعد فتح مكة

ونزل فيها سورتين، هما:

براءة/ التوبة

سورة تظهر أن هناك قلاقل وخيانات حدثت من مشركي مكة بعد الفتح، وعاونهم على ذلك بعض بني إسرائيل وبعض القبائل وآخرين.

الحشر

تتحدث عن جلاء أحد قبائل بني إسرائيل من يثرب دون أن يهاجمهم المسلمون، لأنهم استبقوا الأحداث وعرضوا على المسلمين أن يتركوا ديارهم ومزارعهم وأملاكهم مقابل أن يسلموا على أنفسهم وما يستطيعون حمله من متاع، وقد وافق الرسول والمسلمون على ذلك. وسبب عرضهم هذا أنهم علموا أن المسلمين قد عرفوا بخيانتهم وتعاونهم مع أعدائهم.

مرحلة نهاية الدعوة

ونزلت فيها سورة قصيرة واحدة، هي:

النصر

وبرغم أن عدد آياتها ثلاث آيات فقط، إلا أنها تظهر كيف تتابع الناس على الانضواء تحت حكم دولة الإسلام، التي أصبحت قوة مهيبة.

الخاتمة

هنا وصلنا إلى نهاية الجزء الأول من الكتاب، والخاص بترتيب السور حسب النزول. وهي تجربة تمت دون الاستعانة بأي محاولة سابقة، لأنه لم يسبقها إلا ترتيب المفسرين الذي لا يقوم على أسس. وتمنيت عندما بدأت العمل أن يكون كتاب تاريخ القرآن / ثيودور نولدكه، معيناً، على اعتبار أنه يحمل اسم رجل أكاديمي كبير. لكن اتضح أنه لم يخرج عن كونه تكرار لترتيب المفسرين، مع بعض التقديم والتأخير في السور، دون اعتماد ضوابط محددة ومنهجية واضحة، حتى مع السور المدنية البينة الدلالة. وكان هذا اكتشاف مؤسف بالنسبة لي، لأني كنت أرجو أن أجده بحثاً ينير لي الطريق، ويعينني على مشقته.

وبتوفيق من الله، تم إيجاد منهجية عملية بسيطة أمكن الاعتماد عليها في تقسيم فترة الدعوة في مكة والمدينة إلى مراحل، تشترك سور كل مرحلة بنفس الملامح والمواضيع، إضافة للمخاطب ونوع الخطاب، والتسلسل المنطقي للأحداث، وكانت فعّالة في التعرف على ترتيب السور حسب النزول في كل مرحلة. وإن كان هذا لا يعني أن العمل كان مثالياً، أو خالياً من الأخطاء والنواقص.

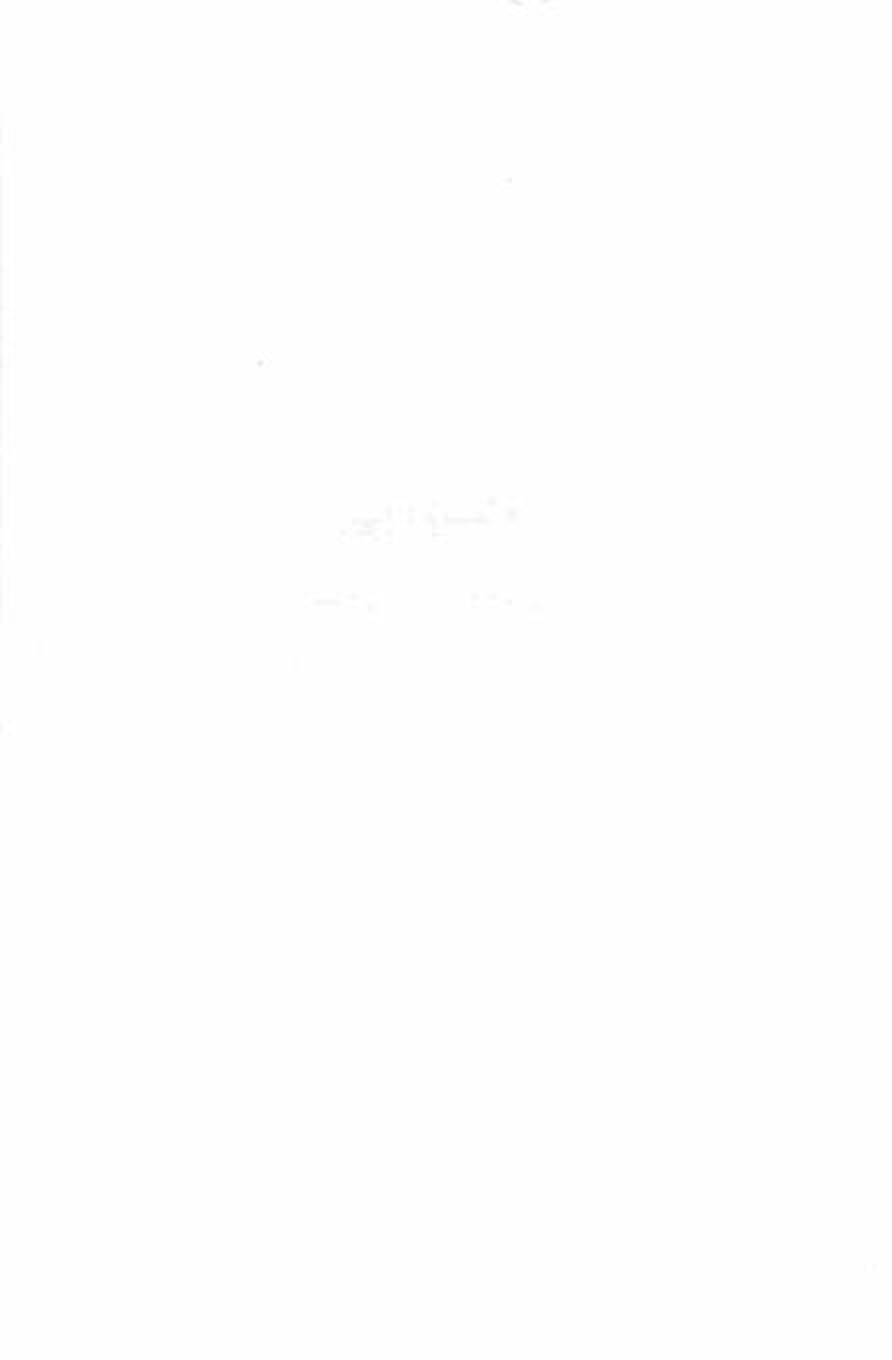
لكن يمكن القول: إن الأخطاء التي وقعنا فيها وإن كثرت، فلأن ما قمنا به يعتبر عمل أولي، نتمنى أن يؤخذ كعمل ناقص يحتاج لتصحيح وإكمال، ويتبعه أعمال أكثر دقة.

وإن كان من المحزن أن ترتيب سور القرآن حسب النزول لم يلق أي اهتمام من المسلمين ومن غيرهم من الباحثين برغم أهميته القصوى للتعرف على القرآن نفسه وعلى تاريخه وتاريخ الإسلام، فإنه من المفرح أن يتم إثراء هذا الموضوع وإكمال نواقصه واكتشاف أخطائه، لأن هذا سيعين على تحسينه والتخلص من بعض ما ليس مرغوباً في وجوده في هذا العمل الهام للمسلمين لفهم دينهم، ولغير المسلمين للتعرف على الإسلام، تشريعاً وتاريخاً، بل وحتى للتعرف على تاريخ بني إسرائيل وأمم سابقة كل ما نملكه عنهم تاريخ مغلوط.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ.

تاريخ الإسلام

«كما ورد من المصدر»



من كتب التاريخ الإسلامي

تداخلت عدة عوامل نتج عنها سجل مكتوب وصلنا على أنه يحكي أحداث التاريخ الإسلامي. ومن أهم هذه العوامل: الأمية والفتوح، السياسة السائدة، الإسرائيليات، تنوع الثقافات، الميول الشخصية، الأحداث الجارية زمن التأليف، وعوامل كثيرة غيرها.

وفيما يلي سنتحدث عن الأمية والفتوح، السياسة السائدة، والإسرائيليات، دون بقية العوامل الأخرى. لأن لها تأثيراً مباشراً على كتابة التاريخ، ولأنها أقوى من تأثير العوامل الأخرى:

الأمية والفتوح

بما أن العرب أمة لا تقرأ ولا تعتمد التوثيق الكتابي لتسجيل الأحداث، فقد حُرِمنا من التعرف على تفاصيل الأحداث اليومية المصاحبة لدعوة الرسول. ولو استقرت الأوضاع السياسية بعد وفاة الرسول، فسيتناقل الناس قصص الأحداث التي وقعت زمن رسول الله عن طريق المشافهة كما اعتاد العرب. ومتى ما انتشرت الكتابة، فستوثق تلك القصص بشكلها الأخير الذي أصبحت عليه قبيل التدوين. وكلما تم توثيق تلك القصص كتابياً بوقت أبكر، كلما قلّت نسبة التشويه والاختلاف الناتجة عن التناقل الشفهي. ولو حدث هذا فسيصلنا تاريخ مختلف عن التاريخ الذي بين أيدينا عن الأحداث المصاحبة للدعوة، وأقرب للدقة.

لكن، وكما هو معروف، فقد خرجت قبائل جزيرة العرب عن طاعة دولة الإسلام بعد وفاة رسول الله، وأعلنت الحرب على المسلمين، مثلما أعلن غير العرب حربهم على المسلمين. فانشغل المسلمون بالحروب، عن رواية الأحداث. وتسبب تواصل تلك الحروب بتناقص شهود العيان لأحداث التاريخ الإسلامي زمن رسول الله بشكل حاد خلال السنوات القليلة التالية.

تزامن هذا مع دخول أعداد هائلة من الناس تحت حكم دولة الإسلام، من مختلف المعتقدات والأديان، خلال فترة زمنية قصيرة. مما جعل من بقي من شهود عيان لا يمثلون نسبة تذكر في مجتمع دولة المسلمين، من جهة، وعدم توفر المناخ المناسب لمن بقي منهم لرواية ما يعرفونه من أحداث من جهة ثانية. وبموتهم فُقد المصدر البشري الحقيقي لرواية التاريخ، وفتح المجال لمختلقي القصص ليكونوا شهوداً على أحداث لم يروها.

وعندما استتب الوضع السياسي في أجزاء كبيرة من دولة المسلمين، زمن بني أمية، كان لا يزال هناك عدد قليل من رفاق رسول الله على قيد الحياة، لكن الحكام تجاهلوهم، لنفور الصحابة الأتقياء منهم، ولعدم رغبة الحكام سماع أو تداول حقيقة ما حدث. واعتمد أولئك الحكام بدءاً بمعاوية على أناس لم يخضعوا لدولة الإسلام إلا حديثاً، ولم يعيشوا الإسلام وأحداثه، ولديهم الاستعداد لاختلاق القصص وكتابتها بالطريقة التي يريد السياسي، من الناس أن يصدقوا أنها التاريخ. كما فعل عبيد بن شرية الجرهمي[١] في العصر الأموي، وكما فعل خلفاء بني العباس مع ابن هشام وغيره. وعدم استعانة أولئك الخلفاء بأي صحابي مقرب من الرسول لكي يروي لهم ما يعرف من أحداث، يظهر الوجهة التي رغب خلفاء قريش أن يتجهوا لها في كتابة تاريخ الإسلام.

---

(١) سيتعرف عليه القراء في فصول لاحقة.

السياسة السائدة

يمكن تعريف التاريخ بأنه: سجلٌ للأحداث يفرضه السياسي على الناس ليصدقوا حدوثه، ولو لم يحدث. والتاريخ المكتوب الذي وصلنا عن أحداث عصر رسول الله وصدر الإسلام، فرضه علينا الحكام العباسيون، الذين قاموا بإعادة كتابته بعد أن قضوا على التاريخ الذي فرضه الأمويون قبل ذلك.

والعباسيون هم سلالة العباس بن عبد المطلب، والأمويون يدينون بدولتهم لأبي سفيان بن حرب. والرجلان كانا صديقين حميمين ونديمين في الجاهلية، ومن سادة قريش وكبرائها. فأبو سفيان أسند له لواء الحرب، والعباس كان يتولى سقاية الحاج. وعندما فتحت مكة، لم يكن هناك من يوازي مكانة هذين الرجلين فيها، لأن جُل سادة قريش الكبار هلكوا في أوقات سابقة. وبرغم أنهما قد أشهرا إسلامهما يوم الفتح ـ أو هكذا نقلت كتب الأخبار ـ إلا أن امتناعهما عن دخول الإسلام طوال عشرين سنة سبقت فتح مكة، يجعل من الصعب قبولهما للإسلام كعقيدة بعد أن أخضع المسلمون مكة، وفقد كل منهما مكانته الاجتماعية. ولعل الأقرب للواقع والتصديق هو أنهما بقيا على عدائهما للإسلام، وأضمرا الثأر منه متى حانت لهما الفرصة.

وقد بقي العباس بن عبد المطلب وأبا سفيان بن حرب متلازمين بعد الفتح، ويقول الإخباريون إنهما كانا حاضرين في المدينة عند وفاة رسول الله، وحافظا على صداقتهما القوية حتى ماتا في العامين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين للهجرة. وعندما توفي رسول الله انحازا في حزب معارض لحكومة أبي بكر، كأول محاولة عملية للاستيلاء على حكم دولة المسلمين، مستخدمين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير في واجهة الحزب. وتقول كتب السير والتاريخ إنهما حاولا إقناع علي بالثورة العسكرية على حكم أبي بكر ووعداه بالمدد، سلاحاً ورجالاً، لكن علي ـ لأمر ما ـ لم يقبل بعرضهما.

ويبدو أن اتفاقهما على الثأر من الإسلام الذي قوض سلطة قريش في

مكة، قد تحول لتركة أورثاها نسلهما، الذين نجحوا ـ دون بقية المسلمين من قرشيين وغيرهم ـ في الاستيلاء على حكم «دولة الخلافة» لمدة سبعة قرون في المشرق وأكثر من ذلك في الأندلس.

وقد تحول حلم قريش بالاستيلاء على الحكم إلى واقع، عندما بايع بعض الناس علي بن أبي طالب بالخلافة، فامتنع معاوية بن أبي سفيان عن المبايعة والتحم مع علي ـ حليف والده السابق ـ بمعركة طاحنة، كانت الحرب الأهلية الأولى في الإسلام. وتوقفت المعركة دون منتصر وخاسر للزعيمين، وإن قضت على عشرات الآلاف من المسلمين. وتم الاتفاق بين علي ومعاوية على اقتسام الدولة، بحيث يكون لعلي جزيرة العرب والعراق وما ورآها من جهة فارس، ولمعاوية الشام ومصر وما وراءها من شمال أفريقيا. ولم يطل بعلي المقام، حيث قتل، فأصبح معاوية الحاكم الأوحد للدولة عام ٤٠ للهجرة. واستمر معاوية في الحكم لمدة عشرين عاماً، مكنته من توطيد حكم قريش على دولة المسلمين، وصبغه بصبغة ملكية مماثلة لحكم البيزنطيين، بعيداً عن الإدارة الإسلامية التي كانت سائدة في عصر الرسول. واستمر توارث الحكم في بني أمية حتى انقلب عليهم بنو العباس بن عبد المطلب في العام ١٣٢ للهجرة واستولوا على الحكم وتوارثوه، ليستمر الحكم القرشي للدولة، إلى أن قضى المغول على آخر سلاطينهم في العام ٦٥٦ للهجرة.

ولو قمنا بمراجعة سريعة لكتب السير والمغازي والتاريخ، فسنجد أن ما وصلنا منها يعود للعصر العباسي، ولم يصلنا من الكتب التي كتبت في العصر الأموي شيء. وكتب السير والمغازي والتاريخ هي البداية لكل ما عرف فيما بعد بكتب التراث الإسلامي، وتفرع لعلوم مختلفة ومنفصلة عن بعضها البعض في قرون لاحقة، على شكل علم الفقه والحديث والتفسير والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وغيرها. حيث بدأت كلها بقصص عن عصر الرسول يتناقلها الناس فيما بينهم مشافهة، ثم جمعت في وقت لاحق على شكل كتب. ولا

يوجد كتاب واحد منها سجل الأحداث في وقتها، أو نقل قصصه عن شهود عيان عايشوا الحدث. وإنما يقوم المؤلف بجمع الروايات والقصص بالشكل الذي أصبحت عليه في وقته، ويعيد صياغتها بما يتواءم مع نظرة السياسي، ويخدم ترسيخ سياسته السائدة، ولا يتعارض معها أو يدينها.

وتوثيق تلك القصص في كتب، ابتدأ بتكليف سياسي. فأول من دون التاريخ في الإسلام، اليمني عبيد بن شرية الجرهمي، بتكليف شخصي من معاوية عندما كان على رأس الحكم. وهو ما يعني أن الأمويين هم أول من كتب تاريخاً لكي يتوارثه الناس عن الإسلام. معتمدين على أناس لم يعرفوا الإسلام ولم يعايشوا الأحداث التي صاحبت الدعوة، ولم يستعينوا بأي شاهد عيان من رفاق رسول الله برغم بقاء البعض منهم على قيد الحياة عندما استدعى معاوية، عبيد بن شرية، ليكتب له التاريخ. لذا فمن المسلم به أن معاوية وكل خلفاء قريش، لم يرغبوا بكتابة أحداث التاريخ التي وقعت بالفعل، لأنها لا تتوافق مع سياساتهم، وتُدينها. فتوجب على المؤرخ أن يعيد صياغة تاريخ صدر الإسلام وحياة الرسول وتعديل أحداثها بما يتوافق مع هذه السياسة. وابن شرية ليس لديه مانع من إرضاء السلطان الذي كلفه، لأنه يرغب في مكافأته، وليس لديه رادع يمنعه. وقد طلبه معاوية من صنعاء فوفد عليه وأمره أن يكتب عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد، فأجابه بما أمر به معاوية أن يدون. فكتب كتابه الملوك وأخبار الماضين؛ الذي لابد وأنه سن الخطوط الحمراء للمؤرخين بعده والتي تعتمد التوافق مع السياسة، ولو خالفت الحقيقة، وهي خطوط بقيت لا يستطيع أحد تجاوزها.

وحرص السياسي على توثيق التاريخ، ليس حرصاً على توثيق الحقائق، ولكن حرصاً على طمس تلك الحقائق إلى الأبد. لأن الناس سيعتبرون الأحداث هي تلك التي تم توثيقها، ولن تتذكر الأجيال اللاحقة الأحداث

الحقيقية. ولو ترك التاريخ تتناقله الألسن مشافهة فسيبقى من حقيقته بعض الأحداث، لكن توثيق تاريخ مزيف سيطمس كل الأحداث الحقيقية للتاريخ. وهذا ما فعلته قريش بتاريخ الإسلام، ويفعله الطغاة دائماً لطمس تاريخهم الحقيقي وتوثيق تاريخ مزيف.

واستمر التاريخ الإسلامي يكتب بقلم الأمويين الذين لا يقرون للإسلام بالتبعية، إلا بمقدار ما يخضع لهم رقاب الناس. ولما انقلب عليهم أبناء عمهم ـ العباسيون ـ أعادوا كتابة التاريخ الذي كتبه الأمويون. ليس من أجل كتابته بدقة وكما حدث، ولكن لكتابته بطريقة تتوافق مع سياستهم، وتطمس كل ما كتبه الأمويون، وما يمجد وجودهم، وإن اتفقوا معهم على مسخ التاريخ. لهذا لم يصلنا كتابات أقدم مدوني السير المستقلين، مثل عروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ)، وأبان بن عثمان ابن عفان (ت ١٠٥ هـ)، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ). التي قد تكون أقرب للحقيقة مما سطرته يد ابن شربة، الذي لم يصلنا ما كتب، ولا غيره ممن اعتمدتهم السياسة الأموية مثل ابن أبي بكر ابن حزم (ت ١٣٥ هـ). وأشهر ما بأيدينا من كتب المغازي والسير كتبها الواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، والبلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، والطبري(ت ٣١٠ هـ)، إضافة لسيرة ابن هشام (ت ٢١٨ هـ)، والذي هو عبارة عن كتاب معدل ومنسق لكتاب سبقه لابن إسحاق (ت ١٥١ هـ)، ويحمل نفس الاسم ـ السيرة.

ولم يقتصر حرص العباسيين على محو آثار الأمويين من كتب التاريخ بل ومن كل ما أمكنهم الوصول إليه أو العثور عليه، وفيما يلي مثالين من قبة الصخرة في القدس على هذه المحاولات:

١ . عند المدخل الشرقي لقبة الصخرة صفيحة نحاسية نقش عليها كتابات عربية كتبت عند بناء القبة في عهد عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ)، ولكن اسمه غير موجود، لأنه ألغي بإضافة السطرين الأخيرين واللذين يذكران المأمون بديلاً له، وكأن العمل قد تم في ربيع أول من عام ٢١٦ هجرية، وكأن القبة أنشأها المأمون.

وهذه صورة الصحيفة:

٢ . وهناك نقش موجود على بناء قبة الصخرة من الخارج، تم التلاعب به أيضاً، بحيث حذف اسم عبد الملك بن مروان وكتب مكانه اسم المأمون. لكن فات من قام بالتدليس أن يغير التاريخ الذي كتب به النص الأصلي في عهد عبد الملك وهو سنة ٧٢ هجرية.

وهذه صورة النقش:

وكما هو واضح، فالسطر الثالث يقول: بنى هذه القبة عبد الله عبـ

السطر الرابع: ـد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة (لاحظ التعديل الذي تحته خط)

السطر الخامس: اثنين وسبعين تقبل الله منه ورضي

السطر السادس: عنه آمين رب العالمين لله الحمد.

وبطبيعة الحال فالمأمون ولد عام ١٧٠ وتوفي عام ٢١٨ هـ[١].

والعباسيون مسخوا ما كتبه الأمويون من تاريخ للإسلام وأورثونا تاريخاً كتبوه هم. ويكون التاريخ الذي وصلنا قد تم تحوير وقائعه وأحداثه بإشراف قرشي، أموي أولاً، ثم عباسي أخيراً، إضافة لتضمينه قصصاً اختلقها أقوام آخرين.

الإسرائيليات

وهي قصص مختلقة يحكيها رجال الدين اليهود للعامة، كتشريعات دينية لم يأمر بها الله، ولأحداث ووقائع تاريخية خيالية لم تحدث.

ولأن هذه القصص أسرع وسيلة لتحول الناس عن الدين إلى تشريعات بشرية، فقد نزلت الآيات القرآنية على الرسول منذ وطئت قدماه يثرب - أرض بني إسرائيل - تفضح ممارساتهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٤٢﴾ البقرة.

وتبين للمسلمين أساليبهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴿٧٩﴾ البقرة.

وما تؤول إليه إسرائيلياتهم: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ

---

(١) مصدر صور النقشين هو موقع Islamic Awareness ورابطه www.islamawareness.net

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿٤٦﴾ النساء.

لأن بني إسرائيل حرصوا، منذ ظهور الإسلام في يثرب، على غواية المسلمين ونشر القصص بينهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٠٩﴾ البقرة.

فجاء تحذير القرآن للمسلمين بعدم الإصغاء لهذه القصص أو تناقلها، لأن نشرها وتصديقها يكون على حساب نصوص الدين القويم وتشريعاته، وهو ما يعني الكفر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴿١٠٠﴾ آل عمران.

لكن يبدو أن تحذيرات القرآن قد ضاعت أدراج الرياح بعد عصر الرسول وتكاثر أعداد من أعلن إسلامه من اليهود والنصارى والمسيحيين، لغرض في نفس يعقوب. وأصبح رؤوس الكفر والفتنة مِن نسل قَوْمِ مُوسَى، أمثال كعب وابن سلام وابن جريج والداري والقرظي ووهب، أئمّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ. فهم أول من غرس بذور الفقه والحديث والتفسير وكل علوم الدين، وهم من أخذنا منهم قصص تاريخ الإسلام وسيرة رسول المسلمين، بعدما حوروه ليتواءم مع ما يريدون غرسه عن الإسلام.

وفيما يلي نبذ قصيرة جدا عن بعض مسلمة اليهود والنصارى والمسيحيين الأوائل، الذين كانوا وراء الكثير من القصص المختلقة في تاريخنا الإسلامي، وما زرع فيه، وأصبح جزء لا يتجزأ منه:

وهب بن منبه

ولد زمن عثمان سنة ٣٤ للهجرة، وهو من يهود اليمن. وقد جاء عنه في

كتب الرجال أن غزارة علمه في الإسرائيليات، أي أنه رأس من رؤوس الضلال التي نهى الله المسلمين في كتابه عن الاستماع لهم أو النقل عنهم. وكان يقول عن نفسه: أنه قرأ ثلاثين كتاباً كلها كتب أنبياء، وفي رواية أخرى قال بضعة وسبعين كتابا، لكي يسهل على العامة تصديق أن كل ما يقوله وينشره من قصص مختلق هو من تلك الكتب. وبطبيعة الحال لا وجود لهذه الكتب إلا في مخيلته هو، وهو يعرف ذلك.

ومن أهم ما روج له وترسخ في معتقدات المسلمين، القول أن الإنسان مسير وليس مخير، وقد كتب عليه الشقاء أو السعادة قبل أن يولد، كما أنه ممن رسخ ما عرف بقصص الأنبياء.

عبد الله بن سلام

من مسلمة يثرب، أعلن إسلامه زمن رسول الله، ومات سنة ٤٣ للهجرة. ومن أهم ما ترسخ في الدين من قصصه: الدابة والدجال، وأشراط الساعة. ومن خرافاته التجسيدية، ما روي عنه قوله: إني رأيت رؤيا، فقصصتها على النبي: رأيت كأني في روضة خضراء، وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه. فصعدت حتى أخذت بالعروة. فقيل: استمسك بالعروة. فاستيقظت وإنها لفي يدي. فلما أصبحت، أتيت رسول الله، فقصصتها عليه. فقال: أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود، فعمود الإسلام، وأما العروة، فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت.

وهذه القصص الخيالية التي تحول العروة الوثقى من معناها الحقيقي في القرآن الذي يعني الطريق القويم، إلى حلقة حديدية، وتحول الإسلام إلى روضة وعمود، هي التي بقيت كدين لله عند المسلمين.

وهذا اليهودي نبتت له ذرية سارت على نفس منهجه، فابنه «أحمد» قام

بترجمة كتب اليهود للعربية في أوائل السنة الثانية للهجرة. ليسهل النقل من نصوصها وتضمينها كتب المسلمين، وهو ما حدث بالفعل، ولو كان هو وأبوه مسلمين لما قاما بترجمة كتب الضلال للمسلمين.

وهذا الولد هو من نشر قصص والده وأقواله وأوصلها للرواة والقصاص. وله أخ يسمى يوسف أصبح من أهم من أخذ عنه الأحاديث، وملأت رواياته سنن أبي داوود والترمذي.

ومن يهود يثرب يمين بن عمير، أبو سعد بن وهب، ثعلبة بن سعية، أسيد بن سعية، أسد بن عبيد، عمرو بن سعدى، وثعلبة بن قيس. وأبناء هؤلاء هم من نقل أخبار يهود يثرب المختلقة وروج لها وهم من قال بمذبحة بني قريظة الخيالية، وأوصلوها لابن إسحاق وغيره من الإخباريين والمحدثين والمفسرين.

محمد بن كعب القرظي

المولود عام ٤٤ للهجرة. وكان من القصاص والمؤولين للقرآن، وقصصه مصدر رئيسي لأخبار المدينة زمن رسول الله. وكان ابن إسحاق متصلا به اتصالا وثيقا، ونقل عنه الكثير من القصص. كما نقل عنه الكثير من الرواة والقصاص غير ابن إسحاق، وكان على صلة وثيقة بالخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وبينهما مراسلات.

ابن سبأ

الذي ظهرت فرقة المرجئة بسبب ما نشره من قصص، وهو أول من قال بإمامة علي بن أبي طالب، وأظهر البراءة من أعدائه. ومما ترسخ لدى الشيعة من أفكاره اليهودية إيمانهم بمجيء المسيح المنتظر، في شخص الإمام الغائب.

ونختم الحديث عن مسلمة اليهود بأكثرهم نشاطاً وتأثيراً في التراث الإسلامي، شيخ مسلمة أهل الكتاب:

كعب الأحبار

الذي أعلن إسلامه بعد وفاة الرسول، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر، فجالس أهلها، وكان يُحدِّثُهم بقصص عجيبة يقول أنها من كتب سماوية. ونشر عن نفسه أنه كان خبيراً بكُتُب اليهود، يعرف صحيحها من باطلها، وذلك لكي يؤخذ منه كل ما يقص به على أساس أنه لا يقص إلا ما هو صحيح. وبطبيعة الحال ليس في كتب اليهود صحيح، وليس فيما يقصه كعب من مصدر، لأنه قاص، والقاص يحترف اختلاق القصص.

وتأثيره لا حدود له في التراث الإسلامي وفي كل العلوم المسماة إسلامية. ومن ذلك نشأة القول بالتجسيم عن الله تعالى، وأن له يد ورجل ووجه وجسد ونحو ذلك. وهو من بذر تعظيم إيليا ـ القدس الحالية ـ (لأن اليهود يعظمونها) والقول إنها وطن الأنبياء. ومن ذلك تم اختلاق قصة الإسراء والمعراج لترسيخ هذه الأفكار. والقول برؤية البشر لله، إضافة لترسيخ التزلف للحكام، واشتراكه مع ابن وهب في وجوب طاعة السلاطين، حتى يكسبوا رضاهم ويتمكنوا هم من نشر أفكارهم تحت سمعهم وأبصارهم.

ويروي الطبري أن كعب الأحبار جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام، وقال له: اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام. وعمر لا يحس وجعا ولا ألما. فقال عمر: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة.

قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟

قال: اللهم لا! ولكن أجد صفتك وحليتك وإنه قد فني أجلك!

فلما كان من الغد. جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان. ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة. وهي لك إلى صبيحتها. فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة، وكان يوكل بالصفوف رجالا، فلما استوت جاء فكبر. ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له

رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات، إحداهن تحت سرته، وهي التي قتلته. فقال عمر قبيل وفاته: توعدني كعباً ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قال لي كعب

وتعليقاً على هذه القصة ـ إن صدقت ـ نقول ما قاله عنها أحمد أمين: «إن كعبا كان يقف على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها في هذه الصيغة الإسرائيلية».

وكل من ذكر من مسلمة يهود كانوا على علاقة بالسلاطين والحكام، وهو ما سهل لهم ترويج قصصهم وترسيخها في دين الله وفي كتب التاريخ الإسلامي. كما أنه يدل على موافقة الحكام لما ينشرونه بين الناس، واتفاقهم معهم عليه.

وكما اليهود فقد كان هناك مسلمة نصارى ومسيحيين، شأنهم شأنهم، ومنهم:

تميم الداري

الذي يقال أنه أول من تجرأ على القصص في الإسلام. وأحاديثه التي تعج بها كتب الأحاديث مسيحيتها ظاهرة، مثل الحديث الذي رواه البخاري في كتاب الخلق على لسان أبي هريرة، قال: قال رسول الله: كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب. ومما رسخ في تراث المسلمين قصصه عن الدجال والدابة.

ابن جريج الرومي

المولود سنة ٨٠ والمتوفّى عام ١٥٠، والذي يصفه أحمد بن حنبل بأنه من أوعية العلم، لكثرة قصصه، ولأن ابن حنبل نقل عنه وتأثر به. ومما روج له ورسخه ابن جريج، زواج المتعة.

ونكتفي بما تقدم، فلا حاجة للتوسع أكثر، لنبين أن دولة الإسلام بعد الرسول استولى على حكمها سلاطين قريش الذين كانوا طوال زمن الرسول

يقاتلون المسلمين للقضاء على الإسلام: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢١٧﴾ البقرة.

ولما اندحروا وضاعت سلطتهم على مكة، وأجبروا على الدخول تحت حكم دولة الإسلام، زادت نقمتهم على الدين والمسلمين. وسنحت لهم الفرصة للثأر، باستيلائهم على الحكم. فسعوا لتقويض دين الله من الداخل بمعاونة رجال الدين اليهود والنصارى والمسيحيين المتأسلمين، وذلك بتأصيل تشريعات ومعتقدات غريبة كبديل لتشريعات القرآن. وتحتم على ذلك مسخ أحداث التاريخ واستبدالها بقصص وأحداث لم تقع، لتتوافق مع التشريعات المختلقة، ولأن إبقاء أحداث التاريخ سيفضح مفاسدهم التي أدخلوها على الدين، وطغيانهم في حكم المسلمين.

ولم يكن هناك أكثر غنى وتنوعاً، في الخرافات والمعتقدات الغريبة، من قصص بني إسرائيل والمسيحيين، الذين يسعون هم أيضاً ـ كما قريش ـ لهدم الإسلام من الداخل بعد أن عجزوا عن القضاء عليه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٠٩﴾ البقرة.

وسرعان ما تقرب الحكام القرشيون لليهود والمسيحيين ومن بقي من النصارى ووالوهم وأكرموهم وأكثروا من التودد لهم. ولم يقتصر التكريم على من سبق ذكر أسمائهم من مسلمة اليهود، بل طال الجاليات اليهودية والمسيحية كافة.

فقد أقر دستور خاص لليهود في دولة بني أمية، ليس من قبيل «لكم دينكم ولي دين، كما أمر الله، ولكن من قبيل عدو عدوي صديقي». وكان رئيس

الجالية اليهودية يسمى رأس الجالوت وعميد الهيئة الدينية يسمى الجاعون. وكان منصب رأس الجالوت، الذي يعني أمير اليهود في المنفى، منصباً سياسياً تحت سلطة الدولة القرشية[1].

ولم تتغير معاملة قريش الودودة لليهود حتى بعد أن ظهر عدد منهم يزعم كل واحد منهم أنه المسيح المنتظر الذي سيقيم دولة إسرائيلية في فلسطين تعيد مجد مملكة داوود، وهو ما يعني الثورة على الحكام. ومن هؤلاء سيرين «Serenus» الذي تنبأ بعودة فلسطين لليهود، وقد ذاعت شهرته لدرجة أنها وصلت للأندلس وقد تحمس كثير من يهود الأندلس له وتبرعوا له بأملاكهم وأعلنوا تبعيتهم له.

ثم ظهر يهودي آخر اسمه عوفيد في أصفهان وأعلن أن فلسطين يجب أن تكون ملكاً لليهود بالقوة. ودعا اليهود لتحقيق ذلك، فتجمع له ما يقارب العشرة آلاف، كانوا يهتفون له بالمسيح. وتحولت حركته لثورة على العباسيين الذين للتو استولوا على الحكم، فأرسل له المنصور جيشا هزمه وقتل عوفيد، الذي تنكر لفضل العباسيين عليه وعلى اليهود، وكان سيثور عليهم في سبيل إقامة دولة يهودية.

كما لقي المسيحيون كل التكريم تحت حكم قريش، فعندما أصبح معاوية بن أبي سفيان القرشي حاكماً، جعل سرجون بن منصور الرومي المسيحي، كاتب القصر الملكي وصاحب أمر الحاكم. واستمر هذا المسيحي في منصبه بعد معاوية إلى أن توفي، في خلافة عبد الملك بن مروان. ليرثه ابنه يحيا، الذي ترك العمل لسبب ما في قصور بني أمية في العام ١١٢، قبيل انهيار دولتهم، والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس، حيث أصبح من أشهر رجال الدين المسيحيين. وخلد اسمه كأول مسيحي يهاجم الإسلام في كتاب سماه

---

(١) كما أورد بركات أحمد في مقدمة كتابه محمد واليهود ـ نظرة جديدة. ترجمة محمود علي أحمد، والذي نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦.

هرطقات محمد، اعتبر نبراساً للتهجم على الإسلام إلى اليوم في أيدي المبشرين.

وكان شاعر البلاط في الدولة الأموية مسيحي أيضاً، وهو الأخطل. كما كان ابن أثال الطبيب المسيحي طبيب معاوية الخاص، واستمر العديد من المسيحيين يتقلدون المناصب الهامة في كل أقاليم دولة بني أمية.

وهذا التبجيل تواصل في دولة بني العباس. فقد كان من أشهر أطباء بلاطهم جرجس بن بختيشوع، الذي قربه المنصور، وكان واسع الحظوة عنده. كما كان طبيب البلاط في عصر المعتصم المسيحي سلمويه بن بنان، وفي عصر المتوكل كان بختيشوع بن جبرائيل.

وينقل مصطفى السباعي في كتابه «من روائع حضارتنا» أنه: «كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها، وكان يقول لهم: ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني، كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية».

وصاحب هذا التكريم لليهود والمسيحيين، هَضم حقوق المسلمين. وتكون قريش هي من رسخت تبجيل الخواجات، وإهانة المسلمين، وهو نفس الهوس الذي نرى عليه حكام المسلمين اليوم.

ولتأكيد أن التاريخ الذي وصلنا عبارة عن قصص مختلقة لم تحدث، ولكنها ترسخ ما يريد من اختلقها ترسيخه، نُذكّر القراء بقصة بني قريظة التي زعم من اختلقها أن الرسول ـ بناءً على اقتراح من سعد بن معاذ ـ قد أمر أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء. وكان عدد الرجال ما بين ٦٠٠ ـ ٩٠٠ رجل، قتلوا ودفنوا في سوق المدينة.

ولن نعود للقصة فقد تناولناها بتفصيل في كتاب سنة الأولين، وذكرنا استحالة حدوثها، أو أن يدفن مثل هذا العدد الهائل في سوق المدينة، واستحالة أن يعص الرسول القرآن ويسبي النساء.

ومثل قصة بني قريظة، اختلاق حكاية تسري الرسول بصفية بنت حيي اليهودي، والتي تقول إنه قتل والدها أولًا، ثم قتل زوجها في نفس اليوم الذي تسرى بها. وهذه الصور لو كانت قد حدثت لكان محمد طاغية كأي حاكم قرشي، وتصديقنا عن رسول الله هذه التصرفات، موافقة لحكام قريش الذين اختلقوها، لترسيخ الصورة التي أرادوا أن ترسخ عنه عليه الصلاة والسلام. وقد بقي استيلاء الحكام على النساء كسبي إلى أوائل الستينات الميلادية من القرن العشرين، عندما خجل العالم من هذه الممارسات، وحرمتها هيئة الأمم المتحدة. ولا زال الكثير من أبناء ملوك العرب الأحياء ولدوا من أمهات سبي.

ومثلها قصة مختلقة عن البجليين[1] الذين قتلوا راعي الرسول وسرقوا إبله فقطع الرسول أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة يستغيثون ولا يغاثون حتى ماتوا. ومثلها توثيق رثاء قتلى بدر من مشركي قريش في كتب السير والتاريخ بقصائد محزنة.

كما أن هناك بعض القصائد والأشعار التي تسب صحابة رسول الله، كالتي تعج بها سيرة ابن هشام والتي يوردها على أنها رد من بعض رجال قريش ونسائهم على ما قاله شعراء مسلمون كحسان بن ثابت، أو على شكل رثاء لقتلاهم في بدر أو أحد. وهي لا تختلف عن الأبيات المنسوبة ليزيد بن معاوية، سواءً قالها أو لم يقلها، والتي تتشفى بقتل أحفاد المسلمين نكاية بما فعله أجدادهم بمشركي قريش في بدر، والتي منها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت بقباء بركها ... واستمر القتل في عبد الأشل

وإيراد مثل هذه القصص في كتب التاريخ يستحيل أن يقبل بها إلا من لا يؤمن بالإسلام، ويسعى لترسيخ الكراهية والحقد عليه وعلى رسوله، بغض

---

(١) نفر من قيس كبة من قبيلة بجيلة.

النظر عن صدقها أو كذبها. لأنه لو افترضنا أنها قد حدثت بالفعل، فتوثيقها في كتب التاريخ يحتاج لمصداقية وحياد يستحيل وجوده في بني العباس، الذين تنتفي من أخلاقهم وسلوكياتهم أدنى درجات المصداقية. وهم الذين ابتدأوا حكمهم بسحق بني أعمامهم - بني أمية - وسحق كل من يتعاطف معهم وسحق كل من يعارضهم، لدرجة سمي أول حاكم منهم بالسفاح لكثرة ما سفك من الدماء. وأعقبه المنصور الذي فاق سلفه في سفك الدماء، وفي خيانة العهود والمواثيق التي قطعها على أعدائه والمخلصين له على حد سواء. وهذه الأخلاق العباسية في سفك الدماء وخيانة العهود بعد توثيقها، تجعل من المستحيل عليهم أن يتمتعوا بأي مصداقية لكي ينقلوا لنا أحداث التاريخ بكل تجرد.

ونعود ونقول إن السياسي هو من كتب التاريخ الإسلامي، إلا أن السياسي لا يكتب بيده، ولكنه يكلف من يكتب ما يريد، أو يختار من الموجود من الكتابات، أو يتساهل مع بعض الكتابات المتداولة ويمنع البعض الآخر. ولأن سياسة بني العباس تخالف سياسة بني أمية، فقد أجاز الأمويون كتبا، لم تلق القبول عند من خلفهم من بني العباس. ومن ذلك كتاب سيرة ابن إسحاق الذي استبدله العباسيون بسيرة ابن هشام. وكل الكتب التي وصلتنا اجتازت امتحان القبول لدى سلاطين بني العباس، وطوى النسيان كل كتاب رسب في ذلك الامتحان، سواءً كتب بإرادة سياسية أو كان كاتبه يتوخى الصدق في رواية الأحداث قدر المستطاع.

المنهجية المتبعة
لكتابة تاريخ الإسلام

القرآن لا يشبه أي كتاب مقدس لأي ديانة أخرى، وإن احتوى بعض القصص التاريخي أو المواعظ، فهو يعرضها بطريقة مختلفة، وبطريقة فريدة لا يجاريه فيها كتاب آخر.

وعلى سبيل المثال، فالكتاب المقدس لليهود المعروف بكتب العهد القديم (وهوغير التوراة)، يتحدث بإسهاب عن الأشخاص وزوجاتهم وأولادهم وبناتهم، ويعطي لمواليدهم ووفياتهم تواريخ، كما يلي: «وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش. وعاش شيث بعدما ولد أنوش ثماني مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات. فكانت كل ايام شيث تسع مئة واثنتي عشرة سنة ومات. وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان. وعاش أنوش بعدما ولد قينان ثماني مئة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل ايام أنوش تسع مئة وخمس سنين ومات. (التكوين: ٥: ٦ ـ ١١).

ومثله في الحديث عن موسى: «فمات هناك موسى عبد الرب في ارض موآب. . . . ودفن في الجواء في ارض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكلّ عينه ولا ذهبت نضارته. فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوما. فكملت أيام بكاء مناحة موسى (التثنية: ٣٤: ٥ ـ ٨).

أما القرآن فلا يعطي مثل هذه التواريخ، ولا هذه التفاصيل، ولا هذا السرد، فليس هناك أي إشارة لتاريخ ولادة محمد، وليس هناك معلومات واضحة عن نشأته ولا متى بدأ ينزل عليه الوحي، ولا كم سنة بقي في مكة وفي المدينة. . . . الخ.

في المقابل، فإن القرآن نزل مرتلًا على مدى سنوات يقول الإخباريون إنها بلغت ٢٣ سنة، ولم ينزل كالتوراة مرة واحدة، لم تستغرق من موسى سوى ٤٠ يوماً ليكمل نسخها على الألواح، ويأخذها لبني إسرائيل. وهذا الاختلاف بين الكتابين يعني أن التوراة تحوي الأمور الدينية فقط كالتشريعات والحدود والأوامر والنواهي، ولا شأن لها بما يجري في الحياة اليومية لبني إسرائيل أثناء حياة موسى. أما القرآن فيتعامل مع كل دقائق وتفاصيل ما يجري في حياة المسلمين ومن يتعامل معهم زمن رسول الله. وكل سورة من القرآن ـ إضافة للتشريعات ـ تنزل لتتحدث عن وقائع حدثت أو على وشك الوقوع، ولتعطي إرشادات لما يجب فعله تجاه ما يحدث، وهذا ما نبحث عنه لكتابة تاريخ الإسلام.

مع ملاحظة أن استقراء الأحداث من السور يختلف بين السور المكية عموماً والسور المدنية. حيث تبدو السور المدنية حبلى بالأحداث ومن السهولة رصدها وكتابتها، بينما نجد أن الكثير من السور المكية في المرحلة الواحدة، تبدو، للعين العادية، وكأنها سورة واحدة تتكرر بعبارات مختلفة، مع بعض الإضافات، دون ذكر صريح لواقعة واحدة يمكن أخذها كحادثة تاريخية. وفي فصل تقسيم السور المكية حسب مراحل الدعوة، أوردنا ١٧ سورة نزلت بالتتابع، كلها تخلو من ذكر حادثة واحدة. وهو ما ينطبق على كثير من السور المكية الأخرى. فقريش كفرت ولن تغير موقفها، والدعوة استمرت، دون أن يكون هناك مواجهات بين قريش والرسول ومن آمن معه، خاصة في المراحل الأربع الأولى من الدعوة، عندما كان المعني بالخطاب

قريش وحدها، مما جعل الأيام تسير على وتيرة تبدو وكأنها واحدة لا تتغير طوال تلك المراحل التي استغرقت أكثر من نصف وقت الدعوة في مكة.

ومع ذلك، فهذه السور هي مصدرنا في كتابة تاريخ الفترة التي نزلت فيها، وعلينا أن نروض أنفسنا على التركيز وملاحظة الإشارات والتلميحات التي تحويها الآيات لكي نكون قادرين على استنباط الأحداث، وهو ما يمكن القيام به بعد أن نكتسب القدرة على ذلك بالتجربة. وكمثال نقول: أن سورة الانشقاق التي نزلت في المرحلة الرابعة تقول: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٤﴾.

فالحدث إذاً هو: أن قريش ليس فقط كفرت، ولكنها مصرة على الكفر بحيث لم تعد تعير اهتماماً للقرآن، عندما يتلوه عليهم محمد.

وبهذه الطريقة سنستنبط الأحداث من السور المكية، والتي ستبدو وكأنها ذكر للمواضيع التي تتناولها السور أقرب منها لسرد وقائع تاريخية. وهذا لا يعني أن كل سنوات الدعوة في مكة كانت بدون أحداث، ولكنه يعني أن الأحداث المصاحبة للدعوة في مكة لا تتغير إلا بتغير الأوضاع. والأوضاع لا تتغير إلا بتغير المخاطب ونوع الخطاب في السور. لأن تغير الخطاب في السور المكية يولد تغير الأوضاع، وتغير الأوضاع يولد الأحداث.

ولو لم يتغير خطاب القرآن، ويتوجه بالدعوة للناس كافة، بدءاً من المرحلة الخامسة، فلن يزيد عدد المسلمين كثيراً، مهما بقي الرسول يدعو قريشاً. ولو مات الرسول والخطاب موجه لقريش فقط، كما في المراحل الأربع الأولى، فلن يكون هناك إسلام، ولكن إيمان بوجود الله والبعث، دون وجود تشريعات وأحكام وأوامر ونواهي، فيما عدا الصلاة بلا أوقات محددة، والإنفاق. وقد تتمكن قريش من إجبار من بقي في مكة من المسلمين على

الردة أو قتلهم. كما ستنقطع صلة المسلمين المهاجرين «للحبشة» بمكة إلى الأبد، وسينتهي بهم المطاف للاضمحلال.

لكن الخطاب والمخاطب تغير بعد المرحلة الرابعة، كما رأينا في القسم الأول من الكتاب، عند الحديث عن مراحل الدعوة في مكة. حيث اتجه الخطاب لكل الناس بجانب قريش، مما أدى إلى إسلام عدد من المستضعفين في مكة، وعدد من بني إسرائيل من يثرب، وأناس آخرين من مناطق أخرى. وهذا ولّد ردة فعل لدى كبراء قريش، فضيقوا على مسلمي مكة الجدد الخناق وعذبوهم، وحاولوا صد الآخرين من خارج مكة عن الإسلام، ومنعهم من لقاء محمد. وتطورت الأوضاع في مكة ويثرب، وكان من نتائجها الهجرة.

وبالتالي، يمكن القول أن النصف الأول من فترة الدعوة في مكة كان شحيح الأحداث، بينما انقلبت الأحوال في النصف الثاني وتتالت الوقائع.

فيما نجد أن السور المدنية غنية بالأحداث، بغض النظر عن طول أو قصر السورة. فسورة النصر، مثلًا، والتي لا تزيد عن ثلاث آيات، تُصور تتابع قبائل جزيرة العرب الدخول تحت حكم دولة الإسلام، وهو موضوع يمكن تأليف كتاب كامل عنه.

وحتى تلك السور المدنية التي نزلت لتفرض تشريعات محددة، مثل النور، فهي أيضاً تتناول مواضيع يمكن أن يصاغ منها أحداث تاريخية. فكل سورة من السور المدنية تبدو كأنها سجل وثائقي تفصيلي لعدد كبير من الأحداث والقضايا، يسهل تتبعها والتعرف عليها، كما سنرى.

ما قبل كتابة تاريخ الإسلام

قبل أن نبدأ استنباط الأحداث من السور لكتابة تاريخ الإسلام، يتوجب علينا أن نتعرف على الإسلام، كما يصفه القرآن. ثم نقدم تعريفاً مختصراً عن كتاب الله، وعن محمد، الرسول الذي نطق بالقرآن، مصدر معلوماتنا عن التاريخ. يليه تقديم نبذة مختصرة عن إبراهيم وذريته. كونه الأب الأول للإسلام، وذريته هم قريش وبنو إسرائيل، الذين خاطبهم القرآن مباشرة، والذين كان لهم التأثير المباشر على تاريخ الإسلام. وسيسبق كل ذلك إلقاء الضوء على صفة من صفات الله، خالقنا، ومن أنزل علينا، القرآن، مصدرنا.

الله

لو قلنا أنه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٤﴾ الحشر.

فهو سبحانه كذلك.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٧٠﴾ القصص.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴿٣﴾ الأنعام.

وهو ملك يوم الدين: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴿١﴾ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾ الفاتحة.

يوم لا ملك إلا ملكه: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴿٥٦﴾ الحج.

وليس معه آلهة من مثله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴿٦٥﴾ ص.

وليس له شريك من خلقه، سواءً كان صنماً لا يشعر: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴿١٩٥﴾ الأعراف.

أو رجال دين: ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴿١٩٢﴾ الأعراف.

فهو المعبود وحده: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٦٥﴾غافر.

وهو: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴿٦٢﴾ الزمر.

وهو: ﴿........عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴿٣﴾ سبأ.

وهو صمد لا بداية له ولا نهاية، ولم يلد ولم يولد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴿٤﴾ الصمد.

وكل ما نعرفه أو يمكننا تخيله فليس لله منه شيء، ولو بصورة مختلفة: ﴿.......... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴿١١﴾ الشورى.

فليس له جسد محسوس أو أطراف، وليس من طاقة كالملائكة والجن، وليس له شكل ولا حيز، ولا يمكن تخيل ما يكون. وأي وصف حسي لله فهو منه براء: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴿١٨٠﴾ الصافات.

وهو سبحانه كل ذلك وأكثر، ولن نتمكن من تتبع كل ما وصف الله جل وعلى به نفسه، لكننا سنكتفي بتناول بعض جوانب صفة واحدة من صفاته تبارك وتعالى، لأن خلق الكون وما فيه، وخلق كون القيامة وما فيه، قام عليها. ولأن لها صلة مباشرة بالدعوة والدين ـ موضوع بحثنا. والصفة هي:

العدل المطلق

فكل ما خلقه الله قام على العدل المطلق «القسط»: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٨﴾ آل عمران.

وفيما يلي بعضاً من جوانب هذه الصفة:

* أنه سبحانه لم يخلق الكون إلا لحكمة: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴿٣﴾ الأحقاف.

ولم يخلق المخلوقات للهو واللعب والتسلية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴿١٧﴾ الأنبياء.

* أنه سبحانه لم يقدر أرزاق الناس في الدنيا مسبقاً، بل ترك معاش الدنيا مشاع بينهم، تحكمه الظروف والحظ وأسباب أخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴿٢٠﴾ الشورى.

ولم يقدر على الناس أجالهم، بل جعل المرض والهرم والحوادث سبباً

للموت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴿٥﴾ الحج.

ولم يقدر على أحد الشقاء أو السعادة، بل ترك للناس تقرير مصيرهم بأنفسهم بين الإيمان والكفر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴿٣﴾ الإنسان.

* أودع في النفس البشرية عقلًا قادراً على تمييز الحق: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿٥٣﴾ فصلت

وكل ما على الإنسان هو السماح لعقله بالتفكير وسيهتدي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٣٣﴾ الأحقاف.

* وسيحاسب الناس يوم القيامة بعدل مطلق: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾يونس٥٤.

والحساب سيكون كامل الدقة، وبناءً على ما سجل في صحيفة الأعمال منذ خلق الإنسان وحتى وفاته، دون تدخلات: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء٤٧.

ووجود سجل للأعمال داخل النفس شهادة للمرء على نفسه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ

قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴿١٧٢﴾ الأعراف.

* ولن يسامح الكافر ويغفر له أو يعامل معاملة المؤمن: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴿٣٦﴾ القلم.

لأن مسامحة الكافر فيه جور وظلم للمؤمن مخالف لعدل الله المطلق: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿٢٢﴾ الجاثية.

* كل الناس أرسلت لهم رسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴿٣٦﴾ النحل.

ولم يهلك الكافر لكفره، ولكن لمحاربته للدين: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴿٥٩﴾ القصص.

وكل الأمم التي أهلكت، أنذرت قبل هلاكها: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴿٢٠٩﴾ الشعراء.

* ومن لم يبعث لهم رسول فلن يعذبوا يوم القيامة على كفرهم: ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ بني إسرائيل١٥

* الدين واحد لكل الناس في كل العصور: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴿١٣﴾ الشورى.

* والدين يقوم على كلام الله وحده: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ق٤٥

ولا يستطيع الرسول، أي رسول، أن يدعو لدين الله بغير كلام الله، ولو فعل لعاقبه سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴿٥٢﴾ الحاقة.

* كلام الله يجب أن يكون مفهوما من كل أحد دون معاونة من خلقه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾القمر٢٢.

* خلق الناس سواسية لا طبقية ولا تمايز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات١٣.

* خلق الرجل والمرأة متساويان في الواجبات والحقوق: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٩٧﴾ النحل.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران١٨.

وقد سبق وتحدثنا بشيء من التفصيل عن الوحي وكيف يتلقاه الرسول، في كتب سابقة، لذا لن نكرر حديثنا عنه هنا. ولكن فقط نشير إلى أن الوحي ينسخ في ذاكرة الرسول، وبطريقة غير قابلة للنسيان، دون أن يكون بمقدور الرسول رده أو قبوله.

الإسلام

الإسلام يعني عقد اتفاق بين الله والعبد، يحصل العبد بموجبه على سعادة الدنيا ونعيم الآخرة مقابل تعهده بإتباع أوامر الله كلها وامتناعه عن نواهي الله كلها مدى الحياة. وأي مخالفة متعمدة مختارة لأمر أو نهي إلهي، معلوم لدى المخالف حكمه، فهو نقض لعهد الدخول في الإسلام الذي سبق توقيعه مع الله، شبيه بمن تنقض غزلها بعد أن نسجته وأصبح متماسا قويا: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴿٩١﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٩٣﴾ النحل.

فالدين إيمان وعمل صالح: ﴿رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴿١١﴾ الطلاق.

وهذا الكل لا يتجزأ، فلا يكفي الإيمان وحده أو العمل الصالح وحده. ولا يكفي الإيمان والامتثال لبعض الأوامر والنواهي وترك البعض: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾ البقرة.

وترك بعض أوامر الدين كالكفر به كله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ

وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿٨٥﴾ البقرة.

كما أن عقد الإيمان ملزم مدى الحياة، وإلا أصبح مثل إيمان بعض اليهود بمحمد: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٧٢﴾ آل عمران.

وهذا ليس من الهدى، الموجب لرضى الله، في شيء: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴿٨٢﴾ طه.

ومن أصر على ترك العمل بأمر أو نهي إلهي، أو اعتقد أن الإيمان مع إتباع بعض الأوامر والنواهي كاف للبقاء على الإسلام فهو يخدع نفسه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴿٩﴾ البقرة.

لأنه قد نقض العهد الموقع مع الله، وأفسد في الأرض: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿٢٧﴾ البقرة.

والإفساد في الأرض يتمثل في أن المنافق إن كذب أو سرق أو زنى أو تصرف بأي تصرف لا أخلاقي فتصرفاته تلك سيعتبرها، من يراه من غير المسلمين، مما يجيزه الإسلام. وفي هذا إعطاء صورة كاذبة وضارة بدين الله، وتنفير للناس منه، وليس هناك إفساد في الأرض أكثر من صرف الناس عن الدخول في دين الله: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴿٢٥﴾ الرعد.

والإسلام دين يقوم على علاقة مستمرة بين الله والعبد تمثلها العبادات. وعلاقة مستمرة فيما بين العباد، وتتم عبر المعاملات. والصلاة عبادة تبقي الصلة بالله قائمة يومياً وبلا انقطاع، كما أن الإنفاق من القادر لتغطية احتياجات

المحتاج علاقة يومية مستمرة بلا انقطاع. ولا يمكن أن يقوم الإسلام ولا دولته بدون الصلاة والإنفاق، مثلما أنه لا يمكن أن يكون المسلم مسلماً ما لم يؤمن ويعمل صالحاً.

الدخول في الإسلام

لقد خلق الله الإنسان قادراً على اختيار أفعاله ومعتقده بكل حرية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴿٣﴾ الإنسان.

ودور الرسول هو التبليغ لقراءة القرآن على الناس: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴿٤١﴾ الزمر.

وبعد موت الرسول بقي القرآن، متاحاً لكل الناس ليقرأوه، وبعد ذلك فلكل شخص خياره: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴿٩٢﴾ النمل.

وليس هنا إكراه في الدين على الإطلاق: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٥٦﴾ البقرة.

والأصل في الإسلام هو التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم، بل إن التعامل بالعدل المطلق مع غير المسلمين واجب ديني: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿٨﴾ الممتحنة.

والجهاد يكون فقط موجهاً لمن يبدأ حرب المسلمين ودولتهم للقضاء على دين الله وفتنة المسلمين في دينهم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴿١٩٣﴾ البقرة.

أما من تعايش مع المسلمين سلمياً فيجب التعامل معه بالعدل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴿٥٨﴾ النساء.

وفي حال تعرض المسلم لظلم أو عدوان من غير المسلم فيجوز معاقبة المعتدي بمقدار تعديه دون تجاوز: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿٤٠﴾ الشورى.

لأن دفع الظلم حق للمظلوم: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴿٤١﴾ الشورى.

ويحرم قطعياً أن يظلم أحد من الناس ولو كان غير مسلم، أو يبغي في الأرض أي يبدأ المسلم بظلم غيره: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٤٢﴾ الشورى.

ولو صبر المسلم على تعدي وظلم الكافر فهو خير له من معاقبته: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿٤٣﴾ الشورى.

ويبقى التعامل بمنتهى العدل (القسط) مع الناس هو الأصل في الإسلام، بغض النظر عن المعتقد ما داموا مسالمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿٨﴾ المائدة.

فالمسلمون يجب أن يكونوا: ﴿.... أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴿١٨١﴾ الأعراف.

لأن المسلم هو من يعبد الله ويتحلى بالأخلاق الفاضلة التي توجب عليه التعامل بالاحسان مع كل المسالمين بغض النظر عن المعتقد، والبعد عن الكبر والخيلاء: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴿٣٦﴾ النساء.

العقل يهدي للإسلام

السماح للعقل بالتفكير يهدي لوجود الخالق: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴿٤﴾ الملك.

والآخرة، وإن لم تتمكن من التأكد منها بدليل محسوس، إلا أن العقل يؤكدها. لأن من خلق هذا الكون ومن فيه، قادر على بعث الإنسان بعد الموت. والموت ما هو إلا عبارة عن تخلٍ عن الجسد ـ الوعاء ـ ولا يعني فناء الروح، والبعث حلول الروح في وعاء آخر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴿٥٤﴾ فصلت.

والتفكير بآيات القرآن يهدي إلى أنه من عند الله، وهذا يتم بطرق مختلفة منها:

* كتب اليهود المقدسة وإن كانت تاريخية إلا أنها تحوي بعض ما كان في التوراة، ليس كما نزلت من الله، ولكن كما تناقلتها ألسن الرواة، وهذه النصوص موجودة في القرآن بصيغة مماثلة للنص الذي نزل على موسى، مما يعني أن مصدر القرآن والتوراة واحد، هو الله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿١٧﴾ هود.

* تحدي الناس جميعاً أن يأتوا بمثل القرآن الذي جاء به نبي يجهل القراءة والكتابة والعلوم الإنسانية: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴿٨٨﴾ بنو إسرائيل.

* التفكير بما يدعو له القرآن وما يحويه من تشريعات، كاف لإثبات أنه من عند الله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴿٨٢﴾ النساء.

إلا أن إثبات مصدر القرآن الإلهي لا يعني أن الناس ستؤمن: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴿٨٩﴾ بنو إسرائيل.

لأن الإيمان خيار شخصي لا يقتنع به من له مصالح دنيوية في الغالب: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً﴿٢٩﴾ الكهف.

الخروج من الإسلام

وكما أن الدخول في الإسلام خيار شخصي فالخروج منه كذلك، ويكون بأحد أمرين:

النفاق

وهو التقيد ببعض أوامر الدين ونواهيه وترك البعض الآخر: ﴿. . . . . أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿٨٥﴾ البقرة.

الردة

وهو اعتقاد الكفر بالله أو الرسول أو اليوم الآخر، بعد أن كان مسلماً: ﴿..... وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢١٧﴾ البقرة.

والمرتد والمنافق يعامل كما الكافر لأنه كفر بالفعل. فإن تعايشوا مع المسلمين بسلام فيعاملون بالعدل ولا يؤذون: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴿٤٨﴾ الأحزاب.

وإن حاربوا الإسلام والمسلمين فعلياً أو بالمكائد، فحكمهم حكم الكافر المحارب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٣﴾ براءة.

وهذا مصير المنافق والمرتد للكفر، يوم القيامة: ﴿وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴿٦٨﴾ براءة.

القرآن

عبارة عن مضمون ما جاء في الرسائل الإلهية التي يبلغ عددها ١١٤ رسالة، مختلفة الطول. كل رسالة تعالج موقفاً أو حدثاً أو مجموعة من المواقف والأحداث التي وقعت بالفعل في الفترة التي سبقت نزول السورة مباشرة. ولا يتحدث القرآن عن مواقف افتراضية لم تحدث، أو يتنبأ بأحداث قبل وقوعها[١]. وهو كتاب مليء بقصص أمم سابقة، لكنه لا يوردها لمجرد السرد القصصي، وإنما لتوصيل رسالة لمن تخاطبه الآيات. فإن كان

---

(١) فقط السور التي نزلت في بداية الوحي التي لا تعالج مواضيع موجودة ولا تتحدث عن أحداث وقعت، وهذا يمكن تفهمه لأنها سور تعريفية، تعرف محمد وقريش بالله والوحي.

المخاطب قريش، سواءً كانت السورة مكية أو مدنية، فالحديث يكون عن الأمم السابقة ومواقفهم الرافضة لدعوة رسلهم، وكيف انتهى بهم الأمر إلى الهلاك بسبب إصرارهم على الكفر ومحاربة دين الله. في رسالة واضحة لقريش بأن تأخذ العبرة مما حدث، حتى لا يكون مصيرها مشابه لمصير تلك الأمم. وإن كان المخاطب أهل الكتاب، فإن القرآن يتحدث عن قصص من تاريخهم البعيد بدقة متناهية تمتاز عما بين أيديهم من أنباء عن ذلك التاريخ، مما يؤكد صحة رسالة محمد. وكل الرسل والأمم السابقة المذكورين في القرآن عاشوا في جزيرة العرب وفي مناطق قريبة من مكة، ولا وجود لرسول ذكر في القرآن خارج الجزيرة العربية.

والقرآن كتاب يهدي للتي هي أقوم، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويحقق سعادة الدنيا والآخرة، لكنه ليس كتابا علميا ولا طبيا ولا هندسياً ولا علاقة له بأي نوع من أنواع العلوم الإنسانية. لكن قد يتعرض لحقيقة علمية ضمن الإخبار عن حادث معين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٨﴾ النمل.

فالنمل يستخدم لغة صوتية للاتصال فيما بين أفراده، وقد توصل العلماء البريطانيين لتسجيل تلك الأصوات وملاحظة أن الملكة عندما تتحدث تنصت النمل بكل انتباه[1]. ولم يأت الحديث عن النمل وكونه يملك لغة تواصل من باب أن القرآن يهتم بالحديث عن العلم.

وكتاب الله له أسلوب متميز في بناء العبارات وفي عرض المواضيع، مع استخدام واسع للاستعارة والمجاز.

---

(١) أعلنت ذلك الوكالة الدولية للأنباء (United Press International) في السادس من فبراير ٢٠٠٩

رجل من أواسط قريش، اهتدى لدين الله، الذي كان يوماً ديناً لأبيه إبراهيم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٦١﴾الأنعام.

ووجد نفسه مكلفاً ممن خلق السموات والأرض ليبلغ الناس رسائل ربه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ... ﴿١٥٨﴾الأعراف.

فهل تحول بعد البعثة لرجل خارق يستطيع صنع المعجزات، وله معاملة خاصة من رب العالمين، ولن يحاسب كبقية البشر، أم أن تبليغ الرسالة تكليف إلهي لا يعفيه ولا يميزه، وأن عليه أن يعمل للجنة كأي شخص آخر؟

الطفولة

الإخباريون عندما كتبوا السير والتفاسير والأحاديث قالوا إن محمداً ولد عام الفيل، لأنه الحدث الوحيد الذي وقع في مكة قبل الرسول وسجله القرآن، واختلقوا لميلاده وحياته في صغره قصصاً خيالية لم تحدث.

والواقع أن محمداً مثل غيره من رجال قريش لا يُعرف متى ولد، لأن قريشاً لا تؤرخ أحداثها، بل يتحدثون بالحدث إذا وقع، وإذا مات الجيل الذي عايش الحدث مات الحدث معهم ونسيه الناس. لذا لا نعرف متى ولد أبا بكر وعمر أو أبا جهل وأبا طالب، أو غيرهم من رجالات قريش. ولو كانت قريش تعنى بتسجيل تاريخ الميلاد، لعرفت متى ولد سادتها وكبرائها، الذين تفخر بهم.

ولم يصاحب ولادة محمد أي مظاهر غير عادية منه، كطفل، أو من الطبيعة حوله، ولم تشعر أمه بأي شعور غير طبيعي أثناء الولادة. ولكن المؤكد أنه سرعان ما أصبح يتيماً: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴿٦﴾ الضحى.

فهل مات والداه وهو في سن الرضاعة؟

أم أن والدته بقيت لفترة بعد ذلك؟

أو أنها ماتت وبقي أبوه لفترة؟

لا ندري!

وما نعرفه مما يخبرنا القرآن، أنه كان يتيماً ووجد من يؤويه ويعتني به، كما تنص الآية السابقة.

مقتبل العمر

لم يعرف محمد في أي فترة من فترات نموه أنه سيصبح رسولاً لله، لا بطرق مباشرة ولا بتلميحات. كما أنه لم يحمل أي إشارة تدل على أنه سيكون له شأن ديني، أو سيكون نبياً: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴿٨٦﴾ القصص.

ولم يعرف غيره عنه أو يلاحظوا عليه أي علامة أو إشارة لنبوته على الإطلاق: ﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴿١٦﴾ يونس.

وعاش بداية حياته مثل قومه، لا يعرف دين الله الحق: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى﴿٧﴾ الضحى.

وبقي واحداً منهم حتى بعث، فنزلت الآيات تخبره بما يجب عليه تركه من الموروث: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴿٥﴾ المدثر.

لكنه كان يتمتع بأخلاق عالية، ولم يعرف عنه السفاهة والإسفاف: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴿٤﴾ القلم.

ولو كان قد اقترف أي أفعال تتنافى مع ما دعا القرآن لاجتنابه فيما بعد، لذكّرته قريش بأنه ينهاهم عن خلق كان يأتي مثله، وهذا لم يحدث، ولم يقل به أي قرشي.

ومحمد في صباه وشبابه لم يقرأ أو يبحث عن الأديان: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٥٢﴾ الشورى.

ولم يطلع ـ ولو عن طريق المصادفة ـ على أي دين من الأديان السابقة، لا قراءة ولا كتابة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴿٤٨﴾ العنكبوت.

وكان قومه يعرفونه حق المعرفة، ولم يكن غريباً بينهم، بل رجل سوي من أواسطهم دون تميز ودون عيوب مخلة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴿٦٩﴾ المؤمنون.

وكل ما طرأ على محمد بعد البعثة هو أنه أصبح أول المسلمين: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي﴿١٤﴾ الزمر.

لكنه لم يتحول إلى رجل خارق، يشفي المرض بلمسة من يده، أو ساحر يحول الماء إلى لبن. ولم يخاطب الجن والجماد أو يخاطبوه[1]. ولم يكن شاعراً ولا فيلسوفاً ولا حكيماً ولا عالماً بالغيب، ولكنه بقي مجرد إنسان عادي بالمواصفات البشرية: ﴿.... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً﴿٩٣﴾ بني إسرائيل.

ورسول من الرسل لا أكثر من أحدهم ولا أقل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾ آل عمران.

---

(١) ولأنه لا يستطيع مخاطبة الجن، لم يعلم أنهم استمعوا لتلاوته القرآن إلا بعد أن نزلت عليه سورة الجن تخبره بما حدث: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴿١﴾.

ولم يكن من كبراء قريش أو ذا سلطة فيهم، ولا مال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴿٣٢﴾ الزخرف.

وكان مكلفاً بكل أوامر الدين ونواهيه مثل أي إنسان آخر دون تميز: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿١٣﴾ الزمر.

وسيموت ويحاسب كما يموت الناس ويحاسبون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴿٣١﴾ الزمر.

ولو أشرك فسيخلد في النار: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴿٦٦﴾ الزمر.

وكان رقيق الإحساس، يشعر بالحزن العميق والأسى على قريش إشفاقاً عليهم من النار لتماديهم بالكفر: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴿٧٠﴾ النمل.

ويتحرج أحياناً قبل قراءة بعض الآيات التي تهاجم قريش، لكنه لا يستطيع أن يكتم ما أنزل إليه: ﴿المص﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٢﴾ الأعراف.

برغم أن قريشاً كانت تؤذيه نفسياً ومعنوياً، وكانت الدعوة في مكة عبارة عن معاناة مستمرة لمحمد، نتيجة لما يواجهه من قريش من سخرية وتكذيب وكل أنواع الأذى النفسي. وكإنسان، وفي اللحظات الحالكة، ومع تدني المعنويات، يشعر بالحزن العميق من موقفهم المعاند وما يتلقاه منهم من أذى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴿٩٧﴾ الحجر.

ثم وصل به الأمر إلى أن حدثته نفسه أحياناً إن كان قومه على حق في

رفض ما يدعو إليه، بحجة أنه قد لا يكون من الله، فيأتيه الوحي ليطمئنه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿١٧﴾ هود.

ويتكرر التساؤل، ويتكرر التأكيد بأن ينبذ الوساوس، ولا يشك لحظة في بطلان ما يعبدون: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴿١٠٩﴾ هود.

ولأن عقلاء قريش هم من يسخرون من الدعوة فالتساؤل استمر يجول في خاطر محمد إن كان بالفعل هؤلاء على خطأ وهو وحده على حق: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴿٤٣﴾ الفرقان.

فيأتيه الجواب أن رجحان العقل في أمور الدنيا لا يعني أن صاحبه يسمح لعقله بالتفكير بأمر الدين كما يفكر بأمور الدنيا، لذا نرى العباقرة والعلماء عندما يصل بهم الأمر للتفكير بالدين تنغلق عقولهم وتصبح ضيقة وكأنهم لا يسمعون ولا يرون ولا يعقلون: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴿٤٤﴾ الفرقان.

وليطمئن قلب الرسول فعليه أن يسأل أهل الديانات السابقين، وسيجد أن ما يوحى إليه هو نفس الدين الذي أوحي لهم: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿٩٤﴾ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٩٥﴾ يونس.

ويؤمر محمد بالتمسك بالدين وترك المشركين يعبدون ما يشاؤون، وعليه

أن يبعد الشكوك والخواطر التي تراوده، وليتذكر أنه لو أشرك فسيكون من الظالمين ومصيره النار: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ﴿١٠٦﴾ يونس.

وكان أحياناً يتمنى لو أعطيت قريش المعجزة التي تطلب فقد تؤمن، فيأتيه التوبيخ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴿٤٠﴾ الرعد.

ومحمد بقي إنساناً عادياً يعتريه ما يعتري غيره، بعدما أصبح رسولاً لله. وقد قدمنا بعض تصرفاته عليه الصلاة والسلام، في سنة الأولين، وسنتطرق إلى بعضها ضمن الأحداث.

حياته العائلية

مما ورد عن حياة محمد الزوجية في مكة قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴿١٣٢﴾ طه.

والأهل في القرآن تأتي بمعنى الزوجة: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٥﴾ يوسف.

أو العائلة، من زوجة وأولاد، أو العائلة بدون الزوجة كما هو الحال مع من نجا مع لوط من عائلته: ﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴿٨١﴾هود.

أو الأولاد والبنات دون الزوجة ودون أحد الأولاد، كما في الحديث عن نوح: ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴿٤٠﴾هود.

حيث حمل نوح معه في السفينة عائلته، دون أحد الأبناء: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٤٦﴾هود.

ودون زوجته التي لم تؤمن برسالته: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴿١٠﴾ التحريم.

والاحتمال أن المقصود بأهلك في قوله تعالى «وأمر أهلك بالصلاة» أن محمداً كان متزوجاً بزوجة واحدة فقط عندما نزلت عليه السورة، وطوال فترة دعوته بمكة.

وقد مر في بداية زواجه بضائقة مالية، ولكنها انجلت وتحسنت ظروفه المعيشية فيما بعد: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴿٨﴾ الضحى.

وهو ما ينفي ما ذكرته كتب السير من أن خديجة كانت غنية وتاجرة. إذ لو كانت كذلك لما واجه محمد صعوبات في العيش في بداية حياته الزوجية معها قبل أن تتحسن أوضاعه الاقتصادية، كما تشير الآية. ولم يذكر القرآن أن لمحمد أبناء أو بنات في مكة، بل يورد القرآن ما يفيد عكس ذلك. فقد نزلت سورة الكوثر، بحق أحد زعماء قريش الذي كان يعير محمداً وينعته بالأبتر. والأبتر تعني من لا عقب له، أي الذي لا ينجب: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴿٣﴾.

والسورة نزلت بعد وفاة خديجة، زوجته الوحيدة في مكة، ولو كان الرسول قد ولد له أولاد ذكور، كما يزعم المؤرخون، وإن ماتوا وهم صغار، فلن يعيره القرشي بأنه أبتر. وحتى لو أن خديجة لم تنجب لمحمد سوى بنات، فلا يمكن أن يعير بالأبتر، حتى لو كان معنى الأبتر ـ كما يقول بعض اللغويين ـ الذي ليس له ولد ذكر. لأن من يستطيع إنجاب الإناث يمكن أن ينجب ولداً ذكراً فيما بعد. ومحمد إن كانت زوجته ماتت فالاحتمال لازال قائماً بزواجه مرة أخرى وإمكانية أن ينجب له قائمة. لكن إن كان لبث زوجاً لخديجة حيناً من الدهر، ولم ينجب، لا إناث ولا ذكور، فهو مدعاة للقرشي أن يعيره بالأبتر، لأنه ثبت بالبرهان أنه لا ينجب. وإن كان هذا ما حدث، فلم يكن للرسول بنات في مكة.

أما في المدينة فسورة الأحزاب، التي نزلت قبل وفاة رسول الله بعدة سنوات، تؤكد أن لديه جمع من البنات، أي ثلاث أو أكثر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿٥٩﴾﴾.

ولفظ «بناتك» يفيد أنهن لازلن صغيرات لم يبلغن سن الزواج بعد، ولا زلن يعشن في كنف والدهن. ولو كن متزوجات فسيكن من ضمن نساء المسلمين، لأنهن سيصبحن نساء وزوجات لرجالهن، مثلما أن أزواج الرسول بنات لرجال آخرين، لكن بعد أن أصبحن أزواجاً للرسول، صرن يلقبن بأزواج أو نساء الرسول، ولا يلقبن ببنات آبائهن. وإن كان هذا هو الواقع فكل بنات الرسول ولدن في المدينة، ولم يولد له بنات في مكة.

في نفس الوقت، تؤكد سورة الأحزاب المدنية ذاتها أن محمداً لم يرزق بأبناء ذكور على الإطلاق، لا في مكة ولا في المدينة، ولن يكون أبا أحد من الرجال أبداً: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴿٤٠﴾﴾.

عدد أزواجه

فيما سبق عرفنا أن الرسول كان متزوجا بزوجة واحدة في مكة، هي بكل تأكيد خديجة. أما عدد زوجاته في المدينة فسنحاول التعرف عليه فيما يلي:

* إذا ما أخذنا معنى «أهلك» على أنه يعني زوجك، فإن الرسول حتى غزوة أحد كان متزوجاً بزوجة واحدة فقط: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٢١﴾﴾ آل عمران.

لكنه تزوج بغيرها بعد ذلك.

* فقد جاء في سورة الأحزاب أنه تزوج بمطلقة أحد المسلمين واسمه زيد، الذي طلقها بعد استحالة العشرة بينهما، برغم محاولة الرسول الصلح واستمرار الزواج. ولم يكن الرسول ليتقدم لخطبتها لأن زيداً هذا كان ابناً بالتبني للرسول، فنزلت الآيات في السورة تشرع تحريم إلحاق الولد المتبنى بنسب الأب بالتبني، وتبيح زواج مطلقة ابن التبني، خلافاً لما كان يحدث قبل الإسلام. لأن الأب بالتبني ليس هو بالفعل الأب البيولوجي وبالتالي فلا تحرم عليه مطلقة ابنه المتبنى.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴿٣٧﴾﴾.

وزواج محمد بمطلقة زيد كان قد حدث قبل نزول سورة الأحزاب، وبالتالي فقد يكون قد تزوج بها قبل أن تقع تلك الحادثة التي تتكلم عنها سورة التحريم، والتي سنتحدث عنها لاحقاً. ويكون محمداً في الفترة التي تلت غزوة الأحزاب، متزوج بالمرأة التي كان قد تزوج بها قبل غزوة أحد، ومطلقة ابنه بالتبني، ومعهما زوجة أخرى على الأقل، لأن القرآن يؤكد أنه كان لديه جمع من الأزواج: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو

الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴿٦﴾ الأحزاب.

ويقول تعالى في نفس السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴿٢٩﴾ يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴿٣١﴾ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴿٣٢﴾ الأحزاب.

والآيات تكرر التأكيد على أن محمداً كان له جمع من الزوجات، دون تحديد العدد.

وسورة الأحزاب تُذكّر الرسول أنه قد أحل له، فيما سبق، الزواج بمن يشاء من اللاتي يحل له الزواج بهن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿٥٠﴾ الأحزاب.

وبعد تذكيره بما أحل له في السابق الزواج به، تفرض عليه السورة تشريعاً جديداً يحد من ذلك السماح: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴿٥٢﴾ الأحزاب.

فالآية تحرم على الرسول زيادة عدد نسائه، بالزواج من أخريات، ولا تجيز له طلاق إحدى زوجاته والتزوج ببديل لها.

فإن كان للرسول جمع من الأزواج، كما بينت الآيات السابقة، وكانت كل زوجة تعيش في بيت (غرفة) منفردة، وبالتالي فله جمع من البيوت، كما نتبين من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴿٥٣﴾ الأحزاب.

وأزواجه عند نزول سورة الأحزاب هن من توفي عنهن، وهن من جمعهن في وقت واحد، وهن كل النساء الذين تزوج بهن بعد الهجرة. فكم كان عدد أزواجه عند نزول سورة الأحزاب؟

قبل سورة الأحزاب مباشرة، نزلت سورة التحريم، التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴿٥﴾.

والآيات تخبرنا أن الرسول أسر لأحد أزواجه شيئاً، فأخبرت به بقية الأزواج. فجئن يسألنه عن حقيقة ما وصل لأسماعهن، ويطالبن بتفسير. فاعترف ببعضه وأعرض عن بعضه الآخر.

ثم ذهب إلى زوجته التي أسر إليها الخبر، وعاتبها على نشره. وعندما سألته عمن أخبره، قال لها أن الله هو من أنبأه بذلك. ليس إدعاءً بأن وحياً أخبره، ولكنه استعارة تعني أنه علم بتوفيق من الله. وهو أسلوب من المعتاد استخدامه. يقال: كيف اهتديت إلى هذا البيت؟ فتجيب: هداني الله إليه.

وكان من نتيجة هذا أن حلف الرسول ألا يفعل شيئاً مباحاً له فعله في العادة، فنزلت الآيات تقول له لا يجوز له أن يحرم ما أحل له لكسب رضا أزواجه، وأن عليه أن يتحلل من قسمه بكفارة اليمين: ﴿أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿٢﴾.

ولو أخذنا بعين الاعتبار أن الحدث الذي تتكلم عنه سورة التحريم، علمت به كل زوجات الرسول، فعددهن سيكون، كما يلي:

الزوجة التي أسر الرسول لها الخبر، إضافة لبقية الزوجات.

وعدد الزوجات الباقيات هو اثنتين، كما هو مذكور في قوله تعالى: «إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ».

ويكون المجموع ثلاث زوجات فقط في المدينة. واحدة نعرف أنه كان متزوجاً بها عندما وقعت غزوة أحد، وهي بالتأكيد أم المؤمنين عائشة. والثانية مطلقة زيد، أما الثالثة فلا نعلم متى تزوجها، ولم يذكر اسمها في القرآن، ولا ما يعين على التعرف عليها.

ويكون محمد قد تزوج بأربع نساء على أكثر تقدير، طوال حياته. واحدة في مكة، هي خديجة التي توفيت قبل الهجرة. وجمع ثلاث زوجات في وقت واحد، وتوفي عنهن في المدينة. وما يؤكد ذلك هو أن مسجد رسول الله عند بنائه في بداية الهجرة، كان ملحقاً به حجرة واحدة، كبيت له عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك قبل زواجه في المدينة بأي امرأة. ثم زيد عدد الحجرات إلى أربع حجرات في آخر حياته. مما يعني أنه كان يتم بناء حجرة لكل زوجة

يتزوجها الرسول، لتكون بيتاً لها. ولما توفي رسول الله كان هناك حجرة لكل زوجة، من الزوجات الثلاث، وحجرة رابعة له، عليه الصلاة والسلام.

أم بنات الرسول

إذا كان الرسول لم يرزق بأبناء ذكور أبداً، ولم يرزق ببنات إلا في المدينة، وبعد هجرته، فإن هذا يترتب عليه الحقائق التالية:

* خديجة ليست أماً لبنات الرسول لأنها توفيت في مكة قبل الهجرة، والقرآن يؤكد أنه لم يرزق منها بذرية، والتاريخ يؤكد أن الرسول تزوج بها وهي قد قاربت سن اليأس.

* زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة اللاتي اشتهرن بأنهن بنات للرسول، بنات لزوجه خديجة وربيبات للرسول ولسن بناته. ويحتمل أن الناس اعتادوا تسميتهن بنات الرسول، تجاوزاً، خاصة أن التبني كان شائعاً في ذلك الوقت.

* أما بنات الرسول واللاتي رزق بهن في المدينة وكن لازلن صغيرات عند نزول سورة الأحزاب، وهي السورة الوحيدة التي ذكرتهن، فيحتمل أن تكون أمهن عائشة بنت أبي بكر التي تزوج بها الرسول في وقت مبكر بعد الهجرة، أو أنه رزق بهن من زوجته الثانية. أو أن الرسول رزق ببناته من عائشة ومن زوجته الثانية، وقد لا يكون رزق ببنات من مطلقة زيد.

ونميل إلى أنه رزق ببناته من عائشة فقط، لأنه تزوجها في بداية الهجرة، وكان هناك وقت كاف لأن تنجب عدد من البنات قبل نزول سورة الأحزاب، وهي السورة الوحيدة التي ذكرتهن.

وما يؤكد أن عائشة هي أم بنات الرسول أنها وحدها تعرضت لحملة مسعورة لمسخ تاريخها، دون نساء الرسول الأخريات، وبشكل متعمد. ومن ذلك أنه تم ترسيخ أن الرسول تزوج بعائشة وهي طفل لم تبلغ السادسة ودخل بها وهي في التاسعة، للتأكيد على أن الرسول مات عنها وهي لازالت قريبة من سن الطفولة، وبالتالي يسهل التصديق أنها لم تنجب.

وسنأتي على تفاصيل ذلك في آخر الكتاب، في فصل «سير الأحداث بعد الرسول».

عمره

كتب الأخبار لم تتفق على يوم وفاة الرسول، وأعطت تواريخ عديدة متباينة، وإن كان أكثرها ترديداً بين الناس، يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول للعام الحادي عشر للهجرة. وقولهم هذا ليس يقيناً، ولم يعتمدوه من مصادر موثوقة مكتوبة أو شفهية، ولكنهم قالوا به ليتوافق مع ما زعموه، من أنه ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين وهاجر يوم الاثنين ومات يوم الاثنين، وكأن يوم الاثنين يوم نبوي مقدس.

ويوم ١٢ من ربيع الأول للعام الحادي عشر، كان يوم الأحد، وليس الاثنين بناءً على طريقة حساب التاريخ الهجري. ويعضده أيضاً أن كتب الأخبار تقول أن الرسول قد حج حجة الوداع في السنة العاشرة، وكان الوقوف بعرفة يوم الجمعة، ولو كان هذا صحيحاً فسيكون يوم السبت هو الثاني عشر من ربيع الأول للعام الحادي عشر.

وقال الإخباريون إن الرسول ولد عام الفيل، ليس لأنهم يملكون دليلاً على ذلك، ولكن ليتوافق مع زعمهم أنه بعث عندما كان عمره أربعين، وأن حادثة الفيل كانت في السنة التي ولد فيها. وأن عمر الرسول ٦٣ سنة، بناءً على افتراضهم أنه ولد عام الفيل. ويبدوا أنهم استوحوا زعمهم بأنه بعث وهو ابن أربعين من قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿١٥﴾ الأحقاف.

برغم أنه لا علاقة بالآية بعمر الرسول عندما بعث. مثلما أنه لا علاقة بالصراط المستقيم المذكور في قوله تعالى: «اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ»[1] بالقصص التي اختلقها المفسرون، والتي تحكي أن هناك صراط يوم القيامة، عرّفوه بأنه أدق من الشعرة، وأحد من السيف، يمر فوق النار ويوصل للجنة، وعلى كل الناس المرور عليه. فمن عمل صالحاً بما يكفي لتجاوزه دخل الجنة وإلا سقط في النار. ومثل القصص المختلقة عن العروة الوثقى والميزان، وغيرها الكثير من القصص التي اختلقها المفسرون لعبارات في القرآن لا شأن لها بقصصهم، يطول تتبعها.

ولو عدنا للواقع فلا وجود لأي دليل يؤكد أن محمداً ولد في العام الذي قدم فيه أبرهة لمكة، وبالتالي فميلاد محمد غير معروف على وجه الدقة.

لكن من الصعب أن يكون محمد قد بلغ الأربعين عندما بعث، لأن ابن الأربعين رجل في منتصف العمر، بدأ يخبو فيه الحماس والإصرار المطلوب للقيام بعمل جبار، مثل مواصلة الدعوة في جو عدائي يتطلب الصبر على الأذى بدرجات تفوق تحمل الإنسان العادي. وهناك في كتاب الله ما يدل على أن إبراهيم ـ الجد الأعلى لمحمد ـ قد أصبح رسولاً لله وحاجّ قومه في وثنيتهم وهو فتى في مقتبل العمر: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴿٦٢﴾ الأنبياء.

كما أن عمر موسى كان في أواسط العشرينات عندما أرسل لفرعون، كما سنرى لاحقاً. والمرجح أن يكون رسول الله قد بعث وهو في العشرينات وتوفي وهو في الخمسينات من عمره. كما أن بقاءه يدعو في مكة لمدة ١٣ عاماً مشكوك في صحتها، وسيظهر لنا عند الحديث عن سورة براءة أن القول

---

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

ببقائه في المدينة بعد الهجرة عشرة أعوام قد لا يكون دقيقاً. كما أنه لا أساس لاعتبار يوم الاثنين يوماً لولادته وهجرته أو وفاته.

عليه الصلاة والسلام.

إبراهيم وبنيه

يعود نسب قريش - التي ينتمي لها محمد - إلى رسول الله إبراهيم: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٧٨﴾ الحج.

ووالد إبراهيم كان اسمه آزر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٧٤﴾ الأنعام.

وكان يعيش بين أهله وعشيرته، مستقرين في بلدتهم، ومعتمدين في حياتهم على الرعي والزراعة، وهذا يتضح لنا من كلام إبراهيم وتصرفاته. فقد وصف مكة بأنها مقفرة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴿٣٧﴾ إبراهيم.

وهو ما يشير إلى تعوده على الزراعة والأشجار المنتجة للثمرات.

كما أنه بعد وصوله لمكة، استمر يمارس حرفة يبدوا أنه اعتادها في بلدته، وهي تربية الماشية، ذلك أنه عندما قدم عليه من ظنهم ضيوف من البشر، سارع وقدم لهم عجلاً سميناً من ماشيته التي يمتلك: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴿٢٦﴾ الذاريات.

وهو ما يشير إلى أن بلد إبراهيم الأصلية تتوفر فيها الأمطار بما يكفي لري الزراعة ونمو الحشائش.

وقوم إبراهيم أيضاً كانوا يجيدون بعض الحرف ومن ذلك النحت، على الخشب أو الحجارة، بدليل أنهم كانوا يعبدون مجموعة من الأصنام، المنحوتة على شكل تماثيل. وعبادة هذه التماثيل هي التي دعت إبراهيم في التفكير بمدى صحة عقيدة عشيرته: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴿٥١﴾ الأنبياء.

فتوصل إلى أنه لا يمكن أن تكون هذه الأصنام آلهة. وأخذ يبحث عمن قد يكون الإله الذي يستحق العبادة، إلى أن اهتدى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٨١﴾ الأنعام.

ولما عجز عن إقناع قومه بالحق، توجه لوالده لعله يستجيب: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ

كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴿٤٥﴾ مريم.

لكن آزر، والد إبراهيم، لم يكن أحسن حالاً من بقية العشيرة: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴿٤٧﴾ مريم.

وفي محاولة أخيرة لإقناع قومه، بالمنطق والعقل، أن ما يعبدون جماد لا تضر ولا تنفع نفسها أو غيرها، قام بتكسير الأصنام، بعدما انصرفوا عنها: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبراهيم﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿٦٧﴾ الأنبياء.

وقد أثار تكسيرها حفيظة قومه وهددوا بحرقه في النار: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴿٦٨﴾ الأنبياء.

ولم يتم إلقاؤه في النار، كما تخيل المفسرون، نقلاً عن الإسرائيليات، وكأن هذا ما يعنيه قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴿٦٩﴾ الأنبياء.

واختلقوا قصصا كثيرة عجيبة، تظهر أن إبراهيم قد سُجّرت له نار عظيمة وألقي فيها لكنه خرج يمشي منها ولم يمسسه سوء. ولو كان هذا ما حدث فقد تحول إبراهيم في تلك اللحظة إلى مخلوق آخر، لا تؤثر فيه النار، ولم يعد

من البشر، الذين خلقوا من لحم ودم، يسهل على النار التهامهم، حتى لو كانوا رسلًا لله. وفاتهم أن الآيات تخبر بأسلوب القرآن الفريد، عن عدم تنفيذ القوم تهديدهم بالحرق، وبدل أن تقول الآيات أنه لم يحرق ولم يلق في النار، قالت أن الله أنجاه من النار. كما يقال: كيف وصلت لهذا المكان؟ فيأتي الجواب: لقد أنار الله لي الطريق.

وما يؤكد أنهم لم يشرعوا ببناء مكان المحرقة التي فكروا في إقامتها لإبراهيم، هو قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿١٦﴾

وتستمر الآيات إلى أن تقول: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴿٢٤﴾.

فالقوم لم يتفقوا على رأي واحد، بعضهم قال حرقوه، بعضهم قال اقتلوه، لذا قرر إبراهيم النجاة بنفسه ومن آمن معه، والخروج من البلدة. وقد يكون والده عمل على تهدئة القوم وإقناعهم بطرده بدل إحراقه أو قتله.

المهم أنه خرج من بلدته، سواء بموافقة قومه، أو أنه تسلل ومن معه هرباً منهم.

إلى أين ذهبوا

يخبرنا القرآن أن إبراهيم لم يوافقه في ترك عبادة الأصنام والإيمان بالله إله واحد إلا لوط، وهما وحدهما من خرجا من القرية، وتوجها إلى الأرض المباركة، مباشرة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴿٧١﴾ الأنبياء.

والأرض التي بارك الله فيها للعالمين ـ كل الناس ـ هي تلك التي فيها بيته: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴿٩٦﴾ آل عمران.

وهذا البيت قديم وموجود قبل إبراهيم: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴿٢٩﴾ الحج.

ومكة هي الأرض المباركة التي حرمها الله منذ القدم: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٩١﴾ المعارج.

وأبواب المسجد الحرام مشرعة لكل الناس منذ وجد: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٩٧﴾ المائدة.

وليس هناك بيت لله غير هذا البيت، ولذلك فالقرآن يسميه البيت بالتعريف: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً...... ﴿١٢٥﴾ البقرة.

وهذه بعض الأدلة الأخرى على أن إبراهيم ولوط قد توجها لمكة بعد خروجهما من قومهم:

١ . يفهم من الآيات السابقة أن التوجه لمكة كان الخيار الأول والوحيد لإبراهيم، ولم يأخذ وقتاً للتفكير بمكان آخر يمكن أن يتوجه له غير مكة. وهذا يشير إلى قرب مكة من قرية إبراهيم، وشهرتها كبيت لله، لذا اعتبر إبراهيم توجهه لمكة بعد خروجه من قريته هجرة إلى الله، الذي تعرف إليه للتو: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٦﴾ العنكبوت.

٢ . خيار التوجه لمكة، يعني أنها تقع في نفس المنطقة التي خرجوا منها، ويتحدث من فيها نفس اللغة التي يتحدثها إبراهيم، وقد تكون ضمن بلاد قبيلة إبراهيم.

٣ . قرار التوجه لمكة لم يكن أمراً من الله، ولكنه قرار شخصي. لأن الآيات تخلو من أي أمر إلهي لإبراهيم، لا تصريحا ولا تلميحا، بالتوجه لمكة. لكنه اختار التوجه لبيت الله لأنه أغضب قومه وكسر أصنامهم وجادلهم

باسم الله وفي الله ولله. وهذا لا يمنع أنه قد يكون توجه إليها بإيحاء من الله، أي وجد نفسه يود التوجه لمكة دون سبب ظاهر. أو أنه توجه لمكة لأنها بلد آمن من القدم لا يضار نازلها ولا يعتدى عليه.

٤. بعد وصول إبراهيم لمكة، كلفه الله مباشرة بتجديد بناء البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿٢٦﴾ الحج.

٥. وبعد أن أصبح إسماعيل شاباً يافعاً، كلفه الله بمعاونة والده إبراهيم بصيانة البيت باستمرار، وترميم ما خرب منه، وتجديد ما بقي قائماً، وتطهيره وتنظيفه على الدوام: ﴿...... وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿١٢٥﴾ البقرة.

٦. رسول الله لوط كان الإنسان الوحيد الذي آمن مع إبراهيم وخرج الاثنان وحدهما للأرض المباركة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴿٧١﴾ الأنبياء.

لكن لوط لم يشارك إبراهيم في تجديد بناء البيت وتنظيفه وتطهيره، والسبب ـ كما بين لنا القرآن ـ أنه قد غادر مكة قبل أن يبدأ إبراهيم العمل.

لقد اختاره الله ليكون رسولاً: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿١٣٣﴾ الصافات.

والذين أرسل إليهم لوط، هم قومه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿١٦٣﴾ الشعراء.

وقوم لوط هم قوم إبراهيم الذين أخرجوهما من قريتهم، كما سبق وبينت الآيات.

ولوط لم يكن الرسول الوحيد الذي أمره الله بالعودة لقومه بعد أن هرب منهم. فموسى أمره الله بالعودة إلى القرية التي خرج منها خائفاً يترقب، كرسول لفرعون: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٠﴾ قَوْمَ

فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿٢١﴾ الشعراء.

أما علاقة بعث لوط في قومه بموضوعنا، فيتضح إذا عرفنا أن قرية لوط وإبراهيم التي خرجا منها قريبة من مكة، وهو ما أكده القرآن بطريقتين:

إحداهما: عند الحديث عن ضيوف إبراهيم من الملائكة الذين حضروا إليه وبشروه بأنه سيرزق بولد ذكر، وأنهم في طريقهم لقرية لوط لإهلاك أهلها، يدل على أنها تقع بالجوار.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴿٧١﴾ هود.

ولأن قوم لوط هم قوم إبراهيم فالقرآن يخبرنا أن إبراهيم لما هدأ من مفاجأة تواجد الملائكة في بيته، حاول ثنيهم عن تنفيذ العقاب بالقوم، لأن عاطفته البشرية غلبت عليه عندما تعلق الأمر بهلاك أهله وعشيرته: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴿٧٦﴾ هود.

والثانية: أن قريش يمرون بها صباحاً ومساءً، أي أنهم اعتادوا السير في الطريق التي تقع بقربها أطلال القرية، في كل الأوقات، مما يؤكد وقوعها

بجوار مكة: ﴿وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿١٣٨﴾ الصافات.

وهو ما تذكره سورة الفرقان بطريقة أخرى أثناء الحديث عن قريش: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴿٤٠﴾ الفرقان.

والقرية التي أمطرت مطر السوء هي قرية لوط، بدليل ما جاء في سور كثيرة تحدثت عن هلاكهم، ومن ذلك سورة الشعراء: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴿١٧٣﴾ الشعراء.

وكون قرية إبراهيم قريبة من مكة، وإرسال لوط لها كرسول من الله، يجيب على تساؤلات كثيرة قد تخطر على البال، ومنها:

* أن قوم إبراهيم، الذين هم في نفس الوقت قوم لوط، قد جرى عليهم كل ما يجري على الأمم السابقة بناءً على قوانين ثابتة، ومنها أن أي أمة تخرج رسولها لابد أن يحل بها الهلاك: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴿٧٧﴾ بني إسرائيل.

ولذلك أهلكوا بعد أن استمروا في كفرهم برغم إرسال لوط لهم.

* لو كان لوط وإبراهيم من بلاد بعيدة، فكيف يرسل لوط لقرية قريبة من مكة، ولقوم لا تربطه بهم علاقة دم ولا يعرف لسانهم، والله جل وعلى يؤكد في القرآن أن الرسول يرسل رسوله من بين المرسل إليهم، وواحداً منهم، يتكلم لغتهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٤﴾ إبراهيم.

ملامح القرية

مما سبق تبين لنا أن قرية إبراهيم ولوط قريبة من مكة، وبقي لنا أن نحاول تحديد موقعها، بناءً على عدة ملامح، منها، أنها:

على طريق قوافل

ورد في سورة الحجر، في خطاب موجه لقريش، أثناء الحديث عن القرية: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴿٧٦﴾﴾.

أي أنها تقع على طريق «سبيل»، يطرقه المسافرون باستمرار «مقيم» قائم نشط مطروق.

وهو ما أكدته آيات الصافات التي ذكرنا سابقاً: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴿١٣٨﴾﴾ الصافات.

كما أكدته سورة العنكبوت التي تشير إلى أن قوم لوط كانوا يتعرضون للمسافرين على ذلك الطريق، إما لسلب المسافرين متاعهم وأموالهم أو رغبة في ممارسة الفاحشة معهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٢٩﴾﴾.

في منطقة براكين

يصف القرآن هلاكهم أنه كان بمطر من نوع خاص، يهطل عليهم من فوقهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴿١٧٣﴾﴾ الشعراء.

وهو ما أكدته سورة النمل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴿٥٨﴾﴾.

وهذا المطر، أو مطر السوء كما سمته سورة الفرقان، يتكون من حجارة من سجيل منضود، أي متراكم بعضه فوق بعض، كما تقول سورة هود:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴿٨٢﴾.

وسجيل وصف للحجارة المنصهرة، أو الحمم البركانية بلغة العصر. ولم يعذب من الأمم السابقة، الذين ذكرهم القرآن، بحجارة من سجيل إلا قوم لوط وأصحاب الفيل.

وثوران البراكين يكون مصحوباً عادة بالزلازل، وهو ما حدث لقوم لوط، كما تؤكد سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴿٧٤﴾.

والآية تصور شكل القرية بعدما حلت بها الكارثة، والتي بدت بفعل الزلازل والبراكين وكأن عاليها قلب ليكون سافلها.

والصيحة في لغة القرآن هي الزلزال، وقد عذب بها، من دون البراكين، أقوام آخرين، منهم قوم شعيب: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴿٩٤﴾ هود.

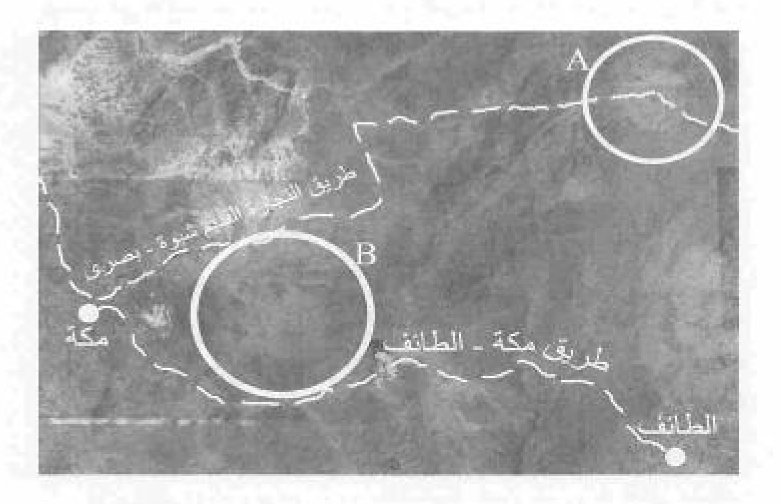
والبراكين تؤكد وقوعها قرب مكة حيث جبال السروات الغير مستقرة جيولوجياً، نتيجة لأن هذه الجبال ولدت نتيجة الانكسار الذي أوجد شق البحر الأحمر قبل ملايين السنين، والذي لا زال يتوسع حتى اليوم.

موقع قرية السوء

إن كانت القرية قريبة من مكة، وتعرضت لثوران بركان، فما علينا سوى البحث عن فوهات بركانية قريبة من مكة، فقد تكون قرية لوط قد طمرت في إحداها.

وقد كان «فوقل إيرث» قائدنا ومرشدنا أثناء بحثنا عن الأماكن التي تنطبق عليها مواصفات قرية إبراهيم ولوط، القريبة من مكة. وفيما يلي نقدم ما استطعنا العثور عليه:

عبر تجوالنا في المناطق المحيطة بمكة بواسطة البرنامج، ظهر لنا فوهتين لبراكين قديمة، كلاهما قريبتين من مكة، ويمكن مشاهدتهما بوضوح في الصورة التالية، يحيط كل منهما دائرة سوداء:



ولم نستطع العثور على أي فوهات بركانية غيرهما في المنطقة القريبة من مكة.

ولو طبقنا مواصفات قرية لوط التي ذكرنا اعتماداً على الآيات، لوجدنا أن كلا المنطقتين تقعان على طريق قوافل. فالمنطقة «B» تقع على حافة أقصر طريق تصل مكة بالطائف. أما المنطقة «A»، فيمر بها طريق البخور واللبان القادم من جنوب جزيرة العرب، والذي يستمر إلى الشام[1].

وكلا المنطقتين قريبتان من مكة[2]، وكلاهما مطروقتان من المسافرين.

---

(١) أنظر أحداث المرحلة الأولى للدعوة في مكة ـ سورة قريش، للمزيد عن طريق البخور واللبان.

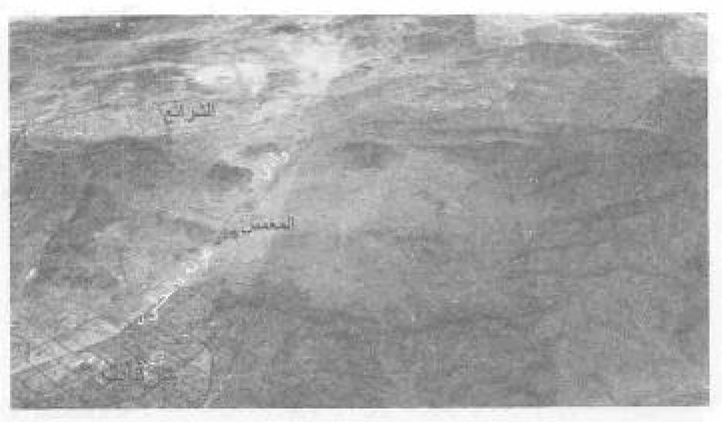
(٢) منطقة «A» تبعد عن مكة قرابة ٧٥كم عبر الطريق الموضحة، ومنطقة «B» تبعد حوالي ٢٥ كم. حسب مقياس برنامج قوقل إيرث.

والمنطقة «8» يقع فيها ما يسمى اليوم بالسيل الكبير، وأحد مواقيت الحج. وهي منطقة مأهولة، وقد تكون مأهولة في أزمنة سابقة. خاصة أنها ترتفع عن سطح البحر قرابة ١٢٠٠ متر، مما يسمح بتكاثف السحب الركامية القادمة من أفريقيا وتساقط الأمطار بكميات تكفي لنمو الحشائش لرعي الحيوانات، وري الزراعة، بخلاف مكة التي وجدها إبراهيم في واد غير ذي زرع. وهي الأقرب لتكون قرية قوم إبراهيم التي خرج منها للنجاة بروحه، والتي أرسل لها لوط فيما بعد:





أما المنطقة الثانية «B»، فهي قريبة جداً من مكة، ومشابهة لها في المناخ، حيث أن ارتفاعها يتراوح بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر. وهو ارتفاع لا يسمح بتكثف السحب الركامية وتساقط الأمطار بنفس الكميات التي تسقط على المناطق الأكثر ارتفاعاً حول الطائف ومنطقة السيل الكبير. وأكاد أجزم أن منطقة «B» هي المنطقة التي هلك فيها أصحاب الفيل، وهذه صورة مقربة لها، بارتفاع للعين المجردة يبلغ ٢٠ كم:





إبراهيم في مكة

عندما استقر إبراهيم في مكة، كان أهم ما وقع من أحداث، ما يلي:

الاهتمام بالبيت وتنظيفه وإعلان الحج

ما أن وصل إبراهيم مكة واستقر بجوار بيت الله، حتى أمره الله بإعادة بنائه وتنظيفه وتهيئته، ثم إعلان الحج للناس الذين سيأتون من كل فج عميق: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴿٢٨﴾ الحج.

وقد قام إبراهيم بتنفيذ أمر ربه، والتزم بخدمة البيت والحجاج. وكان هذا قبل ولادة إسماعيل.

البشرى بإسماعيل

كان إبراهيم فتى في مقتبل العمر عندما جادل قومه من أجل الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴿٦٠﴾ الأنبياء.

وخرج من قريته وهو لم يتزوج بعد، كما جاء في سورة الصافات: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿١١٢﴾ الصافات.

هذه الآيات تقول بكل وضوح أن إبراهيم خرج من قومه وذهب إلى ربه (بيت ربه في مكة) أولاً: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾.

وهناك آيات أخرى تؤكد أن إبراهيم خرج من قريته ومعه لوط فقط، ولم يكن قد تزوج بعد، ومن ذلك: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴿٧١﴾ الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٦﴾ العنكبوت.

فإبراهيم ولوط شخصان لا ثالث لهما خرجا من قريتهما إلى مكة، مما يعني أن إبراهيم ولوط لم يتزوجا بعد. وفي مكة تزوج إبراهيم، وهناك دعا ربه أن يرزقه بأولاد: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٠٠﴾.

فجاءته البشرى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾.

وهذا الغلام هو الذبيح: ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾.

ونفس الآيات تخبرنا أن إبراهيم بعد أن شاخ بشر بغلام آخر هو إسحاق: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿١١٢﴾.

أبناء إبراهيم

لقد بشر إبراهيم مرتين بغلامين. الأول إسماعيل وقد رزق به في أيامه

الأولى في مكة، كما سبق وذكرت سورة الصافات. والثاني إسحاق، وقد رزق به بعد أن بلغ من العمر عتياً، كما تخبرنا آيات أخرى، منها: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴿٥٥﴾ الحجر.

ويكون إبراهيم رزق بولده إسماعيل في مقتبل العمر وبداية عهده بمكة. وأثناء سنوات زواجه الأولى، ثم توقفت زوجه عن الإنجاب البتة، أو أنها توقفت عن إنجاب الذكور فقط، واستمرت تنجب الإناث. وتقدم بالزوجين العمر، ووصلت الزوج لسن اليأس قبل أن يرزقا بذكر غير إسماعيل. ثم جاءت الملائكة وحدث الحمل: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴿٧٢﴾ هود.

أو أن إبراهيم أنجب ابنه إسماعيل من زوجة أولى، بينما رزق بابنه إسحاق من زوجة أخرى. لكن ما يضعف هذا الاحتمال هو:

* أن القرآن لم يتحدث عن زوجة أخرى لإبراهيم.

* وأن الزوجة الثانية عادة ما تكون صغيرة السن.

وزوجة إبراهيم لم تكن كذلك بل بلغت سناً مقاربة لسن إبراهيم، مما يؤيد أنه لم يتزوج بغيرها. وكانت البشرى بإسحاق لنفس الوالدين الذين لم يتمكنا من إضافة ولد ذكر ثان بعد إسماعيل. والولد الذكر كان مطلوباً ومفضلاً على البنات في تلك المجتمعات، لذا عندما بشر إبراهيم بإسحاق، قيل له أن إسحاق أيضاً سيكون له ولد ذكر يحمل اسمه، ويفاخر به كما هي عادة تلك المجتمعات، والتي بقيت حية إلى ظهور الإسلام، بين سلالة إبراهيم. وهذا ما تقوله سورة النحل عن قريش: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴿٥٨﴾.

واستمرت إلى يومنا هذا في جزيرة العرب.

لكن امرأة إبراهيم وصفت نفسها بالعجوز العقيم عندما سمعت الملائكة تبشرها بغلام: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴿٢٩﴾ الذاريات.

والعقيم تعني الذي لم ينجب، وقد لا ينجب أبداً: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴿٥٠﴾ الشورى.

كما أن العقيم تعني الذي لن ينجب مستقبلاً، لكن قد يكون أنجب في الماضي. وزوج إبراهيم عندما وصفت نفسها بالعقيم، قرنت ذلك بأنها عجوز، أي أن سبب العقم هو تجاوزها لسن اليأس وتوقف نزول البويضات. فهي تقول إنها عجوز «لا يمكن أن تنجب» أو «إنها لم تعد نافعة للإنجاب». وهو نفس معنى «عقيم» الذي وصف القرآن به الريح التي أهلكت قوم عاد: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴿٤٢﴾ الذاريات.

أي أنها ريح لا تحمل منفعة وفائدة، لأنهم لما رأوها ظنوا أنها تحمل المنافع المتمثلة بالمطر: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٤﴾ الأحقاف.

لكنها لم تكن كذلك، فلم تحمل المنفعة بل الضرر والهلاك.

فهي عقيم، من باب أنه لا منفعة فيها: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴿٤١﴾، لأنها: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴿٤٢﴾، ولم تكن تحمل لهم المطر والمنفعة.

ويكون إبراهيم قد بقي متزوجاً بامرأة واحدة طوال عمره، رزق منها بإسماعيل كولد ذكر، ثم توقفت زوجته عن الإنجاب، وكبرت سنهما وبعد أن تجاوزت سن الإنجاب جاءتهما البشرى بأنهما سيرزقان بإسحاق.

وكان إسماعيل في سن المراهقة، على الأقل، عندما كلف بمعاونة والده على خدمة البيت. وقد عاش إبراهيم حتى رأى إسحاق رجلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴿٣٩﴾ إبراهيم.

وطال به العمر إلى ما بعد زواج إسحاق وولادة ابنه يعقوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿٨٤﴾ الأنعام.

وكذلك عاشت زوج إبراهيم حتى رأت حفيدها يعقوب: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴿٧٢﴾ هود.

ويعقوب من العقب. والعقب يأتي بمعنى التالي أو اللاحق، الذي يحل محل من سبقه. فيعقوب هنا قد يكون سمي بهذا الاسم لأنه سيعقب إسحاق ويرثه ويحمل اسمه.

وما يؤكد أن إبراهيم قد أدرك حفيده يعقوب، أنه وصاه بالالتزام بدين الله، كما ورد في سورة البقرة ضمن الحديث عن إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴿١٣٢﴾ البقرة.

وهو ما يعني أن يعقوب أصبح شاباً مكلفاً وإبراهيم لازال حياً.

ولم يبشر إبراهيم وزوجه بأولاد إسحاق الآخرين الذين جاءوا بعد يعقوب لأنهما ماتا قبل ولادتهم. أو أن إسحاق لم يرزق بولد ذكر غير يعقوب، وهذا هو الراجح.

ووصف زوج إبراهيم نفسها بالعجوز وبعلها بالشيخ، لا يعني أنهما قد وصلا إلى أرذل العمر أو قريب منه، ولكن يعني أنها قد وصلت سن اليأس ولم تعد قادرة على الحمل، فهي في أوائل الخمسينات وكذلك إبراهيم، عندما

بشرا بإسحاق، لأنهما عاشا بعد ذلك أكثر من عشرين سنة، ليريا إسحاق وقد أصبح رجلاً وتزوج وأنجب ابنه يعقوب.

وبعد سنوات من إقامة إبراهيم في مكة، وأصبح يشعر بأنها موطنه وموطن ذريته، توجه لربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴿٤٠﴾ إبراهيم.

والدليل على أن إبراهيم دعا هذه الدعاء في آخر حياته، وليس أول ما وصل مكة، كما يزعم المفسرون، قوله: «الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء».

لغة إبراهيم

عندما جاء الإسلام كانت العربية هي لغة بني إسماعيل ـ قريش ـ الذين عاشوا في مكة منذ أيام أبيهم إبراهيم، بشكل متواصل، ولم ينزحوا عنها أبداً، بغض النظر عما يقوله الإخباريون. لذا فالعربية التي تتحدثها قريش عندما ظهر الإسلام لا بد أن تكون هي نفس اللغة الأم لإبراهيم التي كان الناس يتحدثونها في قريته التي خرج منها. وبالتالي فهي لغة المناطق المجاورة أيضاً، مثل الطائف. وقد تكون منتشرة في مساحات أوسع، وسط وشمال جزيرة العرب. وقد بقيت هذه اللغة العربية تتحدثها الأجيال في مكة حتى مجيء الإسلام. ولو كانت قرية إبراهيم الأصلية، تتحدث غير العربية، وانتقل لمكة، التي أصبحت موطناً له ولذرية ابنه إسماعيل، فسترث قريش لغتهم.

والقرآن يؤكد أن من سمى من يؤمن بدين الله، مسلمين، هو إبراهيم: ﴿. . . هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾الحج٧٨.

ولفظ مسلم لفظ عربي خالص، لا يعرف مدلوله الدقيق إلا من لغته الأم، العربية. كما أن أسماء أبنائه إسحاق ويعقوب عربية، بل إن معنى يعقوب عربي خالص، فهو من العقب والتالي، وقد أعقب أبيه إسحاق وجاء بعده تالياً له.

ما بعد إبراهيم

في فصل سابق تأكدنا أن إبراهيم لما وصل مكة كلفه الله، بتنظيف البيت، ثم بعد سنوات وعندما أصبح إسماعيل شاباً كلف مع والده بتنظيف البيت وتجديده وتهيئته للحجاج والعُبّاد بصفة مستمرة. ثم رزق إبراهيم بإسحاق، وكبر إسحاق وتزوج ورزق بيعقوب ـ الذي قد يكون ابنه الوحيد ـ وإبراهيم وزوجه لا زالا على قيد الحياة. وقد قرر إسحاق الابتعاد عن مكة بشكل نهائي، ولا بد ان السبب هو شحناء حدثت بينه وبين أخيه إسماعيل. عندما حاول إسحاق الاشتراك في خدمة البيت والحجيج، لكن إسماعيل رفض، بحجة أن خدمة البيت والحجاج تكليف إلهي حصري لإسماعيل وذريته، ولا حق لإسحاق فيه. وتطور الخلاف لدرجة استحال معها أن يعيش الأخوين في مكان واحد. ولأن إسماعيل مكلف بخدمة البيت من الله، مع أبيه، فكان على إسحاق الرحيل، فقرر المغادرة للبادية واحتراف رعي الأغنام. ولا يمكن أن يوجد سبب آخر لخروج إسحاق من مكة غير هذا السبب.

وهناك وفي بقعة ما من البادية الواقعة شرق جبال السروات القريبة من الطائف عاش إسحاق وابنه يعقوب متنقلين في المنطقة بحثاً عن الماء والكلأ لأغنامهم، وبقوا هناك إلى أن أتى يوسف بأبيه يعقوب وإخوته لمصر، بعد

وفاة إسحاق: ﴿.... وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴿١٠٠﴾ يوسف.

ولكي نتعرف على المنطقة التي كان إسحاق ويعقوب يرعيان أغنامهما فيها، لابد من الإشارة إلى حقيقة قد يجهلها البعض، وهي أن بلاد جنوب غرب جزيرة العرب، تتكون من سهل ساحلي ذو مناخ حار رطب، وسكانه كانوا يعتمدون على صيد السمك أو جمع الثمار البرية. يلي ذلك باتجاه الشرق، جبال شاهقة تقف كالجدار ـ الطود ـ مما يجعل الرياح المحملة ببخار الماء والقادمة من أفريقيا تتكاثف وتنزل أمطارها على سفوحها الغربية، أو كما تسمى محلياً بالصدور. وعلى شريط ضيق في أعاليها، والمسمى بالحجاز، حيث يستقر الناس معتمدين على الزراعة وتربية الأبقار. ثم تبدأ الأرض بالانحدار التدريجي نحو الشرق، حيث البدو الذين يعتمدون على رعي الأغنام والجمال. وبادية هذه المناطق يمكن أن يطلق على من يعيش فيها البدو المستقرين. لأنهم وإن كانوا يتنقلون من مكان لآخر، إلا أن تنقلاتهم محصورة في منطقة معينة. وليسوا مثل بادية نجد الذين يتنقلون من الربع الخالي جنوباً إلى هضبة الأناضول شمالاً. ذلك أن كل قبيلة من قبائل الجنوب تنتشر على أراض مستطيلة متوازية في الامتداد مع أراضي القبائل المجاورة، من البحر غرباً إلى أطراف الربع الخالي شرقا. حيث يكون جزء من القبيلة تُهَمٌ، نسبة إلى سهول تهامة، وحُجَزٌ، نسبة للحجاز، وهم المزارعون المستقرون في أعالي الجبال، يليهم من جهة الشرق البدو، نسبة للبادية. فتجد في القبيلة الواحدة، التهامي والحجازي والبدوي. لكن البدوي في العادة، لا يتنقل خارج المناطق التي تسيطر عليها قبيلته، ولا يذهب بعيداً إلى وسط نجد أو بلاد الشام. فهو بدوي مستقر، مثله مثل كل بدو الجنوب الغربي لجزيرة العرب، لا يتجاوز حمى قبيلته.

وبجانب هذه التقسيمات الثلاثة، هناك مناطق استقرار وزراعة متباعدة أقرب للربع الخالي، قامت على ضفاف الأودية الكبيرة، مثل بيشة، تثليث، رنية، نجران، تربة، سبأ، وغيرها. وهذه المناطق الحضرية المنعزلة، لابد أن

سكانها خليط لا ينتسبون لقبيلة واحدة ـ بخلاف المناطق الثلاث ـ ولهم نظم وقوانين اجتماعية تنظم حياتهم، أكثر تعقيداً وتحضراً من أعراف وعادات البدو الذين يتنقلون حولهم. ومن البديهي أن تقوم في هذه التجمعات، حضارات قديمة، ومن ذلك الحضارات التي تعاقبت على سبأ ونجران. وهذه التجمعات الحضرية، تعتمد الزراعة وتربية الماشية وحرف يدوية متنوعة.

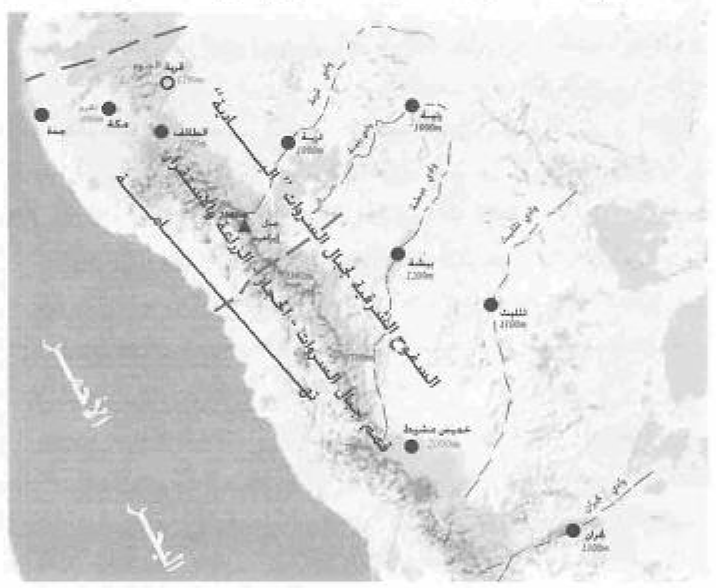
وفي بلاد بني مالك الحالية هناك جبل معروف يسمى جبل إبراهيم، ويسمى جبل بثرة أيضاً. وقد كنت في تلك المنطقة في العام ١٣٩٨ هجرية الموافق للعام ١٩٧٨، برفقة بعض الزملاء. وأبلغنا رجل رافقنا من أهل المنطقة أن الكهف الذي في أعلى الجبل كان يقيم فيه إبراهيم، مؤكداً أن النتوءات الصخرية في أرضية أحد جوانب الكهف هي مكان المذبح، ومكان آخر مستو، قال بأنه مصلى إبراهيم. وبطبيعة الحال يستحيل أخذ هذا الكلام لوحده على أنه حقيقة، لكنه يؤكد بقاء ذكر إبراهيم حياً في تلك المنطقة، مما يعني أنه كان هناك، وإن لم يكن بالضرورة في ذلك الجبل.

وتواجد إبراهيم في مكان يبعد عن مكة أكثر من ٣٥٠ كيلو متر، هو ترحال بعيد، يبعث على التساؤل. لكن، إذا تذكرنا أنه قد تقرر أن ينتقل ابنه إسحاق مع عائلته للبادية، فإن هذا التساؤل سينتفي، لاحتمال مرافقة إبراهيم لهم لبعض الوقت.

وقبيلة إبراهيم كبقية قبائل تلك المنطقة تنتشر على منطقة معروفة الحدود بالنسبة لغيرها من القبائل، وبالتالي فإنه حتى وإن كان والد إبراهيم وأهل قريته قد هلكوا، إلا أن بقية أفراد القبيلة خارجها استمروا يعيشون في مناطقهم. ولأن إبراهيم، دون أبنائه، عاش في قريته لبعض الوقت في شبابه، فهو أقدر على التعرف على رجال قومه وعاداتهم وحدود بلادهم من ابنه إسحاق الذي ولد في مكة ونشأ فيها، ولم يتطبع بتلك العادات ولم يتعرف على رجال القبيلة. ومرافقة إبراهيم لابنه إسحاق ضرورة، لكي يستطيع التعريف بنفسه وابنه بمن يقابلهم من أبناء القبيلة، بأسلوب يراعي العادات المتبعة، والتي يجهلها إسحاق. وليلعب إبراهيم دور المرشد والدليل لابنه في اختيار المكان

بحيث لا يكون خارج حدود بلاد القبيلة. إضافة للتخفيف عنه ورفع معنوياته بسبب الإحباط الذي أصابه بعد الذي حدث بينه وبين أخيه إسماعيل، وتركه لمكة، باختياره أو مسيراً دون رغبته.

وبناءً على ما ذكر، فمنطقة قبيلة إبراهيم تمتد، على الأقل، من السيل الكبير الحالي ـ موقع قرية إبراهيم ولوط ـ إلى بلاد بني مالك الحالية جنوباً. ثم إلى البحر غرباً، وجدة الحالية شمالاً، كما هو مبين على شكل خطوط متقطعة على الخارطة المرفقة أدناه والممتدة من البحر باتجاه الشرق:



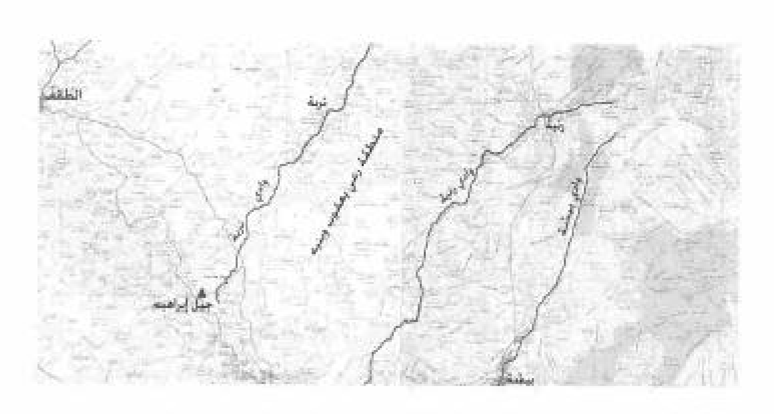
** الرقم وبجانبه حرف «m» يرمز لارتفاع المنطقة عن سطح البحر بالأمتار، ويمكن ملاحظة أن المناطق الزراعية التي قامت على ضفاف الأودية يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠٠٠ ـ ١٢٠٠ متر. مما يعني أنها مناطق تميل للاعتدال النسبي. بينما تتراوح ارتفاعات قمم السروات ما بين ١٧٠٠ ـ ٣٠٠٠ متر، ويرتفع جبل إبراهيم ٢٥٦٠ م. أما مناطق البادية فتتراوح ما بين ١٦٠٠ ـ ١٠٠٠ تقريبا. والتقديرات كلها مأخوذة من برنامج قوقل إيرث.

وتكون مكة ضمن حدود بلاد قبيلة إبراهيم، وهو ما يفسر ذهابه إليها، عندما خرج من قريته، والتي سنسميها فيما بعد «قرية السوء». ومكة وجدة تقعان ضمن تهامة قبيلة إبراهيم، بينما الطائف والسيل الكبير وقرى بني سعد وبلحارث وبني مالك الزراعية الحالية تمثل حجاز القبيلة، أما المنطقة الممتدة إلى الشرق منها فتمثل بادية القبيلة، وهي التي ارتحل لها إسحاق واستقر فيها مع عائلته. وكان إبراهيم معهم في البداية، ولا غرابة لو استمر يزورهم بين فينة وأخرى. مع احتمال أنهم كانوا ينتقلون في الصيف إلى مقر صيفي يقع في المنطقة الحجازية لبلاد القبيلة، حيث يمكن لأغنامهم أن تقتات من مخلفات الحقول الزراعية بعد الحصاد، ومما يتوفر من غطاء نباتي هناك مع الماء والمناخ المعتدل، في الوقت الذي تشح فيه مراعي البادية وتتوهج الحرارة. فيما يعودون لقضاء الشتاء والربيع في البادية لتوفر الماء والكلأ فيها، وهو ما اعتاده الناس غيرهم.

ويكون مقرهم الصيفي في الحجاز هو بالفعل جبل إبراهيم، أو قريباً منه. وفيما يلي خارطة تضاريسية وأخرى طبوغرافية مقربة للمنطقة التي كانت ماشية إسحاق ويعقوب ترعى فيها:



** الخارطة التضاريسية مصدرها قوقل إيرث، والطبوغرافية جزء من خارطتين من إنتاج إدارة المساحة الجوية ـ وزارة البترول والثروة المعدنية ـ الرياض، السعودية. عام ١٩٩٠، واسم الخارطة اليمنى بيشة ورقمها حسب المخطط التسلسلي: NF38 - SW، واسم الخارطة اليسرى مكة المكرمة ورقمها: NF37 - SE.



بنو إسرائيل

مات إسحاق، ورزق ابنه يعقوب ـ الذي قد يكون ابن إسحاق الوحيد ـ باثني عشر ولداً ذكراً، نعرف اسم واحد منهم: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴿٤﴾ يوسف.

وقد أنجب يعقوب عشرة أبناء ذكور من زوجته الأولى، ويوسف وأخيه من زوجة ثانية، ما جعل إخوتهم من أبيهم يشعرون بالغيرة من حب أبيهم ليوسف: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴿٨﴾ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴿٩﴾ يوسف.

وكثيراً ما يُقرِّبُ الأب أبناءه من زوجته الثانية أكثر من أولاده من زوجة سابقة، وليس بالضرورة عامداً نبذ أبنائه السابقين، ولكن قد يكون لشعوره أن أبناءه الجدد بحاجة لعطف أكثر لأن إخوتهم لأبيهم لا يتقبلون وجودهم بينهم، فيعامل الأب أبناءه الجدد بحنو أكثر كتعويض لهم، أو هكذا يقنع نفسه، لئلا يشعر أنه يهضم حق الآخرين.

المهم أن أبناء يعقوب شعروا بالفعل أن أباهم لا يعيرهم اهتمامه بما يكفي، فقرروا التخلص من هذا الطفل المشكلة ـ يوسف ـ لكي «يَخْلُ لَهم

وَجْهُ أَبِيهِمْ»، دون أخيه الشقيق، لأنه لازال رضيعاً، فلم يكن من الوارد لديهم التخلص منه.

وبعد مداولات بين الإخوة العشرة استقر رأيهم على إلقائه في بئر من الآبار المنتشرة في منطقة الرعي، واختاروا واحداً ترتاده القوافل المسافرة، لوقوعه بالقرب من الطريق العابرة: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴿١٠﴾ يوسف.

ولم يختاروا بئراً ترده الرعاة الموجودين في المنطقة، لئلا يقع يوسف في يد أحد الرعاة الذي يعرف والدهم فيعيده إليه ويفضح أمرهم.

وبالفعل استطاعوا إقناع والدهم ـ على مضض ـ بالموافقة على اصطحابهم يوسف معهم في اليوم التالي عندما يخرجون لرعي الماشية: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٥﴾ يوسف.

وكرعاة كانوا يقضون كل النهار خلف الماشية وفي المساء، عادوا أدراجهم بماشيتهم لخيام أهلهم، بدون يوسف: ﴿وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴿١٧﴾ وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴿١٨﴾ يوسف.

وما حدث هو أنهم استطاعوا إقناع يوسف بالموافقة على النزول في (جب) بواسطة الدلو، بحجة من الحجج، ثم سحبوا الدلو وتركوه هناك. والجب هو بئر ليست عميقة المياه، وقد بقي يوسف بها طوال تلك الليلة، وفي صبيحة اليوم التالي مرت قافلة ـ سيارة ـ وعندما أنزلوا دلوهم ليسقوا، اعتلاه يوسف وتمسك بالحبل، فسحبه الساقي، ليفاجأ بوجود طفل في الدلو:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴿٢٠﴾ يوسف.

والآيات تشير إلى أن يوسف طفل صغير بالفعل، لدرجة أن إخوته وضعوه في الدلو وأنزلوه في الجب، ومن ثم اعتلى هو الدلو وسحبه الساقي دون أي مشقة، وقد لا يكون قد بلغ الخامسة من العمر.



وكعرف متبع في ذلك العصر، على ما يبدو، فقد أصبح الطفل رقيقاً مملوكاً لمن أخرجه من البئر، والذي باعه بثمن بخس، لأن البائع والشاري اتفقا على أنه لا يساوي أكثر من ذلك. وكان الذي اشتراه من «مصر»: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴿٢١﴾ يوسف.

وقد بقي عند سيده الذي اشتراه حتى كبر وترعرع: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿٢٢﴾ يوسف.

ولأنه كان بهي الصورة: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴿٣١﴾ يوسف.

فقد تعلقت به سيدته، ورغبت في مواقعته: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴿٢٣﴾ يوسف.

وكاد أن يهفو لما دعته، لكنه تذكر فضائل ربه ـ سيده ـ عليه، فامتنع وفاءً له[1]: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴿٢٤﴾ يوسف.

وفيما يلي ما حدث بعد ذلك: ﴿وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴿٢٩﴾ يوسف.

ومع أنه بريء إلا أن سيدته، امرأة العزيز استطاعت أن تستصدر حكماً عليه بالسجن: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴿٣٥﴾ يوسف.

---

(١) ربه هنا تعني سيده وسيد نعمته، الذي يملكه، ولا تعني الله كما رسخ المفسرون في أذهاننا.

ونسيه سيده ونسيه من أمر بسجنه فبقي في السجن عدة سنين حتى رأى الملك حلما، وبحث عمن يفسره له: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴿٤٣﴾ يوسف.

وقد تمكن يوسف من تأويل الحلم: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴿٤٩﴾ يوسف.

مما جعل الملك يخرجه من السجن ويجعله مسؤولاً عن خزائن المحاصيل، بناءً على طلبه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴿٥٦﴾ يوسف.

الانتقال لمصر

طلب يوسف أن يكون مسؤولاً عن مخازن الحبوب والمحاصيل الزراعية لأنه يعلم أن هذا المنصب سيمكنه من رؤية أحد إخوته أو أقاربه أو معارفهم، وبالتالي التواصل مع والديه. ذلك أن قرية هذا الملك ـ مصر ـ تنتج كميات كبيرة من القمح والمحاصيل الزراعية الأخرى، لدرجة كان هناك هيئة خاصة تدير تخزينه وبيعه، وهي التي أصبح يوسف على رأسها. والناس من الأماكن المجاورة يأتون لشراء احتياجاتهم من هذه الخزائن.

وبالفعل حدث ما توقعه يوسف واستطاع التعرف على إخوته، واطمأن على أن والديه لا زالا على قيد الحياة. وبعد عدد من الأحداث المتتابعة التي ترويها بتفاصيلها سورة يوسف، عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار والديه

والانتقال للعيش معه في مصر، وهو ما حدث بالفعل: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿١٠٠﴾ يوسف.

وعاش يعقوب وبنيه في مصر وتناسلوا هناك وكثرت أعدادهم، مكونين جالية خاصة بهم. وكانت تلك الجالية منغلقة على نفسها، ولم ينصهر أفرادها في أهل البلد أو يتزاوجوا معهم. وقد يكون السبب أنهم في البداية قوم مؤمنون بالله بخلاف أهل مصر، وجيلا بعد آخر، أصبح تمسكهم بهويتهم عرفاً حافظوا عليه، حتى بعد أن ابتعدوا عن دين الله وأصبحوا وثنيين كما بقية أهل مصر الآخرين[1].

موسى

لا يتحدث القرآن عن الفترة التي انقضت بين عصر يوسف، حيث كان وزيراً لخزانة مملكة مصر، وبين زمن ولادة موسى حيث كان بنو إسرائيل، الذين هم أحفاد يوسف وإخوته، يتعرضون لأشد أنواع الاضطهاد من الحاكم وممن حوله. لدرجة أن نساءهم تستحيا «تغتصب» وأطفالهم تقتل بدم بارد. مما حدا بأم موسى ـ بإلهام من الله ـ أن تضعه في تابوت وتلقيه في مياه الوادي الذي تمتد على ضفتيه مساكن أهل مصر ومزارعهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿٧﴾ القصص.

(١) هذه الصفة بقيت إلى اليوم ملازمة ليس فقط بني إسرائيل بل كل اليهود، حيث يبقون في تجمعات مغلقة في أي دولة يعيشون فيها، أصبحت تعرف بالغيتو Ghetto.

ولكن سورة المائدة تشير إلى أن بني إسرائيل قد مر بهم عصر كانوا فيه هم من يتحكم بسياسة الحكم في مصر، سواءً كان منهم الملوك أو أنهم كانوا رجال الحكومة الذين يرسمون سياساتها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ولا ندري كم سنة مرت، ولا ما الذي حدث، وتغيرت أوضاع بني إسرائيل من كونهم من العائلات المرموقة في المملكة، زمن يوسف وبعده، كما تشير آية المائدة، إلى ملاحقين مضطهدين، تتعرض نساؤهم للاغتصاب، وأطفالهم للقتل.

ونعود للتابوت الذي قذف في الوادي وسارت به المياه إلى أن اجتاز قبالة مسكن فرعون «ملك مصر في ذلك العصر»، فاسترعى انتباه العاملين، الذين رفعوه ووجدوا فيه وليداً ذكراً، عطفت عليه زوجة فرعون، وطلبت من زوجها أن يبقيه ليكون ولداً لهما. والحادثة تشير إلى أن فرعون لم يكن له أولاد حين عثر على تابوت موسى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿٩﴾﴾ القصص.

وقد يكون هلك دون أن ينجب، لأنه لو كان له أولاد لتولوا حكم مصر بعده، وانتقموا من بني إسرائيل لهلاكه.

وفي الوقت الذي عثر فيه آل فرعون على تابوت موسى، كانت أمه في حالة يرثى لها قلقاً على ما سيحدث لوليدها. وكادت أن تنهار، وتجري مسرعة لتستجدي فرعون ألا يقتله، لكنها تجلدت: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٠﴾﴾ القصص.

وطلبت من أخته أن تذهب لمسكن فرعون بأي ذريعة لتتجسس على أحوال أخيها، وعادت البنت لتقول لأمها إن موسى بخير وأن زوجة فرعون قد أبقته كولد لها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١١﴾ القصص.

كان هذا مطمئناً لأم موسى، لكنها تفتقده كثيراً، ولا تستطيع العيش بعيداً عنه، كما لا يمكنها أن تتخلى عنه لغيرها، وينشأ وهو لا يعرف أنها أمه. وبتوفيق من الله، وحسن حظها، امتنع الوليد عن الرضاعة من أي امرأة تقدمت لرضاعته، وكانت أخته دائمة التواجد في مسكن فرعون تتلقف الأخبار عنه، فعرضت على زوجة فرعون أن تدلهم على امرأة ترضعه وتكفله لهم، أي تهتم به طوال الوقت، وتحضره لهم كلما رغبوا في رؤيته. وقد وافقت امرأة فرعون على هذا العرض، وأعيد موسى لأمه، دون أن يشعر فرعون وزوجته أنها أمه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٣﴾ القصص.

ومن السهل أن نتكهن أن أخت موسى كانت تتردد على مسكن فرعون بحجة البحث عن أي عمل تقوم به لهم، كخادمة. وهو ما يشير إلى مدى الصغار والذلة التي أصابت بني إسرائيل في مصر، لدرجة أصبحوا عمالاً وخدماً لدى سكان مصر، خاصة الطبقات المخملية. كما يمكن أن يقال إن بني إسرائيل لم يكن أحد يهتم بالتعرف على أسمائهم أو أوضاعهم، لذا لم يكن أحداً في مسكن فرعون يعرف صلة موسى بأخته، ولا صلة الأخت بأمها، مع أنها تعيش معها في مكان واحد.

ونشأ موسى وترعرع وهو يقضي معظم الوقت عند أمه، بينما يعتبره فرعون وزوجته ابناً لهما، واستفاد مما تقدمه الحياة الملكية من رعاية وتعليم لا تتوفر لبقية أبناء جنسه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٤﴾ القصص.

مصر تضم مساكن فرعون، وبيوتاً للسكان، ومزارع ممتدة على ضفاف الوادي، إضافة للمدينة. والمدينة هنا تعني المبنى المحاط بسور وأبواب[1]، وتكون هي السوق التجارية التي تضم المخازن القومية للمحاصيل، وهي التي قدم لها إخوة يوسف في سابق الأيام، وأوصاهم والدهم بألا يدخلوها من باب واحد، تفاؤلاً: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴿٦٧﴾ يوسف.

وعندما أصبح موسى مراهقاً قام يوماً بالتسلل إلى داخل هذه المدينة على غفلة من أهلها (الحراس على الأبواب) لأنه لا يدخلها إلا من لديه تصريح. فوجد فيها رجلين يتعاركان، أحدهما من بني إسرائيل والآخر من غيرهم. ولما رأى الإسرائيلي موسى قادماً استغاث به ليعينه على خصمه، فما كان من موسى إلا أن وكز الخصم بقبضة يده، وكزة قتلته: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴿١٧﴾ القصص.

ولأنهم سيبحثون عن القاتل فقد اختفى موسى في مكان ما من المدينة حتى تهدأ الأوضاع. ومر عليه الليل وهو في مخبئه، وفي اليوم التالي وعندما كان يتنقل في أرجاء المدينة، إذا بالإسرائيلي الذي استعانه بالأمس يصرخ طالباً نصرته مرة أخرى على رجل آخر كان يتعارك معه، وكاد موسى أن يبطش

(١) ستتحدث بالتفصيل عن معنى «المدينة» في قسم الفترة المدنية ـ فصل مسمى المدينة.

بالرجل إلا أنه توقف عندما قاله «أتُرِيدُ أن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ» فأنت يا موسى لا تسعى لإحقاق الحق ولا نصرة المظلوم، ولكنك ستكون طاغية وجباراً في الأرض. وفي هذه الأثناء جاءه رجل مسرعاً وأخبره أن أهل القتيل يبحث عنه ليقبضوا عليه ويقتلوه لقتله الرجل بالأمس. فما كان من موسى إلا أن خرج هارباً من المدينة، ومن قرية مصر كلها، وهو خائف يترقب لحاقهم به: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢١﴾ القصص.

ولما وجد نفسه بعيداً عن العمران، لم يكن يعرف إلى أين يذهب. فهو حضري المنشأ والولادة، ولم يسبق له أن غادر مصر في حياته كلها، وهو الآن في أرض فلاة تمتد في كل اتجاه بلا نهاية. ولابد أنه وجد جادَّةً للقوافل، فتبعها، مخلفاً مصر وراءه وهو لا يدري أنها ستوصله إلى بئر تردها الرعاة، اسمها بئر مدين. لذا كان يدعو الله ألا يضل الطريق ويتيه في الصحراء، وأن يسلك طريقاً توصله لمكان آمن: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴿٢٢﴾.

والآية تقول: «ولما توجه تلقاء مدين» لا يعني أنه كان يعرف وجهته، ولكنها تشير أنه كان يسير باتجاه مدين دون أن يدري. أو أنه كان بالفعل يعلم أن هذا الاتجاه هو وجهة بئر مدين المشهورة بكثرة الرعاة الذين يرتادونها، وأراد أن يكون بينهم قبل أن يلحق به مطاردوه من مصر. ودعا ربه ألا يضل الطريق إليها ويهلك في الفلاة. وكان قد هرب من المدينة (السوق) وواصل

هربه خارج مصر دون أن يكون لديه وقت لحمل أي متاع معه. لأن هدفه أن يبتعد لئلا يقتل، ويعد ذلك لكل حادث حديث. واستمر بالسير لفترة لم تكن طويلة، قبل أن يصل للبئر التي ازدحم عليها الرعاة بأعداد كبيرة يستقون منها ويسقون دوابهم. وكان هناك امرأتان لا تستطيعان الاقتراب من البئر وسقي أغنامهما. فتحركت غريزة الذكورة للتقرب من الأنثى عنده، ووجد نفسه يسألهما عن حالهما، ويعرض عليهما خدماته. فأخبرتاه أن عليهما أن ينتظرا حتى ينتهي كل الرجال، ليتمكنا من أن يسقيا. ولإظهار رجولته، كاستعراض غريزي، دخل جمع الرعاة حول البئر، واستطاع الحصول على الدلو[1]، وسقى للبنتين، وشرب هو. ثم انتقل إلى ظل شجرة قريبة وتمدد ليستريح جراء التعب الذي ناله، نتيجة لهرولته المستمرة منذ خروجه من مصر هرباً:
﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴿٢٤﴾ القصص.

وموسى خرج هارباً من المدينة ومن مصر ضحى اليوم التالي لقتله المصري، كما تفيد الآيات ١٨ ـ ٢١ من سورة القصص التي ذكرنا سالفاً، ووصلها في نفس اليوم. فهي بئر لا تبعد كثيراً عن مصر في مناطق الرعي التي تقع ما بين حواضر الأودية في الشرق وجبال السروات في الغرب، كما يتبين من الخرائط المرفقة.

والرعاة عادة ما يسقون ماشيتهم وقت العصر إلى المساء، قبل العودة لمضاربهم، وما يؤكد ذلك هو وجود البنتين اللتين يريدان سقيا أغنامهما قبل العودة لمنازلهما وقت المبيت. فإذا كان موسى قد خرج من مصر ضحى ذلك اليوم، وليكن ما بين التاسعة والعاشرة صباحاً، ووصل بئر مدين وقت العصر

(١) العرف يعطي من يحصل على الدلو الحق بأن يسقي حتى ينتهي ثم يسلمه لغيره.

حيث سقي الرعاة. فلا بد أنه هرول لفترة تتراوح بين ٦ ـ ٨ ساعات، على اعتبار أنه وصل البئر ما بين الساعة الرابعة والسادسة عصراً.

ولو افترضنا أن معدل سرعته كانت تتراوح بين ٥ ـ ٨ كيلو متر في الساعة، على اعتبار أنه هرول في البداية بعد خروجه من مصر لبعض الوقت، ثم بدأ يطمئن إلى أن أحداً لم يلحظ خروجه من مصر ولم يلحقه، وبدأ يسير سيراً عادياً، ويكون قطع ما بين ٣٠ ـ ٥٠ كيلومتر بعيداً عن مصر عندما وصل لبئر مدين. وسنعود لتحديد المكان المفترض للبئر لاحقاً بعد تحديد موقع مصر.

وكنا قد تركنا موسى وقد هده التعب تحت ظل شجرة قريبة من بئر مدين، فيما عادت الفتاتين لمقر أقامتهما، وهناك أخبرتا أبوهما الشيخ الكبير، بشهامة ذلك الشاب الغريب، فما كان من الرجل إلا أن أرسل البنت التي عرف من نظراتها أنها معجبة بموسى لتدعوه. وبالفعل لبى موسى الدعوة، وقد كان بحاجة للأكل والراحة والأمان، وطمأنه الشيخ أنه أصبح في منأى آمن من المصريين هنا: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢٥﴾ القصص.

ولأن العادة تمنع البنت من الإفصاح عن إعجابها برجل أو مشاعرها نحوه، فقد سألت البنت والدها، أو شيخ مدين، كما سنطلق عليه من الآن ولاحقاً، أن يستخدم موسى كراع لديهم، لأنه أمين وقوي يستطيع أن يسقي ماشيتهم دون حاجة للانتظار حتى ينتهي الرعاة. وكانت تقول الحقيقة عن موسى، لكن الدافع كان إعجابها به ورغبتها في أن يبقى بينهم، ولا يرحل.

وقد وافق شيخ مدين، لأنه عرف دافع ابنته، وعرض على موسى أن يعمل لديه لمدة ثماني سنوات، وإن رغب في إتمامها لعشر فهو فضل منه، مقابل أن ينكحه إحدى ابنتيه، دون أن يصرح له أنه يعرف أن هناك نظرات إعجاب بين

موسى وبين واحدة منهما. وقبل موسى بكل طيبة خاطر، لأنه سيصبح له موطن وأهل وعائلة ومحبين: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴿٢٨﴾ القصص.

والحديث الذي دار بين شيخ مدين وبين موسى يظهر أن الشيخ يدين بدين الله، فهو يراعي الله في حديثه عن العقد المبرم مع موسى، ويُذكّر موسى أنه يخاف الله: «سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ»، وينهي كلامه بأن الله وكيل على الاتفاق.

وقد بقي موسى إلى نهاية الأجل المتفق عليه، ثم دخل بزوجه. وبعد ذلك طلب من شيخ مدين أن يسمح له بالرحيل مصطحباً زوجته التي لم يرزق منها بأطفال بعد: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ.........﴿٢٩﴾ القصص.

ولابد أنه كان طوال إقامته مع شيخ مدين، على اتصال بوالدته، إن كانت لا تزال على قيد الحياة، وعلى اتصال بأخوته الذين في مصر، ويلتقي بهم بين الحين والآخر، خاصة في فصل انتقال موسى مع أهل زوجته للرعي في البادية القريبة من مصر.

التكليم

هناك نقطتان هامتان علينا أن نتذكرهما، لكي نستطيع التعرف على الجهة التي توجه إليها موسى بعد انقضاء عقد عمله وزواجه بالفتاة التي أحبته، وهما:

١. لابد أن شيخ مدين كان مثل يعقوب جد موسى، يقضي بعض الوقت

في البادية يرعى الماشية، وفي أشهر الصيف، عندما تشح الأرض من الحشائش، يعود للحجاز، وأعالي جبال السروات، حيث الطقس المعتدل له ولعائلته، وحيث بقايا الحصاد في حقول القمح والمحاصيل الزراعية الأخرى التي يسمح له أهلها برعي ماشيته فيها، إضافة للحشائش والشجيرات البرية المتوفرة في المنطقة. وقد أقيم حفل زفاف موسى في مقر إقامة العائلة في جبال السروات.

٢. شيخ مدين وأفراد عائلته بما فيهم زوج موسى كانوا مؤمنين بدين الله. وموسى وصفه القرآن أنه أوتي «علما وحكما» منذ كان شاباً، وقبل هربه من مصر: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٤﴾ القصص.

والقرآن عندما يصف أحداً بأنه أوتي حكماً وعلماً فهو يشير إلى أنه أصبح على علاقة بالسماء. فقد وصف يوسف بذلك: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿٢٢﴾ يوسف.

ويوسف رسول من رسل الله: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴿٣٤﴾ غافر.

ولوط أوتي حكماً وعلماً وهو رسول: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴿٧٤﴾ الأنبياء.

كما أن داوود وسليمان أوتيا حكماً وعلماً: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴿٧٩﴾ الأنبياء.

فيكون موسى عندما تزوج مؤمناً بالله وكان على دين جده إبراهيم، وكانت زوجه وأهلها يدينون بنفس الدين.

وما سبق يجعلنا نؤكد أن موسى وزوجه (أهله) غادرا مقر إقامة عائلتهما، الواقع في أعالي جبال السروات، متجهين لمكة لأداء العمرة وزيارة البيت، بعد المحن التي مرت به. ومن يريد الذهاب لمكة من هناك، فإن أسهل طريق ـ على الراحلة ـ هو الطريق الدولية لقوافل اللبان، القادمة من سبأ والمتجهة إلى الشام. وهو طريق يعبر السفوح الشرقية لجبال السروات، إلى أن يجتاز سوق عكاظ، ثم قرية السوء (السيل الكبير) نزولاً إلى الشمال من مكة، ثم ينعطف شمالاً متجهاً للمدينة أو الطريق الساحلي. وكان على موسى أن يتجه شرقاً من مقر إقامة شيخ مدين الصيفي في أعالي السروات، إلى أن تعترضه جادة القوافل الدولية، ليتجه معها إلى اليسار ميمماً نحو مكة.

ولما انتهى موسى وزوجه من أداء فريضة الحج أو العمرة، قرر الخروج من مكة والمبيت خارجها، قبل مواصلة المشوار عائداً إلى المنطقة التي يتواجد فيها شيخ مدين، في الحجاز (السروات)، إذ لازال الوقت صيفاً، ولم يحن النزوح للبادية بعد. ولأنهم مؤمنون فلا بد أن لديهم مسجد، والراجح أن يكون هو نفس المسجد الذي استخدمه إبراهيم في الجبل المسمى باسمه، لأنهم يقطنون في نفس المنطقة. ولأن البادية التي ينتقلون إليها لرعي ماشيتهم هي نفس البادية التي كان يعقوب وبنيه يرعون فيها، وهذا المسجد قصي وبعيد عن مكة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿١﴾﴾ بنو إسرائيل.

ولكي يعود موسى وأهله من مكة، إلى المسجد الأقصى حيث أهل زوجته، كان عليه أن يسلك نفس طريق قوافل اللبان، الذي قدم منه. ولا بد أن موسى قرر المسير حتى يقترب من الطريق الدولية، والمبيت هناك، لكي يتسنى له الانضمام لقافلة عابرة، لأن السفر وحيداً مع زوجه ليس بالأمر المحمود ولا المأمون.

لكن إذا كان موسى ينوي الرجوع مع طريق القوافل فلماذا خرج من مكة عن طريق عقبة كدي، باتجاه الشمال الغربي، والتي توصله للطريق المتجهة للمدينة أو جدة، بدل أن يخرج من مكة باتجاه الشمال مع نفس الوادي الذي يقع فيه البيت، إلى أن يصل إلى الطريق الدولية للقوافل، الموضحة على الخريطة المرفقة في صفحة تالية، وهناك يمكنه المبيت بانتظار سيارة عابرة.

ولعل الآيات تحمل لنا الإجابة:

يقول تعالى في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴿١٠﴾.

عندما رأى موسى النار قال لأهله «امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى». فهو قصد النار لواحد من أمرين: إما أن يأتي منها بقبس يستطيع بواسطته إشعال النار له ولزوجه ليتسامروا عليها قبل النوم، كعادة أهل البادية إلى اليوم. والأمر الثاني وهو المهم: «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى».

وهو ما كررته سورة القصص: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ.. ﴿٢٩﴾.

وسورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ.... ﴿٧﴾.

فما الذي كان موسى بحاجة للتأكد منه والسؤال عنه أكثر من أن يستدل على الطريق الصحيح المؤدي لطريق القوافل المتجه للجنوب؟

لقد كان قرار موسى الخروج من مكة في المساء، والسير إلى أن يقترب من طريق القوافل قراراً صائباً، لكنه خرج من مكة مع الطريق الخطأ، وقد كانت إرادة الله وراء ذلك.

وفي واد يسمى طوى يقع إلى الغرب من الحرم، وبالقرب من بئر عند

تقاطع طرق، يردها المسافرون، وتحمل نفس الاسم إلى الآن، قرر موسى قضاء الليل. وما أن استقر به المقام، حتى رأى ناراً من بُعْد، فذهب إليها ليأتي منها بقبس أو جذوة يشعل منها النار له ولزوجه ليصطلوا من برودة جو الليل[١]، ويتسامروا على ضوئها. وفي نفس الوقت، سيسأل من يجد حول النار أن يدلوه على الاتجاه الصحيح المؤدي للطريق. لكنه وجد شيئاً لم يتوقعه أبداً: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴿١٣﴾ طه.

وطُلِب منه أن يخلع نعليه لأن البقعة التي يسير فيها أصبحت مقدسةً بهذا التكليم. وتقع البقعة المباركة على الشاطئ الأيمن من الوادي، بالقرب من شجرة وحيدة هناك: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴿٣٠﴾ القصص.

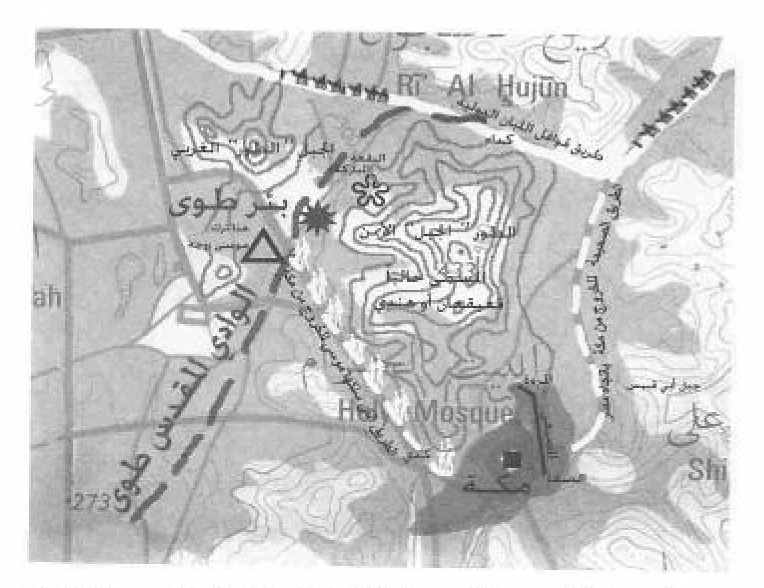
والجانب الأيمن من الوادي بالنسبة للقادم من مكة، مثل موسى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴿٥٣﴾ مريم.

والطور هنا يعني الجبل المنتصب، وكل من يقف تحته فهو طور بالنسبة له، ولو كان ارتفاعه لا يزيد عن بضع مئات من الأمتار. وموسى نودي من الجانب الأيمن للوادي، الذي يمر تحت سفح الطور (الجبل) الأيمن بالنسبة لاتجاه سيره هو. وهذه خريطة طبوغرافية لمكة[٢] تبين ما حدث:

---

(١) البرودة هنا نسبية، فالجو مساءً يصبح ابرد من النهار الحار، ولا تعني أن هناك برد قارس. ولكن اشعال النار في البرية عادة دأب عليها الناس في جزيرة العرب، إلى اليوم ولو كان الجو حاراً. لأنها تنير المكان ومدعاة للتجمع حولها وتبادل أطراف الحديث لبعض الوقت قبل الخلود للنوم، ولطهي الطعام.

(٢) جزء من خريطة طبوغرافية إسمها مكة المكرمة بمقياس رسم: ١ : ٥٠,٠٠٠ أنتجتها إدارة المساحة=

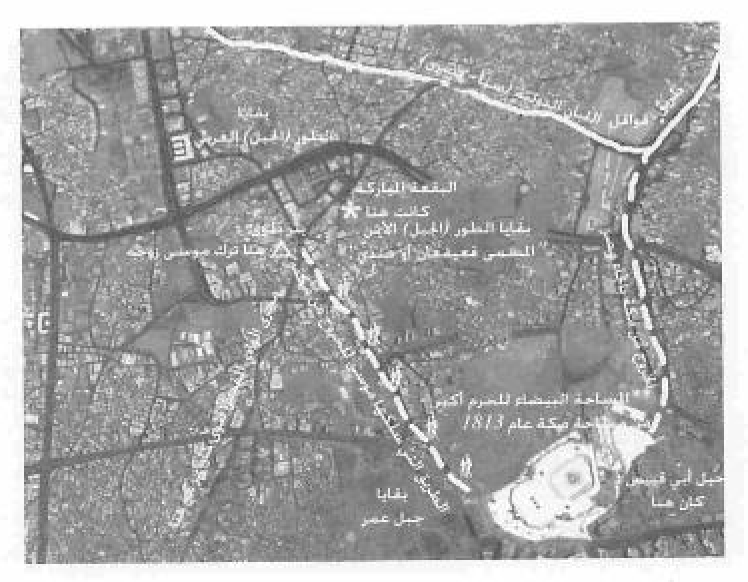


وفي سورة القصص، التي جاءت آياتها تخبر عن قصة موسى من المهد إلى أن أغرق فرعون، يتوجه الخطاب إلى محمد ليقول أن كل هذه القصص والأحداث عرفتها لأنه أوحي بها إليك، ولم تكن متواجداً بجانب الطور (الجبل) الغربي المقابل للمكان الذي جرى فيه التكليم، تراقب ما يحدث كشاهد عيان: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴿٤٤﴾ القصص.

والجبل الغربي لأنه بالفعل يقع إلى الغرب من الطور الأيمن.

وفيما يلي صورة فضائية لمكة الحالية من قوقل إيرث لنفس المنطقة مضافاً لها البيانات اللازمة:

=الجوية - وزارة البترول والثروة المعدنية السعودية في العام ١٩٧٥. وأضيف لها المعلومات اللازمة. مع ملاحظة أن المنطقة الحمراء الساطعة حول الكعبة تمثل مكة في العام ١٨١٤ كما رسمها بوركهارت في كتابه رحلات في جزيرة العرب Reisen in Arabien. وهي أقرب لمساحة مكة القديمة.



لأن تضاريس مكة قد تغيرت ولم يعد للصورة التي كانت عليها وجود، مع التسابق المحموم وراء إقامة البنايات الشاهقة سعياً وراء الكسب المادي دون الالتفات لأي قيم أثرية أو دينية، بعد أن استطاعوا ترويض رجال الدين لمصالحهم.

وكل ما بقي من هذه الأماكن المقدسة بئر طوى خلف باب مغلق كتب عليه «الماء غير صالح للشرب». وتقع في حي جرول، مقابل مستشفى النساء والولادة والأطفال، قرب التقاء شارع عمر ابن عبد العزيز بشارع حسان بن ثابت.

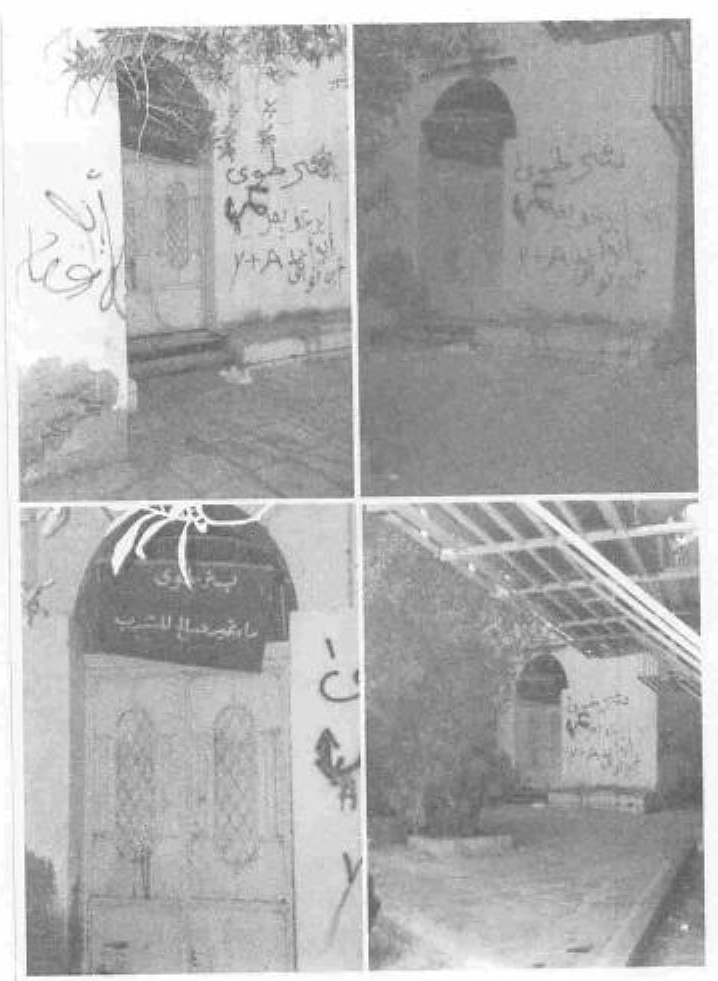
وسيجد القراء في صفحة تالية أربع صور لمبنى البئر من الخارج، من زوايا مختلفة. لأنه يمنع الدخول إليها بأمر وزارة الأوقاف السعودية، ويبدو الإهمال واضحاً لواحدة من أقدس بقاع الأرض.

ولكن قبل ذلك هذه صورة فضائية مقربة لمنطقة التكليم من برنامج قوقل

إيرث مضافاً لها المعلومات الضرورية، كشاهد على طمس هذه المعالم الدينية الهامة، مقابل المال الذي سيموت صاحبه ويبقى الخراب الذي أحدثه:



ولا تبعد بئر طوى عن البقعة المباركة التي كلم فيها موسى بأكثر من ٥٠٠متر، ونفس المسافة أو اقل تفصل بين البئر والمكان الذي ترك فيه موسى زوجه وذهب باتجاه النار، حيث كان التكليم:



وإذا وقفت عند الباب الظاهر في الصورة، فاتجه إلى الشمال بانحراف نحو الشرق، ويفترض أن تكون البقعة المباركة التي تم فيها تكليم موسى، أمامك على بعد لا يزيد عن بضع مئات من الأمتار، والتي سترى مكانها الآن

إحدى العمارات الشاهقة التي قضت على معالم مكة وتضاريسها، التي لا تقدر بأي مال يجنيه من أقام هذه البنايات وقد يموت قبل أن يرى مكاسبها.

التكليف

ما أن وصل موسى لتلك النار حتى سمع صوتاً يخبره أنه يخاطب ربه، وأن عليه أن يخلع نعليه تأدباً مع البقعة التي يقف فيها والتي اكتسبت القداسة لأنه يحدث فيها التكليم. وأخبر أنه قد اختير ليكون رسولاً لله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴿١٣﴾ طه.

وسيعطى طاقة خارقة لعصاه ولإحدى يديه، لا تتوفر للبشر، لكي يؤكد لفرعون أنه مرسل من الله. ولكي يطلع على مدى هذه القوة، طلب منه أن يلقي عصاه، فلما رآها تتحرك وتقفز، ولى هارباً ظناً منه أن أحد الجان تقمصها، وهو اعتقاد كان سائداً في مجتمعات جزيرة العرب ولازال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴿٣١﴾ القصص.

ولما اطمأن موسى وهدأ، أراه الله الطاقة التي اكتسبتها يده: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴿٢٣﴾ طه.

لقد تحولت عصا موسى ويده إلى حالة فوق طبيعية، بفعل الطاقة العجيبة التي تفوق معارفنا كبشر، والتي تكونت بأمر الخالق العظيم. وسنرى أن يد موسى وعصاه ستصنعان المعجزات في عدة مواقف، منها:

* التهام الأعمال السحرية التي عرضها السحرة: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴿٤٥﴾ الشعراء.

* القدرة على تفجير العيون المائية: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴿٦٣﴾ الشعراء.

* وانفلاق البحر: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴿٦٠﴾ البقرة.

وبطبيعة الحال لن تظهر هذه الطاقة إلا بالعصا واليد معاً، وكأنهما يمثلان قطب سالب وقطب موجب. وهو ما جعل العصا تتوقف عن صنع المعجزات، بعد وفاة موسى، ولم يعد لها أي تميز عن أي عصا أخرى.

ثم أمر موسى بتنفيذ المهمة الموكلة إليه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴿١٧﴾ النازعات.

لكن موسى لديه مشكلتين، يعتقد أنهما تمنعانه من العودة لمصر:

١. فقد خرج هارباً من مصر، لأنه قتل أحد المصريين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴿٣٣﴾ القصص. ولابد أن أهل القتيل سيقتلونه لو تمكنوا منه.

٢. ولديه صعوبة في النطق، ويحتاج لمن يكون معه لمعاونته وقت الحاجة، وليس هناك أنسب من أخيه هارون: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴿٣٥﴾ طه.

ولأن «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1]»، استجاب سبحانه لطلب موسى أن يكون هارون معه، وطمأنه إلى أنه سيكون أقوى من أن يستطيع أحد من

(١) الأنعام: ١٢٤.

مصر الإضرار به: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴿٣٥﴾ القصص.

العودة لمصر

لا يتحدث القرآن عما حصل لموسى بقية تلك الليلة التي كُلم فيها، وتنقلنا الآيات مباشرة إلى موسى وقد وصل مصر وابتدأ دعوته لفرعون. ولنا أن نتخيل ما حدث، فقد نصيب الحقيقة أو قريباً منها، ونقول:

إن موسى قد رجع إلى مقر إقامة شيخ مدين، وأخبره ما حدث، وترك زوجته هناك، قبل أن يتوجه لمصر. وقد يكون التقى أخيه هارون خارج مصر أو أنه بعد أن دخل مصر لم يتوجه مباشرة لفرعون، ولكن إلى منزل عائلته، حيث التقى أخوه هارون ومن بقي من أفراد عائلته أحياء. وشرح لأخيه ما حدث وكيف كلفهما الله بالدعوة، ومن ثم ذهبا للقاء فرعون.

والرسالة الموجهة لفرعون هي أن يعتق بني إسرائيل ويسمح لهم بالخروج من مصر مع موسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴿٤٧﴾ طه.

ولم يكن على فرعون أن يؤمن بالله، وكل المطلوب منه أن يسمح لبني إسرائيل بمغادرة مصر، وسيترك وشأنه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴿٢١﴾ الدخان.

لقد كان الإسرائيليون يعانون الأمرين تحت حكم فرعون: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم

مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿٤٩﴾ البقرة.

وكما ذكرنا سابقاً لا ندري ما الذي غير أحوالهم عما كانوا عليه أيام يوسف إلى ما أصبحوا عليه في عصر فرعون. لدرجة أن نساءهم تغتصب وأطفالهم تقتل دون أن يكون باستطاعتهم ترك مصر والخروج منها.

ومصر بلدة متقدمة جداً في أعمال فنية كثيرة وفي تصميم الأشكال، وفي صناعة الحلي وفي الأعمال السحرية المبهرة. وهي تختلف جذرياً عما يطلق عليه سحر في الثقافة الشعبية الآن، والذي هو عبارة عن شعوذة لا حول لها ولا قدرة لما يظنه العامة أنها تملكه. أما سحر أهل مصر فهو فن راق وأعمال مذهلة ليس المقصود منها تحويل العدو من إنسان إلى نعجة، أو تحويل الكاره لمتيم، أو غيرها من هذه الخرافات التي يظن العامة أن للشعوذة قدرة عليها ويسمونها تجاوزاً، سحر. فالسحر أساساً علم يمكن تعلمه وإتقانه وما يصدر من الساحر من أعمال هي بالفعل تسحر الألباب. واليابانيون اليوم يشتهرون بأعمال سحرية تثير الحيرة والإعجاب، ولو لم تكن تشبه سحر مصر. ومثلهم الكثير من السحرة المشهورين على مستوى العالم، مثل الساحر الأميركي المعروف ديفيد كوبرفيلد (David Copperfield).

وما قام به السامري من بني إسرائيل يعتبر سحراً بهذا المعنى، حيث استطاع أن يصمم عجلاً من الحلي المذابة يصدر خواراً كخوار البقر الحي. ويبدو أن السحر كان منتشراً خارج مصر في تلك الفترة، بدليل أن بعض من استخدمهم سليمان يجيدونه، ومنهم ذاك الذي أحضر عرش ملكة سبأ. ومع أنه علم وفن فقد يستغله البعض في الشر، كما كان يفعل بعض بني إسرائيل في مملكة سليمان الذين تعلموا بعض الحركات السحرية من هاروت وماروت واستغلوها في التفريق بين الأزواج السذج. لكن هذا لا يحول السحر كعلم إلى شعوذة تعارف الناس اليوم على تسميتها سحر، وما هي إلا خزعبلات لا

تضر ولا تنفع يقوم بها جهلة مساكين ليقتاتوا منها قوت يومهم الذي حرموا منه بطرق مشروعه.

وفي بداية دعوة موسى وهارون سخر منها فرعون ومن حوله من حاشية ومنتفعين وأصحاب مصالح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴿٤٧﴾ الزخرف.

ولما قال موسى وهارون إنهما قد أرسلا من الله، جاء رد فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴿٥٢﴾ طه.

فقال له موسى إن لديه برهان على أنه رسول من الله، فأجابه فرعون: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴿٣٣﴾ الشعراء.

فكان لفرعون ردة فعل على ما شاهد تبينها الآية التالية: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴿٥٧﴾ طه.

فكل الذي رآه ظنه حركات سحرية. لكن رده تضمن رفضه السماح لبني إسرائيل، كونهم في نظره من المصريين، ليس في المساواة والحقوق ولكن في انتمائهم لمصر، التي يملك أرضها ومن عليها، ويفعل بملكه ما يريد.

وكأي طاغية، فمجلسه عامر بالمنافقين والمنتفعين، وقد وجه فرعون تساؤلاً للحاضرين عما يجب عليه أن يفعل مع ما قدمه موسى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴿٣٥﴾ الشعراء.

والحكام الفراعنة عندما يسألون من حولهم لا ينتظرون آراءهم ولا يتقيدون بها، ولكن لأنهم يعلمون أن هؤلاء متملقون وسينطقون بما يرغب الحاكم أن

يفعله. ولأن فرعون صرح لموسى أن ما قدمه سحر، وانه لا يصدق أنه مرسل من الله، فالمتنفعون يعلمون أن فرعون ماض لإثبات أن ما قدمه موسى سحر، وذلك بإحضار سحرة يبطلون سحر موسى. فما كان منهم إلا أن: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴿٣٧﴾ الشعراء.

ولأن هذا هو ما يريد فرعون القيام به، أعلن موافقته لرأيهم، وهم يعلمون أنه لو كان يرغب القيام بشيء آخر لفعله ولو خالف ما نطقوا به. وأصدر فرعون أوامره الملكية أن يبحث عن أمهر السحرة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴿٧٩﴾ يونس.

وأعلن في مصر أن هناك مبارزة سحرية سيرعاها فرعون وعلى الجميع الحضور، ليتشرفوا برؤية الفرعون، أولاً، ويشجعوا السحرة ضد موسى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴿٤٠﴾ الشعراء.

وثم التفت فرعون إلى موسى، بغرور: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى﴿٥٨﴾ طه.

وتم الاتفاق على أن يكون الموعد ضحى يوم عيد سنوي كبير، اعتاد الناس إقامته في الساحة العامة ويحضره كل أهل مصر: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴿٥٩﴾ طه.

وكان من بين المقربين لفرعون شخص اسمه قارون، وهو من بني إسرائيل فاحش الثراء، لكنه بدأ يداهن وينافق الفرعون وأشركه معه في الأرباح التي يجنيها، حتى أصبح من المقربين له، لأنه كان يخشى أن يتسلط عليه الفرعون ويسلب ثروته منه، كعادة الملوك الفراعنة في كل زمان ومكان، فضحى بقومه وبعض الأرباح مقابل مصالحه الشخصية: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى

عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴿٧٦﴾ القصص.

لكنه لم يعمر طويلاً، وتعرض مسكنه حيث يحتفظ بماله ويعيش، إلى انهيار أرضي جرفه وماله معه إلى غير رجعة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴿٨١﴾ القصص.

وقد يكون الانهيار الأرضي ناتج عن فيضان الوادي الذي يمر بمصر، ولو كان هذا ما حدث، فلا بد أن مسكن قارون كان يطل على الوادي.

لكن قبل هلاكه كان هو وشخص آخر ذو نفوذ عند فرعون، اسمه هامان، ممن زين لفرعون رفض دعوة موسى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴿٣٩﴾ العنكبوت.

وقبل اليوم الموعود تشرف السحرة بالسلام على فرعون في قصره، واستمعوا لتوجيهاته السامية، كما وعدهم جلالته بهباته الكريمة إن هم هزموا موسى. وقبل كل شيء، رضاه عنهم وسروره منهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿٤٢﴾ الشعراء.

وجاء يوم العيد وامتلأت الساحة بالناس وحضر فرعون متأخراً عن الجميع في موكب هائل ومركبات مذهبة وحراسة ومنافقين. وكان موسى والسحرة قد اصطفوا قبالة بعض، ولما استقر الفرعون على كرسيه، أُعلن بدء المبارزة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴿٦٩﴾ طه.

وبعد أن هدأ موسى، سمع السحرة يطلبون منه أن يقدم ما لديه: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴿٤٥﴾ الشعراء.

وكانت مفاجأة الحفل التي لم يتوقعها فرعون: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴿٤٨﴾ الشعراء.

ولأنه حاكم طاغية فلا يتصور أن أحداً سيقدم على تصرف يخالف مشيئته أو رغبته، وإعلان السحرة الإيمان يعارض رغبة الملك، لذا كانت مخالفتهم لرغبته أكثر وقعاً من هزيمتهم والتأكيد على أن ما قدمه موسى ليس سحراً ولكنه قوة من رب العالمين. لأن فرعون لن يؤمن بموسى ولو رأى الله جهرة، لذا تناسى الهزيمة ووجه تحذيراته للسحرة: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴿٤٩﴾ الشعراء.

فلا أحد يخالف الفرعون وينجو بفعلته.

وحتى بعد أن تيقن فرعون من صدق موسى، استمر برفض فكرة أن موسى رسول لله، لأنه سيخسر جبروته وسيتساوى مع بني إسرائيل الذين استعبدهم واغتصب نساءهم، لو آمن، ولن يكون بينه وبين مماليكه الآخرين فروق.

فأصدر مرسوماً فرعونياً لأهل مصر يخبرهم فيه أنه لا إله إلا هو، وأنه سيثبت كذب موسى بوجود إله في السماء. وأمر هامان ـ وزير المالية والتخطيط ـ أن يبني له برجاً عالياً يصل للسماء لكي ينظر إن كان هناك إله كما يزعم موسى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٣٨﴾ القصص.

والطين، كما يبدو كان المادة المعروفة في مصر لبناء المساكن والقلاع.

ثم أمر بجمع الناس وقام فيهم خطيباً: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴿٥١﴾ الزخرف.

وتساؤله، ليس للبحث عن جواب، ولكن لترسيخ انه هو الحق وما يقوله موسى الذي لا يملك شيئاً، هو الباطل: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴿٥٢﴾ الزخرف.

ولا يستبعد أن يكون هامان قد نفذ رغبة الفرعون الغير معقولة، وصفق لعبقرية سيده، وهو يعلم الحقيقة بينه وبين نفسه. كما لا يستبعد أن يكون فرعون قد صعد بالفعل للبرج الذي يعلو عدة أمتار، ورجع ليعلن أنه لا وجود لإله هناك وأنه لا إله غيره. وقد روج الإعلام الرسمي، وهو الوحيد على الساحة، لهذه الكذبة الملكية، واعتبرت هذه الصفاقة قدرة خارقة ودهاء وحكمة من الفرعون. ولن يتجرأ أحد من الناس أن يصرح بحقيقة ما حدث برغم أن كل من في مصر يعلمونها: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴿٥٤﴾ الزخرف.

والمؤسف أن هذه الثقافة الفرعونية لازالت كما هي دون تغيير برغم تغير العصور. كما بقيت سياسة فرعون سارية المفعول في العيش فوق القانون وأكل أموال الناس وابتزاز نساءهم وقتل أطفالهم أو رجالهم بدم بارد والاشتراك معهم في أموالهم.

خروج بني إسرائيل

فرعون كأي طاغية لا يمكن أن يعود للحق، ولو ثبت لديه كالشمس الساطعة. فلم يؤمن ولم يسمح لبني إسرائيل مغادرة مصر، وكان هذا موقفه النهائي. فبدأ موسى يدعو بني إسرائيل، خفية، للانضمام إليه والاستعداد للخروج من مصر. ولأن سياسة الفرعون، هي إذلال الناس فسيفقدون كرامتهم جيلاً بعد آخر، وهو ما حدث لبني إسرائيل الذين ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، ولم يتبع موسى إلا قلة منهم، احتفظوا بقليل من الكرامة، أما البقية فقد اعتادوا حياة الذل، ولم تعد الكرامة تعني لهم شيئاً: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ

لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٨٦﴾ يونس.

وقد أجهد موسى في دعوته لهم برغم أنها السبيل لنيل حرياتهم، واسترداد كراماتهم. ومع ذلك لم يعلن موافقته للخروج مع موسى منهم إلا قلة: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٨٦﴾ البقرة.

وبدأ موسى يجتمع بمن تبعه سراً في بيته وبيت أخيه هارون، حيث كانوا يعملون على خطة الهرب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴿٨٧﴾ يونس.

وكان موسى خلال هذه الفترة يدعو ربه أن يحيط بفرعون وملئه: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴿٨٩﴾ يونس.

وسرعان ما سعى المنافقون والمتنفعون لدى فرعون، يهولون له ما يجري من بني إسرائيل وموسى: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴿١٢٧﴾ الأعراف.

فتحمس كبار المتنفعين مثل هامان وقارون، لتنفيذ ما فكر به فرعون من استحياء النساء وقتل الأولاد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴿٢٣﴾

إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴿٢٥﴾ غافر.

كما فكر فرعون في قتل موسى، ليقضي على فكرة تحرير بني جنسه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴿٢٦﴾ غافر.

إلا أنه لم يكن كل الحضور في مجلس فرعون موافقين على اقتراح قتل موسى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴿٢٨﴾ غافر.

فقاطعه فرعون: . . . . قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴿٢٩﴾ غافر.

لأن الفرعون لا يريد أن يسمع بالآراء الصائبة، ولا يأخذ بها، ولكن يتبع ما يراه، ويريد من كل من يستمع أن يطبل له.

وفي هذه الأثناء أصيبت مصر بالسنين والجفاف، وشح المحاصيل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿١٣٠﴾.

أعقب ذلك سنة كانت الأمطار غزيرة وفاضت الأودية وأينعت الأشجار، لكنهم لم يستفيدوا من المحاصيل لأن هناك من قضى عليها: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴿١٣٣﴾.

والجراد يغزو تلك المناطق ومناطق واسعة من جزيرة العرب في السنوات التي تكثر فيها الأمطار، لأن الجراد يدفن بيضه في الرمال، ويبقى مدفوناً لمدة تصل إلى ٢٥ عاماً، حتى يأتي المطر الغزير فيفقس البيض ويخرج الجراد، الذي سرعان ما يتزاوج ويدفن بيضه مرة أخرى.

وهناك نوع من الضفادع أيضاً يعيش في مجاري الأودية، تحتاج للماء لكي تتزاوج وتبيض، وقد تكاثرت في تلك السنة لكثرة المياه. كما انتشرت الحشرات، ونزلت أمطار ملوثة.

ولأن فرعون، وكل فرعون، يعلم في قرارة نفسه أن هناك إله وأن ما يفعله ظلم وطغيان لا يقر به إلا في ظروف حرجة، فإن الخسائر الكبيرة لهذه الكوارث التي أصابت البلاد، قد أجبرت فرعون على أن يعرض على موسى عقد صفقة: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿١٣٤﴾ الأعراف.

والآية تدل على أن فرعون وملأه يعلمون يقيناً أن موسى صادق في دعوته وأنه رسول لله، لكن التخلي عن المصالح الدنيوية هو ما منعهم من الإيمان. إلا أنه عندما حل بهم الرجز المتمثل بهلاك المحاصيل، سارعوا للاستغاثة بموسى ليدعو الله رفعه عنهم مقابل إخلاء سبيل بني إسرائيل. وقد رفع عنهم الرجز بالفعل: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴿١٣٥﴾ الأعراف.

ولكن فرعون نكث عهده مع موسى، وامتنع عن السماح لبني إسرائيل بمغادرة مصر، فكان لا بد أن يخرج موسى وأتباعه من مصر بأسرع وقت ممكن، وبدأ موسى وأتباعه ـ في اجتماعاتهم السرية ـ يضعون خطة للهرب. وأظهر بعضهم رغبة في الاستعجال بالخروج، فيما كان موسى يحاول أن يحثهم على الصبر والتريث للتأكد من إحكام الخطة حتى لا تفشل ويكونوا عرضة لنقمة فرعون: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴿١٢٨﴾ الأعراف.

فانفجروا في وجه موسى: ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا. . . .

﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴿١٢٩﴾ الأعراف.

وأخيراً تقرر أن يكون الهروب ليلاً أثناء نوم أهل مصر: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي..... ﴿٥٢﴾ الشعراء.

وعليهم الابتعاد قدر الإمكان، لأن فرعون وجنده سيتبعونهم عندما يعلمون بهربهم في اليوم التالي: ﴿..... إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴿٥٢﴾ الشعراء.

وقبل أن نتناول ما حدث بعد ذلك، وكيف غرق فرعون، لا بد أن تعرف:

أين تقع مصر

في البداية علينا مراجعة الآيات والتعرف على ما تحمله من ملامح ومواصفات لمصر، ثم نطبق هذه الملامح والمواصفات على الطبيعة من خلال الخرائط، لنتعرف على مصر وأين تقع وأين غرق فرعون وجنده. وفيما يلي أهم هذه الملامح:

* مصر منطقة زراعية محدودة، وليست دولة تتكون من عدة مناطق، كما هو مفهوم الدولة حالياً.

والدليل جاء من حديث إخوة يوسف مع أبيهم عندما عادوا من مصر وأخوهم الصغير ليس معهم، لأنه سرق صواع الملك فأخذ كرقيق عقاباً له على سرقته. ولكي يؤكدوا لأبيهم صدق زعمهم، قالوا: ﴿..... يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴿٨٢﴾ يوسف.

والقرية التي كانوا فيها، هي مصر. والقرية في القرآن تعني المدينة في مفهومنا الحالي.

* قرية مصر تتكون من مدائن جمع مدينة.

والمدينة، مفرد مدائن، تعني المبنى المحاط بسور سواءً كان صغيراً كالمنزل أو كبيراً كالقلعة، وقد يكون داخل سور المدينة عدة مباني، سنثبت في الفصل القادم «مسمى المدينة» وذلك في جزء تاريخ الإسلام/ الباب الثاني/ المدينة. ومن هذه المدائن ذلك المبنى الذي يضم السوق والمخازن التي يُحتفظ فيها بمحاصيل مصر. ولها عدة أبواب، على كل باب حرس، لا يسمحون بدخولها إلا لمن يحمل ترخيصاً. وهذا يتضح من وصية يعقوب لأبنائه بأن يتفرقوا ويدخلوها من عدة أبواب ولا يدخلوا جميعهم من باب واحد: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴿٦٧﴾ يوسف.

* مصر منطقة زراعية وتعتمد على المطر، والمحصول الرئيسي القمح «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ».

* كما تنتج المحاصيل التي يستخرج منها الزيوت، كزيت الزيتون «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ».

* البلاد تتعرض للجفاف خلال فترات زمنية متباعدة: «ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ».

وهو ما يفهم من هذه الآيات: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴿٤٩﴾ يوسف.

وهذه الآيات تؤكد أن مصر تعتمد في زراعتها على الأمطار، ولو أنها تقع

على جانبي وادٍ كما يفهم من الآيتين (٧ ـ ٨) من سورة القصص. وهذا الوادي يجري لعدة أيام أو أسابيع في السنة، في موسم الأمطار التي تقع على قمم السروات، وتنحدر للوادي، الذي قد يستمر في الجريان لبضعة أسابيع أو أشهر. وهو ما تشير له الآيات أثناء الحديث عن طفولة موسى، الذي ولد في مصر: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴿٨﴾.

وما نعرفه أن اليم هو مرادف لكلمة بحر، لكن هذا في استخدامنا الحديث للكلمة، ولو كان اليم يقصد به البحر فقط، فتكون مصر على سواحل البحر الأحمر، وهذا مستحيل، لعدة أسباب، لعل أهمها:

* أن نوع المنتجات الزراعية التي تنمو في مصر لا تتناسب مع جو تهامة، مثل النخيل، وزيت الزيتون، والقمح.

* أن فرعون خرج يلاحق موسى وبني إسرائيل متجهاً للشرق وهناك غرق في البحر، ولم يكن البحر في جهة الغرب: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴿٦٦﴾ الشعراء.

* كما أن مصر فرعون تقع على ضفتي البحر، وهما قريبتين من بعض لدرجة أن أخت موسى كانت تسير على ضفة وتراقب تابوت أخيها الذي التقطه العاملون في مسكن فرعون على الضفة المقابلة. ولم يكن اليم يعني بحر بعرض البحر الأحمر، وإنما هو يم بعرض الوادي.

وبالتالي فقد يكون معنى اليم هو المسطح المائي الجاري، سواءً كان مسطحاً كبيراً كالبحر أو أصغر كالنهر والوادي. وتكون مصر تقع على ضفاف وادي، ويتخللها مجاري مائية فرعية. وهذه الصورة قريبة من الوصف الذي وصفت به سورة الدخان مصر بعد الحديث عن غرق فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴿٢٧﴾.

مصر، إذاً، عبارة عن جنات وعيون، أي بساتين ومزارع تسقى من جداول مائية تخرج من الينابيع المنتشرة في أرضها، وهذه الينابيع تتغذى من الوادي الرئيسي القريب. أو من آبار غزيرة المياه، تصب مياهها في أحواض تتشعب منها سواقي الماء لري المزرعة، كما هو الحاصل في شتى بقاع جزيرة العرب. وبطبيعة الحال يجب على القارئ ألا يتخيل صورة لمصر وكأنها في مناطق مطيرة كأوروبا، وعليه أن يضع في ذهنه أنها حدائق وبساتين ومزارع صحراوية بسيطة. كما عليه أن يتذكر أن وصف الوادي باليم أو المسطح المائي الصغير بالبحر هو وصف لما يراه الإنسان العادي في ذلك الزمن، ولو لم يتوافق مع مصطلح بحر ويم ونهر في أيامنا هذه، والتي اكتسبت معانيها بعد ظهور علم الجغرافيا، الذي وضع تعريفات عالمية للمسطحات المائية، تختلف عن تلك المسميات التي يصف بها الإنسان العادي المسطح المائي الذي يراه في ذلك الوقت. فالبحر بالنسبة له قد لا يتجاوز طوله وعرضه حجم بحيرة صغيرة، أو واد بعرض مئات الأمتار، بينما البحر في علم الجغرافيا لا بد أن يكون بحجم معين يتجاوز مئات الآلاف أو الملايين من الكيلومترات المربعة. . . وهكذا.

وتصف سورة طه جريان الوادي الهادئ الذي تقع عليه مصر، أثناء حديثها عن طفولة موسى في مصر: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ

فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴿٤١﴾.

ولو كانت مياه الوادي هائجة لما وافقت أم موسى أن تقذف بتابوت وليدها فيه، ولو كانت المياه تسير بسرعة لما استطاعت أخته ملاحقة التابوت ومراقبته وهي تسير على ضفة الوادي المقابلة، إلى أن رأته يجنح بهدوء على الضفة الأخرى بالقرب من سكن فرعون، ورأت العاملين هناك وقد رفعوا التابوت ونقلوه لداخل المسكن.

والآن سنحاول التعرف على أوصاف مكان مصر بعد أن تعرفنا على ملامحها وكيف تبدو:

* مصر قريبة من المكان الذي يرعى فيه أبناء يعقوب ماشيتهم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴿٢١﴾ يوسف.

ويوسف كان معروضاً للبيع بأي ثمن: وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴿٢٠﴾ يوسف.

لذا فالذي وجده باعه في أول سوق وصلتها القافلة، وهذه السوق هي مصر. وقد تكون القافلة قادمة لمصر لتتزود بما تجود به من محاصيل زراعية. وهذا يعني أن مصر تقع في منطقة محاذية لمنطقة قبيلة إبراهيم. وما يؤيد هذا الاحتمال هو أن إخوة يوسف اعتادوا القدوم لمصر للتزود بما يحتاجون من حبوب ومحاصيل زراعية، مما يعني أن مصر أقرب سوق لهم: ﴿وَجَاء إِخْوَةُ

يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴿٦٦﴾ يوسف.

ولو كان هناك سوق أخرى يمكنهم الحصول منها على احتياجاتهم لما عادوا لمصر، بعد أن رد يوسف بضاعتهم إليهم.

ولو رجعنا للآيات (٥٨ ـ ١٠٠) من سورة يوسف، لوجدنا أن إخوة يوسف كانوا يترددون جيئة وذهاباً بين مصر ومقر إقامتهم في البادية، عدة مرات، دون عناء. فقد حضروا لمصر أولاً لشراء ما يحتاجون، ثم أعادهم يوسف لكي يحضروا أخيه معهم. وجاءوا مصر للمرة الثانية مع أخيهم الصغير، قبل أن يعودوا لمقر إقامتهم للمرة الثانية بدون أخيهم. ثم عادوا لمصر للمرة الثالثة، في محاولة لإقناع يوسف أن يطلق سراح أخيهم، وفي هذه المرة عرفهم يوسف بنفسه، وطلب منهم العودة مرة ثالثة حيث يقيمون في البادية، ليحضروا أبيهم وزوجته أم يوسف، ليعودوا للمرة الرابعة والأخيرة لمصر برفقة والدهم. كل هذا حدث خلال الفترة الشتوية التي يقضونها في البادية. ولو كانت مصر بعيدة عنهم لما عادوا لها بعد تعامل يوسف الأول معهم. ولو كانت مصر بعيدة لاستغرقت رحلاتهم المكوكية بينها وبين مقر

إقامتهم مدة طويلة، سيتعرضون ووالدهم خلالها للجوع لعدم تمكنهم من الحصول على مؤنهم التي قدموا لمصر للحصول عليها ليقتاتوا منها طيلة بقائهم في البادية. إذاً، تردد إخوة يوسف أربع مرات على مصر حدث خلال أيام، وبالتالي علينا البحث عن مصر في المناطق القريبة من المنطقة التي يرعى فيها يعقوب ماشيته.

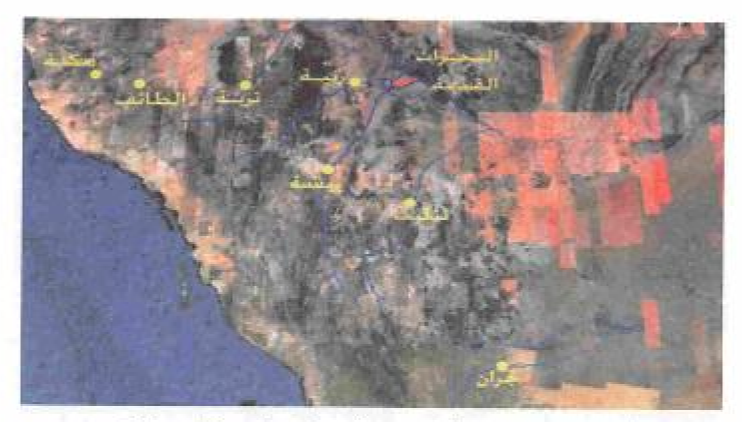
وهناك ملاحظة أخرى قد لا تكون ذات صلة قوية بتحديد موقع مصر، وهي أن سوق مصر كانت تجلب لها البضائع المختلفة ممن يحضر للتزود بالمحاصيل الزراعية منه. حيث يحصل المصريون على ما يحتاجون من القادمين مقابل بيعهم منتجات زراعية، سواءً بالمقايضة، أو بالعملات. فإخوة يوسف كانوا قد أحضروا معهم بضاعة لمقايضتها بمحاصيل زراعية. والبضاعة القادمة من البادية يمكن التكهن بأنها عبارة عن أصواف وجلود الحيوانات، وبعض المنسوجات. ومنتجات حيوانية كالزبدة والسمن، إضافة للأجبان المجففة. أما احتياجاتهم من مصر فهي القمح والحبوب إضافة للتمور والفواكه المجففة.

وبعد، فمصر تعتمد على مياه الأمطار، وتقع على ضفاف أحد الأودية الكبيرة في جنوب غرب الجزيرة، والذي يتغذى من الأمطار التي تهطل على مناطق أعالي السروات إلى الغرب والجنوب الغربي منها. وإلى الشرق من مصر يقع بحر، هو البحر الذي غرق فيه فرعون.

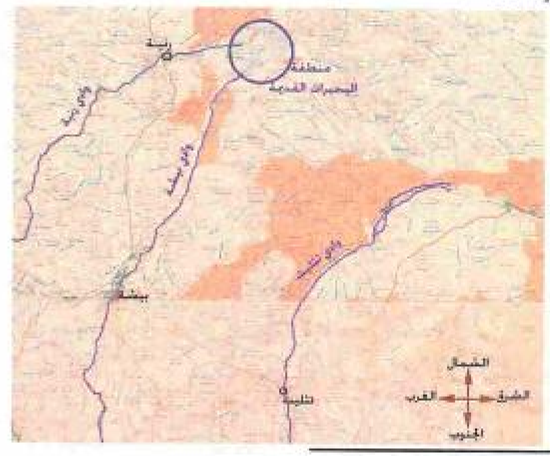
ولو استعرضنا خرائط المنطقة فسنجد أن هناك خمسة أودية كبيرة تنحدر من جبال السروات باتجاه الشرق، وتمتد إلى أطراف الربع الخالي. وتبقى المياه فيها عدة أشهر في السنة، وهي من الشمال للجنوب: تربة، رنية، بيشة، تثليث، ونجران. وأي منها يمكن أن يكون هو الذي قامت على ضفافه مصر. إلا أن وادي نجران، وإن قامت على ضفتيه مناطق زراعية واسعة منذ القدم، ويقع إلى الشرق منه ما يسمى اليوم «منقع نجران» والذي بلا شك كان بحيرة

في الماضي، إلا أنه بعيد عن مناطق رعي يعقوب لماشيته. وتثليث وإن كانت أقرب من نجران إلا أنها بعيدة أيضاً.

ويبقى لدينا ثلاثة أودية عليها ثلاثة تجمعات حضارية قديمة، هي: بيشة، رنية، وتربة. وكل هذه الأودية والتجمعات التي عليها يمكن اعتبارها قريبة من المناطق التي يرعى فيها يعقوب وبنيه ماشيتهم، وكل هذه الأودية تتوفر فيها المياه والأراضي الزراعية الواسعة، بلغة ذاك العصر، الصالحة لزراعة القمح ونمو أشجار الزيتون. وتربة هي الأقرب للمنطقة التي كانت ماشية يعقوب ترعى فيها، لكن لا يوجد إلى الشرق منها أي تجمع مائي. ولم يبق سوى رنية وبيشة، وواديهما يصبان في بحيرة قديمة واحدة. إلا أن بيشة تقع إلى الجنوب المائل قليلاً للشرق، وتبعد عن البحيرة بأكثر من ١٥٠ كم. وهذه المسافة يستحيل على بني إسرائيل الهاربين من مصر الوصول إليها في يوم أو بعض يوم قبل أن يدركهم فرعون، كما سنرى. إضافة إلى أنه لو كانت بيشة هي مصر، فإن هرب بني إسرائيل سيكون نحو الحجاز، وأعالي السروات لقربها منهم، ولأنها بالفعل ملجأ مناسب. ورنية هي الوحيدة التي يقع إلى الشرق منها منطقة كبيرة لتجمع مياه الأودية المنحدرة من جبال السروات، ويصب فيها مباشرة واديي بيشة ورنية، إضافة إلى أن وادي تربة ينتهي فيها بعد أن يبتعد شرقاً ثم يدور حول كثبان رملية ويعود باتجاه الجنوب الغربي إلى نفس حوض تجمع المياه، أو البحيرات القديمة التي تقع إلى الشرق من رنية. ولا تبعد البحيرة عن رنية سوى ٥٠ كيلومتراً أو أقل. ورنية بعيدة عن الحجاز ومناطق الاستقرار في أعالي السروات، لذا فخروج بني إسرائيل من رنية باتجاه الشرق يظهر أنه لم يكن لديهم فكرة إلى أين سيتجهون، ولكنهم قرروا السير بجوار الوادي لعلهم يصلون لبلدة يلجأون إليها. أو أنهم قرروا أن يتجهوا بهذا الاتجاه لتضليل فرعون الذي سيلحق بهم، حيث سيظن أنهم اتجهوا نحو السروات مع الوادي مما سيسمح لهم بالإفلات منه. وفيما يلي صورة فضائية من قوقل إيرث:



وبما أن الحقيقة عادة ما تكون بسيطة، فإن رنية، وبكل بساطة، هي مصر التي كان لها ملك اسمه فرعون. وحوض تجمع المياه الذي يقع إلى الشرق منها كان عبارة عن بحيرات تصب فيها مياه السروات عبر أودية بيشة، رنية، وتربة، وروافدها، كما يظهر في الصورة الفضائية السابقة، والخريطة الطبوغرافية أدناه(١).



(١) الصورة من قوقل إيرث، والخريطة الطبوغرافية جزء من خريطتين طبوغرافيتين، مقياس رسمها هو=

وستتأكد هذه الحقيقة في ذهن القارئ بما لا يدع أي مجال للشك، في الفصل التالي.

غرق فرعون

كنا قد تركنا موسى وأتباعه بعد أن اتفقوا على الخروج من مصر في ليلة محددة: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴿٥٢﴾ الشعراء.

وقد تكون ليلة الخروج من ليالي منتصف الشهر القمري، حيث يكون القمر فيها بدراً منيراً يُمكّن موسى وبني إسرائيل من رؤية الطريق أمامهم.

ومن المؤكد أنهم اتفقوا على التسلل خارج البلدة بعد أن يكون فرعون وسكان البلدة قد أخلدوا للنوم. وهذا يعني أن خروجهم كان حوالى الساعة الحادية عشر ليلاً، في وقت تغرب فيه الشمس حوالى الساعة السابعة. ويمكن أن نفترض أنهم اجتمعوا في مكان حددوه مسبقاً خارج البلدة حتى اكتملت أعدادهم. كما يمكن افتراض أن أعدادهم لا يمكن أن تزيد عن بعض المئات، وليس بضع مئات. أي ما بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠، بينهم قلة من الأطفال. وقد لا يكون معهم شيخ أو عجوز، لأن كبار السن يصعب إقناعهم بتبني فكر جديد، مهما كانت الأفكار التي اعتادوها سيئة. كما يمكن افتراض أن ما حملوه من متاع كان خفيفاً قليلاً، وربما لم يصحبوا معهم أي نوع من الماشية، لأن الجلبة التي تحدثها ستفضح تسللهم من البلدة.

وقرابة منتصف الليل اكتمل العدد وبدأوا التحرك سيراً على الأقدام، ولأنهم يعلمون أن فرعون سيسعى للحاق بهم متى اكتشف أمر هروبهم، كان عليهم السير بأسرع ما يمكن. وكان اتجاههم لجهة الشرق «فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ»، لأنهم قد يكونوا قرروا الخروج من مصر من هذه الجهة لتضليل

=١: ٥٠٠,٠٠٠ وقد أنتجتها إدارة المساحة الجوية ـ وزارة البترول والثروة المعدنية السعودية عام (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م). الشمالية باسم بيشة ورقمها NE38 - NW، والسفلى أبها ورقمها: NE38SW.

فرعون الذي ظنوا أنه سيتوقع خروجهم باتجاه الغرب حيث طرق القوافل والمناطق الآهلة بالسكان.

ولأنهم لا يعلمون إلى أين سيتجهون، قرروا السير مع الوادي.

وبما أن الشخص السليم العادي يمكنه قطع ستة كيلومترات في الساعة إذا كان مشيه حثيثاً، فلنا أن نقول إنهم كانوا يجاهدون أنفسهم للسير أسرع من المعتاد، وبالتالي فسنفترض أن معدل سيرهم كان ستة إلى سبعة كيلومترات في الساعة.

وفي الخامسة صباحاً، أفاق فرعون على صوت أحد جنده يخبره أن موسى وبعض بني إسرائيل قد هربوا في الليلة الماضية. وبسرعة أعلن النفير، وخلال دقائق أسرجت الخيل وامتطى ظهورها الجنود يتقدمهم فرعون، يتبعون آثار الهاربين، الذين عرف فرعون أنهم قد اتجهوا على غير المتوقع للشرق: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴿٦٠﴾ الشعراء.

وسنعطي ٢٥ كيلومتر كمعدل لسرعة خيل فرعون، وبناء على ذلك فعندما بلغت الساعة السادسة صباحاً، كان موسى ومن معه قد قطعوا مسافة ٤٢ كيلو متر (نتيجة ضرب السرعة ٧ × عدد الساعات ٦)، فيما يكون فرعون قطع أكثر من ٢٠ كيلو في أقل من ساعة. على اعتبار أنه لم يبدأ ملاحقتهم إلا بعد أن تجاوزت الساعة الخامسة بعشر أو ١٥ دقيقة.

وحوالى الساعة السابعة صباحاً، وبعد مضى سبع ساعات من السير الحثيث لموسى ومن معه، قطعوا ما يقارب ٤٩ كيلو متر، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام بحر متلاطم من المياه، في اللحظة التي رأوا غبار خيل فرعون وجنوده وقد ثار عند حد الأفق. ولم يعد يفصله عنهم سوى مسافة تقدر بحوالي ٢,٥ كيلومتر[١]. وهي مسافة سيقطعها فرعون على ظهر الخيل بحوالى

---

(١) هي المسافة التي تقدر بين الشخص الواقف على قدميه في البرية، وبين آخر ما يراه من الأرض عند خط الأفق بالنسبة له.

ست دقائق، على اعتبار أن الخيل تسير بسرعة ٢٥ كيلومتر للساعة، ودقيقتين وأربع وعشرين ثانية للكيلومتر الواحد.

لقد كان أمام موسى ومن معه البحر (بحيرة)، وخلفهم فرعون وجنوده، الذي سيلحق بهم بعد دقائق فقط، فشعر بنو إسرائيل أنهم هالكون لا محالة: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴿٦١﴾ الشعراء.

لكن موسى كان له رأي آخر: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٦٢﴾ الشعراء.

وبإلهام من الله، تذكر أن يده وعصاه قد اكتسبتا طاقة خارقة أثناء تكليم الله له، لم يستطع سحر السحرة في مصر أن يصمد أمام قوتها: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴿٦٣﴾ الشعراء.

فظهر قاع البحيرة، وبدون تردد سار موسى ومن معه، وعلى يمينهم ويسارهم الماء وقد وقف كالطود (الجدار) الشاهق العلو.

وقد أمكن تقدير عمق البحيرات في تلك المنطقة بواسطة الخرائط الطبوغرافية وفوقل إيرث، وتبين أنها تنخفض عن الأراضي المحيطة بها ما بين ٥ ـ ١٠ أمتار. وإذا افترضنا أن الجزء الذي عبره موسى لم يكن الأعمق، فإن ارتفاع الماء في كل فرق كان ما بين خمسة إلى سبعة أمتار.

وبعد ست دقائق وصل فرعون وجنده إلى بداية الفلق في البحيرة، بينما كان موسى ومن معه قد قطعوا مسافة ٧٠٠ متر داخل البحيرة، على اعتبار أن سرعتهم كانت، كما ذكرنا، ٧ كيلومترات في الساعة.

لكن، هل دخل فرعون وجنوده البحر وهم على ظهور خيولهم أم ترجلوا وحاولوا اللحاق بموسى ومن معه على أرجلهم؟

الأرجح أنهم دخلوا البحر راجلين، لأن الخيل، كغيرها من الحيوانات لا تقدم على المناطق التي ستقع فيها الكوارث، لأن لديها حاسة تستطيع بواسطتها استشعار الخطر.

وعلى أي حال، فإن كان فرعون وجنوده قد دخلوا البحر بخيولهم، فلديهم أقل من دقيقتين لقطع مسافة ٧٠٠ متر التي تفصلهم عن موسى ومن معه. وخلال هاتين الدقيقتين سيقطع موسى ورجاله ٢٣٥ متر إضافي، وسيدركهم فرعون، بعد دخوله البحر بدقيقتين ونصف تقريباً. وبعد مسافة ٩٣٥ متراً. ويكون الماء قد انطبق على فرعون وجنوده بعد دخولهم البحر وقبل وصولهم لموسى الذي لابد أنه وصل للبر المقابل للبحيرة في اللحظة التي أطبق فيها الماء على فرعون، أي قبل وصول فرعون لهم بنصف دقيقة، وعندما كان فرعون عند المتر ٧٠٠.

وإن كان فرعون وجنوده دخلوا البحر رجالاً، فسنفترض أنهم يجرون بأقصى سرعتهم، والتي بطبيعة الحال لن تكون كمتسابقي الماراثون، ولكن سرعة رجال مترفون، ليس لهم في الرياضة نصيب. أي أن سرعتهم ستكون ما بين ١٠ ـ ١٥ كيلو متر في الساعة لمسافة قصيرة. أي أن أسرعهم يجري بسرعة ٢٥٠ متر في الدقيقة، وسيقطع مسافة الـ ٧٠٠ التي تفصله عن موسى ومن معه بأقل من ثلاث دقائق. يكون موسى ومن معه قد قطعوا ٣٥٠ متر إضافي، يحتاج معها فرعون وجنوده لأقل من دقيقة ونصف لإدراكهم.

وفي كلا الحالين فقد قطع موسى بحيرة عرضها يقارب كيلومتر واحد، وبمجرد خروجهم من الماء أطبق جداري الماء البالغ ارتفاع كل واحد منهما خمسة إلى سبعة أمتار على فرعون وجنوده، في لحظة كانوا يلهثون من التعب، نتيجة الجهد الذي بذلوه في الجري، وهو ما جعل كتم التنفس عندهم مستحيل. لذا لم يتمكن حتى من يعرف السباحة منهم من النجاة، لأن الماء أطبق عليهم من الأعلى فجأة، في لحظة يحتاجون فيها لأخذ شهيق كامل لملء الرئة بالهواء، ولو تمكن بعضهم من ذلك قبل أن يطبق عليهم الماء، فلم يكن بإمكانهم كتم أنفاسهم والسباحة صعوداً لسطح البحيرة، لتلاحق أنفاسهم نتيجة الإجهاد: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴿٦٦﴾ الشعراء.

وبطبيعة الحال ليس بالضرورة أن يكون تحرك موسى ومن معه وفرعون وجنوده حدث في نفس التوقيت الذي افترضناه هنا، ولا يهم إن كان حدث بتوقيت مختلف. لأن الأهم هو أنه حدث بنفس السيناريو والوضع وإن اختلف التوقيت قليلا، فقد يكون خروج موسى أبكر مما افترضنا وسرعتهم أقل أو أكثر، وخروج فرعون كذلك. لكن موسى بالفعل خرج من رنية الحالية، وبالفعل اتجه مع الوادي للشرق، وبالفعل اصطدم بالبحيرة، ولحق بهم فرعون هناك، وقبل أن يصلهم بما يكفي من الوقت دخلوا البحر وتبعهم فرعون، وبعد أن خرج آخر فرد منهم أطبق الماء على فرعون وجنده وأغرقوا أجمعين، بما في ذلك من يجيد السباحة منهم، لأنهم كانوا يلهثون من التعب ولا يستطيعون التحكم بتنفسهم.

وعندما استنشق فرعون الماء وأيقن أنه هالك لا محالة، جاءت لحظة الحقيقة التي كان يعرفها طوال دعوة موسى له ولم يقر بها: ﴿... حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴿٩١﴾ يونس.

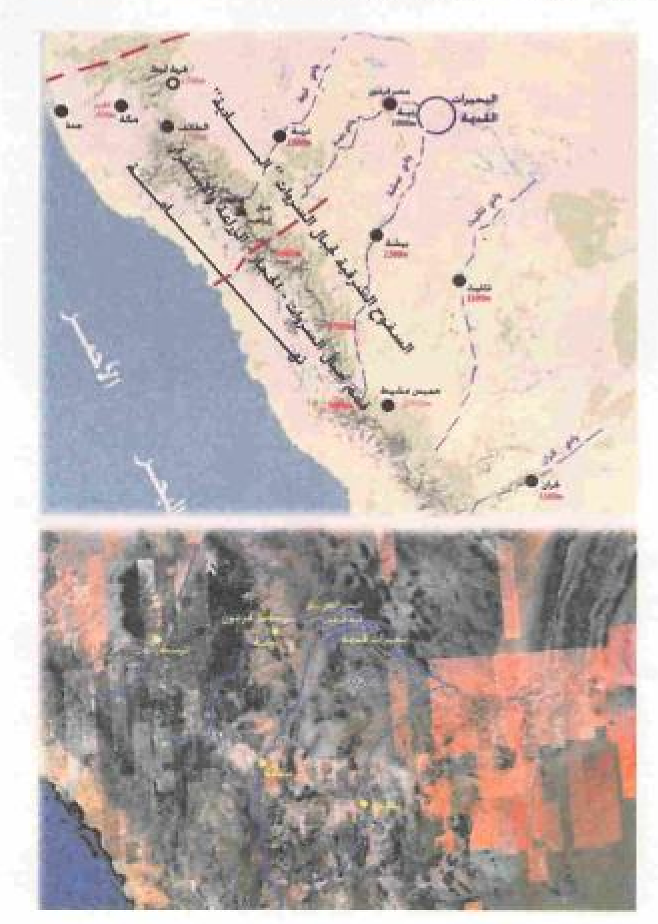
ولابد أن موسى ومن معه كانوا يشاهدون المنظر وهم وقوف على المرتفع الذي خرجوا إليه من البحيرة.

وقفة

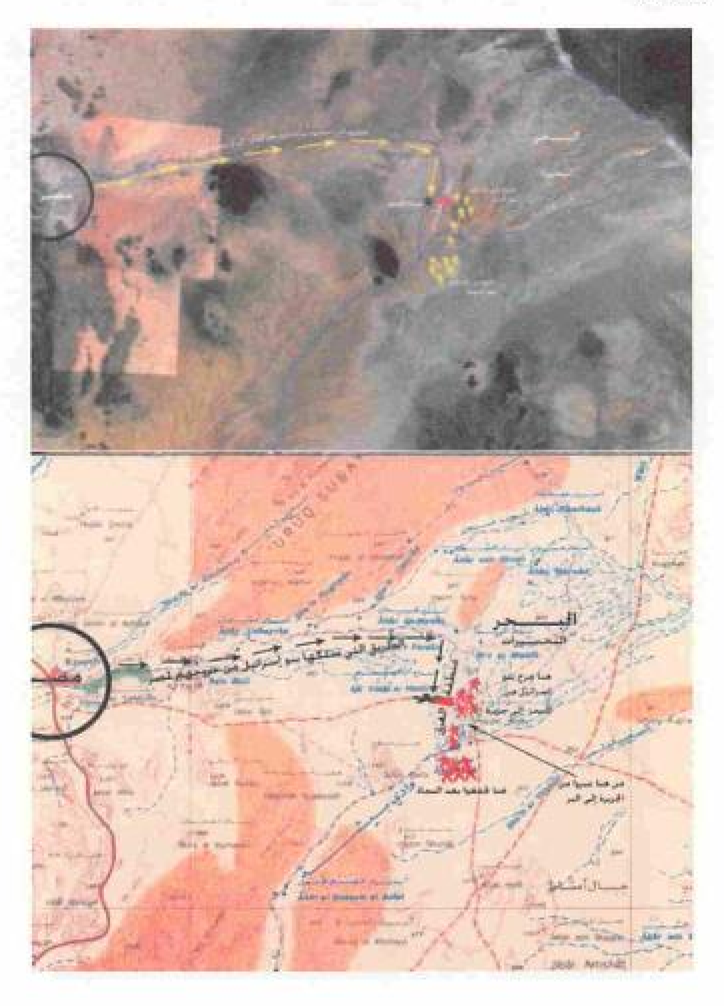
قد تكون البحيرة التي غرق فيها فرعون بحيرة موسمية وليست دائمة. تمتلئ بالمياه أثناء موسم الأمطار على جبال السروات، فتتسبب بجريان أودية بيشة ورنية وتربة وغيرها التي تغذي البحيرة. وتبدأ بالتناقص حتى تجف أو تتناقص بشكل كبير في بقية أشهر السنة. وهذا ما جعل موسى ومن معه يتجهون إليها ظناً منهم أنها قد جفت، ولكنهم فوجئوا بأنها لازالت ممتلئة بالمياه.

وفي الأسطر القادمة تطبيق عملي على الخرائط، لما قلناه نظرياً.

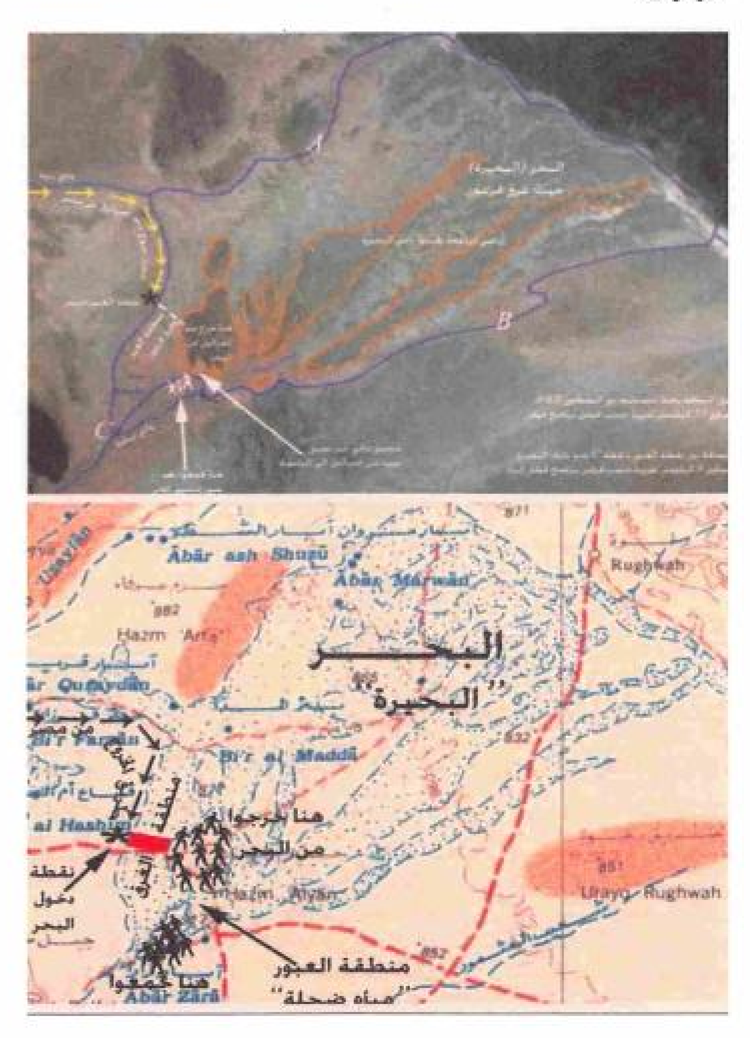
والبداية مع خريطة تضاريسية وأخرى فضائية من قوقل إيرث ترينا موقع رنية الحالية (مصر) مع البحيرات القديمة التي غرق فيها فرعون، والتي تبعد عن مصر بحوالى ٥٠ كم إلى الشرق، مع البيانات.



وفيما يلي صورة فضائية من قوقل إيرث ـ على ارتفاع ١١٠كيلومتر لرؤية العين المجردة ـ لمنطقة مصر والبحيرات القديمة، وخريطة طبوغرافية لنفس المنطقة:



وهذه صورة فضائية مقربة من قوقل إيرث لنفس المنطقة، وخريطة أخرى طبوغرافية:



وتظهر الصور والخرائط المقدمة مسار بني إسرائيل منذ خروجهم من مصر باتجاه الشرق إلى أن وصلوا للبحر حيث أجبروا على السير بمحاذاته إلى أن شاهدوا فرعون وجنوده وقد اقتربوا منهم. فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، وعبر بنو إسرائيل البحر من (نقطة العبور) إلى مرتفع يابس (جزيرة) وسط البحر، ودخل فرعون وجنوده خلفهم بمسافة، وعندما خرج موسى ومن معه أطبق البحر على فرعون وجنوده وغرقوا هناك. وقد وجد موسى ومن معه مضيقاً مياهه ليست عميقة، عبروه مشياً إلى اليابسة بالقرب من مصب وادي بيشة.

وعبورهم منطقة المياه الضحلة من الجزيرة التي في البحيرة إلى البر، أو عبورهم أرض البحيرة بعدما انفلق الماء، قد يكون سبب تسميتهم بالعبرانيين، أو العبريين، بعد ذلك. وهذه قد تكون حقيقة أخرى من الحقائق الكثيرة التي غيب عن الناس مصادرها.

وبطبيعة الحال قد لا تكون نقطة العبور هي التي اخترنا بالتحديد، ولكنها ستكون في نفس الجهة من البحيرة. والمهم هو أن فرعون قد غرق هناك وبسيناريو قريب من الذي رسمنا[١].

موقع بئر مدين

بعد أن تعرفنا على موقع مصر أصبح من السهل تحديد المنطقة التي تقع فيها البئر التي سماها القرآن «مدين». وتسميتها مدين تعني أن شيخ مدين الذي تزوج موسى ابنته ليس مالكاً للبئر وليس اسمه مدين، كما روج المفسرون. بل

(١) كنت هناك بمعية أحد أعز الأصدقاء هو الأخ الفاضل عمر، أبو محمد. وقد توقفنا على المرتفع الموجود في الصورة، بعد أن حاولنا قدر استطاعة السيارة تتبع مسار موسى ومن معه من مصر إلى البحيرة. ثم توجهنا إلى آبار الجاهلية التي أعتقد أنها بئر مدين، وصلنا إليها في شعب صغير يسمى شعيب الجاهلية، على اسم البئر. وكانت البئر هناك، وقد تم تجديدها وصب جوانبها بصبات إسمنتية. وواصلنا رحلتنا وتأكدنا من نقطة على طريق تجارة اللبان الدولية قرب جعية.

كان واحداً من الرعاة الكثر الذين يرعون في المنطقة المحيطة بالبئر، وكان أضعفهم لكبر سنه، ولو كان صاحب البئر لما تجاهل الرعاة ماشيته وبناته.

وحسبما ذكرنا سابقاً فإن موسى خرج من مصر خائفاً يتلفت وراءه ترقباً لمن يلاحقه، كما ورد في الآية: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢١﴾ القصص.

وكان في عجلة من أمره للابتعاد قدر المستطاع عن مصر والعثور على ملاذ آمن.

وفي هذه الحالة، علينا النظر للخارطة المرفقة لنتعرف على الجهة التي سلكها موسى. وسنجد أن هناك سلسلة جبال تمر بمصر، وتتجه من الشمال إلى الجنوب، كما نجد أن الوادي يمر بمصر باتجاه من الغرب للشرق. وفيما عدا ذلك فالصحراء تحيط بمصر.

ويكون موسى إما خرج باتجاه الصحراء المفتوحة في أي اتجاه. أو أنه سلك طريقه مع الوادي باتجاه الغرب أو الشرق. أو أنه سلك طريقاً بين الجبال، سواءً كان باتجاه الشمال أو الجنوب.

وخروج موسى باتجاه الصحراء المفتوحة مستبعد، لأنه سيكون من السهل على مطارديه رؤيته، كما سيكون عرضة للضياع. ولو تاه في الصحراء، فسيكون كأنه هرب من الموت في مصر إلى الموت في الصحراء عطشاً. كما أن خروج موسى من مصر مع الوادي، قد لا يكون مأموناً لأن مطارديه سيترجح لديهم سلوك هذا الطريق. ومع ذلك فالسير مع الوادي خيار معقول في كلا الاتجاهين، شرقاً وغرباً، لكن الآبار التي تقع في الوادي أو بمحاذاة الوادي قد تكون وجدت بعد بعد موسى. لأن الماء زمن موسى كان يجري في الوادي، في الوقت الذي ينتقل فيه الناس من الحجاز لرعي ماشيتهم في البادية، ولا يحتاجون لحفر بئر في الوادي، لكن حاجتهم للبئر في المناطق

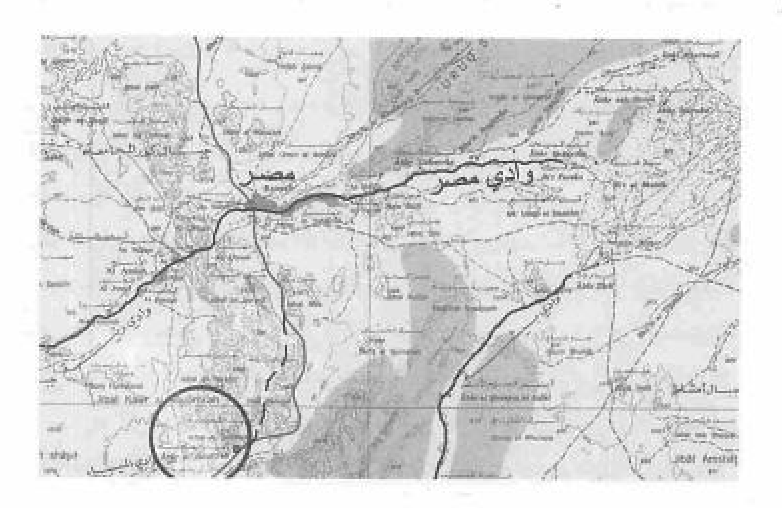
البعيدة عن الأودية الكبيرة. وبما أن بئر مدين يرتادها الرعاة فلابد أنها بعيدة عن الوادي، لذا فيمكن القول أن موسى لم يسلك طريقاً بمحاذاة الوادي.

ولأن الخيار الأمثل لشخص هارب هو التواري عن أنظار من قد يطارده بأسرع وقت ممكن، فلابد أن موسى سلك طريقاً بين الجبال القريبة. ثم واصل المسير حتى وصل لبئر مدين. لذا فمن الراجح أن مدين هي الآبار المسماة على الخريطة بآبار الجاهلية، والواقعة جنوب سلسلة الجبال الجنوبية لمصر. وذلك للأسباب التالية:

* أن البئر تقع على طريق القوافل المتجهة إلى بيشة.

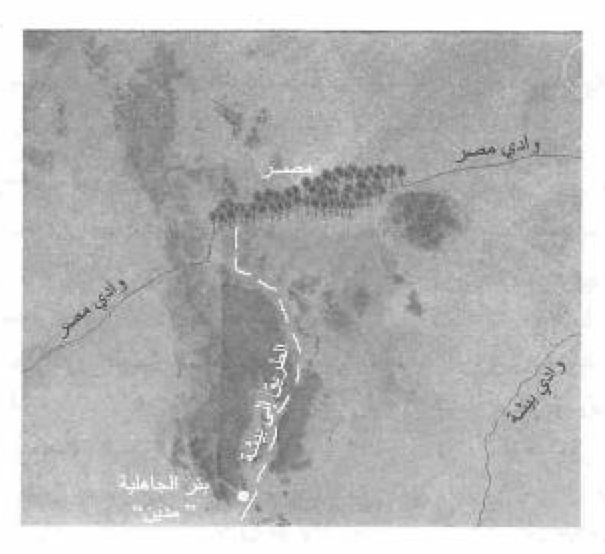
* وهي بعيدة عن الأودية الكبرى وبالتالي فهي بئر مشهورة يرتادها الرعاة، لأنها تقع في مناطق الرعي.

* ويمكن لموسى أن يصلها في عصر ذلك اليوم الذي خرج في صباحه من مصر، قبل أن يتعرض للعطش. لأنه المسافة بينها وبين مصر تتراوح بين ٣٠ ـ ٤٠ كيلو متر.



وإن كان هروب موسى من مصر في حوالي العاشرة صباحاً، فسيصل مدين (آبار الجاهلية) حوالي الرابعة بعد العصر، حيث لازالت الشمس مرتفعة، لذا تمدد تحت شجرة قريبة يستظل بها ويرتاح، بعد أن سقى لبنات شيخ مدين.

إلى هنا، نكون قد تعرفنا على مصر، وعلى أصل تسمية بني إسرائيل العبرانيين أو العبريين، وعلى السبب الذي كان وراء مجيء موسى وزوجه لمكة، وعلى مكان التكليم، وقد نكون حددنا مكان بئر مدين أيضاً.



وهذه بعض الدلائل التي أوصلتنا إلى حقيقة أن لغة موسى وأهل مصر كانت العربية:

أثناء الحديث عن إبراهيم تأكدنا أن لغته كانت العربية، والتي بقيت في قريش حتى ظهر محمد. وعرفنا أن قبيلة إبراهيم ينتشر أفرادها في الأراضي الممتدة إلى محاذاة ما يعرف اليوم بجبل إبراهيم، على الأقل. وهو ما يعني أنهم كلهم يتحدثون لغة واحدة هي العربية. وعرفنا أن مصر ومدين تقعان في

الأطراف الشرقية لبلاد قبيلة إبراهيم. وعرفنا أن يوسف الذي حضر لمصر وهو طفل لا يتجاوز الخامسة من عمره، كان يخاطب إخوته (العرب) وتحدث مع والديه عندما حضرا لمصر، دون مترجم. وعرفنا أن موسى الذي ولد وترعرع في مصر ولا يعرف لغة غير اللغة التي يتحدث بها أهل مصر، استطاع التحدث للرعاة على بئر مدين، وللبنتين ولشيخ مدين بلغته التي كانت هي لغتهم أيضاً.

إذا جمعنا كل هذه الحقائق، ألا يمكننا أن نقول وبكل ثقة أن اللغة التي كان يتكلم بها أهل مصر وفرعون هي اللغة العربية؟

أليست أسماء هارون وقارون وهامان وسليمان وفرعون وعدنان وقحطان وموسى وعيسى ويحيى أسماء عربية، وبأوزان متماثلة؟

إذا كان هذا صحيحاً، فإن بني إسرائيل حتى خروجهم من مصر لازالوا عرباً يتحدثون لغة آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولعلنا في فصول لاحقة نعرف كيف دخلت ألسنتهم العجمة وأصبحوا يتحدثون عربية مكسرة في البداية مع خليط من عبارات أعجمية، ثم توسعت الشقة أكثر فأكثر مع الأيام، إلى أصبحت لغتهم أعجمية بالكامل، مع الاحتفاظ ببعض العبارات من اللغة الأم، العربية، وإن كان نطقها تعرض للتشويه. وقبل أن نترك جسد فرعون الذي قذفت به أمواج البحيرة التي غرق فيها إلى الشاطئ، نود أن نؤكد على حقيقة أخرى حاول المفسرون ومن خلفهم، تضليل الناس عنها، وهي أن فرعون اسم شخص، وليس لقب، لا فخري ولا تكليفي. ومن الأسماء الشائعة في مصر في ذلك العصر مثل قارون، هامان، لقمان، سليمان.

ما بعد الخروج من مصر

لم يخرج مع موسى من مصر إلا قلة من بني إسرائيل: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴿٨٣﴾ يونس.

أما البقية فقد مكثوا في مصر، ولما غرق فرعون، أصبحوا يتمتعون بحرياتهم، وأصبحت مصر التي ورثوها بعد فرعون، مقام كريم لهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴿١٣٧﴾ الأنعام.

وسيكون الحديث في الأسطر القادمة عن الفريق الأول الذين تركناهم عند مصب وادي بيشة بعد عبورهم إلى اليابسة، وغرق فرعون.

طلب اتخاذ أصنام

بعد أن ارتاحوا وذهب عنهم الوجل الذي رافقهم طوال الأيام السابقة، والرعب طوال ساعات ذلك اليوم أثناء ملاحقة فرعون لهم. سنفترض أنهم ساروا بمحاذاة وادي بيشة باتجاه الغرب، دون أن نستطيع تقدير كم ساعة أو يوماً استمروا بالمسير.

لكن الآيات تخبرنا بأول حدث حصل لهم أثناء سيرهم: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿١٤١﴾ الأعراف.

الآيات تخبرنا أن من طلب من موسى أن يتخذ لهم أصناماً، هم الإسرائيليون الذين خرجوا معه من مصر، وهو ما يؤكد ما أشرنا له سابقاً من أنهم لم يكونوا يملكون عقيدة كمؤمنين بالله، لأن مهمة موسى في مصر كانت إقناع فرعون السماح لهم بالخروج من مصر. ولم يبدأ بدعوة بني إسرائيل بالالتزام بتشريعات الله إلا بعد أن واعده الله وأحضر الألواح.

أما أين طلب بنو إسرائيل من موسى اتخاذ الأصنام، فلا يمكن تحديد مكان بعينه. وقد يكون في بيشة، على افتراض أنهم استمروا يسيرون بمحاذاة الوادي حتى وصلوا البلدة (المملكة) بيشة، المشابهة لمصر، ووجدوا لأهلها أصناماً ومعابد.

ومن المستبعد أن يكون الوثنيين رحلاً عندما مر بهم بني إسرائيل، أو من الرعاة في البرية، فالرحل لا يصحبون أصنامهم معهم ثم يتوقفون للعبادة، كما يتوقف المسلم لأداء الصلاة. لأن الأصنام لا وقت محدد لعبادتها، ولا حاجة لاصطحابها في السفر. وهذا لا يمنع أن الوثني يضرب على الأزلام لكي تبارك الأصنام طريقه. والأصنام يكون لها مكان ثابت في البلدة، كما كانت أصنام قريش موضوعة حول الكعبة.

الملاحظ أيضاً أن الآية تشير للوثنيين على أنهم «قوم»، غير معروفين لبني إسرائيل، أو أنهم مختلفين عنهم، إما لغة أو نسباً. ولو نظرنا للخارطة التضاريسية التي تظهر حدود بلاد قبيلة إبراهيم، والمنشورة في بداية حديثنا عن بني إسرائيل، لاتضح لنا أن حدودهم تقع فيما بين وادي رنية شرقاً إلى قرية السوء، تقريباً. بينما وادي بيشة، الذي افترضنا أنهم ساروا بمحاذاته منذ خروجهم من البحر، يقع خارج هذه الحدود، ويتبع قوماً آخرين. لعلهم ينتمون لقبيلة أخرى وقد يتحدثون لغة تختلف عن لغة إبراهيم العربية، التي يتحدثها الإسرائيليون المتنقلون مع موسى.

واتجاه بني إسرائيل بعد نجاتهم للغرب، ضرورة. حيث مناطق الاستقرار والماء والحياة، بينما الشرق لا يؤدي إلا للموت في ذلك البحر السافي من الرمال. وهو اسم على مسمى لكثبان رمال الربع الخالي التي ترتفع كالجبال، وحيث الرياح تسفي ذرات الرمل المتطاير، على مساحات تقدر بآلاف الكيلومترات المربعة، مع ندرة في الماء والكلأ، وحرارة حارقة.

إلى طوى مرة أخرى

لم تدم إقامة بني إسرائيل في بيشة طويلًا، لأنها بلد أجنبي، لا يرحب بهم وليس لهم مكان فيه. وكان الخيار المتاح لهم هو الذهاب للمناطق التي تتبع قبيلة إبراهيم، لأنها جذورهم، وسيكون بإمكانهم البقاء في مكان ما فيها لبعض الوقت، إلى أن يتأكدوا أن الأوضاع استقرت في مصر وأن بإمكانهم العودة إليها.

في هذه الأثناء، تلقى موسى أوامر من ربه يأمره بالمسير إلى الوادي المقدس طوى، وإلى البقعة نفسها التي حدث فيها تكليم موسى لأول مرة عندما كانت معه زوجه، والواقعة عند الطور (الجبل) الأيمن: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴿٨٠﴾ طه.

فما كان من موسى إلا أن لبى نداء ربه: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴿١٥٥﴾ الأعراف.

وارتحل موسى إلى مكة، وارتحل معه السبعين رجلًا الذين اختارهم للذهاب معه، وترك الباقين مع النساء والأطفال في مكان ما من حجاز بلاد قبيلة إبراهيم. أو أنهم عادوا لمصر، وهو الأرجح.

وأثناء سير موسى والسبعين رجلًا، تعرضوا لهزة أرضية. والآيات تظهر ردة فعل موسى البشرية، عندما رفع صوته بالاحتجاج «قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ». لو كنت يا إلهي تريد هلاكنا فلماذا لم تهلكنا في مصر، وقبل تجشمنا عناء عداء فرعون واضطهاده ثم الهروب من مصر وفقد الأهل والصحاب والممتلكات. وإن كنت تريد أن تهلكنا لشيء اقترفه بعضنا

بعد خروجنا من مصر، في إشارة لطلب اتخاذ الأصنام، فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ ولماذا لا تهلكهم دوننا؟

وطريقة التأدب مع الله جل جلاله تأتي بعد أن يرسخ الإيمان في القلوب، ويحل محل الثقافة الموروثة التي ترى الآلهة أقرب للبشر ويمكن أن يخاطبون كالبشر، والله منهم (تعالى الله عن ذلك). وتستمر هذه الثقافة لبعض الوقت مع من هداه الله لطريق الحق.

وبلا شك فقد سلك موسى ومن معه الطريق الدولية للقوافل ـ طريق اللبان ـ المارة بالقرب من بيشة، والتي تربط جنوب جزيرة العرب بالشام، مروراً بمكة، الواقعة باتجاه الشمال من المكان الذي هم فيه.

ولم يدخل الركب مكة، ولكنهم توجهوا بقيادة موسى مباشرة إلى الوادي المقدس، بالاستمرار مع الطريق الدولية للبان، مجتازين عقبة كداء. وبالقرب من البئر، وفي نفس البقعة التي توقف فيها لأول مرة مع زوجته، قبل أن يرى النار، توقف موسى إيذاناً بإقامة الجمع مدة تغيبه.

وما أن استقر بهم المكان حتى ارتجف الجبل الذي قرروا قضاء مدة انتظارهم لموسى تحته: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٧١﴾ الأعراف

وبالنسبة لبني إسرائيل فمنظر جبال مكة التي تحيط بهم من كل جانب، كان غريباً عليهم ولم يعتادوه، لأنهم أبناء مصر، التي تقع في أرض مفتوحة، وإن كان بالقرب منها بعض المرتفعات القليلة التي لا تقارن بارتفاع جبال مكة ولا بتضاريسها المعقدة. وهم الآن في هذا الوادي الذي لا يرون فيه خط الأفق، وكأنهم في حفرة أو بئر لا يرون فيها إلا السماء البعيدة. وشعورهم بعدم الراحة طبيعي، فالمعتاد على حياة الجبال يشعر بالوحشة من حياة الأرض المفتوحة والصحراء، والمعتاد على حياة الصحراء يشعر بالاختناق والرهبة من

الحياة بين الجبال، ولو حدثت هزة أرضية لهذه الجبال مهما كانت ضعيفة فستكون مرعبة لهم، لدرجة تخيلوا أن الجبل سيقع عليهم.

لكن الذي وقع عليهم كان شيئاً آخر، استمتعوا به، مع تكاثف السحب التي أظلتهم: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٥٧﴾ البقرة.

والمن، بعيداً عن تخريف المفسرين، هو نوع من الفطر، فقد ورد في خبر ينسب للرسول قوله: «الكمأة من المن». وسواء قاله الرسول أو قاله غيره، فالمن فطر، وقد يكون هو ما يسمى «العرجون» الظاهر في الصورة.

والسلوى هو العسل، حسبما يذكر صاحب لسان العرب. ويكون موسى ومن معه وصلوا للمنطقة وقت الربيع، في سنة مطيرة بدليل كثرة الغمام. فكانت الأرض مغطاة بالفطر والأعشاب، إضافة للأزهار البرية التي يقتات النحل على رحيقها. ولأن مكة تهامية الموقع، وتهامة أرض العسل، فلا غرابة إن كانت أوديتها تفيض عسلاً. وعندما وقع الزلزال، كان الجبل مغطى بفطر العرجون، كما كانت الشقوق بين صخوره ممتلئة بالعسل. فما شعر القوم إلا وقد تساقطت عليهم العراجين وخلايا العسل، بدل سقوط الجبل.

وطوال مدة إقامتهم كانوا يقتاتون على الفطر الذي كانوا يجدونه وقد نما حولهم، كما تعلموا البحث عن العسل بين شقوق الصخور في الجبال المحيطة.

تقسيم بني إسرائيل إلى ١٢ سبط

لقد توفر الطعام المتمثل بالفطر والعسل لبني إسرائيل أثناء مقامهم في وادي طوى بانتظار عودة موسى من ميقات ربه، ولكن العطش أصابهم. ذلك أن المطر شحيح على جبال مكة القليلة الارتفاع، والتي تبدو جافة مغبرة، لا

أثر فيها للماء. فكان الحل في عصا موسى السحرية، بعد أن قسم بني إسرائيل المرافقين له ألى ١٢ فريق، كل فريق لهم شرب خاص، درءاً للمشاحنات: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿١٦٠﴾ الأعراف.

وهكذا اطمأن موسى على توفر الأكل والشرب لمن جاء معه من بني إسرائيل، قبل أن يتركهم لميقات ربه.

الميقات

ما أن استقر ركب بني إسرائيل قرب بئر طوى، حتى ودعهم موسى لميقات ربه، بعد أن أوكل بهم أخيه وساعده الأيمن هارون: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴿١٤٢﴾ الأعراف.

وتوجه موسى لنفس المكان الذي كُلِّم فيه في المرة الأولى، والواقع بالقرب من الشجرة التي على يمين الوادي قرب سفح الجبل (الطور) الأيمن لمن وجهته باتجاه الشمال، والقادم من مكة، كما كان موسى.

﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٤٣﴾ الأعراف.

لقد غلبت على موسى طباعه البشرية التي يصعب معها التصديق إلا بما تراه العين، لذا طلب رؤية الله، ولأن القدرات البشرية محدودة، فلن يكون

بإمكان البشر رؤية الله، ولكي يقتنع موسى بطريقة محسوسة، تم توجيه طاقة إلهية لمرتفع قريب فدكته.

والوحي ينزل على الرسل بواحدة من هذه الطرق: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴿٥١﴾ الشورى.

ومحمد كان الوحي ينسخ في ذاكرته (يوحى بإذنه)، مفرقاً على مدى سنوات. أما موسى فقد تلقى الوحي مرتين طوال حياته، وكلاهما في نفس البقعة من الوادي المقدس طوى، الواقع إلى الشمال الغربي من بيت الله في مكة. وكانت المرة الأولى عندما أرسل لدعوة فرعون بإخلاء سبيل بني إسرائيل. والمرة الثانية أثناء هذا الميقات، والهدف منها هو أن يتلقى التشريعات الدينية لكي يلتزم بها بنو إسرائيل كمؤمنين بالله. وقد نزلت مرة واحدة وكتبها موسى على الألواح التي رجع بها إلى قومه في مكانهم الذي تركهم فيه بوادي طوى.

ويمكن فهم لماذا أنزلت التشريعات كلها مرة واحدة على موسى، بينما نزلت مفرقة على محمد. ذلك أن البداية تكون بدعوة الناس للإيمان بالله، فإذا آمنوا، نزلت عليهم التشريعات. ولأن قريش لم تؤمن، استمرت الدعوة، دون أن تنزل تشريعات طوال معظم فترة الدعوة في مكة، فيما عدا الصلاة، التي تبقي الصلة بين المؤمنين وربهم، والإنفاق الذي يبقي صلة الإحسان بين الناس. ولما تزايدت أعداد الذين دخلوا الإسلام، في أواخر العهد المكي بدأت التشريعات بالنزول، مثل ما يحرم من المأكل، وتحريم الزنى والفواحش وغيرها مما هو مذكور في السور المكية. ثم استكملت التشريعات في السور المدنية بعد أن تكون مجتمع مسلم ودولة إسلامية.

أما بالنسبة لبني إسرائيل فقد أعلن بعضهم الخروج مع موسى من مصر،

وأعلنوا له أنهم مؤمنون بربه الذي يدعو له والذي سينجيهم، دون أن يعوا ما يعنيه الإيمان. ولأن دعوة موسى لن تتسع لتشمل غير بني إسرائيل فكان نزول التشريعات كلها دفعة واحدة: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿١٤٧﴾ الأعراف.

وقد أكمل موسى نسخ الشريعة على الألواح في ٤٠ يوماً، مع أنه كان يمكنه نسخها في ٣٠ يوماً. وقد يكون حدث عارض تسبب في تأخر موسى عشرة أيام إضافية: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴿١٤٢﴾ الأعراف.

اتخاذ العجل

في كل زمان ومع كل رسول، كان هناك من يعلن إيمانه ولم يؤمن، وكان من بين من خرج مع موسى مجموعة من هؤلاء. وهم من طلب من موسى أن يتخذ لهم أصناماً بمجرد أن نجوا من فرعون، كما ذكرنا سابقاً، وبعد أن غاب موسى لميقات ربه، كانت فكرة اتخاذ الأصنام حية في أذهانهم، وقام أحدهم، ممن احترف صياغة الذهب، وله قدرات حرفية أخرى عالية، بعرض فكرة تصميم وتصنيع صنم، فوافق على الفكرة كثير منهم، وأمدوه ببعض ما يحملون من حلي ذهبية: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ

وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴿٨٩﴾ طه.

لقد كان السامري يجيد التصميم كفنان، ويصنع التماثيل بحرفية عالية جداً لدرجة أن تمثال العجل الذي صنعه من الذهب، كان يخرج صوتاً قريباً من خوار البقر. والسامري من بني إسرائيل، لأن موسى معني بإخراج بني إسرائيل فقط من مصر، دون غيرهم من الناس. وليس من يهود السامرة كما يقول المفسرون، لأن اليهودية عقيدة ومذهب ديني، لم تظهر إلا بعد موسى، ولأن السامرة لا وجود لها في مصر فرعون. ولعل السامري نسبة لحرفة، كالراعي والساعي.

ولقد حاول هارون أن يثنيهم عن صناعة العجل، وعن عبادته: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴿٩١﴾ طه.

لكن يبدو أنه كان من النوع الطيب القلب الذي لا يقوى على الحزم، وهو ما يتضح من رده على موسى بعد أن أخذ يلومه على موقفه السلبي مما صنع القوم: : ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴿٩٤﴾ طه.

أثناء ذلك كان موسى في عجلة من أمره لنسخ الشريعة في الألواح والعودة لقومه بأسرع وقت يستطيع، لأنهم وافقوا على المجيء معه إلى مكة، ولا يريد أن يتأخر عليهم حتى لا يشعروا بالملل، أو أنه عرفهم ويعلم أن المشاكل ستكون حاضرة بينهم في غيابه، فنودي: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴿٨٤﴾ طه.

فأُخبِر بأنهم أو أغلبهم، قد عادوا لعبادة الأصنام على يد السامري: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴿٨٥﴾ طه.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴿٨٦﴾ طه.

ثم ﴿..... قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴿١٥١﴾ الأعراف.

فقام بعضهم، واتجهوا لموسى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴿٨٧﴾ طه.

لقد حاولوا أن يقنعوا موسى أنهم لم يخططوا لما حدث، ولم يحدث بإرادتهم «مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا». وأن الفكرة بدأت عندما تذكروا أنهم يحملون بعض الحلي التي سرقوها من مصر، ولأنهم بجوار بيت الله فقد قرروا التوبة والتخلص منها، فاستغل السامري الموقف وقام بجمعها وصنع منها هذا العجل. وبطبيعة الحال، قد يكونوا سرقوا بعض الحلي ليستعينوا بها في ترحالهم، وقد يكونوا بالفعل ندموا على فعلتهم، لكن أيضاً قد يكونوا قالوا هذا الكلام ليبرئوا أنفسهم ويلقوا باللائمة على السامري.

هنا التفت موسى للسامري متسائلاً: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴿٩٦﴾ طه.

لقد أعترف بأنه قام بصنع العجل لأنه وحده القادر على ذلك بينهم لما يملكه من مهارات «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ»، لكنه فعل ذلك تلبية لرغباتهم.

فما كان من موسى إلا أن حكم بإبعاده لفترة، دون أن يضار بكلام أو فعل، ليراجع نفسه، فإن تاب وعاد للحق وإلا فلا يعود إليهم. وبالنسبة للعجل فيحرق حتى يذوب وتختفي ملامحه ثم يقذف بالبحر: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴿٩٧﴾﴾ طه.

ثم التفت موسى إلى قومه، وهو يعلم أنهم كذبوا بزعمهم أن اتخاذهم العجل لم يكن بإرادتهم وبتخطيط مسبق: ﴿... قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿٥٤﴾﴾ البقرة.

فمن كان صادقاً فيما يقول فعليه أن يتطهر من ذنبه بقتل نفسه، وبطبيعة الحال لم يتقدم أحد.

التوراة

احتاج موسى لبعض الوقت ليهدأ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴿١٥٤﴾﴾ الأعراف.

والتوراة حوت العبادات والمعاملات وكل أحكام الله من التشريعات والحدود: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴿١٤٥﴾﴾ الأعراف.

فالتوراة هدى ورحمة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴿١٥٤﴾﴾ الأنعام.

والآن جاءت اللحظة الحاسمة التي «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»، فمن أراد الجنة فعليه أن يؤمن بالله ويتبع كل ما في الألواح من أوامر وينتهي عن كل ما فيها من نواهي. وهذا الوضع لن يتقبله الناس، ولن يتركوا موسى ومن آمن معه يدعون لدين الله بسلام. لذا حوت التوراة ضوابط للجهاد، ودفع الظلم، كما القرآن، لأنهم عرضة لهجوم قد يقع عليهم من أعداء الدين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١١١﴾ براءة.

وبعد أن هدأ موسى سارع بإبلاغ القوم أنه يحمل لهم بشارة من رب السموات والأرض، تتمثل بالتوراة، ظناً منه أنهم سيسرون بسماع ما فيها، ولم يدر بخلده أنهم لن يتخلوا عن معتقداتهم الوثنية بسهولة، وأن قبولهم الخروج من مصر لم يكن موافقة على الإيمان بدين الله: ﴿. . . قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴿٨﴾ إبراهيم.

فما كان جواب بني إسرائيل إلا أن قالوا إن كنت صادقاً أن ما تحمله في الألواح هو من الله فلم لا تدعنا نراه: ﴿. . . يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٥٦﴾ البقرة.

ومنذ تلك اللحظة توالى عناد بني إسرائيل، وتتالت مواقفهم الرافضة لشرع الله، أو على الأقل من غالبيتهم، أما القلة: ﴿. . مِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴿١٥٩﴾ الأعراف.

ما بعد الميقات

بعد نسخ الشريعة على الألواح وانتهاء أحداث الوادي المقدس طوى، بقي موسى ومن معه من بني إسرائيل يتنقلون في مناطق قريبة من مكة، وفيما يلي أهم الأحداث التي وقعت في تلك الفترة:

طلب دخول مكة

حالما عاد موسى من ميقات ربه اشتكى له بنو إسرائيل أن الملل أصابهم من أكل الفطر والعسل، طوال الأربعين يوماً الماضية التي غاب فيها موسى، وتتوق أنفسهم لأنواع أخرى من الطعام. فعرض عليهم موسى دخول مكة، حيث وفرة الثمرات التي تجلب لها من كل مكان، وفي نفس الوقت زيارة البيت والتعبد لله لعدة أيام، وعليهم الدخول وهم متواضعون لله ملبين له: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴿١٦١﴾ الأعراف.

لكن هذا العرض لم يعجبهم، لأن هناك حقد دفين ضد أبناء عمهم إسماعيل، نتيجة إخراج جدهم إسحاق من مكة، ولأنهم لا يبحثون عن الدين، ولكن عن متع الدنيا: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴿١٦٢﴾ الأعراف.

أما تبريرهم الذي قدموه لموسى لعدم دخول مكة، فقد زعموا أن أهلها قساة، كما تخبرنا هذه الآيات: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا

هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٦﴾ المائدة.

والقوم الجبارين هم سكان مكة، وسكان مكة منذ عهد إبراهيم، هم بنو إسماعيل. ووصفهم بالجبارين يظهر أنهم قساة حسب وجهة نظر بني إسرائيل، وليس بالضرورة أن يكونوا كذلك. لأن القرآن هنا لا يقرر حقيقة بنو إسماعيل، ولكنه ينقل ما قالوه.

ودخول مكة كان إما للإستيطان أو للحج والعبادة فقط. وفيما يلي مناقشة هذين الاحتمالين:

١. الدخول لمكة كان بغرض الاستيطان

ولو كان الأمر كذلك، فيكون بنو إسماعيل قد تحولوا عن دين الله، وأصبحوا وثنيين وعصاة، وبما أن بنو إسرائيل يملكون التوراة في تلك الفترة، فقد كان يفترض بهم أن يكونوا هم ناس الله التابعين لدينه. وبالتالي فلهم الحق بالبقاء في مكة، بيت الله، والقيام على صيانته وتنظيفه، بدل أبناء عمهم إسماعيل الذين حادوا عن دين الله إلى الوثنية.

وفي هذه الحالة، فلو أطاعوا أمر موسى، ودخلوا مكة وأخلوها ممن كفر من بني إسماعيل فسيكون موقفاً مماثلاً، لما حدث مع قريش آخر زمن رسول الله. حيث عوقبت قريش بسحب شرف القيام على بيت الله وخدمة الحجاج من كبرائها: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ

وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿٢٢﴾ براءة.

كما عوقبت قريش بعدم دخول بيت الله، برغم أنهم هم أهل مكة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٢٨﴾ براءة.

لأن بيت الله يجب أن يقوم عليه ويرعاه من يؤمن بالله، وليس هناك حق دائم لرعاية البيت لأناس معينين. وقد كلف الله إبراهيم وإسماعيل بذلك لأنهم يؤمنون بالله، واستمر بنو إسماعيل يقومون بهذا التكليف، وهو حق إلهي لهم ما داموا يقيمون عهد الله ويتمسكون بدينه. لكن متى ما ابتعدوا عن الدين فليس لهم حق بالبيت. لذا تم سحب هذا الحق منهم آخر زمن رسول الله، وهو ما سنعود للحديث عنه أثناء حديثنا عن أحداث سورة براءة.

ولو أطاع بنو إسرائيل موسى في دخول مكة فسيكون شرف القيام على البيت لهم، طالما بقوا مؤمنين بدين الله، بدل من كفر من بني إسماعيل، لأن بيت الله لا يقوم عليهم الكفار متى وجد المؤمنون.

٢. دخول مكة كان للحج والعبادة

ولا يعني أنهم قد أعطوا مكة كمستقر ووطن. لذا نرى الآيات تطلب منهم أن يدخلوها مؤمنين متواضعين لله ملبين بالحج أو العمرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴿٥٨﴾ البقرة.

ولأن بنو إسرائيل وبنو إسماعيل بينهم تنافر وكراهية، فقد افترض بنو إسرائيل أن بني إسماعيل سيمنعونهم من دخول مكة. وهذا احتمال، لو حدث، فإنه على بني إسرائيل قتالهم ودخول مكة بالقوة، وأداء الحج والعمرة

ثم الخروج: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٢٣﴾ المائدة.

لكن بني إسرائيل لم يكونوا مستعدين لاحتمال الدخول في عراك، واشترطوا على موسى أن يخلي بنو إسماعيل لهم مكة للمدة الكافية لأداء الحج والعمرة: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴿٢٤﴾ المائدة.

وهذا التصرف من بني إسرائيل أظهر رفضهم دخول مكة، ولو حقق موسى لهم شرطهم الذي اشترطوه، فسيبحثون عن عذر آخر. فكان أن عوقبوا بسبب رفضهم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٦﴾ المائدة.

وتكون الأرض الموعودة التي ضحك بها اليهود على العالم مجرد تأويل وتحريف لمعنى كلام موسى لهم، عندما أبلغهم أن الله غضب عليهم لرفضهم دخول القرية، التي هي مكة، بغرض العبادة والحج، وأنه حرم عليهم دخولها لمدة ٤٠ سنة. فجاء دور المفسرين والكتاب اليهود، وأولوا هذا الكلام، وصوروا ما حدث أن بني إسرائيل ضاعوا في الصحراء يسيرون على غير هدى. وهذا الهراء لا يصدقه عاقل، لأن الضياع في الصحراء يعني الموت خلال ٤٠ ساعة عطش، وليس ٤٠ سنة.

والقرآن نقل لنا كلمات موسى عندما أبلغ بني إسرائيل بتحريم الله عليهم الحرم، كما نقل لنا الكثير من عبارات غيره، ومن ذلك قول لقمان، وهو يعظ ابنه: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴿١٩﴾ لقمان. فالله لم يصف صوت الحمار الذي خلقه بأنه أنكر الأصوات، لكن لقمان الذي يزعجه صوت الحمار قال ذلك.

ولو عدنا للآيات التي تتحدث عن طلب موسى من بني إسرائيل دخول القرية (مكة)، وإجبار من يعترضهم من أهلها على إفساح المجال لهم بالقوة، وفكرنا بما نقرأ، فلن نجد وعداً من الله لبني إسرائيل بوطن قومي، ولكن كان هناك طلب بدخول مكة للتعبد، بما في ذلك هذه الآيات: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴿١٦٢﴾ الأعراف.

وقوله «اسكنوا» هذه القرية لا يعني اتخاذها وطن، لعدة أسباب:

* أن دخولهم لمكة كان للعبادة ولم يكن للاستيطان، بدليل قوله «وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ».

* أن طلب دخول مكة كان للسبعين رجلاً فقط الذين صحبوا موسى لميقات ربه، وليس لكل بني إسرائيل، الذين كان البقية الغالبة منهم في تلك الفترة في وطنهم مصر. وليس من المعقول أن يستقر سبعون رجلاً في وطن، بعيد عن وطنهم «مصر» الذي للتو تخلص من حكم فرعون، وأصبح بنو إسرائيل يعيشون فيه بحرية: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴿١٣٧﴾ الأعراف.

ومصر يعيش فيها زوجات وأبناء وعائلات الرجال السبعين الذين مع موسى والذين طلب منهم الدخول لمكة، ويستحيل أن يستوطنوا في مكان بعيدومنفصلين عن عائلاتهم.

* ولو كان الدخول للاستيطان لما حرم عليهم دخولها لمدة أربعين سنة، لأنه لا حاجة لتحريم الدخول لمدة معينة، فقد فقدوا الفرصة إلى الأبد.

* وتحريم الدخول عليهم لمدة ٤٠ سنة، يعني تحريماً دينياً، وليس منعاً فعلياً لدخول أي واحد من السبعين رجلاً لمكة. لأن موسى لا يملك سلطة على مكة ليمنع أي متسلل منهم، ولا يستطيع أن يحجزهم لئلا يصلوا لمكة. ولو دخل أحدهم مكة فهو قد اقترف معصية وسيحاسب عليها يوم القيامة، لكن لن يكون هناك أي إجراءات لمنع دخولهم مكة.

وقوله «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» لو كان معناها أنهم سيحرمون من القرية الموعودة، فإن هذا الحرمان محدد بأربعين سنة، وبعدها سيعودون وسيجدون القرية خالية ممن كان فيها وبانتظارهم. لأن هذا وعد من الله، والله لا يخلف وعده. لكن بني إسرائيل لم يعودوا لتلك القرية ولم يسكنوها أبداً.

السبت وصيد السمك

عندما رفض بنو إسرائيل دخول مكة وحرم عليهم دخولها ٤٠ سنة كان لابد من مغادرة أرض الحرم، فما كان من موسى وبني إسرائيل إلا أن ذهبوا إلى قرية شاطئية على البحر القريب من مكة، وهناك حاولوا صيد السمك، كما يفعل أهل القرية التي وصلوها. وبما أن التوراة تحتوي على نص يحرم على بني إسرائيل العمل يوم السبت: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴿١٥٤﴾ النساء.

فقد واجهتهم مشكلة تتمثل في أن السمك يكون وفيراً يوم السبت، بينما تشح أعداده في الأيام الأخرى، أو هكذا تخيلوا: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴿١٦٣﴾ الأعراف.

فما كان من بعض بني إسرائيل إلا أن تحايل على حجز السمك في السبت واصطيادها في اليوم التالي: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴿٦٥﴾ البقرة.

فلعنهم الله على مخالفتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴿٤٧﴾﴾ النساء.

وفي عصور لاحقة حولوا يوم السبت الذي نقم الله عليهم فيه، إلى يوم مقدس، حتى تتوارثه الأجيال وكأنه يوم عبادة وتقرب من الله، ولم يكن يوم لعنهم الله فيه. وإمعاناً في قلب الوقائع وتزييف الحقائق، قالوا أن السبت يوم استراح الله (جل جلاله) فيه بعد أن فرغ من خلق السموات والأرض، واختاره ليرتاح فيه بنو إسرائيل كما فعل ربهم.

ونحن هنا لا نبحث عن مهاجمة بني إسرائيل، ولكن كل ما نفعله هو إيراد الحقائق التاريخية كما يرويها القرآن مثلما حدثت، والتي تختلف جذرياً عما رواه بنو إسرائيل للعالم عنها بطريقة حاولوا فيها تزييف الواقع وتصويره بطريقة مخالفة. وقد نجحوا في ذلك طوال القرون الماضية لدرجة أن محاولة البحث عن موقع الوطن الوهمي لليهود، الذين حلوا محل بني إسرائيل، شغل رجال الدين والباحثين والمفسرين المسلمين، لأنهم صدقوا بوجوده. والأدهى من ذلك، أن يصدق أبناء النيل أن بلادهم ليست بلاد القبط ولا كيمي ولا طاوي ولكنها مصر، لأن اليهود قالوا بذلك. والأكثر مرارة من ذلك أن العالم كله صدق أنهم مسؤولين مسؤولية مباشرة بتوطين اليهود وحمايتهم في فلسطين، التي لا علاقة لها لا بفرعون ولا بموسى. ولكنها كانت بلد مضياف استضافت بعض فلول اليهود الذين طردوا من بلاد أخرى، ولم يقبل باستضافتهم أحد. فكانت فلسطين كمجير أم عامر، الذي عطف على ضبع لجأ إلى خبائه بعد مطاردة كانت ستودي بحياته. فلما استأمنه الرجل وسقاه وأطعمه وآواه، تحين الضبع الفرصة وقتل الرجل واستولى على خبائه.

العودة

تتذكر أن بني إسرائيل قد احتجوا على موسى من استمرارهم على طعام واحد هو المن والسلوى، فما كان منه إلا أن طلب منهم الدخول لمكة

وسيجدون طعاماً مختلفاً ألوانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴿٥٨﴾ البقرة.

ولأنهم امتنعوا عن الدخول لمكة، فقد ارتحلوا لقرية على البحر القريب من مكة، وهناك اقتاتوا على صيد السمك لفترة. ويبدو أنهم أعادوا امتعاضهم من الطعام الواحد لموسى، فما كان من موسى إلا أن طلب منهم العودة لمصر: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴿٦١﴾ البقرة.

ويبدو أنهم بالفعل عادوا لمصر، ولحقوا بعائلاتهم الذين تركوهم قبل التوجه للميقات، والذين بالتأكيد قد عادوا لمصر قبلهم. خاصة أن إمكانية العودة لمصر كانت متيسرة ولا يوجد أي مانع يمنعهم من ذلك، بعد غرق فرعون، وعودة الحرية وارتفاع الظلم.

وعودة السبعين رجلاً الذين مع موسى لمصر تعني أن كل بني إسرائيل قد عادوا ليعيشوا في وطنهم مرة أخرى، ويلتم شملهم، بعد أن كانوا قد انقسموا لثلاث مجموعات، عند خروج موسى ومن معه هرباً من فرعون:

مجموعة بقيت في مصر ولم تخرج مع موسى، وهم الغالبية: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴿٨٣﴾ يونس.

ومجموعة خرجت مع موسى، ولما اجتازوا البحر وغرق فرعون، وتقرر ذهاب موسى للوادي المقدس طوى لتلقي التوراة، أبقى جزءاً منهم، مثلوا المجموعة الثانية، وأخذ معه جزء آخر، هم المجموعة الثالثة، وعددهم

سبعون رجلاً: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴿١٥٥﴾ الأعراف.

وكان من بين من ذهب مع موسى لميقات الله، من عبد العجل، ومن أعلن عدم رغبته بالدين بعد نزول التوراة. ويحتمل أن بعض هؤلاء قد غادر معسكر الوادي المقدس طوى مع السامري الذي طرده موسى، ولم يعودوا مرة أخرى لمعسكر موسى. وقد يكون رجع بعضهم لمصر وبعضهم لم يعد إليها أبداً.

والاحتمال أن موسى قد عاد من مكة لمصر، حيث أمضى بقية حياته بين بني إسرائيل. فبعد هلاك فرعون، وتلقي التوراة، أصبحت مسؤوليته دعوة بني إسرائيل لدين الله. وهناك، في مصر، يعيش الغالبية العظمى من بني إسرائيل المكلف بدعوتهم موسى لدين الله. ومن المؤكد أن من آمن بموسى من بني إسرائيل في حياته قلة، أما غالبيتهم فلم يؤمنوا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴿٨﴾ إبراهيم.

فترة موسى باختصار

لقد ولد موسى في مصر في فترة عصيبة على بني إسرائيل، لا ندري أسبابها. والتعسف الذي كان أفراد الطبقة الحاكمة ومن حولها يمارسونه في مصر، ليس بالضرورة موجهاً لبني إسرائيل دون غيرهم، بل قد يكون كل أفراد الطبقات الدنيا من سكان مصر يتعرضون لكل أصناف الاضطهاد وسلب الحقوق والحريات، من فرعون وملئه الكبراء والمنتفعين، بما في ذلك

اغتصاب النساء وخطف الأطفال وقتلهم. لكن الآيات لم تذكر إلا بني إسرائيل لأن موسى أرسل لفرعون من أجل أن يخلص بني إسرائيل وحدهم من ظلم الحاكم.

وفي هذه الفترة كانت مصر بلد العجائب بالفعل، لأنها تحوي الكثير ممن يتمتعون بقدرات سحرية خارقة، كما يفعل اليابانيون اليوم، أو الساحر ديفيد كوبرفيلد (David Copperfield) كما كانوا فنانين بارعين في تصميم الأشكال بدقة متناهية من المعادن النفيسة وغير النفيسة. وما يقومون به لا علاقة له بما يعرفه العامة بالسحر، والمقصود به الشعوذة، وهو مجرد خزعبلات لا تقوم على أساس، وليس لها أي تأثير مما يعتقد الناس أنه لها. وإنما هي استغلال لتصديق الناس بتأثيرها، يمتهنه أناس حظهم قليل من العلم والمعرفة، ليقتاتوا من غفلة الناس. أما سحر مصر زمن موسى فهو علم يقوم على تنمية قدرات خاصة ومتميزة، لذا وهب الله عصى موسى ويده قدرات خارقة تفوق كل ما يمكن للمصريين القيام به، وذلك لتقنعهم بصدق رسالة موسى بالأسلوب الذي يفهمون.

وكان السامري واحد من هؤلاء المهرة، لكنه استغل مهارته في الضلال عندما قام بتصميم وتشكيل جسد على شكل عجل من حلي ذهبية، بعد أن قام بإذابتها. ولم يكن بارعا فقط في تشكيل جسد يشابه جسد العجل، بل وتمكن من أن يجعل العجل الذهبي يصدر خواراً كما خوار البقر.

واستمر الناس في إظهار قدراتهم بعد موسى، فولد عيسى بطريقة خارقة للعادة، وقام بأعمال لا يمكن لبشر القيام بها ولو كان من أهل مصر في تلك الأيام. لقد كان يبرئ ذوي العاهات، ويحيي الميت، ويقوم بتشكيل جسد من الطين على هيئة الطير ويجعله يطير ويتصرف وكأنه طائر حي ويخبر الناس بما في بيوتهم وما يأكلون.

وبعد عيسى بقيت هذه القدرات عند البعض، حتى بعد أن غزت الجيوش

الأجنبية مصر وفر أهلها. وكان من آخر من امتلك قدرات خارقة في الأجيال اللاحقة داوود وسليمان، كما سنرى.

وعندما كان موسى في سن المراهقة، قام بتوجيه ضربة بقبضته لرجل كان يتعارك مع أحد بني إسرائيل الذي استنجد به، وكانت الضربة قاتلة، فهرب من مصر خوفاً من أن يقتله أهل القتيل. ويمكن تقدير عمر موسى عندما هرب من مصر ما بين ١٥ ـ ١٨. ثم قضى ثماني أو عشر سنوات مع شيخ مدين كراع للغنم، عاد بعدها إلى مصر كرسول من الله إلى فرعون لإخلاء سبيل بني إسرائيل والسماح لهم بمغادرة البلاد. وكان قد تلقى أمر الله في الوادي المقدس طوى القريب من بيت الله الحرام في مكة قبل ذلك. ويكون عمره عندما عاد لمصر ما بين ٢٣ ـ ٢٨ عاماً. إذ لو كان عمره ١٥ عاما عند خروجه من مصر وبقي عند شيخ مدين ثماني سنوات، فسيكون عمره ٢٣ عاماً عند عودته لمصر. ولو كان عمره ١٨ سنة عندما هرب من مصر، وبقي راعياً عند شيخ مدين لمدة عشر سنوات، فسيكون عمره ٢٨ سنة عند عودته لمصر. أو سيكون عمره فيما بين ٢٣ ـ ٢٨ للاحتمالات الأخرى.

ولم تدم إقامته في مصر طويلاً لأن الرسالة التي يحملها لفرعون كانت واضحة، وموقف فرعون منها لم يتغير ولن يتغير، وبالتالي فلن تزيد مدة دعوة موسى لفرعون أكثر من بضعة أعوام. ويكون خروج موسى ومن تبعه من بني إسرائيل من مصر وهو في الثلاثينات من عمره. ولو أضفنا لها سنة أخرى قضى منها موسى بعض الوقت في الوادي المقدس طوى لميقات ربه ونسخ التوراة في الألواح، ثم التنقل لبعض الوقت قبل العودة للمرة الأخيرة لمصر.

وبعد عودة موسى لمصر، لم يحدثنا عنه القرآن شيئاً، وقد يكون توفي بعد سنوات قليلة وهو لم يبلغ الأربعين من عمره، بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وأودع عند بني إسرائيل كتاب الله ـ التوراة ـ الذي لن يشرع لهم غير ما كتب فيه. وكان آخر عهده ببني إسرائيل أن الغالبية العظمى منهم لم يؤمنوا

بما دعاهم له من دين الله برغم نعم الله الكثيرة عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴿٨﴾ إبراهيم.

أما القلة القليلة فقد كانوا مؤمنين صالحين، وهم من حمل أمانة حفظ الدين وتبليغه بعد موسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴿٢٤﴾ السجدة.

بنو إسرائيل بعد موسى

السنة التي سارت عليها كل الأمم تتمثل في أن الناس يبدأون الابتعاد عن الدين بمجرد موت الرسول، وبنو إسرائيل ابتعدوا عن الدين وموسى حي بينهم: ﴿. . . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٥﴾ البقرة.

وكانت الأمم تبتعد عن الدين وتعتنق عقائد مختلقة، بينما كان بنو إسرائيل أسوأ الأمم إضراراً بدين الله. ذلك أنهم كانوا ينسبون موروثهم وعقائدهم الباطلة إلى دين الله، مما يؤدي لفساد الدين من الداخل والتمسك بالموروث على أنه هو دين الله. إما عن طريق إضافة نصوص مختلقة لدين الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴿٧٩﴾ البقرة.

أو بتأويل معاني نصوص التوراة المنزلة من الله إلى معان لا علاقة لها بدين الله، فيبقى نص التوراة، لكن التفسير الذي ابتكروه للنص يجعل من يقرأه

يفهمه بالمعنى الذي يريدون، وليس كما أنزل الله: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿٤٦﴾النساء.

ولذلك توالى إرسال الرسل لبني إسرائيل وخلال فترات متقاربة، للحفاظ على دين الله نقياً من أجل تلك الفئة القليلة من المؤمنين منهم: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴿٧٠﴾ المائدة.

وفيما يلي أهم رسل بني إسرائيل، الذين ذكرهم القرآن وكان لهم تأثير مباشر على سيرة بني إسرائيل، بعد موسى:

عيسى ابن مريم

ولد عيسى في زمن لازالت القدرات الخارقة منتشرة في المجتمع، استمراراً لعصر موسى وما قبله. لذا جاء الحمل بعيسى وولادته بطريقة خارقة للعادة، كأكثر الطرق إقناعاً لهم بأنه رسول لله، لعلهم يؤمنون بما يدعو له من العودة للدين وتصحيح ما دخله من معتقدات وتفاسير ونصوص باطلة.

فهو قد ولد بلا أب وتكلم معهم كرسول وهو في المهد، ومع ذلك يخبرهم عن نصوص التوراة وكأنه كان مع موسى عندما تلقاها من ربه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.... ﴿٤٩﴾ آل عمران.

وأم عيسى هي مريم ابنة عمران، واحد من الرجال الصالحين أمام الله، الذين اصطفاهم لتكون في ذريتهم الرسالة: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴿٣٣﴾ آل عمران.

وإبراهيم كان من ذريته أبناء ورسل مثل إسماعيل وإسحاق ويعقوب، وعمران أحد أحفاد إبراهيم، كونه من بني إسرائيل. والقرآن يؤكد أن عمران هو والد مريم أم عيسى: ﴿وَمَرْيَمَ ابنة عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴿٢١﴾ التحريم.

وهناك آية تقول إن مريم، أم عيسى، هي أخت هارون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴿٢٨﴾ مريم.

لكن هل هارون مريم هو أخو موسى الذي أرسل معه لفرعون: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴿٧٥﴾ يونس.

أم أن هناك هارون آخر غير هارون موسى؟

وأم عيسى كفلها زكريا، وهو ما يشير إلى أن والديها فارقا الحياة، ولم يكن لها إخوة أحياء عند ولادتها. كما أنها نشأت في خدمة المحراب (المسجد)، أي أن ولادتها كانت بعد التوراة، وبعد أن كان هناك محراب ومؤمنون من بني إسرائيل، أي بعد غرق فرعون، وعودة موسى وبني إسرائيل لمصر، وبدء موسى دعوته لبني إسرائيل، وليس قبلها.

واحتمال أن مريم ولدت عندما كان موسى على قيد الحياة، ولما حبلت بعيسى كان موسى قد توفي منذ ١٥ ـ ٢٠ سنة. وهي فترة كافية لأي أناس أن يبتعدوا عن الدين، فما بالك ببني إسرائيل الذين كان الكثير منهم يحرفون الكلم عن مواضعه زمن موسى، كما تقول الآية ٧٥ من سورة البقرة التي سبق وذكرنا؟

وعيسى لم يرسل بكتاب كما أرسل موسى أو محمد، لأنه لا يحتاج

لكتاب. وإنما أوتي البينات، التي ولد وهو يعرفها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴿٨٧﴾ البقرة.

أوليست البينات هي القدرة على بيان نصوص التوراة: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿٦٣﴾ الزخرف.

ومن أكثر ما اختلفوا فيه تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فجاء عيسى ليبين لهم الحلال والحرام كما في التوراة، التي يبدو أنه قد ضاع قسم منها في ذلك الوقت: ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴿٥٠﴾ آل عمران.

وقصة الحمل بعيسى بسيطة لكنها غير عادية، تخبرنا عنها سورة مريم. فقد بدأت بخروج مريم للخلاء إلى الشرق من مزارع مصر: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً﴿١٦﴾.

وبمجرد ما توارت عن الأنظار ظهر لها مخلوق من مخلوقات الله، بهيئة بشرية: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴿١٧﴾.

فخافت أن يكون شخص تعقبها في هذا المكان المتقي المستور عن الأنظار، لكي يفعل بها الفاحشة: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴿١٨﴾.

وتقياً لوصف المخلوق، حسب ظن مريم، بأنه كان يحاول أن يتقي ويختفي لها في مكان منعزل. فطمأنها وأخبرها من يكون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴿٢١﴾.

وخلال لحظات شعرت مريم بالحمل، واقتراب الولادة، فحاولت البحث عن مكان بعيد عن أعين الناس قدر ما يسمح به وقتها: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴿٢٢﴾.

وخلال لحظات أخرى فاجأها المخاض، فاستندت لجذع نخلة من النخيل المنتشرة حولها، وعندما أيقنت أنها ستلد، تخيلت ردة فعل قومها، وتمنت لو أنها ماتت قبل ذلك أو لم تخلق أبداً: ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴿٣١﴾ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴿٣٢﴾

والنخل من أشهر الأشجار المثمرة في مصر كما ورد على لسان فرعون وهو يتوعد السحرة بعد إيمانهم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴿٧١﴾ طه.

ولا غرابة في ذلك. فمصر (رنبة) لازالت إلى اليوم تشتهر بزراعة النخيل.

وسواء كان هارون موسى أخ لمريم أم لا، فإن عيسى ولد في فترة تلت وجود موسى مباشرة، فهما من عصر واحد، حتى إن اسميهما متشابهين في الوزن والإيقاع. والأسماء لها دلالات هامة في تحديد المكان والزمان. فمن الملاحظ انتشار أسماء معينة في منطقة دون المناطق الأخرى، حتى في هذا

الوقت الذي اختلطت فيه التسميات. ولو أخذنا جزيرة العرب حالياً، فسنلاحظ أن هناك أسماء منتشرة وشائعة في مكة وجدة والمدينة، تختلف عن تلك المنتشرة شمال الجزيرة، أو جنوبها. وأسماء تنتشر في الوسط غير التي تنتشر في الشرق. وأسماء تنتشر في البادية لا وجود لمثلها في الحواضر، والعكس. كما أن ما كان منتشراً في مكة من أسماء زمن الرسول، على سبيل المثال، أصبحت غير معروفة في أزمنة لاحقة، وحلت محلها أسماء مختلفة.

وفي مصر زمن فرعون وموسى، كانت الأسماء المنتشرة، عيسى، موسى، يحيى، زكريا، هارون، قارون، هامان، لقمان، فرعون، أحمد. بينما كانت الأسماء المشهور زمن إبراهيم تبدأ بالألف مثل: آزر، إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، أو الياء مثل: يعقوب، يوسف، والتي لم يعد لها وجود بينهم في مصر، لتغير الزمان والمكان.

وسنجد أن الأسماء ستتغير مرة أخرى إلى داوود، طالوت، هاروت، ماروت، في عصر ومكان سليمان.. وهكذا.

ويضاف إلى التشابه في أوزان الأسماء، قرينة أخرى تؤكد أن عيسى كان في عصر موسى، وتلاه مباشرة، وهي: أن المجتمع كان مأخوذاً بالعجائب الخارقة للعادة، فكانت معجزات عصا موسى ويده مناسبة لذلك الزمن، الذي يجيد أهله السحر والأعمال الخارقة، كما فعل السامري. لذا جاء الحمل بعيسى بهذه الطريقة الخارقة، كون الحمل وتكون الجنين والولادة، كلها حدثت في يوم واحد، بل وخلال فترة تغيب مريم في الخلاء. وهذا ما يجعل اتهامها بالزنا مستحيلاً. ولو استغرق الحمل تسعة أشهر، فلن يصدق أحد أنها لم تحبل به سفاحاً مهما حاولت الدفاع عن نفسها[1].

---

(١) أخ فاضل لم أحظ بمعرفته شخصياً، له جهود حثيثة في مناقشة ما أكتب على شبكة الإنترنت وفي مواقع عديدة. وأثناء نقاشه لبعض مواضيع كتاب مسيحية بولس وقسطنطين، سألني إن كان الحمل بيسوع تم في نفس اليوم. واجبته أنه لم يخطر ببالي قبل تلك اللحظة أن أفكر بذلك. والآن وبعد إعادة مراجعة الآيات اتضح لي أن تساؤله في مكانه. هذا الرجل الفاضل يكتب في النت باسم الشايب.

يضاف لذلك أنها عندما جاءت به تحمله وهو للتو خرج من رحمها، تحدث إليهم، مما جعل أي شك منهم في أنها قد تكون أخفت حملها عنهم طوال الأشهر الماضية، غير وارد.

وكل الخوارق التي صاحبت الحمل وولادة عيسى وما جرى على يديه بعد ذلك، امتداداً لما سبق ورأوه أو عرفوه عن خوارق موسى، وذلك لكي يسهل إقناعهم بقبول كل ما سيبينه لهم عيسى عن معاني نصوص التوراة، وما يضيفه من نصوص نقصت منها. وهذه هي الغاية من خلق عيسى بهذه الطريقة، لكن بني إسرائيل أخذوا العبرة بطريقة خاطئة.

متى بدأ عيسى دعوته

هل بدأ عيسى تجديد دعوة موسى، وتصحيح ما طرأ على التوراة من تغيير، وهو طفل في المهد، أم أنه ترعرع وكبر ولما أصبح رجلاً راشداً، بدأ دعوته؟

ولأن القرآن لا يذكر شيئاً عن عمر عيسى، سنلجأ للمنطق، ونقول عيسى استغرق حمله لحظات، وتكلم في المهد كلام الرجل العاقل الراشد الملم بالتوراة التي جاء يصحح ما أدخل عليها مما ليس منها. وهنا لابد من وضع الاحتمالات، كما يلي:

١. إما أنه وبعد أن رآه الناس في المهد، نما بسرعة وأصبح بحجم الرجل العاقل الراشد في نفس اليوم واللحظة، وبدأ دعوته. أو أن جسده بقي بحجم الطفل حديث الولادة، لكنه كان يكلم الناس ويصحح التوراة.

٢. أو أنه سكت بعد أن كلم الناس عندما أحضرته أمه بعد ولادته، ونما كأي طفل آخر، ولما تجاوز المراهقة، وأصبح راشداً بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة، بدأ يدعو الناس وينقح التوراة لهم.

ولو أن ما حدث هو الاحتمال الثاني، فإن هناك إمكانية أن الناس سيطول بهم الزمن، ولن يتذكر ما حدث له أثناء ولادته وحديثه في المهد، إلا قلة

قليلة ممن بقي على قيد الحياة، وبذكرى مشوشة. وقد يصدقه البعض منهم. لكن غيرهم سينظرون لعيسى عندما يبدأ دعوته بعد هذه السنين التي قضاها بينهم كإنسان عادي، على أنه شخص يحاول أن يدعوهم لدين باطل يختلف عن دين الله الذي ورثوه. وسينظرون لما يقوم به من قدرات خارقة على أنها نوع من السحر يريد أن يسحرهم به ليصدقوا دعوته الباطلة.

لكن لو أن ما حدث هو أن عيسى تكلم في المهد وهو على شكل طفل وليد، ثم نما بسرعة غير طبيعية، حتى أصبح بهيئة رجل راشد عاقل، مع استمراره بدعوته، كونه لا يحتاج لا للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بهما والدليل كلامه الحكيم وهو في المهد. في هذه الحالة، من يريد الإيمان سيصدق ويقتنع أنه يقول الحق. بينما سيدخل الشك آخرين، وسيبالغ آخرون برواية ما هو عليه وما يقوم به وكيف حمل به وكيف ولد، بقصص مختلقة.

وهؤلاء هم من سيوجد التربة المناسبة لنمو الغلو في شخص عيسى بين الأجيال اللاحقة، الذين لم يعرفوه شخصياً ولا موسى قبله، ولكنهم نشأوا على سماع قصص خيالية لميلاد عيسى وقدراته، لا يمكن أن تصدر إلا من الله، مثل شفاء المرضى وذوي العاهات. ولأن من نقل لهم هذه القصص، بدل أن يقول عن عيسى إنه كان يجعل من الطين على هيئة الطير ويطير وكأنه طائر. نقل للناس أن عيسى كان يخلق الطيور من لحم وعظم وريش حقيقية وتطير أمام أعين الناس.

عندها سيبدأ بعض الناس بالتساؤل: هل هو الله؟

هل هو إله مع الله؟

هل هو ابن لله؟

هكذا ولد الاعتقاد في أن عيسى ابن لله، ثم تطور في أجيال لاحقة بضم مريم لتكون والدة الله الابن، ليكون هناك ثلاثة: الله الأب، الله الأم، والله الابن.

وقد يكون الغلو في عيسى لم ينشأ في مصر، لأن الإسرائيليين هناك رأوا عيسى وموسى، وهم على أربع فرق:

١ . إما مؤمنون بموسى، ولم يجدوا غضاضة في الإيمان بعيسى.

٢ . أو أنهم آمنوا بموسى، ولكنهم ممن أدخل بعض المستحدثات على الدين، وبالتالي فلن يطيعوا عيسى بالتراجع عن بعض معتقداتهم.

٣ . أو أنهم آمنوا بموسى، لكنهم لما رأوا مريم مقبلة عليهم وبين يديها طفل وليد، سارعوا باتهامها: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴿٢٨﴾.

وقد يكونوا قد غيروا رأيهم بعد ذلك: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴿٣١﴾ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴿٣٢﴾.

٤ . أو أنهم لم يؤمنوا بموسى، ولم يؤمنوا بعيسى.

وأميل للقول أن عيسى لم يطل به المقام في بني إسرائيل لأنه خلق، بطريقة مختلفة، لمهمة خاصة أنجزها لمن تقبلها، ومن ثم توفي. لذا لم يذكر القرآن أي مواجهة بينه وبين من اعتقد بألوهيته، لأن وقته كان قصيراً جداً بين الناس لدرجة أن فكرة القول بأنه ابن الله، تحتاج لوقت لكي تتبلور، أطول من فترة حياة عيسى، الذي مات قبل أن يبدأ بعض الناس بالجهر باعتقادهم أنه قد يكون ابن لله.

وفيما يلي بعض الآيات التي تحدثت عن عيسى:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴿٤٦﴾ آل عمران.

لقد أصبح كهلًا، أو بهيئة الكهل، هذا مؤكد، لكن هل بلغ سن الكهولة بنفس عدد السنوات التي يحتاجها الإنسان العادي لبلوغها؟

من المؤكد أنه لم يبق في بطن أمه سوى لحظات، وليس تسعة أشهر.

ومن المؤكد أنه لم يحتج سوى للحظات لكي يتحدث بمنطق العاقل الحكيم، بينما يحتاج الطفل العادي من البشر لسنة تقريباً ليبدأ نطق بعض العبارات البسيطة، ومع السنوات تبدأ حصيلته من المفردات اللغوية تزداد. كما أن الحكمة والرشد تأتي مع تقدم السن والاستفادة من المواقف والخبرات. لقد خلق عيسى بعقلية ناضجة، وذاكرة مكتملة، فلا حاجة له لخبرة السنوات، ولا لحفظ مزيد من الكلمات.

والقرآن لا يذكر أن عيسى ترعرع وكبر حتى أصبح رجلًا راشداً، لكنه يذكر أنه في المهد وكهلًا، وكأنها إشارة إلى أنه انتقل من طور المهد إلى الكهولة، دون المرور بالمراهقة وطيش الشباب، ودون أن يمر بسنوات طويلة.

لقد خلق مختلفاً، وعلمه الله الكتاب، والحكمة، والتوراة والإنجيل، ولم يتعلمها بنفسه أو يتلقاها أو يوحى بها إليه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴿٤٨﴾آل عمران.

إضافة لذلك: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴿٥١﴾ آل عمران.

لقد ولد عيسى ولديه طاقة قادرة على تأثيرات عجيبة، ومن ذلك أن يصمم شكلًا على هيئة الطير ثم ينفخ فيه فيطير كالطير الحقيقي. وهذا يذكرنا بما فعل

السامري، عندما قام بتصميم عجل من الذهب، واستطاع أن يجعله يخرج صوت خوار مشابه لخوار البقر. لقد صمم بقرة تتصرف كالبقر الحقيقي. وهو ما يدل على أن ذلك المجتمع يتواجد فيه من لديهم مهارات تصميم وتصنيع أشكال وهيئات بالغة الدقة، كما سبق وذكرنا مراراً.

وحتى المؤمنون من بني إسرائيل في عصر موسى وعيسى بقي الإيمان بالخوارق مسيطراً عليهم، حيث نجد أن القلة من الذين صدقوا عيسى، وهم الحواريين، طلبوا منه أن يدعو الله لينزل عليهم مائدة من السماء، وكأنها مقابل إيمانهم: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴿١١٥﴾ المائدة.

والله جل وعلا أرسل لهم عيسى بطريقة يسهل عليهم فهمها. لكنه يتفوق عليهم بالقدرة على القيام بأشياء فوق قدرة المصممين والسحرة، كم فعل موسى من قبل، عندما التهمت عصاه كل ما قام السحرة بتصميمه بمهارة فائقة. وعيسى الآن يستطيع أن يبرئ «الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» وهو ما لا يمكن للسحرة القيام به.

كل هذه القدرات الخارقة التي تثبت أنه يتمتع بمهارات لا يمكن أن يتمتع بها البشر، للتدليل على أنه مرسل من الله، في مهمة خاصة، فهو ليس رسول جديد لبني إسرائيل، بل هو مجدد فقط، ولم يأت بأي شيء جديد لم تذكره التوراة» وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ

عَلَيْكُمْ». فالهدف هو العودة لما في التوراة، وترك كل ما طرأ عليها وأحدث فيها. ليقتنعوا بأن التوراة بالفعل قد تم التلاعب بنصوصها، وأن بعض ما يعتقدون أنه من دين الله، ليس منه.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴿٥٩﴾ آل عمران.

فآدم خلق من تراب ثم نفخت فيه الروح فقام رجلًا بالغاً عاقلًا، وكأنه مر بسنوات وتجارب، لدرجة أنه كان يعلم أسماء مخلوقات لله، وهو الذي للتو نهض من العدم، بينما الملائكة الموجودين منذ القدم، لم يعرفوها: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴿٣٣﴾ البقرة.

فعلم عيسى وقدراته لا تحتاج للخبرة ولا للحكمة، لأنه ولد وهو يتمتع بهما، مثل آدم، الذي بمجرد أن نفخت فيه الروح كان يعلم أشياء في عالم البشر لا تعرفها الملائكة.

يبشر برسول بعده

قبل وفاة عيسى، بشر الناس بأن هناك رسول سيأتي بعده مباشرة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿٦﴾ الصف.

وهذه البشارة امتداد للقدرات التي أودعها الله فيه، حيث أن لديه القدرة على الإخبار ببعض ما سيأتي، وهو ما سبق وذكرته سورة آل عمران:

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٤٩﴾﴾.

فهو يستطيع أن يتنبأ بما يأكلون خلف جدران بيوتهم، وما تحويه، من متاع ومدخرات. كما أنه تنبأ لهم برسول سيأتي من بعده وحدد اسمه بأنه أحمد. لأن أي شخص يستطيع أن يتوقع أن يأتي بعد عيسى رسول ورسل، لكن لا أحد يستطيع أن يحدد اسم الرسول التالي، إلا من أبلغه الله بذلك، أو لديه قدرة خارقة، مثل عيسى.

وأحمد كان واحداً من رسل بني إسرائيل الذين قص القرآن بعض أخبارهم، وكثيرون غيرهم لم يتحدث القرآن عنهم: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴿١٦٤﴾﴾ النساء.

والآية التي تذكر أحمد، حورها المفسرون وكأنها تتحدث عن محمد. ويريدون منا أن نتعامى عن حقيقة أن أحمد اسم، ومحمد اسم آخر، والأسماء لا تعلل، وليس لها معاني. فلا نقول أحمد بمعنى أشكر ومحمد بمعنى مشكر أو مشكور، وبناء على ذلك يعتبران اسماً واحداً. لأنهما جاءا من الحمد والشكر. إذ لو كان الوضع كذلك فمحمود وحامد وحميد وحمد وحمدون وحمدي وقائمة طويلة من الأسماء التي تشترك في جذر واحد (ح م د) هي اسم واحد. إذاً، محمد ليس أحمد، وكل اسم من هذه الأسماء مستقل بذاته، ولا صلة له بالبقية.

وأحمد بشر به عيسى بني إسرائيل، كواحد من رسلهم، ولا علاقة لمحمد ولا لقريش به. لأن قريش في مكة منذ أيام إبراهيم، بينما بشرى عيسى كانت موجهة لبني إسرائيل في مصر، في عصر موسى وعيسى. ولا يمكن أن يبشر

عيسى بني إسرائيل بمجيء محمد لقريش، لأن الغاية من بشرى عيسى هي تأكيد صدقه، وأن ما يقوله لبني إسرائيل، هو ما علمه الله. ومن ذلك أنه سيأتيهم رسول بعده اسمه أحمد، وسيأتي بعده مباشرة، وليس في وقت ما. كما أن أحمد مرسلاً لبني إسرائيل وليس لغيرهم.

وكون عيسى علم أنه سيأتي بعده رسول اسمه أحمد، ويستطيع أن يخبر بني إسرائيل بما في بيوتهم، لا يعني أنه يستطيع أن يعلم الغيب، ويتنبأ بمجيء رسول يبعث في مكة بعد زمن طويل جداً. لأنه لا فائدة من أن يعلم ذلك، فكل قدراته الفوق عادية تهدف لإثبات أنه رسول من الله لبني إسرائيل، وليس لقريش علاقة بذلك. مثلما أن إرسال محمد لقريش في عصور لاحقة لا علاقة لبني إسرائيل زمن عيسى به.

وكبشر فعيسى لا يمكن أن يكون على علم بمجيء محمد، بل لا يمكن أن يكون قد علم بمجيء سليمان وداوود، ولا أي رسول آخر من الرسل الكثر لبني إسرائيل بعده، ما عدا أحمد، لأن الله أبلغه بذلك، كبرهان على صدق رسالته لمن عاصره. أما البقية من رسل بني إسرائيل فسيرسلون بعده بزمن طويل، ولا حكمة في إبلاغه عنهم.

وعلى القراء أن يتذكروا أن البيئة التي ولد فيها عيسى وموسى عربية اللسان، كما سبق وأثبتنا في بداية الحديث عن مصر. واسم أحمد عربي مثل كل أسماء بني إسرائيل كموسى، عيسى، يحيى، زكريا، هارون، إبراهيم، إسماعيل، وإسحاق. أما نطق موشي، عيسو، زكرايا، آرون، أبرهام، إشماعيل، ويتسحك، فهو نطق فيه عجمة اكتسبها بنو إسرائيل في وقت لاحق من تاريخهم، وبعد شتاتهم، عندما اختلطت ألسنتهم بلغات أخرى، فأصبحت عربيتهم خليط من مفردات لغات شتى، دون قواعد وضوابط خاصة بها.

ولو وافقنا المفسرون أن أحمد هو محمد، فكأننا لم نصدق بأن محمداً رسول لله إلا لأن كتب اليهود شهدت له، وليس لأن الله قال بذلك. بل

وأعظم من ذلك هو أننا نضرب بكلام الله الواضح البين عرض الحائط، ونحرف الكلم ونحن نعلم، فالآية تقول عن رسول بني إسرائيل أحمد الذي بشر بمجيئه عيسى أنه جاء وبعث لبني إسرائيل وبلغ رسالته ومات في زمانه، ولنتدبر مرة أخيرة الآية التي أوردت الخبر: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿٦﴾ الصف.

فالآية تقول: عيسى أخبر بني إسرائيل أنه سيأتيهم رسول لهم بعده اسمه أحمد.

وتقول: إن أحمد «جاءهم بالبينات».

وتقول: إن بني إسرائيل لم يعجبهم ما جاء به رسولهم أحمد كعادتهم مع كل الرسل الذين أرسلوا لهم، ووصفوا ما يدعوهم له بالسحر: «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

فأحمد جاء ومات مباشرة بعد عيسى، ومات قبل عصر محمد بفترة لا تقل عن ٢٠٠٠ عام، ولو كان هو محمد فالأحرى أن تبشر به قريش لأنه رسولهم، وليس بني إسرائيل.

وفاته

ما فهمته من الآيات أن عيسى لم يدم به المقام طويلاً بين بني إسرائيل، فهو خلق لمهمة خاصة، ولم يخلق لكي ينشأ كبقية الناس ويتزوج وينجب مثلهم للحفاظ على الجنس البشري. لذا فقد أدى مهمته ثم توفاه الله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٥٥﴾ آل عمران.

ولا أشك للحظة أن رافعك إليّ لا تعني أنه حي يرزق بجوار الله (تعالى

الله عن خلقه علواً كبيراً). وكل ما يحويه الكون عبارة عن خلق لله، وكل مخلوقات الله بعيدةً عن ذات الله، الذي لا يحد بمكان ولا زمان. فهو سبحانه ليس داخل ملكه، ولو كان معنى «رافعك إليَّ» تعني التواجد بقرب الله، فهذا يعني أن الله موجود في مكان محدد، داخل هذا الكون الذي هو خلقه، وأن له جسد. . . . الخ.

مما يجعلنا نشبه الله بالخلق، مع أنه سبحانه: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿١١﴾ الشورى.

وأي صفة لخلق من خلقه فليس لله منها شيء. وعيسى توفاه الله قبل أن يرفع روحه، أي أنه مات، كبقية مخلوقات الله التي ستموت كلها، وستحفظ أرواحها بعلم الله، لتعاد لها الحياة يوم القيامة. ولا يوجد مخلوق حي مستثنى من هذا القانون الإلهي، سواءً كان من البشر أو من غيرهم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴿٢٧﴾ الرحمن.

وحفظ الأرواح لا علاقة له بهذا الكون، لأن هذا الكون سينتهي وينشأ كون جديد للقيامة: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴿٦٨﴾ الزمر.

مما يعني أن ما نطلق عليه الكون هو خلق من خلق الله الذي لا حدود لقدرته، ولو قلنا إن عيسى رفعه الله إليه كجسد وليس روح، فهذا يعني أن الله داخل الكون في مكان ما، وهذا تحجيم لله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. أو أن عيسى خارج الكون وخارج كل المخلوقات، وهذا كثير في حق المخلوق.

التثليث

سنحاول التعرف، إن أمكن، على بداية ظهور عقيدة الغلو في عيسى والنظر إليه على أنه ابن لله وثالث ثلاثة. والآيات تقول إن الناس قد انقسموا حيال عيسى إلى ثلاث فرق، كما يلي:

١ . أناس لم يصدقوه، وهم ممن لم يصدقوا موسى قبله، وهم أكثر بني إسرائيل.

٢ . وأناس أتقياء صدقوا موسى وصدقوه، وهم القلة: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴿٥٤﴾ آل عمران.

٣ . وأناس بنوا حوله عقيدة لم يعلم بها، واعتقدوا أنه ابن الله. وهؤلاء لم يرهم عيسى ولم يسمع بهم أثناء حياته، لأن عقيدتهم احتاجت كغيرها من العقائد المستحدثة، للوقت الكافي للتحول من قصص وأخبار إلى عقيدة.

ويحتمل أن تكون عقيدة الغلو في عيسى واعتباره ابناً لله بدأت في مصر، التي ولد فيها عيسى، واحتمال أنها ولدت في مكان آخر غير مصر.

وأميل إلى أن الغلو في عيسى حدث خارج مصر، حيث أخذ الناس يتناقلون قصصاً وأخباراً عن عيسى بعد موته، وكما هي العادة فالراوي يضيف على القصة ما يزيد من تشويقها في أذن السامع، ويأتي قاص آخر ويقصها على مستمعيه بطريقة يريد أن يوصل بواسطتها فكرة معينة، ويأتي راو آخر، ويضيف للقصة وينقص منها لتتواءم مع الجو العام للمستمعين وما يجب مراعاته في المجلس حسب الأعراف المتبعة. ويأتي راو ويقص ما سمع حسبما فهم هو وليس كما كانت القصة.

وهكذا يتولد من خبر واحد عن عيسى عشرات الأخبار والقصص، عن شخص لم يروه ولم يعرفوه، مما يجعل اختلاق القصص أسهل وأكثر تنوعاً.

والقرآن لا يذكر أن هناك من اعتقد أن عيسى ابن لله أثناء حياته، ولكن الآيات تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ

عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١١٨﴾ المائدة.

وهذا سؤال افتراضي سيكون يوم القيامة، لعيسى إن كان هو من قال للناس إنه ابن لله أو إله مع الله. والآيات تظهر من الجواب على لسان عيسى أنه لم يكن يعلم أن الناس قد اعتبروه إلهاً من دون الله أو مع الله «مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ».

وآيات أخرى تقول: ﴿لعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴿٧٨﴾.

ولا ذكر للتثليث زمن عيسى. لأن الناس إما مؤمن به أو كافر، لكن أجيال أخرى لم تره بدأت تتخيل عنه غير ذلك لأن الوقت اختلف ولم ير الناس معجزات موسى ولا عيسى لكنهم سمعوا ما حدث بروايات مشوشة.

ومن المؤكد، أن التثليث لم يعتقده الناس بين يوم وليلة، ولكن الفكرة بدأت باعتقاد بعض الناس أن عيسى يستطيع أن يخلق خلقاً حقيقياً لمخلوقات حية. ولأن الخلق لله وحده، فقد ظهر من يقول بأن عيسى كان هو الله، وسورة المائدة تخبرنا عن بداية هذه العقيدة وتطورها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.......

مع أن عيسى لم يقل سوى ما كلفه الله به: ﴿.... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿٧٢﴾.

ثم جاء من استكبر أن يكون عيسى هو الله خالق كل شيء، لكنه قد يكون ابن لله، فهو إله محدود القدرات، ومريم إله، لأنها أمه، والثالث هو الله

القادر على كل شيء، فهم ثلاثة آلهة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٧٣﴾ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٧٥﴾.

وهذه الآيات لا تتحدث عن عصر عيسى ولكن عمن جاءوا بعده، وهو لم يعلم بهم. مثلها مثل آية أخرى في نفس سورة المائدة، والتي تقول: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٧﴾ المائدة.

وسورة المائدة تتحدث لمحمد وتخاطب بني إسرائيل، والنصارى منهم تحديداً، الموجودين في يثرب.

ونفس السورة في آية أخرى تقول: ﴿..... وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴿١١٠﴾.

لقد اتهم عيسى بالسحر والدجل في حياته، لكن لا أحد قال له أو عنه إنه إله أو ابن لله، لأن المعتاد هو أن الغلو بشخص لا يأتي في حياته ولكن بعد عقود من وفاته. فعلي بن أبي طالب لم يصبح ولياً لله في حياته، ولم تعلم زوجته فاطمة أنها الزهراء في حياتها. ولم يعلم ابن حنبل أو ابن عبد الوهاب أنهما أصبحا بهذه القداسة في حياتهما.

وقبل أن ننتقل لفقرة أخرى، أود أن أطرح تساؤلاً حاك في نفسي، ولا أجد ما يعضده، ويتمثل بحاضرة قديمة من حواضر أودية جنوب غرب جزيرة العرب الهامة، وهي تثليث التي لا تبعد كثيراً عن مصر.

وتثليث اسم قديم، قدم الحاضرة ذاتها، يبدأ بحرف التاء، مثل تبوك، تهامة، تيماء، والسؤال هو: هل تثليث اسم مكان لا يدل على معنى معين، أم أن له علاقة بالغلو في عيسى وأمه؟

التثليث لو أخذناه كلفظ، فهو من ثلاثة. وبعد عيسى وجدت عقيدة النصارى الذين يعتقدون أنه ثالث ثلاثة، مع الله (جل جلاله) ومريم أمه. وهنا علينا أن نتذكر الفرق بين عقيدة النصارى وعقيدة من تسموا بالمسيحيين، الذي يعتقدون بالتثليث، لكن بيسوع والله والروح القدس، وليس أم يسوع. وهو فارق هام جداً وجذري، لأن النصارى لا يعتبرون ما يسمى الروح القدس إلهاً.

ونتساءل: ترى هل ظهرت عقيدة التثليث بعيسى في مصر، وطردوا منها بسبب عقائدهم، فلجأوا لمكان على وادي تثليث، عرف ببلاد التثليث، نسبة لهم؟

مجرد تساؤل لا أملك ما يسنده، ولا ما ينفيه.

مملكة داوود

يقول تعالى في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿٧٦﴾. وكما هو واضح فالقرآن يقص على بني إسرائيل زمن محمد حقيقة ما حدث لأسلافهم في غابر الأيام. وقد استطعنا أن نكتب تاريخاً لما حدث في الصفحات السابقة منذ عصر إبراهيم إلى وفاة عيسى بن مريم، اعتماداً على ما أخبرتنا به الآيات، يختلف جذرياً عما توارثنا وترسخ في تراثنا.

وفيما يلي سنتتبع ما حدث في عصور لاحقة لما بعد موسى وعيسى، والبداية مع آيات من سورة بني إسرائيل تخبرنا بمجمل ما حدث: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴿٤﴾

فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴿٧﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴿٨﴾.

والآيات تقول إن بني إسرائيل بعد موسى وعيسى أفسدوا في الأرض وفسقوا عن أمر ربهم، مرتين: «لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً». وفي كل مرة كانوا يعاقبون باجتياح جيش أجنبي لبلادهم، يخرب بيوتهم وأماكن عبادتهم: «فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً».

مما اضطر بني إسرائيل لهجر بلادهم «مصر» إلى مواطن أخرى.

ثم التأم شملهم مرة أخرى: «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً».

إلا أنهم عاودوا الإفساد في الأرض والفسق عن أمر الله، فعوقبوا للمرة الثانية بالغزو الخارجي الذي خرب ديارهم وأماكن عباداتهم: «فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً».

وللمرة الثانية يتفرق شملهم وتتشتت جموعهم بين بلاد مختلفة يمنة ويسرة.

وبناء على هذه الحقيقة، فقد حدثت هجرتين قسريتين لبني إسرائيل بعد عصر موسى نتيجة اجتياح بلادهم من قبل جيش أجنبي. وكان الاجتياح الأول عندما كانوا يعيشون في مصر، وقد فر بنو إسرائيل منها في كل اتجاه. والذين هاجروا باتجاه الشمال سلكوا الطريق الدولية لتجارة اللبان، ولأنهم أعلنوا

عداءهم لبني إسماعيل ولمكة كما بينا سابقاً، فلم يتوقف منهم أحد في مكة، بينما استقر البعض منهم في يثرب، خيبر، وادي القرى، وتيماء. وهي الحواضر التي يمر بها طريق القوافل المتجه إلى بلاد الشام. ومن لم يستقر منهم في أي من تلك الحواضر، واصل سيره إلى بلاد الشام وبلاد القبط."

وبدأت الأجيال التالية منهم تتحدث لغة البلد، ويتسمون بأسمائهم. لذا فمن استقر في حواضر الحجاز حافظوا على عروبة اللسان كما كانوا، ومنهم من استوطن يثرب، وكانوا هناك عندما هاجر إليها محمد. وكان منهم من اعتنق المذهب اليهودي، وقلة منهم كانوا من النصارى الذين غالوا في عيسى بن مريم، وهؤلاء هم ممن وصل يثرب في الشتات الثاني. بينما استقر في يثرب من نزح من بلادهم في الشتات الأول، وهؤلاء كان منهم من تمسك بدين الله الصحيح كما نزل على موسى وعيسى. واحتفظوا بكتب منسوخة من التوراة باللغة العربية، لذا عندما كان البعض منهم يأتي لمحمد ويسأله عن بعض الأحكام الدينية، ينزل القرآن ليقول لهم إن ما تجدونه في نسخ التوراة التي معكم، هو ما سيكون في القرآن: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴿٤٣﴾ المائدة.

وعندما يعترضون على الحكم الذي يخبرهم به محمد من القرآن، كان يأمره الوحي بأن يطلب منهم أن يعودوا للتوراة التي بين أيديهم، وسيجدون نفس الحكم: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٩٣﴾ آل عمران.

والقرآن يذكرهم أنهم لو اتبعوا أوامر الله ونواهيه التي في التوراة لحصلوا على سعادة الدنيا قبل الآخرة، ولكن غالبيتهم فسق عن أمر ربه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴿٦٦﴾ المائدة.

ومثلهم من تمسك بتعاليم الإنجيل الذي حدثهم به عيسى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٦٨﴾ المائدة.

وهذا يعني أن نسخ التوراة التي نزلت على موسى بقيت حية بلغتها الأصلية التي نزلت بها، وهي العربية، أو بقي منها أجزاء كثيرة حية، وكانت بين أيدي بني إسرائيل بيثرب عند هجرة محمد.

ولأنهم طردوا من يثرب فيما بعد واتجهوا نحو بلاد الشام، ومنها لبلاد متفرقة، واختلطوا بمن سبقهم من بني إسرائيل وتطبعوا بطباعهم وعجمتهم وتناسوا عربيتهم التي أصبحت ترمز للإسلام عدوهم الذي أخرجهم من ديارهم، ودين أبناء إسماعيل الذي أخرج أبوهم إسحاق من قبل، فلم يعد لديهم حافز للانتماء للعرب ولا للعربية. وهو ما حدث لمن هاجر لفارس وبلاد الخزر، وغيرها.

وكان شتاتهم الثاني والأخير بعد انهيار مملكتهم التي أسسها سليمان، دافعاً إضافياً لقطع صلتهم بأصولهم العربية، بل ومن بلادهم الأصلية في غرب جزيرة العرب، واختلاق انتمائهم لفلسطين منذ عهد إبراهيم، وبقية الاختلاق الأخرى التي غيرت حقائق التاريخ، لينتقموا مما حدث ويحاولوا قلب الإهانات التي يعتقدون أنها وجهت لهم، على من تسبب بها. فمكة لم تعد مقدسة، بعدما طرد أبوهم إسحاق منها، وأصبحت خدمة بيت الله الحرام تكليفاً حصرياً لإسماعيل وذريته، ثم تحريم دخول بيت الله عليهم لمدة ٤٠ سنة. وحتى من بقي منهم في مناطق عربية، كانت صلاتهم ببني جلدتهم في المناطق الأجنبية قوية، وتأثروا بهم.

وكان البعض منهم بعد تعرض بلادهم للغزو الخارجي الأول، قد هاجر إلى الجنوب وتفرقوا على مناطق واسعة من بينها اليمن ونجران وحجاز

وعسير. ومن هؤلاء وُلِد داوود الذي استطاع أن يصبح ملكاً على مملكة في أرض بعيدة عن مصر موطن أجداده وقبيلته.

والقرآن يخبر بني إسرائيل يثرب كيف حدث ذلك:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي «يثرب» مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴿٢٥١﴾ البقرة.

لقد تشتت شمل بني إسرائيل في مناطق مختلفة، وعاشت كل مجموعة في مكان. وكان هناك مجموعة منهم استوطنت مكاناً قريباً من ملك اسمه جالوت، قدم عليهم بجيش جرار ليقضي عليهم بسبب لم تخبرنا الآيات عنه،

فقرر بنو إسرائيل الدفاع عن أنفسهم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ».

لكن بعد أن وافق نبيهم على رغبتهم تلك، وبدا الاتصال ببعض معارضي حكم جالوت للانضمام لهم لقتاله، تراجع الكثير من بني إسرائيل عن فكرة القتال: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وقد وافق الكثير من معارضي ملك جالوت، وقدموا على بني إسرائيل بقيادة أحدهم واسمه طالوت، مما أثار حفيظة بعض بني إسرائيل وأبدوا امتعاضهم من فكرة أن يقودهم من ليس منهم: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ». والملك هنا تعني القيادة العسكرية.

وقد وافق بنو إسرائيل على مضض وانطلقوا تحت إمرة طالوت، الذي شعر أن أكثرهم مترددون ولن يقدموا على قتال، فارتأى التخلص منهم قبل دخول المعركة لأنهم لن يقاتلوا وسيولون الأدبار لحظة نشوب القتال مما سيؤدي إلى تحطيم معنويات الآخرين والهزيمة، وما أن أرادوا عبور مجرى مائي صغير، حتى أعلن أن كل من شرب من هذا الماء فعليه أن يعود من حيث أتى، فما كان من كل المترددين إلا أن شربوا من النهر وتركوا الجيش. وهكذا استطاع طالوت أن يتخلص من كل الغير مرغوب فيهم، والذين يمثلون عبئاً على الجيش، ولم يبق إلا كل من لديه الإصرار والعزيمة على القتال، ولو أن عددهم أقل: «فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ».

وحتى المخلصين منهم، لما شاهدوا جيش عدوهم الكثير العدد، شعروا بالرهبة، فحاول الأكثر رباطة للجأش منهم رفع معنويات الباقين: «فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

ولم يبق إلا المؤمنين حقاً بالله والمجاهدين بصدق نية، لذا لم يتراجعوا عندما رأوا الفارق الكبير بين أعداد جيش عدوهم وأعدادهم المحدودة: «وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

وهذه الآية تشير إلى أن دين موسى وعيسى قد انتشر وتبعه أقوام من غير بني إسرائيل، كما تظهر الآية أن المعارضين لحكم جالوت من قومه والذين انضموا لبني إسرائيل، كانوا قد آمنوا بدين موسى وعيسى، فأصبحوا مطاردين من قبل جالوت كما بني إسرائيل.

واستطاع الجيش المؤمن أن يهزم جيش جالوت، الذي قتله أحد بني إسرائيل واسمه داوود: «فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ».

واعتلى داوود سدة الحكم في مملكة جالوت بديلاً له، مع أن داوود كان مجرد جندي عادي في الجيش ولم يكن ذا مكانة سياسية قبل المعركة.

ونتساءل إن كان طالوت قد قتل في المعركة، وهل هناك عرف ينص على أن كل من قتل الملك في المعركة يستولي على ملكه؟ وهو ما جعل داوود يصبح ملكاً على مملكة بعيدة وأجنبية عن بلد أجداده مصر.

وداوود، أحد أتقياء بني إسرائيل الذين تمسكوا بدين الله، وكان وابنه سليمان ممن بقي من أولئك الذين لديهم قدرات خارقة كموسى وعيسى والسامري وغيرهم. وسورة سبأ تخبرنا عن بعض هذه القدرات: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١١﴾.

إضافة لقيامه بحفر مناجم لاستخراج المعادن في المناطق الجبلية، وفي مناطق واسعة خلفها. وازدهرت في عهده الصناعات المعدنية، والتي منها الدروع الحربية، كما تؤكد سورة الأنبياء: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴿٨٠﴾.

وكانت لديه القدرة على معرفة لغة تواصل بعض الطيور، وهو ما تؤكده سورة ص: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴿١٩﴾.

وتخبرنا سورة «ص» المزيد عن قدرات داوود، فقد كان حكيماً وخطيباً مفوهاً: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴿٢٠﴾.

واستطاع توطيد حكمه، وإرساء قواعد ملكه، في مملكة جالوت التي ورثها بعد مقتله: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴿٢٦﴾.

ولا نستطيع أن نعرف متى تعرض بنو إسرائيل في مصر للغزو الخارجي الأول، الذي تسبب بهروبهم منها، وكم عدد السنين التي مضت بعد وفاة عيسى قبل هذا الغزو. كما لا يمكن لنا أن نقدر الفترة الزمنية التي تفصل بين الغزو الأول الذي تعرض له بني إسرائيل في مصر، وبين قيام دولة داوود، ولا يمكن التعرف على عدد السنين التي أمضاها داوود في الحكم قبل وفاته، ولكن المؤكد أن ملكه قد ورثه بعده ابنه البكر، أو الوحيد:

سليمان

المملكة التي استولى على ملكها داوود بعد قتله لملكها جالوت، أصبحت مملكة لبني إسرائيل، وأصبح أهلها الأصليين تحت حكمهم. ولا بد أن هذا عرفاً اجتماعيا كان جارياً في تلك الأيام، لأنه لا ذكر لأي ثورة أو عصيان ثار ضد سليمان، عندما ورث الحكم عن داوود بعد موته. وسليمان كوالده، من بني إسرائيل الذين يملكون قدرات خارقة، تحدثنا عنها سورة سبأ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ

يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴿١٣﴾.

فقد كان لديه القدرة على إثارة العواصف، وتوجيه مسار الرياح، ويحترف إسالة القطر، وتصنيع الأواني الفخارية والمعدنية بأشكال مختلفة: «مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ». واستطاع تطويع بعض المخلوقات الغير مرئية (الجن) لطاعته. إضافة إلى إجادته منطق الطير والحشرات والحيوانات كما جاء في سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴿١٩﴾.

ومع أن سليمان عاش كملك عظيم بالنسبة لزمانه ومكانه، له سيطرة على مملكته وما فيها من البشر والجن والمخلوقات الحية الأخرى، إلا أن موته كان بطريقة بسيطة كمن يعيش لوحده: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴿١٤﴾ سبأ.

لقد كان جالساً وتوقف قلبه ومات وهو على تلك الحال، وبقي كل من حوله يظنون أنه حي، ولا يقتربون منه، إلا بعد أن خر بعد أكلت دابة الأرض منسأته[1]. وهو ما يدل على أنه كان يتعامل مع من حوله بأسلوب الأمر

(١) المنسأة تعني المؤخرة والعجز وتعني العصا تجاوزاً، وقد تكون دابة الأرض، تلك الحشرة التي تهاجم الجثة بعد وفاة الإنسان وتلتهم اللحم في القبر، ثم يلتهم بعضها بعضاً حتى آخر حشرة منها.

والطاعة. كما أنها تدل على أنه حين مات لم يكن لديه زوج أو أولاد، وهو ما يشير له دعاؤه في الآية ١٩ من سورة النمل، حيث يذكر والديه ولا يذكر أبناءه أو نسائه: «رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ».

أين تقع مملكة داوود

* في منطقة زراعية: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴿٧٨﴾ الأنبياء.

* في منطقة تربى فيها الخيل والأغنام. فهم ليسوا في أعالي السروات، حيث تربى الأبقار، وإنما في حاضرة من حواضر الأودية الكبيرة، حيث سلالات الخيل الأصيلة.

* ومن الأسماء الشائعة في المملكة طالوت جالوت هاروت ماروت، وما هو على أوزانها.

كل هذه قرائن، لو أضفنا لها ما حدث بين سليمان والهدهد لعرفنا أين تقع.

الهدهد

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴿٢٤﴾ النمل.

لابد أن سليمان يتفقد الطير يومياً عند المساء، وقد حل الظلام أو كاد والهدهد لم يحضر. وقبل أن يغادر سليمان المكان حط الهدهد «فَمَكَثَ غَيْرَ

بعيد»، وأبلغ سليمان أنه رأى مملكة تسمى سبأ، واحدة من الحواضر التي قامت على ضفاف الأودية في جنوب غرب الجزيرة. وهذه المملكة تحكمها امرأة وأهلها يعبدون الشمس.

والهدهد طائر متوسط الحجم، ويصل امتداد جناحيه ما بين ٤٥ ـ ٥٠ سم، وسرعته تتراوح بين ٣٠ ـ ٥٠ كم في الساعة. ويمتاز بالجري بسرعة عالية جداً، ويقضي وقتاً طويلاً على الأرض لملاحقة الحشرات التي يقتات عليها.

ويمكننا أن نتخيل أنه طار في الصباح من المكان الذي يبيت فيه في مملكة سليمان، بحثاً عن قوته كالمعتاد، دون أن يكون قد عقد العزم على البحث عن سبأ. وكان يطير لبعض الوقت ثم يتوقف في المناطق العشبية، ويلاحق الحشرات لبعض الوقت ثم يرتاح فوق غصن شجرة لينظف ريشه... وهكذا.

واستمر على هذه الحالة إلى أن وصل صدفة إلى سبأ، وبقي لبعض الوقت يرصد حركات الناس هناك، قبل أن يعود مسرعاً وبلا توقف لسليمان ليبلغه سبب تأخره إلى حلول الظلام على غير المعتاد ومتأخراً عن الموعد المضروب له للحضور.

وكل ما علينا فعله ببساطة هو تقدير عدد الساعات التي قضاها الهدهد طائراً في طريق العودة من مملكة سبأ إلى مملكة سليمان، مضروبة بمعدل سرعته، وسنحصل على المسافة التي تفصل بين المملكتين.

وبما أن الهدهد وصل سبأ وهو يطير فترة ويتوقف لفترات، ولم يصلها وهو يطير بلا توقف، فسنفترض أن طيرانه راجعاً من سبأ إلى مملكة سليمان يساوي ضعف سرعة طيرانه عندما وصل لسبأ من مملكة سليمان أو قريباً من ذلك. وبعبارة أخرى، إن كان الهدهد وصل سبأ بعد ست ساعات من طيرانه من مملكة سليمان، فهو سيحتاج إلى ثلاث ساعات أو قريباً منها للعودة.

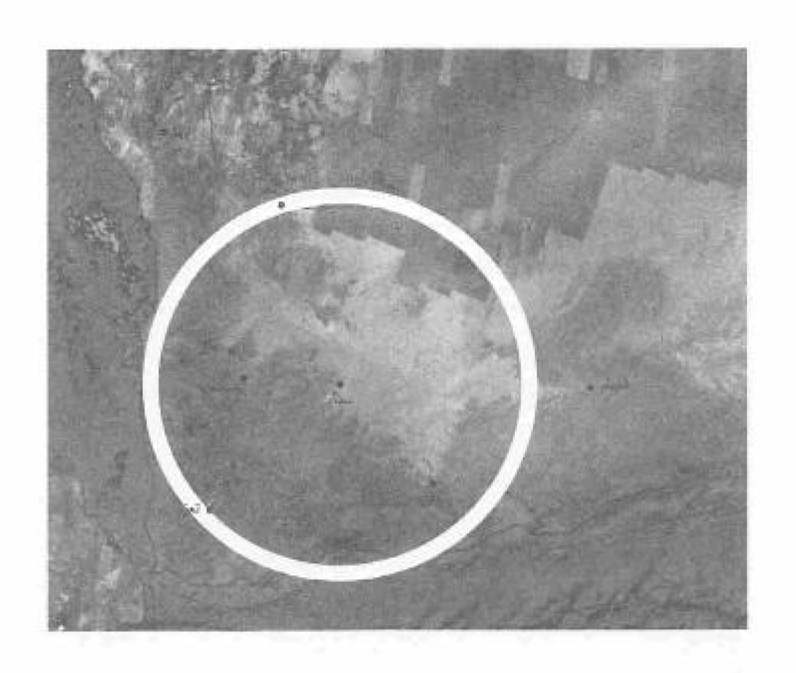
وسنفترض أن الوقت هو الربيع وقبل أن يعود الهدهد مهاجراً إلى أفريقيا، وحيث تغرب الشمس في حوالى الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة، وتشرق في السادسة، بينما ضوء النهار يبدأ بالبزوغ حوالى الخامسة وخمس وعشرين دقيقة. أي أن هناك ١٣ ساعة من الضوء. وقد غادر الهدهد مملكة سليمان منذ بزوغ ضوء النهار، واستمر في الطيران فترة وملاحقة الحشرات على الأرض فترة أخرى لمدة ثماني ساعات،على غير هدى أو وجهة محددة، وفجأة يجد نفسه قد وصل إلى سبأ في الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة بعد الزوال. وبقي يراقب الناس هناك لمدة ٣٥ دقيقة، ليبدأ رحلة العودة في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي تمام الساعة السابعة مساءً يصل إلى مملكة سليمان، بعد غياب الشمس بنصف ساعة، وبعد طيران متواصل لمدة خمس ساعات. قاطعاً مسافة تقدر بحوالى ٢٥٠ كيلو متر، على اعتبار أنه كان يطير بسرعته القصوى طوال الوقت.

ولأن سبأ معروفة المكان، فقد قمنا بوضع دائرة مركزها سبأ بنصف قطر يبلغ ٢٥٠ كم، مع ملاحظة أن عرض الخط يساوي ٢٠ كم. وقد مرت الدائرة على نجران وتعز، حيث وقعت نجران في منتصف الخط، مما يعني أنها تبعد ٢٦٠كم عن سبأ، بينما وقعت تعز على حد الخط من الداخل مما يعني أنها تبعد ٢٥٠ كم عن سبأ، بخط مستقيم. وبالقرب منها كانت إب في اليمن، التي تبعد ٢٠٠ كم. وداخل الدائرة كان هناك أربعة مواقع هي:

صنعاء ١٢٠ كم، ذمار ١٥٠كم، شبوة ١٩٠كم، وريدان ٢٠٠.

وأقرب مكانين معروفين خارج الدائرة، كانا:

شبام والتي تبعد ٣٦٠كم، وأبها والخميس بمسافة تبعد حوالى ٤٣٠كم.



ومن المستبعد أن تكون مملكة سليمان في تعز أو ذمار أو صنعاء، لأنها في أقصى الجنوب اليمني، ومحاطة بمناطق شديدة الوعورة، وفي منطقة تعتمد الزراعة على المدرجات الجبلية، التي تفرض نمطاً من الحياة يختلف عن نمط الحياة في الحواضر القائمة على ضفاف الأودية التي تتناسب مع حياة داوود وسليمان الملكية مع جيادهم ورياضاتهم الملكية. وشبام استبعدت للبعد في المسافة وفي الإتجاه، أما أبها والخميس فبعيدة جداً، إضافة إلى أنها في السراوت حيث نمط الحياة المختلف.

ولم يتبق إلا نجران، تلك المنطقة الموغلة في التاريخ، والتي شهدت أراضيها حضارات متتابعة، واعتادت الغزوات الخارجية والحكم الأجنبي. كما أنها دائماً منطقة صراع ديني.

وفوق كل هذا فالهدهد يمكنه الطيران والعودة منها أثناء ساعات النهار، بما يتوافق مع الافتراض الذي وضعناه.

فهل كانت نجران هي مملكة سليمان؟

ربما!

وليس هناك ما يمنع أن تكون. ولو أن جزيرة العرب بمستوى حضاري يؤهلها للبحث العلمي الدقيق عن آثار نجران وجنوب غرب الجزيرة، لوجدنا من يدعمنا في البحث والتنقيب، ويمدنا بما تحتاج من علماء ودارسين، ويمول المشاريع بكل ما يلزمه من مال. ولو قامت مثل هذه الرحلة الاستكشافية، فلا جدال في أنها ستعثر على آثار لداوود وسليمان في نجران.

ولابد من التوقف عند آية في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴿١٠٢﴾.

والآية تخاطب الرسول عن بني إسرائيل في يثرب، وأنهم لم يؤمنوا بدين الإسلام، وفضلوا إتباع ما تعلموه في عصر سليمان، وفي مملكة «بابل» التي فيها الملكان (بكسرة تحت اللام) هاروت وماروت اللذين يعلمان الناس السحر.

فمملكة سليمان قرب بلدة (مملكة) كان اسمها «بابل» في ذلك الوقت. وبلا شك فالمملكة التي أسسها داوود وورثها سليمان لم تكن قرب بابلون العراق (Babylon). ونترك البحث عن بابل اليمن إلى الدكتور كمال سليمان الصليبي كرجل اختصاص في هذا الموضوع.

وإذا كانت فترة موسى بعد غرق فرعون تعتبر الفترة الذهبية لبني إسرائيل تحت حكومة ليست إسرائيلية، فإن الفترة الذهبية لبني إسرائيل تحت حكم واحد منهم هي فترة حكم سليمان، الذي يعتبر ثاني حاكم من بني إسرائيل في التاريخ، بعد والده داوود. لذا استمر بنو إسرائيل بعد ذلك يحلمون بمملكة يحكمونها ويعيشون فيها، وتحول هذا الحلم إلى عقيدة، وتحولت هذه العقيدة الخيالية إلى أنها وعد من الله لهم بوطن قومي.

ولا يتحدث القرآن عما حدث بعد سليمان، لكن سورة بني إسرائيل تقول إنهم سيتعرضون لغزو خارجي للمرة الأولى، وهو الذي حدث بعد عصر موسى وعيسى، ونتج عنه نزوح بني إسرائيل من مصر وتفرقهم في مناطق مختلفة، كما سبق وذكرنا. وتقول الآيات أنهم سيعودون، أو أغلبهم للتجمع في مكان واحد وسيكون لهم قوة، وهذا ما حدث في مملكة داوود وسليمان، حيث كانت ملاذاً لبني إسرائيل الذين نزحوا إليها من كل مكان، فيما عدا من كانت هجرته إلى بلاد بعيدة. وتقول سورة بني إسرائيل أنهم سيتعرضون لغزو خارجي ثانٍ سيقضي على وحدتهم إلى الأبد وسيشردهم في كل الأصقاع: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴿٤﴾ فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً﴿٧﴾.

وبالفعل قضي على مملكتهم بفعل غزو خارجي. ولا ندري هل كان غزواً من جيش أجنبي كالأحباش أو الفرس أو الأقباط أو غيرهم، أم هو غزو داخلي من المناطق القريبة المحيطة بمملكة سليمان، أو كان نبوخذ نصر ـ ذائع الصيت ـ هو الغازي. المهم أنهم تعرضوا للتهجير وتشتت جموعهم في كل

اتجاه. ومن المؤكد أنهم سيبحثون عن المناطق التي يعيش فيها أناس من بني إسرائيل ممن هاجر في عهد مضى وقبل عقود عندما تم غزو بلادهم مصر والاستيلاء عليها بعد عصر موسى وعيسى.

وهكذا تشتت شمل بني إسرائيل بظلمهم وإفسادهم في الأرض وبعدهم عن دين الله، فمنهم من اتجه إلى عمق الأراضي اليمنية، ومنهم من سلك طريق اللبان والبخور الدولية، سواء تلك المتجهة إلى العراق، أو للشام. ومن سلك هذه الطريق، فمن المؤكد أن بعضهم استقر في يثرب، وخيبر وتيماء ووادي القرى، حيث استوطن بعض بني إسرائيل الذين فروا من أوطانهم بعد الغزو الأول على بلادهم مصر. والبقية واصلوا المسير إلى بلاد الشام والقبط وشمال أفريقيا. أما من ذهب للعراق فالبعض استقر هناك، والبعض منهم استقر في فارس، وآخرين في بلاد الخزر. ولا بد أن من استقر في فلسطين وبالذات في ما يسمى اليوم بالقدس، كانوا يتمتعون بحرية تامة، فأقاموا معابدهم وسموا أماكنهم بمسميات مشابهة للأماكن التي كانوا يعيشون فيها في بلادهم الأصلية. لذلك ضمت القدس أكبر تجمع لبني إسرائيل ولليهود من أي مكان آخر، وأصبحت مشهورة ومعلومة لكل بني إسرائيل واليهود في كل مكان.

والشتات الأخير قضى على بني إسرائيل كأمة واحدة يتكلمون لغة واحدة، برغم أنهم اعتادوا العيش في تجمعات مغلقة لا يختلطون بأهل البلاد التي يعيشون فيها[١]. وفي كل مكان يعيشون كانت ثقافتهم ولغتهم وعقائدهم تتأثر بالبيئة المحيطة، ولم يعد لهم صلة بأصلهم العربي ولا بلغة أجدادهم العربية. بينما حافظ بنو إسرائيل واليهود والنصارى عموماً الذين استقروا في شمال الحجاز، مثل يثرب، خيبر، تيماء، ووادي القرى على لغتهم وعاداتهم العربية، إلى ظهور محمد.

---

(١) اشتهر اليهود بتجمعاتهم المغلقة منذ القدم، ويطلق على الحي اليهودي Ghetto.

ولا بد من الإشارة على أن مملكة سليمان وداوود التي يتغنى ببعثها اليهود، قامت في «نجران» وهي بلاد غريبة عن موطن بني إسرائيل زمن موسى وهو «مصر». وحتى مصر لم تكن بلداً أصلياً لبني إسرائيل بل هم يعتبرون نازحون إليها، عندما استقدم يوسف والده واخوته إليها. وبلدهم الأصلية هي قرية السوء، التي خرج منها إبراهيم مهاجراً لبيت الله «مكة».

وسنعود للحديث عن بني إسرائيل زمن رسول الله، ضمن أحداث المدينة.

بنو إسماعيل

بعد أن خرج إبراهيم من قرية قومه، واستقر في مكة، جاءته البشرى بغلام: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾ الصافات.

وكان هذا الغلام إسماعيل، الذي ولد في مكة، وترعرع فيها، وعندما أصبح صبياً، رأى إبراهيم في المنام أنه يؤمر بذبح ابنه كقربان لله. وإسماعيل كان في تلك اللحظة ابنه الوحيد الذي لم يرزق بغيره برغم مرور السنين على مولده، مما يظهر كم كانت منزلة إسماعيل عند والده في مجتمع يهتم بالأبناء الذكور ويفاخر بهم، وكم كان فقدانه لابنه الوحيد فاجعة لا يقوى على مواجهتها. ولكنه كان مسلماً تقياً، أسلم مشيئته لله، ولم يعد أي شيء في الدنيا يمنعه من طاعة الله، أو يغريه بمعصيته: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾ الصافات.

وإسماعيل كان مثل والده في الاستسلام لإرادة الله دون اعتراض: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴿١١٣﴾ الصافات.

ولأن إبراهيم قد خضع لإرادة الله وكان سيضحي بأغلى شيء عنده في حياته، فقد أمر بذبح كبش كقربان لله بديلاً عن ابنه. وبطبيعة الحال الكبش لم ينزل من السماء كما تتحفنا كتب السير والتفسير، ولكن إبراهيم أمره الله أن يبحث عن كبش يذبحه كفداء عن ابنه. ثم كافأه الله بابن آخر هو إسحاق، كمكافأة له على الاستسلام لإرادة الله. فأصبح له ولدين ذكرين، يمكنه أن يفاخر بهما، عوضاً عما كان سيحدث، ويفقد ابنه الوحيد، ويبقى دون ولد.

والبشرى بإسماعيل، لا يفطن لها الناس، لأن الموروث مسخ عقولهم، وجعلهم يفكرون في إسحاق فقط، عند ذكر البشرى، مع أنهم يقرأون آيات سورة الصافات التي بين أيدينا.

وحادثة الذبح والفداء، وقعت أثناء وقت الحج، بدليل قوله «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ»، وقام إبراهيم بذبح الكبش الذي أمر بذبحه بديلاً لإسماعيل، أثناء فترة الحج. ويبدو أن اليوم الذي ذبح فيه إبراهيم الكبش، هو ما أصبح يسمى يوم النحر، وتوارثه الناس منذ عهد إبراهيم. وأصبح نحر الهدي جزءاً من أعمال الحج. أما ما شاع بين الناس من نحر الأغنام أيام عيد الأضحى، من غير الحجاج، فلا أصل له في دين الله، وقد يكون تجاوزاً لمفهوم الهدي.

وقد عاش إسماعيل في مكة التي ولد فيها طوال حياته، ومات هناك، واستمر أبناؤه يتوارثون حقهم الإلهي في خدمة البيت وخدمة الحاج، حتى ظهور محمد.

إبراهيم وإسماعيل كانا مسؤولين عن صيانة البيت وخدمة الحجيج، بعهد من الله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿١٢٥﴾ البقرة.

والتكليف الإلهي بالقيام على نظافة البيت وصيانته وخدمة الحجاج، الذي تشرف إسماعيل بحمله، تسبب بشحناء بينه وبين أخيه إسحاق، أدت إلى مغادرة إسحاق لمكة، كما سبق وذكرنا. وبقي في مكة إسماعيل وبنيه الذين رزق بهم أثناء حياة والده إبراهيم، المقيم معهم في مكة، حتى توفي فيها، على ما يبدو. وإن كان يزور إسحاق وبنيه بين الفينة والأخرى. ومما يدل على أن إبراهيم كان يعيش في مكة في آخر أيامه، أنه أثناء إحدى المرات التي كان مع إسماعيل يقومان ببعض الإصلاحات في البيت، دعا ربه أن يحفظ ذرية ابنه إسماعيل وأن يرسل في أجيالهم اللاحقة رسولاً منهم، حتى يعيدهم للحق. لأنه يعلم أن الناس تبتعد عن الدين مع مرور الوقت: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴿١٢٩﴾ البقرة.

ولم يأت ذكر لإسحاق وبنيه لأنه قد خرج من مكة ولم يبق فيها سوى إسماعيل وبنيه.

وقد ورّث إسماعيل أبناءه هذا الحق المقدس، فبقيت خدمة البيت والحجيج تتوارثها الأجيال من نسل إسماعيل حتى ظهور الإسلام: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٩﴾ التوبة.

كما أن الإسلام الذي جاء به محمد القرشي هو نفسه دين أبيه إبراهيم: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ. . . . ﴿٧٨﴾ الحج.

بل إن من سمى من يؤمن بدين الله، مسلمين، هو إبراهيم: ﴿. . . . هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٧٨﴾ الحج.

لكن الأجيال المتتالية بعد إسماعيل ابتعدوا عن الدين وتحولوا للوثنية، ولم يبق من دين إبراهيم عند قريش إلا خيال مشوش: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴿٣٥﴾ الأنفال.

وتكون قريش قد ورثت عن أبيها إسماعيل الوطن واللغة والتراث وخدمة البيت، والدين، الذي انحرفوا عنه. فجاء محمد ليعيدهم لدين الأجيال الأولى من آبائهم المسلمين: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿١٦١﴾ الأنعام.

وفيما يلي بعض المظاهر السائدة في مكة قبل الإسلام:

مساكنهم وطريقة حياتهم

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴿٨١﴾ النحل.

* كانوا يسكنون البيوت. ويمكن أن تكون بيوتهم مبنية من الطين، لأن المنطقة ليست مطيرة. أو من الحجر، لأن المنطقة صخرية، أو منهما معاً.

* كما كانوا ينسجون من جلود الحيوانات خياما، وليس من الأصواف والأوبار كما يفعل البدو. ويستخدمون تلك الخيام في الترحال للسفر أو الرعي.

* وأيضا يصنعون من أصواف الأغنام، ووبر الجمال، وشعر الماعز، سجاداً ومقاعداً وفرشاً للجلوس والنوم.

* ويستعملون الكهوف ليس للإقامة الدائمة ولكن ليستريحوا فيها في سفرهم وترحالهم.

* ويلبسون ملابس تغطي الجسد، كما كانوا يلبسون الدروع الواقية في الحروب.

فهم قوم حضر، لم يعرفوا البداوة في تاريخهم، مثلما كان أبوهم إبراهيم حضرياً يعيش في قريته التي يعتمد أهلها الزراعة والرعي.

وما يؤيد أن قريش كانت من أهل الحضر ولم تعتد حياة البادية ولا طريقة البدو في التعامل، أن محمداً صُدِم من تعامل الأعراب الفظ، عندما وصل المدينة مهاجراً، والذي لم يعتده، كما تخبرنا سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾.

نشاطهم التجاري

أرض مكة جرداء لا تصلح للزراعة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴿٣٧﴾ إبراهيم.

وقريش منذ عصر إسماعيل وهم يقومون على خدمة الحجاج ويقدمون لهم الطعام والماء، ولا يتقاضون مقابل مادي نظير خدماتهم، برغم تكاليفها الباهظة. وهو ما يعني أن الحج لم يكن مصدر دخل لقريش، ولم يحول مكة لسوق تجارية، لأن غالبية الحاج فقراء يحضرون لمكة للاستفادة من الخدمات المجانية التي تقدمها لهم قريش. فالحج الذي شرعه الله لم يحول مكة لسوق تجارية، ولكنه حولها إلى ملجأ للمساكين والفقراء الذين يحضرون في موسم الحج للتعبد في بيت الله. كما أن أرض مكة ليست شحيحة في المياه فقط، بل وفي كل الموارد، ولا يمكن أن تقدم لأهلها أي مورد دخل يقيم أودهم، فضلًا عن تحويلهم لأثرياء. ومع ذلك فقد كان كبراء قريش من ذوي الثراء الفاحش، مكنهم من الصرف على خدمات البيت والحج بسخاء، والعيش حياة بذخ وترف.

والقرآن يقول لنا أنه كانت لهم رحلات تجارية منتظمة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴿٢﴾ قريش.

كما أنهم كانوا يتاجرون في سوق عكاظ التي تبعد عنهم مسيرة يومين أو ثلاثة، وكانت تلك السوق تقام لمدة أيام فقط في السنة، ومع ذلك فهذه التجارة الموسمية هي التي جعلتهم من ذوي الثراء الفاحش، ومكنتهم من الصرف على خدمات البيت والحج بسخاء.

وللتعرف على التجارة التي تمارسها قريش، علينا أن نربط بين إقامة سوق عكاظ في وقت محدد من السنة، وبين مرور طريق قوافل البخور واللبان بالسوق وبالقرب من مكة متجهاً إلى الشام، وسنخلص إلى أن قريش كانت تتاجر بهذه المنتجات، وتوارثتها كابراً عن كابر.

والمؤرخون يقولون أن سوق عكاظ تقام قبيل موسم الحج كل عام، وهذا الكلام لا يعتمد على أساس، وليس له سبب مقنع. فلماذا تقام سوق عكاظ قبل الحج ويحضرها تجار قريش، في الوقت الذي كان عليهم أن يبقوا في مكة

يستعدون لخدمة الحجاج التي وكلوا بها؟ وسوق عكاظ تقام في وقت محدد في العام، أي في موسم ثابت، لكنه ليس قبل الحج. فالحج يكون في الأشهر القمرية، أما مواسم المحاصيل والمنتجات الزراعية فيعتمد التقويم الشمسي، وبالتالي فهو ثابت بالنسبة للسنة الشمسية، متغير بالنسبة للسنة القمرية. أما الحج فهو ثابت بالنسبة للسنة القمرية ولكنه متغير بالنسبة للسنوات الشمسية. وإذا ما عرفنا أن البخور واللبان يجمع محصوله في شهر أبريل / نيسان الشمسي من كل عام، وعرفنا أيضاً أن القوافل تمر بسوق عكاظ في طريقها للشام، وقُرِن هذا مع ثراء قريش. أمكن أن نقول إنهم كانوا يعملون كتجار وسطاء. يشترون البخور واللبان من المنتجين والمستوردين في جنوب جزيرة العرب، ويبيعونه في بلاد الشام على المستوردين من أوروبا. وتكون سوق عكاظ تقام في الفترة التي تصل فيها قوافل البخور. وهناك يتم البيع مرة أخرى لتجار آخرين ينقلونه للشام. وقد يكون بعض رجال قريش يرتحلون إلى جنوب جزيرة العرب ـ السفوح الشرقية ـ وهناك يشترون اللبان من المنتجين والبخور والبهارات من المستوردين له من بلاد الهند، وينقلون حمولاتهم مع غيرهم من تجار آخرين من غير قريش إلى سوق عكاظ. وفي سوق عكاظ يقوم التجار من غير قريش ببيع ما اشتروه من لبان وبخور لتجار من قريش، الذين ينقلونه مع الكميات التي سبق واشتروها إلى بصرى الشام، وهناك تباع على المشترين الذين ينقلونها لأوروبا.

وتجارة اللبان والبخور قديمة، قدم التاريخ، لذا فمن المرجح أن عشيرة إبراهيم كانوا يتاجرون بها، خاصة وأن قريتهم تقع على طريق القوافل المحملة بهذه المنتجات. وهو ما يفسر قدرة إبراهيم العيش في مكة الجرداء، وتملكه قطيع من الماشية. وقد ذكر كتاب اليهود المقدس أن إبراهيم كان يمتلك الأموال الطائلة[1].

---

(١) ذكر بعض ما ورد في كتاب اليهود المقدس من باب الاستشهاد بكتاب تاريخي، وإن حوى الكثير من الأكاذيب فقد يكون فيه بعض الحقائق ولو كانت مشوهة.

ويبدو أن بنو إسماعيل قد استمروا بممارسة تجارة الأجداد، وتوارثتها أجيالهم. والقرآن يقول إن قريش كانت لها رحلات موسمية في الشتاء والصيف في سورة قريش، ويقول في سورة العنكبوت أن قريش تمر بمساكن عاد: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴿٣٨﴾ العنكبوت.

ومساكن عاد في الأحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴿٢١﴾ الأحقاف.

والأحقاف هي مناطق التقاء السفوح الشمالية لجبال حضرموت، والسفوح الشرقية لجبال اليمن. والممتدة من سبأ باتجاه الشرق، والتي تتخللها الأودية المنحدرة باتجاه الربع الخالي، وتغطي أراضيها الرمال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴿٢٥﴾ الأحقاف.

في تلك المنطقة كانت الأسواق التي يبيع فيها منتجو اللبان محاصيلهم، وتجلب لها محاصيل البخور والبهارات من الهند. ويبدو أن رجال قريش أصبحوا يحضرون لتلك الأسواق، مارين بمساكن عاد. ثم يعودون لسوق عكاظ حيث يبيعونه لرجال آخرين، ينقلونه إلى أسواق بصرى الشام ليبيعونه هناك على التجار القادمين من أوروبا. وستتعرف على المكان الذي تجلب له منتجات اللبان والبخور والبهارات في أقصى الجنوب الغربي لجزيرة العرب، فيما بعد.

وأصبح سادة قريش يتباهون بكثرة أولادهم وأموالهم: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴿١٥﴾ المدثر.

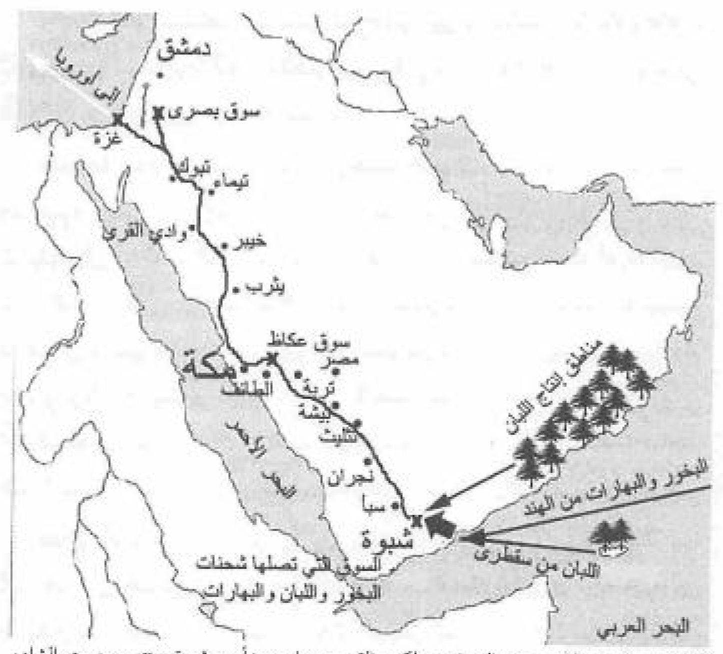
وامتلكوا كل المظاهر المصاحبة للثراء من العبيد والإماء والأنعام والأثاث وغيرها: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴿٥٦﴾ المؤمنون.

ونتيجة للعناية بالبيت الحرام وخدمة الحجاج، وانحدارهم من نسل إبراهيم، أصبح لبني إسماعيل نظرة تعظيم من كل سكان جزيرة العرب، تحولت إلى ما يشبه التقديس الذي استفادوا منه. فعاشوا سادة أعزاء آمنين سواءً كانوا داخل حرم بيت الله الذي نذروا أنفسهم سدنة له وخدماً لحجيجه، أو في ترحالهم خارج مكة. فلم تكن تتعرض قوافلهم للنهب ولا نساؤهم للسبي ولا رجالهم للحروب. فكان الانتماء لقريش جواز سفر دبلوماسي اعترف به كل سكان جزيرة العرب سواءً كانوا من البدو الذين تعتمد حياتهم على السلب والنهب، أو من شعوب الممالك المستقرة والمتحضرة.

فعاش أهل مكة برغد عيش، ولم يتعرضوا لحروب أو اجتياحات أجنبية كما حل ببني إسرائيل. ولعل حملة أبرهة كانت المحاولة الأولى والأخيرة قبل الإسلام لغزو مكة، والتي انتهت بهلاك الجيش الغازي نتيجة ثوران بركان قبل دخولهم البلدة الحرام: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴿٥﴾ الفيل.

ولم يكن أمن وأمان مكة ومن فيها بسبب حلف فضول، كما يقول الإخباريون، ولكن لأنها بلد آمن منذ ظهرت على الوجود.

وفيما يلي صورة فضائية من موقع قوقل إيرث وقد بينا عليها طريق تجارة اللبان والبخور وهي التجارة التي مارستها قريش عبر مئات السنين:



⁂ طريق التجارة لا يمر عبر الحواضر ولكن بالقرب منها، ويبدأ من شبوة وينتهي ببصرى الشام، مروراً بسوق عكاظ.

ومن المناسب أن نذكر هنا أننا استعنا برسم طريق تجارة اللبان والتوابل والبخور بحولية الآثار العربية السعودية ـ أطلال ـ حيث نشر في الأعداد ١٦، ١٧، ١٨، تقرير عن مسح طريق التجارة القديم، وقد قام بالمسح مجموعة تابعة لوكالة الآثار والمتاحف وأعطوا إحداثيات للمواقع التي زاروها أثناء تتبع الطريق. وقد قمت بإنزال الإحداثيات على صورة فضائية من قوقل إيرث، وتبين أنها بالفعل تظهر مسار جزء كبير من طريق التجارة القديم، ومسارات فرعية أخرى قادمة من السروات تتصل بالطريق، وقد تقطعه للحواضر التي تقع إلى الشرق. وبكل تأكيد هناك طرق كثيرة قديمة تصل الحواضر ببعض وبالسروات، وبالعراق واليمامة وهجر والبحرين.

كما استعنت ببحث قيم قدمه عبدالله بن محمد الشايع بعنوان عكاظ ـ الأثر المعروف سماعاً المجهول مكاناً. ومن بحوث الدكتور عبدالرحمن الأنصاري، وآخرين.

وإن كان طريق اللبان والبهارات والبخور يمر بالقرب من مملكة سبأ القديمة، فلابد أن هناك سوق لشراء المنتجات من المنتجين تقع أبعد من سبأ إلى الشرق. وقد اعتقدت لفترة أنها شيبام، لكن بعد بحث وتحر مكثف اتضح لي أنها شبوة، لعدد من العوامل، منها:

* أن شبوة كانت العاصمة القديمة لحضرموت لفترة طويلة من الزمن.

* أنها أقرب للبحر حيث تتلقى شحنات البخور والبهارات من الهند.

* أن الرحالة والمؤرخين اليونان والرومان، أمثال هيرودوت، استرابون، ارتيميدوس، بطليموس، وبوليبيوس قد ذكروا أن حمولات اللبان تصل إلى شبوة من مناطق إنتاجه في المهرة وظفار وحضرموت، مثلما يصلها البخور والبهارات من الهند ولبان سقطرى من الموانئ التي ترسوا بها السفن على سواحل البحر العربي، ومن هناك ينقل بواسطة الجمال إلى شبوة حيث يجمع المحصول على شكل أكوام يوضع على كل كوم منها لوحة تشير إلى وزنها وسعرها ويتجول التجار بينها ويضعون على اللوحة السعر الذي يريدون الشراء به. وعندما تتم صفقات البيع والشراء يقوم التجار بتحميل شحناتهم على الجمال سالكين الطريق التجارية القديمة مروراً بقتبان ومعين.

والملاحظ أن الطريق لا تمر عبر الحواضر ولكن بالقرب منها وعلى بعد عدة كيلومترات، وهذه الظاهرة مستمرة من سبأ، نجران، بيشة، تربة، مكة، يثرب، خيبر، وادي القرى، وتيماء. قبل أن تصل إلى بصرى أو غزة، وهناك تباع الحمولة إلى التجار الذين ينقلونها إلى أوروبا. ولابد أن هناك عكاظ كانت سوقاً لإعادة بيع الشحنات ممن اشتراها من شبوة، إلى تجار قرشيون سينقلونها إلى بصرى وغزة في طريقها لأوروبا.

كما أن هناك طريق أخرى، وإن كانت أقل أهمية تحمل اللبان إلى بلاد فارس، وتتفرع من الطريق الرئيسية بعد تجاوزها نجران، مروراً بالقرب من ذات كاهل ثم اليمامة ثم إلى الشمال حيث تقطع نفود الدهناء باتجاه المدائن، التي كان اسمها القديم قطسيفون، وتسمى اليوم سلمان باك. وكانت مقر كسرى أنوشروان زمن رسول الله. والمدائن ترتبط مع مكة بعلاقات تجارية وطريق قائم، هو نفس الطريق الذي جددته زبيدة زوج الرشيد لأنه يربط بغداد بمكة، وذلك تحسباً فيما لو عادت هي أو بعض أسرتها الحاكمة لمكة، فجعلت الطريق مريحة للسفر، حيث أمرت بإقامة فنادق للمبيت والراحة يتوفر فيها الطعام، وأماكن لراحة الدواب وأعلافها، وبرك للمياه لسقي المواكب الملكية ودوابهم في المقام الأول.

تعاملاتهم المالية

دين إبراهيم ـ الإسلام ـ يقوم على صلة مستمرة بين الله والعبد عن طريق العبادات، وصلة مستمرة بين العباد عن طريق الإنفاق، الذي يدفعه القادر للمحتاج: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣﴾ البقرة.

لكن بني إسماعيل تركوا هذا الأمر الهام: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٤٧﴾ يس.

وحرصوا على جمع المال بكل الطرق: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴿٢٠﴾ الفجر.

وكان الربا منتشراً بينهم: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴿٣٩﴾ الروم.

وكذلك الميسر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٩٠﴾ المائدة.

والغش التجاري: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٦﴾ المطففين.

وأصبحوا رأسماليين، لا يهتمون بالفقير والمسكين، كما وصفتهم سور كثيرة، منها الفجر: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴿٢٠﴾.

عقائدهم

عندما ظهر الإسلام كان قد مر على عهد أبيهم إبراهيم فترة طويلة، يقول التاريخ الذي يعتمد كتب اليهود المقدسة إنها تقرب من ٢٥٠٠ عام. تعرض أثناءها التراث، من عادات وعقائد، للتغير والتحول. وسادت الوثنية كبديل لدين الله الإسلام الذي كان يدين به إسماعيل والأجيال الأولى من نسله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴿٤٤﴾ الأنبياء.

دون أن يرسل لهم طوال تلك الفترة، رسول ـ قبل محمد ـ يعيدهم لدين أجدادهم: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴿٤٤﴾ سبأ.

لقد جرت سنة الأولين على بني إسماعيل، وبدأت أجيالهم تميل عن دين الله إلى عقائد بديلة، حتى تحولوا للوثنية: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴿٤٤﴾ الأنبياء.

وكان العقلاء منهم يتمنون لو يبعث فيهم رسول ينير لهم طريق الصواب:

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴿١٦٩﴾ الصافات.

وفيما يلي بعضاً من المعتقدات التي كانت سائدة في مكة عند ظهور الإسلام:

* كانوا يؤمنون بوجود الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴿٩﴾ الزخرف.

* وكانوا يؤمنون أن هناك رسل من الله أرسلت لأمم سابقة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴿٤٣﴾ فاطر.

* وممن أرسل لهم رسل أبناء أعمامهم، بنو إسرائيل: ﴿أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴿١٥٧﴾ الأنعام.

* لكن بنو إسماعيل في عصور لاحقة، اعتقدوا أن هناك آلهة متعددة مع الله، كإله للمطر، وآخر للجبال، وثالث للريح.....: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى

اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٦٤﴾ النمل.

* وعبدوا الأصنام بحجة أنها تشفع لهم عند الله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٤٤﴾ الزمر.

برغم أنهم يعلمون أن عبادتها شرك توارثوه عن آبائهم: ﴿أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴿١٧٣﴾الأعراف.

وكان من أهم أصنامهم، مناة، واللات، والعزى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴿٢٠﴾ النجم.

* واتبعوا تشريعات رجال دينهم من دون تشريعات الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٢١﴾ الشورى.

مع أن الله جل وعلا لم يسمح بتشريعات غير ما يشرعه سبحانه: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴿٤٥﴾الزخرف.

* وظنوا أن الملائكة بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴿٩٥﴾ مريم.

* وكان البعض منهم يدين بمعتقدات لا يدين بها البعض الآخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴿١٥٩﴾ الأنعام.

وكل فريق يظن أنه هو على الحق دون غيره: ﴿...... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴿٣٢﴾ الروم.

* ويؤمنون بالحظ والطالع والتفاؤل والتشاؤم: ﴿.............وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴿٣﴾ المائدة.

* وكانت تسيطر على عقولهم الخرافات والخوف من الشياطين والأرواح الخفية، لدرجة أنهم عندما يهبطون وادياً في ترحالهم يرددون عبارات مثل: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه[1]» ظناً منهم أن شياطين الجن ستؤذيهم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴿٦﴾ الناس.

* وكانوا يعتقدون بقدرة الجن على التأثير عليهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴿٦﴾ الجن.

ومن معتقداهم الشعوذة والكهانة، ويظنون أن لها القدرة على الإضرار بالناس أو تسييرهم بخلاف رغباتهم: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴿٤﴾ الفلق.

ومن الطقوس التي بقيت من دين إبراهيم:

الحج

عبادة موجودة قبل إبراهيم: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿٢٦﴾ الحج.

والحج يقوم على الطواف حول الكعبة، والبقاء في البيت لذكر الله

---

(١) كما ورد في كتب الأخبار، وليس بالضرورة أن العبارة المذكورة هي التي كانوا يستخدمون، لكنهم كانوا بالفعل يعوذون بالجن ظناً منهم أنهم قادرون على حمايتهم أو الإضرار بهم.

وتسبيحه، والصلاة في المسجد الحرام: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿١٢٥﴾ البقرة.

والسعي بين الصفا والمروة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴿١٥٨﴾ البقرة.

ونحر الهدي من الأنعام، كشكر لله على ما رزقهم منها ومن النعم، وليطعموا منها الفقراء: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴿٢٩﴾ الحج.

وكان الناس ينذرون النذور «لإن حصل لنا كذا لنحجن للبيت»: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴿٢٩﴾ الحج.

ومما دخل الحج من معتقدات وثنية، ما عرف بالنسيء: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿٣٧﴾ براءة.

واستحلال قتل الصيد أثناء الإحرام بالحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴿٩٥﴾ المائدة.

والرفث والمشاحنات والفسوق: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴿١٩٧﴾ البقرة.

من طعامهم وشرابهم

لقد أحل بنو إسماعيل بعض ما حرم الله وحرموا بعض ما أحل الله، ومن ذلك:

* أنهم كانوا يحلون أكل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والجيف التي أكل السبع. وكانوا ينحرون القرابين على النصب للآلهة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٣﴾ المائدة. ٣.

* ويخصصون بعض القرابين الحيوانية لله دون أصنامهم، وبعضها لأصنامهم دون الله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴿١٣٦﴾ الأنعام.

* وينحرون ذبائحهم دون ذكر اسم الله عليها: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴿١٢١﴾ الأنعام.

* ويحرمون بعض الحيوانات على فئة من الناس منهم دون فئة، ويحرمون بعض أجزاء الذبيحة الواحدة دون الأجزاء الأخرى، وبعضها يذكرون اسم الله عليه دون البعض الآخر: ﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴿١٣٨﴾ الأنعام.

* ويحرمون بعض الحيوانات وهي في بطون أمهاتها على النساء دون الرجال، ويبيحون أكله للجميع إن خرج ميتاً: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ

الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ﴿١٣٩﴾ الأنعام.

* ويحرمون بعض الطعام اعتمادا على اتفاق بينهم، لم ينزل الله به من سلطان: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴿١١٦﴾ النحل.

* ولهم معتقدات أخرى في الأنعام الحية ذكرت في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴿١٠٣﴾ المائدة.

* كما أنهم يعاقرون الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٩٠﴾ المائدة.

* ويقترفون الفواحش: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾ الأعراف.

ومن المظاهر الاجتماعية والعادات المكية، ما يلي:

* كانت قريش تفضل الأولاد الذكور على الإناث، لدرجة أنه: ﴿.. إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴿١٧﴾ الزخرف.

* وكانوا يتفاخرون بكثرة الأولاد الذكور: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴿٥٦﴾ المؤمنون.

بينما اعتبروا البنت مصدراً للعار، ومن المعتاد أن يئد الرجل ابنته حال ولادتها: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴿٥٩﴾ النحل.

* ومثل وأد البنات، كانوا في بعض الأحيان يقتلون أولادهم الذكور إذا ولد الولد وأبوه فقير، خوفاً من الإملاق والعوز: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً﴿٣١﴾ بني إسرائيل.

وما قدمناه عن قريش أقل ما يمكن أن نقدمه عن حياة قريش عندما ظهر الإسلام، وسنقدم تفاصيل أخرى عنهم عند تناولنا للأحداث التي وقعت في مكة والمدينة أثناء الدعوة.

مسخ الحقائق

أصبح ابن إبراهيم البكر، إسماعيل، في منتصف العمر، وله أولاد، وأحفاد، يتولون معه رعاية البيت وخدمة الحجيج التي سبق وكلفه الله بها، مع والده إبراهيم: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿٢٨﴾ البقرة.

في الوقت الذي تزوج فيه أخوه الأصغر إسحاق ورزق بابنه يعقوب. ويبدو أن إسحاق حاول أن يكون له دور في صيانة البيت وخدمة الحجاج، إلا أن إسماعيل أخبره أن هذا العمل مسؤولية حصرية لآل إسماعيل، بتكليف من الله، ولا حق لإسحاق فيه. مما أثار غضب إسحاق وقرر مغادرة مكة وعدم البقاء في مكان واحد مع إسماعيل.

وبالفعل بقي إسماعيل وبنيه في مكة بعد وفاة إبراهيم، واستمروا يقومون على البيت حتى ظهور محمد. أما إسحاق فقد اختار التزوح بأسرته للبادية، والعيش بين الغنم والإبل، وهو ما يتضح من قوله تعالى على لسان يوسف مخاطباً أبيه يعقوب وإخوته عندما أحضرهم من البدو للعيش معه في مصر: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ

﴿الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴿١٠٠﴾ يوسف.

فيعقوب ابن إسحاق قدم وأسرته من موطنهم الذي استوطنوه بعد نزوحهم من مكة، وهذا الوطن كان في البادية «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ». وكانوا يستخدمون الإبل في ترحالهم ونقل أمتعتهم: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴿٦٥﴾ يوسف.

وقد ولدت هذه الحادثة حقداً عند بني إسحاق (بني إسرائيل) على بني إسماعيل وتوارثته أجيالهم، وحرصوا على تغذيته على مر العصور. فقاموا بنسبة كل ما اعتبروه إهانة لإسحاق على أنه لم يحدث له ولكنه حدث لإسماعيل. وعكفوا على مسخ تاريخ إسماعيل وإلصاق كل العيوب فيه، ونسبة فضائله لأخيه إسحاق، ثم استمروا بمسخ حقائق التاريخ لإضفاء العظمة على تاريخهم، وأنه أصل البشرية ولم يكونوا أفراداً من قبيلة بدوية ثم قلة مستعبدة في مصر، ثم منبوذين من غيرهم عندما تعرضوا لغزوات قضت على تجمعهم وكيانهم، وتعرضوا لشتات قل أن تعرضت له قبيلة غيرهم في تاريخ المنطقة.

وفيما يلي بعضاً من هذه المغالطات التي تبناها العالم بأسره، ومن ضمنهم المسلمين:

أم إسماعيل

مع أن إبراهيم لم يتزوج إلا بزوجة واحدة، كما سبق وذكرنا، إلا أن بنو إسرائيل نجحوا في ترسيخ ثقافة أن إسماعيل ابن أمة رقيق، تسرى بها والدهم إبراهيم لأجل أن تلد له، بعد أن أصبحت أمهم الحرة عجوز عقيم. لكن أمهم شعرت بالغيرة لما رأت تعلق إبراهيم بالوليد، فطلبت منه التخلص من الأمة

وولدها، فامتثل إبراهيم لرغباتها، بل ويبارك الله جل جلاله هذه الخطوة اللا ـ إنسانية، لأنها رغبة أم بني إسرائيل ضد أم بني إسماعيل.

وهذا ما ورد في كتابهم المقدس: «ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لان ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحق. فقبح الكلام جدا في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من اجل الغلام ومن اجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك. فبكر إبراهيم صباحا واخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس. لأنها قالت لا انظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت. فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها ما لك يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به. لاني سأجعله امة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من ارض مصر (التكوين: ٢١: ٩ ـ ٢١)».

وتراثنا تأثر بالإسرائيليات لدرجة أصبح فيها ملوكياً أكثر من الملك، واختلق قصة تفوق خيال بني إسرائيل، عندما قال أن إبراهيم سافر من فلسطين إلى مكة التي تبعد أكثر من ١٥٠٠ كم، لكي يترك ابنه الرضيع وأمه في أرض لا ماء فيها ولا كلأ. دون خجل أو وجل في نسبة هذا التصرف البعيد عن الإنسانية والدين لخليل الرحمن.

وقد تعمد بنو إسرائيل اختلاق هذه القصة في كتابهم المقدس لكي تقلب

الحقائق. فإسحاق هو من طرد من مكة، بسبب إسماعيل، وهو من عاش في البرية وراء الغنم، كما يروي كتاب الله. بينما قصتهم المختلقة جعلت إسماعيل هو المطرود، وهو من عاش في البرية. وإمعاناً في الإهانة، قالت قصصهم المختلقة إن أم إسماعيل ليست زوجة لإبراهيم، ولكنها جارية تسرى بها ثم طردها مع ابنها. لإظهار إسحاق، وليس إسماعيل، وكأنه الابن البكر لإبراهيم، برغم ولادة إسماعيل قبله. والابن البكر له منزلة مميزة لا زالت حية في جزيرة العرب إلى اليوم، ذلك أن الأب يسمى بوالد ابنه البكر. فلو كان البكر اسمه محمد فالوالد سيكنى أبا محمد، ولو رزق بمئة ولد ذكر بعده، أو مات الولد البكر. ولأن لقب إبراهيم في حياته كان «أبو إسماعيل»، فقد حاولوا مسخ هذه الحقيقة بالقول إن إسماعيل لم يكن أخاً لإسحاق، بل كان ابن أمة، وبالتالي فهو ليس خالص النسب، كما أنه قد أبعد للبرية وهو رضيع وبالتالي فلقب إبراهيم يجب أن يكون «أبو إسحاق»، ولده النقي النسب والذي عاش طوال حياته معه. وبطبيعة الحال فالذي عاش طوال حياته مع والده كان إسماعيل.

أمهم اسمها سارة

ولم يعد أحد يشك للحظة أنه حتى اسم سارة مختلق، ولم يذكر الله لا في التوراة التي نزلت على موسى ولا في القرآن اسم زوج إبراهيم. وما «سارة» إلا تحوير للفظ ورد في التوراة وفي القرآن، يصف تصرف زوج إبراهيم عندما سمعت الملائكة تبشرها بإسحاق «فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ»، وذلك كما ورد في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴿٣٠﴾.

فتحول لفظ «صَرّة» (بفتح الصاد) إلى «سارة». مع أن معنى الآية أن المرأة جاءت في صرة، أي وهي تنتفض كما لو كانت تصر أو تنتفض من البرد. ولأن من قرأها من أجيال متأخرة من بني إسرائيل قد فقد لغته العربية وحسها اللغوي، فمن السهل إقناعه أن المرأة اسمها سارة، خاصة أن صرة، وسارة متقاربان في النطق. ومنذ تلك اللحظة أصبح اسم زوجة إبراهيم «سارة».

زوج إسماعيل مصرية

وقالوا في كتابهم المقدس أن إسماعيل تزوج بمصرية، ويبدو أن يعقوب هو من تزوج بمصرية، وليس إسماعيل. لأن إسماعيل عاش في مكة طوال عمره ولم يخرج منها، ومكة بعيدة عن مصر. بينما عاش يعقوب مع والده في البرية يرعون الغنم، في منطقة قريبة من مصر، كما سنتبين لاحقاً، وبالتالي فزواجه من مصر محتمل. لكن بما أن مصر أصبحت بلداً ملعوناً في تاريخ بني إسرائيل فيما بعد فليس من اللائق أن يكون في دم بني إسرائيل دم مصري. أما لو نسب لإسماعيل زواجه بمصرية فهو ملعون كما المصريين، في نظرهم، وقد وافق شن طبقة.

ولأن كتابهم المقدس، كتبته أيد كثيرة متباينة وفي عصور مختلفة، فإننا نجده يقول أن إسماعيل قد تركه إبراهيم وأمه المزعومة هاجر في البرية وهو طفل، وفي مكان آخر يقول كتابهم المقدس إن إسماعيل بقي مع والده إبراهيم ولم يطرد: «فاخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم في ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن في لحم غرلته. وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته. (التكوين: ١٧ : ٢٣ ـ ٢٥).

لأن من كتب هذا الكلام لم يعلم باختلاق قصة طرد إبراهيم لإسماعيل وهو رضيع، والتي كتبها شخص آخر.

الذبيح

من الأحداث التي وقعت لإبراهيم في مكة تلك الرؤيا التي رآها ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾ الصافات.

ولنتعرف على من كان ابن إبراهيم هذا سنعيد تلاوة آيات الصافات التي سبق وتناولناها: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿١١٢﴾ الصافات.

فبعد استقرار إبراهيم في مكة رزق بغلام: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾.

هذا الغلام هو الذي رأى أنه يذبحه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴿١٠٢﴾.

وهو إسماعيل بدليل أن الآيات نفسها تخبرنا أن إبراهيم بعد أن شاخ بشر بغلام آخر هو إسحاق: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴿١١٢﴾.

لكن تراثنا المضبوع والمصبوغ بالإسرائيليات لم يلتفت لكلام الله الواضح البين، ويصر على أن الذبيح هو إسحاق. لأن بني إسرائيل استمروا في مسخ تاريخ إسماعيل.

مكة ليست بيت لله

تحريم دخول بني إسرائيل مكة في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٢٦﴾ المائدة.

أضيف إلى حقدهم على بني إسماعيل، وأصبح من تراثهم عدم دخول مكة، لذا نجد أن بني إسرائيل عندما تعرضوا للغزوات الأجنبية، واضطروا للهجرة. نزحوا لبلاد مختلفة، بعضهم ذهب لليمن، وبعضهم اتجه لنجد والعراق وبعضهم سلك طريق اللبان الدولية المتجهة للشام التي تمر بشمال مكة، واستقروا في حواضر يثرب وتيماء وخيبر ووادي القرى، لكن لم يعرج على مكة منهم أحد. وهذه ملاحظة هامة لا تفسير لها سوى أنهم توارثوا عدم الاقتراب من مكة لأنها حرمت عليهم. فأصبحت مكة مكان غير مرغوب فيه، برغم أن من حرم دخولها على آبائهم هو الذي خلقهم، لكن بني إسرائيل اعتبروا هذا إهانة لا تغتفر ولم ينسوها أبداً مثلما أنهم لم ينسوا أبداً أن إسحاق قد طرد من مكة بسبب إسماعيل لذا كان همهم الدائم هو النيل من إسماعيل والآن النيل من مكة بجانب إسماعيل، وفي وقت لاحق سينكرون عربيتهم، كلغة وكجنس.

وفي عصور لاحقة وبعد أن أصبح لبني إسرائيل مقر في فلسطين الحالية، أسبغوا كل حرمة مكة وقدسيتها على البلدة التي عاشوا فيها في فلسطين، والتي تسمى اليوم «القدس». واعتبروها مهد الرسالات، ونقطة لقاء الأرض بالسماوات، وقبلتهم في الصلوات. وسارع المفسرون بسوء نية إلى ترسيخ هذه النظرة، لدرجة أنهم أولوا آيات سورة بني إسرائيل وكأنها تحكي رحلة ليلية نحو السماء بدأها محمد بالانتقال من مكة إلى إيليا، ومن هناك انتقل للسماء. كل ذلك لتأكيد أن إيليا هي المقدسة، وهي باب المرور لملكوت السموات والطريق إلى الله، أما مكة فوطن لمعابد الوثنيين، ومنفى لغير المرغوب فيهم مثل إسماعيل.

الوادي المقدس طوى نقل لسيناء

كما تم نقل وادي طوى المقدس والمجاور لبيت الله في مكة، إلى أحد أودية ما يسمى اليوم «سيناء» الواقعة بين خليجي العقبة والسويس، لأن بني إسرائيل قالوا بذلك، لكي ينهوا علاقتهم وعلاقة موسى بمكة، ويرسخوا علاقتهم بفلسطين. وقلدناهم كالعادة، ونبذنا كتاب الله وراء ظهورنا.

التوراة ما كتبه الحاخامات

عندما كتب اليهود تاريخهم حولوه إلى كتاب من عند الله وكل ما فيه هو التوراة التي كتبها موسى بعد سماعها من الله، لكي يتم قبول كل ما فيه على أنه الحقيقة بعينها وليس مسخ للحقائق. واستمر قلب الحقائق بعد الإسلام، عندما أصبح موسى هو الملهم لله بتخفيض عدد أوقات صلاة المسلمين، إلى خمس بدل خمسين. وغيرها الكثير.

مع أن القرآن يقول بكل صراحة أن موسى قد واعده الله لينسخ التوراة وقد فعل في أربعين يوماً، ولم يكتب موسى غيرها: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴿١٤٥﴾ الأعراف.

والتوراة كتاب تشريعي، كتب فيه كل ما يجب على بني إسرائيل التقيد به

من أوامر ونواهي وحدود وآداب، أمر موسى بكتابتها على الألواح والاحتفاظ بها. ولم يتلق موسى الوحي مفرقاً كما حدث لمحمد والقرآن. لذا من المستحيل أن يكتب له فيها أسماء أولاد أناس سيأتون بعد موسى وزوجاتهم وأحفادهم، ويستحيل أن يكتب فيها ما سيحدث لبني إسرائيل بعد موسى، ويستحيل أن يكتب فيها: «فمات هناك موسى عبد الرب في ارض موآب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء في ارض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره الى هذا اليوم. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكلّ عينه ولا ذهبت نضارته. فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات موآب ثلاثين يوما. فكملت ايام بكاء مناحة موسى. ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة اذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو اسرائيل وعملوا كما اوصى الرب موسى. ولم يقم بعد نبي في اسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه» (التثنية: ٣٤: ٥ ـ ١٠).

ومسخ الحقائق استمر بنو إسرائيل يمارسونه على مر العصور. وما ذكرناه هنا مجرد أمثلة، لأحداث لا حصر لها، لعل من أكبرها، تحويل بلاد القبط العظيمة التي تمتد على ضفاف وادي النيل من بلاد النوبة إلى البحر المتوسط إلى أنها هي التي عاش فيها بنو إسرائيل، بدل تلك القرية النائية في برية شرق جبال السروات. لأنهم يريدون أن يشعروا العالم أنهم أمة عظيمة رسمت مسار تاريخ العالم، ومن أجدادهم سام وحام ويافث تفرق البشر كلهم، وليسوا عبارة عن عائلة بدوية ولد آباؤهم في البادية، ثم انتقلوا إلى قرية (مصر) ليتحول أحفادهم إلى رقيق مستعبدين.

وتحول اسم ملك تلك القرية البائسة، فرعون، إلى لقب لملوك أرض النيل الذين كانت لهم أسر مالكة على مدى آلاف السنين، وليس في قاموس لغتهم لفظ «مصر»، وليس في كل بلادهم شخص واحد تسمى بفرعون، لا اسماً ولا لقباً.

ومع أن بنو إسرائيل لم يعد لهم وجود كجنس، إلا أن ثقافتهم بقيت حية

وتزداد قوة وتوسعاً مع الأيام، بعد أن ورثها عنهم من تسموا باليهود، الذين لا علاقة لهم بأبناء يعقوب بن إسحاق. وأصبحت ثقافة اليهود الحديثة تعتمد ما يسمى بالرأسمالية، وتطبق مبدأ استحدثوه يقول: «الغاية تبرر الوسيلة». ولم يعد للعالم كله مبادئ، لأن اليهود استولوا على المال الذي حرك العالم وأصبح إلهه. وتنازلت أوروبا المسيحية بكل صغار عن فلسطين، التي شنوا بسببها حملات صليبية على المسلمين على مدى أكثر من ٢٠٠ سنة متواصلة، تحت شعار تخليص أرض يسوع. أما الآن فلم تعد أرض ربهم، يسوع، تهمهم لأن من استولى عليها اليهود، الذين هم أهم بالنسبة لهم من إلههم. لأن اليهود يملكون إلهاً جديداً اسمه المال، بينما يسوع مات فقيراً ولن يعود.

وبكل تأكيد فكل قارئ وقارئة سيتذكر حقيقة من الحقائق التاريخية التي مسخ اليهود حقيقتها، والتي لم نذكرها هنا لئلا نطيل، فالمهم عندنا هو التأكيد على ولادة فكرة مسخ الحقائق، وكيف بدأت، أما ذكر كل الوقائع التي تم مسخها فيطول.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية وقفتنا للتعريف بمواضيع هامة لها علاقة بكتابة تاريخ الإسلام، قبل الشروع في استنباط الأحداث المصاحبة للدعوة في مكة في الباب القادم.

الفترة المكية



هذه الخارطة جزء من خارطة طبوغرافية اسمها مكة المكرمة أنتجتها عام ١٩٧٥ إدارة المساحة الجوية ـ وزارة البترول والثروة المعدنية ـ الرياض، السعودية. وهي تظهر أقرب شكل لوادي مكة والمناطق المحيطة بها زمن إبراهيم. بعد أن قمنا بتلوين المناطق المنخفضة بين الجبال بلون رمادي، دون المساس بشكل خطوط الكنتور للجبال. مع إبقاء الكعبة والمسعى في مكانهما، وكذلك وادي طوى وعقبتي كداء شمال مكة وكدي جنوبها، مع توضيح لجزء من طريق التجارة القديم.

قريش ـ كما أسلفنا ـ نسل إسماعيل بن إبراهيم، يقطنون مكة منذ أن قدم لها أبوهم إبراهيم من قريته واستقر فيها. وهي بلدة تقع في واد لا يصل اتساعه ٥٠٠ متر، يمتد من الشمال إلى الجنوب، ومحاط بالجبال من الغرب والشرق. وقد وصف الكعبة المؤرخ الصقلي ديو دورس، الذي عاش قبل المسيحية بخمسين عاماً «بأنها كانت في مدته أشرف معابد العالم طهراً وأقدمها»، حسبما نقل توماس كارليل في كتابه «محمد المثل الأعلى[1]» في فصل الحجر الأسود والكعبة.

ومنذ وجدت مكة وهي بلد آمن: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿١٢٥﴾ البقرة.

وبقيت بلداً آمناً طوال تاريخها، بينما عاش الناس في أنحاء جزيرة العرب المختلفة تحت شعور دائم بالخوف من الحروب أو غارات النهب والسلب التي يشنها البدو على الواحات والبلدات والتجمعات السكنية، أحياناً. والحروب دائماً: ﴿. . . . . . أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾القصص.

وفيها بيت الله الحرام، قبلة المصلين على مر العصور. والمسجد الحرام هو بيت الله الوحيد على الأرض، لذا فالقرآن يتحدث عنه بـ أل التعريف: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴿٩٧﴾ آل عمران.

فهو الذي يحج إليه الناس، ولا يوجد أي بيت آخر على الأرض لله. وإن كان إبراهيم قد قام بتطهيره وصيانته، فلا يعني أنه كان أول من أنشأه. لأنه

---

(١) الكتاب ترجمه للعربية محمد السباعي وطبعته مكتبة الآداب بالقاهرة في ذي الحجة ١٤١٣ هـ/ مايو ١٩٩٣.

جعل للناس، أي كل الناس. وليس للمسلمين، الذين بدأوا من عصر إبراهيم: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً. . .﴿١٢٥﴾ البقرة.

ولأن الوحي وصف البيت بالعتيق، أي الموغل في القدم، عندما كان يخاطب إبراهيم: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴿٢٩﴾ الحج.

فهو عتيق، موغل في القدم بالنسبة لإبراهيم. ومن الطبيعي أن يكون عتيقاً، إذا كان قد وضع للناس، لأن الإنسان الحالي ظهر على الأرض منذ مئات الآلاف من السنين، بينما عصر إبراهيم كان بالأمس القريب، إذ لا يفصله عنا سوى آلاف قليلة من السنين.

طبوغرافية مكة

الشكل الطبوغرافي لمكة تغير جذرياً هذه الأيام نتيجة للتوسع العمراني الذي لم يراعِ التاريخ. لذا قمنا بتوضيح شكل وادي مكة الذي يقع فيه البيت على جزء من الخارطة الطبوغرافية المرفقة تحت (إلى اليمين)، دون أن نغير شكل الخطوط الكنتورية. وقد ظهر شكل الوادي في الخارطة التي أنتجت عام ١٩٧٥[١]، كما كان في العام ١٨١٤ الذي يظهره الرسم اليدوي لبوركهارت إلى اليسار[٢]. ويمكن القول إنه نفس شكل الوادي كما كان زمن إبراهيم، لأن

---

(١) الخارطة الطبوغرافية من إنتاج إدارة المساحة الجوية ـ وزارة البترول والثروة المعدنية ـ الرياض ـ السعودية.

(٢) ولد في لوزان في ٢٥/نوفمبر/ ١٧٨٤، ودرس في ألمانيا وإنجلترا، وعاش في البلاد العربية متنقلا في بلاد النيل والشام من العام ١٨٠٩ إلى أن توفي في القاهرة عام ١٨١٧ بسبب تسمم غذائي. وقد=

تضاريس مكة في الخارطة لم تتغير، برغم امتداد العمران خارج الوادي وفوق الجبال المحيطة، والذي يظهر باللون الأحمر، لأن المساكن كانت تقام على الجبال دون تغيير لتضاريسها.





الأحداث المصاحبة للدعوة في مكة

لقد قمنا بتقسيم أحداث الدعوة في مكة والمدينة إلى المراحل التي قسمت بها السور في الجزء الأول الخاص بترتيب السور حسب النزول. بمعنى أنه سيكون هناك سبع مراحل للدعوة في مكة وثماني مراحل للدعوة في المدينة، سنستمد كتابة أحداث كل مرحلة منها من مصدر واحد، لا يجاريه مصدر آخر في الدقة والتوثيق. مع مراعاة أن الأحداث تستنتج استنتاجاً في الكثير من السور المكية، ولن نجد آيات تنص على وقوع الأحداث بوضوح، خاصة في الفترة الأولى من الفترة المكية.

=سافر إلى مكة صيف العام ١٨١٤، وبقي فيها إلى منتصف العام التالي. وهو أول أوروبي يكتشف معبد أبو سمبل الذي كانت الرمال قد دفنته.

ومن ذلك، أننا إذا قرءنا في الحاقة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٣﴾.

فسنستنتج أن قريش تتهم محمداً بأنه كاذب وليس رسول «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ». وتتهمه بأن ما يتلوه شعر «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ». أو تمتمة كاهن «وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ».

وإذا ما قرأنا: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴿١﴾الجن.

فسنستنتج أن حادثة وقعت مفادها أن نفر من الجن قد استمعوا للرسول وهو يتلو القرآن. . . .

أما في السور المدنية فالوضع مختلف، حيث نجد وصفاً دقيق جداً للحدث، مثل وصف الآيات لما وقع في معركة بدر، ومن ذلك وصف تمركز جيش المسلمين وجيش المشركين: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٤٢﴾ الأنفال.

وسنحاول أن يكون حديثنا مقتضباً، لئلا نُقوّل الآيات ما لم تقل، ولئلا يطغى كلامنا على ما تقوله الآيات. وسنترك للقراء الاسترسال في تصور إكمال الصورة التي تتحدث عنها الآيات، بأنفسهم. وعموماً فالأحداث في مكة قليلة، وغير متتابعة، خاصة في النصف الأول، بينما تتزايد في النصف الأخير.

وفيما يلي استعراض لأحداث مراحل الدعوة في مكة تباعا، مع ذكر المخاطب ونوع الخطاب وعدد السور، لكل مرحلة:

المرحلة الأولى / البدء والتعريف

السور: عددها تسع، وهي: الفاتحة، الأعلى، العلق، الفيل، قريش، العصر، التين، التكاثر، والعاديات.

المخاطب: في السور الثلاث الأولى محمد، والسور الباقية قريش. وإذا ما قيل قريش، فالمعني هم الكبراء منهم. لأنهم هم من يقود المجتمع، والناس غيرهم تبعاً لهم.

نوع الخطاب: تعريف ببعض صفات الله وبعض نعمه.

والجو العام للمرحلة يتمثل ببدء محمد تلاوة عبارات غريبة على قريش تقول إن هناك بعث بعد الموت، وهو ما لم يقل به أحد من رجال قريش السابقين، وردة الفعل القرشية كانت اللامبالاة.

وهذه المرحلة قصيرة وهادئة، إلا أنها تمثل أهم الأحداث، وهو ميلاد الإسلام. ومع أن فرض التشريعات لا يعتبر من الأحداث، إلا أن هناك تشريعات لم يكن بد من اعتبارها كذلك، وإن كانت قليلة. ومن التشريعات التي تعتبر من أهم أحداث هذه المرحلة: فرض الصلاة، وفرض الإنفاق، وكلاهما فرضا معاً وفي سورة واحدة هي سورة الأعلى، الثانية في ترتيب النزول. والصلاة اتصال دائم على مدار اليوم بين العبد وربه، فهي الأساس الذي يقوم عليه الإيمان. مثلما أن الإنفاق صلة مستمرة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهو العمود الفقري الذي يقوم حوله الإسلام ودولته. ومن أحداث هذه المرحلة اعتراض أحد كبراء قريش على أداء محمد للصلاة. إضافة لتوثيق حادثة تاريخية فريدة وقعت بالقرب من مكة، هي حادثة الفيل التي سبقت ظهور الإسلام، وكذلك توثيق أن قريش تمارس التجارة.

وفيما يلي استعراض لهذه الأحداث:

ميلاد الإسلام

برغم أن نزول الوحي إعلانٌ لميلاد أهم حدث في تاريخ البشرية المكتوب، إلا أننا لا نعرف متى بدأ نزول الوحي على محمد، وكل ما نستطيع معرفته هو أن أول سورة نزلت عليه هي الفاتحة، وكان الوقت ليلاً، كما سبق وبينا في الفقرة الخامسة من فصل خطوات ترتيب السور[1].

وقد بدأ، هذا الحدث البشري الأهم، بداية بسيطة غير لافته ولا مثيرة. ففي أحد الأيام وبينما كان رجل في مقتبل العمر من قريش، اسمه محمد، وحده خارج مكة، لاحظ مخلوقاً غريباً في الأفق. وبدأ يقترب منه شيئاً فشيئاً حتى كاد أن يلامسه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴿١١﴾.

ومن ثم شعر محمد بأنه يحفظ نصوصاً غريبة لم يسمع بها من قبل: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴿١﴾ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴿٥﴾ اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴿٧﴾.

برغم أن أحداً لم يلقنه ما وجد نفسه يحفظ، كما أن محمداً لا يقرأ ولا يكتب، حاله حال رجال قومه قريش: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴿٤٨﴾ العنكبوت.

ولا ندري يقيناً ما الذي فعله محمد بعد تلك المقابلة الاستثنائية، ولكن

---

(١) القسم الأول / ترتيب السور حسب النزول.

هناك احتمال أن يكون قد عاد لمنزله وأخبر أهله وأقرب الناس إليه، كما أن هناك احتمالات أخرى. لكن رؤية ذلك المخلوق لم تصبه بالرهبة ولا بالخوف، ولم تجعله يهرول لخديجة وابن عمها ورقة المسيحي المزعوم، كما سطرت كتب التراث. لأن رؤية الملائكة تكون للرسل وأناس مختارين فقط، وتكون مصحوبة بالطمأنينة والسكينة، كالتي شعر بها إبراهيم وزكريا ومريم. وهي تشبه السكينة التي عاد وشعر بها محمد مرة أخرى بعد سنوات، عندما كان وصاحبه أبا بكر في الطريق ليثرب مهاجرين، برغم أن قريش تلاحقهما: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾ براءة.

وكتلك السكينة التي أصبح المسلمون يشعرون بها في معاركهم ضد المشركين: ﴿ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿٢﴾ براءة.

أما تصوير محمد بتلك الصورة الخرقاء التي نقلتها لنا كتب التراث، وكأنه فقد صوابه عندما رأى الملك، لولا ورقة المسيحي المزعوم الذي عرّفه بحقيقة ما رأى[1]. وهذه الصورة مماثلة لتلك الصور التي نسجتها لنا تلك الكتب، حول رعاية وحماية أبو طالب له، ولولا تلك الحماية لما تمكن محمداً من إبلاغ رسالة ربه، واختلاق مثل هذه القصص يهدف لتوصيل فكرة محددة، تخدم عقيدة مذهب معين، ولا علاقة لها بالواقع، كما أنها تخالف كتاب الله الذي يؤكد أن محمداً كان محفوظاً بعناية الله وليس بجناح المشرك أبا طالب: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴿٤٨﴾ الطور.

---

(١) للدلالة على اختلاق قصة ورقة أن الديانة المسيحية لا تؤمن بأن هناك دين لله سيأتي بعدها، خاصة إذا كان ديناً توحيدياً كالإسلام الذي لا يؤمن بالتثليث الذي هو عماد دين المسيحية. والقول بأن الإسلام دين صحيح يعني الكفر بالقول أن يسوع ابن الله ومات لمغفرة ذنوب البشر.

والقرآن يتحدى مشركي قريش أن يصيبوا محمداً بأذى، ويقول إن الله وليه وحاميه، وليس أبا طالب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴿١٩٦﴾ الأعراف.

وبدءاً من الليلة التالية لرؤية الملك، وجد محمد نفسه يحفظ نصوصاً تتحدث عن الله الذي تعرفه قريش، كخالق لكل شيء. وتلك النصوص تقول إنه يجب أن تكون بداية كل شيء باسم الله، وألا يعبد إلا الله ولا يستعين بغيره. وهو ما يخالف ما اعتاده قومه، حيث كانوا يعبدون الأصنام، ويؤمنون بوجود آلهة كثيرة. فالمطر له إله، والرياح كذلك، وللجبال إله كما للزراعة والإنجاب وغيرها.

كما أن ما ورثه من تراث يقول إن طلب العون يكون من القوى الخفية كالجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴿٦﴾ الجن.

وتدعوه النصوص لأن يطلب من الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم، المخالف لما عليه قومه من الضلال. كل هذا يؤكد أن ما رآه لم يكن من الجن أو الشياطين، ولم يكن خيالاً أو تهيؤات. ومن المؤكد أن محمداً تساءل إن كان سيرى ذلك المخلوق مرة أخرى أم أن ما حدث له لن يتكرر. لأنه حتى تلك اللحظة ليس هناك فيما نزل عليه من نصوص أي إشارة إلى أنه سيصبح رسولاً لله.

ولم يطل به الوقت حتى شعر أنه يحفظ نصوصاً أخرى، دون أن يلقنه إياها أحد، ودون أن يرى ذلك المخلوق العجيب هذه المرة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ

الْمَرْعَى﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴿١٩﴾.

وكما هو واضح فهذه النصوص، تؤكد ما قالته النصوص السابقة، آمرةً محمداً بتسبيح الله، وبالصلاة. كما أنها تقول له ألا يستغرب حفظه للنصوص دون تلقين من أحد، لأن هذا يتم بأمر الله، وسيستمر يتلقى النصوص ويحفظها بالطريقة ذاتها، دون الحاجة لتلقين أو لترديد تلك النصوص لحفظها، لأنها ستنسخ في ذاكرته بطريقة لن ينساها أبداً طوال حياته. لكن هذه النصوص تحمل أمراً جديداً لمحمد، بتذكير غيره بما يلقى إليه من آيات تؤكد وحدانية الله، ووجود بعث بعد الموت وحساب للناس على ما قدموه في هذه الدنيا.

ومن الأعمال الصالحة تأدية الصلاة. وقبل أن يتساءل عن كيفية الصلاة رأى ذلك المخلوق مرة أخرى، وهذه المرة أثناء سير محمد في بقعة معشوشبة نبتت فيها الحشائش، مما يعني أن الوقت كان في فصل الشتاء أو الربيع، وكان في طرفها شجرة سدر نزل بقربها ذلك المخلوق فتسبب بإصابتها[1]: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿١٧﴾ النجم.

---

(١) الأعشاب والحشائش تنمو في معظم مناطق جزيرة العرب، في الشتاء والربيع إذا توفرت الأمطار، التي تتجمع في البقع المسماة محلياً روضة، وجمعها رياض. وهي بقعة من الأرض تكون أرضها طينية قليلة المسام، ومستواها أخفض مما حولها، لذا تتجمع فيها مياه الأمطار وتنمو فيها الحشائش والأعشاب أكثر من المناطق حولها. كما تنمو فيها وحولها أشجار الطلح والسمر والسدر. أنظر الصورة.



وهذه المرة لم ينسخ في ذاكرة محمد نصوص جديدة، لكنه رأى من «الملك» شيئاً آخر: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴿١٨﴾ النجم.

وقد أجاد محمد الصلاة بعد تلك المقابلة التي طلب منه أدائها في سورة الأعلى، فكان يؤديها في بيت الله الحرام، حيث ملتقى قريش وتجمعهم. وهذا ما جعل رجال قريش يسألونه عما يفعل، فأخبرهم أن هذه صلاة مطلوبة لله وأنه يتلقى وحياً منه سبحانه، يأمره بتوحيد الله وأن هناك بعث وحساب. فكان هذا مدعاة لأن ينبري أحدهم وينهى محمداً عن أداء صلاته، على اعتبار أنها بدعة لا تمت بصلة لموروثهم الديني والثقافي.

ويبدو أن محمداً قد تساءل في نفسه عن الكيفية التي يُذكّر بواسطتها قومه، فنزل عليه الوحي يأمره بأن يدعوهم بقراءة القرآن الذي يجده ينسخ في ذاكرته باسم الله الذي خلق كل شيء، وعلم كل شيء. وأن يواصل أداء الصلاة دون اكتراث لذلك القرشي الذي يحاول منعه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴿٩﴾ عَبْداً إِذَا صَلَّى﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن

كَانَ عَلَى الْهُدَى﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَه﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴿١٩﴾ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴿٩﴾ عَبْداً إِذَا صَلَّى﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَه﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴿١٩﴾.

وهنا اتضحت الرؤية.

محمد ذلك الصبي اليتيم، الذي نشأ فقيراً بلا هادٍ أو مرشد، كما أشارت سورة الضحى فيما بعد: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴿٨﴾.

ولم يسبق له أن تلقى أي قسط من التعليم، الدنيوي أو الديني: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٥٢﴾الشورى.

ولم يكن من رجالات قريش البارزين: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴿٣١﴾الزخرف.

هذا الإنسان العادي في ميزان التصنيف عند البشر، يجد نفسه وقد أصبح يحمل رسالة من الله ـ خالق كل شيء ـ إلى خلقه قريش، الذين لم يسبق أن جاءهم نذير: ﴿يس﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿٣﴾ عَلَى

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴿٦﴾ .

وفي تلك اللحظة التي رأى فيها الملك لأول مرة، لم يدر في خلده أنها ستكون نقطة البداية لأعظم حدث في تاريخ البشرية كلها. لأنها ولدت ديناً خالداً، سيبقى كما نزل، وسيستمر تأثيره النابع من كتابه وحده، دون عون من البشر، ما بقي الإنسان الحالي على وجه الأرض.

وكانت بداية هذا الحدث الفريد هادئة ولا تشير إلى ما ستؤول إليه الأحداث فيما بعد. إذ لم تسجل لنا السور التسع الأولى إلا فرض الصلاة ونهي القرشي لمحمد كلما رآه يؤديها، كما ذكر في سورة العلق. وما عدا ذلك فلم تسجل لنا السور أي أحداث وقعت في هذه المرحلة، لأن الفترة كانت قصيرة، ولأن ردة فعل كبراء قريش على ما سمعوه من محمد في الأيام الأولى، اللامبالاة، ظناً منهم أنه ليس جاداً فيما يدعو إليه. لذا لم يتسببوا بأي متاعب للرسول.

ولم تتغير حياة محمد عما كانت عليه قبل البعثة، فقد كان يتلو ما نزل عليه من الوحي على الناس لبعض الوقت من النهار ثم ينصرف لأشغاله الحياتية، والعيش كما كان يفعل قبل الدعوة، كواحد من قريش، إلى أن نزلت سورة المزمل التي غير نزولها الأوضاع في مكة. سواءً بالنسبة لتصرفات قريش حيال الدعوة، وما نتج عن ذلك من أحداث، أو طريقة الدعوة، وتفرغ الرسول التام لها ولشؤونها.

فرض الإنفاق والصلاة

الأعلى هي السورة الثانية في ترتيب النزول بعد الفاتحة، وفيها جاء الأمر بتذكير الناس أن هناك حياة بعد الموت «فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى»، والأمر بالإنفاق وأداء الصلاة «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى».

والصلاة فرض على الأديان السابقة، فسورة الأنبياء تتحدث عن إبراهيم، وتكمل قائلة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴿٧٣﴾.

وكانت مفروضة على موسى وبني إسرائيل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴿٨٧﴾ يونس.

لكن القرآن يخلو من أي ذكر لهيئة الصلاة وكيف تؤدى، فمن علم الرسول تأدية الصلاة بهذه الكيفية من الركوع والسجود والوقوف والجلوس التي ورثناها عنه؟

هناك من يقول إن الصلاة بهيئتها التي صلاها الرسول وتوارثها المسلمون لليوم، كانت تعرفها قريش وتؤديها، لأنها توارثتها منذ أيام إبراهيم. وهذا قول لا يمكن التسليم بصحته، وإليكم الدليل:

صحيح أن دين الله واحد، وأن الإسلام الذي جاء به محمد هو نفس دين إبراهيم والرسل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴿١٣﴾ الشورى.

لكن هذا لا يعني أن الصلاة بقيت تؤدى على حالها منذ عهد إبراهيم وحتى بعثة محمد، لأنه وبناءً على سنة الأولين، فإن الناس تتحول عن الدين وتبدأ بإتباع تشريعات مختلفة. وقريش عندما بعث محمد كانت تعبد الأوثان بدل التوحيد، وكانت لا تصوم. ولولا أن الحج قد اتخذته قريش نوعاً من الجاه والشرف، لتُرك وأُهمل، ولكنه بقي كطقوس مخالفة لما كان عليه زمن إبراهيم، وبالتأكيد فقد تغير وضع الصلاة وهيئتها.

ولو كانت الصلاة معروفة عند قريش لما انبرى أحد كبراء قريش للرسول ونهاه عن أداء الصلاة، التي لم يكن الرسول يؤديها قبل البعثة، والتي من الواضح أن القرشي لا يعرفها، ويعرف أن الرسول بدأ يؤديها بعدما أصبح يدعو لدين الله.

فالصلاة بهيئتها المعروفة حالياً صلاها الرسول منذ اللحظات الأولى لبعثه، وهو ما يعني أنه تعلمها، ولم يرثها.

فمن علم رسول الله الصلاة؟

لن نجد في القرآن آية تبين أن الرسول تعلم الصلاة، ولا آية تعلمنا كيفية الصلاة وهيئتها وعدد ركعاتها. لكن القرآن يقول لنا إن الرسول قد رأى الملك المكلف بنسخ الوحي، مرتين في حياته. وكلاهما في بداية البعثة، بل وفي الأيام الأولى التي بعث فيها محمد.

وإذا كان الوحي لا يتلقاه الرسول مشافهة وتلقيناً، كما أسهبنا في شرح ذلك. ولكن نصوص الوحي تنسخ في ذاكرة الرسول دون الحاجة لرؤية الملك أو الاجتماع بين الرسول والملك، فلنا أن نسأل:

لماذا رأى الرسول الملك؟

وما هي الحكمة من ذلك؟

وإن كان رآه للمرة الأولى كبرهان على أنه أصبح رسولاً لله، وإن ما سيتلقاه وحي، من الله، وليس تهيؤات، فما المانع أن تكون رؤية الملك للمرة الثانية لتعليم الرسول الصلاة؟

يقول تعالى في سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً

أُخۡرَىٰ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴿١٨﴾.

والقراء يلاحظون أن رؤية الرسول للملك في المرة الثانية، كانت على الأرض، ولم يره في الفضاء، كما المرة الأولى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴿١٦﴾.

لقد رآه الرسول يهبط في منطقة عشبية ويقرب شجرة سدر تقع على أطراف تلك المنطقة العشبية. ولا نرى ما يمنع من أن هبوط الملك على الأرض أمام الرسول في تلك البقعة المعشوشبة، كان لتعليمه كيف يصلي، وما يقول في صلاته؟

والصلاة بهيئتها الحالية وما يقال فيها لا يمكن أن يكون رسول الله، أو أحد من البشر قد ابتدعها، لأنها تصل لدرجة الكمال في توافق كل وضع مع ما يقال فيه. فهي منذ الدخول فيها وحتى ختامها، أقوال وأفعال مقصورة على تمجيد ذات الله وحده، فيما عدا ما يقال في جلوس التشهد والخروج من الصلاة، والذي سنتطرق له.

والدخول في الصلاة يتم عبر التلفظ بعبارة «الله أكبر» والتي تذكر الإنسان بأن الله أكبر ـ قدرة وعظمة وليس حجماً ـ من أي شيء يمكن للإنسان تصوره. يلي ذلك تلاوة سورة الفاتحة، والتي التي لا مثيل لها في كل سور القرآن، فهي عبارة عن تمجيد لذات الله وتسبيح له مع طلب العون منه والهداية.

وفي الركوع ينحني المصلي لإبداء الخضوع لله ويسبح عظمته سبحانه، ويتفكر بتلك العظمة التي لا تضاهى. وعند الوقوف من الركوع يحمد المصلي ربه لأن كل من حمد الله فإن حمده يصل إليه سبحانه «سمع الله لمن حمده».

وفي السجود يضع المصلي أنفه ورمز أنفته على الأرض مسبحاً علو ربه، من التعالي والعظمة، وليس من العلو والارتفاع.

ويتبع كل ركعتين في الصلاة جلوس، وذلك لإنهاء أقوال وأفعال تلك الركعتين، ومن ثم الشروع بركعة أو ركعتين أخريين، أو يكون الجلوس لإنهاء الركعتين والصلاة كلها إن كانت الفجر.

وذلك الجلوس الذي تنتهي فيه أعمال الركعتين والصلاة يسمى جلوس التشهد أو جلوس التحيات، وهذا التعريف يدل على مضمون ما يقال فيه. فالمصلي يتلفظ بأقوال مناسبة لإنهاء الصلاة، ولذلك فبعض الأقوال فيه خرج عن تسبيح الله وحمده، وتتمثل أقوال التشهد وختام الصلاة بالتالي:

يبدأ المصلي بتحية الله جل وعلى، قائلاً: «التحيات والصلوات الطيبات لله»، والصلوات هنا ـ كما هو واضح ـ تعني أسمى أنواع التحيات. ثم تحية الرسول عليه الصلاة والسلام: «السلام على النبي ورحمة الله وبركاته». ثم تحية المصلي وبقية المسلمين: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». بعد ذلك يأتي ختام المسك للصلاة، بأن يقر المصلي بالشهادة بألا إله إلا الله سبحانه: «أشهد ألا إله إلا الله»، يلي ذلك الإقرار والشهادة بأن محمداً (بالاسم، ولا يقال رسول الله) ما هو إلا عبد لله مكلف بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». حتى يتذكر الناس على الدوام أن لا ينسب للرسول دور أكبر من كونه عبد لله أولاً كلف بالرسالة وليس شريكاً له سبحانه في وحدانية أو ربوبية أو ألوهية، أو قريب من ذلك. بعد ذلك لن يتبقى للمصلي سوى الالتفات يميناً وإلقاء السلام، إيذاناً بالخروج من الصلاة: السلام عليكم ورحمة الله، دون أن يكون هناك مجال لقول أكثر مما قيل، لأه ليس من أقوال الصلاة. مثل قول» اللهم صل على محمد وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد» والتي تطفح بالتشيع الذي ابتدع بعد وفاة الرسول وظهور الفتن.

وتكون الصلاة من أولها وحتى ختامها أقوال تتناسب مع الأوضاع التي

تقال فيها، فلا يمكن أن يقال سبحان ربي الأعلى في الركوع، مثلًا، لأن سبحان ربي الأعلى تتناسب مع وضع السجود الذي يضع المصلي فيه أنفه، رمز أنفته، على الأرض ويقر بسمو الله وحقارته هو. وهكذا بقية الأقوال في الصلاة.

وهذه المثالية في التوافق بين كل هيئة وما يقال فيها، لا يمكن لبشر أن يستنبطها، وليس هناك مانع من أن يكون أحد الملائكة علمها لرسول الله.

وفي هذه الحالة، قد يقول قائل: ولكن القرآن يؤكد أن الوحي ينسخ في ذاكرة محمد، ولم يلقنه الملك إياه تلقيناً، فكيف لقنه أقوال الصلاة؟

ونقول ـ اجتهاداً منا ـ إنه لا يمنع أن الملك قد لقن الرسول الصلاة، لأن ما ينسخ في ذاكرة الرسول من وحي هو القرآن. أما الصلاة فعبادة أمر فيها بالقرآن، وبينها الملك عملياً للرسول. ومخاطبة الملك للرسل تكررت، مع إبراهيم، وزكريا، ومريم، وغيرهم، وكل هذه المقابلات حدث فيها تخاطب بلغة البشر بين الملك وبين هؤلاء الرسل والأشخاص المختارين، لكن ما قيل لهم لم يكن من رسالة رب العالمين للناس. وعليه فالملك قابل محمد، وعلمه هيئة الصلاة وما يقال فيها، مما لا تجده في القرآن، لأن ما في القرآن هو فقط ما نسخ في ذاكرته.

والصلاة الحالية اتفق المسلمون جميعا بكل فرقهم ومذاهبهم على تأديتها بهيئتها، وهي الإجماع الوحيد الذي اجتمع المسلمون عليه، وهو دليل على أنها هي نفس الهيئة التي كان الرسول يؤديها وأداها المسلمون في عصره. وتوارثها المسلمون عملياً، وأدوها خمس مرات يومياً دون انقطاع، منذ ذلك الوقت.

ولكل من يتساءل إن كانت هذه هي الصلاة التي صلاها الرسول أم لا؟

نقول إنها هي.

بدليل أن المُشكِك لا يستطيع أن يأتي بهيئة أخرى. مما يعني أنه لا خلاف

في هيئة الصلاة، ولو كان هناك خلاف فسيكون هناك احتمال أن هيئتها الحالية ليست هي التي كانت زمن رسول الله. فكل ما اختلف عليه المسلمون من المسائل الفقهية، كان لوجود آراء وأقوال متضاربة حول مسألة واحدة، إلا الصلاة فلا وجود لرأي مخالف. وهو تأكيد على أنها انتقلت عمليا بتواتر من كل المسلمين جيلا بعد آخر. ولم تُصلِ لأن الترمذي أو النسائي بعد ٣٠٠ سنة من زمن الرسول روى لنا عن مجاهد أو شعبة أو ابن جريج أو الزهري أو كعب الأشراف أو عبد الله بن سلام أنهم رأوا الرسول يصلي الفجر ركعتين، وفي رواية ثانية أنه كان يصليها ثلاث ركعات، وفي رواية أخرى صلاها خمس.

كما أن الصلاة لو كان المقصود بها الدعاء فلا حاجة للرسول أن يذهب للبيت ويصلي قرب الكعبة، ولو كانت صلاته عند الكعبة دعاء لما لاحظت قريش عليه ذلك، لأنه يستطيع الدعاء بصوت خافت وهو جالس أو واقف دون حراك، ولما نهاه القرشي عن أدائها. ولكنه نهاه لأنه يراه يركع ويسجد، وهي إيماءات لا يعرفها القرشي واقترنت ببدء محمد تلاوة نصوص غريبة عليهم تذكر أن هناك حياة بعد الموت.

ولو كانت الصلاة ليست بهيئتها الحالية لما أمر الله الناس التوجه للكعبة عند أدائها: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴿١٤٤﴾ البقرة.

ولو كانت الصلاة ليست بهذه الهيئة لما نزل التحذير لمن خرج من المسجد وترك الصلاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿١١﴾ الجمعة.

ولو كانت الصلاة دعاء لما وجب لها الوضوء والغسل والتطهر، ومن لا يجد الماء فعليه بالتيمم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٦﴾المائدة.

لأن الدعاء والتسبيح يجوز في أي وضع وحالة: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٢﴾ يونس.

وفي أي وقت دون تحديد: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴿١٣٠﴾ طه.

أما الصلاة فقد حددت أوقات لأدائها في القرآن، وكان ذلك على دفعتين. حيث ورد في سورة هود:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴿١١٤﴾.

والآية تأمر بالصلاة في ثلاثة أوقات كما يلي:

صلاة عند كل طرف من أطراف النهار، وصلاة ثالثة عند مضي زلف من الليل.

والنهار له طرفان، الأول بدايته، أي الصباح أو الغدوة أو البكرة، أو الساعة الأولى من النهار، ويبدأ من شروق الشمس. والطرف الثاني، الأصيل، أو قبل نهاية النهار وغروب الشمس بساعة أو نحوها.

وقد ورد ذكر هذين الوقتين في سور أخرى بمسمى البُكرة، للطرف الأول من النهار، والأصيل للطرف الثاني، ومن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴿٤٢﴾ الأحزاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴿٩﴾ الفتح.

وهذان الطرفان لا تؤدى فيهما الصلاة اليوم، ولكن الناس يصلون صلاتين بديلتين سموهما، الظهر والعصر، ولا ذكر لهما في القرآن. ولا ندري كيف أصبح المسلمون يصلون الظهر والعصر، بدل ما ذكره كتاب الله «طرفي النهار». ونتمنى أن نسمع الجواب من أي أحد، مشفوعا بالدليل. وحسب إطلاعنا المحدود فلا يمكن لأحد أن يعلل ولا يدلل.

والوقت الثالث الذي حددته سورة هود، لأداء الصلاة هو «زلفاً من الليل[1]» وهو ما قد يعني بعد مضي وقت من الليل، أي صلاة العشاء، والتي جاء ذكرها عرضاً في سورة النور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٨﴾.

ثم تم تحديد وقتي المغرب والفجر في سورة بني إسرائيل التي نزلت في المرحلة السادسة من الدعوة في مكة، مثل سورة هود: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴿٧٩﴾.

---

(١) لقد ذكرت في كتاب سنة الأولين أن هذه الصلوات خاصة بالرسول دون المسلمين كجزء من تأهيله نفسياً، ولكن تبين لي فيما بعد خطأ ما ذهبت إليه، ولم يكن للرسول صلاة خاصة به دون المسلمين، وإن كان قد طولب في سورة المزمل بالسهر لقراءة القرآن وتسبيح الله، وليس لأداء الصلاة.

وقد حدد بداية وقت المغرب «لِدُلُوكِ الشَّمْسِ». أي من غروبها. ونهايته «إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ» أي غياب الشفق. أما الوقت الآخر فقد أشارت له الآية (٧٨) بالقول «وَقُرْآنَ الْفَجْرِ». وما يعضد أنه إشارة لصلاة الفجر، هو أن هناك بالفعل صلاة للفجر، وقد ورد ذكرها عرضاً في سورة النور المدنية أثناء الحديث عن موضوع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٨﴾.

وليكتمل العدد لخمسة أوقات في اليوم والليلة، هي: المغرب والعشاء والفجر، وهي أوقات تطابق الأوقات التي تؤدى فيها الصلاة اليوم. إضافة لأداء الصلاة في طرف النهار الأول «البُكرة»، وطرفه الأخير» الأصيل».

ومثل الصلاة، فالمناداة للصلاة «الأذان» ورثناه عملياً، ولم يخبرنا القرآن كيف نؤديه. والأذان كان موجوداً زمن رسول الله، وقد جاء ذكره في القرآن، كما الصلاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾الجمعة.

وذكر مرة أخرى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴿٥٨﴾المائدة.

والجمعة والمائدة مدنيتان، ولم يذكر الأذان في أي سورة مكية، مما يشير إلى أنه لم يكن معروفاً في مكة، التي كان المسلمون قلة يعيشون تحت الاضطهاد، ولم يكن متوقعاً منهم المجاهرة بالدعوة لصلاتهم.

ولا يتم الحديث عن الصلاة بدون ذكر الوضوء والغسل. وقد فرض الوضوء للصلاة في المدينة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن

كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٦﴾ المائدة.

ولابد من ملاحظة أن الوضوء واجب لكل صلاة «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ» ولا يمكن الصلاة بوضوء واحد لوقتين أو أكثر كما يفعل البعض، استناداً على الأحاديث والفتاوى.

كما فرض التطهر بالماء من الغائط قبل الوضوء وكل ما يخرج مخرج الغائط أو ما هو بحكمه، من بول أو ريح. وكذلك الغسل من الجنابة، ومن لم يجد فلا بد من التيمم. ولا يكتفى بغير الماء، للتطهر من البول والغائط أو ما يخرج من مخرجه من ريح، وإن لم يوجد الماء فيكفي التيمم. أما ما يسمى بالاستنجاء والاستجمار فليست من دين الله ولكنها من دين الفقهاء والمحدثين.

ولا تقصر الصلاة إلا في حالة واحدة، وهي أن يكون المسلمون في مواجهة جيش للعدو، وقد بينها لنا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴿١٠٣﴾ النساء.

وما يقوم به بعض المسلمين اليوم من قصر الصلاة في السفر، أو الجمع بين وقتين، أو المسح على الخفين، فمنتجات فقهية لم يأمر الله بها من سلطان.

* الإنفاق

الإسلام علاقة بين العبد وربه (إيمان)، وبين الإنسان والإنسان (عمل صالح)، معاً، ولا يمكن الاكتفاء بأحدهما أو جزء منه، مع الآخر أو بدونه. والإيمان، يعني الإقرار لله بالوحدانية[1]، وبالبعث، مع تقديم الطاعة لله والخضوع له بأداء العبادات الثلاث: الصلاة، الصيام، والحج.

أما الأعمال الصالحة فكثيرة، وتتلخص بإتباع كل أوامر القرآن والانتهاء عن كل نواهيه. ومحور الأعمال الصالحة هو الإنسان، وعلاقته بأخيه الإنسان وبيئته، لتأمين حياة طيبة في الدنيا. ومن لا يعمل صالحاً فلن يدخل الجنة ولو آمن: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٩٧﴾﴾ النحل.

والأعمال الصالحة تؤمن حياة آمنة: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام.

فيها كل متطلبات الحياة الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿٩٦﴾﴾ الأعراف.

وهذا لا يتوفر إلا بتوفر المال، ولا يتوفر المال إلا بهبته ممن يملكه بدون مقابل، وبدون أن يطالب الواهب باسترجاع ما وهب بعد حين. وينفق المال الموهوب في سد احتياجات دولة الإسلام وأهلها كلما دعت الحاجة، وهو ما سماه القرآن: الإنفاق.

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴿١٣٦﴾﴾ النساء.

فهو العمود الفقري للإسلام وبقاؤه. وبدونه لا يمكن أن يحتفظ المسلم بكرامته وعزته، ولا يمكن أن تقوم للإسلام ولا لدولته قائمة. لأنه المغذي الوحيد لموازنة دولة الإسلام التي يصرف منها على كل البنى التحتية، من اقتصادية وصحية وعلمية وتعليمية وصناعية وغيرها. والصرف على المشاريع القائمة والخطط الإستراتيجية، من أجل تأمين حياة كريمة آمنة علمية حضارية لكل إنسان ينتسب لها.

لذا كان الإنفاق مطلوباً لدخول الجنة مع الصلاة منذ المرحلة الأولى من الدعوة في مكة، وقبل أن يبدأ محمد بإنذار قريش: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴿١٥﴾ الأعلى.

واعتبر الإنفاق، تزكية وتطهيراً للمال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴿١٨﴾ الليل.

وإذا لم يدفع الإنفاق كما يجب فإن المال ليس طاهراً ولا مزكى. فالتزكي هو التطهر، وتزكية المال دفع الإنفاق منه، لدرجة أن هذه الصفة «الزكاة» كانت تطلق على الإنفاق في كثير من الآيات: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٥٦﴾ النور.

والقرآن لا يذكر كل طرق صرف الإنفاق في آية واحدة أو سورة واحدة، لأن طرق صرف الإنفاق تشمل كل نواحي الحياة. فكان الأمر بالإنفاق في السور يأتي حسب متطلبات حياة المسلمين في الفترة التي تنزل فيها السورة.

فسورة الأعلى فرض الإنفاق فيها ككل. وفي سورة المدثر، نص على صرف الإنفاق في إطعام المسكين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴿٤٧﴾.

حيث إن أهم المتطلبات في الوقت الذي نزلت فيه السورة، هو الصرف على المساكين. وسورة البلد، أثناء الحديث عن المطلوب لدخول الجنة

والبعد عن النار، تقول: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴿١٤﴾ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴿١٧﴾ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴿١٨﴾.

وهو ما يعني أنه عندما نزلت السورة كان أهم الطرق التي يجب أن يصرف فيها الإنفاق، تحرير الرق «فك رقبة»، إطعام كل محتاج، الاهتمام باليتيم، والصرف على المساكين. ومن السهل معرفة لماذا ذُكرت هذه الطرق لصرف الإنفاق دون غيرها في ذلك الوقت. ذلك أن الإسلام للتو بدأت دعوته، وبناءً على سنة الأولين فمن يؤمن أولاً هم من المستضعفين: رقيق يحتاج للتحرير، ومساكين ويتامى. وكلهم يفتقرون للحياة الكريمة التي يكفلها الإسلام، وتوفر المال من الإنفاق سيكفل لهم ذلك.

وسيلاحظ كل من يتمعن في سور القرآن أن الآيات تأمر بالإنفاق في مجالات مختلفة، وتحدد هذه المجالات بناءً على المتطلبات الملحة وقت نزول السورة، دون أن تلغي المجالات الأخرى التي يؤمر فيها بالإنفاق في سور أخرى سابقة أو لاحقة. فالأمر بالإنفاق على الجيش كما تزخر به السور المدنية لا يعني توقيف الإنفاق على المساكين أو تحرير الرق، ولكنه يعني أن الحاجة ملحة له أثناء نزول السور التي تدعو له لأن المسلمين في حالة حرب مع أعدائهم.

وعندما يقول القرآن: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٦٠﴾ التوبة.

فلا يعني اقتصار الإنفاق على هذه الطرق فقط، بل يعني إضافة هذه الطرق لكل الطرق التي ذكرتها السور الأخرى في كل القرآن، والتي تعني أن الإنفاق واجب في كل مجالات الحياة في دولة الإسلام.

وبقي أن نقول إن الصلاة (العلاقة اليومية مع الله)، والإنفاق (العلاقة اليومية بين الناس) صنوان لا يقوم الدين بدونهما، أو بواحد منهما دون الآخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴿٢٧٧﴾ البقرة.

ولذلك كانا يذكران معاً باستمرار في القرآن: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣﴾ الأنفال.

أحد كبراء قريش وصلاة الرسول

بعد نزول الأمر بالصلاة في سورة الأعلى «قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى» داوم الرسول على أدائها، دون التقيد بوقت محدد. ومن المؤكد أنه كان يصلي لله في بيت الله الحرام، وهو المكان الذي يجتمع فيه سادة قريش وكبرائها. ولابد أن هذه الصلاة التي يؤديها جزء من دينه الجديد الذي يدعو له ويزعم أنه من عند الله. فتحمس أحدهم وقام لمحمد وطلب منه ألا يؤدي هذه الإيماءات مستقبلاً، لكن يبدو أن محمداً عاود تأدية الصلاة في يوم آخر، وقد رآه نفس القرشي الذي نهاه عن تأديتها. فتوجه له مرة أخرى ونهاه ألا يؤدي صلاته مرة أخرى. وقد تضمنت سورة العلق التي نزلت بعد ذلك توجيهاً لمحمد بأن يداوم على صلاته ولا يعير نهي القرشي له أي اهتمام. ولابد أن محمداً قرأ السورة على القرشي، واستمر في صلاته بعد ذلك في المسجد الحرام.

وهذه الواقعة تظهر أن محمداً ومن قد يكون آمن معه، لم يكونوا يتعرضون لأي أذى من قريش في تلك الفترة، برغم عدم موافقة قريش أو رضاها بما يدعو له محمد وما يؤديه من طقوس، لأنها مخالفة لموروثهم الديني والثقافي.

كما أن نهي القرشي للرسول عن الصلاة تأكيد على أن الصلاة هيئة تشمل

حركات وأقوال، وليست دعاء كما بدأ البعض يروج، بحجة أن القرآن لا ينص على هيئتها وأقولها. ولو كانت الصلاة دعاء لما انتهر القرشي محمد، ونهاه عن أدائها، ولما كان محمد يأتي للصلاة في المسجد حيث تجتمع قريش قرب الكعبة، وكان بإمكانه الدعاء في أي مكان، ولما كان هناك ضرورة للمساجد، ولما نزلت سورة الجمعة تنتقد من خرج من المسجد للتجارة وترك الصلاة. ولما كان هناك داع للوضوء، ولا للأذان، ولا للصلاة جماعة مع الرسول، ولا تطهير الثياب والتزين للصلاة في المسجد. ولو قال قائل إن كل هذا لا يمنع أن يكون المقصود بالصلاة هو الدعاء وأن علينا أن نقوم به جماعة وفي المسجد وفي خمسة أوقات في اليوم والليلة. فنقول وما هو نص الدعاء (الصلاة)؟ وأين هو في القرآن؟ ولن يجدوا جواباً، لأن القرآن يخلو من دعاء طلب من المسلمين ترديده كصلاة.

والعقل مطلوب للتفكير فيما يقال، للوصول للحق الذي قال به الله. وهذا يكون عند وجود أكثر من رأي لمسألة واحدة، فيدخل العقل للوصول لأي الأقوال أصح. أما أن يقال لا للصلاة المتوارثة عملياً دون انقطاع، والتي اتفق كل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله على أدائها بنفس الهيئة، دون أن يدلنا من يطلب منا تركها، على الصلاة التي يعتقد هو أنها الحقيقية، فهذا ليس عقل ولا نقل. لأن تأديتها بهيئتها الحالية يؤدي دور التسبيح لله وذكره. فإن كان هناك صلاة أخرى لا نعلمها، لأنها غير موضحة في القرآن، فلن يعاقبنا الله على التقصير فيما لا نعرف من الحق. وإن كانت الصلاة الحالية هي المطلوبة فقد أصبنا الحق، وقطعنا الشك باليقين. لكن تركها دون أن يكون هناك بديل واضح، يجعلنا نقطع اليقين بالشك، ونترك الصلاة التي أمرنا الله بأدائها في القرآن، وجعلها مع الإنفاق صنوان للإيمان، دون إسقاط لأوامر الدين ونواهيه الأخرى.

تجارة قريش

سورة قريش نزلت بعد سورة الفيل مباشرة، ولكننا ذكرناها أولاً هنا لأن الحديث عن تجارة قريش له علاقة بحملة الفيل. والسورة تذكر قريش بنعمة من النعم الكثيرة التي من الله بها عليهم، وهي رحلاتهم التجارية في الصيف وفي الشتاء: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴿٤﴾﴾.

وتقول السورة إن القرشيين كانوا آمنين في رحلاتهم تلك، مثلما أنهم آمنين في مكة. وهذا لا يتوفر لقبائل جزيرة العرب الأخرى، التي تتعرض للسلب والنهب من البدو، سواء كانوا في الحل أو في الترحال. وسبق وقلنا إن قريش اكتسبت نظرة خاصة عند كل سكان جزيرة العرب، باختلاف أعراقهم ودياناتهم، بحكم كونها خادمة لبيت الله وللحجيج. وكأن هناك معاهدات دولية بين كل قبائل الجزيرة ألا يتعرضوا لأحد في مكة، فأصبحت بلداً آمناً على الدوام، وهناك معاهدات أخرى ألا يتعرضوا لقرشي خارجها. لذا لم تدخل قريش في حرب أبداً، إلا ما كان من حرب الفضول والتي جرت خارج مكة، إن صدقت رواية التاريخ.

وتشير السورة إلى أن قريش كانوا يعيشون في رغد من العيش «الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ»، مع أن مكة تقع «بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ». وهو ما يؤكد ما ذكره التاريخ عنهم من أنهم أهل تجارة. وهذه التجارة تتطلب الترحال، والتاريخ يقول إنه كان لهم رحلات لبلاد اليمن ولبلاد الشام والعراق. وما يؤكد ذلك أن مكة تقع على طريق تجاري هام، وهو طريق اللبان (البخور) الذي يصدر إلى أوروبا عبر بلاد الشام، مروراً بمكة. ويكون القرشيون هم الوسطاء بين المنتج ـ اليمن ـ حيث يرتحلون ويجلبونه من هناك إلى سوق عكاظ في أوائل الصيف[1]، ثم يرتحلون للشام لبيعه.

(١) يستخرج اللبان في الشهر الرابع الشمسي (أبريل / نيسان)، وتشتهر به بلاد حضرموت والمهرة وظفار، وكذلك جزيرة سقطرى.

وقد ذكر المؤرخ الصقلي، ديو دورس، الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وفي المجلد الثاني من موسوعته «مكتبة التاريخ» أن اللبان كان ينتج في سقطرى وأن أهلها كانوا ينقلونه لسواحل اليمن الجنوبية، حيث ينتظرهم العرب الذين يشترونه وينقلوه إلى الشام ومنها إلى أوروبا. ولعل اللبان سواء كان من سقطرى أو من بلاد ظفار والمهرة وحضرموت، كان يجلب إلى شبوة، مثلما يجلب البخور والتوابل من الهند إليها. وتكون شبوة القديمة هي السوق الرئيسية التي يحضر إليها التجار من مناطق متفرقة، ومن بينهم تجار مكة، الذين ينقلون حمولاتهم إلى سوق عكاظ. وهناك يتم بيع الحمولة المجلوبة من بلاد اللبان والبخور، لتجار آخرين. والذين بدورهم ينقلونها للشام لتباع هناك على التجار القادمين من أوروبا الذين ينقلونها لبلادهم.

والبخور والبهارات الهندية، مع اللبان من سقطرى وجنوب الجزيرة العربية، كان وراء عظمة مملكة سبأ وقوتها الاقتصادية. كما أن امتهان قريش استيراد تلك المنتجات، وإعادة تصديرها، يفسر كيف استطاعوا أن يصبحوا من أصحاب الأموال الطائلة بلغة ذلك العصر، مع أنهم يعيشون في مكة، تلك البلدة التي تتناثر بيوتها حول بيت الله الحرام، والتي تفتقر للماء والزراعة، ولا تملك أي موارد طبيعية أخرى يمكن أن تقوم عليها تجارة رابحة.

وتلك التجارة تفسر سبب إقامة سوق عكاظ في وقت محدد من العام فقط، وهو موسم جلب تلك المنتجات من جنوب الجزيرة وبيعها في عكاظ لمن سيعيد تصديرها لبلاد الشام. وكل النشاطات الأخرى التي كانت تزدهر في السوق، سواءً كانت تجارية أو أدبية، هي نشاطات جانبية قامت على هامش التجارة الرئيسية. ولم يكن الشعر هو النشاط الرئيسي الذي قامت عليه سوق عكاظ كما يورد الإخباريون.

وسوق عكاظ يقع إلى الشرق من الطائف، وفي أرض منبسطة، تقع إلى الشرق من جبال السروات الوعرة، مثلما أن المناطق المنتجة للبان تقع إلى الشرق من جبال السروات، ومثلما أن شبوة السوق الرئيسي لتلك المنتجات تقع إلى الشرق من جبال السروات. والجمال كانت الوسيلة التي تنقل عليها أحمال اللبان والبخور والبهارات، وهي حيوانات يسهل عليها السير في المناطق المنبسطة والصحراوية ولا يناسبها الطرقات الجبلية، لذا كان طريق اللبان يسير بمحاذاة الأطراف الشرقية من جبال السروات، بادئاً بمناطق الإنتاج أو بشواطئ البحر العربي بالنسبة للبخور والبهارات القادمة من الهند، واللبان القادم من سقطرى. ثم تتجه الدواب المحملة إلى شبوة. وهناك يقوم تجار شبوة باستلامها. وعلى مدى أيام يقومون ببيعها للتجار القادمين من مناطق بعيدة ومنهم قريش، بواسطة مزاد علني على الأرجح، وهو ما يذكره المؤرخون القدماء، الذين يذكرون أن اللبان كان يجمع في معبد الشمس في شبوة، على شكل أكوام يوضع على كل كوم منها لوحة تشير إلى وزنها وسعرها ويتجول التجار بينها ويضعون على اللوحة السعر الذي يريدون الشراء به.

وبعد انتهاء البيع والشراء، يقوم المشترون بحمل بضائعهم والتوجه باتجاه الشمال، سالكين الطريق الدولية. وبعد أن تمر الطريق بمحاذاة نجران تتفرع إلى فرعين رئيسيين: أحدهما يتجه يميناً إلى العراق ـ عبر اليمامة ـ والآخر يتجه إلى الشمال،ماراً بالقرب من الحواضر الواقعة على الأودية الرئيسية المنحدرة من جبال السروات، مثل: تثليث، بيشة، تربة، قبل أن تصل إلى سوق عكاظ. وهناك يعاد بيع البضاعة إلى تجار آخرين يقومون بنقلها إلى بصرى الشام حيث تباع على تجار آخرين ينقلونها لروما واليونان وبقية أوروبا.

ولابد أن هناك رجال قريش قد امتهنوا شراء تلك المنتجات من شبوة، والبعض الآخر كان يشتريها منهم في سوق عكاظ وينقلها للشام ليبيعها في بصرى.

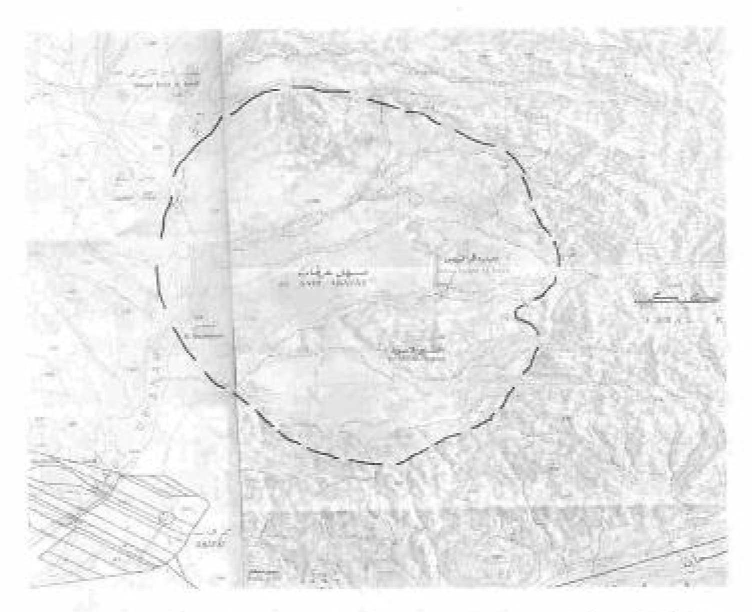
والطريق الموصلة بين سوق عكاظ ومكة تسير في مسار يعرف اليوم بطريق السيل، لأنه طريق أسهل بكثير من الطريق الجبلية التي تصل الطائف بمكة، والتي لا تناسب الجمال والأحمال الثقيلة. ويجب ملاحظة أن الطريق لا تدخل مكة ولا أي من الحواضر، لكنها تمر بالقرب منها.

وقد أكدت سورتا التكاثر والعاديات أن قريش كانت منغمسة تماماً بترفها الدنيوي الذي وفرته لها تجارتها، لذا لم تعر اهتماما لما بدأ محمد يتحدث به عن يوم القيامة وحياة ما بعد الموت، وهو ما كان منتظراً من أغلب رجالها، حسب قاعدة سنة الأولين.

حادثة الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴿٥﴾.

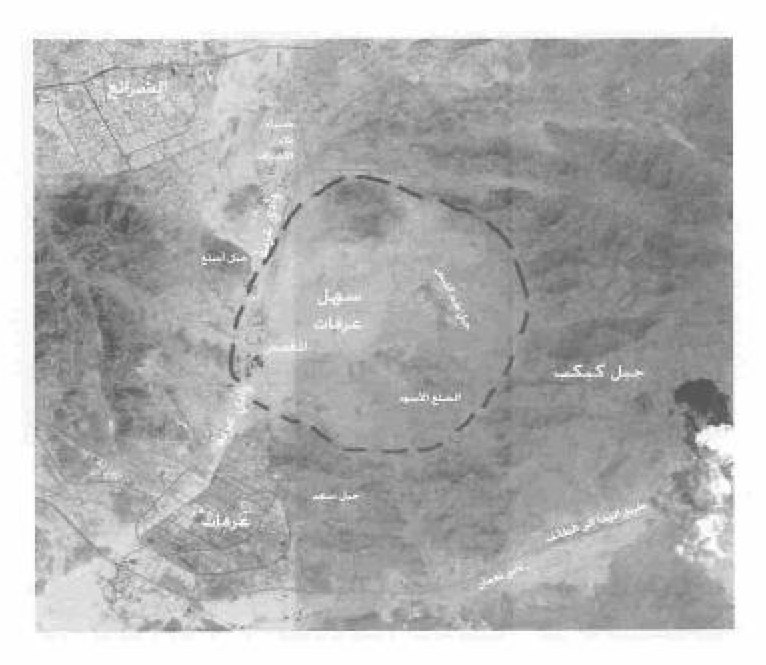
لقد أسهبنا في تناول الحادثة في ملاحق كتاب سنة الأولين، كما تطرقنا لها في حديثنا عن قريش في هذا الكتاب. ونضيف هنا أن القرآن يوردها كواحدة من نعم الله على قريش، حيث أهلك أبرهة وجيشه قبيل دخولهم مكة، بواسطة بركان ثار في نفس البقعة التي باتوا فيها ليلتهم الأخيرة خارج مكة استعداداً لدخولها صباح اليوم التالي. ولعلّي أكثر قناعة الآن من أن المكان الذي هلك فيه أصحاب الفيل هو الذي يقع إلى الشمال الشرقي من عرفات، وإلى الشرق والجنوب الشرقي من الشرائع الحالية، والمسمى على الخريطة الطبوغرافية المرفقة «سهل عرفات»، حيث يمر وادي عُرنة الحالي الذي كان يسمى وادي المغمس.



ولازال هناك بعض المزارع الصغيرة يطلق عليها المغمس. وبنظرة إلى الصورة في الأسفل لنفس المكان الموضح في الخارطة يمكن التأكد من أنه بالفعل فوهة بركان قديم، وإن عملت التعرية على تغيير بعض ملامحه، إلا أن الشكل العام بقي واضحاً.

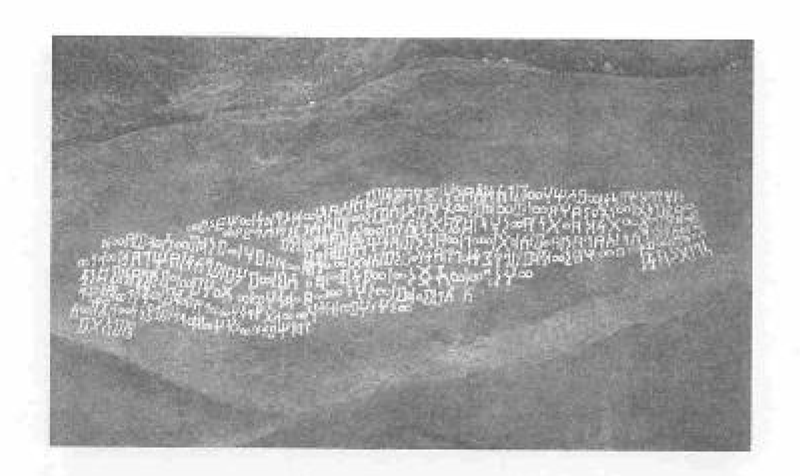
وأبرهه من ملوك اليمن الأكسوم[١]، ولا نعرف متى قدم لمهاجمة مكة تحديداً، ولكننا نعرف أنه كان ملكاً على سبأ وذو ريدان وحضرموت، في العام ٦٦٢ من السنة السبأية، الموافق ٥٤٧ من السنة المسيحية، تقريباً. لأن عالم آثار فرنسي اسمه ريكمنس(G. Ryckmans) عثر على نقش سبئي في مأرب، اليمن، أوائل الخمسينات من القرن العشرين، يروي أن أبرهة قد خرج

(١) نسبة لمملكة أكسوم، الاسم القديم لما يعرف اليوم بأثيوبيا، والتي حكمت اليمن فترات طويلة قبل الإسلام.



●● الخارطة من إنتاج وزارة البترول والثروة المعدنية بالسعودية ـ إدارة المساحة الجوية (طبعت ١٩٧٥) وإحداثيات المكان: N:21:25:00, E:40:00:00

في حملة لتأديب بعض القبائل التي خرجت عن طاعته، وقد اشتبك معهم في معركتين واحدة في تربه القريبة من الطائف، والأخرى بالقرب من حلبان. وتربه من الحواضر القديمة التي قامت على ضفاف الأودية المنحدرة من جبال السروات باتجاه الشرق، وهي وحلبان لا زالا يحملان نفس الاسم وهما بلدتين عامرتين الآن. وحملة أبرهة تلك سبقت حملته على مكة بسنوات. وهذه صورة للنقش المذكور:



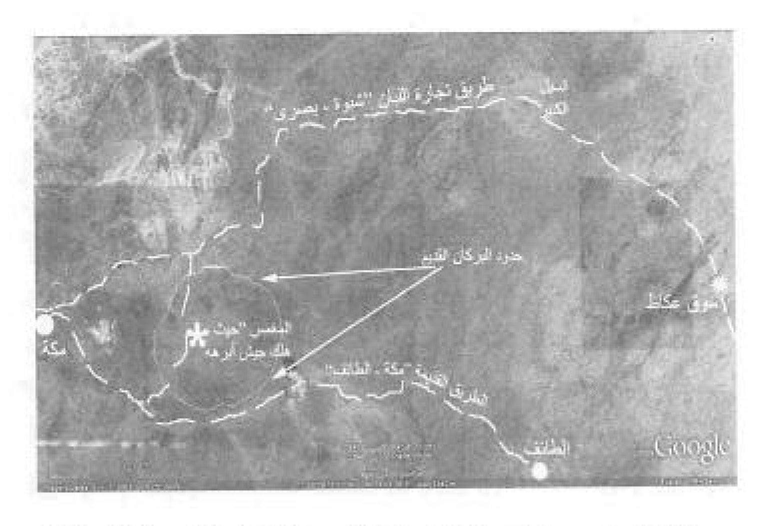
وكما أن حملة أبرهة على مكة لم تكن الأولى له على بلاد نجد والحجاز، فإنه لم يكن أول من هاجم تلك المناطق، فقد تم اكتشاف حجر في وادي مأسل الجمح، القريبة من حلبان، وعليه كتابة سبئية، تتحدث عن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت واليمن «معد كرب يعفر»، الذي جاء إلى مأسل لنصرة الأعراب الذين ثاروا على المنذر. والنص يرجع تاريخه إلى سنة ٦٣١ سبئية الموافق[1] للسنة المسيحية ٥١٦. أي قبل حملة أبرهة على حلبان وتربة بواحد وثلاثين عاماً.

ولابد أن أبرهة قد سلك طريق البخور «اللبان» من سبأ إلى مكة، ماراً بما يعرف اليوم بالسيل الكبير، ومنحدراً مع وادي عرنة، حيث قرر المبيت هناك فيما سمي على الخريطة الطبوغرافية المرفقة بسهل عرفات، ليدخل مكة صباح اليوم التالي.

---

(١) كما ذكر المؤرخ والأثري د. الأنصاري، الذي ترجم النقش للعربية.

وقد نشرت الوطن السعودية[1] اكتشاف نقش أثري، قالت إنه لجيش أبرهة في موقع مريغان الأثري بتثليث، دون أن تذكر الجريدة نص النقش ولا ترجمته، مما يجعل التصديق بأنه يتحدث عن حملة أبرهة على مكة يحتاج لبرهان. وقد يكون نقشاً سبئياً، لكن ليس بالضرورة أن يتحدث عن حملة أبرهة أو له علاقة بها.



وقد كررت سورة التين تأكيد حقيقة أمن مكة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴿٣﴾.

مما يعني أن مكة قبل الإسلام كانت تعيش وضعاً استثنائياً، جعلها خارج دائرة الحروب وغارات السلب والنهب التي تعصف بأهل جزيرة العرب، والمحاولة الوحيدة لمهاجمة مكة كانت من أبرهة الذي هلك وجيشه قبل دخول بيت الله.

---

(١) العدد ٣١٣٤، يوم الأربعاء ٢٠٠٩/٤/٢٩.

المرحلة الثانية / الاستعداد والتأهيل النفسي

السور: المزمل

المخاطب: محمد

نوع الخطاب: تأهيلي لمحمد

المرحلة الأولى كانت مجرد تعريف لمحمد أنه أصبح رسولًا لله، وتذكير لقريش ببعض نعم الله عليهم. وتأتي هذه المرحلة كفترة تأهيل نفسي لمحمد ليكون قادراً على تحمل أعباء الدعوة، قبل أن يبدأ الدعوة فعلياً: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيماً﴿١٢﴾ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلًا﴿١٤﴾.

وبرنامج التأهيل عبارة عن تلاوة السور القرآنية، التي سبق ونزلت عليه، في جوف الليل، حيث الهدوء التام، والصفاء الذهني. وسور المرحلة الأولى في مجملها تسبيح لذات الله، وإحضاره في الذهن. ولأن محمداً يسهر معظم ساعات الليل فلا بد أنه كان يرتاح في النهار، مما يعني أنه قد انقطع عن ممارسة حياته العادية قبل البعثة، وانقطع عن مخالطة الناس، وأصبح تركيزه على قراءة القرآن وتسبيح الله. ولكي يؤتي البرنامج نتائجه المتمثلة بصفاء النفس والقدرة الفائقة على الاستخفاف بالأذى النفسي وتقبل عناد قريش المنتظر، والنظر إلى الأمور الدنيوية نظرة ثانوية، فلا بد أنه استمر لفترة كافية

يمارس برنامجه التأهيلي دون أن يقوم بأي نشاط دعوي. ويمكن تقدير تلك الفترة ببضعة شهور.

ومن أهم الأحداث التي يمكن أن نستنتجها من هذه السورة ما يلي:

الإعلان لقريش أن محمداً رسول الله

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴿١٧﴾ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴿١٩﴾.

وإن كان محمد قرأ على قريش السور التسع التي نزلت عليه في الفترة السابقة فهو قرأها للتذكير بأن هناك بعث ونشور، والتفكير في إمكانية حدوث ما يذكرهم به، دون أن تفصح لهم الآيات أنه رسول الله وأن ما يتلو عليهم منزل من الله. وهو ما جعل قريش لم تأخذ الأمر بمحمل الجد، ولم تهتم كثيراً بما يتلى. أما بعد نزول هذه السورة فالأمر اختلف، فمحمد يزعم أنه رسول لله وأن على قريش تصديقه فيما يقول، وإلا سيأخذهم الله أخذاً وبيلاً كما فعل بفرعون عندما كذب دعوة موسى، وسيكون هناك حياة بعد الموت وعذاب أو نعيم.

والتصديق بمحمد يعني أن موروث قريش الذي سار عليه آباءهم وأجدادهم غير صحيح، ويعني أن أولئك الآباء والأمهات في نار جهنم لأنهم لا يؤمنون بما يدعو له محمد. ويعني أن على قريش الاعتراف بضلالها وأن آلهتها لا تنفع ولا تضر، وأنهم وآباءهم لا يفقهون ولا يعرفون الحق من الباطل. وأن محمداً جاء ليعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، مع أنهم أعلم وأكثر دراية وحكمة منه، كونه شاب قليل الخبرة والإطلاع، ولم يمارس الحياة كما مارسها عقلاؤهم.

فهل يعقل أن ما يقوله هو الصحيح، وأن عقلاءهم وآباءهم ضلوا عن الحق؟

أم أن محمداً هو من أصيب في عقله؟ وهذا فيه تبرير لموقف قريش.

والآية الأخيرة من سورة المزمل سنتحدث عنها عند تناول السور المدنية لأنها نزلت في المدينة، كما سبق وبينا، عند الحديث عن الملامح.

المرحلة الثالثة / الإنذار والبداية الفعلية للدعوة

السور: تمثلها سورة واحدة ـ كما المرحلة الثانية ـ هي المدثر.

المخاطب: قريش

نوع الخطاب: دعوي تحذيري.

من هنا البداية الفعلية للدعوة، بعد أن كانت المرحلة الأولى تعريفية، والثانية تأهيلية لمحمد. والمدثر سورة تعلن تغير أسلوب الخطاب من التذكير الهادئ «فذكر إن نفعت الذكرى» في سورة الأعلى، إلى الإنذار في هذه السورة. ووعيد من يبقى على الكفر بالويل في الآخرة والثبور في الدنيا، مع تسفيه الموروث الثقافي والديني القرشي.

لقد بدأت الدعوة الفعلية من هنا. فبدأت قريش تعلن تكذيبها للرسول وتسخر منه، وصاحب ذلك بعض التصرفات الناتجة عن ردة الفعل. واستمر الحال كذلك طوال فترة المرحلة التالية أيضاً.

وأهم ما يمكن اعتباره أحداثاً في هذه المرحلة، ما يلي:

إعلان المهمة الصعبة

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴿٢﴾﴾.

بداية السورة السابقة بيا أيها المزمل، وهذه السورة بيا أيها المدثر لا تعني ما قاله المفسرون إن الرسول عندما نزلت عليه هاتين السورتين كان متدثرا

ومتزملا بأرديته وملابسه خوفاً ورهبة مما حل به من الوحي الذي لم يفهم كنهه. ولكنهما استعارتان تشيران إلى أن أسلوب حياته السابق الذي اعتاده في سنواته السابقة قد ولى بلا رجعة، وأن عليه من الآن وصاعداً أن يألف أسلوباً آخر في تمضية يومه وليلته.

وقوله «قم فأنذر» تأمره بأن يشمر عن ساعديه وأن يمضي وقته بين منتديات قريش وأماكن تجمعهم، يتلو عليهم ما ينزل عليه من القرآن، دون مواربة، ولو حملت الآيات وعيداً وتهديداً لهم عامة أو لأحدهم خاصة. وأن يَنْذُر وقته كله للدعوة، ويذر ما كان يشغله من مشاغل دنيوية قبلها. وبرنامج التأهيل النفسي كان لترويضه على القيام بذلك وقدرته على الاستمرار فيه، وهو ما يجعل هذه المرحلة مرحلة البداية الفعلية للدعوة. بعد المرحلة الأولى التي كانت تعريفٌ لمحمد بالخالق ولقريش بنعمه سبحانه، والمرحلة الثانية التي كانت تأهيلٌ لمحمد ليكون قادراً على تحمل المسؤولية، وإعلانٌ لقريش أنه رسول لله.

والدعوة التي بدأت للتو عبارة عن تذكرة لمن يرغب في إنقاذ نفسه، وليست إكراهاً لأحد: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴿٥٦﴾.

تغيير أسلوب حياة محمد

البدء بالدعوة يعني أن محمداً يحتاج للاستمرار ببرنامج التأهيل النفسي والذي يعتمد إحضار الله في النفس دائماً، عن طريق تسبيحه وتكبيره: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴿٣﴾.

مع تعود الصبر على ما سيلاقيه من أذى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴿٧﴾. وسنرى أن هذا البرنامج سيستمر في سور كثيرة قادمة.

والبدء بالدعوة يفرض على محمد أسلوب حياة مختلف عما اعتاده في السابق. حيث يتوجب عليه أن يبتعد كلياً عن كل ما له علاقة بحياة ما قبل

الإسلام، ولو كانت معتادة في مجتمعه القرشي. ومن ذلك الحرص الدائم على طهارة الثياب من الأنجاس، وهجر كل ما له علاقة بالطقوس الوثنية من عبادات ومعتقدات وعادات: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴿٥﴾.

وعليه أن يجعل أوامر الدين طريقة حياة، فالإنفاق على المحتاج أمر يجب الحرص الدائم عليه، وألا يمتنع عنه جزئياً أو كلياً أو مؤقتاً، خوفاً من نقص ماله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴿٦﴾.

وهو استمرار للأمر بالإنفاق الذي كان أول ما فرض على المسلم مع الصلاة، كدلالة على أن الإسلام عبارة عن علاقة من شقين، لا تكتمل إلا بهما معاً، وهما: علاقة بين الله والعبد والتي ترمز لها الصلاة، وستلحق بها العبادات الأخرى التي ستفرض لا حقاً. وعلاقة بين العبد وأخيه، والتي يرمز لها الإنفاق، وسيلحق بها التشريعات الأخرى التي ستفرض فيما بعد.

والسورة تؤكد هذه النقطة في آيات أخرى، عندما تقول إن موجبات النار، عدم التمسك بعلاقة دائمة مع الله بالصلاة وعلاقة دائمة مع الناس بالإنفاق: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴿٤٧﴾.

موقف مع أحد الكبراء

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴿٢٦﴾.

الآيات تعطينا صورة لمواقف قريش عموماً من الدعوة في وقت باكر، عبر ما حدث لأحد كبرائها مع محمد. فهذا القرشي، الذي يعتبر من الوجهاء نسبة للمعايير التي وضعها ذلك المجتمع للوجاهة، والمتمثلة بكثرة المال وكثرة الولد، قد استمع لمحمد وهو يتلو عليه بعض سور القرآن، وتأثر بما سمع، وعرف أنه لا يمكن أن يكون من كلام محمد، وكان قاب قوسين أو أدنى لتحكيم عقله بما يسمع وبمعتقداته، ولو فعل لتوصل للحقيقة وأسلم. لكنه تراجع عن السماح لعقله بأن يدله على الحق، واختار التمسك بالموروث. ولكي يبرر لنفسه رفضه للحق، قام بمهاجمته، واتهم محمداً بالقدرة على قول كلمات تسحر العقل وتفقد المرء السيطرة عليه، وإتباع الساحر في كل ما يقول. وبما أن قريش تؤمن بوجود الله، فلا يمكن أن يعترف هذا القرشي بأن ما سمعه منزل من الله، لأنه لو فعل لألزم نفسه بالإيمان به. لذا سارع قائلاً بأنه سحر وأنه من صنع البشر وليس من الله. وهذا الموقف يصور موقف قريش العام من الدعوة، فهم علموا أن ما يتلى عليهم لا يمكن أن يقوله محمد من عنده، فقاموا بمهاجمته على أنه سحر لكي يبرروا لأنفسهم بقاءهم على عقائدهم التي يصفها القرآن بالضالة، وهو موقف سارت عليه كل الأمم سابقها ولاحقها. فرجال الدين اليوم، ومن أي عقيدة، لا يمكن أن يعترفوا أنهم على ضلال، لو جاء غيرهم ليؤكد لهم بطلان ما هم عليه وبالدليل والبرهان. وسيهاجمون من يحمل لهم الحقيقة على أنه هو الضال، وهم الذين على الحق.

وهذا ليس حكراً على رجال الدين ولكن على كل منتفع من أي وضع فاسد قائم يأتي الدين أو الحركات الإصلاحية لبيان عيوبه وتدعو لتصحيحها. ولن يوافق أحد منهم على التصحيح إلا من سمح لعقله بتحكيم ما هو عليه والاستماع لما يقال عنه، وهؤلاء قلة. أما الأغلبية فسيحاربون التصحيح كما حاربته الأمم السابقة، وكما حاربت قريش دعوة محمد.

والناس عادة نوعين بالنسبة لدعوة الحق أو التصحيح: فئة لا يستمعون أصلًا لما يقال فقط لأنه مخالف لما هم عليه، بمعنى أنهم يحكمون عليه غيابياً. أو أنهم يستمعون وهم قد عقدوا العزم على البقاء على ما هم عليه ويرفضون أي تغيير. وهؤلاء منكرون ولا يمكن أن يؤمنوا.

وفئة تستمع ليس من أجل البحث عن الحقيقة في البداية، ولكن من أجل إيجاد عيوب فيما يقال لمهاجمته، ومن هؤلاء من يجد فيما يقال بعض الحقائق التي تجعله يشك فيما يعتقد. والشك دائماً هو الخطوة الأولى للوصول لليقين، لكن أغلب الناس يمتنعون عن مواصلة المشوار إلى النهاية.

ووعيد قرشي بعينه وأنه سيدخل النار، وهو لازال على قيد الحياة، لا يعني أن الله قد قرر عليه الشقاء، وأنه لن يفتح عقله ليفكر بحقيقة الدين ويهتدي للحق. ولكن الوعيد بالنار جاء نتيجة لاستقراء سنة الأولين التي سار عليها البشر، والتي تؤكد أن من لا يؤمن منذ بداية سماعه للدعوة فلن يؤمن أبداً، مهما دعي ومهما امتد به العمر. وهذا القرشي أحد هؤلاء الذين استمعوا للدعوة وفكروا فيها وقرروا الكفر، لذا لن يؤمن، وبالتالي فمصيره النار.

المرحلة الرابعة / استمرار الدعوة وإصرار قريش على الكفر

السور: القارعة، الزلزلة، الانفطار، الانشقاق، التكوير، الشمس، الليل، الطارق، الفجر، البلد، القيامة، النبأ، ق، الواقعة، الغاشية، الحاقة، المطففين، عبس، المرسلات، الجن، الفلق، الناس، الإنسان، الملك، يس، الرحمن، النجم، ن والقلم، الطور، نوح، القمر. إضافة للضحى والشرح، الهمزة، القدر، بمجموع ٣٥ سورة.

المخاطب: كبراء قريش[1]، كما كان الحال في المراحل السابقة.

نوع الخطاب: دعوي تحذيري، والجو العام في مكة خلال هذه المرحلة كان يسير على وتيرة واحدة لا تتغير، تتمثل بإعراض قريش عن الاستماع لمحمد، برغم استمراره بالدعوة، ولا وجود للعنف ضد المسلمين.

ولو أضفنا سور هذه المرحلة وأحداثها لسور المراحل الثلاث السابقة، فسيكون قد نزل ٤٦ سورة من أصل ٨٩ نزلت في مكة، أي أكثر من ٥١٪ من إجمالي السور المكية. ولو اعتبرنا هذه النسبة دلالة على الزمن، فإن أكثر من ٥١٪ من وقت الدعوة في مكة يكون قد انقضى بنهاية هذه المرحلة. وهو ما يزيد على ست سنوات ونصف، من أصل ١٣ سنة قضاها محمد في الدعوة في مكة، إن صدق المؤرخون.

وبرغم أن هذه المرحلة تعتبر أطول مراحل الدعوة في مكة، وأكثرها سورا، إلا أن الأحداث التي وقعت فيها قليلة جدا، بالنسبة لطول فترتها. وذلك عائد إلى أن السور استمرت منذ بداية الدعوة تخاطب كبراء قريش، وإن اختلف الأسلوب. فسارت الأوضاع على وتيرة واحدة، تمثلت باستمرار الرسول بالدعوة وتلاوة القرآن، مع إعراض قريش عن الاستماع أو القبول. دون أن يؤذوا الرسول ومن معه جسدياً، وإن آذوه بالسخرية واتهامه بالكذب والسحر وغيرها، لتبرير عدم تصديقهم. ولو استمر أسلوب الدعوة كما كان عليه في هذه المرحلة فلن تؤمن قريش، ولن يزيد عدد المسلمين القلة، ولو بقي محمداً بينهم بقاء نوح في قومه. ذلك أن السُنة التي سارت عليها الأمم تفرض أن من لم يؤمن بالدعوة حال سماعها فلن يؤمن بها ولو ترددت على مسامعه طوال حياته.

وفيما يلي أهم ما وقع من أحداث:

---

(١) الخطاب موجه لقريش، ولكن المقصود بالفعل هم الكبراء، لأنهم هم من يقود بقية الناس في المجتمع للإيمان أو الكفر.

إعلان قريش موقفها النهائي من الدعوة

بضعة أشهر فقط مرت على إعلان القرآن أن محمداً رسول الله إلى قريش: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴿١٧﴾ المزمل.

وكانت هذه المدة القصيرة كافية لتتأكد قريش من أن محمداً جاد في دعوته، فسارعت بإعلان كفرها بما يدعو له، وهو ما تشير له السور الأولى لهذه المرحلة، مثل الانشقاق: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٤﴾.

وهذا الوضع سيستمر ولن تتراجع عنه قريش أبداً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴿٥﴾ ق.

متبعة سنة سارت عليها كل الأمم. فمن لا يؤمن منذ سماعه للدعوة لن يؤمن بعد ذلك أبداً، مهما دعي: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴿١٥﴾ ق.

وموقف قريش نهائي، ولن يتغير: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴿٩﴾ وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴿١٠﴾ يس.

فجاء الهجوم عليهم شديداً، ومن ذلك تكرار عبارة «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ» لتأكيد الوعيد الشديد لهم. والعبارة لم ترد في كل القرآن سوى اثنتي عشرة مرة، عشر منها في المرسلات، ومرة واحدة في المطففين، ومرة في سورة الطور، وكلها من سور هذه المرحلة.

وكردة فعل، بدأت قريش باتهام محمد بشتى أنواع التهم:

فهو يكذب على الله، أو أن ما يتلو عليهم إما شعر بطريقة جديدة مختلفة عن الشعر الذي يعرفون، أو تمتمات كهان، أو كلام يسحر من يستمع له: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٣﴾. فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴿٤٧﴾ الحاقة.

أو أن القرآن مجرد قصص خرافية قديمة استطاع محمد تجميعها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿١٤﴾ المطففين.

وقريش هاجمت شخص محمد لكي تبرر لنفسها كفرها بالدعوة. فمن غير المعقول أن تعترف أنه رسول لله وأن ما يقوله منزل عليه من الله ولا تؤمن به. فكانت السور تنزل لدحض اتهاماتهم.

فقد أكدت سورة «ن والقلم» أن محمداً ليس كما تتمنى قريش أن يكون: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴿٤﴾.

وهو ما تؤكده سورة التكوير: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴿٢١﴾

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴿٢٨﴾.

والتكوير تقول إن ما يتلو محمداً عليهم ليس كما يزعمون، لكنه تنزيل من رب العالمين، نزل به أحد الملائكة، الذي رآه محمداً رؤيا العين يقيناً. وهو ذكر لمن رغب في إنقاذ نفسه من عذاب الله.

وتأتي سورة الحاقة لتكرر تأكيد ما ذكرته التكوير، وتقول إن القرآن حق، وإن الرسول لا يستطيع أن يدعو الناس بكلام من عنده أو بغير القرآن الموحى إليه، ولو فعل فسيعاقب: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴿٥٢﴾ الحاقة.

كما أكدت القيامة أن الإيمان خيار شخصي، ولم يُقدّر الإيمان والكفر سلفاً على الناس: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴿١٥﴾ القيامة.

وتكذيب قريش واتهاماتها المختلفة لمحمد كان له وقع سيء في نفسه، تأذى منه كثيراً. وفي كل مرة ينال منه الأذى النفسي تنزل الآيات لتشد من عضده وتشحذ همته على التسلح بالصبر، وعدم الاهتمام بما يقولون: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴿٤١﴾ ق.

مع المداومة على تسبيح الله ليتقوى نفسياً ويشعر بقرب الله منه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴿٢٥﴾ الجن.

ولكن عبء الدعوة ثقيل جداً، ومحمد يواجه مصاعب لا حصر لها. فقريش تسخر، وتؤذي وتلاحق ولا تستمع، وعندما يمر بجمعهم يسلقونه بنظرات حداد: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴿٥١﴾ن والقلم.

ملاحقة محمد بالأسئلة الساخرة

امتداداً لتكذيب قريش، بدأوا يلاحقون الرسول بالأسئلة سخرية منهم وعدم تصديق، وليس للمعرفة واليقين. ومن الأسئلة التي وجهتها قريش لمحمد كان التساؤل عن بداية تلقيه الوحي، متى كان؟

فجاء الجواب بنزول سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴿٥﴾.

فالسورة تقول إن بداية تلقي محمداً للوحي كان في ليلة أصبحت مباركة لأن الوحي بدأ النزول فيها، وليس لأنها ليلة مقدسة أصلاً، كما ترسخ لدينا بواسطة المفسرين. وقد تكرر ذكر هذه الليلة التي بدأ فيها نزول الوحي «ليلة القدر» في سور أخرى، لأن قريش كررت السؤال، ومن ذلك ما جاء في سورة الدخان من سور المرحلة القادمة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴿٤﴾ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴿٥﴾.

كما تكرر مرة ثالثة في المدينة أثناء الحديث عن رمضان والصيام، وذلك في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ

﴿الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٨٥﴾ البقرة.

والمسلمون اليوم يقدسون ليلة مهمة في رمضان، ليس لأنه بدأ الوحي ينزل فيها، لكن لأن المفسرين حولوا معناها إلى ليلة تحدث فيها أعاجيب وظواهر غير طبيعية، من دعا أثناءها فستتحقق له أمانيه. ونسي الناس أن قدسيتها استمدت من كونها أول ليلة يتلقى فيها محمد أول سورة من القرآن، وليس لها قدسية بذاتها. وهذه هي حقيقتها التي يمكن للمسلمين الاحتفال بها ـ إن شاءوا ـ دون انتظار لتحقق أماني أو حدوث معجزات حسية، أو تحويلها لليلة يقبل فيها الله الدعاء أكثر من غيرها، أو أنه مطلوب فيها الذكر وقراءة القرآن أكثر من غيرها، فكل هذه المزاعم لا أصل لها في دين الله وإنما ألصقت فيه بواسطة البشر. واللافت أن أكثر من يهتم بليلة القدر بمفهوم المفسرين هم أشد مذاهب المسلمين تشدداً ومحاربة للغلو كما يزعمون، لكنهم يتناسون ما ينهون عنه غيرهم في حالات يهتمون فيها بموضوع معين، مثل اهتمامهم بما سموه ليلة القدر «العجيبة».

ومن تساؤلات قريش ما تتحدث عنه سورة البلد، بافتتاحيتها: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴿٣﴾.

وقوله «هم فيه مختلفون» قد يشير إلى أن رجال قريش أول ما سمعوا القرآن يتحدث عن حياة ما بعد الموت، دخلوا في جدال ونقاش فيما بينهم، البعض رأى أن يكون هناك إمكانية لوجود البعث والبعض أنكره.

فبدأوا يسألون محمد عن تحديد موعد له إن كان صادقاً في زعمه أنه سيقع: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴿٤٥﴾.

كما ورد هذا التساؤل في سورة سميت بالقيامة، التي أكدت على البعث:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴿٣﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴿٦﴾.

وقوله «بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ» يبين أن تساؤل قريش ليس بحثاً عن الحقيقة ولكنه لتبرير استمرارهم رفض دعوة محمد.

وكان رد السور على تساؤلهم أن البعث علمه عند الله ولا يعلم عنه محمد شيئاً: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴿٢٦﴾ الملك.

والتصديق بالبعث يعني تصديقهم لمحمد فيما يدعو إليه، ولو صدقوه فلا بد أن يؤمنوا بدعوته، والإيمان يعني التنكر للتراث والثقافة الموروثة. لذا نجد أن رأيهم في النهاية استقر على إنكار البعث واتهام الرسول بالكذب.

والتساؤل الساخر عن البعث يظهر تطور الأحداث، وكيف بدأت العلاقة بين محمد وقريش تنحى منحى التباين والتباعد. فقريش في هذه الفترة بدأت تستهزئ علانية بما يدعو له الرسول، وبدأت تقابله بأسئلة ساخرة وتهكم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴿٣٦﴾ المطففين.

دخول بعض أهل مكة في الإسلام

الأيام تمر ومحمد مستمر في دعوته برغم أن كبراء قريش أعلنوا له أنهم لن يتبعوه فيما يقول، لكن يبدو أن قلة من أهل مكة قد صدقوه وتبعوه فيما

يدعو له. وقد جاء أول ذكر للمسلمين في سورة الملك: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٨﴾﴾.

والذين آمنوا بمحمد قليل من الضعفاء أو المقربين منه، وكانت الغالبية منهم فقراء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٤٧﴾﴾ الطور.

ومع أن قريش تملك الأموال الطائلة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴿٤٥﴾﴾ الواقعة.

إلا أنهم يمتنعون عن الإنفاق على المحتاجين: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴿٢٠﴾﴾ الفجر.

وإن كان هناك أحد كبراء قريش الذي يبدو أن مشاعره تأثرت بما سمع من حث القرآن على مساعدة المحتاجين، فقام بالإنفاق لمرة واحدة، ولكنه رفض معاودة الإنفاق لما طلب منه الاستمرار لأن الحاجة لازالت قائمة، والإنفاق يكون ما دام هناك حاجة، وباستمرار وليس لمرة واحدة: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴿٤١﴾﴾ النجم.

أما بقية قريش فكانوا يسخرون من المسلمين لفقرهم وضعفهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴿٣٣﴾﴾ المطففين.

الرغبة في المداهنة

تشير سورة «ن والقلم» أن قريشاً لما رأت أن الرسول استمر في دعوته لسنوات برغم عدم تجاوبهم معه، حاولوا أن يجدو وسيلة تقنعة بالتوقف عن الدعوة: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴿٩﴾ ن والقلم.

أو على أقل تقدير يوافق على ألا يتطرق في دعوته لمواضيع معينة تزعجهم. وهذه الأمنية تظهر أن قريش بالفعل يعتقدون أن محمداً ليس مرسلاً من الله، ويظنون أنه يسعى لتحقيق هدف دنيوي، لو عرفوه وحققوه له فسيتوقف عن الدعوة. والسورة لا تذكر أن قريشاً قد تقدمت بالفعل بعرضها على محمد، لكنها تحذر الرسول من أن يقبل أي عرض منهم «فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ»، فيما لو أقدموا على ذلك.

التربص

عندما نزلت سورة ن والقلم معلنة رفض أي مساومة على الدعوة، عرفت قريش أن الرسول ليس فقط لن يوقف الدعوة بل ولن يقبل بأي اتفاق تهدئة، فبدأت تفكر بطريقة للتخلص منه، أو قتله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴿٣٤﴾ الطور.

وفكرة اغتيال محمد لم تصل لحيز التنفيذ، ولم تحاول قريش ذلك ولا مرة واحدة فاشلة. وقد يكون السبب أن مكة بلد آمن والقتل غير وارد فيها أبداً، كعرف قدسته كل شعوب جزيرة العرب، وقريش لا تستطيع خرق هذه المعاهدة الدولية بقتل محمد، لأنها حامية للبيت وقوانينه، وقائمة على خدمته.

محمد يلوم نفسه ويفكر بالهرب

لقد تأثر محمد كثيراً من موقف قريش المعارض للدعوة، ولم يفهم لماذا يتعرض للأذى النفسي والاستهزاء والأسئلة الساخرة، مع أنه لم يطلب منهم سوى طاعة الله والنجاة بأنفسهم من النار.

ويبدو أن محمداً قد داخله شعور بأنه مسؤول عن إعراض قريش، أو أن قريش لم تؤمن لأن طريقته في تلاوة القرآن والدعوة لم تكن جيدة. فجاءت الآيات في سور كثيرة منها الغاشية لتقول له ألا يقلق بشأن بقاء قريش على الكفر، ولا يظن أن الله سيسأله عن عدم إيمانهم، لأن مسؤوليته تنتهي بإبلاغ وتوصيل الوحي لهم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴿٢٢﴾.

ولكن عبء الدعوة ثقيل جداً، ومحمد يواجه مصاعب لا حصر لها. فقريش تسخر، وتؤذي وتلاحق ولا تستمع. وسنوات عديدة مرت دون أن يطرأ أي تحسن على سير الدعوة، ولا يأتي آخر النهار إلا وهو مرهق ويكاد يصل للانهيار. ونفسه تحدثه بكل شيء، ومن ذلك الهرب وترك التبليغ، فينزل عليه الوحي: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴿٤٨﴾ ن والقلم.

وصاحب الحوت هو رسول الله يونس الذي هرب بالفعل من قومه لما يئس من طاعتهم له، في موقف مماثل لموقف قريش من محمد. لكن يونس استغفر ربه وتاب، بعد أن تعرض لهجوم حوت، ولما شفي عاد مرة أخرى لقومه ودعاهم فاهتدوا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن

يَقْطِينٍ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴿١٤٨﴾ الصافات[1].

---

(١) لقد هرب يونس، إلى سفينة غاصة بحملها، ومحملة بأكثر من طاقتها «الفلك المشحون». لدرجة أنه بمجرد سيرها في البحر لمسافة قصيرة تبين أنها كانت عرضة للغرق، فوقعت القرعة عليه، لكي يغادر المركب ويعود أدراجه سباحة للشاطئأدراجه للشاطئ سباحة للتخفيف من الحمولة: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾. والمدحضون جمع، قد تدل على أنه لم يكن وحده الذي كان عليه مغادرة المركب، بل عدد من الأشخاص هو من بينهم. وقد يكون وحده، هذا لا يهمنا. وأثناء عودة يونس للشاطئ هاجمه الحوت، وبرحمة من الله، لم يقتله، وهو ما عبر عنه القرآن بالبقاء في بطن الحوت إلى يوم يبعثون. وهو تعبير مجازي، لأنه حتى لو أكله الحوت، فلن يبقى في بطن الحوت ليوم القيامة، لأن جهاز الحوت الهضمي سيهضمه كأي طعام آخر، خلال ساعات قليلة، وسينتهي أمره، وما بقي كفضلات سيخرج. ولو مات الحوت بعد ابتلاع يونس، فسيتحلل الحوت ويونس معه، ولن يبقى في بطنه إلى يوم يبعثون، بأي حال من الأحوال.
وما حدث هو أن يونس لم يلتهمه حوت ضخم، لأنه لو ابتلعه فسيموت خلال دقائق، لعدد من الظروف المحيطة، منها نقص الأكسجين، وعصارات معدة الحوت... وغيرها. ولن يبقى حياً في بطن الحوت ليوم أو ثلاثة أو أربعين يوما كما قال المفسرون. لكن يونس تعرض لهجوم من الحوت (سمك القرش). ونشكر العلم الحديث الذي بين لنا أن القرش يصطاد الأسماك والحيوانات البحرية إذا جاع فقط، ويختار الضحية المريضة والسقيمة، ويتجنب السليم. ويعتمد في الصيد على حاسة الشم، لرائحة الدم. وعلى حاسة إلتقاط ذبذبة سباحة الضحية، التي يميز بها السباحة السليمة من غيرها. وإذا ما صادف وجود إنسان يسبح، فإن القرش يلتقط ذبذبة سباحته على أنها غير طبيعية، بالنسبة لسباحة الحيوانات البحرية، فيقترب القرش من الإنسان للتعرف عليه. فإن اضطرب في سباحته، نتيجة الخوف ومحاولة الهرب، فإن القرش سيترجمها على أنها سباحة مصاب، فيهاجمه. لكن لو تماسك المرء وسبح بهدوء فسيدور القرش حوله عدة مرات ليتعرف عليه، ثم يبتعد. وهو ما يجعل المصورين التلفزيونيين والعلماء يسبحون بالقرب من القرش، ويلامسونه دون أن يهاجمهم. ويبدو أن قرشاً اقترب من يونس فخاف منه وحاول السباحة بسرعة، مما جعل ذبذبات سباحته تترجم لدى القرش على أنها سباحة غير سليمة، فهاجمه. والقرش والحيتان الأخرى، لا تلتهم ضحيتها كاملة دفعة واحدة، ولكنها تقوم بالانقضاض على أحد أطراف الضحية وقضمها، ثم تواصل التهام بقية الجسد قضمة قضمة. والقرآن دقيق في تصوير ما حدث «فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ»، ولم يقل فالتهمه. والالتقام، من اللقمة، هو ما يملأ الفم. والعلم الحديث يخبرنا أيضاً، أن الضحية لو لمس إحدى عيني القرش أو خيشومه، فسيترك الضحية ويهرب في الحال. ويبدو أن يونس قد أصاب عين الحوت أو خيشومه بحركة لا إرادية، فتركه. كما أن القرش، بمجرد أن يقضم القضمة الأولى يتعرف على لحم ضحيته، وقد يتركها لو كانت ليست مفضلة لديه، وهو ما قد يكون حدث ليونس.
وفي كلا الحالين، فقد استطاع يونس الوصول للشاطئ القريب، ولو بجهد جهيد، نتيجة تعرضه لقضمة واحدة أو عدة قضمات من القرش، انتزعت اللحم من ساقه أو فخذه أو مكان آخر. وكثيرة جدا هي الحالات التي نشاهدها في التلفزيون التي يتحدث فيها أصحابها عن مهاجمة القرش وتمزيق=

وبرغم تعرض الرسول والمسلمين لأذى نفسي هائل إلا أن هذه المرحلة مرت دون أن تسجل سورها أي اعتداءات جسدية على الرسول والمسلمين.

البشرى بالنصر والتمكين

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴿٤٥﴾ القمر.

نزلت هذه الآيات في وقت كان الرسول يواجه بالسخرية والاستهزاء من قريش، هو ومن معه من مسلمين قلة مستضعفين لا حول لهم ولا قوة، وسط مجتمع قرشي قوي ومتمكن وكافر. ولو قال أحد إنه ستكون للمسلمين اليد الطولى على قريش في قادم الأيام، لاتهم القائل بالحمق وضيق الأفق. لكن القرآن يبين أن سنة الله في الذين خلوا هي نصرة الرسول ومن آمن معه في النهاية وخزي الكافرين، وأن هذه السنة ستقع لمحمد وصحبه، كما حدثت لغيره من الرسل.

وهذه البشرى للمسلمين، تقول أن الوضع سينقلب وستقوى شوكة المسلمين، وسيهزمون قريش. وهو ما تؤكده سورة الطور بعبارات أخرى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴿٤٦﴾وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٤٧﴾ الطور.

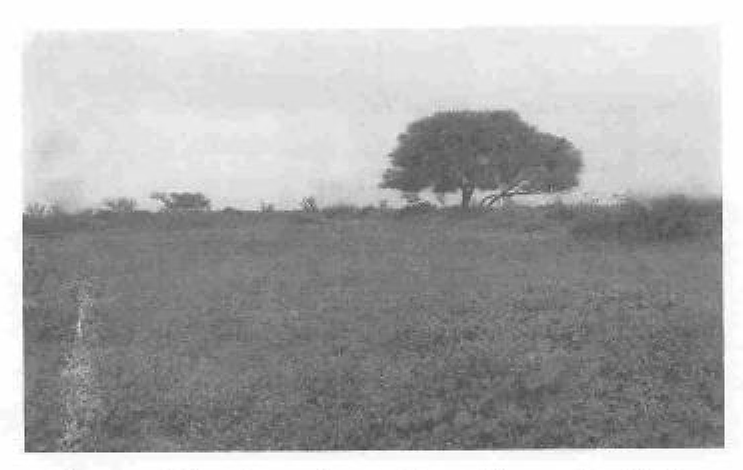
والعذاب الذي دون ذلك العذاب في الآخرة، هو عذاب الدنيا، المتمثل بالهلاك أو الهزيمة.

=أفخاذهم أو أجزاء من أجسادهم، واستطاعوا التخلص من القرش، أو أن القرش تركهم، وتمكنوا من الوصول للشاطئ، وبقوا مدة حتى شفوا من جراحهم. وقد استطاع يونس أن يتحامل على نفسه، ويبتعد عن البحر، إلى منطقة شجرية قريبة، حيث تنمو النباتات المتسلقة، ومنها نبات اليقطين التي نمت وغطت المكان الذي اختاره يونس ليتمدد عليه. مما يعني أنه بقي هناك مدة طويلة حتى برئ، وبالتأكيد كان هناك ماء صالح للشرب وفواكه أو نباتات كان يقتات منها طوال هذه الفترة. وكان يتحرك، ولو بمشقة، ليجمع ما يأكل ثم يعود لمرقده.

رؤية المَلَك

القرشيون يواجهون محمداً بأسئلة لا يريدون لها جواباً، وإنما محاولة إحراجه وإظهاره بالكاذب الدجال، لكي يبرروا لأنفسهم عدم تصديقهم لدعوته. ومن هذه الأسئلة، ما يتعلق بالكيفية التي يتصل بها محمد بالسماء ويتلقى بواسطتها الوحي. فجاءت سورة التكوير لتجيب: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴿٢٥﴾.

فالرسول لا يقول لهم شيئاً من عنده، وإنما هو وحي من الله يتنزل بواسطة أحد الملائكة الذين رآه محمد في الأفق في بداية دعوته. ثم نزلت سورة النجم لتؤكد ما ذكرته سورة التكوير، وتقول أن الرسول رأى الملك المكلف بتوصيل الوحي مرتين في بداية الدعوة. مرة رآه محمد وهو منتشر في الأفق، ثم دنا من محمد حتى كان قاب قوسين منه أو أدنى. ليتبين محمد ماهيته ويتأكد أن ما تراه عيناه ليس تهيؤات ولا خيال. والمرة الثانية رآه وقد نزل على الأرض قرب شجرة سدر تقع على طرف بقعة مكسوة بالعشب والحشائش، والتي تسمى في جزيرة العرب، بالروضة أو الخبراء، أو القاع. وهي عبارة عن مسطح من الأرض منخفض نسبياً عما حوله، تبقى فيه مياه الأمطار مدة أطول من المناطق الأخرى، لأن أرضه طينية قليلة المسام. ومن أجل ذلك تنمو فيها وعلى حوافها أشجار السدر أو الطلح أو السمر. وقد تعرضت السدرة التي نزل بالقرب منها الملك لحالة غير طبيعية، نتيجة لكون الملك مخلوق من طاقة:



﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴿١٨﴾.

وعيد لأحد الكبراء

سورة القلم تتوعد أحد كبراء قريش وأنشطهم في الصد عن الإسلام في تلك المرحلة: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴿١٦﴾

لقد كان هذا القرشي ممن حاز كل مقومات الشرف الاجتماعي الذي كانت

قريش تحتقده وتفاخر به، وهو كثرة المال والأبناء الذكور: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴿١٤﴾

وكان يصف القرآن بأنه خرافات قديمة: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿١٥﴾.

الحث على الإنفاق في مجالات معينة

جاء في سورة البلد أن الإنفاق في مجالات محددة يمثل الأعمال الصالحة التي يجب على المؤمن تأديتها ليدخل الجنة في تلك الفترة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴿١٤﴾ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴿١٨﴾.

وأول هذه المجالات، فك الرقاب. والذي يعني تحرير العبيد والإماء من الرق، أو تحرير الأسرى. كما طلبت السورة الصرف على إطعام الجائع، والاهتمام باحتياجات اليتيم، والمسكين.

وقد نزلت سورة البلد في وقت لم يكن فيها عدد المسلمين يزيد عن نفر قليل، بعضهم كان من الرقيق. وبما أن الإسلام يضمن العزة للمسلمين، ويحفظ كرامتهم، كما سنرى في سور لاحقة، فقد فرض تحرير الرق في هذا الوقت المبكر جداً من تاريخ الدعوة. والرقيق بعد عتقهم سيكونون مساكين فقراء، لأنه ليس لهم مصدر دخل، لذا فرضت الآيات أيضاً إطعام المساكين. مما يعني وجوب تحرير الرقيق، والصرف على احتياجاتهم.

كما فرضت سورة البلد حقوقاً مكفولة لليتيم، منها في هذه المرحلة، الصرف على احتياجاته، وإكرامه كما في سورة الفجر: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴿١٧﴾.

وإكرام اليتيم يعني التعامل معه بإنسانية وعدل ومساواة تخفف عنه حزنه على فقدان والديه أو أحدهما، والاهتمام بشؤونه، والإنفاق على احتياجاته إن كان فقيراً، وعدم التلاعب بماله.

ويمكن لنا التعرف على سببين للحث على إطعام المساكين في هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ الإسلام. هما كما نظن:

١ . أن غالبية من تبع محمداً من الضعفاء والمساكين، فكان لابد من توفير حياة كريمة تضمن لهم حفظ الكرامة والبعد عن السؤال. لأن المسلم ـ كما سنرى في تشريعات لاحقة ـ يجب أن يكون عزيزاً محفوظ الكرامة دون كبر وخيلاء مع التواضع دون مذلة.

٢ . أن هناك الكثير من المساكين في مكة، نتيجة لأن كبراء قريش رأسماليين، بالمفهوم العصري، لا يكترثون بالتكافل الاجتماعي. ولتخلف الكثير من الحجاج وعابري السبيل في مكة التي تقع قرب طريق تجارية رئيسية. ومعاونة أولئك المساكين فيه تأليف لقلوبهم على الإسلام، ولو لم يدخلوا فيه[1]. مما يعني كسبهم في صف المسلمين أو على الأقل إخراجهم من قائمة الأعداء. وهو ما كان المسلمون في أمس الحاجة له في هذه المرحلة.

والمجالات الأخرى التي يؤتى فيها الإنفاق في هذه المرحلة هو إطعام الأسير، كما في سورة الإنسان: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴿١٢﴾.

---

(١) تأليف القلوب يعني كسب الود ولا يعني إعطاء من أعلن الإسلام وهو غير مؤمن، كما يروج الفقهاء والمحدثون. فالمؤلفة قلوبهم هم من أعلن تعاطفه مع الإسلام والمسلمين ولو لم يسلم.

وقد جاء الأمر بإطعام الأسير، رغم أنه لم يكن هناك أسرى مسلمين في ذلك الوقت. إلا أن القبائل العربية في جزيرة العرب دائمة العراك فيما بينها، إضافة لتعرضها للسلب والنهب والغارات بين بعضها البعض، وهو ما ينتج عنه الكثير من الأسرى الذين يحتاجون لفدية ليتحرروا من الأسر. وبما أن المسلمين قلة وأغلبهم لا يملكون المال، فإن الآيات تأمر بفداء الأسير إن أمكن، وإلا إطعامه على الأقل. وإطعام الأسرى الغير مسلمين يدخل في تأليف القلوب وإخراجهم من دائرة المعاداة والجفاء للإسلام والمسلمين إلى موالاتهم والشعور نحوهم بمشاعر الود، أو التحول للإسلام. ويكون الإنفاق على شكل مال يصرف على المساكين واليتامى وتحرير الرقاب من الرق والأسر. وفي مقابل الحث على الإنفاق، جاء ذم البخل والإمساك في سورة الليل: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴿١٠﴾.

ومن أهم الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة ما يلي:

الرسول والأعمى

تبدأ سورة عبس بمخاطبة الرسول: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴿١٠﴾.

والآيات تشير إلى أن محمداً كان يتحدث مع أحد كبراء قريش، أو يتلو عليه القرآن لإقناعه بدعوة الحق. وبينما كان الرسول مستغرقاً في حديثه مع القرشي، قاطعه رجل أعمى مسلم بسؤال، فأفلت القرشي وابتعد. فما كان من الرسول إلا أن امتعض وتغيرت ملامح وجهه من الغضب، لأنه كان يأمل أن يقنع القرشي بالدخول في الإسلام.

والأعمى المسكين هو أحد المسلمين القلائل في ذلك الوقت، والذين معظمهم من الضعفاء والمساكين، كما درجت سنة الأولين، مع كل الرسل السابقين، ومنهم من آمن مع نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴿٢٧﴾ هود.

ومن آمن بصالح: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴿٧٥﴾ الأعراف.

وتوبيخ الرسول على ما حدث، تحريمٌ للعبوس في وجه المسلم، أو الصد عنه. وهذا التشريع المبكر ومنذ الأيام الأولى للإسلام، جاء لضمان حياة كريمة للمسلم، تصان فيها كرامته ومشاعره، ولم يتهاون القرآن مع محمد، برغم أنه رسول الله، وأنه في بداية الدعوة، والضغوط النفسية عليه كبيرة جداً، وبحاجة للتشجيع وليس التوبيخ، لكن كرامة المسلم فوق كل اعتبار.

تحريم الغش التجاري بكافة أشكاله وأساليبه

رجال قريش - كما سبق وذكرنا - يتنافسون على جني الأموال بكافة الطرق، ويعتبرونه نجاحاً في التجارة ويقوم عليه الاقتصاد. ويبدو أن بعض مسلمي قريش من أصحاب الأموال، استمروا في التعامل بنفس الأسلوب التجاري الذي يعرفونه قبل الإسلام، والذي يقوم على التحايل. فتأتي افتتاحية سورة الرحمن[1] بالتأكيد القاطع على تحريم الغش التجاري بكل صوره وأشكاله: ﴿الرَّحْمَنُ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ

---

(١) ولأنها تحرم الغش التجاري اعتبرها المفسرون مدنية، واعتبرها نولدكه من سور الفترة الأولى المكية. وهي بالفعل مكية لعدة شواهد منها: ذكر الصور الحسية للجنة والنار. لكنها ليست من أوائل السور المكية، بل من سور المرحلة الرابعة حسب تصنيفنا لتسلسل السور حسب النزول. ونزلت بعد سورة الجن لأنها تواصل الحديث الذي بدأ عنهم في تلك السورة.

الْبَيَانَ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴿٩﴾.

لكن يبدو أن بعض التجار المسلمين لم يرتدعوا بالنهي الذي ورد في سورة الرحمن، واستمروا بممارسة ما اعتادوه من الغش التجاري، فنزلت سورة المطففين تتوعد كل من يتعامل بأي شكل من أشكال الغش التجاري أو يتعاطى أي وسيلة من وسائله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٦﴾.

ومع ذلك استمر البعض في تلك التعاملات التجارية، وحاولوا إقناع غيرهم أن ما يقومون به ليس من الغش التجاري، وهو ما أشارت له سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴿٣٢﴾.

فتزكية النفس، وتزكية الغير لا تغني عن الحق شيئاً.

ونقرأ في سورة الأنعام، من سور المرحلة الأخيرة في مكة اعتبار الغش التجاري من موجبات النار: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿١٥٢﴾الأنعام.

وهناك حادثة فريدة تعتبر من أهم الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة، وفي مكة، وهي:

استماع الجن لتلاوة الرسول

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴿١٩﴾ الجن.

الآيات تقول: إنه في إحدى المرات التي كان محمداً يتلو القرآن على بعض قريش، صدف تواجد نفر من الجن، واستمعوا للآيات التي تلاها الرسول «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً». واقتنعوا أن ما يتلى من الله، فآمنوا به.

وكانوا قبل ذلك يعتقدون أن لله بنات هن الملائكة «﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴿٤﴾».

وهو ما تعتقده قريش: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ النحل٥٧.

كما كان بعض الجن ـ مثل قريش ـ لا يؤمن بالبعث «﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾٧».

فنقلوا ما سمعوا لقومهم، ودعوهم للإيمان به، كما آمنوا.

والجن مخلوقات روحانية. وعندما نقول روحانية، نقصد بها مخلوقات بلا أجساد مادية. فهي مخلوقة من عنصر من عناصر النار: ﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ الحجر٢٧.

أي من طاقة.

وهذه المخلوقات سبقت خلق الإنسان، وموجودين في محيط الأرض: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾٨ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾٩.

وقد منعوا من الخروج من محيط الأرض ـ الغلاف الجوي ـ والتجول في الكون، كما كانوا يفعلون سابقاً: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعجِزَهُ هَرَباً﴾١٢.

وقد تكرر هذا التأكيد في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾٦ ﴿وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾٧ ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾٨ ﴿دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾٩ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾١٠.

وفي سور أخرى مثل الرحمن (الآيات ٣٣ ـ ٣٦) والملك (الآية ٥).

والجن مطالبون بالإيمان برسالات البشر، لذا أسلمت هذه المجموعة برسالة محمد: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً﴾١٣.

أما عموم الجن، فمثل الإنس، بعضهم آمن، وبعضهم بقي على كفره: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾١٤.

وسيدخل المؤمن منهم الجنة، وسيكون مصير كافرهم النار، كما البشر: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾١٤﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾١٥﴿.

وهذه المخلوقات لا يمكن للإنسان رؤيتهم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾١٩﴿.

فالرسول لم يشعر بهم، وقد أحاطوا به، ولولا نزول هذه الآيات لما علم باستماعهم لتلاوته. ولو كانوا يستطيعون التخاطب مع البشر لتخاطبوا مع الرسول. ومع ذلك فقد اعتقد بعض الناس قبل الإسلام أن الجن تضر وتنفع فكانوا يعوذون بهم ظناً منهم أنه بإمكانهم حمايتهم من المجهول، أو إصابتهم بضرر: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾٦﴿.

حيث كان الناس تسيطر على عقولهم الخرافات والخوف من الشياطين والأرواح الخفية، لدرجة أنهم كانوا عندما يهبطون وادياً في ترحالهم يرددون عبارات مثل: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه» ـ كما ورد في كتب التراث ـ ظناً منهم أن شياطين الجن ستؤذيهم. لأن المسافر يكون بحالة خوف، ليس لأن الجن تشكلت بهيئات مفزعة وبدأت تطارده، ولكن لوجوده لوحده بعيداً عن الناس والعمران في أرض قفر جرداء، إلا من السراب الذي يحول الأشياء البعيدة إلى أشكال مخيفة أو «جن» في عين الرائي. وهذه شهادة من القرن العشرين على وحشة الصحراء من ياباني وجد نفسه وسط صحراء نجد في العام ١٩٣٩. يقول إيجيرو ناكانو: «أعتقد أن العرب القدامى الذين تحدثوا عن الجن لم يتحدثوا من فراغ، بل تحدثوا عنهم من واقع معايشتهم لمثل هذه الطبيعة الصعبة التي تضمني الآن، حيث لا يمكن للمرء أن يرى شيئاً سوى الفراغ الهائل يحيط به من كل جانب. ولابد أن العرب كانوا يشاهدون

الصخور البعيدة تتشكل بفعل السراب إلى أشكال غريبة أقرب إلى الجن منها إلى أي شكل آخر»[1].

وبعد نزول سورة الجن، يبدو أن قريشاً سألت محمداً بمن يستعاذ به، إذا لم تستعذ بسيد الجن من سفهاء قومه، فنزلت سورة الفلق كجواب:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴿٥﴾.

فالله وحده هو من يستعاذ به ولا شيء آخر غيره. والسورة تتحدث عما كان مسيطراً على مفاهيم الناس، وتستعيذ من الكاهنات اللاتي لا يترددن من الإضرار بالناس عن طريق سقيهم ما يضرهم من سموم، وليس تأكيداً لوجود سحر بالمعنى الشعبي، الذي بواسطته يمكن للساحر أن يضر شخصاً بعيداً عنه وبدون اتصال حسي، ويجعله يفقد سيطرته على مشاعره أو بعض حواسه وتصرفاته.

وبدل أن تنير هذه الآية عقول الناس وتعرفهم أن لا وجود للسحر بالمعنى الذي يظنون، فقد اعتبرها المفسرون آية تؤكد وجود السحر، كعالم خفي تسيطر عليه الشياطين ويضر الناس وينفعهم من دون الله.

ومثل ذلك قوله: «وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» فقد فسرها المفسرون على أنها تعني العين. أي إصابة إنسان بمرض أو ضرر جراء تلفظ إنسان آخر بكلمة أو عبارة، لأن المتكلم يملك خاصية إصابة الغير بما سمي عند الناس بالعين.

ورغم أنه يستحيل أن يكون معنى الحسد في اللغة هو الإصابة بالعين إلا أن المفسرين تجاهلوا هذه الحقيقة وأصروا على أن الحسد هو الإصابة بالعين. وقد ترسخت خرافة الإصابة بالعين وترسخ معها أن هذه الآية دليل قرآني يؤكد أن الله أنزل آية يستعاذ بها من شر العين.

---

(١) الرحلة تمت في العام ١٩٣٩ لبعثة ديبلوماسية يابانية جاءت للقاء الملك عبدالعزيز. ولما وصلوا جدة، وجدوه قد غادر للرياض وترك لهم سيارات لتقلهم إلى هناك، حيث مروا بتجربة الترحال في الصحراء مجبرين. وقد قام إيجيرو بكتابة يومياته عن الرحلة، وأصدر ما يمكن نشره للعامة في كتاب في العام ١٩٤١. وللكتاب ترجمة غير دقيقة بالعربية بعنوان «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية».

ونتيجة لسيطرة الخرافات على الزمن الذي كتب فيه التفسير فقد أصبح السحر والعين بمعناهما الشعبي الخرافي عقيدة من عقائد المسلمين، وأصبحت الخرافات جزءاً من الإسلام، بحسن أو سوء نية ممن رسخه.

وفي عصر العلم الذي نعيشه الآن لا زالت المحاكم في السعودية تحكم بالموت على السحرة والمشعوذين، وينفذ في عدد منهم الإعدام سنوياً. ولو صدف وقامت جهة مسؤولة بدراسة ما يمارسه هؤلاء دراسة علمية لوجد أنهم لا يزيدون عن كونهم أشخاصاً بسطاء جهلة فقراء استغلوا تصديق الناس بخرافة السحر فزعموا أنهم سحرة لكسب العيش، ولا يملكون قوى خارقة ولا يملكون سيطرة على الشياطين. وبالتالي وجب تعليمهم وتثقيفهم وتأهيلهم للقيام بأعمال تدر عليهم كسباً مادياً يكفيهم لعيش حياة كريمة. ونكون قد قضينا على خرافة السحر، ولم نقتل جهلة مساكين بغير حق.

ولو كنا جادين بالفعل في حرب الشعوذة لقمنا بدراسة ما يمارسه المشعوذون دراسة علمية، فإن كان علماً طورناه، وإن كان خرافات قضينا عليها بالمنطق والبراهين، وليس بقتل من يمارسها لأنه لم يجد ما يسد جوعه. كما يجب تثقيف الناس وتوعيتهم، وعدم الخلط بين الشعوذة والخرافات وبين ما يسمى بالخدع البصرية التي هي علم قائم بذاته يمكن تعلمه، ولا علاقة له بما يعرف بالسحر في الثقافة الشعبية.

والنفاثات التي وردت في سورة الفلق هن الكهنة لكن هذا لا يعني أن تمتماتهن تضر وتسحر بالمعنى الشعبي المعروف. ولكن الآيات تقول إن هناك من يحترف الكهانة والشعوذة وإنهن قد يتسببن بضرر لمن يتناول ما يقدمونه له بعلمه أو دون أن يعلم، ليس لأنه سحر بل لأنه سموم.

ومثل الفلق سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴿٦﴾.

والوسواس يكون نتيجة لمشاعر خفية في النفس البشرية «من الجنة» وليس الجن. كما يتولد الوسواس نتيجة لحديث أو اقتراح من الناس.

وقد جاء تأكيد حادثة استماع الجن للقرآن في عدة سور منها الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٣٢﴾.

المرحلة الخامسة / التحول في الخطاب والأحداث

السور: نزلت في هذه المرحلة ٣١ سورة، هي: ص، الصافات، النازعات، الذاريات، الأحقاف، الجاثية، فاطر، فصلت، الدخان، الزخرف، غافر، مريم، الإخلاص، الكهف، سبأ، الكافرون، لقمان، ، النمل، الحجر، طه، السجدة، المؤمنون، المعارج، الفرقان، الزمر، الأعراف، يونس، يوسف، الكوثر، إبراهيم، والأنبياء.

المخاطب: كل السور في المراحل الماضية كان المخاطب فيها كبراء قريش فقط. وفي هذه المرحلة وللمرة الأولى تتجه السور لمخاطبة مستضعفو مكة، وبني إسرائيل «يثرب»، وكل الناس، إضافة لاستمرار مخاطبة كبراء قريش.

نوع الخطاب: دعوي.

وإن كانت بداية نزول الوحي قد أعلنت ميلاد الإسلام، وسورة المدثر كانت البداية الفعلية للدعوة، فإن هذه المرحلة تمثل نقطة التحول الفعلي لانتشار الدعوة، والميلاد الحقيقي للإسلام، بدعوتها الناس من غير قريش.

لأن هذه الدعوة أدت لإسلام بعض بني إسرائيل بيثرب، وهو ما شكل الخطوة الأولى لانتشاره خارج مكة، ومهد لقيام دولة للمسلمين في المدينة فيما بعد. وقيام تلك الدولة، غير مجرى التاريخ الإسلامي والبشري برمته.

وقد سبق تحول الخطاب ونوعه، حث على الإنفاق في مجالات معينة في مراحل سابقة. فعلى المسلمين واجب معاونة المساكين وإطعامهم بغض النظر عن عقائدهم، كما ورد في سور الحاقة: ٣٤، الإنسان: ٨، المدثر: ٤٤، الفجر: ١٨، والبلد: ١٦. وعليهم واجب فك الرقاب، من الأسر ومن الرق، كما ورد في الإنسان: ٨، البلد: ١٣. وعليهم إطعام ومعاونة اليتيم، كما أمرت سور الإنسان: ٨، الفجر: ١٧، البلد: ١٥.

وإن كان هناك دين يعمل على رعاية اليتيم وإطعام المسكين وفك الأسير وتحرير الرقيق في الدنيا ويعد بجنة في الآخرة، فسيلقى القبول عند هذه الفئة من الناس وما أكثرهم في تلك العصور. كما أن هذا التعامل الإنساني ساعد على تقبل الناس لوجود الإسلام، والتعاطف مع أهله، ولو لم يؤمنوا به.

وقد بدأت الآيات في هذه المرحلة تخاطب أولئك المستضعفين في مكة الذين بقوا على الكفر، إرضاء لساداتهم الذين سيدخلونهم النار معهم يوم القيامة. وبما أنهم ضعفاء فقراء لا يملكون شيئاً في الدنيا، فخير لهم ألا يخسروا نعيم الآخرة أيضاً. وفيما يلي بعض الآيات التي تحذر المستضعفين من أنهم سيدخلون النار مع ساداتهم إن هم استمروا باتباع آثارهم والبقاء على الكفر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴿٣٣﴾ الصافات.

وهو ما أشارت له سورة ص: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴿٦١﴾.

وكررته سورة فصلت: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴿٢٩﴾﴾.

وبناءً على مراحل سنة الأولين، فإن دعوة محمد مع قريش قد وصلت للمرحلة التي يصر فيها الناس على الكفر، ولا يتأثرون بما يتلو الرسول عليهم من آيات. وتكون النهاية هلاك المكذبين ونجاة الرسول ومن آمن معه[1]. لكن الإسلام لم يأت لقريش وحدها، ولا لذلك الزمن، بل جاء لكل الناس في كل العصور. لذا نجد أن قريش لم تهلك والدعوة استمرت، ولكن المخاطب تغير، وفتح المجال لدخول الناس من مختلف الأجناس والعقائد للإسلام.

وتغير الخطاب إلى المستضعفين جاء بعد أن أعلن السادة والكبراء تمسكهم بدين الآباء ورفضهم التام والنهائي للدعوة: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴿٥﴾﴾ القمر.

وكما أشارت لذلك سور، منها: ق (١ ـ ١١)، ص (١ ـ ٩).

ولو بقي الرسول في مكة يدعو قريشاً فلن يتغير الوضع هناك، وسيبقى كما هو، قلة قليلة مستضعفة من المسلمين وبقية كافرة. ولو مات الرسول والوضع بذاك الشكل، فالاحتمال الأقرب أن قريش ستقضي على المسلمين وسينتهي

---

(١) كل دعوات الرسل مرت بأربع مراحل ثابتة، هي: ١ ـ مرحلة بداية الدعوة حيث يؤمن قلة من الناس معظمهم من المستضعفين، ويمتنع الباقين بقيادة السادة والكبراء من رجال دين ودنيا. ٢ ـ مرحلة استمرار الدعوة. وسواءً طال مقام الرسول بين الناس أو قصر، فإن الأوضاع لا تتغير، لأن من أعلن كفره لن يتراجع. ٣ ـ مرحلة هلاك المكذبين ونجاة الرسول ومن آمن. وقد أهلكت الأمم السابقة بكوارث طبيعية كالزلازل والبراكين والطوفان. ٤ ـ مرحلة الإبتعاد عن الدين، حيث يبدأ الناس التحول عن الدين وإدخال تشريعات غريبة عليه، إلى أن ينتهي بهم المطاف إلى التمسك بمعتقدات باطلة لا علاقة لها بدين الله الذي آمن به أجدادهم زمن الرسول، فيرسل الله رسولاً آخر ليعيد من يرغب في الهداية لدين الحق، ولتكرر المراحل السابقة. وقد فصلنا الحديث حول هذا الموضوع في كتاب سنة الأولين.

أمر الإسلام إلى الأبد، خاصة أن القرآن لم يكتب منه شيء في مكة. أو أن تهلك قريش وينجي الله محمداً ومن آمن معه، كما حدث للأمم السابقين. وهذا لن يحدث لأن الإسلام لم يأت لقريش وحدها ولا لزمن محدد.

وإذا كانت قريش قد أعلنت موقفها النهائي من الدعوة والذي لا رجعة فيه فإن القرآن يؤكد أن من لم يؤمن من قريش فلن يؤمن، ليس لأن الله قد كتب عليهم الشقاء، وليس لأن محمداً لم يقدم معجزات، ولكن لأن التمسك بالموروث ورفض دعوة الرسل سنة سار عليها كل كبراء الأمم السابقة، ومن تبعهم من الضعفاء. ولو كانت قريش تود أن تؤمن لاستمعت لما يتلى عليها من القرآن وفكرت بما تسمع. لكن كبراء قريش سيبقون على الكفر ولن يؤمنوا أبداً، وسيموتون وهم كفار، ويوم القيامة، سيعلمون أن البعث حق: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴿٨﴾ القمر.

ومع أن مكة يمر بالقرب منها المسافرون على الدوام، كونها تقع غير بعيد من طريق عامر بالحركة يربط اليمن بالشام، وهو طريق التجارة الدولي، إضافة لاستقبالها جموعاً من الناس من كل أنحاء جزيرة العرب للحج والعمرة. إلا أن محمداً لم يقم في مراحل الدعوة السابقة بدعوة جموع الحجاج والمسافرين إلى الإسلام لأن الآيات التي نزلت عليه كان يفهم منها أن الدعوة لقريش. وخلت سور تلك المراحل من آيات تقول أن محمداً أرسل لكل الناس، ولم يؤمر بدعوة غير قومه. لكن الوضع تغير، بدءاً من هذه المرحلة الخامسة.

وبدأت الآيات التي تدعو كل الناس تنزل على محمد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾ سبأ.

وكانت فاطر أول سورة تؤكد على أن الإسلام للناس كافة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴿٧﴾.

وتستمر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿١٥﴾ فاطر.

ودعوة كل الناس أذهلت قريش، التي ظنت أن محمداً معني فقط بدعوتهم وحدهم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴿٢﴾ يونس.

وترافقت دعوة المستضعفين وكل الناس، مع دعوة بني إسرائيل، وذلك بمخاطبتهم بخطابات متنوعة، تخبرهم عن كتاب موسى وعن مواقفهم منه، ومواقف فرعون، وأحداث وقصص من تاريخهم لا يعرفها إلا الله، للتأكيد على أن محمداً رسول لله، وتكاد لا تخلو سورة من سور هذه المرحلة من هذه القصص.

وردة فعل قريش على تغير المخاطب في السور هو الذي ولد أحداث هذه المرحلة، وفيما يلي أهم ما استطعنا استنتاجه منها:

الأذى

في المرحلة السابقة كانت سورة الملك، أول سورة تذكر أن هناك من دخل الإسلام من قريش: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٨﴾﴾.

وفي المرحلة السابقة أيضاً عرفنا أن من آمن قليل والغالبية منهم فقراء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٤٧﴾﴾ الطور.

وسور هذه المرحلة تؤكد أن المسلمين لا زالوا مستضعفين: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴿١١﴾﴾ الأحقاف.

ولم يكونوا من علية القوم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴿٧٤﴾﴾ مريم.

وقريش كانت تسخر من محمد ومن المسلمين منذ المراحل الأولى، لكنها كانت سخرية قد لا تصل لمسامع الرسول. أما وأنه بدأ يؤلب عبيدها ومواليها، ويشجعهم على التمرد والعصيان والخروج عن الطاعة، فقد تحولت السخرية به وبما يقول، علنية، وبأساليب متنوعة.

وفي هذه المرحلة نزلت السور تطلب من الرسول والمسلمين الصبر على الأذى والتسامح مع المعتدين، وعدم مقابلة السيئة بالسيئة، لئلا تجد قريش مبرراً لإلحاق الأذى الجسدي بالمسلمين بدل الأذى النفسي: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴿٩٨﴾﴾ المؤمنون.

وفي سورة الجاثية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿١٤﴾﴾.

وهو ما أمر به الرسول أيضاً، الذي كان يتلقى القدر الأكبر من السخرية والاستهزاء لأنه كان عليه أن يواجه كبراء قريش ويتلو عليهم ما ينزل عليه من القرآن دون مواربة. ويبدو أن سخريتهم كانت تغيظه وتغضبه، وكاد في بعض الأحيان أن يرد السخرية عليهم، ولو فعل فسيؤجج العداء مع قريش، ولكن لو رد على سخريتهم رداً جميلاً، فسيتراجع المستهزئ وسيشعر بالمودة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٣٦﴾ فصلت.

وهو ما أكدته الزخرف: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٨٩﴾.

والأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢٠٠﴾.

كما وردت آيات كثيرة تحثه على الاستعانة بذكر الله وتسبيحه للصبر على أذى قريش: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴿٥٥﴾ غافر.

وكما جاء في سورة طه: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴿١٣٠﴾ طه.

ويونس: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴿١٠٩﴾.

وأمر الرسول بالتركيز على الاهتمام بمصالح المسلمين، والتواجد معهم وتشجيعهم على الصبر، بدل الانشغال بالتفكير في طريقة لهداية قريش، فمن شاء منهم أن يؤمن ومن شاء فليكفر: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً﴿٢٩﴾ الكهف.

وفاة خديجة

القرآن لم يذكر اسم زوج النبي، خديجة، بالاسم ولم يتحدث عنها بدون اسم، فيما عدا آية وردت في سورة طه، تقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴿١٣٢﴾.

وهي لا تذكر خديجة، ولكنها تطلب من الرسول المداومة على الصلاة وأن يأمر أهل بيته بتأديتها، كما كان يفعل جده إسماعيل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴿٥٥﴾ مريم.

إلا أن سورة الكوثر التي نزلت في هذه المرحلة، تؤكد أن أحد كبراء قريش عيره بالأبتر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴿٣﴾.

والأبتر هو من لا عقب له ولا ولد. لذا نرجح أن محمداً نعت بالأبتر بعد وفاة زوجته، خديجة، التي لم يتزوج بغيرها في مكة. وكما سبق وذكرنا في بداية الكتاب، وعند حديثنا عن زوجات الرسول، فقد يكون محمد لم يرزق بأطفال من خديجة، إناثاً كانوا أم ذكور.

وبما أن هذه المرحلة تأتي في النصف الأخير من فترة الدعوة في مكة، فإن نعت الرسول بالأبتر يعني أن خديجة لم تنجب للرسول حتى تلك اللحظة، وهو ما يتعارض مع ما زعمه الإخباريون من أنها أنجبت للرسول قبل البعثة.

ولو افترضنا بقاءها على قيد الحياة حتى نزول سورة الكوثر، فلن يكون بإمكانها إنجاب أربع بنات وولدين أو ثلاثة، الذين نسبتهم كتب الأخبار له، في الفترة بين نزول سورة الكوثر وهجرته، وهي فترة لا يمكن أن تزيد عن خمس سنوات، إذا ما أخذنا بكلام الإخباريين.

والراجح أنها توفيت في هذه المرحلة، دون أن تنجب، وهو ما حدا بالقرشي من أن ينعته بالأبتر.

ويبدو أن الرسول قد تأثر كثيراً بهذا النعت، خاصة أن الولد يعتبر ثروة يفاخر بها الناس في تلك المجتمعات، وبقيت إلى يومنا هذا، فنزلت آية في الكهف لتهون على الرسول خسارته: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴿٤٦﴾ الكهف.

والبنون هنا المقصود بهم الذكور من الولد: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴿٣٩﴾ الطور.

مع استمرار حث الرسول على الصبر: كما في سورة المؤمنون: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴿٩٨﴾.

والحجر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴿١١﴾.

والفرقان: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴿٤٢﴾.

جدال الرسول

ولما شعرت قريش أن السخرية لم توقف الدعوة، عمدت إلى الدخول في جدل مع محمد، ليس الهدف منه التعرف على الحق أو التأكد من أن الدعوة

حق: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴿٣٥﴾ غافر.

وإنما لدحض الحق الذي يدعو له محمد: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴿٥﴾ غافر.

كتبرير لبقائهم على الكفر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴿٥٦﴾ غافر.

ولن يستمعوا لأي إجابة عن تساؤلاتهم، لأنهم باقون على كفرهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٧٠﴾ غافر.

لكن جدال قريش وسخريتها لم يوقف الدعوة، ولم يمنع أناس من خارج مكة من الانضمام للمسلمين:

بداية قطف الثمار

لابد أن الإنفاق على المساكين والأسرى واليتامى الذي أمرت به سور المرحلة السابقة قد ساهم بتأليف قلوب الناس على المسلمين والاسلام. وأصبح الناس يتناقلون الأحاديث عن ذلك السلوك الإنساني النبيل الذي يقوم به المسلمون. ثم جاءت في هذه المرحلة السور تدعو الناس كافة للدخول في الإسلام، فدخل أناس من غير قريش للإسلام، وكان أولهم من بني إسرائيل كما تخبرنا سورة الأحقاف التي تخاطب قريش: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٠﴾.

فقد أسلم أحد بني إسرائيل، عندما استمع لمحمد وهو يتلو عليه القرآن، الذي وجده نسخة مطابقة للتوراة التي نزلت على موسى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴿١٢﴾ الأحقاف.

ويبدو أن المسلم الجديد من يثرب وعاد إليها بعد إسلامه، وبدأ بالحديث عن الإسلام والدعوة له بين قومه، فأسلمت طائفة من بني إسرائيل، نتيجة لذلك، وهو ما تخبرنا عنه سورة بني إسرائيل التي نزلت في مرحلة لاحقة: ﴿وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴿١٠٩﴾.

ثم تزايد عدد المسلمين في يثرب، مكونين أول مجتمع إسلامي خارج مكة، ولم يعد مهماً أن تؤمن قريش أو لا تؤمن بعد أن آمن بالإسلام بعض من أوتي العلم من قبلهم. وهو ما أكدته سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ﴿١٩٧﴾.

وسورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿٢٠﴾.

وهذا التحول في الدعوة فتح آفاقاً جديدة لانتشار الإسلام، ومهد لإنشاء دولته في المدينة. إذ يبدو أن أهل الكتاب الذين اسلموا، قد عادوا لقومهم، ولأهل يثرب عموماً، كدعاة لدين الله. فآمن الكثير من أهلها، لتصبح ـ فيما بعد ـ ملاذاً آمناً لمسلمي مكة المضطهدين من قريش، من بقي منهم في مكة ومن هاجر إلى (الحبشة) كما يقول التاريخ، وكما أشارت له سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿١٠﴾.

والقرآن يخلو من ذكر أي وفد من الأوس والخزرج قدم لمكة وقابل الرسول وآمن، وعاد ليثرب، ونشر الإسلام هناك، كما تقول كتب التاريخ. لكن الآيات السابقة تنص بكل وضوح على إيمان بعض بني إسرائيل، ومنهم يهود ونصارى يثرب. وهم من نشر الإسلام في يثرب، وقد آمن بدعوتهم كثير من الأوس والخزرج، وقلة قليلة من قومهم. ولا يمنع أن من آمن من الأوس والخزرج قد قدموا لمكة بعد إسلامهم للقاء الرسول. وقد يكونوا هم من دعاه ومن أسلم معه للهجرة ليثرب، فلبى الرسول الدعوة، كما سنرى في المراحل القادمة.

لكن المهم هنا هو أن أول من أسلم من يثرب هم نفر من بني إسرائيل، كما تنص الآية (١٩٧) من سورة الشعراء، وهم أنفسهم أهل الكتاب، كما ورد في الآية (٢٠) من سورة الأنعام، وهم أنفسهم «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ» كما تنص الآية (١٠٧) من سورة بني إسرائيل.

وإسلام نفر بني إسرائيل كما تذكر الآيات السابقة جاء نتيجة لأنه يتوافق مع ما يعرفونه من دين الله، ولكونهم منحدرين من أقوام كانت تتبع دين الله. وحتى لو أن عقائدهم تغيرت وتبدلت إلا أن الانتماء لعبادة الله وحده، بقي حياً عندهم، عكس قبائل الأزد (الأوس والخزرج) الذين لم يتحولوا لدين بني إسرائيل برغم مجاورتهم لهم والعيش بينهم في يثرب، وقبلها، لمئات السنين. لذا كان من الأسهل على بني إسرائيل - من رغب منهم - التعرف على صدق دعوة محمد، من الأوس والخزرج.

وبما أن بني إسرائيل هم السادة في يثرب، والأوس والخزرج يمثلون الطبقة العاملة والمستضعفين، فإن انجذاب المستضعفين للإسلام جاء نتيجة لسببين، هامين هما:

١. أن الناس (المستضعفون) على دين ملوكهم كما يقول المثل. وبنو إسرائيل في يثرب هم الملوك (السادة والأغنياء وأهل المال)، الذين يعمل

لديهم الأوس والخزرج كأجراء. وعندما آمن النفر من بني إسرائيل وعادوا ليثرب، استمع لهم الأوس والخزرج، وتبعهم الكثير منهم للدخول في الإسلام.

٢. أن الأوس والخزرج، عمالة كادحة فقيرة مطحونة، وكانت تتمنى لو يأتي اليوم الذي تتحرر فيه من سيطرة بني إسرائيل الذين يملكون المال والضياع والمزارع. وبما أن الدين يرحب به المستضعفون أكثر من أصحاب المال والمصالح، فهو ما يفسر قبول الكثير منهم للإسلام.

وفي الحديث عن الفترة المدنية للدعوة سنرى أن أغلب الأوس والخزرج قد دخلوا الإسلام، الذي حررهم بالفعل من سيطرة بني إسرائيل، بينما ناصب أغلب بني إسرائيل الإسلام العداء، لأنه أفقدهم مصالح وجاه كانت لهم من دون الناس.

وفي المراحل اللاحقة سنرى مزيداً من بني إسرائيل يدخلون الإسلام، وكانوا يأتون لمقابلة الرسول.

وبالإضافة لإسلام أهل الكتاب، فقد أسلم بعض مستضعفي قريش، ومنهم رجل وامرأته، وكان لهما ولد شاب، دعياه للإيمان فنهرهما: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴿١٧﴾ الأحقاف.

وإسلام مستضعفي مكة سيثير حفيظة قريش أكثر على المسلمين، لأن المستضعفين يمثلون العبيد والموالي الذين يقومون بكل الأعمال والخدمات التي يحتاجها الكبراء، فهم عصب الحياة في مكة، ودخولهم الإسلام يعني شل حركة التجارة والأعمال الخدمية.

وهكذا، نجد أن التحول في خطاب الدعوة من الاقتصار على قريش إلى دعوة الناس جميعاً هو المنعطف التاريخي الذي كتب انتشار الإسلام.

الصد عن الدين

قريش لم تكن راغبة في وجود الإسلام أصلًا، فكيف كانت مشاعر رجالها وهم يرون الإسلام وقد بدأ ينتشر في مكة بين المستضعفين، وخارجها في يثرب خصوصاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴿٢٦﴾ فصلت.

وبدأ الكبراء يقفون على طرق القوافل المارة بمكة لمنع الناس من الاتصال بمحمد: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴿٣٧﴾ الزخرف.

ونشطوا في نشر دعايات منفرة ومعادية للإسلام بين الناس للحد من انتشار الدعوة: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴿٤٥﴾ الأعراف.

وهذا النشاط لم يكن سوى الخطوة الأولى، ستقود لخطوات أكثر عدائية ضد المسلمين في المرحلة القادمة.

ترقب وقوع العذاب

كبشر، كان يجول في خاطر محمد أحياناً أن قريشاً تمادت بالكفر دون أن يطالها عذاب من الله، برغم أنهم يقفون ضد الدعوة. فتأتي الآيات لتخبره أن الوقت الذي يراه طويلا هو لا شيء، وأنه سرعان ما سيهلك كبراء قريش. فالدنيا وقتها قصير جدا، وسرعان ما تأتيهم القيامة، وعندها فمصيرهم نار أبدية، بينما سينعم المؤمنون بالنعيم الأبدي: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴿٨٧﴾ ص.

المسلمون مطالبون بالدعوة لدين الله

دعوة كل الناس للدين تتطلب من المسلمين أن يؤدوا دورهم في معاونة الرسول بالدعوة. لأن مجهود الشخص الواحد مهما بلغ من إخلاص وتفاني لن يستطيع التواصل مع كل الناس الراغبين بالتعرف على الإسلام من مختلف الأجناس، وكانت سورة فصلت أول سورة توجب على كل مسلم أن يكون داعية لله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴿٣٣﴾﴾.

وقد أكدت ذلك سور أخرى في مراحل قادمة، منها الأعراف، والتي تقول إن المسلمين، كما الرسول، ليس عليهم هدى من كفر، ولكن عليهم مسؤولية الدعوة: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿٦٩﴾﴾.

والمسلمون يقومون بالدعوة بنفس الطريقة التي يدعو بها محمد، وهي الاكتفاء بتلاوة القرآن على الناس: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴿٤٤﴾﴾ الزخرف.

الهجرة للحبشة

من أهم أحداث هذه المرحلة، وكانت نتيجة لأن أذى قريش تنامى وأصبح لا يطاق بالنسبة للمستضعفين، فجاءت سورة الزمر تقول لهم أن يخرجوا من مكة لمكان آمن يستطيعون فيه المحافظة على دينهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿١٠﴾﴾.

وهذا قد يكون إشارة لما سمته كتب التاريخ «الهجرة للحبشة»، حيث خرج من أسلم من مستضعفي مكة وعبروا البحر القريب من مكة إلى البر الأفريقي.

وكتب التاريخ التي نستقي منها المعلومات عن هذه الهجرة، تستند في مصادرها على أشخاص جلهم من اليمن. مثل عبيد بن شرية الجرهمي الذي أوكل إليه معاوية كتابة أول كتاب تاريخي في الإسلام. ومثل مجموعة من يهود اليمن الذين أصبحوا مصادر لأهم أحداث التاريخ الإسلامي، وعلى رأسهم كعب الأحبار، عبد الله بن سلام، ابن بنيامين، وغيرهم ممن أخذ عنهم ابن إسحاق وغيره. وهؤلاء اليمنيون يعرفون مملكة أكسوم جيداً، وغلب على ظنهم أن عرب مكة وما حولها لهم علاقة بتلك المملكة كما لليمنيين.

واليمن كانت على علاقة بأثيوبيا الحالية التي كانت تسمى مملكة أكسوم، والتي سيطرت على قطاعات واسعة من اليمن وعلى حضرموت وسبأ والمهرة في فترات تاريخية مختلفة، وكانت تدين بالمسيحية البولسية[١] التي نقلتها وفرضتها على اليمن. بينما لم يكن هناك أي علاقات تجارية أو سياسية بين أثيوبيا المسيحية التي لا تتحدث العربية ولا تمت بصلة للعرب، وبين مكة. ولم يكن هناك بينهما إلا عداء قديم سببه غزوة أبرهة الأكسومي ـ حاكم اليمن ـ لمكة في محاولة لهدم الكعبة، والتي تحدثنا عنها سابقاً. لذا فمن المستبعد تماماً أن يكون مستضعفو المسلمين قد هاجروا لأثيوبيا. والراجح أنهم هاجروا إلى مناطق شرق ما يسمى اليوم بدولة السودان، والمحاذية لسواحل البحر الأحمر، قبالة جدة. وهي مناطق كانت مأهولةً بالعرب زمن رسول الله، من الذين نزحوا إليها في فترات تاريخية سابقة من البر الشرقي للبحر الأحمر.

وكان من الطبيعي أن تبقى الصلات بين العرب على جانبي شواطئ البحر الأحمر، سواءً العائلية أو التجارية منها. وبما أن أهل مكة يملكون المال، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن يكون هناك تواصل تجاري مع البر السوداني، خاصة

---

(١) المسيحية البولسية هي ما يعرف اليوم بالمسيحية، وهي عقيدة تختلف عن عقيدة النصارى، وإن كانت كلتا العقيدتين تؤمنان بأن هناك ثلاثة آلهة. إلا أن آلهة الديانة البولسية يختلفون عن آلهة النصارى. وقد تحدثنا عن ذلك ضمن أحداث المدينة.

أن المسافة بين جدة القريبة من مكة، وبين البر السوداني المقابل، لا تزيد عن ١٩٠ كيلومتر بخط مستقيم، فيما تبتعد مصوع ـ أقرب الموانئ الأثيوبية ـ عن جدة بحوالي ٦٥٠ كيلو متر بخط مستقيم، وتبتعد الموانئ الجنوبية لأثيوبيا عن جدة بأكثر من ١٠٠٠ كيلو بخط مستقيم. وفي نفس الوقت لا يبتعد ميناء المخا اليمنية عن عصب الأثيوبية أكثر من ٦٠ كيلو متر فقط، والحديدة اليمنية عن مصوع الأثيوبية ٣٨٠ كيلومتر، كما هو ظاهر في الخارطة التالية[١].



لذا من المستحيل التصديق أن ضعفاء المسلمين قد فضلوا ركوب البحر في رحلة بعيدة صعبة مجهولة لأثيوبيا واللجوء لقوم هم أقرب للأعداء ـ بحكم التاريخ ـ لهم من الأصدقاء. ولا تربطهم بهم أي علاقة ولا يعرفون لغتهم، بينما كان بإمكانهم السفر برحلة قصيرة لعرب مثلهم يتحدثون لغتهم، ولديه نفس العادات، والتي من بينها حماية المستجير، التي لا يعرفها الأثيوبيون.

---

(١) المسافات تم تقديرها من برنامج Google Earth. وتواصل قريش مع عرب السودان يفسر تكرار ذكر ركوب البحر في السور المكية، لأن قريش تعرف البحر وتركب السفن ذهاباً وإياباً للسودان الحالي.

أما كيف حدث الخلط بين السودان الحالي وإكسوم القديمة، فيعود إلى أن الحبشي يطلقه العرب على أي شخص لونه أسود وشعره أجعد ـ أي من الجنس الزنجي[1]. فكل أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بالنسبة للعرب أحباش، وفي زمن متأخر أطلق العرب على دولة أثيوبيا الحبشة، فظن القصاص وناقلو الأحاديث أن الحبشة (أثيوبيا) هي الحبشة (السودان) التي هاجر لها مستضعفو المسلمين، لأن الأذى الجسدي طال مستضعفي قريش من عبيد وموالي، دون بقية المسلمين الذين ينتمون لقريش بالنسب.

تساؤل عما ذكرته آية

تقول سورة الأعراف: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴿١٧٦﴾.

فمن هو الذي أوتي الآيات وانسلخ منها؟

هل معنى أوتي الآيات، أي أنزل عليه الوحي؟

وإن كان قد نزل عليه وحي فهل هو رسول؟

وإن كان رسول. فهل كفر أحد الرسل القدماء؟

كتب التفسير تقول هو أحد علماء بني إسرائيل، أي رجال دينهم. وكتب التفسير كالعادة لا تقدم حقائق، ولكنها تحول حديث الآيات إلى خرافات. وإلا فرجال الدين لم يؤتهم الله آيات، ولم ينزل عليهم وحي. والآيات هنا

---

(١) ورد حديث في البخاري ومسلم وغيرهما أن نفر من الحبشة (أي زنوج) رآهم الرسول يلعبون (يرقصون رقصاتهم الشعبية) في المسجد. وحديث آخر ذكر حبشياً كأن رأسه زبيبة (أي بشعر مفلفل، وهي صفة ملازمة للزنجي). ويروي القصاص أن عنترة بن شداد العبسي كانت أمه حبشية (أي زنجية).

تقول بكل وضوح «الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ». فهو قد أوتي الآيات من الله، لكنه انسلخ منها، فأتبعه الشيطان وكان من الغاوين.

المرحلة السادسة / الأذى الجسدي

السور: نزل في هذه المرحلة أربع سور، هي: الشورى، الشعراء، هود، وبني إسرائيل.

المخاطب: سور هذه المرحلة، تماثل سور المرحلة السابقة، كونها تخاطب كل الناس، والمستضعفين في مكة، وبني إسرائيل، إضافة لاستمرارها في مخاطبة كبراء قريش.

وهذه المرحلة قصيرة وسورها قليلة، لكن أحداثها دامية، مهدت الطريق لقريش لأن تضرب بالمعاهدات الدولية، الإلهية الأصل، التي احترمتها شعوب جزيرة العرب طوال آلاف السنين عرض الحائط، وتعتدي على المسلمين جسدياً في بيت الله الذي ضمن لمن فيه الحماية. وفيما يلي أهم أحداث المرحلة:

حق دفع الظلم

مكة بيت الله على الأرض، ومنذ خلق الناس وهي بلدة جعلها الله آمنة لكل من يصل إليها: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً......﴾١٢٥ البقرة.

وهي أول منطقة دولية في تاريخ البشرية، لا تخضع لحكم بشر أو حكومة بشرية. لذا كانت ملجأ لكل خائف أو مطارد، لا يطال الناس فيها أذى، ومن وصلها كان آمنا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾٧١ الأنبياء.

وكان الناس طوال آلاف السنين يعلمون ذلك، فكانت ملاذاً للخائفين، ومنهم إبراهيم الذي لجأ إليها برغم قربها من قرية قومه، لأنه يعلم أنهم لا يمكن أن يتجرأوا على إيذائه في مكة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴿٣٧﴾ إبراهيم.

فالسكن في مكة جوارٌ لله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾ الصافات.

والسكن في مكة هجرة لله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٢٦﴾ العنكبوت.

ولكل قرية في العالم رب وزعيم، إلا مكة فهي بيت الله، والله وحده ربها، ولا رب لها من الناس: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴿٤﴾ قريش.

وبقيت مكة كذلك، ولم يتجرأ أعراب جزيرة العرب الذين يعيشون على غارات النهب والسلب، من اختراق حرمة بيت الله، وقد يكون قانون حرمة مكة، هو القانون الوحيد الذي احترموه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴿٦٧﴾ العنكبوت.

وعندما كلف الله إبراهيم وولده إسماعيل صيانة البيت وتنظيفه، لم يعطهم الحق بحكمه، ولكنه ألزمهم بخدمته. فهم خدم لبيت الله بمعنى الذلة، وليس بمعنى القيامة عليه وحراسته[1]. وتوارث أبناء إسماعيل شرف خدمة البيت

---

(١) أحد العباسيين هو أول من تسمى بخادم الحرمين الشريفين، وهذه التسمية تترجم اليوم إلى الإنجليزية، كالتالي:

The Custodian of Two Holly Mosques وهذه تعني: القائم على المسجدين المقدسين، والقائم تحمل معنى تشريف المسجدين بمن يقوم عليهما، ولا تعني ذلة خادمهما لخدمتهما. كما أنها تنص=

دون أن يكون لهم حق حكمه أو اتخاذه دولة لهم من دون الناس، لذا بقيت مكة مفتوحة لكل الناس على مر العصور. ولم تجسر قريش أو غيرها من القبائل على تدنيس حرمة بيت الله، وإيذاء من فيه، لأنهم في جوار الله. لذا لم يكن لمكة حاكم قرشي.

ولأن أبرهة أصله أفريقي ومن خارج جزيرة العرب، فقد استخف بحرمة البيت التي يحترمها سكان جزيرة العرب على اختلاف مشاربهم، وحاول اقتحامها وهدم الكعبة، فوقع في شر أعماله.

وقريش أعماها الضلال، نتيجة لما تراه من توسع الإسلام وانتشاره خارج مكة، بل وانتشاره بين عبيدها ومواليها، الذين بإسلامهم أعلنوا العصيان والخروج عن طاعة أسيادهم. ولم تتجرأ قريش على تدنيس الحرم، وكسر قوانين الله، في لحظة غضب، بل جاء ذلك عبر سنوات، بدأت بالسخرية من الرسول والمسلمين في مراحل الدعوة السابقة، ثم تحولت السخرية إلى القذف بأقذع الألفاظ، مع أن هذا يدخل ضمن التعدي على الآخرين الممنوع والمحرم في مكة. وجرأة قريش على فعله، دون أن يطالهم غضب حسي من الله، جعلهم يتمادون أكثر، مع مرور الوقت. واستمرت قريش تستفز المسلمين والرسول لعلهم يبادلوهم الشتائم، فتجد قريش مبرراً للاعتداء الجسدي عليهم، لكن المسلمين وبأمر من الله كانوا يقابلون إساءات قريش بالإحسان. مما أخر جرأة قريش على الاعتداءات الجسدية، لكنها لم تمنعها. فسور هذه المرحلة تخبرنا أن قريش بالفعل بدأت تعتدي على المسلمين جسدياً. وقد تكون البدايات سطحية وغير مؤثرة، فجاءت سورة الشورى تبيح للمسلمين أن يدفعوا هذا التعدي والظلم عليهم، بمعاقبة المعتدي بنفس ما

=على وجود حرمين، والأرض لا يوجد فيها إلا حرم واحد لله، ذاك الذي بمكة، كما ينص القرآن:
﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ....﴾ ﴿٩٧﴾ المائدة.
ولو كان اللقب: The Humble Servant of Allah's House لكان أحرى.

اعتدى به على المسلم: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴿٣٩﴾ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿٤٠﴾ الشورى.

وتطمئنهم الآيات بأن دفع الظلم ومعاقبة الظالم دون تعد لن يغضب الله ولا يعتبر تعد على حدود الله وحرمة بيته، وأن من اعتدوا على حرمة بيته هم من بدأ الاعتداء: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿٤٣﴾ الشورى.

ويمكن القول إن هذه المرحلة شهدت بدايات التعديات الجسدية على المسلمين، وكانت محدودة وغير خطيرة، ومن أشخاص محدودي العدد، ولم يشارك فيها كل كبراء مكة أو حتى يرضوا عنها ويقروها، لأنهم يعلمون أنها تعد على حرمة بيت الله الذي كلفوا بخدمته وعدم التعدي على من فيه. لكن تلك التعديات المحدودة مهدت الطريق لجرأة أكبر مع مرور الأيام، وتعديات شرسة، تزايدت شراستها لحد القتل، بعد أن اطمأن الكبراء على أن من نفذ التعديات المحدودة على المسلمين لم يصب بأذى أو عقوبة حسية من الله.
وقد ذكرت سورة بني إسرائيل أن التعديات القرشية قد وصلت للقتل أو أنها قد تصل للقتل، وفي هذه الحالة فعلى المسلمين قتل القاتل دون التعدي على غيره: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴿٣٣﴾ بني إسرائيل.

وقتل غير القاتل كثأر عادة متبعة قبل الإسلام، حيث يقتل رجل أكبر منزلة اجتماعية من أقارب القاتل بدلاً عنه، فنزل هذا التشريع يجيز للمسلمين

ملاحقة القاتل وقتله بجريمته. دون أن يؤذوا أو يقتلوا سواه، لئلا يؤخذ أحد بجريرة غيره، ولو كان ذي قربى[1].

وسورة هود تحذر الرسول والمسلمين القلة الذين معه بألا يطغوا ويظلموا: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١١٢﴾﴾ هود.

والطغيان هنا هو التعدي على غير المعتدي، أو الإضرار بالمعتدي أكثر من عدوانه.

والانتصار للظلم يعني القصاص من الظالم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴿٢٢٧﴾﴾ الشعراء.

وهو ما ذكر في سور أخرى. فيجب منع الأذى وقتال المؤذي. ومن قتل أحدنا نقتله دون تعدي. وهذا هو الجهاد ولكن بضوابط تناسب الوضع في مكة حيث لم يكن للمسلمين دولة، وكانت أعدادهم قليلة، ويعيشون بين كثرة كافرة.

ويكون صد الظلم واجب، ونوع من الجهاد في كل مكان وزمان وتحت أي ظرف. مع إبقاء التسامح والحث عليه، دون إسقاط حق المظلوم.

ومن المؤكد أن التعديات الجسدية طالت المستضعفين من المسلمين من عبيد وموالي، دون مسلمي قريش، أو شخص الرسول، لأن قريش لم تتجرأ على المساس بهم في مكة بيت الله وحرمه. ولكنها تجرأت على المستضعفين لأنه ينظر لهم على أنهم أقل إنسانية، وبالتالي فالتعدي عليهم أهون بكثير من التعدي على من ينتسب لقريش. وهو التعليل الوحيد الذي يفسر عدم تعرض

---

(١) ومعاقبة الظالم بمثل ما ظلم هو أول تشريع للجهاد، الذي بقي معناه يعني دفع الظلم عن المسلمين ودولتهم ودينهم وبقائهم.

الرسول أو مسلمي قريش للتعذيب أو الاعتداءات الجسدية في مكة. سواء استجاروا بهم ووالوهم، كما فعل بعض المسلمين مع أقاربهم المشركين، أو لم يستجيروا بهم ولم يوالوهم كالبعض الآخر من مسلمي قريش، وشخص الرسول.

العفو عن المسيء والتسامح

الإساءة تكون بالألفاظ، وتكون بالأذى الجسدي أو المعنوي أو بطرق كثيرة أخرى. ومسامحة المسيء أفضل عند الله من معاقبته: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿٤٠﴾﴾ الشورى.

مع بقاء حق رد الإساءة الجسدية بمثلها لمن وقعت عليه، قائم: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴿٤١﴾﴾ الشورى.

لكن العفو والتسامح خير عند الله من العقاب، خاصة للإساءة اللفظية، لأن التسامح يؤلف القلوب: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿٤٣﴾﴾ الشورى.

وكان المسلمون بحاجة لتأليف قلوب قريش في الوقت الذي نزلت فيه هذه السور التي تتحدث عن وقوع الظلم من قريش على المسلمين. كما طالبت السور المسلم بكبح جماح الغضب، وعدم التصرف قولاً أو فعلاً وهو غاضب: ﴿. . . . . وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴿٣٧﴾﴾ الشورى.

ولأن قريش تتعمد إثارة المسلمين لعلهم يبادلونهم الأذى فيجدون تبريراً للاعتداء عليهم جسدياً.

وسيكون لأذى قريش المتواصل على المسلمين نتائج وخيمة على المدى الطويل والمباشر، ومن النتائج المباشرة ما يلي:

بعض المسلمين يلجاون لأقاربهم من المشركين ويوالونهم

عندما أقدمت قريش على كسر الحاجز النفسي الذي يمنعها من الاعتداء على المسلمين جسدياً في مكة، كان المسلمون قلة مكشوفين لقريش القوية المتسلطة. فعمد بعض مسلمي قريش لإثارة نعرة الحمية لدى أقاربهم المشركين، وتذكيرهم بروابط الدم والقربى ليحموا أنفسهم من أي اعتداء قد تتجرأ عليه قريش ضدهم. فنزل القرآن ليعطي المسلمون حق رد الظلم ومعاقبة الظالم ولم يسمح لهم بموالاة الكفار، برغم قلتهم وضعفهم. بل توعد من يوالي المشركين بنار جهنم، متساوياً في العقوبة مع المشركين الذين والاهم وطلب حمايتهم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴿١١٣﴾ هود.

وهذا التصرف أوجد:

مشاحنات بين المسلمين

لقد أظهر بعض المسلمين ممن ينتسبون لقريش موالاة ومودة لكبراء قريش الذين كانوا يسومون من أسلم من العبيد والموالي سوء العذاب ليردوهم عن الإسلام. وهذا ما ولد بعض الضغائن في نفوس المسلمين من الموالي والعبيد ضد مسلمي قريش الذين يوالون المشركين، والذين سنطلق عليهم «مسلمة قريش»[١]. ويبدو أن بعض المشاحنات حدثت بين الفريقين المسلمين. فالمستضعفون يلومون مسلمة قريش على موالاتهم للذين يعذبونهم من المشركين، ومسلمي قريش ينفون تهمة الموالاة. فجاءت الآيات تأمرهم بالبعد عن كل ما يسبب الفرقة والبغضاء، لأن المسلمين بحاجة لوحدة الكلمة ولم

---

(١) ليس كل من أسلم من قريش هم من مسلمة قريش، فهناك مسلمون آمنوا واتقوا وهم من امتدحهم القرآن. لكننا سنطلق اصطلاح «مسلمة قريش» على فئة من قريش أعلنوا إسلامهم من البداية وهاجروا لكنهم أبقوا على موالاتهم لأقاربهم المشركين ولم يحسن إسلامهم أبداً.

الشمل والوقوف صفاً واحداً مقابل ما يلقونه من قريش من تعسف وإيذاء: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴿٥٣﴾ بني إسرائيل.

وسورة الشورى تقول للمسلمين أن الجنة لمن يجتنب كبائر الإثم، ولمن إذا أثير لا يغضب، ولمن يتعامل مع إخوانه المسلمين باللين والمساواة دون طبقية: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣٨﴾.

وتشرع لهم أن يصدوا ـ مجتمعين ـ الظلم الواقع عليهم من الكفار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴿٣٩﴾ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴿٤٣﴾.

وتؤكد سورة الشورى مبدأ كبح جماح الغضب: ﴿. . . . . وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴿٣٧﴾

والاتفاق على حل مشاكلهم ومواجهة العقبات مع بعضهم البعض كوحدة واحدة، وتسيير أمور حياتهم عن طريق التشاور فيما بينهم: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣٨﴾ الشورى.

والشحناء التي حدثت بين المسلمين من ضعفاء قريش ومسلمة قريش بذرة لنبتة سامة ستنمو بين المسلمين وستستمر حتى بعد الهجرة للمدينة، بل سيعاني من طلعها المسلمون بعد وفاة رسول الله. وسنرى بعض مظاهرها في المراحل القادمة. لأن أولئك الفئة من مسلمي قريش سيبقون على موالاتهم لأقاربهم المشركين، برغم وعيد القرآن لهم.

قريش تسعى لإخراج الرسول من مكة

ما يؤكد أن الرسول ومسلمي قريش لم يتعرضوا للأذى الجسدي هو أن قريش قد فكرت في مرحلة سابقة، كما ذكرت سورة الطور، في قتل الرسول، لكنها لم تنفذ مخططها، بسبب حرمة مكة. كما أنها في هذه المرحلة لو كانت قد تجرأت على التعدي على قرشي واحد من المسلمين، فسوف تتمادى وتعتدي عليهم جميعاً، وستقتل الرسول لتقضي على دعوته. وهذا لم يحدث لا في هذه المرحلة ولا في المرحلة اللاحقة، برغم ضعف وقلة المسلمين.

ولأنها لم تجرؤ على قتل محمد، بدأت قريش بالبحث عن طريقة لإخراج الرسول من مكة، كما تخبرنا سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴿٧٧﴾.

وإخراج محمد من مكة قد تهدف قريش من ورائه ليس إبعاده، ولكن لكي يتسنى لها قتله بعيداً عن الحرم. وهذا ما يفسر خروج الرسول متخفياً من مكة مع صاحبه «أبو بكر»، وملاحقة قريش لهما. وقد تكون كتب الأخبار قد صدقت في القول إنه قد سار في طريق غير تلك الطريق التي يسلكها المسافرون عادة من مكة ليثرب، لتضليل قريش والإفلات من ملاحقتهم له. وهو ما ذكرت قريش به، سورة براءة: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾ التوبة.

ولا يمكن قبول قول الإخباريين إن قريش قررت قتل محمد في الصباح التالي لأحد الليالي، وإنه استطاع خداعهم بأن أناب عنه علي بن أبي طالب لينام في فراشه. فكانت قريش تنظر من خلال ثقوب في باب الدار وترى النائم فتظنه محمد، ولما جاء النهار ونهض النائم اكتشفوا أنه علي وليس محمد، الذي استطاع التسلل خارج مكة تحت جنح الظلام. وهذا الكلام عبارة عن

قصة مختلقة في عصور لاحقة تهدف لإضافة فضيلة لعلي بن أبي طالب أكثر من رواية حقيقة ما حدث. لأن قريش لو كانت قد تجرأت على قتل محمد في مكة، لقتلوه حال عزمهم على ذلك، واقتحموا عليه داره، ولن ينتظروا حتى يستيقظ في الصباح. لأن من يريد أن يقتل لن يهتم بإزعاج الضحية.

رؤيا الرسول

وفي خضم هذه الظروف الحالكة المحيطة بالرسول والمسلمين القلة معه، يرى الرسول رؤياً أشعرته بالراحة والطمأنينة والقوة، وأغضبت قريش لما قصها عليهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً ﴿٦٠﴾ بني إسرائيل.

فما هي هذه الرؤيا؟

لا يرد ذكر للرؤيا التي رآها الرسول في القرآن إلا في سورة الفتح المدنية، التي نزلت بعد أن دخل الرسول والمسلمين مكة فاتحين، وأعلنت قريش استسلامها: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴿٢٧﴾ الفتح.

ويكون الرسول في مكة قد رأى أن المسلمين سيتغلبون على قريش وسيحكمون مكة، وهو ما أغاظ قريش لما قص رؤياه عليهم، لأنهم ممن يعتقدون بالأحلام.

المرحلة السابعة / التعذيب والهجرة

السور: عددها ثماني، وهي: الأنعام، النحل، القصص، المسد، البروج، العنكبوت، الرعد، الحج.

المخاطب: كما هي الحال في المرحلتين السابقتين، فإن سور هذه

المرحلة تخاطب كل الناس، والمستضعفين في مكة، وبني إسرائيل، إضافة لاستمرارها في مخاطبة كبراء قريش.

الأحداث

هذه المرحلة اتسمت بظاهرتين متباينتين. الأولى كثرة أعداد الداخلين في الإسلام من أهل يثرب، وهي ظاهرة إيجابية للمسلمين على المدى المنظور والبعيد. حيث دخل الإسلام في غضون أشهر قليلة خلال هذه الفترة وما قبلها، أعداد من الناس أكثر من كل من أسلم منذ بدأ محمد دعوته قبل سنوات طوال. ولأن أغلب من دخل الإسلام حديثا من يثرب، ولأن المسلمين في مكة مضطهدين ومهددين في حياتهم، فقد هاجر مسلمو مكة ليثرب تلبية لدعوة أهل يثرب المسلمين لاستضافتهم. وكانت الهجرة، التي أعزت الإسلام والمسلمين، وقلبت سحر قريش عليها، عندما استطاع المسلمون الضعفاء إجبار كبراء قريش على الاستسلام لهم صاغرين، بعد بضع سنوات من هجرتهم القسرية ليثرب حفاظاً على أرواحهم ودينهم.

أما الجانب السلبي الذي ميز هذه المرحلة فقد تمثل بكونها أشد مراحل الدعوة في مكة قسوة على المسلمين. فقد «ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ»، بعدما شنت قريش حرباً شعواء مختلفة الأساليب، تهدف للقضاء على المسلمين واستئصال شأفة الإسلام.

وفيما يلي أهم أحداث المرحلة:

استمرار مطالبة المسلمين بالدعوة

منذ أن تحول المخاطب في السور لدعوة كل الناس، والآيات تنزل لتأمر المسلمين بأن يأخذوا دوراً في التبليغ والدعوة لدين الله، لأن الجبهة اتسعت، ولن يستطيع الرسول الوصول لكل من يرغب بالتعرف على الإسلام. وقد استمر المسلمون بالدعوة كما أمرهم الله، وهو ما كان يغيض كبراء قريش، لدرجة كانوا

يحدثون أنفسهم بمهاجمتهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٢﴾﴾ الحج.

والآية تشير إلى أن قريش لم تهاجمهم، لأنهم على ما يبدو ممن ينتسبون لقريش، وهو ما يؤكد أن تعذيب قريش كان موجهاً لمن أسلم من المستضعفين من موالي وعبيد، دون القرشي.

أحدهم أسلم ووالداه كافران

لقد رأينا في المرحلة الخامسة (الأحقاف:١٧) إسلام رجل وزوجته، ولهما ولد شاب دعياه للإسلام فنهرهما. وفي هذه المرحلة تخبرنا سورة العنكبوت أن هناك رجل أسلم، ولكنه لقي العنت من والديه المشركين اللذين يحاولان ثنيه عن معتقده الجديد وردته للكفر، فيأمره القرآن بألا يطيعهما، لكن عليه الاستمرار بالإحسان لهما: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٨﴾﴾ العنكبوت.

استمرار دخول بني إسرائيل الإسلام

منذ أن تغير المخاطب في السور لدعوة كل الناس والحديث عن تاريخ بني إسرائيل وأنبيائهم، كثر تواجد بني إسرائيل في مكة. البعض جاء للاستماع للرسول والدخول في الدين، كما أشارت الأحقاف من سور المرحلة الخامسة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٠﴾﴾.

واستمر دخول أعداد أخرى من بني إسرائيل للإسلام في هذه المرحلة: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا

اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴿٥٥﴾ القصص.

والتواجد الملحوظ لبني إسرائيل في مكة خلال هذه المراحل، جعل الآيات تقول لقريش الذين يطالبون الرسول بنزول الملائكة ليصدقوا أن دعوته حق، بأن يسألوا بني إسرائيل «أهل الذكر» إن كان سبق وأرسل الله للناس ملائكة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴿٤٤﴾ النحل.

لأن بني إسرائيل سبق وأرسل لهم أنبياء كثر، فهم أهل ذكر ومعرفة بالرسالات السابقة.

ولم يكن تواجد كل بني إسرائيل في مكة من أجل الاستماع للحق وأتباعه، ولكن بعضهم حضر ليجادل الرسول في محاولة لإظهاره بالكاذب وينفر الناس من دعوته: ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴿٩٢﴾ الأنعام.

وعداء جديد مع من يعارض الدعوة من بني إسرائيل هو آخر ما يرغب فيه المسلمون، الذين تحول بقاءهم في مكة إلى جحيم بسبب عداء قريش لهم، وأصبحوا يتطلعون ليثرب كأرض للمهجر بعدما تكونت جالية مسلمة هناك. لذا نزلت الآيات تأمر الرسول والمسلمين بالتلطف مع بني إسرائيل ولو كان جدالهم لدحض الحق: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴿٤٦﴾ العنكبوت.

استمرار دفع الظلم

لقد أوجب القرآن للمسلمين دفع الظلم عنهم ومعاقبة من يعتدي عليهم بمثل ما اعتدى في المرحلة السابقة، وهو ما أشرنا له سابقاً. وتؤكد سور هذه المرحلة هذا الحق للمسلمين: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴿٦٠﴾﴾ الحج.

وتخبرهم سورة الحج أن الله يدافع عنهم ويعينهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴿٣٨﴾﴾.

ولكن دفع الظلم لا يلغي الدعوة بالحسنى، ولا التسامح مع المعتدي والصبر على الأذى النفسي: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴿١٢٨﴾﴾ النحل.

وتؤكد سورة العنكبوت على الجهاد في الله، والمقصود به التمسك بالدين والصبر على الأذى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت.

وهو مختلف عن الجهاد في سبيل الله الذي يعني قتال الأعداء.

وهو ما كررته سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٧٨﴾﴾ الحج.

وقد ظهرت آثار عداء قريش للمسلمين بعدة أشكال، منها:

وقوع مشاحنات بين المسلمين وقريش

يبدو أن المسلمين بعد أن شرع لهم حق دفع الظلم ومعاقبة المعتدي بمثل ما اعتدى به، بدأوا يردون على سخرية قريش بمثلها، وإذا ما سبتهم قريش قام المسلمون بالرد بالمثل، فنزلت الآيات تبين لهم بعض المحاذير التي يجب ألا يغفلوا عنها: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴿١٠٨﴾﴾الأنعام.

وبالتأكيد فمن يقابل سب قريش بسب مقابل هم من مسلمي قريش، ولكنهم ليسوا ممن يوادون مشركي قريش، كما أنهم ليسوا من المستضعفين، لعدم قدرتهم على الجهر بسب أحد الكبراء في وجهه وإلا تعرض لأذى جسدي.

استمرار موالاة المشركين من مسلمة قريش

في المرحلة السابقة حذر القرآن مسلمة قريش من موالاة ومودة أقاربهم من مشركي قريش، وفي هذه المرحلة يؤكد القرآن التحذير، واصفاً من يركن للمشركين وكأنه يحتمي ببيت نسج من خيوط العنكبوت، أي أن احتماءهم بالكفار، وإن ظنوا أنه سيحميهم من الأذى الجسدي، فلن يمنع عنهم عذاب النار: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾ العنكبوت.

ولأن هؤلاء النفر من المسلمين الذين يوالون أقاربهم من مشركي قريش أصبحوا معروفين، فقد قام الرسول بطرد أحدهم عندما حضر لمجلسه، كون من يوالي الكفار فهو منهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴿٥٢﴾.

ولأن هذا المسلم قدم للرسل تائباً نادماً على ما بدر منه، فإن الآية التالية ترشد الرسول للتصرف الذي يجب عليه أن يتصرفه حيال هذا المسلم التائب وكل من يحذو حذوه، وذلك بأن يحسن استقباله ويشجعه على التوبة، ويطمئنه أن الله غفور رحيم: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥٤﴾.

لكن أغلب من والى المشركين أبقى على موالاتهم ولم يتراجع، وسنرى كيف يستمر هذا الولاء بإثارة المشاكل في صفوف المسلمين فيما بعد في المدينة بعد الهجرة.

أساليب قريش في حرب المسلمين

تعددت وتنوعت أساليب قريش في حربها على المسلمين وبلغت ذروتها من حيث الكم والقسوة في هذه المرحلة، وفيما يلي بعض أهم ما قامت به قريش ضد المسلمين:

التعذيب، ونتائجه

التعديات الجسدية بدأت في المرحلة السابقة لكنها كانت محدودة الخطورة وإن تنوعت، أما في هذه المرحلة فقد تحولت قريش لتعذيب المسلمين، خاصة المستضعفين منهم، لتردهم عن الإسلام: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ

لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٧﴾ العنكبوت.

وكانت أساليب التعذيب متنوعة، لكنها جميعاً قاسية. وتصف سور البروج واحدة من هذه الأساليب الموغلة في الوحشية: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴿١٠﴾.

لقد كانت الأخاديد تحفر في الأرض، وتملأ بالحطب، ثم تشعل فيها النيران. بعد ذلك تعرض أجساد المسلمين من المستضعفين على النار مباشرة، أو تحمى أسياخ من حديد وتكوى بها جلودهم.

وأبو لهب كان أحد من يتزعم كبراء قريش في شق الأخاديد وإشعال النيران، وتعذيب المسلمين، كما كانت زوجته ممن تحمسوا لجمع الحطب وإحضاره لتسجير النيران: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴿٥﴾.

وكان كبراء قريش يطلبون من المسلمين أن يرتدوا عن الإسلام لكي يوقفوا التعذيب، وإذا ما أجابهم أحد الذين يتلقون التعذيب بأنهم يخافون الله وعذاب جهنم، كانوا يعدونه بأنهم سيتحملون العذاب عنه يوم القيامة إن هو ارتد: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴿١٣﴾ العنكبوت.

وكبراء قريش تجاوزوا كل حدود التطرف في محاولاتهم إبعاد أو ردة الناس عن الإسلام، لدرجة أن بعضهم كان يقتل أولاده خوفاً من أن يقتنعوا بالدعوة ويتحولوا للإسلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴿١٣٧﴾ الأنعام.

لذا فإن كبراء قريش لن يتوانوا عن استخدام أشد أنواع التعذيب قسوة ضد عبيدهم ومواليهم السابقين ليردوهم عن الإسلام. ولم يكن بمقدور البعض من المستضعفين تحمله فأعلنوا ردتهم عن الإسلام وعودتهم لما كانوا عليه من قبل، فجاءت الآيات تنهى عن الردة، وتصف المرتد كمن ينقض غزله بعد أن أحكمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٩٢﴾ النحل.

وتقول سورة الرعد إن الدخول في الإسلام عهد موقع بين العبد وربه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴿٢١﴾.

ومن يرتد فقد نقض هذا العهد، ونقض العهد يورد صاحبه نار جهنم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴿١١﴾ الحج.

وكان بعض من أعلن الكفر من مستضعفي المسلمين، لازال يؤمن بدين الله ولم يرتد، لكنه اضطر لإعلان الكفر لعجزه عن تحمل قسوة العذاب، بينما كفر البعض الآخر بالفعل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴿١٠٨﴾ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴿١٠٩﴾ النحل.

وقد امتدحت الآيات من يصبر: ﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٤٢﴾ النحل.

وهو ما كررته سورة العنكبوت: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٥٩﴾ العنكبوت.

وهناك من دخل الإسلام ليس عن اقتناع ولكن لأهداف شخصية، ظن أنه سيحققها، ولما بدأت قريش تعذب المسلمين، سارع لإعلان الكفر الذي لم يكن قد تخلص منه في قلبه أصلاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴿١١﴾ العنكبوت.

وهؤلاء المنافقين قد يكونوا هم من شعر بأنه لا مستقبل للإسلام، وأن المسلمين مقضي عليهم لا محالة عندما بدأت قريش تعذيبهم: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴿١٥﴾ الحج.

قريش تستمر في الجدل

ومن أساليب قريش في حربها على الإسلام، الدخول في جدال مع الرسول، والذي دأبت عليه منذ المراحل الأولى للدعوة. ومجادلة الرسول لا يهدف للوصول للحق ولكن لدحضه. ولو استطاعوا إحراج محمد أو إظهاره

بمظهر العاجز عن الإجابة، فهو كاف لهم ليقنعوا أنفسهم أنهم على حق، وما يدعو له باطل. وفيما يلي بعض الأسئلة التي كانوا يواجهون بها محمد:

كانت قريش تقول لمحمد: ﴿... يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٧﴾ الحجر.

وإذا ما قالت الآيات لقريش: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴿١٥﴾ المزمل.

قالت قريش: ﴿... أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴿٥﴾ الأنبياء.

وإذا تحدث القرآن عن البعث: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴿٥١﴾ يس.

يكون الرد: ﴿...... قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٢٥﴾ الجاثية.

وإذا توعدتهم الآيات بنار جهنم: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴿٤٢﴾ المعارج.

قالوا: ﴿... رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴿١٦﴾ ص.

وإذا نهتهم الآيات عن الشرك: ﴿... أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴿١١٠﴾ الكهف.

قالوا: ﴿... لَوْ شَاء اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴿٣٥﴾ النحل.

وهكذا.

وهي أسئلة تشعر من يقول بها بصدق موقفه.

ومثل هذا الجدل يتكرر مع كل معارض، ومن ذلك جدال من يتمسك

بالموروث ويؤمن بأن ما يسمى «الحديث» جزء من دين الله. فهم يبدأون بتأكيد أن القرآن يشهد على أن ذلك، ويوردون أجزاء من بعض الآيات على أنها تأمر بالعمل بموجب الأحاديث. وعندما يُثبت لهم أن الآيات التي أوردوها لا شأن لها بما يسمى بالحديث، لايتوقفون عن الجدل بل يفتشون عن آيات أخرى وتأويلات جديدة.

والتفوق في الجدال لا يعني أن صاحبه على صواب دائماً، لأنه يخضع لمعلومات المجادل وسعة إطلاعه، وقدرته على الإقناع. وقد تخون الذاكرة أي شخص مهما أوتي من علم، وقد يخونه التعبير فلا يستطيع مقارعة الحجة بالحجة، ولو كان معه الحق. لذا فقد عانى الرسول كثيراً من جدال قريش، التي كانت تلقي الأسئلة عليه. مثل قولهم: لماذا أنت يا محمد اختارك الله للرسالة، وأنت من الناس العاديين: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴿٣١﴾ الزخرف.

وكان يحرج كثيراً، لأنه لا يجد ما يرد به على جدالهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴿٩٧﴾ الحجر.

وكانت نفسه تحدثه أحياناً إن كان قومه على حق في رفض ما يدعو إليه، بحجة أنه قد لا يكون من الله، فيأتيه الوحي ليطمئنه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴿١٠٩﴾ هود.

ولأن عقلاء قريش هم من يسخرون من الدعوة فالتساؤل استمر يجول في خاطر محمد إن كان بالفعل هؤلاء على خطأ وهو وحده على حق، فيأتيه الجواب أن رجحان العقل في أمور الدنيا لا يعني أن صاحبه يسمح لعقله بالتفكير بأمر الدين: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴿٤٤﴾الفرقان.

وفي أحيان أخرى كان محمد يتمنى لو يستطيع عدم قراءة بعض الآيات

التي تثير جدل قريش: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴿١٢﴾هود.

وأحياناً يتمنى لو أعطيت قريش المعجزة التي تطلب فقد تؤمن: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴿٥٩﴾ بنو إسرائيل.

بل وصل الأمر بمحمد في وقت من الأوقات أنه فكر بالهرب لأنه شعر بعدم قدرته على الإجابة على تساؤلات قريش: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ﴿٤٩﴾ القلم.

ومع استمرار شعور محمد بنزول آية لإقناع قريش بصدق رسالته وإقامة الحجة عليهم ورد جدالهم، كانت الآيات تنزل عليه لتقول: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴿٣٥﴾الأنعام.

ولأن محمد بشر ويفكر بقدرات عقلية بشرية، فقد نزلت عليه الآيات لتقول له بطريقة غير مباشرة إن الله يعلم ما لا تعلم، وإن قريش لن تؤمن ولو لبيت لها كل مطالبها: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴿٢٥﴾ الأنعام.

لأن جدالهم ليس بحثاً عن الحق، ولكن ليقنعوا أنفسهم أن الباطل الذي هم عليه هو الحق: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴿٢٦﴾ الأنعام.

وسيبقون على عقائدهم الباطلة حتى لو رأوا عذاب الآخرة وردوا للدنيا:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٢٨﴾ الأنعام.

لذا إليك أفضل طريقة لإنهاء الجدال معهم: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٦٩﴾ الحج.

وكلما جادلوك: ﴿... ذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴿٨٣﴾ الزخرف.

وإن لم يتوقفوا عن الجدال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴿١٩﴾ الأنعام.

استمرار الصد عن الدين

من الأسلحة التي استخدمتها قريش لحرب الإسلام، صد غيرها من الناس الدخول فيه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴿٢٦﴾ الأنعام.

وبأساليب متنوعة، منها ترصدهم للناس على الطرقات ومنعهم من الوصول لمحمد: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴿٣٧﴾ الزخرف.

ومنها صدهم للمستضعفين بالقوة والجبروت: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاء مَا يَزِرُونَ﴿٢٥﴾ النحل.

ومنها جدال الرسول أمام أناس حضروا من أماكن أخرى للاستماع إليه،

لينفروا الناس منه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴿٩﴾ الحج.

قريش منعت المسلمين من دخول الحرم

استمرت قريش تبتكر أساليب جديدة للتضييق على المسلمين، وكان آخر ما أقدموا عليه في هذه المرحلة، منع المسلمين من دخول الحرم. وجاء المنع بعدما استمرأت قريش خرق المعاهدات الدولية، الإلهية الأصل، التي تحترمها كل شعوب جزيرة العرب لمكة وبيت الله، ومنها عدم التعدي على من فيه وإبقاء مكة آمنة، وعدم منع الناس من الحج لأنه بيت الله لكل خلق الله.

لكن قريش أقدمت على تعذيب المستضعفين في مكة، وهي جرأة على حرمة بيت الله لم يسبق لأحد من الناس أن تجرأ عليها قبل قريش. ولما لم تصب بأذى ولم تهلك نتيجة فعلتها تلك أقدمت على منع المسلمين من دخول بيت الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٥﴾ الحج.

وهذا التعدي على بيت الله من قريش يساوي في الحرمة قتل الناس أو ظلمهم فيه. وقريش لا تملك البيت ولا تستطيع منع الناس عنه، وإن توارثت خدمته والسهر على راحة الحاج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴿٣٠﴾ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴿٣٣﴾ الحج.

ولو بقي المسلمون مدة أطول في مكة ولم يهاجروا فستقدم قريش على قتل الرسول وكل من لا يرتد من مسلمي قريش، لأن جرأتها على حرمة البيت لن تتوقف، لكن الهجرة أنقذتهم.

الهجرة

لقد كانت الأوضاع لا تطاق وتحولت مكة إلى جحيم للمسلمين، في نفس الوقت الذي تنامت فيه أعداد المسلمين في يثرب، نتيجة للدعوة التي قام بها من أسلم من بني إسرائيل، وإن كانت الغالبية العظمى من الأوس والخزرج، لأن معظم بني إسرائيل لديهم مصالح دنيوية ستتأثر لو أسلموا، ولديهم عقيدة ورثوها تختلف عما يدعو له محمد. بينما آمن الكثير من الأوس والخزرج، لأنهم يمثلون المستضعفين في يثرب. خاصة أن من دعاهم للإسلام أشخاص من بني إسرائيل الذين ينتمون لطبقة كبراء يثرب، فتأثروا بهم وتبعوهم. وهذه الجالية الإسلامية الجديدة في يثرب كانت تسمع وترى ما يحدث لإخوانهم المسلمين في مكة من أذى وما يتعرضون له من اضطهاد على أيدي قريش، ويعلمون أنهم أعجز من أن ينتصروا لأنفسهم. وبما أن يثرب أرض واسعة تحوي أراض جرداء لا يمتلكها بنو إسرائيل، ويمكنها استيعاب أعداد المسلمين القليلة، فلابد أن الدعوة وجهت للرسول ومسلمي مكة للانتقال ليثرب والسكن بجوار إخوانهم، هرباً بدينهم وإنقاذاً لحياة من يتعرض للتعذيب منهم، ووجدت هذه الدعوة صدى في نفوس المسلمين في مكة، خاصة أن الآيات نزلت تحثهم على قبول الدعوة: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴿٥٦﴾ العنكبوت.

وبدأت السور تطلب من الذين أجبروا على الكفر وهم مطمئنون بالإسلام أن يهاجروا ليستطيعوا ممارسة دينهم بحرية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١١٠﴾ النحل.

وفي الوقت نفسه تطلب من مسلمي قريش الذين تعرضوا لظلم وعدوان دون التعذيب أن ينضموا للمهاجرين: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴿٤١﴾ النحل.

وتطمئنهم الآيات أن الله سيرزقهم خيرا مما تركوا في مكة: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦٠﴾ العنكبوت.

ومن يمت منهم أو يقتل فله الجنة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴿٥٩﴾ الحج.

فبدأ المسلمون يتسللون خارج مكة خفية، مما أثار سخرية قريش، فكانوا كلما دعاهم محمد للإسلام أجابوه ساخرين أنهم لو آمنوا فسيكونون كالمسلمين الذين يتخطفون من مكة: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾ القصص.

ولم يبادر كل المسلمين بالخروج من مكة، وبقي بعضهم، خاصة من هم من مسلمي قريش، الذين وإن تعرضوا لأذى قريش فلم يكن ليصل للأذى البدني. لأن قريش تجرأت على تعذيب المستضعفين من عبيد وموالي في مكة، لاعتقادها أنهم أقل إنسانية، وبالتالي فتعذيبهم لا يعتبر تعدياً على حرمة مكة التي تمنع قتل أو تعذيب أو إيذاء الناس. لذا بقي عدد من المسلمين في مكة، ولم يسارعوا بالهجرة، وسنرى أن بعضهم بقي في مكة حتى بعد هجرة الرسول، وبعضهم بقي فيها إلى ما بعد ذلك، كما ستخبرنا السور المدنية.

تصحيح نظرية

هناك نظرية يقول بها العلماء، مفادها أن الإنسان هو من استطاع استئناس بعض الحيوانات التي تسمى اليوم الحيوانات الأليفة. أما القرآن فيقول إن الله جل وعلى خلق الحيوانات والطيور على نوعين: أليف (مذلل، وذليل للإنسان)، وجائر (متوحش)، فالأليف أليف لأن الله خلقه أليفاً، والجائر خلق بطبيعة متوحشة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴿٧٥﴾ يس.

فالحيوانات الأليفة لم تصبح أليفة لأن الإنسان استأنسها وطوعها، بل هي أليفة لأن الله خلقها كذلك، تتقبل الانقياد للإنسان وتتعايش معه. وخلقت الحيوانات المتوحشة متوحشة، والمفترسة مفترسة، ولا يستطيع الإنسان تحويل حيوان مفترس إلى أليف، لأنه ضد طبيعته التي خلقه الله عليها. كما أن ترك حيوان كالبقر، مثلا، طليقا على طبيعته لا يحوله لمتوحش، لأنه سرعان ما يعتاد الإنسان ويستأنس إذا ما أعيدت السيطرة عليه.

وفي أستراليا تركت الجمال في البراري منذ بداية القرن العشرين، وتوالدت وتناسلت جيلًا بعد آخر طليقة بعيداً عن سيطرة الإنسان. وفي الآونة الأخيرة فطن بعض الأستراليين للمردود المادي لهذه الإبل لو صدروها لدول الخليج، ليس كلحوم، بل لسباق الهجن، الذي ينشط في المنطقة. والآن يتم القبض على الجمال الضالة في براري أستراليا وتدريبها على السباق ثم تصديرها، على شكل جمال مطاوعة سهلة الانقياد للإنسان. ولو كان الاستئناس ليس مزروعاً في نفوسها التي خلقها الله عليها لما تقبلت سيطرة الإنسان عليها بهذه السرعة[1].

---

(١) العلماء الذين قالوا باستئناس الإنسان للحيوان، قالوا إن الجمل - الحيوان العربي - قد تم استئناسه أولاً من قبل اليهود. حتى هذا نسبوه لهم.

وفي المقابل نرى الحيوانات المفترسة يمكن ترويضها للعمل في السيرك، لكن هذا لا يعني أنها أصبحت أليفة، ولو توالدت في الأسر لأجيال، لذا فمدربيها يتعاملون معها بحذر بالغ، ومع ذلك فمن المعتاد أن يقتل الحيوان مدربه في أي لحظة لأنه مفترس وسيبقى كذلك.

خاتمة

الدعوة في مكة مرت بسبع مراحل كما ذكرنا، كل مرحلة تختلف في ملامحها عن المراحل الأخرى. وقد كان المحرك الرئيسي للأحداث هو المخاطب الذي تخاطبه السور، ونوع الخطاب. فعندما كان الخطاب في البداية لكبراء قريش لتعريفهم بأن هناك بعث وحياة بعد الموت، كانت ردة فعل قريش اللامبالاة ظناً منها أن محمد يمر بنزوة عابرة. وعندما تغير نوع الخطاب للتحذير والوعيد والتهديد وسخرية من عباداتهم، تغيرت ردة فعلهم. فسخروا بالمقابل من محمد ومن آمن معه، واتهموه بالكذب والجنون والسحر وقول الشعر. وكان أذاهم النفسي موجهاً لشخص الرسول، وللمستضعفين من المسلمين، بالدرجة الأولى، وبدرجة أقل بكثير للمسلمين من قريش. فنزلت سورة الزمر تأمر من يتعرض للأذى بالهجرة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿١٠﴾﴾.

وبالفعل خلت مكة من المسلمين المستضعفين وبقي محمد وقلة قليلة ممن أسلم من قريش.

ولأن قريش لن تؤمن مهما دعاهم الرسول، شأنهم شأن كل الأمم، فقد تغير المخاطب في السور، بعد سنوات من الدعوة، وبدأت الآيات تخاطب كل الناس، وتخاطب المستضعفين من قريش وتحثهم على النجاة بأنفسهم النار، لأن بقاءهم على الكفر لم يكن لرعاية مصالحهم، كما الكبراء، لكنهم لا يملكون منها شيئاً، ولكن إرضاءً لساداتهم الذين سلبوهم حرياتهم

وحقوقهم، وسيجرونهم معهم لنار جهنم. كما توجهت السور بالحديث عن قصص من تاريخ بني إسرائيل وأشخاصهم الأقدمين، كبرهان على أن محمداً رسول لله، ولو لم يكن كذلك لما كان له ن يعرف هذه القصص. ذلك أن بني إسرائيل يؤمنون بالله، ولم يكن من المناسب إقناعهم بنبوة محمد من خلال دعوتهم للإيمان بالله، كما كان الحال مع قريش.

وقد سبق تغيير خطاب الدعوة لغير قريش، أمر بالإحسان ومعاونة المساكين واليتامى وابن السبيل، وتحرير الرق والأسير. وهذه التعاملات الإنسانية أوجدت مشاعر ألفة لدى الناس، خارج قريش، تجاه المسلمين والإسلام.

وقد أتت هذه الحملة الإعلامية الإسلامية أكلها، فقد أسلم بعض المستضعفين في مكة، كما دخل الإسلام بعض بني إسرائيل. وهؤلاء هم من كتب الانطلاقة الفعلية للإسلام. فقد قاموا بنشره في يثرب التي قدموا منها بين مختلف مذاهب بني إسرائيل، ومنهم اليهود والنصارى، وبين الأوس والخزرج. وإن كانت استجابة بني إسرائيل محدودة، لعدة عوامل منها أنهم أهل مصالح دنيوية، ويدينون بعقائد يظنونها الحق. بينما انتشر الإسلام بين الأوس والخزرج بيسر وسهولة، مكونين مع مسلمي بني إسرائيل جالية مسلمة في يثرب، أعدادها أضعاف أعداد كل من أسلم منذ بداية الدعوة قبل سنوات.

وكانت يثرب الملاذ الآمن للمسلمين في مكة، عندما شعر مسلموها الجدد بمعاناة إخوانهم في مكة، فسارعوا لدعوة الرسول والمسلمين للهجرة، وقاموا ببناء مسجد لرسول الله وحجرة لمسكنه ملاصقة لمسجده. فتقاطر المسلمون على يثرب، زرافات ووحداناً، قبل أن يصل رسول الله وصاحبه أبا بكر مهاجرين.

وبهجرة الرسول، فتحت صفحة جديدة للإسلام، مثلت بقاء الإسلام وانطلاقته الفعلية للعالمية. ومن غرائب الصدف أن تكون هذه الصفحة قد بدأت على أيدي بعض بني إسرائيل، فيما تحول بقيتهم إلى ألد أعداء الدين، وعملوا على حربه والتعاون مع أعدائه سراً وعلانية.

الفترة المدنية



** المسجد النبوي ومكان غزوة أحد والسقيفة وقباء والجبال ووادي العقيق والمياه مواقعها صحيحة، أما بقية المعلومات فقد تم تخيلها بناء على خرائط د. عبد القدوس الأنصاري وكتب السيرة.

يثرب

عبارة عن أرض تميل إلى الاستواء النسبي، وسط حمم بركانية شديدة الوعورة، وجبال يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠ متر عن سطح البحر. ففي الشرق هناك حرة واقم، التي تتصل بحرة شوران التي تحد يثرب من الجنوب مع جبل عير. وتمتد حرة وبرة بطول الجانب الغربي ليثرب. وإلى الشمال من هذه الحرة ممر يجري فيه عدة أودية، يفصل الحرة عن جبل أحد، الذي يحد يثرب من جهة الشمال. والمنطقة الجنوبية الشرقية من أرض يثرب عبارة عن مزارع للنخيل يمتلكها بنو إسرائيل، ويتخللها أودية صغيرة - مثل مهزوز ومذينب - تصب في وادي بطحان الذي يخترق غرب يثرب، متجهاً من الجنوب للشمال نحو الغابة[1]. وفي الأرض المفتوحة ليثرب شمال المزارع وغربها تتناثر منازل الأوس والخزرج بشكل عشوائي. حيث يجتمع كل فخذ قبيلة في مكان واحد، يفصله عن مساكن الآخرين مساحات خالية، كما هو واضح على الخريطة المرفقة. وتبلغ المسافة بين جبل أحد في الشمال وقباء في الجنوب، قرابة ١٠,٠٠٠ متر، ولا يزيد امتداد يثرب من الغرب للشرق عن نصف هذه المسافة.

السكان

عندما هاجر رسول الله كان كل سكان يثرب المستقرون فيها نازحون من مناطق تقع في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، سواءً كانوا من بني إسرائيل أو من الأوس والخزرج. ولا غرابة أن يمتهن بنو إسرائيل زراعة النخيل، لأنهم اعتادوها في موطنهم الأصلي مصر، قبل أن يتركوه بسبب الغزوات الخارجية. أما الأوس والخزرج، فلم يذكر القرآن عنهما شيئاً يمكن

---

(١) الغابة منطقة مستنقعات تكثر فيها الأشجار البرية تقع إلى الشمال الغربي من يثرب. ويصب فيها العديد من الأودية م ومنها وادي العقيق الذي يقع إلى الغرب من يثرب وخلف حرة وبرة.

أن يدلنا على سبب هجرتهم، ولن نذكر ما يقوله الإخباريون، لأنها أقوال لا يمكن الركون إليها فهي مجرد ظنون. والأزد التي ينتمي لها الأوس والخزرج لها تواجد في عمان الحالية وفي حجاز جنوب جزيرة العرب وأماكن أخرى، مما يعني أنه قد حدث لأفرادها نزوح جماعي، وتهجير قسري من بلادهم الأصلية، قد يكون الاجتياح الأجنبي هو السبب.

والأوس والخزرج قدموا من مناطق حضرية مستقرة، ويحترفون الزراعة، لأنهم استقروا في يثرب ويعملون في مزارع بني إسرائيل كأجراء. وهذا يقود إلى التساؤل إن كان الأزد هم من سكان مصر، كما بني إسرائيل. وقد هربوا منها مثل بني إسرائيل عندما اجتاحتها الجيوش الغازية بعد زمن موسى، وهو الشتات الأول.

قد نكون مخطئين، ولكن إن كان هذا ما حدث، فهو يفسر سر توافق الأوس والخزرج مع بني إسرائيل في العيش معاً في مكان واحد. ويحتمل أنهم وصلوا يثرب معاً وفي وقت واحد، وعلى شكل عائلة واحدة لرجل اسمه أوس وعائلة أخرى لرجل اسمه خزرج، وثلاث عائلات من بني إسرائيل (قينقاع، نضير، وقريظة)، ثم تزايدت أعدادهم وتكاثروا مع الزمن، حتى وصلوا لبضع مئات لكل من الأوس والخزرج، وعائلات بني إسرائيل، عند هجرة الرسول، وهي زيادة معقولة قياساً بنسبة النمو السكاني المنخفض في تلك الأزمنة. وتكون يثرب مهجراً لبعض أهل مصر، استقروا فيها ومارسوا حرفتهم الزراعية التي كانوا يجيدونها في بلادهم الأصلية، وأبقوا على لغتهم وأسمائهم وعاداتهم العربية، مع احتفاظ بني إسرائيل بدينهم وتوراتهم العربية، أو بعضها. واحتفاظ الأوس والخزرج بنفس العادات واللغة وعقائدهم اللا ـ دينية.

وقد أكد القرآن أن رجال دين بني إسرائيل لازالوا يحتفظون بتوراتهم أو بعضها عندما بعث محمد: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴿٤٣﴾﴾ المائدة.

ولما حدث التهجير الثاني لبني إسرائيل بعد انهيار المملكة التي أسسها داوود، لابد أن بعض بني إسرائيل قد مروا بيثرب واستقر بعضهم فيها، وهؤلاء يمكن التعرف عليهم بأنهم اليهود والنصارى الذين يخاطبهم القرآن. ذلك أن هجرتهم حدثت بعد أن ظهر مذهب ما يسمى باليهودية، وبعد أن خرج منهم من يؤمن بألوهية أحد رجال دينهم أو أنبيائهم واسمه عزير. كما أن الهجرة الثانية حدثت بعدما ظهر مذهب أتباع عيسى بن مريم، النصارى. وبعد أن خرج منهم من اعتقد بألوهية عيسى، مع الله ومريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٣٠﴾ التوبة.

وكان انتشار النصرانية ومن قال بألوهية عزير محدود جداً في غير يثرب، ومع الأيام اضمحلت عقائدهم ولم يعد لها وجود، بسبب ذوبان أهلها في المجتمعات التي عاشوا فيها، بينما بقيت هذه العقائد في يثرب حتى ظهور الإسلام، لأنهم عاشوا في مجتمع إسرائيلي صرف، وإن كان مختلف العقائد. ولأن الأزد لم يكونوا من سكان المملكة التي أسسها داوود، فلم يتعرضوا للتهجير والشتات مرة أخرى عندما انهارت تلك المملكة، مثلما حدث لسكانها من بني إسرائيل. وبالتالي لم يكن هناك موجة ثانية من هجرة الأزد إلى يثرب، كما هو الحال مع بني إسرائيل.

وعندما هاجر الرسول إلى يثرب كانت عائلات بني إسرائيل التي وصلت ليثرب في النزوح الأول هم الأكثر عدداً وقوة وتمكناً من العائلات التي وصلت في الهجرة الثانية التي بقي عدد أفرادها قليل. فالكل يعرف من هم بنو قريظة، والنضير، وقينقاع، لكن قلة يعلمون أن بنو زعورا وبنو ماسكة وبنو محمم وبنو ناغصة وبنو مرابة، على سبيل المثال، كانوا من بني إسرائيل يثرب أيضاً. ذلك أن القبائل الثلاث المشهورة، هي التي نزحت أولاً ليثرب برفقة عائلتين من الأزد، بينما بني زعورا وماسلة وغيرهم كانوا ممن نزحوا في المرة الثانية.

ومنهم كان اليهود الموحدين واليهود الذين اعتبروا عزير ابن الله، ومنهم النصارى الموحدين والنصارى الذين اعتبروا عيسى وأمه آلهة مع الله. أما القبائل الثلاث الأقدم، بني قينقاع والنضير وقريظة، فيمثلون بني إسرائيل قبل اليهودية والنصرانية، ويحتفظون بتوراتهم التي نزلت على موسى، أو بعضها. وبطبيعة الحال فالأجيال التالية أغلبها ابتعدت عن الدين ولم يتمسك به إلا القلة القليلة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٣﴾﴾ المائدة.

ولابد أن نشير إلى أن بني إسرائيل الذين هاجروا إلى أقصى مملكة سليمان في نجران أو أقصى اليمن أو بلاد فارس والخزر أو الشام وبلاد النيل وغيرها، قد انتقلوا لأماكن يتحدث أهلها لغات شتى، ولهم ثقافتهم المختلفة. وحتى لو حاول بنو إسرائيل الاحتفاظ بلغتهم وثقافتهم فلا بد أن تتأثر بالبيئة المحيطة. فدخلت ألفاظ وعبارات أجنبية على لغتهم، وأصبحت لغتهم خليط من اللغة الأم واللغات المحلية وتأثرت مخارج الحروف عندهم. ولم تعد لغتهم كما كانت في وطنهم الأصلي كما لم يتحولوا تماماً للتحدث بلغة البلد المحلية، ولكن تولد لديهم لغة هجين، تشبه ما عرف في جنوب أفريقيا باللغة التي تسمى أفريكانا. وهي لغة حديثة يتحدثها المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا، عبارة عن خليط من الهولندية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والزولو والسواحلية، ولكنها ليست واحدة من هذه اللغات. ولغة بني إسرائيل الهجين، هي التي سميت العبرية، وفرضت على العالم على أنها أصل لغات الشرق الأوسط كله. لهذا نجد أن ما سمي «العبرية» لغة فيها تشابه مع لغات اليمن، ولغات أخرى، وهي مستمرة بالتغير والتلون وآخر أشكالها ما سمي بالعبرية الحديثة الذي ظهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالاعتماد على قواعد اللغة العربية.

والمهاجرون منهم الذين اختلطوا بمجتمعات شتى هم الذين أصبحوا يمثلون اليهود، ويتأثر بهم غيرهم من بني إسرائيل. وحل كتابهم المقدس، محل توراة موسى. مع أنه كتاب تاريخي استمروا يضيفون له أحداثهم على مدى أكثر من ١٠٠٠ عام، كما يقول علماء تاريخ الكتاب المقدس. ولم يعد أحد منهم يتذكر التوراة التي نزلت مرة واحدة على موسى عندما نسخها في الألواح، وكانت مقتصرة على التشريعات الدينية فقط، ولا تتعرض للأحداث التاريخية.

عقائدهم

كما سبق وذكرنا كان هناك بعض بني إسرائيل وصلوا يثرب بعد تهجيرهم الأول من بلادهم مصر، وهؤلاء بقيت بين أيدي رجال دينهم نسخة من التوراة أو بعضها. أما من قدم يثرب منهم بعد فرارهم من مملكة داوود عندما انهارت، فقد كانوا بعيدين عن دين موسى، عقيدة وثقافة. فقد عاشوا في بلاد غريبة الدين والثقافة، لفترة طويلة بما يكفي لدخول البدع على الدين، وظهرت بينهم مذاهب متعددة منها من تسموا باليهود الذين نسوا دين موسى. ومن اليهود من اعتقد بإلوهية أحد أنبيائهم واسمه عزير. وهناك من كان من أتباع عيسى بن مريم، قلة بقوا على الحق، وأغلبهم اعتقدوا بإلوهية عيسى بن مريم..

وتكون عقائد بني إسرائيل في يثرب عندما هاجر الرسول، كما يلي:

* مؤمنون بموسى ولدى رجال دينهم التوراة، أو بقية منها.

وهؤلاء هم من وصل يثرب في شتاتهم الأول.

وقد آمن بعضهم بالرسول في مكة، وهم من نشر الإسلام في المدينة وعمل على تيسير هجرة الرسول ومن آمن معه للمدينة. أما بعد هجرة الرسول فلم يؤمن بالإسلام منهم أحد.

وكان رجال دينهم يعلمون أن ما يقوله محمد متوافق تماماً مع التوراة التي بين أيديهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٧١﴾ آل عمران.

وبرغم إطلاع رجال الدين على التوراة، فقد كانوا يشرعون لعامة الناس تشريعات من عند أنفسهم، مخالفة لدين الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٨﴾ آل عمران.

ورجال الدين هم الذين يقودون الحرب على الإسلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴿٥٢﴾ النساء.

لأن الإسلام سيفقدهم مكاسبهم المادية والمعنوية التي يحصلون عليها باسم الدين: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٩١﴾.

وعملوا ما في وسعهم لكي يشككوا المسلمين بدينهم، حسداً منهم أن

يؤمنوا بالله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٠٩﴾ البقرة.

وقد كان منهم من أعلن إسلامه عند مقدم رسول الله للمدينة، ليتعرف على أحوال المسلمين ولم يؤمن: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴿٧٦﴾ أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴿٧٧﴾ البقرة.

وهؤلاء ورجال دينهم لا يتمنون الخير للمسلمين ويسعون للإضرار بهم: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿١٠٥﴾ البقرة.

كما كان منهم من أسلم لكنه أبقى على علاقات المودة والولاء لبني جنسه، كما فعل مسلمة قريش: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴿١٢٠﴾ آل عمران.

وبعض هؤلاء لما حرم عليه موالاة من لم يؤمن ارتد وعاد للكفر وعقائده السابقة: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٨٦﴾ أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴿٩١﴾ آل عمران.

أما عامتهم فكانوا دون تفكير يتبعون كل ما يقوله لهم رجال دينهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴿٨٠﴾.

* بنو إسرائيل الشتات الثاني

وهؤلاء قسمين:

١. إما بقية من آمن بموسى ولكنه انحرف عن الدين الصحيح، وظهرت بينهم المذاهب والفرق الضالة، ومن ذلك فرقة تسمت باليهود. بعضهم موحدون، وبعضهم يعتقدون بإلوهية أحد أنبيائهم واسمه عزير.

وكانوا أشد الناس عداوة للمسلمين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴿٨٢﴾ المائدة.

٢. أو أنهم من النصارى.

والنصارى فريقين:

* الأجيال التالية لمن آمن بعيسى بن مريم

وهؤلاء كانوا على العكس تماماً من اليهود: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴿٨٥﴾ المائدة.

مما يشير إلى أن الكثير منهم دخل الإسلام عن اقتناع.

* الأجيال التالية لمن غالوا في عيسى بن مريم

وهم فريقان:

فريق يؤمن بعقيدة التثليث: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٧٣﴾ المائدة.

والآلهة الثلاثة في هذه العقيدة هم: الله، عيسى الابن، مريم الأم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٧٣﴾ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٧٥﴾ المائدة.

وهو ما يخالف جذرياً عقيدة من تسمو بالمسيحيين، بعد زمن من يسمى يسوع، الذي ظهر في فلسطين بعد عصور من عيسى بن مريم. لأن المسيحيين يؤمنون بتثليث مختلف، مؤلف من الأب (الله)، ويسوع الإبن، والروح القدس.

والمسيحيون لا يعتبرون أم يسوع إله، ولا عبرة فيما ظهر في قرون لاحقة من مسيحيين لهم كنيسة تسمى كنيسة العذراء أو أم الإله.

أما النصارى فلا يعتبرون ما يسمى بالروح القدس إله، ولا يعرفونه. وهذا الفارق الجوهري يضاف للأدلة التي تثبت أن يسوع لا علاقة له بعيسى بن مريم.

والفريق الآخر من النصارى الغلاة، هم من يؤمن أن عيسى بن مريم هو الله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿٧٢﴾ المائدة.

وهذان الفريقان لم يؤمنوا بمحمد، لأنهم لا يؤمنون بوحدانية الله، وإلا لآمنوا بعقيدة بني إسرائيل الذين يؤمنون بعيسى أو بموسى قبله.

وقد دخلوا في جدال مع الرسول بعد الهجرة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴿٦٣﴾ آل عمران.

ولأنهم قلة فقد ذابوا في المجتمعات التي هاجروا إليها في بلاد الشام وغيرها، وتحولوا إلى مسيحيين، خاصة أنهم لا يملكون كتاباً خاصاً بهم.

هذا باختصار وضع بني إسرائيل في يثرب عند مقدم رسول الله مهاجراً، وسنتطرق للأحداث التي وقعت بينهم وبين المسلمين ضمن أحداث الدعوة في المدينة.

أما الأوس والخزرج فكانوا لا دينيين، منذ قدموا إلى يثرب، وحتى هجرة

رسول الله. فالقرآن لم يذكر لهم أصناماً يعبدونها، ولا حتى المؤرخين بشكل قاطع. وإن حاول جواد علي في كتابه المفصل أن يقول إن مناة كانت لهم، دون أن يقدم ما يسند كلامه.

وقد دخل الإسلام غالبية الأوس والخزرج، بداية على أيدي من أسلم من بني إسرائيل قبل الهجرة. وكان منهم منافقين، يوالون أسيادهم من أهل الكتاب. وسنتناولهم في أحداث المدينة.

والخريطة السابقة ليثرب، تظهر أماكن استقرار قبائل الأوس والخزرج والقبائل الثلاث المشهورة من بني إسرائيل. ولم نتمكن من تحديد مواطن الموجة الثانية من بني إسرائيل من يهود ونصارى.

مقام الرسول

كتب الأخبار تقول إن الرسول لما قدم يثرب ترك ناقته تسير كيفما تشاء، ومنع أحداً من توجيهها، بحجة أنها مأمورة، أي أن الله قد ألهمها أين تتجه. وقد بركت في موضع اختاره ليكون مسجداً ومسكناً له. وبطبيعة الحال هذا مجرد خيال، ولم يحدث على أرض الواقع، وإلا لكانت تلك الناقة بمقام ناقة صالح أو عصا موسى، ومحمد لم يعط أي معجزة حسية على الإطلاق. والرسول عندما هاجر كانت يثرب مملوكة لأهلها من بني إسرائيل والأوس والخزرج، ولن يسمحوا لأحد أن ينزل في أي مكان يختار ويقيم مسجده وبيوته، دون موافقتهم. وقد فطن كتبة التاريخ والسير لهذه الحقيقة، فروى بعضهم أن الرسول قد اشترى الأرض من أيتام، وروى آخرون أن الأرض كانت لبعض بني النجار الذين وهبوها للرسول دون مقابل مادي، وهذه الروايات لا يدعمها أساس يمكن الاطمئنان له. والغالب أن اختيار موقع مسجد رسول الله وسكنه (حجرته)، تم قبل وصوله من مكة. واختيار الموقع جاء قريبا من مساكن بني النجار، أخوال والد محمد، كما ورد في كتب السير. وإن صدقت تلك الكتب، فمكان إقامة الرسول تم التخطيط له قبل

مقدمه ليكون بالقرب من أخواله، وفي ضيافتهم. لأن غيرهم قد لا يرحبون بنزوله في أرضهم أو قريباً منها، خاصة من لم يسلم منهم. أما أخواله فسيرحبون بمقامه بقربهم، سواءً أسلموا أو لم يسلموا، تبعاً لعادات العرب المتبعة في ذلك الوقت، التي تحتم حماية القريب وإجارته واستضافته. أو أن الأنصار اختاروا مكان مسجد رسول الله ومسكنه بناءً على اعتبارات لم تتبينها، وإن كان منها أنه كان في فسحة من الأرض لم تكن مملوكة لأي فخذ أو قبيلة من قبائل يثرب. وفي كلا الحالين، فمقام الرسول قد وافق عليه أهل يثرب قبل وصوله، واتفقوا على أن يكون في الأرض الخالية التي تقع إلى الغرب من مساكن بني النجار من الخزرج، وإلى الشرق من وادي بطحان وجبل سلع، وشمال مساكن فخذ آخر من الخزرج هم بني ساعدة.

وقد بني المسجد وحجرة الرسول الملحقة بالمسجد قبل وصوله للمدينة، ذلك أن هجرة الرسول والمسلمين إلى يثرب تمت بناءً على دعوة ممن أسلم من أهلها، عندما رأوا ما يتعرض له المسلمون في مكة من اضطهاد من قريش وما يتعرض له المستضعفين منهم من تعذيب. وقد بدأت هجرة المسلمين على مدى شهور قبل أن يهاجر رسول الله، وعندما هاجر كان المسلمون في يثرب على علم بمجيئه، لذا تم اختيار مكان إقامته وبُني مسجده قبل وصوله. ولأنه لم يكن متزوجاً عند هجرته، بعد وفاة زوجه خديجة، فقد بني له حجرة واحدة مع المسجد. ولما قدم حط رحاله في بيته وبقرب مسجده. وفي وقت لاحق زيدت الحجرات، بزيادة نسائه، كما قام بعض المهاجرين ببناء بيوت لهم حول مسجد رسول الله.

مسمى المدينة

كتب السير والتاريخ تزعم أن الرسول هو من سمى مقامه في يثرب، المدينة، ومن الصعب التصديق بأن هذا ما حدث، لأن مصادر تلك الكتب غير موثقة ولا موثوقة.

والمدينة، لفظ نُعرّفه اليوم بأنه يطلق على البلدة الكبيرة المكتظة بالسكان. وهو تعريب للفظ «city» في اللغة الإنجليزية. وهذا الوصف لا يمكن أن ينطبق على ذلك المكان الذي استقر فيه الرسول، ولم يتسع البنيان فيه طوال عصره لدرجة يمكن أن يسمى «مدينة» بمفهومنا العصري. لأن الأوس والخزرج بقوا في مساكنهم التي كانوا فيها قبل الهجرة، بينما توزع المهاجرون على مناطق متفرقة من الأرض. وعندما توفي رسول الله لم يكن بجوار مسجده إلا القليل من المساكن لبعض المهاجرين، لا تشكل أكثر من تجمع سكاني محدود، ومع ذلك نعتها القرآن بالمدينة.

المدينة ـ بمفهومنا الحالي ـ في القرآن

القرآن نعت مكة، بالقرية، مع أنها تفوق يثرب سكاناً: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴿١٣﴾ محمد١٣.

ومرة أخرى أطلق عليها وعلى الطائف قريتين: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴿٣١﴾ الزخرف٣١.

برغم أن الطائف أكثر سكاناً من يثرب أو تماثلها.

والقرآن يصف التجمع السكاني المدني بالقرية عند الحديث عن الأمم السابقة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً﴿٨﴾ الطلاق.

ومن ذلك قوم لوط الذين كانوا يعيشون في قرية: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً﴿٤٠﴾ الفرقان.

وكل الأمم السابقة كانوا يعيشون في قرى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴿١١﴾ الأنبياء.

بل إن مدينة كبيرة (بمفهومنا الحالي للمدينة) سماها القرآن قرية، برغم أن الله جل شأنه أرسل لها ثلاثة رسل في وقت واحد، بسبب اتساعها وكثرة سكانها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴿١٤﴾ يس.

ومدينة سبأ التي كانت دولة قائمة بذاتها، سماها القرآن قرية: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴿٣٤﴾ النمل.

ورسول الله يونس بعث إلى مدينة (بمفهومنا الحالي) يقطنها أكثر من ١٠٠ ألف نسمة: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴿١٤٨﴾ الصافات.

هذه (المدينة) التي بعث لها يونس، سماها القرآن قرية: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴿٩٨﴾ يونس.

إذاً، القرآن دائماً يسمي البلدة الآهلة بالسكان قرية، ولا يسميها مدينة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴿٥٩﴾ القصص.

لفظ المدينة في القرآن

لفظ «المدينة» ورد في القرآن أربع عشرة مرة، أربع منها تتحدث عن موطن الرسول، وذلك في السور التالية: براءة: ١٠١، ١٠٢، الأحزاب: ٦٠، والمنافقون: ٨.

وهذه المدينة مع تجمعات الأوس والخزرج ومزارع بني إسرائيل ومساكنهم تقع ضمن ما يعرف بيثرب.

وهناك خمس آيات ذكر فيها لفظ «المدينة»، كلها تتحدث عن مصر وفرعون. ثلاث آيات منها في سورة القصص، وواحدة في سورة الأعراف، وأخرى في سورة يوسف.

والآية ١٢٣ من سورة الأعراف تظهر فرعون مخاطباً السحرة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ومصر فرعون تعني البلدة الواحدة، ولا تعني الدولة بمفهومنا الحالي التي تحوي عدة مدن وقرى وتجمعات سكنية. والقرآن نعت مصر فرعون بالقرية، وذلك أثناء الحديث بين يوسف وإخوته: ﴿ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴿٨٢﴾ أبناء يعقوب عندما يتحدث عن بلدة فرعون يسميها مصر: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴿٥١﴾ الزخرف.

وبالتالي فالمدينة في هذه الآية تعني مكاناً داخل بلدة فرعون.

وفي سورة القصص ذكرت «المدينة» ثلاث مرات أثناء الحديث عن موسى، للإشارة إلى نفس المدينة التي هي مكان داخل مصر فرعون: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ

الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢١﴾.

فموسى ترعرع في مصر فرعون، لكن الآيات تتحدث عن دخوله المدينة، على حين غفلة من أهلها، بعدما بلغ أشده. ولو كان المقصود بالمدينة بلدة فرعون التي ولد فيها موسى وترعرع، فلا يمكن القول أنه دخلها، لأنه كان طوال عمره داخلها. أما لو كان معنى المدينة هو مكان في بلدة فرعون، فإن العبارة ستستقيم. إذ إن موسى كان يعيش في بلدة فرعون، وفي مرة ذهب للمكان المسمى «المدينة» الواقع في البلدة. وهذه المدينة كان لها أبواب ولا يسمح بدخول كل أحد إليها، لذا فقد تسلل موسى إليها «على حين غفلة من أهلها (حراسها)» وهناك استصرخه الإسرائيلي، وهناك قدم رجل يسعى ليحذّره.

وسورة الشعراء تذكر المدائن (جمع مدينة) مرتين، وهما المرتين الوحيدتين التي ذكر فيهما هذا اللفظ في القرآن. وفي كلاهما كان الحديث عن إرسال فرعون من يطوف في المدائن. والمرة الأولى بعث فرعون من يطوف في «المدائن» بحثاً عن سحرة حاذقين لمبارزة موسى: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ

وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴿٣٨﴾.

والمرة الثانية تتحدث عن إرسال فرعون من يطوف بالمدائن ليبلغهم رسالة تحذيرية لئلا يتعاونوا مع بني إسرائيل: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴿٥٦﴾.

والمدائن في كلا الموضعين تشير إلى أنها أماكن يتواجد فيها أهل مصر، لذا كان فرعون يبحث لهذه المدائن من يوصلهم رسائله وأوامره وتحذيراته.

والمدائن هنا تعني المساكن التي يعيش فيها الناس، والمحاطة بأسوار ولها أبواب، أي القصور[1]. ولا تعني جمع مدينة كما نفهم لفظ مدينة في هذا العصر، ذلك أن السحرة لما التقوا موسى يوم الزينة وقبل أن تبدأ المبارزة نصحهم موسى بأن يتقوا الله، وكادوا أن يتراجعوا، لكنهم تناجوا وتشاوروا فيما بينهم ثم اتفقوا على أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم بسحره من أرضهم (مصر)، فهم مصريون. ولو كانوا قد أتوا من خارج مصر، فهي ليست أرضاً لهم، وليسوا معنيين بالخروج منها، ولن يهتموا إن خرج المصريون منها أم لا. وهذه هي الآيات: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴿٦٥﴾ طه.

---

(١) القصر لا يماثل استخدام اللفظ في عصرنا، والدال على بناء فاره السعة والأثاث، ولكن الاستخدام السابق للقصر يعني المنزل المبني من طين أو حجارة، مهما كانت مساحته صغيرة، والبيت يطلق على منازل البادية المصنوعة من الشعر والصوف والوبر.

إذاً، هم من مصر ويعيشون فيها، وعندما أراد فرعون جمعهم أرسل لهم في مدائنهم الواقعة داخل مصر، وهو البرهان على أن مدينة في تلك الفترة تعني المسكن المحاط بسور وله باب أو أبواب.

ولو أضفنا لذلك ما تعنيه «المدينة» التي دخلها موسى خلسة في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴿١٩﴾ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴿٢١﴾ القصص.

فموسى دخل خلسة مبنى محاط بسور له أبواب، وعليه حرس لو رأوه لمنعوه من الدخول، مما يشير إلى أن هذا المبنى لا يدخله إلا المصرح لهم. وأثناء تنقله فيها وجد الإسرائيلي يتعارك مع رجل آخر، وقد وكزه موسى بقبضته فقتله، استجابة لاستغاثة الإسرائيلي بموسى. ثم فر موسى من مكان الحادث لكنه بقي في ذلك المكان «المدينة» بقية اليوم وطوال الليلة التالية، وفي اليوم التالي كان يتجول في هذه «المدينة» عندما أقبل رجل يسير بسرعة إلى موسى وأخبره أنهم يبحثون عنه ليقتلوه بالرجل المقتول. كل هذا يحدث في «المدينة»، مما يعني أن هذه المدينة تحوي مساحات واسعة يتحرك فيها مجموعات بشرية كبيرة.

ولو تساءلنا ماذا يفعل هؤلاء البشر؟

لجاءنا الجواب من سورة يوسف، التي تتحدث عن أن يوسف أصبح مسؤولاً عن مخازن مصر للمحاصيل الزراعية والتجارية المختلفة، وكانت هذه المخازن تقع في مبنى مغلق له أبواب عليها حرس. وهذه المواصفات تنطبق تماماً على المدينة التي دخلها موسى خلسة بعد أجيال من دخول أجداده لها زمن يوسف.

وتكون المدينة تعني المبنى المحاط بأسوار وله أبواب، سواءٌ كان مسكناً كالتي يعيش فيها السحرة وبقية أهل مصر، أو مبنىً واسعاً كالمبنى الذي يضم مخازن مصر وسوقها والذي دخله موسى على حين غفلة من حراس إحدى البوابات.

وقد ذكرت سورة يوسف «المدينة» أثناء الحديث عن النسوة اللاتي كن يتكلمن فيما بينهن عن محاولة زوجة العزيز إغراء غلامها يوسف: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٣٠﴾ يوسف.

وهذه الآية تضيف لنا تأكيداً آخر عن أن المدينة تعني مكاناً يجتمع فيه خلق كثير، للبيع والشراء ومجالس لتبادل الأحاديث وتناقل الأخبار والحكايات. وهذا المكان كان في نفس المبنى المحاط بسور والذي يضم مخازن المملكة.

وسورة الكهف تتحدث عن الفتية الذين ناموا في الكهف مع كلبهم لسنوات طويلة، وعندما استيقظوا ظنوا أنه لم يمر عليهم سوى فترة قصيرة، فأرسلوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً من نفس بلدتهم التي خرجوا منها: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴿١٩﴾ الكهف.

والآيات تؤكد أن المدينة هو المكان الذي يباع فيه القوت «فَابْعَثُوا أَحَدَكُم

بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». أي أنه السوق الذي يقع في بلدة الفتية، وليس البلدة كلها.

وتذكر سورة الكهف «المدينة» مرة أخرى في الحديث عن موسى والعبد العالم: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴿٧٨﴾ .... ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴿٨٢﴾ الكهف.

والآيات تقول إن موسى والعبد العالم دخلا «قرية» وفي تلك القرية كان هناك جدار آيل للسقوط فأقامه. وهذا الجدار يقع في «المدينة» ومخبأ فيه كنز. ويكون والد الغلامين اليتيمين قد جمع هذا الكنز من مزاولته للتجارة في محله في سوق القرية، وخبأه في جدار متجره الواقع في المدينة التي يقع فيها السوق.

وسورة النمل تذكر المدينة أثناء الحديث عن صالح وقومه: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴿٤٨﴾ النمل.

وقوم صالح مثل كل الأمم السابقة المذكورة في القرآن كانوا يعيشون في قرية: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴿٤٥﴾ الحج.

والرهط التسعة المفسدين من قوم صالح الذين ذكرتهم الآية ٤٨ من سورة النمل كانوا يتواجدون دائماً في سوق قرية قوم صالح، حيث يجتمع الناس للبيع والشراء وتناقل الأخبار.

وتتحدث الآيات (٥٨ ـ ٧٧) من سورة الحجر عن قوم لوط، ومحاولة النيل من الملائكة ـ ظناً منهم أنهم رجال من البشر ـ ليفعلوا بهم الفاحشة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴿٧١﴾.

وعلينا أن نتذكر أن القرآن ينعت بلدة قوم لوط بالقرية في عدة سور منها: (الأنبياء: ٧٤)، (الفرقان: ٤٠)، (العنكبوت: ٣١: ٣٤). فتكون آيات سورة الحجر تدل على أن المقصود بالمدينة هو سوق القرية، حيث يجتمع أكبر عدد من الناس. وقوم لوط كانوا يأتون المنكر في ناديهم، أي مكان تجمعهم، كما تؤكد سورة العنكبوت: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٢٩﴾ العنكبوت.

والخلاصة أن «المدينة» في القرآن تعني المبنى المحاط بسور، وعادة ما يكون ضمنها السوق التي يتواجد فيها الناس للبيع والشراء. ولأن مسجد الرسول بناه المسلمون على شكل فناء محاط بسور وله أبواب، فكان بني إسرائيل يثرب يسمونه المدينة، لأنه بالفعل عبارة عن مدينة، حسب تعريفهم. ولما أقيمت حجرات (منازل) حوله لبعض المهاجرين، فيما بعد، غلب اسم «المدينة» على كل ما حول المسجد، لأن أهل مكة ليسوا على دراية باستخدام لفظ مدينة على المبنى ذو الأسوار، وظنوا أنه اسم علم على مساكن الرسول والمهاجرين. وبعد جلاء بني إسرائيل من يثرب غلب اسم المدينة على كل ما كان يعرف بيثرب فيما مضى.

ولمن يهتم بمعاجم اللغة، يقول صاحب لسان العرب: «المَدِينة الحِصْنُ يبنى في أُصطُمَّةِ الأرض، وكلُّ أرض يبنى بها حِصْنٌ في أُصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إليها مَدِينِيّ، والجمع مَدائِنُ ومُدُنٌ.

وهكذا يمكننا القول إن «المدينة» لفظ يعني في القرآن المبنى أو الفناء، المحاط بسور، أما المدينة بمفهومنا، فهي القرية في القرآن.

ويكون المكان الذي اختاره مسلمو يثرب لمقام الرسول، قد اختير بناءً على عدة اعتبارات، ولم يكن الرسول هو من اختار مكان إقامته، لأنه غريب عن يثرب ولا يستطيع النزول في مكان لا يعرف لمن تعود ملكيته. وعندما وصل الرسول ليثرب، كان يطلق على المكان الذي اختير له «المدينة» نسبة لمبنى المسجد، الذي كان عبارة عن فناء محاط بسور وله أبواب، فغلب الاسم على البلدة التي تكونت من منازل المهاجرين حول المسجد ثم نمت فيما بعد ولم يعد يذكر الناس أصل مسمى المدينة.

وهناك آية في سورة براءة تؤكد أن مسجد رسول الله كان موجوداً منذ أول يوم هاجر الرسول، أي أنه بني قبل وصوله، وذلك ضمن الحديث عن مسجد الضرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴿١٠٨﴾﴾.

الأحداث المصاحبة للدعوة في المدينة

جاء الحث على الهجرة نتيجة لتزايد اضطهاد قريش لمسلمي مكة، وخاصة المستضعفين منهم. وقد بدأ أذى قريش في المرحلة الرابعة من مراحل الدعوة في مكة، فأمر المسلمون بالهجرة، تحديداً في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿١٠﴾﴾.

ولأن قريش وكل سكان جزيرة العرب بمختلف عقائدهم، قد توارثوا احترام العهد الإلهي بإبقاء مكة بلداً آمناً لا يروع من فيه ولا يؤذون، فلم تكن قريش قادرة على إيذاء المسلمين جسدياً، ولكنها آذتهم نفسياً بكل أنواع السخرية. خاصة المستضعفين منهم ممن لا ينتمون بالنسب إلى قريش. لذا

فقد هاجر أغلبهم في تلك الفترة للحبشة، وهو ما استعرضناه في أحداث المرحلة الرابعة من مراحل الدعوة في مكة.

وعندما تحول خطاب الدعوة إلى غير قريش في المرحلة الخامسة من الدعوة في مكة وما بعدها، دخل الإسلام بعض سكان يثرب من بني إسرائيل ولحق بهم عدد من الأوس والخزرج، فكونوا جالية إسلامية مهمة هناك. وتزامن هذا مع تعرض المسلمين لأقسى أنواع الأذى من قريش، بعد أن تجرأت قريش على حرمة مكة، وتجرأت على تعذيب من أسلم من المستضعفين بدنياً، فقامت الجالية المسلمة في يثرب بدعوة الرسول وبقية مسلمي مكة للقدوم إليهم والعيش بينهم.

وبدأ المسلمون بالهجرة في أواخر مراحل الدعوة في مكة، كما نتبين من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴿٤١﴾ النحل.

وكانوا يتسللون هاربين من قريش على شكل جماعات صغيرة أو وحداناً: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴿٥٧﴾ القصص.

وعندما وصل محمد وصاحبه أبا بكر ليثرب كانت الغالبية العظمى من المسلمين قد سبقتهم إلى هناك، وبقي قلة في مكة. بعضهم التحق بركب المهاجرين فيما بعد، والبعض الآخر بقي في مكة ولم يهاجر أبداً: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾ التوبة.

وقد أوجدت الهجرة بيئة مختلفة لكل من المهاجرين من مكة ولأهل يثرب

من الأنصار المسلمين، ومن غير المسلمين على حد سواء. وصاحب ذلك بعض الأحداث والمواقف، بعضها له علاقة بما اعتاده الناس من سلوك، وبعضها فرضه وجود المهاجرين، وبعضها فرضه قيام دولة إسلامية بجوار مواطن بني إسرائيل، إضافة لاستمرار قريش بملاحقة المسلمين وحربهم. فنزلت الآيات المدنية تعالج هذه المشاكل التي صاحبت الهجرة أو ظهرت بسببها، وبسبب الظروف التي تولدت منها.

وقد تم تقسيم أحداث فترة الدعوة في المدينة إلى ثماني مراحل، هي نفس المراحل التي قسمت فيها الدعوة في المدينة إلى ثماني مراحل حسب ملامح سور كل مرحلة، لأن كل مرحلة تتميز بملامح خاصة، وبأحداث خاصة. كما يلي:

مرحلة التوطن والاستقرار

وهي تمثل الأيام الأولى بعد هجرة الرسول للمدينة، والتي تسبق الاستعداد لحرب قريش، والاحتكاك ببني إسرائيل، وعدد سورها أربع سور، هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، الجمعة.

وسنستعرض أهم الأحداث التي وقعت في هذه المرحلة بشكل عام، كما يلي:

احتفاظ مسلمة قريش بعلاقات ودية مع أقاربهم المشركين

موالاة بعض مسلمي قريش لأقاربهم من المشركين بدأت عندما تجرأت قريش في المرحلة السادسة من مراحل الدعوة في مكة، على أذى المستضعفين جسدياً، وذلك تحسباً لاحتمال قيام قريش بالتعرض لهم أيضاً بالأذى، وكنوع من الحمية والاحتماء، بسطوا لهم يد المودة، كما سبق وذكرنا. وفي ذلك الوقت نزلت الآيات تحذرهم من موالاة المشركين: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ

ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴿١١٣﴾ هود.

ومع أن أولئك المسلمون ممن والوا أقاربهم المشركين قد هاجروا للمدينة كمؤشر على حسن إسلامهم، ويفترض بهم قطع صلتهم بكل ما له علاقة بالشرك وأهله، إلا أنهم أبقوا على علاقات المودة مع المشركين، برغم استمرار نزول السور التي تحذرهم من هذه الموالاة. وهذه الفئة من مسلمي قريش سيبقون مذبذبين لا إلى المسلمين ولا إلى المشركين كما ستصفهم سورة النساء فيما بعد. وهم من سيتسببون بمشاكل داخلية بين المسلمين على الدوام كما سنرى.

وأول ما نزل في المدينة سورة الممتحنة تكرر تحذيرهم من الإبقاء على صلة المودة مع مشركي قريش: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ.....

لأن قريش حاربت الإسلام وأخرجت المسلمين والرسول من مكة: ﴿.. يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ...﴾.

فكانت هجرتهم طلباً لمرضاة الله وهرباً من اضطهاد قريش، فكيف يتعاطف بعض المسلمين مع من يحارب الله ودينه: ﴿... أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي...﴿١﴾.

ولأن أولئك المسلمون يشعرون أن موالاة أعداء الإسلام خيانة، فقد كانوا يوالونهم بالخفاء: ﴿...تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴿١﴾.

وكبراء قريش لو تمكنوا من المسلمين لقذفوهم بشتى أنواع الشتائم، ولاعتدوا عليهم جسدياً، ولأعادوهم للكفر إن استطاعوا: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴿٢﴾.

وحجة أولئك المسلمين المعلنة في موالاتهم كفار قريش، أنه تربطهم بهم

صلات قربى ونسب. وتناسوا أن الكفر يلغي قرابة النسب، لأن مصير الكافر يوم القيامة سيكون مختلف. فهم ليسوا من المؤمنين وليس المؤمنون منهم، مثلما أن ابن نوح الكافر ليس من أهل نوح ولم يعد ابنا له. وعلاقات القربى تنظيم أسري في الدنيا، لكنها لا تعني أن الابن جزء من والده. فكل إنسان روح منفصلة ومستقلة عن غيرها، ولن يكون هناك صلة قربى بين الناس يوم القيامة: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿٣﴾﴾.

وكان يجب على المسلمين أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرأوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن آمن: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿٦﴾﴾.

وإبراهيم وإن دعا لوالده بالهداية إلا أنه لما تبين له أنه عدو لله ولدينه تبرأ منه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴿١١٤﴾﴾ التوبة.

ولو أن كفار قريش ممن لم يحارب دين الله والمؤمنين، وقبلوا التعايش معهم بسلام، ولكل فريق دينه، فلن ينهاهم الله عن مودتهم والتقرب إليهم. لأن المسلم مأمور بالتعامل مع الناس بكل إنسانية إذا قبلوا التعايش معهم بغض النظر عن المعتقد، ولم يحاربوا الإسلام أو يضيقوا على المسلمين: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٩﴾.

فالنهي الصريح عن موالاة الكفار موجهة للمعادين للإسلام، المنكرين للبعث، والذين غضب الله عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴿١٣﴾.

تكرار المشاحنات والنزاع بين المسلمين

موالاة المشركين أوجدت نفوراً وتوتراً بين مسلمة قريش الموالين لأقاربهم المشركين وبين المسلمين من عبيد وموالي قريش السابقين، وكانت سبباً في وقوع بعض مصادمات بينهم قبل الهجرة أخبرتنا به سورة بني إسرائيل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً﴿٥٣﴾.

وتحدثنا عنها ضمن أحداث المرحلة السادسة من مراحل الدعوة في مكة.

وفي هذه الفترة المبكرة من العصر المدني سعى أحد الأشخاص بوشاية بين مجموعتين عرقيتين من المسلمين ـ دون ذكر من كانوا ـ فحدث شجار ومشاحنات بينهم بسبب ذلك، كما تنقل سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴿٧﴾ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٨﴾.

واستمرت الآيات لتبين كيف يتم حسم الخلاف:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿١٠﴾.

والفريقان اللذان اقتتلا من المسلمين، إما أن يكونا بعض المهاجرين من جهة وبعض الأنصار من جهة أخرى. أو بين فريقين من المهاجرين، أو بين فريقين من الأنصار.

ومن المستبعد جداً أن يكون الشجار حدث بين مسلمي مكة ومسلمي يثرب، لأن مسلمي يثرب هم من دعا مسلمي مكة للقدوم إليهم وإيوائهم والسكن بجوارهم وحمايتهم. وحسب العادات المتبعة في ذلك الوقت، فمن الصعب تصور أن يقاتل الضيف ضيفه، حتى لو تعدى الضيف على المضيف أو أخطأ بحقه.

والنزاع بين فريقين من مسلمي يثرب محتمل، وتحديداً بين الأوس والخزرج، لما بينهم من حروب وثارات مستمرة، ومن اليسير أن تعود هذه الحروب لأدنى سبب. كما أن احتمال أن يكون النزاع حدث بين فريقين من مسلمي مكة قائم، لأن آيات أخرى في عدة سور تتحدث عن هذا الخلاف بين من أسلم من قريش، ومن أسلم من عبيد وموالي قريش، وقد حدث نزاع بينهم في مكة كما سبق وذكرنا.

والآيات تخبرنا أن سبب الاقتتال كان وشاية قام بها شخص بين الفريقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴿٦﴾.

والوشاية لها علاقة بالتفاخر بالأنساب، لأن الآيات تُذكّر المتقاتلين أن انتسابهم لقبيلة معينة لا يعني أنهم خير من أفراد الفريق الآخر، الذي يبدو أنه ليس لهم نسب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴿١٣﴾.

ولو كان الشجار بين الأوس والخزرج، فلن يكون السبب هو تفاخر فريق على آخر بالنسب، لأنهم ينتمون لقبيلة واحدة هي الأزد. وبالتالي يمكننا القول إن مسلمة قريش ومسلمي عبيد وموالي قريش تكررت بينهم الشحناء، وتبادل الفريقان الشتائم والتنابز بالألقاب، ثم تطور الوضع للاقتتال، بسبب نقل شخص لأحد الفريقين كلاماً قاله عنهم الفريق الآخر. ولا عبرة لما ذكر في كتب السير والتاريخ التي كتبت بإشراف قريش والتي تقول إن يهودياً قد ذكر واقعة حدثت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، فبدأ كل فريق يعيب على الفريق الآخر، وتطور الوضع للاشتباك وذُقت طبول الحرب بينهما.

وتبين الآيات أن المشاحنات لم تقتصر على الرجال بل اشتركت فيها النساء من الفريقين، وتبادلن الشتائم والسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴿١٣﴾.

والتأكيد على أن النسب أو اللون ليس هو المعيار الذي يقسم الناس إلى كريم ولئيم، ولكن التقوى هي معيار الكريم عند الله. والكريم هنا من الكرامة وليس من البذل والعطاء. لأن مسلمة قريش تفاخروا بنبل نسبهم ووصفوا الفريق المقابل بأنهم عبيد وموالي أذلاء.

وصول مجموعة من النساء مهاجرات ليثرب

المسلمون في مكة بدأوا الهجرة ليثرب قبل رسول الله واستمر تقاطر المهاجرين حتى بعد هجرة رسول الله. وكان ممن لحق به، مجموعة من

النساء، بعضهن أو جميعهن فارقن أزواجهن الكفار في مكة. ويبدو أن المسلمين ترددوا في قبولهن بينهم، فنزلت الآيات تأمرهم بإخضاعهن لامتحان يكشف إن كن بالفعل مسلمات أو راغبات في الدخول في الإسلام. وهذا الامتحان فرضته الظروف القائمة في تلك الفترة، حيث إن المسلمين للتو وصلوا يثرب وكونوا مجتمعهم المسلم مع إخوانهم ممن أسلم من بني إسرائيل ومن الأوس والخزرج، إلا أن قريش لم تكف عن ملاحقة المسلمين ومحاولة القضاء على الإسلام. لذا كان هناك احتمال أن ترسل قريش بعض النساء ممن يتظاهرن بالإسلام، للتجسس على أحوال المسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٠﴾

وبعد الامتحان، فكل امرأة مسلمة بالفعل أو لديها الرغبة الصادقة بالدخول في الإسلام، يجب قبولها في المجتمع المسلم ولا يجوز بأي حال من الأحوال إعادتها للكفار.

وإن كان بعضهن متزوجات بكفار من قريش، فيجب على المسلمين القيام بما يلي:

* يفسخ عقد النكاح، لأنها تحرم على زوجها الكافر، ويحرم عليها.

* إذا فسخ النكاح، فيعاد للزوج الكافر ما دفعه للمرأة كصداق. ويتم تأمين المال عن طريق الإنفاق، أو من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق. وتصبح المرأة مطلقة ويمكنها الزواج بأي مسلم تختاره.

* كما أمر الرجال المسلمون تطليق زوجاتهم القرشيات الكافرات، وإلحاقهن بأهلهن، ولا يجوز للمسلم أن يبقي على زوجه الكافر: «وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ».

* وإذا ما سرح المسلم زوجته الكافر، فله الحق بالمطالبة باسترداد ما دفعه لها من صداق، كما للزوج الكافر الحق باسترداد صداقه: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٠﴾.

* في حال سرح رجل مسلم زوجته الكافر، ولم تعد له زوجته أو أهلها صداقه، فعلى المسلمين أن يعوضوه بقيمة مماثلة، من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴿١١﴾.

والمهاجرات الجدد يلزمهن المبايعة للدخول في الإسلام. والمبايعة لا تعني نطق الشهادتين كما يحدث الآن، ولكنها تتمثل بقطع العهد على النفس أمام الله أنها لا تشرك بالله شيئاً (كإتباع تشريعات غير تشريعاته سبحانه) ولا تسرق، ولا تزني، ولا تقتل أولادها، ولا تكذب، ولا تعص الرسول في كل معروف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٢﴾.

الأعراب

تبدأ سورة الحجرات التي تلت الممتحنة في النزول بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾.

والآيات تقول إنه ما أن وصل رسول الله إلى المدينة حتى تقاطر عليه مجموعات من رجال البادية الذين كانوا يتدافعون في المجلس بطريقة فظة بعيدة عن التهذيب، ويتسابقون على أماكن الجلوس، ويجلسون بأي طريقة أو هيئة ممكنة. وكانوا يتحدثون بأصوات جهورية عالية، وبشكل جماعي ـ ولا زال هذا السلوك يمارس من قبل الكثير من سكان جزيرة العرب ـ لدرجة يبدو الجلوس وكأنهم يتحدثون جميعاً في وقت واحد، ولا أحد يستمع لما يقال.

كما أظهرت جموع البادية عدم مراعاة للخصوصيات الشخصية، والقيام بإزعاج الآخرين في أوقات غير مناسبة. ذلك أنه إذا ما قدم أحدهم ولم يجد الرسول، فإنه يتوجه لبيته ويناديه بصوت عالٍ أجش، دون مراعاة لخصوصية الرسول أو حريته الشخصية، ودون أن يكلف نفسه قرع الباب بهدوء فإن أجيب وإلا انصرف، بل كانوا يصرخون منادين بأصوات عالية. وهو تصرف لازال حياً بيننا. فمن غير المستهجن أن يتوقف صاحب الحاجة بسيارته أمام باب صاحب البيت ويطلق مزمار سيارته بكل قوة لكي ينبه من في البيت أن هناك شخص في الخارج يريد التحدث إليهم، دون مراعاة لما يسببه من إزعاج لأهل البيت والبيوت المجاورة والمارة. وتصرفات أخرى لا حصر لها سيتذكرها القارئ أثناء قراءة هذه الأسطر.

والرسول كان يجلس معظم الوقت مع الناس، ولا يدخل بيته إلا في أوقات الأكل والشرب والراحة، والنوم. وهذه الآيات تتحدث عن أن الرسول فوجئ بهذه التصرفات الرعناء التي نزلت الآيات لتهذيبها.

وقد قدم الأعراب على الرسول حال سماعهم أنه وصل يثرب، ظناً منهم أنه يحمل المتاع والمال، لعله يصيبهم شيئاً منها. ولم يكن دافعهم التفقه بالدين، لأن الإيمان لن يدخل قلوبهم لا في ذلك الوقت ولا في أي وقت قادم ولا في آخر أيام رسول الله.

والذين قدموا على الرسول كانوا يرددون على مسامعه أنهم مؤمنون برسالته

بطريقة ملحة وكأنها ستجعله يغدق عليهم الهبات، فنزلت الآيات تقول لهم إن أمرهم يعلمه الله، وإن إعلانهم الإسلام بألسنتهم، لا يعني أنهم بالفعل يؤمنون به: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾﴾.

وأولئك الأعراب كانوا يكررون على مسامع الرسول دون كلل تذكيره بأنهم دخلوا في الإسلام، بطريقة إيحائية لتوصيل فكرة أن لهم على الرسول معروف ومنّة، بسبب دخولهم الإسلام، وأن عليه أن يدفع لهم مقابل ذلك. وإسلامهم ليس منة على محمد، ولكنه منةٌ من الله عليهم أن اهتدوا للإيمان ـ لو كانوا بالفعل مؤمنين: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٨﴾﴾.

وتبين لهم الآيات أن الإيمان لا يكون بإعلان المرء نفسه مؤمناً، ولكن يحتاج للاعتقاد الصادق بوحدانية الله والإيمان باليوم الآخر إضافة للأعمال الصالحة المطلوبة في تلك الفترة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١٦﴾﴾.

والآيات تبين بعض طبائع البدو، المتمثلة بالتذكير بأي فعل قاموا به على أنه منة ومعروف للشخص المقابل، ولو لم يكن كذلك، كنوع من الابتزاز، لكي يتسنى لهم طلب مقابل مادي له. لأن المقابل المادي هو مقياس الولاء عندهم، دون أي اعتبار للمبادئ، وهو ما سنلاحظه في سور قادمة.

ومن ذلك سورة المجادلة التي تتحدث عن سلوك آخر غير مقبول من الأعراب، ذلك أنهم إذا حضروا مجلس الرسول كانوا يتسابقون على احتلال

الأماكن قبل غيرهم بشكل أرعن، ويجلسون بطريقة فوضوية، تحرم غيرهم من إيجاد مكان للجلوس. إضافة إلى أنهم كانوا يطيلون الجلوس بعد إعلان انتهاء الاجتماع وفض الجلسة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿١١﴾﴾.

والآيات تعطي درساً في اللباقة والكياسة وأدب الجلوس والاجتماع. والمتضمن الدخول لمكان الاجتماع بكل أدب وهدوء، والجلوس في أي مكان خال بطريقة منتظمة ومنضبطة، تجعل المكان يتسع لأكبر قدر ممكن من الناس، وبعيداً عن الفوضى التي تضيع المساحات.

وعندما ترفع الجلسة وينتهي الاجتماع، ينهض الجميع وينصرفوا بكل هدوء وانتظام، ولا يتخلف أحد في المجلس لئلا يحرم صاحبه من وقت راحته.

ومن الآداب التي كان يجب أن يتحلوا بها، تقديم هدية ولو كانت بسيطة جداً للرسول عندما يحضرون لأول مرة. وهو سلوك حضاري، يحرص عليه من يتقيد بأصول اللباقة. فعندما نزور بيتاً للمرة الأولى علينا أن نقدم هدية رمزية، ولا نذهب بيد فارغة. وهي عادة منتشرة في المجتمعات الغربية اليوم أكثر منها في المجتمعات المسلمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٣﴾﴾.

وقد أعفاهم الله منها، لعلمه أنها ليست في قاموس سلوكياتهم، ولئلا يفهم منها أنها إتاوة تدفع للرسول كشرط لحضور مجلسه.

الظهار

تبدأ سورة المجادلة بالحديث عن عادة الظهار التي كانت منتشرة بين الناس في ذلك العصر: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٤﴾﴾.

والظهار عبارة عن أن يقول الزوج لزوجته أنت عليّ كظهر أمي. أي أنها حرام عليه كحرمة أمه. فتبقى المرأة محرمة على زوجها، لا يقاسمها الفراش ولكنه لا يطلقها، مما يجعلها ممارسات اجتماعية مهينة للزوجات.

وقد ظاهر أحد المسلمين زوجته، فجاءت الزوجة تخبر الرسول بما حدث، وتشتكي إلى الله وضعها. فنزلت هذه الآيات لتقول إنه حتى لو قلتم إن زوجاتكم كأمهاتكم فلن يكن كذلك، وستبقى الأم هي التي ولدتك، ولن تكون الزوجة أما، أي لن تحرم عليكم كحرمة أمهاتكم.

ويكون على كل من ظاهر زوجته كفارة تتمثل بتحرير رقبة، ولا تحل له زوجته قبل الكفارة. وهذه الكفارة رادع للرجال من أن يظاهروا زوجاتهم، وفي نفس الوقت وسيلة لتحرير عدد من الرقيق.

ومن لم يجد المال الكافي لتحرير رقبة أو أنه لم يجد رقيقاً ليحررهم، فعليه أن يصوم شهرين متتابعين قبل أن تحل له زوجته. فمن لم يستطع، فعليه إطعام ستين مسكيناً. وقد جاء التأكيد مرة أخرى أن تلفظ الرجل بالظهار لا يجعل الزوجة أما له أو تحرم عليه كأمه، وذلك في سورة الأحزاب «وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ».

والعمل على تحرير الرق بدأ مع بداية الدعوة الإسلامية في مكة، وفي أيامها الأولى وقبل فرض العبادات أو التشريعات المختلفة. فقد أمر المسلمون بتحرير الرقيق في سورة البلد، إحدى سور المرحلة الأولى للدعوة في مكة: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ».

وجاء التأكيد على تحرير الرق في هذه السورة المجادلة ككفارة للظهار.

ثم جاء تحرير الرق ككفارة لليمين في الآية ٨٩ من سورة المائدة ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾المائدة٨٩.

وكفارة للقتل الخطأ كما ورد في الآية ٩٢ من سورة النساء: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً».

ولو عمل بهذه التشريعات بعد وفاة الرسول لما بقي رقيق واحد في دولة الإسلام، ولن يعرف المسلمون الرق بعد ذلك. لكن الناس نبذوا كلام الله وراء ظهورهم، واستمروا باسترقاق غيرهم من الأسرى المقاتلين، وخطف الآمنين.

ترك بعض المسلمين الصلاة مع الرسول

فيما كان الرسول يؤم المصلين في الصلاة يوم جمعة، من الأيام الأولى

للهجرة، ترك بعض المأمومين صلاتهم، وتسابقوا للحاق بقافلة وصلت للتو للحصول منها على ما يحتاجون من متاع[1].

والاحتمال الأكثر أن من خرج من المسجد وترك الصلاة كانوا من مسلمي يثرب، وليس من المهاجرين. ذلك أن المهاجرين صلوا مع رسول الله مدة طويلة وعرفوا أهمية الصلاة، لأن الآيات التي تحث على المواظبة على الصلاة وأدائها بخشوع قد نزلت بينهم في مكة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴿٢﴾ . . . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴿٩﴾ المؤمنون.

أما مسلمو يثرب فقد دخل بعضهم الإسلام بلقاء واحد مع الرسول، وعاد ليثرب، والبعض الآخر دخلوا الإسلام عن طريق شخص آخر قابل الرسول، لكنهم هم لم يروه أو يجتمعوا به في مكة. وتكون معرفتهم بتفاصيل الدين، ومنها الصلاة، قليلة.

كما أن من فاته الحصول على ما يحتاج من القافلة، التي وصلت للتو، فقد يبقى زمناً طويلاً قبل أن تأتي قافلة أخرى، أو يضطر لدفع مقابل مادي أكبر للحصول على ما يريد ممن حصل عليها من القافلة قبله. فجاءت سورة الجمعة لتقول لهم إن ضياع أجر الدنيا لا يقارن بضياع أجر الآخرة، وإن التجارة الرابحة هي ضمان الجنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴿١١﴾ .

---

(١) الآية لم تذكر القافلة حرفياً، لكن السياق يوحي بحضور القافلة وقت الصلاة وهو الذي جعل البعض يتراكضون لاستقبالها.

والآيات تشير إلى أن هناك سوق تجارية تقام يوم الجمعة في يثرب، وبالقرب من مسجد الرسول.

خطاب موجه لبني إسرائيل

سورة الجمعة أول سورة مدنية تخاطب بني إسرائيل، الذين سمعوا بدعوة محمد منذ سنوات. وسافر البعض منهم وقابلوه وآمنوا به ونقلوا لغيرهم ما يدعو له. وقد خاطبتهم سور مكية كثيرة، كما سبق ورأينا. والجمعة تخاطب من أعرض عن الإسلام لأن محمداً ليس من بني إسرائيل، وحتى لو كان رسولاً من الله فهو للأميين، أما هم فأحباء الله من دون الناس جميعاً، الذي خصهم بديانة موسى، ولن يتبعوا رسولاً غيره. فجاءت بداية السورة لتقول لهم إن الهداية ليست قصراً على جنس دون آخر، وإن الله سبحانه قد شمل برحمته قريش، أو الأميين، كما يسميهم بنو إسرائيل، وأرسل لهم رسولاً منهم ليزكيهم ويهديهم سبيل الرشاد: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٤﴾.

وتواصل السورة مخاطبة بني إسرائيل ومشبهة إياهم بالحمار الذي يحمل الأسفار والكتب على ظهره ولا يستفيد من العلم الذي تحويه، كونهم لم يحملوا أمانة ما ورد في توراة موسى وتركوا العمل بها: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٥﴾.

وتستمر السورة قائلة، إن كنتم تظنون أنكم أولياء الله وأحباؤه من بين البشر، فلماذا لا تتمنوا الموت لتسارعوا للقاء ربكم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿٦﴾.

وتؤكد السورة أنهم يكرهون الموت لأنهم لا يطمئنون لمصيرهم يوم القيامة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٨﴾.

مرحلة فرض القتال والاستعداد لحرب قريش

السور: نزل في هذه المرحلة ست سور هي: البقرة، النساء، الماعون، المائدة، محمد، الصف، إضافة للآية الأخيرة من سورة النجم.

وهذه المرحلة تمثل تلك الفترة التي تلت استقرار الرسول والمهاجرين في المدينة، وتسبق معركة بدر. وفيها فرض القتال، فهي مرحلة الاستعداد للحرب التي ستطول مع أعدائهم.

وفيها أعلن دستور الدولة الوليد، وموقف الإسلام الواضح لكل الناس، بأنه وثيقة وعهد بين الله وعباده، لا يحصل بموجبها العبد على منافع دنيوية مادية أو معنوية، ولكنها تكافأ بجنة في الآخرة. وأن التظاهر بالإسلام أو القيام ببعض أوامره لا يعني أن المرء أصبح مسلماً، بل عليه التقيد بالإيمان الصادق والعمل الصالح المتمثل بطاعة كل أوامر الدين والانتهاء عن كل نواهيه سراً وجهراً، وعلى الدوام، ومن لا يفعل ذلك فليس بمسلم ولو زعم ذلك.

ولأن كل سورة من سور هذه المرحلة تحوي العديد من الأحداث فقد فصلنا الحديث عن كل سورة على حدة، مرتبة حسب نزولها.

سورة البقرة

أول سورة مدنية تفرض فيها تشريعات، وقد فرض فيها الكثير. ذلك أن المسلمين أصبح لهم دولة، ولابد من دستور وقوانين تُقوّم حياتهم ويسيرون

عليها. لذا نجد أن البقرة، هي السورة الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها عبارة كتب عليكم، الدالة على فرض تشريع (قانون) جديد. ومن ذلك، فرض القصاص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٧٨﴾ البقرة.

فرض الوصية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴿١٨٠﴾ البقرة.

فرض الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿١٨٣﴾ البقرة.

فرض القتال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴿٢١٦﴾ البقرة.

إضافة إلى تشريعات عديدة أخرى، سنوردها لاحقاً.

كما تتناول السورة العديد من المواضيع والأحداث التي لها علاقة بمختلف أجناس سكان يثرب من بني إسرائيل - يهود ونصارى - والأوس والخزرج، والأعراب، وغيرهم مثل مشركي قريش. وفيما يلي عرض سريع لما تتحدث عنه السورة:

المنافقون

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴿١٤﴾ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ

اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٠﴾.

الآيات (٨ ـ ٢٠) تتحدث عن منافقين في المدينة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴿١٢﴾.

ويعتبرون أنفسهم أعلى من بقية المسلمين أو بعضهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴿١٣﴾.

وهو ما يدل على أنهم مسلمة قريش الذين يوالون أقاربهم المشركين، والذين حدثت بينهم وبين المسلمين من العبيد والموالي مشاحنات منذ أن كانوا في مكة، وتكرر في المدينة في المرحلة السابقة، وسيتكرر في مراحل قادمة.

وتعاود الآيات الحديث عن هؤلاء المنافقين: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٢٩﴾.

وتتساءل الآيات عن خيارهم الخروج من الإسلام، بعد أن أحياهم الله معنوياً من الكفر، وسيموتون ثم يبعثون ليحاسبوا[1].

وتعود السورة في آخرها لتبين بعض صفاتهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿٢٠٦﴾.

بنو إسرائيل

البقرة ثاني سورة مدنية بعد الجمعة تتحدث عن بني إسرائيل، وتناولت الكثير من المواضيع التي لها علاقة بهم، ومن ذلك:

* دعوتهم للدخول في الإسلام كدين لله مطابق للدين الذي نزل على موسى وغيره من الرسل السابقين، وتحذر من بقي منهم على معتقداته من نار جهنم، لأن أي معتقد غير دين الإسلام لن يقبل عند الله: (الآيات: ٤٠ ـ ٤٦، ١٢٢ ـ ١٢٣، ١٣٦ ـ ١٣٨).

* والحديث عن تاريخ بني إسرائيل زمن موسى: (الآيات: ٤٧ ـ ١٠٠)، كدلالة قاطعة على أن القرآن وحي من الله ولم يأت به محمد، الذي لا يملك وسيلة تمكّنه من معرفة كل هذه التفاصيل الدقيقة التي يتلوها عليهم عن تاريخهم.

* قبل أن تؤكد (الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣) أن بني إسرائيل متمسكين بموقفهم المعاند من الإسلام، ولن يسلموا.

---

(١) في إجابة لتساؤل في موقع على الإنترنت ذكرت أن معنى «وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم» أن الموت الأول يعني العدم وما قبل الخلق، ومن ثم الحياة ومن ثم الموت ثم الحياة في الآخرة. وقد تبين لي خطأ ما ذهبت له هناك، فالحياة الأولى معنوية تعني الدخول في الإسلام كما بينت في الأعلى.

النصارى واليهود في يثرب

تتحدث (الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٨) من سورة البقرة عن بقايا النصارى الذين كانوا في يثرب عند هجرة الرسول.

والنصارى هم فرقة ظهرت للوجود بعد زمن عيسى بن مريم، الذي أعقب وفاة موسى وقبل الشتات الأول لبني إسرائيل، وعندما كانوا لا يزالون يعيشون في مصر. ولم يسمهم الله ولا أي من رسله بهذا الاسم، بل هم سموا به أنفسهم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴿١٤﴾﴾ المائدة.

ولهم عقائد مختلفة. فالبعض كانوا موحدين يؤمنون بعيسى بن مريم كرسول لله، ومن ثم ظهرت فرقة تظن أن عيسى ابن الله، وأخرى تظن أنه الله، وثالثة تظن أن عيسى ابن الله وأمه إله ثالث معه ومع الله.

والنصارى ـ من آمن منهم بعيسى ومن اعتبره ابن لله ـ لا يمتون بصلة لما يعرف اليوم بالمسيحية، التي كانت عند قيام الإسلام، منتشرة في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا وأوروبا، وأثيوبيا. والتي تعتقد أن يسوع أحد ثلاثة آلهة بجانب الإله الأب وإله آخر اسمه الروح القدس. لأن النصارى يعتقدون أن عيسى ابن لله، وأمه الإله الثالث: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴿١١٦﴾﴾ المائدة.

وهو فرق جوهري بين عقيدتهم وعقيدة من تسموا بالمسيحيين.

وقد دخلت المسيحية البولسية إلى أرض اليمن بواسطة تاجر يمني كان يتردد على القسطنطينية والحيرة في القرن الخامس الميلادي. كما دخلت المسيحية أثيوبيا على يد مسافر روماني اسمه فرومنيتوس، كان في طريقه إلى

الهند، لكنه أسر ونقل إلى أثيوبيا. وهناك استطاع نشر المسيحية، وأصبح هو أول أسقف لأكسوم (أثيوبيا الحالية).

أما من بقي من النصارى زمن رسول الله فقد كانوا من بني إسرائيل واستقروا في يثرب مع من استقر فيها بعد النزوح الثاني لبني إسرائيل الذي أعقب انهيار مملكتهم التي أسسها داوود. وعندما هاجر محمد للمدينة كانوا هناك بأعدادهم القليلة التي تلاشت فيما بعد، لهجرة البعض مع إخوانهم بني إسرائيل عندما أجلوا من يثرب، ودخول البعض الآخر في الإسلام. والقرآن يصف بقايا الموحدين منهم بأنهم يتأثرون جداً عند سماع التلاوة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ﴿٨٥﴾ المائدة.

والنصارى في يثرب زمن الهجرة لم يكونوا على وفاق مع اليهود، إلا أنهم كانوا - كما اليهود - يظنون أنهم وحدهم من سيدخل الجنة، مع أن أتباع الطائفتين يعتقدون معتقدات لم ينزل الله بها من سلطان وتختلف عن الدين الذي دعا له كلًا من موسى وعيسى في زمانهما.

وممن قدم للمدينة في الموجة الثانية لهجرات بني إسرائيل فرقة تسموا باليهود. بعضهم موحدون وبعضهم تتشابه عقيدتهم مع عقيدة النصارى، حيث يؤمنون أن أحد أنبيائهم واسمه «عزير» كان ابناً لله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٣٠﴾ التوبة.

وهذه الفرقة قلة قليلة سرعان ما انتهى أمرها، وتلاشى أفرادها.

وتستمر الآيات لتقول إن كل من بقي على عقائده الباطلة من الطائفتين لن يرضى عن محمد حتى يتبع ملتهم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ البقرة.

تحذير المسلمين من بني إسرائيل وعدم التاسي بهم (الإسرائيليات)

بعد إطلاع بني إسرائيل على تفاصيل من تاريخ أجدادهم، تتوجه (الآيات: ١٠٤ ـ ١١٠) بالخطاب للمسلمين محذرة إياهم من خبث بني إسرائيل ومكرهم، وتنهاهم عن التأسي بهم في أي معتقد أو عادة أو تصرف، لأن كل ما يمارسونه لا علاقة له بدين الله الذي نزل على موسى والموافق للقرآن، ولكنه خرافات ابتدعوها من عند أنفسهم، وتؤكد الآيات أن بني إسرائيل والمشركين لا يريدون الخير للمسلمين، ويسعون لضلالهم وإبعادهم عن الحق.

والبقرة أول سورة تحذر المسلمين مما عرف فيما بعد بالإسرائيليات، والتي تشمل كل تفسيرات ضالة لآيات القرآن، وكل تشريعات لم تنص عليها الآيات، وكل تقليد لتصرفات بني إسرائيل أو تأسٍ بهم، أو الأخذ بأقوالهم.

ومع أن تحذير القرآن جاء في وقت باكر جداً بعد الهجرة، وتكرر في سور عديدة بعد ذلك إلا أن ما حذر منه القرآن، كان أول ما فعله المسلمون بعد رسول الله، وكان من نتائجه البعد عن الدين عبر بدع إسرائيلية أو شبيهة بها سميت باسم الدين، كالفقه والحديث والتفسير ونحوها، وأصبح الدفاع عنها هو دين الله، ومحاولة تخليص دين الله منها كفر بالله ودينه.

قريش واستمرار منعها المسلمين من دخول البيت

من أهم الأحداث التي تتعرض لها سورة البقرة منع قريش المسلمين من دخول المسجد الحرام، : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا

اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١١٤﴾.

وقد منعت قريش المسلمين من دخول المسجد الحرام قبل هجرة محمد، ومنذ المرحلة الأخيرة من مراحل الدعوة في مكة، وهو ما تؤكده سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٥﴾.

واستمر المنع لما بعد الهجرة، مع أن العرف المتبع بين الناس في جزيرة العرب منذ القدم هو أن مكة بلد حرام مفتوح لكل من يريد الحج أو العمرة، ومنذ العصور العتيقة وكل سكان جزيرة العرب توارثوا التوقف عن الحروب والغزوات وغارات السلب والنهب التي تقوم عليها حياة البدو خلال الأشهر الحرم[1] لكي يتمكن الناس من الذهاب لمكة، والعودة لبلادهم بسلام. وقريش وإن كانت تقطن مكة، وتقوم على خدمة الحجاج وصيانة البيت، إلا أنها ـ وبموجب تلك المعاهدة الدينية التاريخية ـ لا تملك حق منع أحد عن المسجد الحرام، حتى لو كان عدواً لها وبينهما حرب قائمة، لأنهم يعون تماماً، أنهم مكلفون بخدمة البيت وليس لهم سلطة عليه. وهذا ما يفسر عدم وجود حكومة وحاكم في مكة، فهي التجمع الحضري الوحيد في تلك العصور التي ليس لها حاكم أو زعيم. لكن كبراء قريش تجاوزوا هذا الميثاق الدولي الإلهي، وقاموا بمنع المسلمين من دخول الحرم. وتقول (الآية: ١١٥) للمسلمين، إن كانت قريش منعتهم من الدخول والصلاة في المسجد الحرام فيمكنهم الصلاة في أي مكان يتواجدون فيه لأن الله معبود في كل مكان. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿١١٥﴾.

القبلة

من المواضيع التي تحدثت عنها السورة في (الآيات: ١٤٢ ـ ١٥٠)، ما

---

(١) الأشهر الحرم، أربعة، هي: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، ورجب.

يعرف بتغيير القبلة في التراث الإسلامي. وكتب السير والتراث رسخت لدى المسلمين أن الله جل شأنه، ومنذ فرضت الصلاة قد أمر الرسول بالتوجه في صلاته لإيليا، المعروفة اليوم بالقدس، والتي تقع في فلسطين الحالية. وبناءً على زعمهم، فالرسول طوال دعوته في مكة التي امتدت لثلاثة عشر عاماً، كان يضع الكعبة بينه وبين إيليا أثناء صلاته، بحيث يتوجه لإيليا، كما أمر، وللكعبة في نفس الوقت. وعندما هاجر للمدينة نزلت الآيات السابقة تأمره بتغيير القبلة من إيليا إلى مكة. ولو صدقنا هذا، فإن الرسول والمسلمين في مكة قبل الهجرة كانوا يصلون دائماً إلى الجنوب من الكعبة فقط، لكي تكون الكعبة وإيليا على خط واحد، ولا يصلون في أي مكان آخر حول الكعبة.

وأصبح الزعم بتوجه الرسول دائماً لإيليا عقيدة راسخة، بين المسلمين بمختلف طوائفهم، لا تقبل الجدل. مع أن إيليا وفلسطين كلها لم تذكر في القرآن ولو بشكل عارض، والمسجد الأقصى المذكور في سورة بني إسرائيل، ليس المقصود به المسجد الذي بني في عهد عبد الملك بن مروان وسمي المسجد الأقصى تيمناً بالمذكور في القرآن، وليس تجديداً لمسجد قديم، لموسى أو إبراهيم كما تزعم الإسرائيليات، لأنهما لم يريا فلسطين في حياتهما، ولم يسجدا لله فيها سجدة واحدة[1].

ولعل ما حدث هو كما يلي:

عندما بدأت الدعوة في مكة وأمر الرسول بالصلاة، كان رسول الله يصلي بالقرب من الكعبة ويتوجه لها، بشكل عفوي وطبيعي، لأن الصلاة لله، والكعبة بيت الله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ.........﴿٩٧﴾ المائدة.

وليس هناك بيت آخر لله ذكر في القرآن، وهذا البيت هو ما صلى نحوه

(١) يمكن الرجوع لموضع بني إسرائيل للتعرف على دوافع بني إسرائيل لتجاهل مكة وأنه لا قداسة لها وترسيخ تقديس إيليا في المقابل.

إبراهيم قبل عصر محمد بآلاف السنين. ولم يخطر على بال الرسول أن يتوجه لأي اتجاه آخر، ولم يوجد سبب يحمله على ذلك.

وعندما نعود للكيفية التي أسلم بها من أسلم من يثرب، ونتذكر أن قلة من بني إسرائيل هم أول من أسلم بعد لقاء الرسول في مكة والاقتناع بصدق دعوته، ثم عادوا لموطنهم وبدأوا دعوة قومهم وبقية أهل يثرب للدخول في الإسلام، فدخل الإسلام أكثر من أسلم من يثرب بهذه الطريقة، دون أن يروا الرسول أو يعيشوا بالقرب منه. ولأن بني إسرائيل يعظمون إيليا، بحكم أنه يوجد فيها هيكلاً يماثل هيكل سليمان الذي كان مقاماً في بلادهم الأصلية جنوب غرب جزيرة العرب قبل أن يتشتتوا في بقاع الأرض بسبب الحروب الأهلية والغارات الأجنبية. فكانت إيليا بالنسبة لبني إسرائيل في يثرب المكان المقدس الذي يتوجهون له عند «صلاتهم». ويبدو أن أوائل مسلمي يثرب من بني إسرائيل استمروا في التوجه لإيليا في صلواتهم الإسلامية، وتبعهم كل من أسلم على أيديهم من قومهم أو من الأوس والخزرج والأعراب.

وعندما وصل الرسول مهاجراً، وجد أن المسجد الذي بني له كان يتجه للشمال، كما لاحظ أن المسلمين في صلواتهم يتوجهون للشمال، بينما كعبة مكة تقع إلى الجنوب. وبحكم أن الرسول لا يستطيع أن يأمر الناس بأمر ديني أو ينهاهم إلا بعد أن ينزل عليه قرآن يتلى عليهم، فلم يستطع أن يتحدث معهم عن وجهتهم في الصلاة، حتى نزلت عليه سورة البقرة وفيها آيات تغيير القبلة:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴿١٥٠﴾.

والآيات تنص على أن الناس (مسلمو يثرب بالذات) هم من كانوا يتوجهون لغير مكة «سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عليها».

أما الرسول فلم يتوجه لغير القبلة، وكان يصلي لها قبل وبعد هجرته وقبل نزول آيات سورة البقرة «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ».

وتغيير القبلة لمن يتوجه لغيرها جاء ليتوافق مع قبلة الرسول التي كان عليها ولم يغيرها.

وتستمر الآيات لتقول للرسول إن القبلة باتجاه الكعبة ثابتة، سواء كنت في مكة أو بعيداً عنها «وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»

ولا يجوز لأحد التوجه لغيرها بأي حجة أو تبرير «لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ

حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

فمسلمو يثرب الأوائل من بني إسرائيل، توجهوا إلى إيليا لغلبة الموروث الديني عندهم، ظناً منهم أن إيليا بالفعل مقدسة عند الله، لأنهم توارثوا هذه القدسية، ولذا شعر بعضهم بعدم الارتياح للتوجه لمكة لأن موروثهم الديني والثقافي لا يحمل أي مشاعر تقديس لمكة، حتى بعد أن أسلموا، لأنهم يعتبرونها معبداً للأميين الإسماعيليين، وليست بيتاً لله، حسب ما ترسخ في ثقافتهم منذ القدم. وقد تحدثنا عن ذلك في فصل خاص.

التاهيل النفسي للمرحلة القادمة

لقد مات بعض المسلمين في مكة تحت التعذيب من قبل كبراء قريش، فجزع لذلك أقارب وأصحاب لهم هاجروا للمدينة، فنزلت الآيات تهون عليهم مصيبتهم، وتبين لهم أن من مات هو في الحقيقة لم يمت معنوياً، لأنه انتقل لرضوان ربه والجنة، فهو لم يخسر شيئاً بمفارقة الدنيا: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴿١٥٧﴾.

وتقول الآيات للمسلمين إن عليهم أن يكونوا مستعدين لبعض التضحيات مثل فقد بعض الأقارب والمعارف، ونقص في الثمرات والأملاك، لأن قريش مستمرة بملاحقة المسلمين، وسيكون هناك أياماً صعبة، وعليهم الصبر على الشدائد حتى يأذن الله بنصرهم على عدوهم.

وفي مكان آخر من السورة تأتي الآيات لتقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴿٢١٤﴾.

فما أصاب البعض منكم من قتل أو تعذيب على أيدي قريش، شيء متوقع، لأنكم آمنتم بالله وكفرتم بموروث القوم الوثني وخالفتموهم وأعلنتم خطأ معتقدهم، وأنتم قلة مستضعفون، فمن الطبيعي أن يهاجموكم ويؤذوكم، وكان عليكم أن تتوقعوا ما حدث أنه سيحدث لكم، وتستعدوا له ولا تتفاجأوا بوقوعه، وتصبروا على الأذى وتحتسبوه عند الله الذي لا تضيع ودائعه.

وامتدادٌ للموضوع، تنزل آيات أخرى تحث على قتال المشركين، والذي لا محالة واقع، لأن السورة نزلت في وقت كانت قريش مستمرة في ملاحقة المسلمين، وعازمة على حشد عدتها للهجوم عليهم: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿١٩٤﴾.

وهذه الآيات تضع ضوابط للجهاد المتوقع، ومنها:

عدم قتال المسالمين، ولو لم يسلموا، لأن القتال فرض لدفع الظلم، وضد الظالم، وليس لظلم الغير. فهو موجه في تلك اللحظة ضد قريش لأنها حاربت الله ورسوله والمسلمين، وأخرجتهم من مكة واستمرت بملاحقتهم وصد الناس عن الدخول في الإسلام حتى بعد مغادرتهم لمكة وسكن المدينة التي تبعد عنهم مسيرة عشرة أيام.

فوجب أن يقاتلوا بكل غلظة، حتى تكسر شوكتهم ولا يمكنوا من القضاء على الإسلام ويختفي دين الله من الأرض.

ومتى ما انتهت قريش من محاربة الإسلام وأهله، ورغبت في الهدنة، فيجب وقف الحرب والتعايش معهم ومع غيرهم من غير المسلمين بسلام ومودة.

ويكون القتال رد للظلم ومجازاة للظالم بمثل ظلمه، ولكن على المسلمين احترام المواثيق الدولية، إلا أن تستغل من قبل العدو لحرب المسلمين. فإن قاتلوا المسلمين في الأشهر الحرم فعلى المسلمين قتالهم فيها، وإن قاتلوهم في مكة وفي الحرم فعلى المسلمين قتالهم.

أما إن لم يقاتلوهم فعلى المسلمين احترام حرمة الأشهر الحرم التي كان سكان جزيرة العرب يحرمون فيها القتال، كما القتال في مكة والحرم، بموجب عرف دولي متفق عليه بين سكان جزيرة العرب في ذلك الوقت.

والآيات تظهر أن بعض المسلمين عندما وجدوا أنفسهم مرغمين على قتال قريش، كرهوا ذلك، وتمنوا لو كان هناك طريقة أخرى للتعامل مع قريش غير الحرب:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴿٢١٦﴾.

ولابد أنهم من مسلمة قريش الذين لازالوا يشعرون بالمودة لأقاربهم من مشركي قريش.

والقتال يؤدي بالفعل لخسارة بعض الأنفس، وهذا في ظاهره خسارة، لكنه يؤدي لكسر شوكة أعداء الإسلام (قريش) ويفتح المجال للدعوة لدين الله وانتشارها، لأن قريش كانت تقف بكل قوتها للصد عن دين الله. ويكون القتال - وإن كرهه المسلمون - فيه خير كثير لهم ولدين الله.

ويبدو أن المسلمين كبر عليهم أن يأتي القرآن بما يخالف موروث مقدس لهم، واستغربوا كيف يمكن أن يكون هناك قتال في الأشهر الحرم التي توارثوا حرمتها أباً عن جد منذ آلاف السنين، والتي تتوقف كل أشكال الحروب بين الناس خلالها في كل جزيرة العرب، ويتنقل الناس آمنين. وحتى البدو الرحل الذين تعتمد حياتهم على سلب العابرين، ونهبهم، يحترمون حرمة الأشهر الحرم. كما أن حرمة مكة والبيت دائمة على مدار العام، ولم تنتهك حرمتها منذ عصور غابرة، فكيف يأتي القرآن ويحل للمسلمين سفك الدماء في مكة والبيت؟

فتأتي الآيات لتقول لهم إن احترام حرمة الأشهر الحرم وحرمة مكة وكل المعاهدات والأعراف الدولية القائمة قبل الإسلام بين سكان الجزيرة، واجبة في الإسلام، لكن لو أن قريشاً هاجمت المسلمين خلال الأشهر الحرم، فعلى المسلمين ألا يقفوا مكتوفي الأيدي ـ احتراماً للأشهر الحرم ـ بل عليهم أن يصدوا الهجوم ويقاتلوا من يقاتلهم. فالمسلم مطالب بعدم بدء الحرب على الناس، في الأشهر الحرم وفي أي وقت، لكن إن هوجم، فعليه أن يصد الهجوم وقت الهجوم. وقريش عازمة على حرب المسلمين، والقضاء على دينهم ـ إن استطاعت ـ بكل وسيلة وفي كل وقت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢١٨﴾.

وتستمر الآيات تحث المسلمين وتؤهلهم لحرب قريش القادمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ

أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴿٢٤٣﴾ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴿٢٤٤﴾[1].

ولأن القتال يحتاج لجيش والجيش يحتاج لعتاد فإن المسلمين مطالبون بالإنفاق كل بما يستطيع لتسليح الجيش وتأمين العتاد اللازم: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴿٢٤٥﴾.

بعض المسلمين يكتمون بعض الوحي

المسلمون مطالبون بالدعوة لله، عن طريق تلاوة القرآن على غير المسلمين. وأول سورة أمروا فيها بذلك كانت فصلت من سور المرحلة الرابعة في مكة: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴿٣٣﴾.

وتؤكد سورة الحج أن المسلمين بالفعل كانوا يدعون غيرهم للدين بتلاوة القرآن، وكان ذلك يزعج الكفار: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴿٧٢﴾.

وهو ما تؤكده سور أخرى كالأنعام: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴿٦٩﴾.

ويبدو أن بعض المسلمين بعد الهجرة يتجنبون تلاوة بعض الآيات عمداً، فنزلت الآيات تحذرهم من ذلك، كونه كتمان لما أنزل الله. فالله جل شأنه أنزل الآيات لتتلى كلها دون مداهنة أو مجاملة لأحد: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله

---

(١) لو تمعنا في الآيات التي تذكر الجهاد والآيات التي تذكر القتال، فسنلاحظ أن القتال هو الذي يعني الحرب وليس الجهاد.

وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴿١٦٢﴾.

وتظهر الآيات السابقة أن سبب كتمان بعض الآيات يعود إلى أن من كتمها لا يريد أن يعمل بها، وهؤلاء إن لم يتوبوا وماتوا فهم كفار عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وسيخلدون في النار، ولو أقروا لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة.

والآيات السابقة كأنها تتحدث بشكل عام ولا تخص فئة من المسلمين، لكنها تنص على أن من يتوب منهم فسيغفر الله له. وبالتالي فالمقصود هم مسلمون، لأن الدعوة بتلاوة القرآن والتوبة تخص المسلمين دون غيرهم.

ثم جاءت آيات لاحقة تؤكد أن من يكتمون بعض الآيات ولا يبدوها للناس، لعدم رغبتهم باتباع ما فيها، لأنه يتعارض مع منفعة شخصية سعى لها من كتم الآيات ولم يبلغها، وهو ثمن قليل سيعاقب بسببه في نار جهنم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿١٧٦﴾.

وتبين الآيات أن ما يكتمه البعض من القرآن هو تلك الآيات التي تبين ما يحرم من المآكل، لأنهم أرادوا أن يبقى ما اعتادوا تحريمه قبل الإسلام محرماً بعد الإسلام ولو خالف ما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ

عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴿١٧٦﴾.

وآيات سورة البقرة تكرار لآيات سورة النحل المكية والتي تنص على ما يحرم من المأكل، لأنها تخاطب نفس الفئة من الناس التي سبق وحذرتهم سورة النحل من كتمان تلاوة الآيات التي تبين ما يحرم من المأكل، وكان ذلك قبل الهجرة:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١١٥﴾ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١١٧﴾ النحل.

ويكون المعني بهذا التحذير تلك الفئة ممن أعلن إسلامه من قريش ولم يؤمنوا لأنهم أبقوا موالاتهم لأقاربهم المشركين، وهؤلاء سيستمرون بإحداث المشاكل في حياة المسلمين طوال حياة رسول الله. ومنها ما يلي:

تكرار المشاحنات بين مسلمة قريش وبين الموالي والعبيد السابقين

أخبرتنا سورة الممتحنة أن نزاعاً وقع بين هذين الفريقين، وتحدثنا عن ذلك. وهنا تخبرنا سورة البقرة أن هذا النزاع والشحناء قد تكرر حدوثه، وتحذر من يفتعله مرة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ

تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٠٩﴾.

وكما سبق وذكرنا، فسورة البقرة سورة التشريعات، بعضها ذكر من قبل وبعضها للمرة الأولى، ومنها:

الصيام (الآيات: ١٨٣ ـ ١٨٧)، القصاص (الآيات)؛ الوصية (الآيات)، التوبة (١٨٦)، أكل أموال الناس بالباطل (١٨٨)، الخمر والميسر(٢١٩)، قانون دخول البيوت (الآية: ١٨٩)، اليتامى (٢٢٠)، الزواج بالمشركين والمشركات (٢٢١)، المحيض (١٢٢ ـ ١٢٣)، الحلف، الإصلاح بين الناس (٢٢٤ ـ ٢٢٥)، الإيلاء والطلاق والعضل (٢٢٦ ـ ٢٣٢)، نفقة المطلقة (٢٤١ ـ ٢٤٢)، الرضاعة (٢٣٣)، عدة الأرمل (٢٣٤)، التعارف قبل الزواج (٢٣٥)، الصداق (٢٣٦ ـ ٢٣٧)، الحث على المحافظة على الصلاة (٢٣٨ ـ ٢٣٩)، تأكيد أن القرآن حق (٢٥٢ ـ ٢٥٣)، الناس يختلفون عن الدين بعد الرسول كسنّة سارت عليها الأمم (٢٥٣)، الله جل جلاله (٢٥٥)، الدين خيار شخصي (٢٥٦)، الربا (٢٧٥ ـ ٢٨١)، توثيق السلف (٢٨٢ ـ ٢٨٣).

وقد فرض الحج في مكة وهنا استمرار للكلام عن الحج وبيان بعض ما يجب على الحاج القيام به (الآيات: ١٥٨، ١٩٦ ـ ٢٠٣).

كما أن سورة البقرة أول سورة مدنية تحث على الإنفاق في الآيات (١٩٠، ٢٤٥، ٢١٥، ٢٥٤، ٢٦١ ـ ٢٧٤، ٢٨٦). ومجال الإنفاق هنا هو تجهيز الجيش والصرف على نفقات الحرب القادمة.

سورة النساء

استمرار لفرض التشريعات الذي بدأ في سورة البقرة، لسن دستور الدولة وقوانينها. ومن ذلك:

* قوانين لحفظ حقوق اليتامى من النساء في الآيات: ١ ـ ٣.

* ولحفظ حقوق اليتامى من الرجال في الآية السادسة.

* ولحفظ حقوق اليتامى من الجنسين في الآيات: ٩ ـ ١٠.

* ولحفظ حقوق النساء عامة، في الآيات: ٤، ١٩ ـ ٢١.

* وقوانين المواريث في الآيات: ٧ ـ ٨، ١١ ـ ١٤، ٣٣.

* وعقوبة فاحشة السحاق: ١٥، وفعل قوم لوط: ١٦.

* وعقوبة الفاحشة للرقيق: ٢٥.

* وقوانين خاصة بالتوبة تضاف لقوانين سابقة ولاحقة: ١٧ ـ ١٨.

* قوانين من يباح الزواج منهن: ٢٢ ـ ٢٥.

* قوانين لحفظ المال العام: ٢٩ ـ ٣٠.

* قوانين المساواة بين الجنسين: ٣٤ ـ ٣٥.

* قوانين عامة للتعامل مع كل الناس في الآية ٣٦.

* قوانين للحث على الإنفاق: ٣٧ ـ ٤٠.

* قوانين خاصة بالصلاة: ٤٣ ـ ٤٦.

* قوانين لحفظ الأمانات والعهود: ٥٨.

وغيرها.

ومن الأحداث التي تخبرنا بها السورة، ما يلي:

بنو إسرائيل

* استمرارهم في الإعراض عن دعوة الإسلام: ٤٧ ـ ٤٨.

* بدأوا يكيدون المكائد للمسلمين وينحازون لقريش، المشركين المحاربين للمسلمين، ويصفون عقائدهم بأنها أصدق من الإسلام: ٤٩ ـ ٥٥.

* بعض بني إسرائيل يقولون للرسول إنهم يؤمنون بكتاب الله التوراة، ولو كانوا كذلك لآمنوا بالقرآن لأن ما فيه هو نفس ما في التوراة. لكنهم يتركون

حكم القرآن، الذي هو حكم التوراة، ويأخذون بأحكام حاخاماتهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴿٦٢﴾ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴿٦٤﴾ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴿٦٥﴾.

وإن لم يؤمن بنو إسرائيل بمحمد، فهم كفار ولن ينفعهم زعمهم أنهم يؤمنون بالله كما أمرهم موسى، لأن ما في التوراة هو ما قاله القرآن، ومن لا يؤمن بمحمد فليس بمؤمن بالله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴿١٥٠﴾ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿١٥٢﴾.

حث على القتال

السورة نزلت في فترة كان المسلمون يترقبون دخولهم في قتال مع قريش، فجاءت الآيات تحثهم على أن يكونوا بكامل استعدادهم للقاء أعدائهم والحرص على الخروج للمعركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴿٧١﴾.

وتذكرهم بأن قتال العدو تجارة يشتري بواسطتها المسلم الآخرة ويبيع

الدنيا: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴿٧٤﴾.

وتؤكد السورة أن المسلمين يقاتلون باسم الله، بينما يقاتل المشركين باسم الشيطان: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴿٧٦﴾.

كما تحذر السورة من أن يستغل المسلمون القتال في سبيل الله لمصالحهم الشخصية، كأن يقتلوا الناس للاستيلاء على متاعهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴿٩٤﴾.

فالقتال ضد المحاربين من المشركين دون المسالمين. ولكن هذا التحذير الإلهي الذي صدر قبل وقوع أول معركة بين المسلمين وأعدائهم، لم يحترمه المسلمون كثيراً، وسرعان ما خالفوه وهاجموا غير المسلمين لاغتصاب أرضهم ومتاعهم باسم القتال في سبيل الله، فيما عرف بالفتوح في عصور لاحقة.

وتؤكد السورة على ضرورة الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿٩٦﴾.

وحتى الصلاة التي تمثل عبادة التواصل اليومية بالله، تقصر في حال إلتقى المسلمون بعدوهم: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ

وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴿١٠٣﴾.

مواقف مسلمة مكة من المعركة المرتقبة

ليس كل من أعلن إسلامه كان مسلماً، حتى في تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام، وقد ظهر ذلك باختلاف مواقفهم من حرب المشركين، كما يلي:

* بعض المسلمين يضمرون الإبطاء عن الخروج وعدم المشاركة في القتال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴿٧٣﴾.

* والبعض أصيبوا بالذعر عندما فرض القتال، خوفاً من الموت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴿٧٨﴾.

* البعض لا يخافون القتال ولكنهم لا يريدون قتال قريش، وهؤلاء بعض

مسلمة قريش الذين أظهروا موالاتهم لهم كما سبق وذكر. وكانوا يظهرون في مجلس الرسول أنهم مستعدون للقتال، وإذا ما خرجوا، تشاوروا فيما بينهم فيما يجب فعله لمنع المسلمين من قتال قريش: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴿٨١﴾﴾.

مع أنهم يعلمون أن طاعة الرسول والخروج معه طاعة لأمر الله: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴿٨٠﴾﴾.

وأولئك كانوا يذيعون على الملأ كل ما يتداوله الرسول والمسلمين في أمور المعركة القادمة، مما يسهل وصولها لقريش. وكان يجب عليهم المحافظة على سرية ما يجري، والالتزام بما يقرره الرسول والعارفين بأمور الحرب من خطط قتالية: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿٨٣﴾﴾.

والسورة تدعو الرسول أن يعتمد على من أخلص نيته لله ونصرة دينه ولو كانوا قلة، لأنهم هم من سيقاتلون كصف مرصوص وبسالة: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴿٨٤﴾﴾.

وهو ما فعله طالوت مع بعض بني إسرائيل حيث تخلص ممن لن يقدموا على القتال بإخلاص نية، وأبقى على المخلصين منهم فقط: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿٢٤٩﴾﴾ البقرة.

وتعود السورة لتأكيد التسلح بالعزيمة والاستبسال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴿١٠٤﴾﴾.

المنافقون

عندما نزلت النساء كان هناك فريقين من المنافقين، كلاهما من أهل مكة:

فريق هاجر مع المسلمين، لكنه استمر بموالاة مشركي مكة، وهذا الفريق هم الذين لا يرغبون في قتال قريش. وهم من أطلقنا عليهم «مسلمة قريش».

وفريق ثانٍ لم يهاجر وبقي في مكة وهم يعلنون أنهم مسلمون: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴿٨٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّواْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴿٩١﴾﴾.

وتعود السورة للحديث عمن هاجر من المنافقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴿١٤٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴿١٤٧﴾.

استمرار المشاحنات بين مسلمة قريش والمستضعفين

استمرت المشاحنات والجدال بين مسلمي قريش (أحد فرق المنافقين) والمسلمين من موالي مكة وعبيدها السابقين، والسورة تأمرهم بعرض أي نزاع بينهم على الرسول، والالتزام بما يشير به عليهم، إن كانوا مسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴿٥٩﴾.

ويمكن القول إنه حتى نزول سورة النساء لم يكن هناك منافقون من يثرب، لكنهم سيظهرون وسيكون لهم مواقف سلبية في قادم الأيام.

من لم يهاجر من مكة

منافقون ذكرتهم الآيات السابقة، ومعهم مسلمون مخلصون، وهؤلاء تتحدث عنهم الآيات التالية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿١٠٠﴾.

والمسلمون الذين بقوا في مكة، أيضاً فريقين:

فريق قادر على الهجرة وهؤلاء يجب عليهم الخروج من مكة ليتسنى لهم ممارسة دينهم وحياتهم الإسلامية بحرية، لأن الإسلام طريقة متكاملة للحياة وليس فقط إيمان أو عبادات، يمكنهم القيام به بسرية.

وفريق عاجز عن الخروج وهؤلاء معذورون بعجزهم.

ومما ذكرته سور المرحلة الأولى وما سبق من سور هذه المرحلة يمكن القول إنه حتى اللحظة لم يكن هناك سوى منافقين ممن أسلم في مكة، وهم من تحدثت عنهم سورة البقرة (٨ ـ ٢١، ٢٧ ـ ٢٩، ٢٠٤ ـ ٢٠٦)، وسورة النساء (٨٨ ـ ٩١، ١٣٧ ـ ١٤٧). بعضهم هاجر إلى المدينة مع المسلمين، والبعض الآخر بقي في مكة بين المشركين ولم يهاجر. وكلا الفريقين لم ينتهوا عن موالاة أقاربهم المشركين من قريش، برغم تكرار السور تحذيرهم ووعيدهم وتهديدهم.

وهؤلاء كانوا مصدر شر مستطير في المجتمع الإسلامي، بدأ في مكة قبل الهجرة عندما فضلوا موالاة أقاربهم من المشركين الذين كانوا يعذبون

المستضعفين من المسلمين. وقد تسبب هذا الولاء بشحناء وبغضاء ونزاع بين الطرفين. وبعد الهجرة تكرر هذا النزاع، كما بينت سورة الحجرات (الآيات: ٦ ـ ١٠)، وتكرر النزاع في مناسبة أخرى كما تقول سورة البقرة (الآيات: ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

ولم يظهر منافقون في يثرب (المدينة) إلا بعد أن أقترب موعد الخروج لقتال قريش، وكانت المائدة أول سورة ذكرتهم (الآيات: ٥١ ـ ٦١). وكانوا يوالون من لم يؤمن من بني إسرائيل من يهود ونصارى.

وتكون المدينة قد حوت منافقين من كل نوع منذ الأيام الأولى لهجرة رسول الله وقبل معركة بدر. وسنرى فيما بعد كيف تجرأ مسلمة قريش على مخالفة أوامر القرآن أثناء معركة بدر، وكيف تسببوا في هزيمة المسلمين في أحد، ومصائب أخرى.

ومن الأحداث الأخرى التي وقعت عند نزول سورة النساء:

أحد المسلمين يحاول إلصاق تهمة اقتراف فعل اقترفه هو بشخص آخر

هذه الحادثة تحدثت عنها الآيات: ١٠٧ ـ ١١٥، ١٢٣ ـ ١٢٤، ١٣٥ ـ ١٣٦. ولكي نفهم ما حدث علينا أن نفهم الأسلوب المتبع في هذه الآيات لرواية الخبر:

ونبدأ بالآية ١١٢، التي تخبرنا أن أحد المسلمين اقترف خطيئة وحاول إلصاق التهمة بشخص آخر: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾.

وكان أهل وأقارب المخطئ قد رووا ما حدث للرسول بطريقة صدق معها أن ابنهم بريء وأن من قام بالفعل هو المتهم الذي ألصقت به التهمة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴿١١٣﴾.

حتى إن الرسول كان يدافع عن الفاعل الحقيقي ويميل للتصديق أن المتهم هو الفاعل: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴿١٠٨﴾ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴿١٠٩﴾.

وبعد أن اتضحت الحقيقة وظهر كذب ادعاء الفاعل وأهله، تقول السورة إنه كان يجب على الفاعل أن يعترف بفعلته ويتوب، بدل اتهام شخص بريء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴿١١٠﴾.

وأن كل من يقترف إثماً فسيحاسب عليه في الآخرة، ولو فات الناس في الدنيا أن يحاسبوه أو يستدلوا عليه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴿١١١﴾.

ويبدو أن الفاعل وأهله الذين تضامنوا معه لم يعجبهم كشف الحقيقة، ودخلوا في جدال مع الرسول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴿١١٥﴾.

فلم يكن يهمهم أن يتهم بريء، ولكن همهم ينصب في تبرئة ابنهم أمام الناس. وهذا السلوك لازال يعيش بيننا بوضوح وإصرار. فهناك من يعتبر نفسه فوق الشبهات، لدرجة لا يمكن أن يحاكم أو يتهم. وهذا الفكر مشابه لفكر أهل الكتاب الذين يقولون إنهم مفضلون على بقية البشر، ولن يؤاخذهم الله فيما يقترفون: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴿١٢٤﴾.

وتعود السورة للموضوع لتحذر المسلمين من كتم شهادة الحق ولو كان فيها ضرر على والديهم أو أولادهم أو أقاربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴿١٣٥﴾﴾.

وأي شخص لا يلتزم بهذه القوانين الإلهية في قليل أو كثير فليس بمسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴿١٣٦﴾﴾.

لأن الأخذ بعرف ما يسمى بالحصانة، بأي شكل، هو من الجهر بالسوء الذي لا يحبه الله، وما لا يحبه الله فهو من الكفر: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴿١٤٩﴾﴾.

آخر آية في سورة المزمل

سورة المزمل هي السورة (الرسالة الربانية) الوحيدة في القرآن التي نزل لها خطاب إلحاقي، بينما كانت كل سورة من سور القرآن تنزل كاملة.

والمزمل سورة نزلت كل آياتها ما عدا الأخيرة في مكة، في بداية الدعوة، وتحديداً هي سورة تمثل المرحلة الثانية من مراحل الدعوة في مكة. وهي المرحلة المعنية بتأهيل محمد نفسياً ليكون قادراً على تحمل أعباء الدعوة قبل أمره بالانطلاق بدعوة قريش في سورة المدثر.

وقد سبق وتحدثنا عن الآيات العشر الأولى من السورة والتي تبين للرسول برنامجه التأهيلي النفسي الذي عليه أن يتبعه والذي يرتكز على السهر ليلاً للتأمل والتدبر وقراءة ما سبق ونزل عليه من سور قليلة تتحدث عن عظمة الله

وتسبحه، والآيات هي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴿١١﴾.

وبعد هجرة محمد ونشأة دولة الإسلام، وفرض القتال في سورة البقرة، لم يعد محمد بحاجة لمواصلة برنامج التأهيل النفسي، بل أصبح بحاجة لبرنامج آخر تحتمه الظروف المحيطة وطبيعة الأحداث الجارية. فالمسلمون مقدمون على حرب مستطول مع قريش، ومعارك قتالية يلزم الاستعداد لها استعداداً كاملاً: نفسيا، بدنياً، تسليحاً، ومؤن. والسهر في الليل، ولو كان للتأمل أو قراءة القرآن، لم يعد مفيداً. لأن محمد سيكون بحاجة لقواه البدني وكامل لياقته البدنية، والسهر في الليل يضعف القوى واللياقة. ولم يعد بحاجة لتقوية ذهنية ونفسية، لأن الإسلام أصبح له دولة ولم يعد الرسول عرضة لأذى نفسي من قريش أو من غيرها.

وبما أن آيات برنامج التأهيل النفسي خاصة بمحمد وواجبة عليه دون المسلمين، كونه المعني بالتبليغ، فقد نزل خطاب إلحاقي برسالة المزمل، يقول للرسول أنه لم يعد هناك حاجة لمواصلة البرنامج وأن العمل به يجب أن يتوقف، لأنه سيتعارض مع حاجات المرحلة القادمة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٠﴾.

ولأن بعض المسلمين اختاروا أن يتبعوا برنامج التأهيل النفسي للرسول، ولو لم يطالبوا به، فقد أمروا هم أيضاً بالتوقف عنه، كما الرسول. ويكفيهم قراءة القرآن في أي وقت، يشعرون أنهم قادرون صحياً، شريطة ألا يكونوا مشغولين بتدبر أمورهم الدنيوية الحلال، أو بالقتال أو الاستعداد له. ولا يجب عليهم سوى الصلوات المفروضة والإنفاق.

والآية نزلت في هذه المرحلة، وبعد فرض الجهاد وقبل أي معركة.

سورة المائدة

فرض التشريعات الذي بدأ في سورة البقرة واستمر في سورة النساء، يتواصل هنا، حيث فرضت سورة المائدة العديد من التشريعات، وإن كنا لن نتطرق إليها.

وفيما يلي أهم الأحدث التي أخبرتنا عنها السورة:

لا زالت قريش تمنع أي مسلم من دخول المسجد الحرام

منعت قريش المسلمين من دخول المسجد الحرام قبل هجرتهم، وفي أواخر تواجدهم في مكة، حيث ورد ذكر المنع في سورة الحج المكية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿٢٥﴾ الحج.

وذكرت سورة البقرة الآية ١١٤ أن المنع مستمر، ويبدو أن المنع استمر حتى نزول سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٢﴾.

وهذه الآية تقول إن منعهم لكم من دخول الحرم لا يبرر إقدامكم على التعدي على أحد منهم. ولا يحل لكم التعرض لهم إلا إذا ابتدأوكم بالقتال في الحرم عندها قاتلوهم فيه، كما سبق وذكرت سورة البقرة: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿١٩١﴾﴾.

المسلمون وبني إسرائيل

حتى نزول هذه السورة لم يحدث أي عداء ظاهر بين المسلمين وبين بني إسرائيل، وهو ما يمكن الاستدلال عليه بالآية الخامسة التي تحل طعامهم للمسلمين والزواج بنسائهم: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٥﴾﴾.

مع أن بني إسرائيل بما فيهم النصارى واليهود في يثرب قد أعلنوا موقفهم النهائي الرافض لدعوة محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٩﴾﴾.

ومع أن منهم ضالين عن الحق، ولو كانوا يؤمنون بوحدانية الله، ومنهم من يؤمن بالتثليث، ومنهم من يؤمن بإله مع الله. وهذا يشير إلى أن تحريم الزواج بالمشركين من أهل مكة، الذي ورد في سورة الممتحنة، كان خاصاً بهم دون غيرهم من المشركين والكفار. ويكون سبب تحريم الزواج بهم لأنهم في حرب مع المسلمين، وليس لأنهم لا يؤمنون بالإسلام. لأن إباحة الزواج بنساء بني إسرائيل نزل بعد تحريم الزواج بالمشركين من قريش. وبني

إسرائيل، حتى من يؤمن بوحدانية الله، كفار، لأنهم لم يؤمنوا بالإسلام، كما تقول سورة البقرة التي تحل الزواج منهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴿٤٠﴾ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴿٤١﴾ البقرة.

تعرض المسلمين لهجوم من خارج المدينة

تقول الآية الحادية عشرة إن المسلمين كادوا يتعرضون لهجوم من قوم من خارج يثرب، لكن ولسبب غير واضح تراجعوا وكفى الله المؤمنين شر القتال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١١﴾.

ولا ندري هل كانوا من قريش أو من الأعراب حول المدينة أو من غيرهم، لكن لو كانوا من قريش لما قالت الآية «قوم»، لأن القرآن يسمي قريش الكفار أو المشركين.

فرض عقوبة المكائد ضد الإسلام والمسلمين

المكائد ضد دولة الإسلام إفساد في الأرض لأنه يسعى للقضاء على دين الله، فنزلت الآيات تفرض قانون عقوبة صارم لمن يصدر منه أي دسائس، مسبوقاً بقانون القصاص، الذي يعاقب به من يقتل غيره، لأن القتل قضاء على حياة إنسان، والدسائس محاولة للقضاء على الإسلام. : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا

وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٣٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٣٤﴾.

وهذا القانون تم تحويره لحماية الحكام ممن يحاول انتقادهم أو المطالبة بحقوقه التي اغتصبوها، ولم يعد يعمل به كما أنزل الله، لمعاقبة غير المسلمين الذين يسعون في الأرض فساداً بنشر الدعايات المغرضة ضد الإسلام، أو محاولة إفساد الإسلام بأي شكل.

الرسول يشعر بالحزن والأسى من تصرفات المنافقين وبني إسرائيل

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٤١﴾.

والمنافقون الذين يزعمون أنهم مسلمون، تصرفاتهم المنافية للإسلام بادية للعيان. ومثلهم بني إسرائيل، الذين يأتون للرسول ليسألوه عن أحكام موجودة لديهم فيما بقي من التوراة بين أيديهم. ولأن ما في التوراة هو الذي في القرآن، فقد أمرت الآيات الرسول أن يكون له الخيار بين إجابتهم أو الامتناع: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴿٤٢﴾.

وسؤالهم الرسول ليس ليطيعوه، ولكن لعله يجيب بخلاف ما في التوراة ليقولوا إنه نبي كاذب: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴿٤٣﴾.

منافقون من أهل يثرب

للمرة الأولى يتحدث القرآن عن منافقين من أهل يثرب، بعد أن أخبرنا بالمنافقين من مسلمي مكة في السور السابقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴿٥٢﴾.

ومنافقو يثرب يوالون أسيادهم من بني إسرائيل، مثلما يوالي منافقو مكة أقاربهم من مشركي قريش.

وتصرفات منافقي يثرب واضحة لكل المسلمين: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ﴿٥٣﴾.

برغم أنهم يظنون أن لا أحد يعلم بازدواجيتهم: ﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴿٦١﴾.

والآيات تعلن أن من يوالي غير المسلمين فقد ارتد عن الإسلام، ولن يشفع له إقراره بشهادة التوحيد، أو أداء بعض العبادات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴿٥٦﴾.

وبنو إسرائيل الذين يواليهم منافقو يثرب يسخرون من الإسلام والمسلمين، ويستهزئون بالأذان إذا رفع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء

وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴿٥٨﴾.

وهم يعلمون أن دين الله واحد، وما يقوله الرسول هو نفس الأديان السابقة، وسخريتهم منهم سخرية من التوراة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴿٥٩﴾.

ومثلما كان القرآن ينزل في مكة بحق كبراء قريش ويتلى على مسامعهم، برغم ضعف المسلمين آنذاك، فقد كان القرآن ينزل في المدينة بحق بني إسرائيل دون مواربة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴿٦٠﴾.

سورة الماعون

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴿٧﴾.

نزلت بعد السور التي تتحدث عن المنافقين، وتقول إن الصلاة والتظاهر بالدين لا يعني أن المرء مسلم، لأن الإسلام يحتاج للإيمان والعمل الصالح والذي في مقدمته الإنفاق.

سورة محمد

تعطي صوراً لما يدور في المجتمع المسلم في المدينة خلال الفترة التي سبقت غزوة بدر، وتبدأ السورة بمقدمة تشحذ بها همم المسلمين ليكونوا في

أقصى درجات الاستعداد النفسي والبدني لملاقاة العدو، بالتأكيد على أن مشركي قريش على ضلال واتبعوا الباطل، وأن المسلمين عرفوا الحق واتبعوه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴿٣﴾.

قبل أن تفرض قواعد وضوابط للمعركة المرتقبة، ضد جيش قريش المعتدي: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴿٦﴾.

والآيات السابقة تقول: بما أن جيش قريش يفوق المسلمين عدداً ويتفوق عليهم عتاداً، فيجب على المسلمين قتل أكبر عدد منهم، وعدم أخذ أسرى، لإثخان العدو وإنهاكه.

لأن أخذ الأسرى يعني أنهم سيعاودون قتال المسلمين بعد تحريرهم.

وبعدما يثخن العدو وينهك، فيفضل الأسر على القتل. وتفضيل الأسر بعد إنهاك العدو لمصلحة المسلمين، فهم مخيرون بين إطلاق سراح الأسير بلا مقابل، وهذا بحد ذاته يعطي انطباعا إنسانياً حسناً عن أخلاق المسلمين، أو يطلق الأسير مقابل فدية، وهذا فيه كسب مادي لدولة الإسلام وإضعاف لاقتصاد العدو «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً».

إذا، القاعدة الحربية الإسلامية تقول: في حال قابل المسلمون عدواً يفوقهم عدداً وعدة، فيجب على المسلمين عدم أخذ أسرى، لأن المطلوب في هذه المرحلة من الصراع هو إضعاف العدو، بقتل كل من يقدر عليه المسلمون منهم.

وإذا دخل المسلمون حرباً مع العدو وهو مثخن وضعيف، فيفضل الأسر على القتل، لأن الأسر فرصة لتأليف قلوب الأسرى للإسلام، ولو لم يسلموا، نتيجة للتعامل الحسن الذي يلقوه من المسلمين. ويمكن للمسلمين إطلاق سراح الأسرى بلا مقابل إن كانت دولة الإسلام غنية، أو إطلاق سراح الأسرى بفدية لدعم الاقتصاد.

ثم تواصل الآيات قائلة إن الله قادر على نصر المسلمين وخذلان المشركين بلا حرب، وهو قادر على كل شيء، لكن القوانين التي يسير عليها الكون لن تتغير ولن يتدخل الله بين الناس إلا بالتوجيه والهداية. وعلى المسلمين الأخذ بكل أسباب النصر لينتصروا في الحرب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴿٧﴾﴾.

لكن الآيات تعد المؤمنين بالنصر في نهاية الحرب التي ستمتد بين المسلمين وقريش، والجنة في الآخرة، إن هم نصروا الله وسعوا لذلك، ووعيد للكافر بالهزيمة في الدنيا والعذاب في الآخرة، لأنه كره ما أنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴿٩﴾﴾.

وهزيمة قريش حتمية في نهاية المطاف، تبعاً لسنة الأولين التي مرت على كل الأمم الكافرة المحاربة للحق: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴿١٣﴾﴾.

ثم تبدأ السورة بتقديم صور لما كان عليه فئات من المجتمع المسلم، ممن لا يرغبون في القتال، قبيل المعركة المرتقبة:

البعض يؤمنون على ما يقول الرسول في مجلسه دون اقتناع

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴿١٧﴾.

بعضهم أصيب بالقلق عندما فرض القتال

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴿٢١﴾.

وقد عزموا على عدم الخروج للقتال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴿٢٢﴾.

و﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴿٢٤﴾.

لأنهم بعزمهم على عدم الخروج ارتدوا عن الإسلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴿٣١﴾.

بعض مسلمي قريش اعترضوا على القتال

وهم الذين يوالون أقاربهم المشركين، وقد أعلنوا على الملأ معارضتهم لحرب قريش: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴿٣٧﴾.

ومع أن الإنفاق على احتياجات المعركة واجب كوجوب القتال إلا أن بعض المسلمين تباطأ في الإنفاق، وبعضهم امتنع: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴿٣٨﴾.

وهذه الصور لم تكن مشجعة ولا مثالية قبيل أول معركة مصيرية للمسلمين ضد قريش التي تحاول القضاء عليهم وعلى دينهم.

سورة الصف

في سورة محمد السابقة ذكر أن هناك بعض المسلمين الذين يعلنون موافقتهم لما يطرح في مجلس الرسول حول المعركة المرتقبة، وإذا خرجوا من عنده بدلوا أقوالهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴿١٧﴾.

وسورة الصف تبدأ الحديث عن أولئك: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿٣﴾.

وتشدد على أن النصر يحتاج لإخلاص وبسالة وليس لكثرة العدد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴿٤﴾.

ولأن الناس متعلقون بالأمور الدنيوية والماديات، تنبههم السورة إلى أن هناك ما هو أكثر ربحاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٣﴾.

ولأن هناك مسلمون من النصارى فالسورة تحثهم على أن يقتدوا بآبائهم الأولين الذين آمنوا بعيسى وناصروه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴿١٤﴾.

لقد كانت سورتا محمد والصف آخر ما نزل قبل خروج المسلمين لملاقاة عدوهم قريش في بدر، والسورتان تظهران أن المسلمين لم يكونوا بأحسن حالاتهم، فهناك من لا يرغب في القتال خوف الموت لأنه غير متيقن من الآخرة. وهناك من لا يرغب في قتال قريش الذين يكنّ لهم المودة ولا يريد أن يرى أحداً منهم قد قتل. وهناك من لا يرغب في الإنفاق على تجهيز الجيش مع قدرته، وهنك فئات أخرى لا ترغب في القتال لأسباب مختلفة.

وتؤكد الصف في الآيات: (٥ ـ ٩) أن هذه المواقف قد حدث مثلها مع موسى وعيسى من قبل.

أصناف بنو إسرائيل

لعل من المفيد أن نلخص الحديث عن بني إسرائيل قبل معركة بدر، كما يلي:

لقد كانوا عدة أصناف يعيشون في يثرب عند هجرة رسول الله.

* بعضهم ممن غادر مصر في الشتات الأول، عندما تعرضت لغزو خارجي بعد عصر موسى وعيسى، وهؤلاء هم الأكثرية، وأشهر قبائلهم: بنو النضير، بنو قينقاع، وبنو قريظة.

وقد أبقوا على لغتهم الأم «العربية»، كما احتفظ رجال دينهم ببعض نصوص التوراة كما نزلت على موسى بلغتها الأصلية «العربية». وإن كان هذا لا يعني أن عقائدهم كانت سليمة، بل دخلها الكثير من البدع، واتبعوا ما اختلقه رجال الدين ونبذوا «كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[1].

* وهناك من استقر في يثرب من الموجة الثانية من هجرة وشتات بني إسرائيل بعد تدمير المملكة التي أسسها داوود، وقضي عليها فيما بعد بسبب غزوة خارجية.

وهؤلاء، بعضهم تمسك بعقائد بني إسرائيل الأوائل. قلة على الحق، والباقي استحدثوا في الدين ما ليس فيه. وبعضهم اعتقد بمذهب جديد وتسموا باليهود، وهؤلاء بعضهم يعتقد أن عزير - أحد أنبيائهم - كان ابن لله، والبعض يؤمنون بوحدانية الله ولكن عقائدهم فاسدة.

وممن استقر في يثرب بعد الموجة الثانية للشتات، من تسموا بالنصارى. قلة منهم من سلالة من آمن بعيسى ابن مريم، لكنهم استحدثوا في الدين ما ليس فيه، مع احتفاظهم ببعض تعاليم الإنجيل. وأغلبهم يعتقدون بأن عيسى ابن لله، وأمه إله ثالث معهما. وبرغم أنهم يؤمنون بالتثليث، فهو يختلف

---

(١) الاقتباس جزء من الآية ١٠١ من سورة البقرة.

بشكل جذري عن تثليث من يسمون اليوم بالمسيحيين، ذلك أنهم يعتقدون بتثليث مكون من الأب، الابن (يسوع)، والروح القدس.

لأن النصارى لا يعرفون يسوع، وليس في عقيدتهم إله اسمه روح قدس، كما أن المسيحيين لا يعرفون عيسى، وليس في عقيدتهم إله اسمه أم عيسى. ونحن هنا نتحدث عن أصل عقيدة المسيحيين، ولا علاقة لحديثنا بالتطورات اللاحقة، حيث يوجد اليوم كنائس مسيحية تسمى كنيسة العذراء أو مريم أو أم الإله. وهي كنائس مستحدثة، ولا تؤمن بعيسى، ولكن بيسوع.

وكانت كل فرقة من فرق من بني إسرائيل في يثرب لا تتفق مع غيرها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿١١٣﴾ البقرة.

ومواقف غالبية بني إسرائيل، بأصنافهم المتعددة، الإعراض عن دعوات القرآن المتكررة لهم، وسخريتهم من الإسلام والمسلمين والأذان والصلاة، إلا أنه حتى معركة بدر لم يصدر من بني إسرائيل - يهوداً أو نصارى - في يثرب ما يعتبر تصرفات عدائية، لذا أحل للمسلمين طعامهم والزواج بنسائهم. لكن هذا الصفو لن يصمد طويلاً.

وقد توقف دخول بنو إسرائيل الإسلام منذ قدم رسول الله مهاجراً إلى المدينة، برغم أن من أسلم منهم في مكة قبل الهجرة كانوا فاتحة خير على الإسلام والمسلمين. فقد دعوا للإسلام في يثرب، وآمن بدعوتهم الكثير من الأوس والخزرج وقلة من قومهم.

فيما عدا النصارى الذين يؤمنون بوحدانية الله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴿٨٢﴾ المائدة.

والنصارى الموحدين والذين يؤمنون بالتثليث ومعهم اليهود الموحدين

والذين يؤمنون بأن عزير ابن الله، كانت أعدادهم قليلة، ولا وجود لهم خارج يثرب في الغالب، لذا مع تطور الأحداث في المدينة فيما بعد، غادر جلهم يثرب مع بني إسرائيل الآخرين، وسرعان ما انتهى وجودهم وذابوا في مجتمعات بني إسرائيل التي استقروا فيها.

كما انتهى أمر بقية التوراة العربية التي كان رجال بني إسرائيل يحتفظون بها في يثرب، لتحولهم عن لغتهم العربية إلى لغات اليهود وعقائدهم الذين استقروا بينهم فيما بعد جلائهم، والذين كانوا يؤثرون ويسيطرون على عالم ودين بني إسرائيل في العالم.

مرحلة ما بعد غزوة بدر

في هذه الفترة نزل أربع سور، هي:

الأنفال التي تتحدث عن معركة بدر وما يتعلق بها بتفاصيل دقيقة. ثم نزلت سورة الحديد، فالتغابن، اللتان تتحدثان عن قحط أصاب المدينة وتسبب بتوقف الكثير عن الإنفاق خشية إملاق. يلي ذلك سورة الطلاق التي تتوعد في آخر آياتها من يخالف أوامر الله والرسول ولا ينفق.

وسنتناول كل سورة على حده.

الأنفال ـ معركة بدر

نزلت مباشرة بعد هزيمة مشركي قريش في بدر على أيدي المسلمين، وكل السورة تتحدث عن تلك الغزوة وما حدث فيها. وأسلوب القرآن فريد من نوعه ويختلف عن أسلوب الكتابة في عصرنا، فنحن لو أردنا الحديث عما حدث في غزوة بدر مثلًا، فسنبدأ باستعداد المسلمين للمعركة ثم بسير المعركة ثم كيف انتهت وما بعد ذلك.

لكن لو تمعنا في السورة فسنجد أنها لا تتقيد بهذا الترتيب، بل تبدأ الحديث عن كيفية تقسيم الغنائم، التي غنمها المسلمون من المعركة. يلي ذلك الآيات ٢ ـ ٤ والتي تتحدث بوجوب طاعة الله واتباع أوامره، وكأن لا علاقة لها بالحديث عن بدر.

والآيتان ٥ ـ ٦ تشيران إلى أن هناك بعض المسلمين كرهوا الهجرة من مكة.

ثم يأتي الحديث عما حدث في بدر في الآيات ٧ ـ ١٤.

ثم تحذر الآيات ١٥ ـ ١٩ من الهرب من المعركة وتحث على الصبر على القتال.

ثم تذكر الآيات ٢٠ ـ ٢٩ أن هناك خلافاً وقع بين فريقين من المسلمين.

والآية ٣٠ تبين بعض خطط قريش ضد الرسول عندما كان في مكة.

والآيات ٣١ ـ ٤٠ تتحدث عن مواقف قريش من الدعوة في مكة ومنعهم المسلمين من الحرم.

والآية ٤١ تعود لبيان تقسيم الغنائم الذي ذكرته في الآية الأولى.

والآيات ٤٢ ـ ٤٤ تكملة للحديث الذي ذكر في الآيات ٧ ـ ١٤.

والآية ٤٥ تقول إن بعض المسلمين حدثته نفسه بالهرب من المعركة.

الآيات ٤٦ ـ ٤٨ تعود للحديث عن الخلاف المذكور في الآيات ٢٠ ـ ٢٩.

الآية ٤٩ ذكر للمنافقين.

الآيات ٥٠ ـ ٥٥ ما الذي ينتظر قتلى المشركين في بدر.

الآيات ٥٦ ـ ٦٣ ذكر لمعاهدات بين المسلمين وقريش.

الآيات ٦٤ ـ ٦٦ تحريض للمسلمين على الصبر في القتال، وكأن المعركة لم تنتهِ بعد.

الآيات ٦٧ ـ ٧١ حديث عن قانون الأسرى في حروب المسلمين.

الآية ٧٢ تخبرنا السورة أن هناك مسلمون بقوا في مكة ولم يهاجروا، استمرار لما ذكر في الآيتين ٥ ـ ٦.

وتختم السورة مع الآيات ٧٣ ـ ٧٥ التي تذكر فضائل المهاجرين المتقين والأنصار.

وفي نظر القارئ العادي فكأن السورة تتحدث عن مواضيع كثيرة من بينها بعض المواضيع عن غزوة بدر، والباقي مواضيع لا علاقة لها بالغزوة.

لكن المتدبر للسورة يجد أن كل ما تتحدث عنه آيات الأنفال له علاقة مباشرة أو غير مباشرة ببدر، ولم تتحدث السورة عن أي مواضيع أخرى. فهي بحق سورة غزوة بدر. وكل ما نحتاجه لتبين ما أخبرتنا به السورة هو فهم أسلوب القرآن، ومعرفة كيف يمكن ربط الأحداث بتسلسل زمني.

وسنتناول الآيات بترتيب غير معتاد، كما يلي:

الأنفال وتوزيعها

معركة بدر أول حرب يخوضها المسلمون في تاريخهم، وهي المواجهة الحربية الأولى مع قريش. وقد انتصر فيها المسلمون، وقتلوا عددا كبيراً من كبراء قريش، واسروا عدداً آخر، واستولوا على أسلاب وغنائم كثيرة.

وغنائم الحرب لها قيمة عالية عند الناس في ذلك الزمان، لأنها عادة ما تكون عبارة عن سيوف ودروع وعتاد حربي يعز تواجده بكثرة بين أيدي سكان جزيرة العرب، لأنها في الغالب لا تصنع محلياً، لذا فهي قليلة وغالية الثمن. والحروب في الجاهلية لها قوانينها المتعارف عليها في اقتسام الغنائم بين أفراد الجيش المنتصر. وتنص تلك القوانين على أن كل من قتل محارباً من العدو فله سلبه، أي ملابسه وسلاحه ومركبه إن كان راكباً. أما بقية الغنائم التي يتركها العدو خلفه بعد هزيمته فهذه هي الأنفال، وكان زعيم القبيلة هو من يقوم بتوزيعها، حسبما يرى.

ولأن بدر أول حرب يخوضها المسلمون في الإسلام، فقد كان أول اهتماماتهم بعد انتصارهم فيها على عدوهم، هو كيف سيتم تقسيم الأنفال، أما الأسلاب فقد ذهبت لمن حصل عليها كما كان متبعاً في الجاهلية. فنزلت الآية تقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١﴾﴾.

ومعنى أن تصرف الأنفال لله، أي يصرف منها للنفقات التي تدفعها دولة الإسلام. ومعنى أن تصرف للرسول أي يؤخذ منها ما يقيم قوت الرسول اليومي، لأنه لا دخل له ولا عمل، حيث يقضي كل وقته في الدعوة، ويحتاج للإنفاق على مصروفاته وأهل بيته.

ولأن النفس البشرية ضعيفة فقد يتساءل البعض كيف لنا أن نعرف ما يقسم لدولة الإسلام وما يعطى الرسول؟

أو هل يمكن للرسول أن يأخذ كيفما يشاء من الأنفال دون محاسبة؟

لذا جاءت آية أخرى في السورة توضح هذا الأمر:

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٤١﴾﴾.

فالله له خمس الأنفال. أي أن الخمس يخصص لمصروفات دولة الإسلام. والباقي يصرف للرسول والمحتاجين الذين أمر الله أن يعطوا من الإنفاق وهم: المحتاج من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وبنسب متساوية.

وصرف الأنفال كما ورد في الآية لن يعجب البعض من القادرين وغير المحتاجين، الذين يرغبون في قسم منها لأنفسهم، متناسين أنهم يستطيعون العمل والصرف على أنفسهم وأهلهم، بينما رسول الله لا يستطيع العمل أو احتراف حرفة تعيله وأهله، لأنه مكلف بإشغال وقته كله للدعوة، منذ نزلت عليه سورة المزمل في مكة. ويكون في وضع مشابه للمساكين وابن السبيل.

ولن يتقبل حكم القرآن في الأنفال إلا من يؤمن بالله حقاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴿٣﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٤﴾﴾.

والمؤمنون حقاً ليس فقط رضوا بحكم الله في الأنفال بل وينفقون من أموالهم في كل المجالات التي تحتاجها دولة الإسلام والمجالات التي أمر بها القرآن، ويقيمون الصلاة وكل أوامر الدين. بينما الذين يطالبون بجزء من الأنفال يتباطأون في الإنفاق، وقد لا يقيمون كل أوامر الدين، وهم من تحدثت عنهم سورة الصف والبقرة وغيرها من السور، والذين أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا.

مسلمة قريش لم يرغبوا قتال مشركي قريش

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴿٦﴾.

الآيات تكشف لنا صورة أخرى من مواقف مسلمة قريش زمن رسول الله، وهذه الفئة تمثل بعض مسلمي مكة الذين والوا مشركي قريش في مكة، وعندما نزلت آيات الهجرة، وبدأ الرسول يحث الناس على الخروج من مكة، دخل أولئك الناس مع الرسول في نقاش حاد في محاولة لثنيه عن الهجرة. ونظروا للهجرة على أنها مساوية لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، وليس على أنها مرحلة صعبة لكنها ضرورية في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق.

هؤلاء الذين كان بينهم وبين المسلمين من العبيد والموالي مشاحنات مستمرة، وتسببوا بمشاكل كثيرة سنأتي على بعضها.

وسورة الصف السابقة، والتي نزلت قبيل وقوع معركة بدر، أخبرتنا أنهم لم يرغبوا في حرب قريش الذين يوالونهم، وكانوا يطلبون من الرسول الدخول في مناقشات مع قريش بدل حربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴿٣٥﴾.

وسورة الأنفال تؤكد عدم رغبتهم في قتال مشركي قريش، وتقول أنهم ذهبوا لبدر وهم غير راغبين في القتال ويمنون أنفسهم بالحصول على الغنائم دون خوض الحرب: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴿٨﴾.

في الطريق إلى المعركة

تروي الآيات أن المسلمين وهم متجهون لميدان المعركة كانوا يتضرعون لله أن ينصرهم، وكانوا قلقين، فأنزل الله سكينته عليهم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴿٩﴾.

ولم يمد الله المسلمين بمخلوقات حية تقاتل فعلياً معهم، ولكنه كان مدداً معنوياً وسكينة تشعرهم بالراحة وتذهب عنهم القلق ورهبة المعركة، وهو ما تبينه الآية التالية: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿١٠﴾.

وكان المدد المعنوي مؤثراً بالفعل لدرجة أن عدداً من المسلمين غلبه النعاس وهو ينتظر بدء المعركة، مما يعني أنهم كانوا في حالة نفسية مسترخية تماماً، خالية من الخوف والقلق: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ...... ﴿١١﴾.

كما نزل المطر عليهم في تلك اللحظة، مما زادهم ارتياحاً نفسياً: ﴿.... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴿١١﴾.

في ميدان المعركة

تورد السورة وصفاً لميدان المعركة قبل نشوب القتال، وأين تواجد جيش المسلمين وجيش الكفار: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى

وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٤٢﴾.

لقد تمركز المسلمون على مساحة من الأرض (عدوة)، وتمركز العدو على مساحة أخرى مقابلة، لكن جيش المسلمين كان على مرتفع يعلو المكان الذي تمركز فيه المشركون، مما أعطاهم أفضلية إستراتيجية هامة لكسب الحرب، لم يخطط لها المسلمون مسبقاً، ولكنها حدثت بالصدفة المباركة.

وعندما التقى الجمعان قبل نشوب المعركة، كان المسلمون بمعنويات مرتفعة، لدرجة كانوا يرون جيش العدو أقل مما هو في الحقيقة، كما أن المشركين كانوا يرون جيش المسلمين قليلو العدد، كما هو بالفعل. وهو ما شجعهم على أن يقدموا على الحرب ويقتل عدد من كبرائهم، وتحل بهم الهزيمة. ولو تخيلوا جيش المسلمين بعدد كبير، فقد ينسحبون من المعركة قبل نشوب القتال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ﴿٤٤﴾.

وقبل بدء المعركة قامت الملائكة بإحلال الطمأنينة والراحة النفسية في نفوس المسلمين: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ..... ﴿١٢﴾.

وفي مقابل ذلك قامت الملائكة بزرع الرعب والخوف والقلق في نفوس الكافرين: ﴿.... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ..... ﴿١٢﴾.

فأصبح الوضع ملائماً لانتصار المسلمين الذين ما عليهم سوى ضرب أعناق المشركين المنهارين معنوياً: ﴿.... فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴿١٢﴾.

كل هذا لأجل أن ينصر الله المؤمنين ويهلك الكافرين على شقاقهم لله ورسوله وحربهم للمسلمين ولدينه. وكل من حارب الدين فمصيره الهلاك في

الدنيا وعذاب الآخرة يوم القيامة: ﴿..... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴿١٤﴾.

قبل نشوب القتال

تحدثنا السورة عن بعض أوضاع المسلمين أثناء معركة بدر، كما يلي:

* بعض المسلمين حدث نفسه بالهرب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ﴿٤٥﴾.

* كان هناك خلاف حول أماكن تمركز المحاربين، وحول الكيفية التي تدار بها العمليات، وتداخلت الآراء ولم يعد الكثير منهم يستمع لتوجيهات الرسول: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿٤٦﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٤٨﴾.

وهذه الآيات تحذر المسلمين من تكرار التضارب في الآراء أثناء المعارك، وأنه يجب على كل المحاربين الاستماع والطاعة لأوامر الرسول وتنفيذها. فالمعركة يجب أن تسير بمرئيات قائد واحد، ولو تعددت الآراء وتضاربت الأوامر فسيؤدي ذلك للخسارة وانتصار العدو. وقد وقع ما حذرت منه الآيات هنا، في غزوة أحد، وتسبب بهزيمة جيش المسلمين، كما سنرى.

الليلة التي سبقت المعركة

في الليلة السابقة للمعركة، رأى الرسول رؤيا وكأن جيش المسلمين قد اصطف مقابل جيش المشركين في ميدان المعركة. وكان جيش العدو هزيلاً

قليل العدد. وكعادة الناس في ذلك الوقت، قص الرسول رؤياه على أصحابه. وكان لها تأثير سحري في رفع معنويات الرسول والمسلمين، إذ قد يكون الناس ظنوا أن رؤيا الرسول ليست كرؤيا أحدهم، ولابد أن جيش قريش قليل بالفعل[١]: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿٤٣﴾﴾.



ولابد من التذكير بأن معركة بدر لم تحدث بسبب طمع المسلمين بقافلة قرشية قادمة من الشام، كما رسخت كتب السير والتاريخ التي دونتها قريش. ولكنها حدثت بسبب إصرار قريش على ملاحقة المسلمين، وهو ما بينته سور

---

(١) رؤيا الرسول كأي رؤيا لأي شخص، ولا يمكن أن تصور الحقيقة. فقد رأى جيش المشركين أقل عدداً مما هم عليه بالفعل، مما يعني أن الحلم الذي رآه يصور ما يتمناه الرسول وشغل باله قبل المعركة، ولا يصور حقيقة عدد جيش المشركين.

المرحلتين الأولى والثانية من مراحل أحداث المدينة، التي تحث المسلمين على الاستعداد للمعركة التي كانت مرتقبة مع قريش، لأن الأخبار تواترت بأن مشركي مكة عازمون على مهاجمة المسلمين في بيوتهم. ولما تأكد خروج جيش قريش من مكة متجهاً للمدينة مع الطريق المعروفة التي تربط بينهما، قرر المسلمون ملاقاة قريش بعيداً عن مساكنهم وعائلاتهم. فخرج الرسول والمسلمون سالكين الطريق الدولية المؤدية إلى مكة وهم يعلمون أنهم سيتقابلون مع قريش في نقطة ما. وبالفعل التقى الجيشان بالقرب من آبار بدر التي يستقي منها عابرو الطريق الدولية ودارت المعركة هناك.

انقلاب الموازين

في بدر اشتبك المسلمون مع مشركي قريش في أهم معركة في التاريخ. إذ إن نتيجتها تحدد بقاء الإسلام وميلاد أول دولة إسلامية، أو زوال الإسلام من سطح الأرض وإبادة المسلمين.

وفي ذلك اليوم، وخلال وقت قياسي قصير، ألحق جيش المسلمين الضعيف والقليل العدد، بجيش مشركي قريش، القوي في كل شيء، إلا في المعنويات، هزيمة أليمة، لم تتعاف منها قريش أبداً. لقد سحقت كبرياء قريش، التي قدمت للمدينة بصورة السيد الذي سيعاقب عبده (المسلمين) الأبق. وكانت تشعر بأنها ليس فقط تتفوق عددياً وتسلحاً، بل إنها تتفوق نفسياً وبدون مقارنة. لأن كثير من المسلمين عبارة عن عبيد سابقين وموالي مستضعفين اعتادوا الخنوع وعدم القدرة على الوقوف في وجه السيد (قريش). لذا لم يخطر على بال أكثر المتشائمين من قريش أن تحل الهزيمة بهم على أيدي عبيد الأمس ومستضعفي مكة ويثرب. لكن جرأة المسلمين في القتال نتيجة معنوياتهم المرتفعة ـ والتي لم تتوقعها قريش ـ أدت لانهيار معنويات المشركين، ولم يفيقوا من الصدمة إلا ومن بقي منهم حياً يهرولون فارين بأرواحهم قبل أن تتخطفها سيوف بلال وعمار وخباب وابن مسعود، تاركين وراءهم عتادهم وركابهم وجثث قتلاهم.

وقد قتل عدد كبير جداً من سادة قريش ـ بالنسبة لمجموعهم العام ـ تقول كتب السير والأخبار إنه بلغ سبعين رجلاً من خيرة كبراء مكة. والهزيمة انطوت على أكثر من خسارة الرجال والعتاد، فقد أحدثت في نفسيات قريش جرحاً غائراً، لم يندمل مع الأيام. واستمر ينزف تبعات هدت جسد أهل مكة حتى أنهكته، وأجبرت كبراءها على استسلام مهين لمستضعفيها وعبيدها السابقين بعد سنوات قليلة من هذه المعركة.

أما المسلمون فقد مثلت بدر مولد جديد لدولة الإسلام التي ولدت ضعيفة هزيلة في المدينة بعد الهجرة، وذلك قبل أشهر من هذه المعركة، وها هي تولد من جديد بروح معنوية وثقة عالية لأفرادها الذين خلعوا أردان الذل وتذوقوا للمرة الأولى ثوب العزة والتمكين.

ولم يعد مقبولاً الآن من المسلمين التفكير بالتردد في قتال العدو، أو التراخي عن القتال أو الهرب من المعركة، كما كان حالهم قبل بدر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿١٦﴾.

وقتال الكفار لم يأت لأن المسلمين أرادوا ذلك ورغبوا فيه. فقد حدثتنا سور سابقة عن وضع المسلمين قبل بدر وكيف كانوا لا يرغبون في الحرب، لكن الله جل شأنه مهلك الكافرين الذين يحاربون دينه، كسنة مرت على كل الأمم، وهلاك كبراء قريش وقادة الصد عن الدين وحرب المسلمين، جاء علي أيدي المسلمين في الحرب. فقتلهم كان لمشيئة الله، وما سيوف المسلمين إلا أداة لتنفيذ هلاك الكبراء. كما أن الزلازل والبراكين أداة لهلاك قوم لوط، والطوفان أداة لهلاك قوم نوح: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴿١٨﴾.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب لقريش قائلة: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٩﴾﴾.

لقد قدمتم للمدينة للقضاء على المسلمين، كفتح ونصر لكم، كنتم تظنون أنه في متناول أيديكم دون عناء. لكن الفتح والنصر تحول للمسلمين عليكم، ولم تغن عنكم قوتكم ولن تغني عنكم مستقبلاً في صراعكم مع المسلمين. والخيار الأفضل لكم هو أن تنتهوا عن حرب المسلمين ومطاردتهم وصد غيركم عن الإسلام. وإن غلبت عليكم شقاوتكم وعدتم لحرب المسلمين فسيكون ذلك وبالاً عليكم.

وانقلبت الموازين، بعد المعركة. فأصبح المسلمون في موقف القوة وأصبحت قريش في موقف أضعف. وقد نقص عدد كبراء قريش بشكل ظاهر بسبب من قتل منهم، بينما كان عدد المسلمين يزيد كل يوم، وسرعان ما ستجد قريش نفسها هي الجانب الأضعف عدداً وعتاداً ومعنويات.

ما بعد المعركة

بعد نهاية المعركة تتوجه الآيات لقريش: ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ﴿٣٨﴾﴾.

وإن لم تنتهِ قريش واستمرت في عدائها للمسلمين فيجب على المسلمين قتالهم بكل قسوة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٤٠﴾﴾

وتحدثنا السورة عن ردة فعل المنافقين ف يالمدينة بانتصار المسلمين على قريش الذي لم يخطر لهم على بال: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٩﴾﴾.

وتستمر الآيات لتتوعد المنافقين: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴿٥٥﴾

إستراتيجية المستقبل

السورة تتحدث عن أن معركة بدر سببها تكرار قريش نقضها لمعاهدات سلام بينهم وبين المسلمين: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿٥٧﴾.

والسورة تأمر الرسول بالاتصال بقريش وترغيبهم في عقد سلام مرة أخرى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴿٥٨﴾ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴿٥٩﴾.

في ذات الوقت على المسلمين أن يكونوا بكامل جاهزيتهم للحرب، وأن يكون جيشهم كامل التسليح، لأن قريش لا يمكن أن يركن إليها وقد تنقض معاهدتها مع المسلمين، كما سبق وفعلت قبل بدر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴿٦٠﴾.

فإن أبقت قريش على معاهدة السلام فعلى المسلمين احترامها وعدم

التعرض للمشركين: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦١﴾﴾.

وإن تبين أنهم يريدون خداع المسلمين فليحذر المسلمون وليكونوا على أهبة الاستعداد دائماً، وليتذكروا أنه بسبب الدخول في الإسلام فقد ائتلفت قلوب فئتين من المسلمين كان بينهما عداء تاريخي، وأصبحوا يشعرون فيما بينهم بروح الأخوة في الإسلام: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٦٣﴾﴾[1].

وتشير السورة إلى أنه كان هناك عدة معاهدات سلام بين المسلمين وقريش، وكانت قريش تنقض المعاهدات باستمرار. وبسبب عدم احترام قريش لتلك المعاهدات، حدثت معركة بدر، التي لم تكن لحرب قريش بسبب بقائهم على الكفر. وبعد المعركة يبدو أن هناك معاهدة سلام جديدة أبرمت بين الرسول وقريش، وقد أمرت الآيات الرسول أن يتصل بقريش ويحذرهم من التفكير بنقض تلك المعاهدة، لأن نقضها يعني إعلان الحرب بين قريش والمسلمين.

كما أنه على المسلمين إعداد العدة للحرب بكل الوسائل، من عتاد ومدد وسلاح ونفقة، وإذا ما وجب القتال فعليهم أن يتعاملوا مع العدو في ميدان المعركة بكل قسوة وغلظة لكي يرهب الدخول معهم في حرب مستقبلاً. وفي ذلك حقن للدماء، فالمسلمين لا يبحثون عن القتال، ولكنه فرض عليهم واجبروا للدخول فيه. وإذا كان لابد من القتال فليكن عنيفا لدرجة سحق الخصم وإضعاف قوته، لئلا يعاود الحرب مرة أخرى.

وإذا أعلن العدو رغبته في السلم، فيجب على المسلمين القبول مع الحذر

---

(١) قد يكون المقصود هنا الأوس والخزرج، دون أن تملك أي دليل على هذا.

والحيطة، لأن قريش نقضت المعاهدات عدة مرات في السابق، ومع ذلك فدولة الإسلام تقبل السلم لأنها لا تبحث عن الحرب.

وتوقيع معاهدة سلام مع قريش لا يعني أن يهمل شأن الجيش، بل يجب أن يكون هناك تسليح واستعداد كامل طوال الوقت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴿٦٥﴾ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴿٦٦﴾.

ولو تعرضوا لهجوم أو أجبروا على دخول قتال في أي وقت فعليهم الإقدام، دون اعتبار لكثرة العدو أو تفوقه عتاداً. لأن هذه العوامل لا يجب اعتبارها مبرراً لطلب الصلح مع عدو مهاجم أو التراجع عن القتال، مع جواز تأجيل الحرب، حتى تكتمل استعدادات المسلمين وعددهم.

ثم تتحدث الآية ٧٢ عن أن هناك مسلمون بقوا في مكة ولم يهاجروا، وعليه فقد فرضت بعض الواجبات على دولة الإسلام لهم ولمن هو في وضع مشابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿٧٢﴾.

والآية تقول:

من بقي في مكة وهو قادر على الخروج فليس له حقوق على دولة الإسلام.

كل من يعيش من المسلمين في دولة معادية مختاراً فليس له حقوق على دولة الإسلام.

لو استنصر المسلم الذي يعيش في دولة معادية، دولة الإسلام، فعلى المسلمين نصرته.

نصر من يعيش في دولة معادية من المسلمين، يكون بمعاونته على الهجرة لدولة الإسلام أو دولة صديقة يستطيع ممارسة شعائر دينه بحرية.

فإن منعته الدولة الغير مسلمة من مغادرة أراضيها وجب على دولة الإسلام إخراجه بالقوة عن طريق إعلان الحرب على تلك الدولة.

الفرد المسلم يوازي الكل، وعدم نصرة مسلم واحد مثل عدم نصرة الكل، وفيه فتنة له عن دينه، والفتنة عن الدين فساد عظيم أمام الله: ﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴿٧٣﴾.

الفرد المسلم تكفل دولة الإسلام حقوقه أينما عاش.

تعقد معاهدات مع الدول الصديقة تكفل حرية العبادة وممارسة الشعائر للمسلمين بكل حرية.

وتختم السورة الحديث بالثناء على من هاجر وجاهد، وعلى من أسلم من يثرب وآوى المهاجرين وناصرهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٧٤﴾.

كما تشير إلى هجرة بعض مسلمي مكة بعد غزوة بدر، سواء بسبب خوفهم من انتقام قريش، أو ثقتهم بمستقبل دولة الإسلام: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٧٥﴾.

موقف المنافقين في المدينة

لقد كان المنافقون يراهنون على نهاية الإسلام وسحق المسلمين في بدر، لكن نتيجة المعركة أصابتهم بخيبة أمل. فقد انتصر المسلمون واندحر مشركو

قريش، فعاد المنافقون للمدينة وهم غير مصدقين، وكانوا يتناجون فيما بينهم أن ما حدث هو مجرد صدفة، وأن المسلمين مقضي عليهم لا محالة، فلا يغرنهم انتصارهم الغير متوقع في بدر: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٩﴾﴾.

وقفة

في سورة محمد التي سبقت معركة بدر، فرض قانون حربي ينص على وجوب قتل أكبر عدد ممكن من المشركين، لأن قريش أكثر عدداً من المسلمين، وقتل أكبر عدد منهم إضعاف وإثخان لهم. ولا يؤسر منهم أحد إلا في معركة يكون المسلمون متفوقون عدداً وعتاداً: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴿٤﴾﴾ محمد.

هذا القانون الإلهي عمل بعض المسلمين على مخالفته في معركة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٦٧﴾ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾﴾ الأنفال.

والذين أقدموا على مخالفة قانون سورة محمد، وأسروا مشركي قريش ولم يقتلوهم، هم ممن سميناهم مسلمة قريش، الذين بدأوا موالاة مشركي قريش قبل الهجرة، وكرهوا الدخول في حرب مع قريش بعد الهجرة، والذين حاولوا إقناع الرسول بالدخول في محادثات مع قريش بدل الحرب، مع أن

قريش هي من طردت المسلمين في مكة، وهي من لاحقتهم بعد هجرتهم للمدينة.

والآيات تذكر بقانون سورة محمد «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ». وتبين سبب إقدام مسلمي قريش على أسر أقاربهم، لأنهم يوالونهم ولا يريدون قتلهم «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ». وقد تجاوز الله جل جلاله عن ذلك، بما أن المعركة انتهت بهزيمة قريش وقتل عدد كبير منهم «لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

ومسلمة قريش تابعوا مخالفاتهم للوحي، كما فعل بنو إسرائيل زمن موسى قبلهم. الذين طالبوا موسى باتخاذ أصنام، ثم اتخذوا العجل، ثم امتنعوا عن دخول القرية المقدسة. وقد قال الله فيهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿٧٥﴾ البقرة.

وهو ما ينطبق على مسلمة قريش، الذين ستستمر مخالفاتهم للوحي وسيتسببون بمشاكل للمسلمين ودولته طوال عصر الرسول وبعد موته.

سورة الحديد

السورة الثانية من سور هذه المرحلة الواقعة بين بدر وأحد، وأهم الأحداث التي تظهرها هذه السورة ما يلي:

ليس كل المسلمين يؤدون الإنفاق

الصورة الناصعة عمن يسمون «الصحابة» في كتب السير والتاريخ لا وجود لها على أرض الواقع، فنحن نتعامل مع أشخاص أبعد ما يكونوا عن الإصغاء للرسول وإتباع أوامر القرآن. ولعل الإنفاق من أهم الأوامر القرآنية التي لم تجد لها آذان صاغية بين كثير من المسلمين زمن الرسول، قد يكون لأنها تدعو

الناس لبذل أموالهم للخير دون مقابل، وهو ما لم يعتادوه في ثقافاتهم الماضية. والمال زينة الحياة الدنيا[1] ويصعب على النفس البشرية التخلي عنه طواعية. لذا جاءت سورة الحديد، مثل سور كثيرة غيرها، تحث المسلمين على الإنفاق وتؤكد لهم أنه لا إيمان بدون إنفاق، وأن الإنفاق قرض لله سيرده للمؤمن﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١٢﴾.

وتقول السورة إن المال الذي بين يدي الناس هو أمانة استخلفهم الله عليها ليرعوها حق رعايتها وينفقوها بما يجب أن تنفق فيه، وأفضل إنفاق في تلك الفترة، هو ما يكون في سبيل الله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴿٧﴾.

وتخاطب الآيات المسلمين قائلة: إن دخولكم الإسلام يعني توقيع ميثاق وعهد مع الله، يتمثل بطاعة كل أوامره والانتهاء عن كل ما نهى عنه. فكيف تريدون أن تكونوا من المؤمنين وأنتم لا تطيعون أمر الله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿٩﴾.

وبدون الموارد المالية لا يمكن تجهيز وتسليح الجيش. لكن كل هذه النداءات القرآنية، وهذه الحقائق على أرض الواقع لم تؤثر في بعض من أعلن إسلامه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿١٠﴾.

---

(١) ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ الكهف٤٦.

وتبين الآية أن المسلمين كانوا منقسمين حيال قتال العدو والإنفاق على الحرب، إلى عدة فرق:

١ . أناس أنفقوا قبل الفتح (غزوة بدر) وقاتلوا، وسينفقون ويقاتلون على الدوام، وهؤلاء هم المتقين حقاً.

٢ . أناس لم ينفقوا مع قدرتهم على الإنفاق، واشتركوا في القتال.

٣ . أناس لم ينفقوا يوم بدر ولم يقاتلوا.

٤ . أناس أنفقوا بعد بدر ومستعدين للقتال والإنفاق مستقبلاً، وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم.

ونحن نعرف أن بعض من امتنع عن الإنفاق كانوا من مسلمي مكة الذين يوالون أقاربهم المشركين واستمروا يقيمون علاقات ودية معهم، وحرصوا على أسرهم يوم بدر، حفاظاً عليهم من القتل. كما امتنع عن الإنفاق بعض من أعلن إسلامه من يثرب، لكنه لم يؤمن، وهؤلاء إما من الأعراب حول يثرب أو من المنافقين من داخلها، وهم المعنيون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿١٥﴾.

فالمنافقون في المدينة كانوا ينتسبون للإسلام ويقومون بالفرائض لكنهم لا ينفقون، لأنهم لم يؤمنوا بالفعل بحقيقة الدين، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر «وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ».

والآيات تكرر تحذير المسلمين من الامتناع عن الإنفاق حتى لا تتشابه أوضاعهم مع أوضاع أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴿١٦﴾.

هكذا كان الوضع بوجه عام في الفترة بين بدر وأحد، وصاحب ذلك احتباس المطر.

القحط أصاب المدينة بعد بدر

إذا كانت وأُحد وقعت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ـ كما في كتب السير والتاريخ ـ فهو يوافق شهر مارس لعام ٦٢٥ جريجوري، أي في فصل الربيع. والآية السابقة تشير إلى أن المطر قد شح في شتاء ذلك العام، وأصيبت البلاد بالقحط. ويثرب كمعظم مناطق شبه الجزيرة العربية تنزل فيها الأمطار القليلة غير المنتظمة في فصلي الخريف والشتاء، مما يؤدي إلى نمو الأعشاب في فصلي الشتاء والربيع. ونمو الأعشاب والحشائش يعني أعلافاً للماشية وكلأ، يؤدي إلى وفرة الحليب، الذي يمكن بيعه، ومن الحليب يصنع الكثير من المنتجات التي تعتبر مصدر دخل، وإذا ما توفر الحليب كَثُرت الولادات وقَلّت الوفيات بين الماشية، وارتفعت أسعارها.

ولأن الأمطار ليست منتظمة، فقد تشح في بعض السنوات مما يؤدي إلى عدم نمو الحشائش التي تقتات عليها الماشية وبالتالي تصاب بالهزال وتتدنى أسعارها ويقل إنتاج الحليب وتموت صغارها، ويتضرر أصحابها. وهذا ما حدث في الفترة التي تلت غزوة بدر. مما أدى ببعض أصحاب المواشي من مسلمي يثرب أن يتباطأوا في الإنفاق وينضموا للقائمة السابقة للممتنعين. فجاءت آيات سورة الحديد تخاطبهم، قائلة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿١٧﴾.

إن احتبس المطر هذا العام فقد يأتي في عام قادم، وتُحيي الأرض بعد موتها، والخسارة المادية لهذا العام قد تعوض في عام قادم، لكن الامتناع عن

الإنفاق ذنب لا يغفره إنفاق العام القادم. والإنفاق تجارة رابحة مع الله مضمونة لا تعتمد على المطر وليس لها موسم: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴿١٩﴾.

وإذا كنتم تباطأتم عن الإنفاق خوف الفاقة، فتذكروا أن الدنيا كلها سرعان ما تزول، مثلما زالت حشائش الأعوام السابقة التي نمت بفعل المطر، فكيف تحرصون على الزائل، بينما لو أنفقتم فسيكتب لكم أجر ومكسب دائم: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٢١﴾.

ومن الواضح أن المسلمين خسروا محاصيلهم نتيجة القحط، وهي مصيبة حلت بهم بالمقاييس الدنيوية. لكن عليهم أن يتذكروا أن احتباس المطر وهطوله نتيجة لقوانين وضعها الله في الكون. أي أن المطر يتوقف بإذن الله (أي لعدم توفر الظروف المناسبة لهطوله) وينزل بإذن الله (أي بتوفر الظروف المناسبة لهطوله).

فإذا عرف المسلم ذلك هانت عليه مصيبة فقدان المحصول واحتسبه عند الله، ولم يتوقف عن الإنفاق، بل أنفق لكي يزرع له محاصيل ثابتة يوم القيامة.

وإذا ما عرف المؤمن أن كل مباهج الدنيا (الأموال والأولاد) كزرع سرعان

ما يصفر وتذروه الرياح، فلن يتباهى بما يملك ولن يكون زيادة ماله مدعاة للفخر، ولا نقصه مدعاة للحسرة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿٢٤﴾.

والدولة في حالة حرب مع العدو الذي قد يهاجمها في أي لحظة، ويجب أن يكون المسلمون مستعدين له. ولا يمكن للمسلمين مواجهة العدو بدون جيش جاهز التسليح، ولا يمكن تجهيز الجيش بدون إنفاق، لأن الإنفاق يؤمن المال اللازم لشراء السلاح من سيوف ودروع ورماح. والله جل جلاله أرسل الرسل بالحق لإقامة حياة كريمة للناس، كما أنزل الحديد الذي يصنع منه السلاح وأدوات كثيرة يستخدمها الناس في الحرب والسلم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٢٥﴾.

وفي تلك الظروف الحرجة كان أهل الكتاب يحاولون نشر دعاية بين المسلمين أن الإنفاق يؤدي لضياع المال بلا مقابل، وأن مسلمي يثرب لولا ما يتلقونه من أجور نظير عملهم لديهم لأصابتهم الفاقة. فجاء رد القرآن بأن التكافل بين المسلمين كفيل بغنى المسلمين في الدنيا والآخرة دون الحاجة لأجر أهل الكتاب أو عونهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٢٩﴾.

سورة التغابن

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿٤﴾.

افتتاح مشابه لافتتاح السورة السابقة، قبل الاستمرار بالحديث عن نفس موضوع القحط الذي بدأته سورة الحديد السابقة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٨﴾.

سورة التغابن تكرر الحديث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق بسبب شح المطر ونقص الموارد، وتقول إن ما أصابهم فهو بأمر من الله، لأن المطر ينزل بناءً على تضافر ظروف مناخية ملائمة، قد لا تتوفر في مناخ الصحراء في بعض السنوات، كما حدث في يثرب تلك السنة، وتسبب بضيق العيش. لكن هذا يجب ألا يثني الناس عن الإنفاق، لأن دولة الإسلام تعتمد عليه في بقائها وفي تسليح جيشها: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٣﴾.

وتبين السورة أن تأخر بعض مسلمي يثرب عن الإنفاق يعود لاحتجاج أبنائهم وأزواجهم، الذين يرون أن ميزانيتهم مجهدة من شح الموارد لتلك السنة، ولو أنفقوا فسيكون وضعهم المادي أصعب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٨﴾.

وهذه الحديث تكرار لما سبق وذكر في الآيات (١٦ ـ ٢٤) من سورة الحديد.

حيث تخاطب سورة الحديد المؤمنين متسائلة عن عدم استجابتهم لدعوة الوحي لهم (بالإنفاق كما سيتبين)، وتحذرهم من أن يشابهوا اليهود (في عدم الإنفاق): ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴿١٦﴾.

وتؤكد لهم أن المطر يأتي بمشيئة الله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿١٧﴾.

وأن الإنفاق قرض حسن يضاعفه الله في الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴿١٩﴾.

وأن التفاخر بالأموال والأولاد من العبث، لأنه سريع الزوال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴿٢٠﴾.

ولن يبق للآخرة إلا ما يقدمه المرء من إنفاق: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴿٢١﴾.

وما يؤكد ما جاء في الآية (١٧) من أن المصيبة كانت في المنتجات الزراعية بسبب شح المطر، هو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴿٢٤﴾

فالمؤمن لا يأسى على ما فاته (من محصول)، ولا يفرح بما يحصل عليه منها عند توفر الغيث. ولا يتفاخر بها ولا يصيبه منها الكبر والخيلاء. فإن فقدها صبر، وإن حصل عليها أنفق منها على احتياجات الدولة.

ونعود لآيات سورة التغابن التي تتحدث عن نفس الموضوع، قائلة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١﴾.

فالمؤمن يجب ألا يحزن لخسارة المحصول، أو أي خسارة دنيوية أخرى.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٣﴾.

ويجب ألا يكون الشح في الموارد سبب في عصيان أمر الله والرسول بالامتناع عن الإنفاق.

وتواصل الآيات: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً

﴿لِأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١٨﴾

آمرة المسلمين بالإنفاق قدر المستطاع «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

والسمع والطاعة لأمر الله ورسوله ففي الأمر بالإنفاق خير «وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

مع تكرار التأكيد على أن الإنفاق قرض حسن يضاعف الله لصاحبه الأجر يوم القيامة في حياة أبدية لا تنتهي كالدنيا.

والآية (١٤) تؤكد أن الأزواج والأولاد إذا كانوا يحرضونكم على عدم الإنفاق، بطريق مباشر أو غير مباشر، فهم أعداء لكم وليسوا ناصحين، لأن عدم الإنفاق يؤدي للنار. فلا تطيعوهم وفي نفس الوقت لا تعاقبوهم أو تغضبوا عليهم بل اعفوا واصفحوا وتفهموا مشاعرهم من الخوف من العوز.

أما الآية (١٥) فتؤكد أن التعلق بالأولاد وتلبية مطالبهم، وصعوبة التفريط بالمال من طباع البشر التي يجب أن يعود المسلم نفسه على ألا تفتنه عن الإنفاق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٥﴾.

سورة الطلاق

الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه السورة هو الطلاق كما هو اسمها، وهو استمرار لما ورد بداية في سورة البقرة.

إلا أن الآيات الأخيرة في السورة تحذر المسلمين من عصيان كلام الله، حتى لا يشابهوا الكفار، ويكون مأواهم النار مثلهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ

عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴿١٢﴾.

مرحلة ما بعد أحد



لقد نزل في هذه المرحلة ثلاث سور، هي: آل عمران، البينة، والتحريم. وفيما يلي تفاصيل الأحداث التي ذكرت في هذه السور:

سورة آل عمران

إذا كانت سورة الأنفال هي سورة غزوة بدر، فإن آل عمران هي سورة غزوة أُحد. لأن آياتها تحدثت عن عدة مواضيع كلها لها علاقة بأحد، كما يلي:

تقديم

يأتي التقديم للحديث عن معركة أحد في الآيات (١٠ ـ ١٣)، حيث تقول السورة إن الذين كفروا، وتعني بهم قريش، لن تنفعهم أموالهم وأولادهم وسيدخلون النار مثل فرعون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿١١﴾﴾.

وإن كانوا قد انتصروا على المسلمين في معركة واحدة، فسيكسب المسلمون الحرب معهم في النهاية، ويوم القيامة مأواهم النار: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿١٢﴾﴾.

وتذكر الآيات المسلمين بنصر الله لهم في بدر، وكيف بث الله الرعب في نفوس الكفار ونشر الطمأنينة بين المسلمين، والعوامل النفسية هامة جدا لكسب المعركة: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴿١٣﴾﴾.

ثم تبين الآيات عدداً من الأسباب ـ قبل وأثناء المعركة ـ والتي كانت وراء هزيمة المسلمين في أحد، كما يلي:

أسباب ما قبل المعركة

لقد كان هناك عدة عوامل وجدت قبل المعركة، ساهمت في الهزيمة، ومن أهمها:

الإنفاق

تقول الآيات (١٤ ـ ١٧) إن الأولاد والنساء والأموال هي أكثر ما يؤخذ بألباب الإنسان في الدنيا، لكن من يؤمن بالآخرة فسيعلم أنها لا تساوي شيئاً

بالنسبة لنعيم الجنة، لذا ترخص في نظره ويسارع بالإنفاق في سبيل الله:
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴿١٧﴾.

وذكر النساء والأولاد في الآيات السابقة، يشير إلى ما سبق وتحدثت عنه الآيات (١١ ـ ١٨) من سورة التغابن التي نزلت قبل المعركة، والتي تقول أن امتناع بعض المسلمين عن الإنفاق لتجهيز الجيش، جاء بإيحاء من أزواجهم وأولادهم، لأن الدخل كان قليلا ولو أنفق منه على الجيش فسينقص عن الوفاء بمتطلباتهم.

كما سورة الحديد بمجملها تتحدث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق على تجهيز الجيش لمعركة أحد، بسبب شح الأمطار في ذلك العام وقلة الدخل.

ويفهم من آيات آل عمران والحديد والتغابن أن الإنفاق على تجهيز الجيش المسلم قبل أحد لم يكن كافيا، وبالتالي فهو أحد أسباب هزيمة المسلمين في تلك المعركة. فالجيش يجب ألا يدخل حرباً إلا بعد أن يكتمل تجهيزاً، عدة وعتاداً.

التنافر وعدم الانسجام

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٢٢﴾.

هاتان الآيتان تظهران أنه أثناء تنظيم الرسول لجند المسلمين في الميدان استعدادا للقتال، حدث خلاف بينهم حول المواقع والتمركز، وتطور الخلاف لدرجة أن فئتين من المسلمين كادتا تنسحبان من أرض المعركة. والانسجام يعني العمل كفريق واحد، وهو عامل هام جداً ومطلوب للجيش كي ينتصر. وقد دخل المسلمون المعركة وتركيزهم مشتت، والاستعداد النفسي والانسجام مواز في أهميته للعدة والعتاد، ودخول الجيش للمعركة وهو ناقص التسليح الفعلي أو النفسي يعرضه للهزيمة.

العامل النفسي

الآيات (١٢٣ ـ ١٢٩) تذكر المسلمين بوضعهم في معركة بدر، وكيف كانوا قلة ضعيفة بالنسبة لجيش قريش، ومع ذلك انتصروا بفضل الاستعداد النفسي الذي كان ناجحاً، وكان هو العامل الحاسم في نصر المسلمين في تلك المعركة. وقد أنزل الله سكينته عليهم لأنهم كانوا مستعدين نفسياً، ومعنوياتهم عالية جداً، وألقى الرعب في نفوس أعدائهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٢٩﴾﴾.

أما في أحد فقد كان الوضع على العكس تماماً.

فبرغم أن جيش المسلمين كان أكثر عدداً مما كانوا عليه في بدر، إلا أن معنوياتهم كانت ضعيفة، وهو سبب هام آخر أدى للهزيمة.

ولم تنزل عليهم ملائكة لتحل عليهم السكينة لأنهم نفسياً لم يكونوا مستعدين. وهذه نقطة هامة، تؤكد أن على المسلمين معاونة أنفسهم وتهيئة جيوشهم بكل ما يستطيعون مادياً ونفسياً وأسلحة، وسيأتي بعد ذلك دور إحلال السكينة والطمأنينة بواسطة جند الله الملائكة.

استغلال الحرب للمتاجرة

يبدو أن بعض المسلمين كانوا ينظرون لحرب المسلمين مع أعدائهم من زاوية بعيدة عن الهدف الإسلامي لدخول الحرب. فقد كانوا يجهزون ويسلحون غيرهم من المجاهدين الخارجين لأحد، على أن تعاد قيمة التجهيزات مع فوائد في وقت لاحق، مستغلين الحرب للمتاجرة بالربا. فنزلت الآيات تحذرهم للمرة الأخيرة ـ بعد أن حذرتهم في البقرة[1] ـ عن التعامل بالربا تحت أي ظرف، وتقول إن من يؤمن بالآخرة فعليه أن ينفق. والإنفاق عكس الربا، إذ إنه بذل للمال أو العين دون توقع استرجاعه بفوائد أو بدون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٣٤﴾.

والآيات واضحة الدلالة على ما كانت عليه هذه الفئة من المسلمين، الذين ينظرون للحرب على أنها فرص للكسب، وليست للذود عن دولة الإسلام وحماية الدين. وبالتالي فالدافع للقتال ضعيف عندهم، لأنهم لا يرغبون في الموت ويحبون الحياة والمال.

---

(١) الآيات ٢٧٥ ـ ٢٨١

أسباب أثناء المعركة

ومثلما أن هناك عوامل قبل المعركة أدت للهزيمة، فهناك أحداث وقعت أثناء المعركة، منها:

نزاع بين المسلمين

لقد تحدثت سور الممتحنة (١ ـ ٩، ١٣)، محمد (١٦ ـ ٣٨)، إضافة للأنفال، عن إبقاء بعض مسلمي مكة على علاقة ود وموالاة لأقاربهم من المشركين، ومحاولاتهم ألا يدخل المسلمون في قتال ضد قريش. ولما أصبحت معركة بدر حقيقة لا مناص عنها، كادوا أن يتأخروا عن الخروج، وعندما التحم جيش المسلمين مع العدو، كانوا يقومون بأسر رجال قريش بدل قتلهم، مخالفين أمر الله بأن يثخن المسلمون عدوهم أولاً وذلك بقتل أكبر عدد منهم، ولا يكون الأسر إلا في المعارك التي يكون فيها تفوق المسلمين العددي واضح.

وفي سورة آل عمران التي نتناولها، يأتي التحذير لهؤلاء بأن من يصر منهم على علاقته بالمشركين فليس من الله في شيء، حتى لو أخفاها على الرسول والمسلمين: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ﴿٣٠﴾.

وعندما بدأ القتال في أحد، كان النصر في بداية المعركة للمسلمين، وبدأت جنود قريش بالتقهقر والانهزام، عندها حدث نزاع بين المسلمين. طائفة تقول إنه يجب مطاردة فلول الأعداء وقتل أكبر عدد منهم، حتى ينهك

العدو ويضعف، كما أمرت سورة الأنفال، وهذا الفريق كان في مقدمته رسول الله. وفريق آخر وقف ضد تنفيذ ذلك بحجة أنهم هزموا وهذا هو المهم، ولا حاجة لقتلهم، وهؤلاء كانوا مسلمي قريش الموالين للمشركين.

وهذا الجدال الذي حدث في أرض المعركة، لاحظه المشركون. فالتفوا عليهم وأعملوا فيهم السيف، مما أصابهم بالارتباك، الذي أدى لفرار غالبيتهم من أرض المعركة تاركين خلفهم رسول الله وطائفة من المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ.... ﴿١٥٣﴾.

وعندما بدأ المسلمون بإعادة ترتيب أوضاعهم والعودة للمعركة، أُشيع أن رسول الله قد قتل، فسارع عدد كبير منهم بالهرب من أرض المعركة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴿١٤٥﴾.

والرسول بالفعل أصيب أثناء المعركة، كما توحي الآيات، التي تقول للمسلمين: الدين لله، والدفاع عن دولته واجب في كل الأحوال والأوقات، وما محمد إلا رسول فقط، ولو قتل أو مات فلا يعني أن الناس تترك الدين أو تتخلى عن الدعوة له، أو حماية دولته والدفاع عن وجوده، أو محاربة أعدائه.

ويكون مسلمة قريش مع المرابين من مسلمي يثرب، من أهم الأسباب التي أدت للهزيمة في أحد، وذلك لتنافر مواقفهم مع مواقف بقية المسلمين، قبل المعركة وأثنائها.

ومن المهم هنا تذكر ما قالته كتب السير والتاريخ عن أن ترك رماة الرماح أماكنهم ونزولهم للسهل الذي وقعت فيه المعركة تحتهم، للحصول على الغنائم مع غيرهم، هو سبب خسارة المسلمين للمعركة، وكأن كل من وجد شيئاً من الغنائم فهي له.

وهذا هو ما ترسخ في تراثنا، ولم يعد مجالاً للشك ولا للنقاش. لكن لو عدنا لسورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر، وقبل هذه المعركة، أحد، لوجدنا أنها قد سنت قانوناً خاصاً يتم بموجبه توزيع الأسلاب والأنفال، وأبطلت قانون الجاهلية القاضي بتملك كل شخص ما يستولي عليه منها. كما أن آيات سورة آل عمران واضحة في الحديث عن أن المسلمين اختلفوا فيما بينهم «حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ».

ويكون سبب الهزيمة المباشر هو الخلاف الذي وقع بسبب محاولة مسلمة مكة ثني بقية المسلمين عن ملاحقة جيش الأعداء المنهزم وإعمال السيف فيهم، مما أدى لنزاعهم ولاحظ المشركون ذلك فارتدوا عليهم وأحاطوا بهم، مما أربك المسلمين وأدى لهرب الكثير منهم وانهزامهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ...... ﴿١٥٢﴾.

نتائج وعبر

بعد أن وقعت المعركة وخسرها المسلمون، وقتل عدد منهم جاءت الآيات لتقييم ما حدث:

العلاج النفسي

لعل أول ما كان يحتاجه المسلمون بعد الهزيمة هو رفع المعنويات وشحذ الهمم وحثهم على الصبر والاستعداد للتضحية في قادم الأيام لرفعة دين الله:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴿١٤٣﴾.

لقد كان وقع الهزيمة في أحد على المسلمين عظيماً، وأصابهم اليأس والحزن. وكان عليهم أن يتذكروا أن الأيام دول، وأنهم وإن خسروا معركة، فالخاتمة في النهاية هي انتصارهم بالحرب الدائرة بينهم وبين قريش.

وقد كان المسلمون يتمنون أن يلاقوا كفار قريش لينتقموا مما لاقوه منهم من تعذيب وطرد من مكة، لكن لما كتب عليهم القتال، حزنوا وأحبطوا من أول خسارة. والمعارك خسارة وفوز، والخسارة درس يستفاد منه لتفادي الأخطاء وليس مجالاً للحزن والأسى. كما أن الصبر على المحن جزء من الجهاد.

وتستمر الآيات تحث المسلمين على أن يكون شعارهم في القتال هو نصرة دين الله، ولا شيء سواه. والصبر على المحن والشدائد، وعدم التخاذل أو الضعف أو الهرب من المعركة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴿١٤٨﴾.

كسب الحرب مضمون للمسلمين

في وقت كانت المعنويات متدنية والحزن يعم المعسكر المسلم نتيجة هزيمتهم في أحد وقتل عدد كبير منهم، تأتي الآيات لتؤكد لهم أن النصر في

النهاية سيكون حليفهم في هذه الحرب ضد قريش: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴿١٥١﴾.

والله وعد المسلمين إن هم أخلصوا النية له وقاتلوا الكفار فسوف يلقي الرعب في قلوب أعدائهم وسينزل السكينة عليهم وسينصرهم. وقد صدق الله جل وعلى وعده للمسلمين في بدر، وفي أحد أيضاً. فبرغم أن جيش المسلمين ليس مسلحاً كما يجب، وبرغم الخلافات بين أفراده في أرض المعركة، وبرغم السلبيات الكثيرة والحالة النفسية الضعيفة التي كان عليها المسلمون، إلا أنهم استطاعوا في بداية المعركة أن يهزموا المشركين ويجبروهم على الهرب. إلا أن الشجار الذي حدث بين المسلمين حول ملاحقة الكفار أدى إلى أن يستغل المشركون الوضع ويكروا عليهم ويهزموهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٥٣﴾.

تعامل الرسول مع المسلمين بعد المعركة

كان الرسول متسامحاً معهم ولم يوبخ أحداً على هروبه، كما لم يؤنب الفريقين المتنازعين من المسلمين أثناء المعركة، ولم يلق باللوم على أحد للهزيمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴿١٥٩﴾.

والآية تؤكد على الرسول أن يستفاد مما حدث في أحد للمستقبل، وأن ترسم خطط المعركة بالتشاور بين المسلمين، ومتى ما اتفقوا تنفذ.

ما يجب على المسلمين

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿١٦٠﴾.

على المسلمين أن يخلصوا نيتهم لله، ومتى ما خلصت النيات لله، وخرج المسلمون للقتال تحت شعار الدفاع عن الدين فسينصرهم الله على عدوه وعدوهم. وعلى المسلم أن يتوكل على الله ويثق أنه سيكسب الحرب مع الكفار، ولو خسر معركة من المعارك.

الفرار من المعركة لا مبرر له

لا يوجد مبرر للمسلم يجيز له الفرار. إذ إنه إن قتل فله الجنة، وغاية المسلم في قبوله للإسلام هو دخول الجنة. لذا فمن قتل في المعركة فهو مدعاة للفرح وليس الحزن، وإن لم يمت وانتصر على العدو ففيه نصر لدين الله وإنهاك للعدو ودفاع عن دولة الإسلام: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ﴿١٥٨﴾.

وفي مكان آخر من السورة، تذكر الآيات المسلمين أن من يقتل في سبيل الله، فارقوا هذه الحياة الفانية التي سيموت الناس جميعهم فيها لسبب أو لآخر، لكن المقتولين في المعركة سيدخلون الجنة وسينعمون بحياة أبدية من السعادة. فهم لم يخسروا شيئا ولم يفقدوا شيئا بتركهم الدنيا، بل هم أحياء بالفعل. لأن من يموت هو من يخرج من الدنيا للنار، لأنه خسر الدنيا والآخرة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٧١﴾.

المعارك تمحيص للمواقف

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴿١٨٦﴾﴾.

فالقتل ونقص الأموال بالإنفاق وسماع الدعايات المغرضة وعبارات التثبيط والتشكيك من بني إسرائيل والمشركين كلها امتحان للمسلمين لمعرفة المؤمن من المنافق.

تحذير لمسلمة قريش

برغم أن هذه الفئة من المسلمين قد حذرتهم الآيات من موالاة المشركين قبل الهجرة وبعدها، وقبل معركة بدر، إلا أنهم استمروا بموالاتهم لمشركي قريش. فنزلت الآيات بعد معركة أحد تحذرهم من الاستمرار بموالاة أقاربهم المشركين، والذي كان من نتائجه تصرفاتهم في المعركة والتي كانت أحد أهم أسباب هزيمة المسلمين في أحد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴿١٥٠﴾﴾.

مشاعر مخالفة لمفهوم الجهاد

مسلمة قريش أفصحوا بعد المعركة عن مشاعرهم الدفينة المعارضة لحرب أقاربهم المشركين، وذلك بإعلان عدم جدوى هذه الحروب التي فرضت عليهم قتال أهلهم وقبيلتهم. وصرحوا بأنه لو وافق المسلمون على رأيهم الرافض لحرب قريش منذ البداية، لكان بالإمكان إيجاد حل سلمي بين الطرفين، ولو تم هذا فسيكون القتلى قد بقوا على قيد الحياة بيننا ولم يموتوا، فنزلت الآيات تنهاهم عن هذا الشعور الذي يوحي بعدم إيمان من قال به بمغزى الجهاد والدفاع عن دين الله ودولته: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً

نُعاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١٥٦﴾.

ويفهم من الآيات السابقة أنه يجب مطاردة فلول العدو والتأكد من خلو أرض المعركة منهم.

وقفة مع المفسرين

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴿١٦١﴾.

يقول صاحب تفسير الجلالين إن الآية «نزلت لما فقدت قطيفة حمراء يوم أحد فقال بعض الناس: لعل النبي أخذها (وما كان) ما ينبغي (لنبي أن يَغُل) يخون في الغنيمة فلا تظنوا به ذلك».

وهذا الكلام لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالمعركة انتهت بهزيمة المسلمين، وبالتالي فقريش هي من استولى على الغنائم وليس المسلمين. ثم إن يغل تعني يظلم ولا تعني يسرق أو يستولي بخفية. فالرسول لم يكن ليظلم أصحابه. إضافة إلى أن سورة الأنفال وضعت قوانين واضحة وصريحة في كيفية توزيع غنائم الحروب. ولكنهم ـ المفسرون ـ شوهوا الإسلام وشخص الرسول، بسوء نية، من عند أنفسهم أو نقلاً عن غيرهم.

أعداد قتلى المسلمين في أحد

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٦٥﴾.

من هذه الآية يمكن أن نفهم أن خسائر المسلمين من القتلى في أحد لم تكن بعدد قتلى قريش في بدر، بل إنها لا تزيد عن النصف «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا».

فإن طاوعنا كتب السير والتاريخ في زعمهم أن قتلى قريش في بدر كانوا سبعين، فإن قتلى المسلمين في أحد كانوا في الثلاثين.

المنافقون وأحد

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٦٨﴾.

كان هناك منافقون، لم يخرجوا مع المسلمين لأحد، ولم ينفقوا على تسليح الجيش المسلم. وقد استغلوا فرصة هزيمة المسلمين، وبدأوا يلومون المسلمين على الخروج للحرب، ويقولون لو لم يخرجوا لما قتل من قتل منهم، ولما هزموا وخسروا متاعهم ولما أصابهم ما أصابهم.

صورة عامة عن مواقف المسلمين

الآيات (١٧٢ ـ ١٨٠) تعطي صورة إجمالية للمواقف المختلفة لأنواع المسلمين من أحد، كما يلي:

* كان هناك أناس صادقون في إيمانهم. تقبلوا الأوضاع منذ البداية بكل

صبر، ولم يرتعبوا قبل المعركة لما علموا بقدوم قريش ومن عاونها «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». كما لم يقنطوا ولم يحبطوا لما خسروا المعركة، لعلمهم أن الله معهم وأن النصر سيكون حليفهم في النهاية.

وهؤلاء بعضهم من مسلمي مكة وبعضهم من مسلمي يثرب من أهل الكتاب والأوس والخزرج والأعراب.

* البعض ممن أعلن إسلامه في يثرب، عندما خرج المسلمون لملاقاة قريش في أحد، أعلنوا ردتهم وخروجهم من الإسلام «وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ».

* البعض ممن أعلن إسلامه امتنع عن الإنفاق لتسليح وتجهيز جيش المسلمين، وهؤلاء مصيرهم جهنم، ولو استمروا بالتظاهر بالإسلام.

وهذا نص الآيات: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٧٥﴾ وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٧٧﴾ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿١٧٩﴾ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن

فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴿١٨٠﴾.

وتستمر الآيات لتبين الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ..... ﴿١٩٥﴾.

وتقول الآيات إن هناك فئات من المسلمين هم من وعدهم الله بالغفران والجنة، ومن هؤلاء من هاجر من مكة وجاهدوا في سبيل الله مخلصين النية لله:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴿١٩٥﴾.

وهناك فئة أخرى هم من آمن من بني إسرائيل في يثرب:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴿١٩٩﴾.

وكل من آمن وأخلص نيته لله من غير هؤلاء فله مغفرة من الله: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴿١٩٨﴾.

أما من أعلن إسلامه وهو لم يؤمن فمصيره مصير الكافرين:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴿١٩٧﴾.

وختام تقرير النتائج والعبر يأتي بنص آخر آية في سورة آل عمران:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٢٠٠﴾.

ردة فعل بني إسرائيل

بعد أن انجلت معركة أحد كانوا يتحدثون في مجالسهم أنهم أغنياء، وأن من يصفون أنفسهم بجند الله ـ يقصدون المسلمين ـ كان ربهم فقير لدرجة لم يستطع تسليحهم كما يجب لينتصروا في المعركة: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴿١٨٤﴾.

والآيات تحذر بني إسرائيل وتتوعدهم لموقفهم المعاند لدعوة الإسلام، وتقول لهم الآية التالية إن العبرة في نتيجة الحساب يوم القيامة، أما الحياة الدنيا فسرعان ما تزول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴿١٨٥﴾.

وبنو إسرائيل نسوا دين الله واتبعوا تشريعات بشرية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴿١٨٧﴾.

وهم يحبون المديح لأنفسهم، ويتباهون بما يملكون من مال، فلا تظن يا محمد أنهم سينجون من عذاب الله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٨٨﴾ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿١٨٩﴾.

سورة البينة

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴿٨﴾.

نزلت السورة بعدما اتضحت الصورة في أن من لم يسلم من بني إسرائيل لن يسلم أبداً، مثلما هو الحال مع من لم يسلم من مشركي قريش. وليس أدل من ذلك على ردة فعل بني إسرائيل المعلنة بعد هزيمة المسلمين في أحد.

والسورة تقول لبعض المسلمين المتعاطفين مع بني إسرائيل: إن كان عند أحد منكم شك في أنهم سيؤمنون بالله، فلينته هذا الشك الآن. لأن من يؤمن بالله، عليه أن يتبع رسوله ويؤمن بكتابه.

وتقسم السورة الناس قسمين: مسلمين، وكفار (مشركين وأهل كتاب)، وتقول إن من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.

ونزول هذه السورة وقبلها الإخبار عن ردة فعل بني إسرائيل مقدمة لفضح دسائسهم ومعاونتهم أعداء الإسلام.

سورة التحريم

في مجملها تتحدث عن مشاكل عائلية بين الرسول وزوجاته، تظهر أن الرسول قد انفعل بسبب موقف مع زوجاته فأقسم يميناً ألا يفعل شيئاً مباحاً أبداً، فجاءت الآيات تقول بأنه لا يجوز له تحريم ما أحل له، وأن عليه أن يتحلل من يمينه بكفارة اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٨٩﴾ المائدة.

ولا ندري هل أطعم الرسول عشرة مساكين أو كساهم، أو أنه لم يجد فصام ثلاثة أيام؟

وقد تحدثنا عما جرى بين الرسول وأزواجه في الفصل الخاص بمحمد، فقرة «عدد أزواجه».

والسورة نزلت في هذه المرحلة وقبل سورة الأحزاب، بدليل أنها تتحدث عن إمكانية أن يطلق الرسول ويتزوج: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴿٥﴾.

بينما حرم عليه الزواج أو طلاق أي من زوجاته في سورة الأحزاب: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴿٥٢﴾.

ومن أهم ما ذكر في السورة هو إعلان الحرب على الكفار والمنافقين، بكل غلظة ودون هوادة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٩﴾.

وإعلان الحرب على الكفار محصور في قريش، وليس كل من لم يؤمن

بالإسلام. لأنهم هم من لاحق المسلمين في المدينة وهم من هاجموهم في أحد. وسيستمرون في حرب المسلمين حتى يقضوا عليهم وعلى الإسلام، إن استطاعوا. لذا وجب قتالهم حتى يقضى عليهم، إضافة لقتال كل من عاونهم على حرب المسلمين.

ويبدو أن قريشاً قد أعلنت نكثها للمعاهدات المبرمة مع المسلمين التي تحدثت عنها سورة الأنفال بعد بدر. والدليل هو مهاجمتها للمسلمين عند أحد.

ولأن قريش لن تتوقف عن حرب المسلمين ولن تلتزم بأي معاهدة معهم وجب سحقها، وهو ما يتوافق مع ما ورد في سورة الأنفال التي نزلت بعد معركة بدر، حيث عرضت عليهم السلام: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينِ﴿٣٨﴾.

وإن لم تنته قريش واستمرت في عدائها للمسلمين فيجب على المسلمين قتالهم بكل قسوة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴿٤٠﴾.

حتى يتم سحقهم نهائياً، لأنهم لن يجنحوا للسلم أبداً وسيبقون يكيدون للإسلام والمسلمين.

مرحلة ما بعد الأحزاب

نزل في هذه المرحلة ثلاث سور هي: الأحزاب، النور، والمنافقون. وكلها تتحدث عن غزوة الأحزاب التي سماها المؤرخون «الخندق»، والأحداث المصاحبة لها أو وقعت في تلك الفترة. وسنستعرض كل سورة على حده:

سورة الأحزاب

تتناول السورة غزوة الأحزاب كموضوع رئيسي، لكنها تتحدث عن مواضيع أخرى حدثت في تلك الفترة. وفيما يلي مواضيع السورة بتسلسل متوافق مع تسلسل الآيات:

التبني

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴿٥﴾﴾.

الآيات تقول إنه مثلما كان الظهار منتشراً بين الناس، وهو لا أساس له، ولا يُحوّل الزوجة إلى أم بمجرد قول الزوج: «أنت عليّ كظهر أمي»، فإن القول بالتبني لا يحول الطفل المتبنى إلى ولد للرجل المتبني.

وقد كان الناس يلحقون الابن بالتبني بأنسابهم، فجاءت الآيات تقول إن مجرد إلحاق المتبنى بنسب رجل آخر لا يجعله والده البيولوجي، لذا يجب أن يلحق المتبنى بنسب والده الحقيقي، فإن لم يكن معروف الأب فهو أخ لمن يتبناه في الإسلام. وما سبق مقدمة لتناول حادثة وقعت في تلك الفترة بالمدينة. حيث كان الرسول قد تبنى طفلاً في مكة اسمه زيد[١]، تناولتها كتب السير بتفاصيل يصعب الركون إليها.

فمن حيث النسب، هم يوردون لزيد نسب طويل جداً يوصله إلى كلب ثم قضاعة ثم إلى قحطان، كما يوردون لأمه نسب مماثل يوصلها لطي ثم قحطان. وهذه الأنساب الطويلة والموغلة في القدم لا سبيل للتأكد من صحتها، كما أن إيرادها بهذه الدقة المبالغ فيها يجعل الشك يحوم حول اختلاقها.

كما اختلفوا كيف حصل عليه[٢] الرسول، فمرة يقولون: إن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة، وأهداه لخديجة، التي أهدته لزوجها محمد، الذي أعتقه ثم تبناه.

ومرة يقولون: أن حكيم ابن حزام ابن خويلد قد اشتراه من سوق عكاظ، وليس من الشام.

ومرة أخرى يقولون: إن الرسول هو من رآه بالبطحاء بمكة ينادى عليه ليباع، فأتى خديجة فذكره لها، فاشتراه من مالها، فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه.

وأكاد أجزم أن كل هذه القصص مختلقة، لأنها متناقضة، مثل تناقض إيراد

---

(١) تقول كتب السير والتاريخ إنه زيد بن حارثة، كان حكيم بن حزام بن خويلد قد اشتراه من سوق عكاظ مع الرقيق، وأهداه إلى عمته خديجة ـ زوج الرسول ـ فتبناه الرسول وأصبح يسمى زيد بن محمد.

(٢) استخدمت عبارة «حصل عليه» لتتوام مع الكيفية التي كان الناس يتعاملون بها مع الرقيق، فهم يعتبرونهم بضاعة يبيعونها ويشترونها ويحصلون عليها.

نسب طويل له يلحقه بقضاعة وقحطان، ثم يصفونه بقولهم: «كان زيد رجلا قصيراً، أسمرَ، أفطس الأنف».

لأن هذه الصفات تنطبق على رجل أسود من أصل زنجي، ولا يمكن أن تنطبق على رجل عربي سليم النسب لكلب فقضاعة ثم قحطان.

ولكي يتأكد القراء أن كل ما نقلته كتب الأخبار عن ابن الرسول بالتبني ليس صحيحاً، وأنه ليس ابن حارثة، وأن تسمية زوجته بزينب بنت جحش ما هو إلا محض اختلاق، تعالوا نحلل بعض المعلومات التي قالوها عن زيد هذا باختصار:

يقولون إن زيد بن حارثة مات سنة ٨ للهجرة في معركة مؤتة، وعمره خمس وخمسين سنة. أي أن عمره عندما هاجر الرسول كان ٤٧ سنة، وبما أن الرسول حسب زعمهم هاجر وعمره ثلاث وخمسون سنة، فإن فارق السن بين الرسول وزيد كان ست سنوات فقط.

وحسب زعمه فالرسول تزوج خديجة وعمره خمس وعشرين، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، أي عندما كان عمر الرسول خمسين سنة. والرسول تبنى زيد، كما يقولون، في حياة خديجة، ولنقل قبل وفاتها بعامين، عندما تأكد لها أنها لن تنجب للرسول ولد. وكان عمر الرسول ٤٨ سنة، وعمر زيد ٤٢ سنة. فهل يعقل أن يتبنى الرسول رجلاً بعمر ٤٢ وقريباً من سنه؟

وحتى لو افترضنا أن الرسول تبنى زيد في السنة الأولى من زواجه بخديجة، أي عندما كان عمره ٢٥، حسب زعمهم، فإن عمر زيد سيكون ١٩ سنة. أي أنه رجل بالغ عاقل. وحتى لو كان رقيقاً واشتراه الرسول أو غيره وأعتقه الرسول، فلا يمكنه تبنيه وهو في تلك السن، لأن العتق والتبني يكون للأطفال، والعتق فقط يكون للرجال.

ولن نتتبع كل ما قاله الإخباريون عن زيد، ولن نسلم به، وما يهمنا من أمره، هو أن محمداً قد تبنى طفلاً في مكة عندما تبين له أنه لن ينجب. وكونه

لا ينجب أكدته سورة الأحزاب التي بين أيدينا: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴿٤٠﴾﴾ الأحزاب.

وكان رجال قريش يعيرونه بالأبتر الذي لا عقب له: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴿٣﴾﴾.

وتبني محمد للطفل زيد كان فعلاً غير منكر، في بيئة اعتادت على التبني، وقام بإلحاقه بنسبه، كما يفعل الناس. وأصبح يسمى زيد ابن محمد، واستمر كذلك منذ تبنيه في مكة، وحتى نزول سورة الأحزاب في المدينة.

وسنفترض أن الرسول تبناه في السنة التي بعث فيها، وعمره حينها عشر سنين. ليكون عمره عند الهجرة ٢٣ عاماً، وحوالى ٢٨ عاماً عندما طلق زوجته، وتزوجها بعده رسول الله. وفي هذه الحالة فلا علاقة له بزيد بن حارثة المشهور.

والسورة تقول إنه عندما حدث بين زيد وزوجه شقاق انتهى بالطلاق، حاول الرسول، بحكمه والده بالتبني، أن يثنيه عن الطلاق، لكن الطلاق تم، وانفصل زيد عن زوجه التي أصبحت حاضرة للزواج برجل آخر. فشعر الرسول بانجذاب للمرأة وتمنى أن يتزوجها، لكنها بالنسبة له مطلقة ابنه، وبالتالي فلا يجوز له الزواج بها عرفاً. فنزلت الآيات التالية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴿٤٠﴾﴾.

والآيات لابد أنها تتحدث عما سيكون، أي أن الرسول لم يتزوج مطلقة زيد قبل نزول هذه الآيات، وإنما كان يتمنى لو فعل. فنزلت الآيات تقول له تزوجها، لأن التبني إلحاق النسب ما ليس فيه، وما هو إلا اصطلاح اخترعه الناس «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ». ولا يحول الابن بالتبني لولد بيولوجي. والاعتراض على إلحاق المتبنى بالنسب لأن النسب يترتب عليه تحريم التزاوج بين الأقارب، وأحكام الإرث، وأمور أخرى.

ومحمد ليس له أن يكون أبا أحد من رجالكم، فالله لم يجعله كذلك، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين. لذا لم يرزق الرسول بأولاد ذكور يحملون نسبه من بعده، وهذا فيه حكمة بالغة. فلو كان للرسول أبناء فإن الناس سيغالون في تقدير نسل رسول الله لدرجة التعظيم. ولعل ما نراه من تعظيم لنسل علي بن أبي طالب بحجة أن زوجته كانت بنتاً لرسول الله خير دليل. مع أن المرأة لا تحمل النسب ولا تورثه لأبنائها.

الأحزاب - قوات التحالف

الأحزاب تعني بلغة هذا العصر، اصطلاحاً قريباً من «قوات التحالف». فهي قوة مؤلفة من عدة جيوش من قبائل وشعوب مختلفة اتفقت فيما بينها لغزو المسلمين، نصرةً لقريش.

وقبل الأحزاب، خاض المسلمون معركتين حربيتين ضد قريش، انتصروا في الأولى نصراً صريحاً، ومذلًا لقريش. وخسروا المعركة الثانية بطريقة غير متوقعة، بعد أن كانوا منتصرين، بسبب نزاع بينهم أثناء المعركة. وقد اتفق الطرفان المتنازعان على عدة معاهدات عدم اعتداء، لكن قريش لم تلتزم بها. مما أعطى دلالة واضحة على أن قريش لن تسمح للمسلمين بالعيش بسلام، وستعمل كل ما تستطيع للقضاء على دولتهم.

وفي يثرب كانت غالبية بني إسرائيل (من يهود ونصارى) قد وقفت موقف

العداء للإسلام، وكانت تتمنى زواله، وتتعاطف مع قريش ضد المسلمين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾ ٥١ النساء.

كما كان هناك فئة لا تتمنى الخير للمسلمين، وتود أن ترى دولتهم وقد زالت من الوجود، وهؤلاء ممن أعلنوا إسلامهم من قريش وبني إسرائيل والأعراب والأوس والخزرج، لكنهم لم يؤمنوا، والذين سماهم القرآن بالمنافقين.

ومع أن معركة أحد قد خسرها المسلمون إلا أنها لم تثن من عزائمهم، ولم تضعف دولتهم. لأن الآيات التي نزلت بعد المعركة كشفت لهم أسباب الهزيمة، وأظهرت لهم مواقف الناس منهم، ومن يعادي الإسلام ودولته. سواءً ممن لم يؤمن من بني إسرائيل والأعراب، أو أولئك الذين يعلنون إسلامهم وما هم بمسلمين. وهو ما ساهم بسرعة تجاوز المسلمين لآثار الهزيمة، واستفادتهم مما حدث. فأصبحت دولة المسلمين أكثر قوة مما كانت عليه، وأفرادها أشد تلاحماً، واستعداداً لملاقاة أعدائهم، بعكس أماني بني إسرائيل والمنافقين الذين كانوا قبل معركة أحد يراهنون على زوال تلك الدولة.

الجو العام في المدينة قبل الغزوة

عندما علم المسلمون بتوجه جيش الأحزاب للمدينة، أصيب بعضهم بحالة من الهلع والرعب والانهيار التام، وأيقنوا أنه مقضي عليهم لا محالة. وسرت بينهم حالة من الهستيريا الغير طبيعية، لدرجة وصفها القرآن بقوله: «وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا»، كما ورد في الآية العاشرة من سورة الأحزاب.

وهذه المشاعر تخالف ما وصلوا إليه من استعداد نفسي لمواجهة الشدائد،

فهم يعلمون أنهم محاطون بالأعداء، وأن قريشاً مستمرة بحربها لهم. ولن يكون مفاجئاً لهم لو أن قريشاً حشدت جمعاً معها من القبائل وهاجمت المسلمين في أي لحظة.

فلماذا أصيبوا بهذا التوتر والقنوط المفرط، بمجرد سماعهم توجه الجيش إليهم، وقبل أن يروه؟

كما أن حفر الخندق دلالة على أن المسلمين متيقنين أنه لا قبل لهم بالجيش الغازي، وأن عليهم أن يحموا المدينة بطريقة أكثر فاعلية من القتال؟

تساؤلات كثيرة تجعلنا نقول إن المسلمين شعروا أن الجيش القادم لحربهم لا يشبه جيش قريش في بدر وأحد. ولو كان جيش الأحزاب كما تقول كتب الأخبار، مكون من قريش ومن عاونها من القبائل لكان شبيهاً بجيش قريش في المعركتين السابقتين، حتى لو كان أكثر عدداً، ولن يصاب المسلمون بالهلع لدرجة دخل الشك قلوب بعضهم من الإسلام «وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا».

ولقد استعانت قريش بقبائل كثيرة خرجوا معها لحرب المسلمين في أحد، كما تقول كتب الأخبار، وخرج المسلمون لملاقاتهم، دون وجل. وفي كلا المعركتين السابقتين ـ بدر وأحد ـ كان جيش المسلمين أقل عدداً من جيش العدو، لكن هذا لم يشعرهم بما شعروا به من قنوط عند سماعهم بتوجه جيش الأحزاب للمدينة وقبل أن يروه.

وكلما اقترب وصول جيش التحالف للمدينة كلما انهارت المعنويات أكثر، لدرجة أن المنافقين استأذنوا الرسول بالرجوع للمدينة وترك بقية المسلمين يحفرون الخندق، بحجة أن بيوتهم عورة، وهم في الحقيقة عازمون على الهرب بعائلاتهم حتى لا يقضى عليهم مع المسلمين: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴿١٣﴾﴾.

وفيما يلي الآيات التي تصف ما حدث:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴿٩﴾ إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ (من الشمال والجنوب) وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن

يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴿٢٧﴾.

فشل الهجوم على المدينة

لقد كانت الخطة تقضي بأن تبدأ قوات التحالف بالهجوم على المدينة من جهة الشمال ـ حيث حفر الخندق ـ وإذا ما انشغل المسلمون بحربهم، خرج اليهود من حصونهم في جنوب يثرب، وهاجموا المسلمين. فيرتبك جيش المسلمين وينهار لوقوعه بين كماشتين قوات التحالف من الشمال واليهود من الجنوب، وبالتالي يقضى عليهم عن بكرة أبيهم «إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

لكن قوات التحالف عندما وصلت لمشارف المدينة فوجئت بالخندق يحول بينها وبين الوصول للمسلمين، فعسكرت الجيوش على طول الخندق وبمحاذاته من الجهة الشمالية، في محاولة للبحث عن منفذ للتسلل إلى المدينة. لكن انتظارهم طال إلى أن هبت عليهم ريحاً صرصرا عاتية في إحدى الليالي، بعثرت عدتهم ونفرت خيولهم ومطاياهم، فتفرق شملهم وارتدوا على أعقابهم دون أن ينالوا من المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴿٩﴾.

وفي صبيحة اليوم التالي عاد المسلمون للمدينة، بعد تأكدهم أن جيش التحالف قد انفرط عقده وهرب جنده لا يلوون على شيء.

وما نقلته لنا كتب التاريخ عن الأحزاب لا يمكن الركون إليه، لذا سنقدم

فيما يلي تصورنا عما حدث، دون أن نستطيع تأكيده تأكيداً مطلقاً، معتمدين على إعادة لقراءة الآيات، ووضع الافتراضات، كما يلي:

تاريخ موقعة الأحزاب

يقول الإخباريون إنها حدثت في السنة الخامسة للهجرة، لكن هناك من يقول إنها حدثت في السنة الرابعة، أي بعد سنة من غزوة أحد، مثل الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة. وأجدني أميل لهذا القول لسببين هامين، هما:

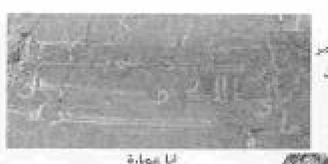
١. أنه بعد غزوة أحد مباشرة نزلت سورة المائدة، التي تتحدث في مجملها عن أحد. وبعد المائدة مباشرة نزلت سورة الأحزاب، وليس هناك في سورة الأحزاب ولا المائدة أي حديث عن أحداث وقعت بين الغزوتين، مما يدل على أنه لم يكن بينهما وقت طويل.

٢. عثرت على موقع في الإنترنت اسمه Islamic Awareness[١]، يعرض كتابات ونقوش عربية قديمة، ومن بينها صور نقوش محفورة على صخرتين في جبل سلع، الذي عسكر فيه الرسول وصحبه للبدء بحفر الخندق، والكتابات تدل على أن من كتبها هم أصحابها أو أحدهم كتبها بحضورهم. ويقدر علماء الآثار تاريخها إلى أنه يعود للعام٦٢٥ جريجوري، الموافق للعام الرابع الهجري، كما ذكر الموقع.

ويمكن قراءة الحالة النفسية الصعبة التي كان عليها المسلمون أثناء تواجدهم في جبل سلع لحفر الخندق، وانتظارهم لوصول العدو المرعب، من الكلمات التي كتبت على الصخرة الأولى والتي كتبناها بجانبها، ونصها: «أمسى وأصبح عمر وأبو بكر يتضرعان إلى الله من كل ما يكره».

---

(١) www.Islamic-awareness.org



أمسى وأصبح عمر
وأبو بكر يتضرعان
إلى الله من كل
ما يكره

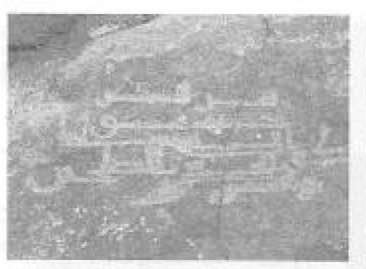


أنا عمارة
بن حزم أنا
ميمون ...
أنا محمد بن
عبد الله أنا مـ ....
بن عوسجة
أنا خلف
أنا سليمن الأحمر أنا ..
أنا سهيل ابن ...
أنا معقل الجهني
استعـ
بالله
أنا .....
أنا سعد بن معد
...ابن ع...أنا
أنا علي بن أبو طلب
مـ محمد

فقد كانا في قلق دائم ويتضرعان لله صباحاً ومساء بألا يقع لهما وللمسلمين ما يتوجسان وقوعه.

أما الصخرة الثانية فقد كتب عليها بعض الأسماء، ومن الواضح أنها كتبت بحضور أصحابها، في الوقت الذي كانوا يحفرون الخندق. وهو ما يؤيد أن غزوة الأحزاب كانت في السنة الرابعة للهجرة، وأن كتب التاريخ والسير ليست دقيقة كما هي في الغالب.

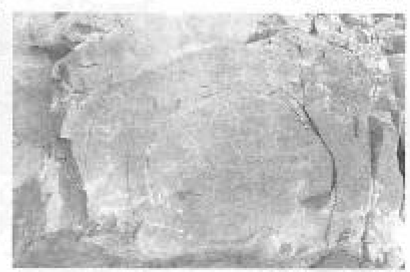
وقد ذهبت بمعية ابن أخت لي إلى المدينة وصعدنا جبل سلع يوم الاثنين ٢٨/٢/١٤٣٠ الموافق ٢٣/٢/٢٠٠٩، وتفقدنا المكان الذي كانت فيه الكتابات فوجدناها قد أبيدت، نتيجة لما تعرض له الجبل من تجريف. لكننا عثرنا على كتابات إسلامية، تشبه الكتابات المنشورة أعلاه والموجودة على النت، وهذه صور ما وجدنا:



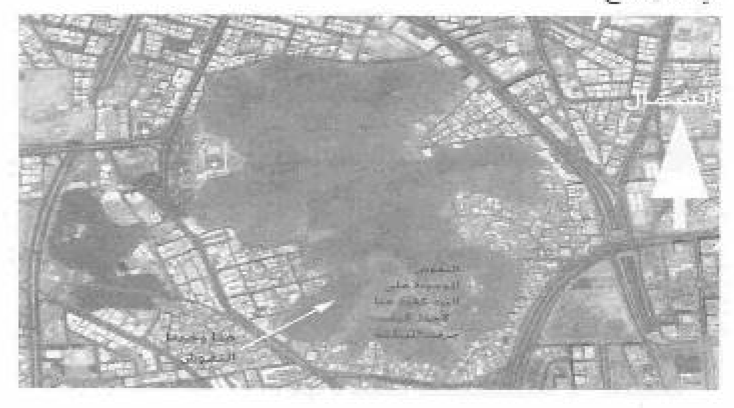


كما عثرنا على صخرة أخرى تبدو عليها آثار التخريب والتكسير المتعمد لما كتب عليها:





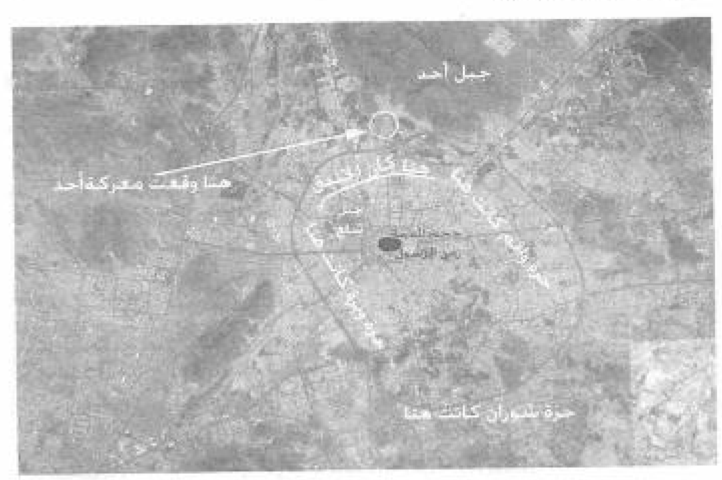
وهذه صورة فضائية من قوقل إيرث للمكان الذي عثرنا فيه على النقوش في جبل سلع:



والتدمير المتعمد طال كل الآثار الإسلامية وما قبل الإسلامية في المدينة، لدرجة أن الخرائط المنتجة حالياً للمدينة لا تحمل رمزاً للآثار ضمن قائمة مصطلحاتها، لأنه لم يعد هناك آثار في مهد الإسلام. فمكان غزوة أحد أصبح مساكن وشوارع عامة، والخندق الذي يقول الإخباريون إنه بطول يصل إلى ٥٠٠٠ ذراع لا يمكن الاستدلال على مكانه بعد أن امتد العمران إليه. حاله حال كل الآثار وما له علاقة بالتاريخ.

وكان واجب المسلمين وضع مكة والمدينة كأكثر الأماكن في العالم حماية، تحفظ شواهدها وآثارها الإسلامية والبشرية قبل الإسلام وبعده. وإن كان ولا بد من التوسع في العمران فليكن بعيداً عن المناطق الأثرية. لكن ما حدث هو أن القريتين تعرضتا لأكبر عمليات التخريب والهدم للآثار، بشكل يبدو مقصوداً. كما حولتا إلى منافستين لدبي وهونج كونج في البنايات الشاهقة التي حجبت الشمس عن سماء المسجد الحرام ومسجد رسول الله.

وهذه صورة فضائية من قوقل إيرث للمدينة في الوقت الحاضر، وقد استبدلت الآثار بالمباني:



الجيش المرعب من أين جاء؟

جيش الأحزاب الذي هاجم المدينة لم يكن مكوناً من قبائل عربية كما يقول المؤرخون، وإن كان بينهم رجال من قريش وقضاعة وأفراد من قبائل أخرى. لأن الجيش الذي أرعب المسلمين قدم من مكان بعيد، ويمتلك عتاداً يفوق ما كان متوفراً في جزيرة العرب، وفيما يلي بعض النقاط التي تبين القناعات التي بنينا عليها هذا الظن:

* المدينة تعرضت لهجوم من الأحزاب (قوات التحالف) اشتركت فيه قريش وآخرين. وكانت الحملة هائلة، والجيوش جرارة تفوق ما هو متعارف عليه في جزيرة العرب، بمقاييس ذلك العصر. بدليل أن المسلمين، وقبل أن يصل الأحزاب للمدينة استشعروا حجم هذه القوات وقدراتها وعتادها، الذي يستحيل أن يكون لهم قبل بمواجهته، فقاموا بحفر الخندق.

وفي تاريخ جزيرة العرب، لم يحدث أن اجتمع جيش مكون من رجال عشر قبائل أو أكثر، لحرب قبيلة أو أناس من جزيرة العرب، ولم يجتمع مثل هذا العدد من القبائل في حرب ولا حتى يوم ذي قار[١]، لذا فقول الإخباريين إن جيش الأحزاب بلغ عشرة آلاف مقاتل كلهم من قبائل عربية قريبة من مكة والمدينة غير مقبول، لأن أعداد القبائل كان بالمئات وليس بالآلاف. وهذا المثنى بن حارثة الشيباني الذي كان يغير على الفرس ويستولي على غنائم منهم قبل الإسلام، عندما سأله أبو بكر عن عدد مقاتلي قبيلته، قال مباهياً بكثرتهم التي يتفوقون بها على غيرهم من القبائل: «إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألفٌ من قلة».

(١) يوم انتصر فيه جيش مؤلف من قبائل عربية على جيش من الفرس قبل الإسلام، والقبائل هي: بني شيبان من بكر بن وائل وعجل ويشكر والنمر بن قاسط وبني ذهل، ومعهم رجال من تميم وقيس عيلان. وهي المرة الوحيدة التي هزم فيها جيش عربي جيش فارسي قبل الإسلام، كما أنها أول مرة يجتمع مثل هذا العدد من القبائل في معركة واحدة ضد عدو مشترك.

فهو يرى أن الألف عدد استثنائي في القبائل العربية في ذلك الوقت، ولا يمكن أن يتوفر إلا في النادر، وفي قبيلة هائلة العدد مثل قبيلته. هذا في حال سلمنا أن المثنى عدهم بالفعل، وهو لم يفعل، ولكنه قدر عددهم الذي لابد أنه كان أقل. لأن العرب لا يجيدون التعامل مع الأرقام بدقة، ولا يعتمدون على الإحصاء الدقيق، وإنما يعتمدون على التقديرات. لذا نجد أنهم يقولون إن جيش فتح مكة ١٠ آلاف وجيش الأحزاب ١٠ آلاف، وهم لم يقوموا بإحصاء دقيق لأي من الجيشين.

وقد بينا استحالة أن يكون جيش المسلمين لفتح مكة بذلك العدد في كتابنا سنة الأولين، وبالنسبة للأحزاب فقد يكون الجيش الغازي أقل أو أكثر من عشرة آلاف، لكن الرقم الذي ذكره المؤرخون العرب جاء تقديراً، ليظهر ضخامة العدد، ولم يأت نتيجة تعداد وإحصاء.

* كما أنه من الصعب تصور أن تجتمع عدة قبائل لحرب المسلمين، في وقت لم يكن بين تلك القبائل والمسلمين عداء أو حروب، وإن كان هذا لا ينفي أن تكون قضاعة وقبيلة أخرى أو أكثر قد انضم منها أفراد لقريش من باب الحمية، أو طلباً للغنائم.

* ولو افترضنا أن كل تلك القبائل التي ذكرها المؤرخون، بالفعل اجتمعت على حرب المسلمين، فلن يخيفوا المسلمين بالدرجة التي صورها القرآن. لأنه مهما اجتمع من تلك القبائل فلن يكون بعشرات الألوف، وإن فاق عدد جيش المسلمين. ولو افترضنا أن هناك خمس قبائل وكل قبيلة حشدت ٣٠٠ مقاتل فسيكون جيش الأحزاب لا يزيد عن ألف وخمس مئة رجل، فيما يستطيع المسلمون جمع بضع مئات، وبالتالي فمن المتيسر، ولو لم يكن من اليسير، على المسلمين مواجهة جيش يبلغ ضعفي عددهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ

مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ٦٥ الأنفال[1].

* ولو افترضنا جدلاً أن جيش الأحزاب يتكون من قريش والقبائل التي ذكرها المؤرخون، فلن يستغرق وصولهم المدينة أكثر من أسبوع إلى عشرة أيام، وليس مدة طويلة تمكن خلالها المسلمون من حفر خندق استغرق شهر ونصف كما يقول بعض المؤرخين، أو أربعة وعشرين يوماً، كما يقول الواقدي (١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ)، الذي يصفه في المغازي، بقوله: «وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً».

وإذا أضفنا لهذه المدة عدة أيام سبقت الشروع بالحفر، قضاها المسلمون في التفكير فيما يفعلون، وقبلها عدة أيام سبقت وصول خبر الأحزاب لمهاجمة المدينة، وأيام أخرى قضاها المسلمون يتحرون عن صدق الأخبار، فهذا يعني أن الأحزاب احتاجوا لفترة تزيد عن الشهر للوصول للمدينة، وقد تصل لشهرين، حسب بعض الروايات.

* ولو أخذنا ما يقوله الواقدي في المغازي عن الخندق، وأنه بطول خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه ما بين سبعة إلى عشرة أذرعه. فسيكون المسلمون قد حفروا ما مجموعه ٣٤٠ ألف ذراع مكعب، نتيجة ضرب طول الخندق في عرضه في معدل عمقه. ويقول الواقدي أن كل عشرة رجال من الصحابة قد قاموا بحفر أربعين ذراعاً، بعرض تسعة أذرع، وعمق سبعة إلى عشرة أذرع، في ٢٤ يوماً. أي أن الرجل الواحد حفر ما معدله ٢٧٢ ذراعاً مكعباً. وهو ما يعني أن هناك ١٢٥٠ رجل كانوا يعملون في وقت واحد في حفر الخندق من بدايته إلى النهاية. ولن نقف عند عدد الرجال الذي لا يمكن أن يتوفر للمسلمين في تلك الفترة، ولكننا نقول:

---

(١) الأنفال نزلت بعد معركة بدر، وبالتالي فهي سابقة لموقعة الأحزاب.

إذا كان الذراع يساوي نصف متر تقريباً، فإن طول الخندق سيكون ٢٥٠٠ متر، وعرضه ٤,٥ متر، ومعدل عمقه ٤,٢٥ متر. وإجمالي ما تم حفره ٤٧٨١٢ متر مكعب. أي أن الرجل الواحد حفر ما معدله ٣٨,٢٥ متر مكعب، في ٢٤ يوماً. أي بمعدل ١,٦ متر مكعب يومياً. وهذا يقرب من المستحيل في أرض صخرية صلدة، ومعدات بدائية، وكلما زاد عمق الحفر زادت الصعوبة. كما أن الحفر يحتم أن يكون هناك من يحفر وآخرين يخرجون التراب والصخور، مما يعني أن عدد الرجال الذين شاركوا في الحفر أكبر مما ذكرته كتب الأخبار، أو أن المدة التي قضوها في حفر الخندق تزيد عن ٢٤ يوماً. وقد قال بعض المؤرخين بأنها كانت شهراً ونصف.

وتصورنا هو أن هناك عدد محدود من المعاول، وكان المسلمون يتناوبون العمل عليها لتكسير الصخور، ثم يقوم آخرون برفع الحجارة والتراب الذي أحدثته المعاول قبل أن يعاود الحفارون طرق الأرض مرة أخرى.

وكان العمل في حفر الخندق قد بدأ من نقطة معينة، بالقرب من جبل سلع، وبخط يحدد طوله عدد المعاول المتوفرة. فلو كان هناك ١٠٠ معول وكل معول اتفق على أن يحفر ذراعاً طولياً، فإن الحفر سيستمر لفترة في خط طوله مئة ذراع، إلى أن يكتمل حفر ١٠٠ ذراع طولي بعرض تسعة أذرع، وعمق تسعة أخرى. ثم ينتقل الحفر لخط تال، وهكذا حتى اكتمال حفر الخندق كله.

وأرجح ألا يكون هناك أكثر من ١٠٠ معول متوفر للمسلمين في ذلك الوقت، سواءً كانوا يملكونها، أو أنهم استعاروها من بني قريظة ـ كما تقول كتب الأخبار ـ الذين يملكونها بحكم مزاولتهم لمهنة الزراعة[١].

---

(١) لأن ما ترويه كتب السير والتاريخ والتفسير لا أساس له، فهم يقولون إن المسلمين استعاروا من بني قريظة المعاول لحفر الخندق، في نفس الوقت يقولون إن بني قريظة هم من عاون الغزاة مما جعل الرسول يتوجه إليهم بعد الأحزاب ويطردهم.

وبناءً على ما تقدم يمكن أن نقول:

إن جيش الأحزاب قدم من مناطق بعيدة، بجموع غفيرة لا يمكن توفرها في جزيرة العرب، وسمعته تسبقه في امتلاك عدة وعتاداً تفوق ما يمكن للعرب توفيره. لذا أصيب المسلمون بالذعر والقنوط، لأنهم يعلمون ألا قبل لهم بهذا الجيش. وعندما تفتقت أذهانهم عن حفر خندق لصد العدوان، كان لديهم الوقت الكافي للانتهاء من الحفر قبل وصول الأحزاب، لأن المسافة بين مواطن الجيش الغازي والمدينة بعيدة. وهذا لا ينفي أن يكون قد التحق مع الأحزاب رجال من بعض القبائل إضافة لقريش.

ومن الوصف القرآني، فالجيش القادم من بعيد كان مخيفاً في عدده وعتاده بدرجة غير مألوفة لعرب الجزيرة، وعرف المسلمون ألا قبل لهم به، فقاموا بحفر خندق شمال المدينة يمتد من حرة وبرة غرب جبل سلع، إلى حرة واقم. وقد أغلق الخندق كل المساحة المفتوحة الوحيدة لمنطقة يثرب من جهة الشمال، وأصبحت يثرب بكاملها عبارة عن منطقة مغلقة. تحدها الحرات الشديدة الوعورة من ثلاث جهات، والخندق من الجهة الشمالية الباقية، كما هو واضح من الخارطة المنشورة في أول قسم الفترة المدنية.

وبمجرد وصول قوات التحالف الغازية للمدينة، هبت عليهم ريح عاتية، قضت على آخر معنوياتهم التي تكاد تكون منهارة من بعد السفر ومشقة الطريق. فأصابهم الذعر والخوف، خاصة أنه لم يكن لديهم دافع لحرب المسلمين، ولا يحملون لهم أي ضغينة، ولكنهم حضروا نتيجة لإقناع قريش بمعاونتهم. فما كان من قوات التحالف إلا أن لاذوا بالفرار وعادوا أدراجهم تحت جنح الظلام من حيث أتوا. وتفرق أفراد القبائل الذين انحازوا إليهم، وعاد القرشيون أدراجهم لمكة يجرون ذيل الخيبة. وعاد المسلمون لمساكنهم دون قتال. فقابلهم المنافقون بألسنة حداد لإقناعهم أنهم معهم، وهم في الحقيقة سيهربون لو عاد الأحزاب.

سبب مهاجمة جيش التحالف للمدينة

قد يكون الباعث لهذا الهجوم على المدينة من قوات التحالف هو أن بني إسرائيل أقنعوا قريش بطلب النجدة من الروم - المسيطرين على بلاد الشام - لحرب المسلمين. وكتب التاريخ والسير تتحدث عن لقاء بين أبو سفيان ووفد من قريش بهرقل - عظيم الروم - في إيليا (القدس الحالية). وهو لقاء قد يكون تم بالفعل، ولكن لسبب آخر غير الذي أورده المؤرخون[١]. وكما ذكرنا فقد يكون بعض بني إسرائيل قد أقنعوا قريشاً بالاتصال بالروم وطلب معاونتهم للقضاء على محمد وأتباعه. وقد ترأس أبو سفيان وفداً من قريش وحصل على إذن للقاء هرقل، وشرح له مطلبه الذي وافق عليه هرقل، وكلف الغساسنة بإعداد جيش يصحب أبا سفيان والوفد القرشي للقضاء على المسلمين. ولما تسامعت قضاعة وبعض القبائل الأخرى بقدوم جيش الروم انضم بعض رجالها إلى الأحزاب طلباً للغنائم. وموافقة هرقل على معاونة قريش قد تكون حدثت، لأن تجار قريش هم من يجلب البخور واللبان والتوابل من جنوب الجزيرة إلى الشام ليبيعوها على تجار ينقلونها لروما وأوروبا، وقد أوحوا لهرقل أن وجود المسلمين في يثرب يشكل خطراً على هذه الإمدادات.

وقد علم المسلمون بتحركات قريش وسفر أبو سفيان والوفد المرافق له للقاء هرقل. وقد يكون الرسول أرسل وفداً وخطاباً لهرقل يشرح له دعوته ولماذا تحاربه قريش، لعله يثنيه عن معاونتهم. وهو الخطاب الذي حور الإخباريون نصه وكأنه خطاب من محمد لهرقل يدعوه فيه للإسلام. لأنه من الصعب تصور أن يقوم الرسول بإرسال خطابات للروم والفرس وهو بالكاد

---

(١) المؤرخون يقولون إن أبا سفيان امتدح محمد أمام هرقل، وهذا يستحيل أن يحدث، لأن أبا سفيان وكل كبراء قريش يعملون على تشويه سمعة الرسول والإسلام وصد الناس عن الدخول فيه كما أخبرنا القرآن: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾١٩ هود. وقد أسهبنا الحديث عن ذلك في أحداث مكة في المراحل الأخيرة.

يسيطر على المدينة التي لا تمثل إلا بقعة محدودة جداً من يثرب، ومحاطة بقبائل وثنية، ويبعدها حواضر وثنية ومن بني إسرائيل وغيرهم، أقرب من الفرس والروم، على الرسول أن يدعوهم أولاً، ولو آمنوا ووصل الإسلام لحدود تلك الدولتين العظميين، حينها سيكون بإمكان الرسول مراسلة قيصر وكسرى، ودعوتهما للإسلام.

ولعل أبو سفيان ومن معه من قريش لم يتوجهوا مباشرة إلى إيليا ولكنهم قابلوا الحاكم الإقليمي الغساني أولاً، والذي اقترح عليهم مقابلة هرقل، لأنه لا يستطيع أن يجهز جيشاً ويأمره بالسفر لعمق جزيرة العرب لقتال محمد دون موافقة مسبقة، وأمر من هرقل.

وقد عاد وفد الرسول مسرعاً للمدينة ليخبرهم أن هرقل وافق على نجدة قريش وأنه أمر بإعداد جيش عرمرم للقضاء على المسلمين. وهو ما أدخل الرعب في قلوبهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وفي نفس الوقت كان لديهم الوقت الكافي لحفر الخندق قبل وصول جيش الروم.

وإن كان هذا ما حدث فالأحزاب إعلان للروم الحرب على المسلمين، وأول لقاء حربي بينهم. ويكون الروم هم من بدأ العداء، الذي استمر حتى تم القضاء على الوجود الروماني في الشرق الأوسط. نقول هذا لأنه يفسر الكثير من الغموض حول الأحزاب، وحول إرسال الرسول لجيش مؤتة لحرب الروم، فيما بعد، مع أنه محاط بأعداء أقرب منهم.

كما يفسر جلاء بني إسرائيل عن يثرب، التي استوطنوها لمئات طويلة من السنين، وقد يكونوا هم أول من سكنها. فغدرهم بالمسلمين وتعاونهم مع قريش وإيحائهم لهم بطلب العون من الروم، ذنب لا يغتفر، وهم يعلمون ذلك، لذا هم الذين عرضوا على المسلمين أن يخرجوا من يثرب ويتركوا أملاكهم للمسلمين مقابل الإبقاء على حياتهم. خاصة أنهم على علم بحكم من يفعل فعلهم من سورة المائدة التي تلت معركة أحد مباشرة، والتي جاء

فيها قانون جنائي يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ المائدة٣٣.

قد يكون افتراضنا هذا بعيداً عن الواقع عند البعض لأول وهلة، لكن بقية السور المدنية التي لم نتطرق لها بعد، ستظهر أننا لم نجنح للخيال، وأن افتراضنا أقرب للحقيقة من أي رواية تقرأ في كتب السير والتاريخ.

ما بعد الغزوة

لقد كانت فكرة جيوش التحالف قاصمة، ولو نجحت الخطة التي وضعوها للهجوم على المدينة فقد يُسحق المسلمون ويُفنون عن بكرة أبيهم. وبعد فشل حملة الأحزاب، كان لابد من معاقبة كل من يثبت تورطه في فكرة تجمع جيوش التحالف، أو اشترك فيها، لئلا يعاودوا التآمر على الإسلام ودولته، لأن فشلهم هذه المرة لا يعني أنهم قد يفشلوا مرة أخرى. كما أن بقاءهم يعني تهديداً مستمراً لوجود الإسلام والمسلمين.

جلاء المذنب

بعد أن تأكد المسلمون يقيناً أن قوات التحالف ذهبت إلى غير رجعة، توجهوا لواحدة من قبائل بني إسرائيل في يثرب الذين كانوا وراء إقناع قريش بتجميع الأحزاب. ولأن بني إسرائيل يعلمون أن ما اقترفوه بحق المسلمين لا يمكن أن يغتفر، فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم في البداية لكن سرعان ما تبين لهم أن القتال يعني الفناء، فعرضوا على المسلمين أنهم على استعداد للجلاء من يثرب، وتسليم قلاعهم ومنازلهم ومزارعهم للمسلمين، مقابل أن يمنوا عليهم حياتهم، ويطلقوا من أسر منهم، ويسمحوا لهم بحمل ما يستطيعون من متاع ومال، فوافق الرسول والمسلمون على ذلك: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم

مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴿٢٧﴾.

وهكذا تم إجلاء فريق من بني إسرائيل، لخيانتهم للمسلمين، أما بقية بني إسرائيل فلم يكن لهم يد فيما حدث وبالتالي فلم يصبهم المسلمون بأذى. وهو الجلاء الأول لأي قبيلة إسرائيلية من يثرب. مما يخالف ما نقلته كتب الأخبار التي تقول إن الجلاء الأول كان في الفترة بين غزوة بدر وغزوة أحد، وأن الجلاء الثاني كان بعد غزوة أحد، أعقبه جلاء ثالث وأخير بعد غزوة الخندق.

وسنرى في سور قادمة كيف واصل المسلمون معاقبة القوى الأخرى التي شاركت في جيوش التحالف.

وفيما يلي أحداث أخرى تحدثت عنها السورة:

الذين في قلوبهم مرض

لقد عاد المنافقون للمدينة أثناء حفر الخندق بحجة أن بيوتهم ليست محمية: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴿١٣﴾.

وطوال الفترة التي كان المسلمون مرابطين لحفر الخندق، استغل بعض المنافقين خلو المدينة من الرجال، وسعوا في ملاحقة النساء في الشوارع وفي كل مكان طلباً للفاحشة. وكانوا يدخلون حجرات الرسول دون استئذان، بحجج متنوعة، علهم يحضون برؤية ما لا يجوز لهم النظر إليه من أجساد أمهات المؤمنين، وملاطفتهن في الحديث والتبسط معهن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ

يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴿٥٨﴾.

وقد نزلت الآيات لتبين للنساء ما عليهن فعله للحد من تصرفات أولئك المرضى، وتحميهن منهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿٥٩﴾.

وحرصهن على المظهر المحتشم يجنبهن مضايقات أولئك الفاسقين. ومن الحشمة الحرص على تغطية صدرها بأي وسيلة، ومن ذلك سحب جلبابها إلى ما فوق الصدر، إن كانت ترتدي جلباباً، ليبدو مظهرها محتشماً، فيعرف من في قلبه مرض أي نوع من النساء هي، فيتجنبها.

فقوله «أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» تعني أن المحتشمة مظهرها يعرف منه أولئك الرجال أنها ليست ممن يمكن إيقاعه بالرذيلة فيتجنبونها.

وفي مكان سابق من السورة، تُذكّر الآيات نساء المسلمين عموماً بالتحلي بالأخلاق الحميدة: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴿٣٥﴾.

ثم تحذر الآيات أولئك السفلة إن هم لم ينتهوا فسيحل بهم العقاب المتمثل بالجلاء من المدينة أو القتل: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴿٦٢﴾.

وفي نفس الموضوع تتجه الآيات بحديث خاص ومباشر لنساء الرسول:

﴿يا أيُّها النَّبِيُّ قُل لِّأزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً﴿٢٨﴾ وَإن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فإنَّ اللَّهَ أعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنكُنَّ أجراً عَظِيماً﴿٢٩﴾ يا نِساءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَها الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً﴿٣١﴾ يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأحَدٍ مِّنَ النِّساءِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴿٣٣﴾[1] وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴿٣٤﴾.

وزوجات الرسول كن يتصرفن كالنساء الأخريات، بعفوية قد يفهمها من في قلبه مرض على أنها بعيدة عن الحشمة. وبحكم أن زوجة الرسول ليست كأي امرأة عادية، لأن تصرفاتها مرصودة من قبل أعداء الإسلام، الذين يتمنون لو يجدوا أي ملاحظة على سلوكها ليعيبوها على الرسول. وبما أن الحرب النفسية لها تأثير قوي على النفس، فلن يستطيع الرسول مواصلة الدعوة لو أن أعداءه عثروا على عيوب في نسائه ونشروها.

لذا فمن يقترف فاحشة من نساء الرسول فسيضاعف لها العذاب، لأنها أضرت بسمعة رسول الله، والإضرار بسمعته إضرار بالدعوة لله. فجاءت الآيات تخير نساء الرسول بين التمتع بمباهج الحياة والتصرف كما يحلو لهن، وبين البقاء زوجات للرسول.

ومن تختار مباهج الحياة يحق لها طلب الطلاق من الرسول، أما من تختار البقاء مع الرسول فعليها التقيد بتصرفات معينة، كما يلي:

(١) أهل بيت الرسول هم نساؤه لأن الحديث كله يدور حولهن.

* عدم الخضوع بالقول والتحدث بطريقة لينة للرجال لأن هناك بعضهم يبحث عن عورات النساء ويتحين الفرص للإيقاع بهن، وإذا ما سمع من المرأة كلاما لينا ظن أنها سهلة المنال.

* حديث نساء الرسول مع الرجال يجب أن يكون قولا معروفا، أي بينا واضحا لا مجال فيه للمزاح.

* على نساء الرسول البقاء في المنزل، وعدم التجول في الأسواق، إلا للحاجة فقط. وإذا خرجن لحاجة فليبتعدن عن التبرج[1].

* الحرص على أداء الصلاة والزكاة وتلاوة القرآن والتطبع بطباع النبي الجادة.

* وكل هذه الاحترازات لكي تبقين طاهرات السريرة والسيرة، ولا يجعل لمن في قلبه مرض عليكن سبيلا.

ولكي تضع الآيات حداً لأي مشاعر مريضة في المستقبل، أكدت بداية السورة أن نساء النبي هن أمهات للمؤمنين، والأم لا يجوز أن يتزوجها أبناؤها. لذا لا يجوز الزواج بنساء الرسول ولو بعد وفاته، كما لا يجوز النظر إليهن بشهوة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴿٦﴾﴾.

فالرسول يجب أن يكون لقبه ولي المؤمنين، وزوجاته أمهات المؤمنين.

تحريم الزواج مستقبلاً عل الرسول

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ

(١) التبرج في لغة العصر يعني استخدام أدوات ومساحيق الزينة.

خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿٥٠﴾ تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴿٥١﴾.

الآيات تتحدث عما كان مباحا للرسول الزواج منهن، ومن ذلك التزوج بما ملكت يمينه من الإماء وليس التسري بهن خارج حدود الزواج، لأنه سفاح وفحشاء، لا يمكن أن يبيحها الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٢٨﴾ الأعراف.

وكان له حرية التصرف مع زوجاته كيفما يشاء، ما دام بعيدا عن الإضرار بهن أو إغضابهن أو حزنهن. وطالما رضين بما يفعل وبعدله بينهن. والزواج بأكثر من واحدة عادة متبعة في ذلك الوقت، والرسول تصرف كأي رجل آخر في مجتمعه.

وسورة النساء التي سبقت الأحزاب بالنزول، وإن لم تحرم تعدد الزوجات الذي كان شائعاً، إلا أنها وضعت العدل بين الزوجات، كشرط أساسي للتعدد، وإن لم يتوفر العدل فلا يجوز الزواج بأكثر من واحدة: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً»[1].

وفي آية أخرى في آخر النساء جاء التأكيد أن العدل بين النساء مستحيل: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾النساء١٢٩.

وهو ما يجعل التعدد غير ممكن.

---

(١) النساء، الآية ٤.

وتأتي الآية (٥٢) من سورة الأحزاب لتحرم على الرسول الزواج مستقبلاً: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴿٥٢﴾﴾.

إلا أن يتزوج بما ملكت يمينه إن كان عنده إماء في تلك اللحظة.

إذاً، سورة النساء فرضت شرطاً للرجال يصعب تجاوزه للتعدد، وهنا جاء الدور على الرسول ليقال له إنه كما البشر الآخرين. وفي البداية طلب من زوجاته أن يخترن بين البقاء معه بشروط قاسية وبين الطلاق. ومن بقين معه وضحين بمتع الدنيا فيجب أن لا يظلمن ولا يحزن معه، فجاء النهي للرسول بعدم الزواج أبدا بامرأة جديدة إلا الزواج بمن عنده من إماء، إن كان عنده شيء. ومنذ تلك اللحظة لم يتزوج الرسول بأي امرأة، كما لم يطلق أياً من زوجاته، حتى مات.

وتحريم الزواج مستقبلاً على الرسول سيكون ساري المفعول بعد زواجه بمطلقة ابنه بالتبني زيد.

سورة النور - قوانين لحماية المجتمع

نزلت بعد سورة الأحزاب، وامتداداً لها لاستكمال معالجة مشاكل حدثت أثناء تغيب رجال المسلمين عن المدينة لحفر الخندق. وقد أخبرتنا سورة الأحزاب السابقة أن رجال المنافقين قد انسحبوا من جمع المسلمين الذين يحفرون الخندق ورجعوا للمدينة: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴿١٣﴾﴾ الأحزاب.

وهناك استغلوا فرصة خلو المدينة من الرجال لانشغالهم بحفر الخندق، وعثوا في الأرض فساداً بملاحقة النساء والدخول عليهن في بيوتهن بأعذار واهية لتتبع عوراتهن. ولم يقف سلوكهم المنحرف عند ذلك الحد، بل تعداه

إلى نشر الإشاعات عن بعض نساء المدينة، وأنهن قد مارسن الفاحشة معهم، ونساء أخريات لديهن الاستعداد لممارسة الزنا.

فنزلت سورة النور، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي تنص على أن سبب نزولها هو لفرض تشريعات وحدود للزنا وما له علاقة به، وذلك لردع مثل تلك الفئة التي في قلوبهم مرض، وتخليص المجتمع المسلم من هذه القاذورات: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿١﴾﴾.

حد الزنا

أول ما ابتدأت به السورة هو فرض حد للزنا الذي يود الذين في قلوبهم مرض أن يمارسوه: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴿٢﴾﴾.

وحد الزنا، أكثر الحدود قسوة في الإسلام، بعد حد القصاص، حيث يجمع الألم الجسدي من الجلد، والألم النفسي المتمثل بالإهانة وجرح الكرامة نتيجة الجلد أمام الناس الذي هو جزء من الحد، ولو جلد الزاني ١٠٠ جلدة في خلوة من الناس فلا يعتبر حدا للزنا.

ولعل ما أصاب المسلمين من قهر وظلم وتحقير عبر القرون من سلاطينهم، جعلهم لا يشعرون بعمق الإهانة التي يسببها الجلد أمام الناس من أذى نفسي مؤلم ودائم، لأن كراماتهم لم يعد لها وجود. لذا نجدهم في عصور لاحقة يتجاوزون حد الله في الزنا من الجلد إلى الرجم حتى الموت، ظناً منهم أنه سيكون أكثر ردعاً من الجلد. وتجاوزهم لحدود الله «وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وهذا جهل مفرط، لأن الموت أهون بالفعل من جلد الإنسان الذي يعيش

بكرامة، لأن الجلد يبقى محفوراً في النفس الكريمة طوال الحياة، ولا يندمل جرحه الغائر مع الزمن. فهو موت معنوي يعذب الإنسان العزيز طوال ثواني ودقائق حياته، أما الموت فهو تغييب للمرء عن الحياة تنقله خارجها ولا يشعر بما فيها.

وعقوبة الزنا لا تتوقف عند الجلد فقط، فالسورة تواصل قائلة أن من يكرر الزنا وهو عالم بحرمته، فليس بمسلم، ولا يجوز أن يتزوج من المسلمين: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴿٣﴾﴾.

ولو زنا شخص عاقل مختار وهو عالم بحرمة الزنا فقد خرج من الإسلام، ولو بقي الفاعل يقر بالشهادة ويقيم العبادات ويتجنب بقية النواهي ويأتمر بكل أوامر القرآن. لذا جاء تحريم الزواج بالزاني والزانية مماثل لتحريم الزواج بالمشركة أو المشرك: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٢٢١﴾﴾ البقرة.

المنافقون والذين في قلوبهم مرض عاثوا فساداً

بعد عودة المسلمين للمدينة من الخندق، بدأت الإشاعات التي أطلقها الذين في قلوبهم مرض تنتشر، وبدأ الناس يتناقلون أن فلانة قد زنت، وفلانة لا تمانع الزنا، فجاءت الآيات تقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾﴾.

رمي المحصنات الوارد في الآيات السابقة يعني نشر إشاعة عنها بالزنا،

ومجرد نشر إشاعة عن امرأة بأنها زنت أو أن سيرتها سيئة، لا يعني بالضرورة أنها كذلك. وعلى كل من يتهم امرأة بمثل هذه التهم أن يأتي بأربعة شهود يشهدون على صحة ما يزعم، أو يجلد هو ٨٠ جلدة، كحد لاتهامه امرأة بريئة بفاحشة لم تقترفها. وإضافة للجلد، لا يقبل له شهادة.

والشهادة في ذلك المجتمع تعني الاعتراف بأهلية الشاهد وعدله وأحقيته، وأنه شخص محترم. فكان إسقاط الشهادة عذاب أليم آخر لمن يرمي المحصنات بجانب الجلد، لأنه يعني سقوط الاحترام والثقة. ومن الأفضل لكريم النفس أن يموت من أن يسقط اعتباره في المجتمع.

ولا يعاد لمن يرمي المحصنات اعتباره في المجتمع إلا بالتوبة.

وشهادة شهود أربعة على الزنا ليست كما صور لنا رجال الدين ومن تسموا بالفقهاء والمحدثين والمفسرين، من أن يتمكن كل واحد من الشهود الأربعة أن يرى ميل الرجل وقد دخل في مكحلة المرأة، لأن هذا من المستحيل. لكن الشهادة هنا تعني أن يشهد أربعة أن امرأة بعينها بالفعل تمارس الرذيلة.

ويبدو أن امرأة أو أكثر ممن حامت حولهن الإشاعات، قد اتهمها زوجها فعلياً بالزنا تصديقا للإشاعات، فنزل حكم لمثل هذه الحالات، يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ﴿٧﴾ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴿١٠﴾.

والآيات السابقة كما هو واضح، تقول: إذا اتهم أحد الزوجين زوجه يتم التالي:

* إن كان هناك شهود عدول أربعة يشهدون على المتهم، يقام حد الزنا عليه.

* إن لم يكن هناك كل الشهود، فيتم التالي:

* من يتهم زوجه ينطق بالشهادة بالله أربع مرات أنه من الصادقين، ثم يقول: إن عليه لعنة الله إن كان من المكذبين.

* ثم يقوم المتهم بالشهادة بالله أربع شهادات أن من يتهمه كاذب. ثم يقول: إن غضب الله عليه إن كان من اتهمه صادقاً.

* في هذه الحالة يفرق بين الزوجين وينتهي الزواج.

* ولا يقام حد الزنا على المتهم بالزنا، ولا حد رمي المحصن على من اتهم زوجه.

وتقول الآيات إن العصبة (الفئة التي سمتهم سورة الأحزاب: الذين في قلوبهم مرض) نشرت إشاعات كاذبة (إفك) حول سيرة بعض النساء، وقد تلقف بعض المسلمين تلك الشائعات وروجوا لها لأنهم صدقوها، دون أن يتأكدوا من صحتها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴿١٣﴾.

لقد كانت هذه الحادثة في ظاهرها سيئة، إلا أنها جلبت معها منفعة. فقد تم فرض قوانين (حد) لاتهام البريء، ولحماية المسلمات في المستقبل، ووُضعت ضوابط وحدوداً ليطبقها المسلمون في حالات مماثلة متى حدثت.

وقد كان يجب على أفراد المجتمع المسلم أن يواجهوا انتشار مثل تلك الإشاعات بما يلي:

* الظن الحسن بأنفسهم ووضع احتمال أن يكون كذباً وافتراء «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ».

* إلزام كل من صدرت منه الإشاعات بإحضار أربعة شهود على أن المرأة

التي يتهمها بالزنا بالفعل تمارس الزنا أو زنت «لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء».

* إن لم يتمكن مطلق الإشاعات من إحضار الشهود على من يتهم بالزنا، فهو إثبات على كذبه وافترائه «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ».

* وفي هذه الحالة يطبق بحق من أطلق الإشاعة الكاذبة الحد المذكور في الآيتين الرابعة والخامسة.

وبالنسبة لبعض المسلمين الذين سارعوا بتلقف الإشاعات ونشرها، قبل التأكد من صحتها تقول لهم السورة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٨﴾.

أما تلك العصبة من الذين في قلوبهم مرض، والذين أطلقوا تلك الإشاعات الكاذبة بحق بعض النساء المسلمات، فتتوعدهم السورة بعذاب أليم في الدنيا ممثلة بالعقوبات التي نصت عليها الآيات، وعذاب النار في الآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴿١٩﴾.

وتعود الآيات لمخاطبة المسلمين عموماً، وتقول لهم إن الله قد شملهم برعايته من شر هذه الفتنة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴿٢٠﴾.

وتؤكد الآيات على أن يحذر المسلمون من الزلل مرة أخرى في مثل هذه الأحداث، لأنها أفعال شيطانية عليهم التطهر منها، وعدم تكرار نشر التهم على

البعض، فليس هناك إنسان معصوم من الخطأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٢١﴾.

وعلى المسلمين أن يتكافلوا فيما بينهم، وأن يعفوا ويصفحوا وينسوا ما حدث: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٢﴾.

أما تلك العصبة من الذين في قلوبهم مرض فعليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب أليم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٢٣﴾.

ولقد كانوا يعلمون أنهم يروجون لإشاعات كاذبة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴿٢٥﴾.

وهذه الفئة من الناس لا يسمح لها العيش بين المسلمين لأنهم خبائث يعيشون بين الخبائث، والمسلمون طيبات تعيش بين الطيبات: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٢٦﴾.

وبعد أن وضعت السورة ضوابط وعقوبات للزنا والحد من نشر الإشاعات، تستمر في وضع ضوابط وقوانين للحماية من انتشار الفواحش أو ما يقرب إليها، في المجتمع المسلم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴿٢٩﴾.

لقد كان أفراد تلك العصبة الذين في قلوبهم مرض يتعمدون دخول البيوت بدون استئذان وفي غفلة من أهلها، لرؤية النساء في وضع يكشف عن مواضع من الجسد لا يجوز للرجل الغير محرم رؤيتها.

كما فرضت الآيات على الرجال والنساء مراعاة بعض السلوكيات والابتعاد عن سلوكيات أخرى، لضمان حماية المجتمع من انتشار الرذيلة أو الدعاية لها ولو بطريقة غير مباشرة، كما يلي: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴿٣٠﴾.

فعلى الرجل أن يغض بصره عندما يتحدث مع النساء ولا يرمق المرأة أو جسدها بنظراته، ولو لم تكن على علم بذلك، لأن النظرات طريق للإثارة، ومتى ما أثير المرء بدأ يفكر بالجنس، والتفكير بالجنس طريق لاقتراف الزنا إن توفر له، ولم يتوفر له الحلال. وعليه أيضاً كلما جال بخاطره الجنس أن يتذكر أن الزنا حرام، وان البعد عن الإثارة واجب.

وفي حال وقعت عينا الرجل على وجه امرأة جميلة أو جسد مثير فلا يطيل النظر ولا يكرره، لأنه لو فعل فقد اقترف حراماً. كما أن من حفظ الفرج عن الحرام، البعد عن المناظر المثيرة والبعد عن التفكير بما يثير، أو التفكير بممارسة الجنس، ولو أنه لن يقترف الزنا.

وقد قرأت دراسة عن الجنس قام بها مركز مختص في أمريكا، أثبتت أن الذين يقضون أوقاتاً طويلة في أعمال جادة وبعيدة عن الإثارة الجنسية كالمعامل والمختبرات ومراكز الأبحاث العلمية، يصبح الجنس لا أهمية له عندهم، ويقل إلى درجة كبيرة تفكيرهم فيه. بينما تزيد عدد المرات التي يمارس فيها المرء الجنس وعدد المرات التي يفكر فيها بالجنس إذا كان يعمل في محلات الرذيلة والنوادي الليلية أو أماكن لها علاقة بالجنس. وملخص

الدراسة يتمحور حول أن الإثارة الجنسية المستمرة تؤدي إلى الهوس الجنسي وكلما تردينا في هذا الطريق كلما ازداد الهوس لدرجة المرض، بينما البعد عن الإثارة الجنسية تجعلنا أناساً أسوياء لا يحتل الجنس في حياتنا أكثر مما يجب له.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴿٣١﴾.

وعلى المرأة مثل ما على الرجل. من غض البصر وحفظ الفروج. وبحكم كونها المخلوق الأجمل، والمثير، فلا بد أن تراعي تصرفات أخرى:

فلا يجوز لها أن تظهر بكامل زينتها وتبرجها في مجتمع الرجال الأجانب، إذا كانت ظروف العمل أو الحاجة تضطرها للبقاء بينهم أو التعامل معهم. كما لا يجوز للمرأة أن يصدر منها أي حركة قد تتسبب في إثارة الرجال، ولكن من الجائز لها أن تتزين عند الرجال من أقاربها.

وبالنسبة للعجائز من النساء الطاعنات في السن، فلا بأس أن يتخففن من ملابسهن أمام العائلة، للحد الذي لا يكشف عورة، ولا يتبرجن بزينة. والاحتشام أفضل: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٦٠﴾.

وقبل ذلك تقول السورة عن ضوابط الاحتشام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن

قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٩﴾.

الآيات تشير إلى أن من المعتاد في ذلك الوقت أن يضع الناس ثيابهم العادية وقت النوم، ويكتفون بما قل من اللباس الذي لا يكون محتشماً. كما تشير إلى أن اليوم العملي يبدأ باكراً، حيث يستيقظ الناس قبل صلاة الفجر.

وفي وقت الظهيرة، اعتاد الذين يعملون خارج منازلهم العودة لمساكنهم لتناول الغداء وأخذ قسط من الراحة، لدرجة أن القيلولة[1] أصبحت جزءاً من العرف الاجتماعي العربي حتى اليوم.

وفي هذه الأوقات التي يختلي الناس فيها بأنفسهم أو بأزواجهم يجب أن يعتاد الأطفال الاستئذان على ذويهم قبل الدخول عليهم في أماكن نومهم، لكي يتسنى للآباء تغطية أجسادهم والاحتشام. وهو ما يدل على أن الناس اعتادوا أن ينام الأطفال في أماكن منفصلة عن مكان نوم الزوجين.

كما يستفاد من الآيات تحريم رؤية الأطفال الأجساد العارية لوالديهم أو غيرهم من البالغين.

وفي آخر السورة تقول الآيات إن الحرص على عدم دخول الأطفال على الأهل والبالغين إلا بعد استئذان، لا يعني وضع حدود لدخول الناس لبيوت أقاربهم ومعارفهم والأكل فيها، سواءً من وعاء واحد أو في أوعية منفردة، حسب العادة المتبعة: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ

---

(١) القيلولة هي النوم وقت القائلة، والقائلة وسط النهار أو الظهر.

بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴿٦١﴾.

وهذا فيه إيضاح لما ورد في سورة الأحزاب، من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً﴿٥٣﴾الأحزاب.

فضح ممارسات أخرى للمنافقين

المنافقون هم أصل مشكلة ملاحقة النساء في المدينة وهم من نشر الشائعات عن سيرة بعضهن. وهم لم يؤمنوا برسالة محمد، لكنهم أعلنوا أنهم دخلوا الإسلام أملًا في تحقيق بعض المكاسب الدنيوية الشخصية.

وكانوا يحضرون مجالس الرسول والمسلمين، ويتظاهرون بالاحتكام لما يحكم به الرسول مما نزل عليه من آيات، لكن لو كان الحكم خلاف ما تهوى أنفسهم فلن يقبلوا به. ولو نزلت آيات تأمرهم بالالتزام ببعض السلوكيات الفاضلة، فلن يتقيدوا بها، وإن تظاهروا بالموافقة أمام الرسول، قبل أن يعودوا لسيرتهم الأولى بمجرد مغادرة مجلسه. لكنهم يسارعون بالقبول لأي حكم يتفق مع مصالحهم: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ

مُذْعِنِينَ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴿٥٢﴾.

ولو رجعنا لسورة الأحزاب فستجدها تخبرنا أنهم خرجوا في بداية الأمر مع الرسول والمسلمين لحفر الخندق، لكن لما قرب وصول جيوش الأحزاب (التحالف) رجعوا للمدينة معتذرين للرسول بأن بيوتهم عورة: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴿١٣﴾ الأحزاب.

ولما كشفت كذبهم سورة الأحزاب، تقول هذه السورة، إنهم كانوا يحلفون للرسول إنه في المرة القادمة سيخرجون مع الرسول ولن يتخلوا عن المسلمين مهما كانت ظروفهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴿٥٤﴾.

وتقول لهم الآيات السابقة لا حاجة للحلف، ولكن عليكم أن تعلموا أن التظاهر بالإسلام وأداء الشعائر لا يعني أن المرء مسلم. وإنما الإسلام هو قبول كل أحكام القرآن، والانتهاء عن كل نواهيه، ومن ترك حكما واحدا أو عمل بخلافه عالماً فهو منافق.

وتستكمل السورة الموضوع في آيات لاحقة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ

الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿٦٤﴾.

والآيات السابقة تقول: إذا كان هناك حدث أوجب تواجد جميع المسلمين لإنجازه، والآيات تشير لحفر الخندق، فيجب عليهم جميعاً المشاركة بفاعلية وعدم الانسحاب، أو حتى التغيب لفترة مؤقتة، إلا لضرورة، وبعد أن يستأذنوا الرسول، فإن لم يأذن الرسول يجب على من لا يؤذن له البقاء.

ويجب على المسلمين أن يعلموا أن دعوة رجل عادي لاجتماع أو عمل جماعي، تبيح لأي فرد مدعوٍ حق القبول أو الرفض: «لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً». لكن لو صدرت الدعوة من الرسول لاجتماع أو إنجاز عمل جماعي، فقبوله واجب ولا يجوز التهاون به.

وكل من يتحايل على عدم الالتزام بالتواجد في هذا العمل الجماعي الذي دعا له الرسول «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

دولة الإسلام

إقامة الدولة واجب على المسلمين، وليس ضرورة فقط، لأنه لا يمكن تطبيق شرع الله إلا في دولة الإسلام. ومتى ما أخلص المسلمون النية لله وعملوا على تأسيس دولة الإسلام فسيعينهم الله على تحقيق ما سعوا إليه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴿٥٥﴾.

وسيتمتعون في ظل دولة الإسلام بالأمن، وسيتغلبون على من يعاديهم.

وبالنسبة لجبروت المشركين الحالي فهو مؤقت وستنهار قوتهم ويهزمون في الدنيا، ويوم القيامة سيكون مصيرهم النار: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٥٧﴾﴾.

وهذه السورة نزلت في وقت كانت فيه قريش لازالت قوية وتهدد المسلمين ودولتهم، فنزلت الآية تطمئن الرسول أن الله سيقضي على قوتهم قريباً في الدنيا، وأن مصيرهم النار في الآخرة.

سورة المنافقون

يتواصل الحديث عن المنافقين الذين ترك بعضهم الرسول والمسلمين يحفرون الخندق ورجعوا للمدينة بحجة أن بيوتهم عورة، كما أخبرتنا سورة الأحزاب. وعندما عادوا للمدينة انتهزوا فرصة خلوها من الرجال فلاحقوا نساء المسلمين بحثاً عن الفاحشة، ثم روجوا عن سيرهن إشاعات كاذبة، كما تخبرنا سورة النور.

وهذه السورة تبين بعض صفاتهم وتحذر الرسول منهم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴿٤﴾﴾.

وبعدما انكشف كذبهم عندما تحججوا ببيوتهم للتخلي عن المسلمين في الخندق، وانكشفت تصرفاتهم العابثة مع النساء، وانجلت غمة الأحزاب وعادت الحياة الطبيعية للمدينة، جاءهم بعض رجال المسلمين وأشاروا عليهم

أن يذهبوا للرسول للاعتذار عما سلف منهم والتوبة بين يديه، لكنهم لم يفعلوا، لأنهم لم يؤمنوا بالرسول ودعوته، وإن تظاهروا بالإسلام: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴿٦﴾.

ولأنهم لم يؤمنوا فهم لا ينفقون، ويتواصون فيما بينهم بعدم الإنفاق على المسلمين، لعل دولتهم تنهار: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴿٧﴾.

وسورة الأحزاب تخبرنا أنهم في البداية خرجوا مع المسلمين لحفر الخندق، لكن بعضهم (طائفة منهم) وليس كلهم رجعوا للمدينة. وهنا تخبرنا هذه السورة أن من بقي مع المسلمين في حفر الخندق كانوا يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ، ويتهامسون فيما بينهم أنه إن لم يتمكن الأحزاب من دخول المدينة وسحق المسلمين، ورجع المسلمون للمدينة سالمين، فسيقوم المنافقون بإخراج الرسول والمسلمين من المدينة: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴿٨﴾.

مرحلة فتح مكة وغزو الروم

بعد أن اندحرت جيوش التحالف، وعادت الأحزاب من حيث أتت، أصبح على المسلمين القضاء على كل من أعلن الحرب عليهم، كما ذكرنا من قبل، وهؤلاء هم:

قريش، المنافقون، بعض بني إسرائيل، بعض القبائل، والروم.

وقد بدأ الرسول مباشرة بعد رجوع المسلمين للمدينة من الخندق، بمهاجمة تلك الطائفة من بني إسرائيل، التي كانت وراء فكرة التحالف وتجهيز الجيوش للقضاء على المسلمين، كما حدثتنا سورة الأحزاب: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴿٢٧﴾.

ثم كانت الخطوة الثانية، وهي القضاء على سلطة قريش.

سورة الفتح

حشد المسلمون قواتهم بدعوة كل من يعلن إسلامه للانضمام لجيش متجه لفتح مكة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴿٣﴾.

وتم للمسلمين إخضاع مكة بالفعل، وتحقق وعد الله للمسلمين الذي ذكرته العديد من السور المكية عندما كانوا قلة مستضعفين، وسط قوة قريش الطاغية، ومن ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴿٤٥﴾ القمر.

ولكي نتتبع الحدث من البداية وحتى اكتمال الفتح، علينا أن نستعرض الآيات بطريقة مختلفة وليس بالتسلسل، كما يلي:

حشد الحشود والمسير إلى مكة

أعلن الرسول العزم على التوجه لمكة للقضاء على سلطة قريش، بعد أن قضى على وجود من عاونهم من بني إسرائيل في يثرب. وقد تقاطر المسلمون للانضمام لذلك الجيش، بعضهم خرج في سبيل الله، وكثير منهم خرج طمعاً في الحصول على الغنائم ظناً منهم أن مكة سوف تستباح، وسيحصلون على الأموال الطائلة التي تملكها قريش.

إلا أن بعض ممن كان يعتبر من المسلمين لم يخرج، لأسباب مختلفة، ومن هؤلاء:

الأعراب

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴿١٤﴾.

وعندما وطأت قدما رسول الله المدينة للمرة الأولى حضر إليه أعداد كثيرة من الأعراب يعلنون دخولهم الإسلام، والواقع أن أغلبية من أعلن إسلامه منهم لم يؤمن، ولكن كانوا يسعون للحصول على مغانم دنيوية، وقد حدثتنا عنهم سورة الحجرات، والتي هي من أوائل السور المدنية: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٤﴾ الحجرات.

وقد بقي المنافقون منهم على نفاقهم وسعيهم المستمر للحصول على المكاسب المادية، وبعد رجوع المسلمين من فتح مكة، حضروا يعتذرون للرسول من عدم خروجهم، وأنه بالفعل تعذر عليهم الخروج: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴿١٥﴾.

فتجيبهم الآية التالية بأنه إن كان اعتذارهم للرسول عن عدم خروجهم لمكة، صحيحاً، فعليهم إثبات صدق نواياهم بالخروج مع جيش المسلمين القادم الذي سيقاتل قوماً قوتهم لا تقارن بقوة قريش: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴿١٦﴾.

والمقصود بالقوم أولي بأس شديد، الروم، والآية تشير إلى معركة مؤتة التي كانت بعد الفتح، كما سنتبين فيما بعد.

وبما أنهم يسارعون في الخروج مع المسلمين عندما يتيقنون أن هناك غنائم دون قتال، فلن يخرجوا مع أي جيش يحتمل أن يلتحم مع العدو، وما اعتذارهم للرسول إلا محاولة منهم لأن يحصلوا على بعض ما غنمه المسلمون في غزوتهم تلك، ظناً منهم أن المسلمين قد استولوا على أملاك قريش.

آخرون تخلفوا

لم يكن الأعراب وحدهم من تخلف عن جيش الفتح، ولكن بعض المؤمنين الصادقين تخلفوا أيضاً، لكن تخلفهم كان بسبب صحي، لذا فليس عليهم حرج، وسيكون لهم أجر المجاهدين: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴿١٧﴾.

فالخروج للقتال ليس مطلوباً من الأعمى أو الأعرج أو من لديه إعاقة أو مرض، ولكنه مطلوب من القادر.

البيعة

توقف جيش المسلمين عندما اقترب من مكة، لأخذ الاستعداد اللازم، وهناك تمت مبايعة المسلمين للرسول على الثبات في حال واجهتهم قريش بالسلاح ولم تسلمهم مكة سلمياً[1]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴿١٠﴾.

وقد تتابع المسلمون يبايعون الرسول بوضع أيديهم في يده، كرمز للتعهد أمام الله بالثبات فيما لو دخل المسلمون حرباً مع قريش في مكة.

وبما أن مكة بيت الله الحرام، فإن جيش المسلمين ذاهب لانتزاع سلطتها من أيدي مشركي قريش، وفرض سيطرة المسلمين عليها دون قتال. فإن سلمت قريش زمام مكة للمسلمين بسلام، فلن يتعرضوا لأذى، وإن رفعت قريش سلاحها في وجه المسلمين، فيجوز قتالهم ولو تحت أستار الكعبة: ﴿......ولا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿١٩١﴾ البقرة.

---

(١) في كتابات سابقة ذكرت أن البيعة كانت في الحديبية ـ كما ورثناه من كتب التاريخ ـ وهو غير صحيح.

وكل من تعهد بالثبات وثبت فقد بايع على روحه في سبيل الله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴿١٨﴾﴾.

وكان بعض المسلمين يمني النفس بالفعل أن تواجههم قريش ولا تستسلم بدون قتال، لأن ذلك سيكون سبباً للحصول على غنائم، لكن هذا لم يحدث: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴿٢١﴾﴾.

وهذه البيعة التي يتحدث عنها كتاب الله بكل وضوح لفتح مكة، حورها الإخباريون لتكون لمبايعة لم تحدث على أرض الواقع، يقولون إنها كانت في السنة السادسة من الهجرة، أي قبل التاريخ الذي وضعوه لفتح مكة بسنتين، وسموها صلح الحديبية التي لا ذكر لها في كتاب الله، ولا علاقة لها بما تتحدث عنه الآيات السابقة.

دخول مكة

تقدم الرسول المسلمين في مسيرتهم الخاشعة نحو بيت الله الحرام، وكانت مشاعرهم خليطاً من الغبطة والطمأنينة التي حلت عليهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴿٤﴾﴾.

ولم تحرك قريش ساكناً، ولم تحاول أن تعترض جيش المسلمين، لأنه لم يكن لهم قبل به في تلك اللحظة. فقد انقلبت الآية، وأصبح جيش المسلمين مرهوب الجانب، فيما أصيبت قريش بالذعر المماثل لما شعر به المسلمون عندما علموا بتوجه جيش الأحزاب إليهم، قبل وقت قصير مضى: ﴿لَيَدْخُلَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴿٧﴾.

وقد كان الفتح عذاب معنوي هائل على المشركين الذين فقدوا هيبتهم وعظمتهم وسلطتهم من قبل عبيد ومستضعفي الأمس. وهو عذاب نفسي للمنافقين مساو لعذاب المشركين، لأن المنافقين راهنوا على القضاء على المسلمين وزوال دولتهم، وعملوا على ذلك بجانب قريش وبني إسرائيل، لكن الفتح يعني أن مساعيهم قد أحبطت ومشاريعهم انهارت، وهم قلقون لما قد يفعله المسلمون بهم.

وسار جيش المسلمين في أزقة مكة إلى أن وصل البيت الحرام، وكبراء قريش الذين كانوا بالأمس سادة لا يملكون الجرأة لحمل السلاح للدفاع عن سمعتهم التي تمرغت بالتراب: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴿٢٤﴾.

لقد كان دخول مكة سليماً، بلا قتال، لأن المسلمين هم الجانب الأقوى والأكثر عدة واستعداداً معنوياً، بينما كانت قوة قريش العسكرية وجبروتها المعنوي قد انهارتا تماماً، ولم يعد لدى أفرادها القدرة على أن يحملوا السلاح، وكل ما استطاعوا القيام به هو الاستسلام لمحمد بلا قيد أو شرط، بعد سنوات قليلة من طرد قريش المسلمين من مكة ومنعهم من الحج: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ

بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴿٢٥﴾.

وكان الفتح فرصة لتأديبهم، لكن الإسلام لا يسعى للقضاء على الأشخاص بقدر ما يسعى للقضاء على المعارضة. وما دامت قريش أعلنت استسلامها ـ ظاهرياً ـ فقد كان دخول المسلمين مكة بخشوع، محلقين رؤوسهم والبعض مقصر، بدون خوف، وبكل طمأنينة: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴿٢٦﴾.

صدق الله وعده

كان رسول الله قد رأى رؤيا وهو في مكة قبل الهجرة، أن الله نصره على قريش، وقد جاء ذكر الرؤيا في سورة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴿٦٠﴾.

وقد تحققت الرؤيا بفتح مكة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴿٢٨﴾.

ليس لأنها رؤيا للرسول، ولكنها تتوافق مع تحقيق وعد الله الدائم بنصر من ينصره، وهو ما تحدثت به سور مكية في وقت كان المسلمون قلة مستضعفون، وكل ما يتمنونه هو البقاء أحياء، ومن ذلك: ﴿..... وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٤٠﴾ الحج.

وفي سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴿٥١﴾.

والأنعام: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴿٣٤﴾.

وفي أحلك الظروف التي تمر على المسلمين عليهم أن يتذكروا أن وعد الله لهم بالنصر والتمكين كائن لا محالة، و﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴿١٥﴾ الحج.

وسيظهر دين الله على كل عقيدة ويبقى ولو كره أهل تلك العقائد: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿٩﴾ الصف.

والآن وقد تحقق لهم وعد الله فعلى المسلمين ألا يداخلهم الشك في رسالة محمد وأن يطيعوه في كل ما نزل عليه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴿٩﴾.

ويبدو أن المسلمين قد عقدوا معاهدة مع قريش يوم الفتح مضمونها أن تدخل مكة تحت السيادة الإسلامية، ويترك للقرشيين عقائدهم، على ألا يقوموا بأي عمل عدائي ضد المسلمين. وسنرى أن سورة براءة تخبرنا أن قريش لم تحترم هذه المعاهدة ونقضتها مثلما نقضت معاهدات كثيرة مع المسلمين.

وبفتح مكة أصبح للمسلمين دولة مرهوبة الجانب، تضم بالإضافة للمدينة، مكة التي يقدسها كل سكان جزيرة العرب. كما تضم دولة الإسلام مجموعة من الناس أشداء على الكفار رحماء بينهم، ولهم حقوق متساوية:

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴿٢٩﴾.

والآية تبين إستراتيجية دولة الإسلام في الوصول بالناس إلى أن يكونوا كحقل مزروع بسنابل القمح، كل سنابله متشابهة في القوة والصحة والغذاء والرعاية والأهمية، لا فرق بين سنبلة وأخرى على الإطلاق.

وانهيار قريش لم يحدث فجأة يوم الفتح، لكنه بدأ في مكة. عندما تغيرت وجهة الخطاب في القرآن من قريش إلى غيرهم من الناس، وكان ذلك في المرحلة الرابعة من مراحل الدعوة في مكة. وقد جن جنون كبراء قريش وصبوا جام غضبهم على المسلمين يعذبونهم بأقسى صنوف التعذيب ليردوهم عن دينهم، إضافة للعمل على صد الناس عن الدخول في الإسلام أو الاستماع للرسول، لأنهم يعلمون يقيناً أن دخول أناس من خارج مكة للإسلام يعني انتشاره واتساع رقعته. وكلما قويت شوكة المسلمين، ضعفت في المقابل قوة قريش.

وهذا بالفعل ما حدث. فقد دعا المسلمون الجدد من يثرب إخوانهم مسلمي مكة للهجرة إليهم والنجاة بدينهم وأرواحهم من اضطهاد قريش. وكانت هذه خطوة أخرى لقوة المسلمين ومسمار آخر دق في نعش قريش.

وجاءت هزيمة بدر لتبرز بالفعل مدى القوة التي وصل لها المسلمون في فترة وجيزة جداً بعد الهجرة، مصحوباً بارتفاع لمعنويات المسلمين وتخلصهم من الشعور بالذلة الذي فرضته عليهم قريش، عندما كان أكثرهم عبيد ومستضعفين في مكة.

وبرغم هزيمة المسلمين في أحد، إلا أن معنويات المسلمين لم تتراجع، ولم تسترجع قريش ما فقدته من معنويات. ذلك أن الهزيمة لم تكن بسبب ضعف معنويات المسلمين ولا تصميمهم، ولكن بسبب تكتيكي كان يجب ألا يحدث.

وبنهاية معركة أحد التي قتل فيها ما بين ١٤ ـ ٢٤ قرشي مشرك، تكون قريش قد فقدت ما يقارب التسعين من أبرز كبرائها وسادتها، منذ بدء نزاعها المسلح مع المسلمين. فيما فقد المسلمون ما يقارب نصف هذا العدد. لكن الفرق بين قريش وبين المسلمين هو أن قريش لا تستطيع تعويض من فقدته من كبرائها، ذلك أنهم يمثلون الجيل القديم المتمسك بالتراث والذي يقود المجتمع القرشي لحرب المسلمين. أما من يفقد من المسلمين فيمكن تعويضه بالمسلمين الجدد أو بالأجيال الجديدة من أبناء المسلمين الذين سيكونون بحماس آبائهم لحرب الأعداء[١].

وسورة المائدة التي نزلت بعد معركة أحد تؤكد رسوخ دعائم دولة الإسلام وفقدان قريش لهيبتها وقوتها وجبروتها: ﴿..... ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً...... ﴿٣﴾ المائدة.

لذا استشعر من بقي من سادة قريش بعد أحد خطر موقفهم، وتنامي قوة الجانب المسلم، فسارعوا بطلب العون من الروم وبعض القبائل العربية، وإن كان ذلك قد تم بإشراف ومشورة وعون بعض بني إسرائيل في يثرب، الذين يرون أن قوة الإسلام خطر عليهم، كما هي على قريش.

---

(١) نقصد بالجيل الجديد من بلغ سن البلوغ من أبناء المسلمين وانخرط في معارك المسلمين زمن رسول الله وتخلق بأخلاق القرآن، وليس تلك الأجيال التي ولدت أو نشأت في عصر ما يسمى بالفتوح، وتطبعوا بما كان سائداً من أخلاقيات وسلوكيات بعيدة عن القرآن.

ومثلت حادثة الأحزاب نقطة مفترق طرق. فلو تمكن جيش التحالف من اجتياح المدينة فسيكتب نهاية الإسلام والمسلمين، ولكنه فشل. وفشل الأحزاب وتفرقهم كشف للمسلمين موقف بني إسرائيل المعادي لهم والمتعاون مع أعدائهم قريش، وكان ذلك سبباً لإجلائهم من يثرب، والتخلص من عدو ملاصق للمسلمين يهدد أمنهم. وجلاء بني إسرائيل خسارة فادحة لا تعوض لقريش، فقد كانوا مصدر عون لوجستي يمدونهم بالسلاح والمشورة. وفقدان قريش لهذا الحليف الهام، أضعف موقفها كثيراً وبدرجة كبيرة جداً.

كما أن قدرة المسلمين على التفوق على بني إسرائيل، الأقوياء، الأغنياء، الذين يملكون السلاح والمال، أشعر قريش بأن قوة المسلمين وصلت لمستوى لا يمكن لأهل مكة وحدهم مواجهتهم. حتى لو ضمنوا ولاء أولئك الأعراب الذين انضموا للأحزاب، لأن عددهم قليل وتسليحهم هزيل، ولا يملكون الدافع، ولا يركن لولائهم.

إذاً، فقد وجدت قريش نفسها بعد الأحزاب وحيدة تواجه عدواً تعاظمت قوته لدرجة لا تستطيع مكة الوقوف أمامه. ولم يعد بإمكان قريش أن تتلقى أي معونة عسكرية من هرقل والغساسنة، الذين كانت تجربتهم مع الأحزاب ـ الغير ضرورية ـ مريرة للغاية.

وبمجرد ما وصلت الأنباء لقريش أن الرسول يقود جيشاً كبيراً باتجاه مكة، حتى انهارت معنويات قريش وبدأت تبحث عن وسيلة تؤمن بها حياة أفرادها، ولم يعد يهمها كرامة أو سمعة أو مكانة اجتماعية. إلا أن الرسول لم يحضر لمكة للانتقام أو سفك الدماء، وكل ما يرمي إليه هو أن تدخل مكة تحت حكم دولة المسلمين والقضاء النهائي على سلطة وتسلط كبراء قريش دون أشخاصهم. وبالفعل دخل المسلمون الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ آمِنِين، وأصبحت مكة تحت سلطة دولة الإسلام.

ولا وجود لما يعرف بصلح الحديبية، الذي تقول كتب الأخبار إنه عقد بين الرسول وقريش، قبل الفتح بعام، يمكن بموجبه المسلمين من أداء العمرة والبقاء في مكة ثلاثة أيام ثم يخرجون منها بسلام. لأن هذا يناقض طبيعة العداء المستحكم عند قريش للمسلمين، ويظهر قريش التي حزبت الأحزاب بالأمس للقضاء على المسلمين، وهي ترحب بهم لدخول مكة والبقاء فيها ثلاثة أيام بسلام. وهذه القصة لا وجود لها في كتاب الله، وما هو موجود هو التأكيد على أن قريش لو ظفرت بالمسلمين فلن تحترم أي عهد تعهدت به لهم: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴿٨﴾ براءة.

سورة الروم / معركة مؤتة

لقد كان جيش الروم، أهم وأقوى جيش من جيوش التحالف التي اجتمعت لمهاجمة المدينة يوم الأحزاب، والذي أرعب المسلمين بمجرد علمهم بقدومه إليهم، قادماً من الغساسنة، عمال الدولة الرومانية على ما يعرف بالأردن الآن. وكان رعب المسلمين مبرراً لما للدولة الرومانية من قوة وجبروت في ذلك الوقت. وسبب إرسال ذلك الجيش لغزو المدينة ـ مع أنه لم يكن بينهم وبين المسلمين أي احتكاك سابق ـ كان استجابة لطلب أبي سفيان ووفد معه من هرقل إعانته للقضاء على محمد ودينه، كما سبق وذكرنا.

فكتب الأخبار تروي أن أبا سفيان الذي كان له لواء الحرب في قريش، أي وزير الحرب، قد التقى هرقل مع وفد من قريش، وما نجده في كتب الأخبار هو أن أبا سفيان كان بالصدفة في الشام عندما أرسل الرسول برسائله للملوك يدعوهم للإسلام، فما كان من هرقل إلا أن طلب إحضار أبي سفيان ومن معه ليسألهم عن الرسول. وبطبيعة الحال فهرقل كان في إيليا، وأبو

سفيان وتجار قريش إن حضروا للشام فللتجارة والبيع والشراء في بصرى الشام، ولا يذهبون لإيليا. ثم إنه حتى لو كان أبو سفيان وبالصدفة المحضة كان في إيليا لحظة وصول رسالة رسول الله لهرقل، فكيف عرف أن أبا سفيان من مكة، وهو موجود في إيليا؟ كما أن وقت غزوة الأحزاب لم يكن مناسباً لأن يبعث الرسول رسائل للملوك يدعوهم للدخول في الإسلام.

ولعل ما حدث هو ما سبق وذكرناه، وخلاصته أن اليهود في يثرب شعروا بأن تعاظم قوة الإسلام فيه خطر عليهم، فأوحوا لقريش فكرة طلب النجدة والعون من الغساسنة، عمال الروم على أدنى بلاد الشام. فركب أبو سفيان، وزير الحرب في مكة، ومعه وفد من رجال قريش، والتقوا جبلة ابن الأيهم، الوالي من قبل الروم. وطلبوا منه أن يرسل معهم جيشاً يقضي على محمد ومن معه، ويبدو أن الوالي لا يستطيع أن يقوم بتجهيز جيش لغزوة داخل بلاد العرب دون الحصول على إذن من هرقل نفسه. لذا فقد طلب جبلة من أبي سفيان ومن معه ضرورة مقابلة هرقل والحصول منه على أمر بتجهيز الجيش المطلوب. وهو ما حدا بأبي سفيان والوفد المرافق من السفر لإيليا، ومقابلة هرقل، الذي بالفعل سمح لهم بلقائه، وحصلوا منه على أمر للوالي الغساني بتجهيز الجيش لحرب محمد والمسلمين، بعد أن أقنعوه أن قيام دولة الإسلام يعني توقف امداد أوروبا باللبان والبخور والبهارات.

ولأن المسلمين يتابعون تحركات قريش فقد علموا بسفر أبي سفيان للروم لطلب العون. وقد يكون الرسول أرسل وفداً لهرقل يشرح له سبب خلافه مع قريش، ويطمئنه على أن المسلمين لن يتسببوا بوقف طريق التجارة الدولية، لعله يثنيه عن عونهم. لكن عرض وفد المسلمين قابله هرقل بالرفض، وأعلن موافقته على تجهيز جيش لحرب المسلمين. فرجع وفد المدينة لينقل الخبر الصاعقة الذي أصاب المسلمين بالذعر. وجعلهم يفكرون بطريقة يحمون بها أنفسهم غير القتال، لعدم تكافؤ الفرص بينهم وبين جيش التحالف، فتفتقت

أذهانهم عن حفر الخندق، الذي حال بالفعل دون دخول ذلك الجيش العرمرم المدينة.

وجيش الروم مؤلف من جنود حكوميون، تصرف لهم الرواتب، وليس بينهم وبين المسلمين أي ضغائن، فالدافع لحرب المسلمين لم يكن قوياً ولا ملزماً، إضافة إلى أنهم قطعوا طريقاً طويلاً وبمشقة متناهية عبر الصحراء القاحلة، وبمجرد وصولهم لظاهر المدينة صدموا بوجود حاجز الخندق الذي لم يتجهزوا بمعدات تعينهم على تجاوزه، لأنهم لم يتوقعوا أن يجدوه. مما أطال بقاؤهم خارج المدينة مع تناقص المؤن والذخيرة لهم ولحيواناتهم، وفي مثل هذه الظروف الشديدة السوء، يتعرض معسكرهم لرياح شديدة مزقت البقية الباقية من معنوياتهم المنهارة، وجعلتهم يرتدون على أعقابهم لا يلوون على شيء، وكفى الله المؤمنين شرهم.

وبعد أن تراجعت جيوش الأحزاب التي غزت المدينة، دون تحقيق مآربها، قام الرسول بمهاجمة بني إسرائيل رأس فتنة الأحزاب، وانتهت المعركة بعد قتال قصير باتفاق عرضه بنو إسرائيل على الرسول، يقضي بأن يتركوا بلادهم وأملاكهم للمسلمين ويغادروا يثرب بما يستطيعون حمله من متاع، مقابل أن يمن عليهم المسلمون حياتهم. وبعد ذلك تم فتح مكة والقضاء على سلطة قريش، ثم قام بتجهيز جيش لتأديب الغساسنة، ولو معنوياً، على مهاجمتهم المدينة، وعلى إعلانهم الحرب على المسلمين.

والجيش الذي أرسله الرسول للشام هو ما تسميه كتب السير والتاريخ جيش مؤتة. وقد خسر المسلمون المعركة الأولى مع الغساسنة في مؤتة، التي تبعد عن المدينة بحوالى ١٢٠٠ كيلومتر. وقتل منهم ثلاثة قواد هم: عبد الله بن رواحة، جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، مع تسعة آخرين. ونجا بقية أفراد الجيش الذين انسحبوا من المعركة لعدم تكافؤ الجيش المسلم مع جيش

الغساسنة عتاداً وعدداً. لكن إرسال الجيش لحرب الغساسنة كان مفيد جداً. فبرغم خسارة المسلمين للمعركة إلا أنها قضت على الرهبة التي كانوا يشعرون بها من حرب الروم، وأصبح بإمكانهم أن يهزموهم. وسورة الروم تتحدث عن مؤتة: ﴿الم﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ (بفتح الغين واللام في غلبت)﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(بضم الياء في سيغلبون)﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴿٦﴾.

فالسورة تقول إنه إن كان المسلمون انهزموا وانتصرت الروم في تلك المعركة، فسينتصر المسلمون وتنهزم الروم في بضع سنين، وهو ما حدث بالفعل. فقد بدأت فتوح الشام مع جيش أسامة بن زيد الذي جهزه الرسول في آخر حياته، ولم تتوقف. وفي بضع سنين استسلمت إيليا للمسلمين في السنة السابعة عشر للهجرة، وغادر هرقل بلاد الشام وهو يقول: «وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده».

وبعد عودة جيش مؤته، قام الرسول مباشرة بتجهيز أكبر جيش في حياته، وتوجه به إلى تبوك لملاقاة جيش الروم هناك، وهو ما سنتابع ما حدث له أثناء الحديث عن سورة براءة. وفي موضع آخر من السورة التي نتناولها يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴿٤٧﴾.

وهو إشارة لفتح مكة الذي كسر شوكة كبراء قريش وقضى على سلطتهم، لأنهم حاربوا دين الله ورسوله ولم يرغبوا بالتعايش معه بسلام، بل حاولوا كل ما في وسعهم القضاء عليه، ولكن الله نصر المؤمنين كسنة أزلية كونية مرت بها كل الأمم السابقة، حيث ينجي الله الرسول ومن آمن معه ويقضي على المعاندين.

ما الذي حدث بعد الفتح

سورة الروم تتحدث عن قريش وكأن فتح مكة لم يحدث ولم يدخلوا تحت حكم دولة الإسلام: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٩﴾.

فهل هذا يعني أن قريش قد نقضت معاهدة الفتح مع المسلمين، وخرجت عن طاعة دولة الإسلام؟

أو أنها بدأت تفكر في ذلك وظهرت بعض الإشارات الدالة على عزمها على نقض معاهدة الاستسلام. وهذا ما سنتبينه مع سورة براءة فيما يلي:

مرحلة قلاقل ما بعد الفتح

براءة رقمها من حيث ترتيب النزول هو ١١٢ من أصل ١١٤ سورة يحويها المصحف، ونزلت على رسول الله قبل وفاته بما لا يزيد عن عام واحد، لأنه لم ينزل بعدها سوى سورتي الحشر وسورة قصيرة هي سورة النصر. وبراءة وإن كانت مدنية لأنها نزلت في الحقبة المدنية، إلا أنها لم تنزل في المدينة، فقد أوحي بها على محمد وهو في طريقه قافلاً من تبوك. وهو ما تشير له السورة أثناء حديثها عن بعض من تخلف عن الخروج: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴿٨٣﴾.

وما تكررت الإشارة إليه في آيات أخرى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿٩٥﴾.

والسورة عبارة عن سجل حافل بالأحداث المتتابعة والمثيرة، بعد فتح مكة، وتحمل حقيقتين هامتين، هما:

١ ـ تصفية الحسابات مع كل من أعلن الحرب على الإسلام وكاد المكائد ضد أهله، وتحالف مع أعدائه، ولم يقبل التعايش مع المسلمين بسلام. دون التعرض بأذى لمن بقي على كفره ولم يحارب المسلمين، أو يبادرهم بمكيدة. فلم تشن حروب على اليمن ولا على عمان وشرق جزيرة العرب ولا على أهل الكتاب في تيماء ووادي القرى، وأقوام آخرون لم تبدر منهم بوادر العداء لدين الله وأهله، ولا ضد من بقي من بني إسرائيل في يثرب.

٢ ـ تعرية الأوضاع التي كان عليها من سموا بالمسلمين في أواخر حياة الرسول.

تصفية الحسابات

ويشمل:

* الحديث عن نقض قريش لمعاهدة أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح.

* كان هناك أحزاب ثانية (وجيش تحالف آخر).

* إعلان الحرب على كل من اشترك في جيش التحالف الأول والثاني ضد المسلمين.

* حشد الرسول لأكبر جيش في تاريخ الإسلام لحرب الروم وخروجه على رأس ذلك الجيش.

نقض قريش لمعاهدة أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح

الآيات الأولى للسورة تتحدث عن نقض قريش للمعاهدة التي وقعتها مع المسلمين يوم الفتح. وهو ما يخالف كلام المؤرخين الذين يزعمون أن مكة أسلمت يوم الفتح وحسن إسلامها إلى يوم الدين.

وأمامنا احتمالان لما حدث، هما كما يلي:

١. إما أن فتح مكة لم يتم إلا بعد نزول هذه السورة، أي بعد السنة التاسعة، وتكون سورة الفتح نزلت بعد هذه السورة.

٢. أو أن فتح مكة حدث قبل نزول هذه السورة ـ بغض النظر عن السنة التي تم فيها ـ ولم تسلم قريش ولكنها استسلمت للمسلمين بموجب معاهدة تضمن بقاء أوضاع قريش كما هي بشرط ألا يعادوا المسلمين ولا يتعاونوا مع أعدائهم، لكن قريش نقضت العهد.

وسورة الفتح، التي تؤكد حدوث فتح مكة، سبقت بالنزول هذه السورة، قطعا، بدليل أن براءة تحرم دخول المشركين المسجد الحرام، ولا يمكن تحريم دخولهم المسجد الحرام الواقع في مكة، قبل أن يفرض المسلمون سيطرتهم على مكة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٢٨﴾﴾.

ويكون الاحتمال الثاني هو الذي حدث، وسورة الفتح نزلت قبل براءة. وتكون مكة قد افتتحها المسلمون قبل عام من نزول سورة براءة على الأقل، وعقدوا مع أهلها معاهدة سلام، لكن قريش خانت المعاهدة، وظاهرت كفاراً ومشركين ضد المسلمين، كما فعلت قبل الفتح، يوم الأحزاب.

ونزلت السورة ـ براءة ـ لتملي على المسلمين ما يجب عليهم القيام به ضد كل من ابتدأهم العداء، ولم يتوقف عن معاداتهم، وهم:

قريش

التي «نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا» وخانت معاهدتها مع المسلمين يوم الفتح، وظاهرت عليهم مشركين آخرين هم:

بنو إسرائيل

الذين نزح بعضهم لخيبر.

بعض القبائل

الذين تحزبوا مع الأحزاب وأبقوا على معاداتهم للمسلمين.

الروم

الذين ابتدروا المسلمين في دارهم مع الأحزاب، دون أن يتعرض المسلمون لهم.

والسنوات السابقة أثبتت دون ريب أن قريش عازمون على حرب المسلمين بهدف القضاء عليهم، ولن تنتهي هذه الحرب إلا بالقضاء على أحد الجانبين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٢١﴾ المجادلة.

وبعد غزوة الأحزاب، سارع الرسول بالتنكيل ببني إسرائيل (سورتي الأحزاب والحشر)، ثم أرسل جيشاً لتأديب الغساسنة (سورة الروم)، أو بالأحرى ليقول لهم إنكم مطاردون وسنقضي عليكم بسبب إعلانكم الحرب علينا ولم نتعرض لكم أو نُضاركم في شيء. وعاد وقاد أكبر جيش حشد في عصر النبوة، لحربهم، وهو ما سمته كتب الأخبار «غزوة تبوك». ويبدو أن الغساسنة فضلوا الانسحاب من أرض المعركة والرجوع لأرض الروم، قبل وصول جيش المسلمين إلى تبوك، وسنتحدث عنها في سطور لاحقة.

وكان الاستيلاء على مكة وإخضاعها للحكم الإسلامي نكالاً بقريش. كما قام المسلمون بغزوات خاطفة على عدد من القبائل التي شاركت في حملة

الأحزاب، وهي الغزوات التي تذكرها كتب الأخبار، دون أن تكون بالضرورة كلها قد حدثت، أو بالشكل الذي صورته تلك الكتب.

وإذا كانت السورة تشدد على قتال من عادى المسلمين، فهذا لا يعني أن الإسلام دين حرب وسيف. ولكن المسلمون يدافعون عن وجودهم، ضد أناس لا يرغبون في رؤيتهم أحياء. وطوال فترة الدعوة كان المسلمون يحاولون الصلح مع أعدائهم ونسيان العداء السابق والعيش بسلام، لكن دعواتهم كلها ذهبت سدى، ولم يستمع أحد لها: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴿٦١﴾ الأنفال.

وعندما يضطرون لدخول معركة، كانوا يقاتلون المحاربين فقط: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴿١٩٠﴾ البقرة.

لكن الأعداء مصرون على القضاء على الإسلام وأهله. فبنو إسرائيل استمروا بكيد المكائد ضد الرسول ودين الله من اليوم الأول للهجرة، وعاونوا قريش على حرب المسلمين. وحتى بعد أن طُردهم المسلمون من يثرب، لم ينتهوا، واستمروا في كيد المكائد وتأليب الأعداء.

ومثل بني إسرائيل، قريش. التي لاحقت المسلمين وهم في مكة، ولما هاجروا للمدينة استمرت تحاربهم. ولما هزمت في بدر، استجمعت قواها مرة أخرى بعون من بني إسرائيل، وحشدت كل من استجاب لها من كنانة وما جاورها، وهاجمت المسلمين في أحد. لكنها وإن هزمت المسلمين بخطأ منهم، إلا أن قواها ضعفت ولم تعد قادرة على هزيمة المسلمين لوحدها. وبعون ومشورة من بني إسرائيل لجأت للروم الذين أمدوها بجيش جرار، انضم لجيش قريش ومن استجاب لدعوتها من بعض قبائل جزيرة العرب. وهاجمت هذه الأحزاب المدينة بهدف القضاء النهائي على المسلمين، لكن المسلمون كانوا قد أعدوا العدة للدفاع، بحفر خندق منع جيوش تحالف محرر الشر من تحقيق مرادهم.

وحتى المعاهدات السلمية التي تعقد بين المسلمين وأعدائهم، كان أعداء الإسلام دائماً لا يعيرونها أي اهتمام، ولا يجدون غضاضة في نقضها والعمل بخلافها: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴿١٣﴾ التوبة.

وأصبح بقاء الإسلام كدين، والمسلمين كبشر يتوقف على القضاء على قريش وبني إسرائيل ومن عاونهم من الروم وبعض القبائل وغيرهم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴿١٩٣﴾ البقرة.

وتحتم على المسلمين أن يواجهوا أعداداً تفوقهم بعشرات الأضعاف: «إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً»[1].

ولم يعد للمسلمين خيار إلا قتال كل أعدائهم، أو الانقراض: ﴿... وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿٣٦﴾ التوبة.

وفيما يلي ما قررت السورة القيام به ضد قريش لنقضها معاهدة يوم الفتح:

إعطاء مهلة

الآيات (١ ـ ٢٢، ٢٨) تتحدث عن إعطاء قريش مهلة أربعة أشهر ليعودوا عن نقضهم للمعاهدة التي وقعت مع المسلمين، وإلا الحرب. وسورة الفتح تؤكد أن المسلمين دخلوا مكة بسلام وبكل طمأنينة، ولم يكن هناك قتال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴿٢٤﴾ الفتح.

وهذا يعني أن قريشاً رأت أنه لا قبل لها بحرب المسلمين، فاستسلمت بموجب معاهدة بين الطرفين، تدخل بموجبها مكة تحت حكم المسلمين، ولا

---

(١) الأنفال: ٦٥.

يتعرض المسلمون لقريش بأذى، على أن يوقف القرشيون كل أشكال العداء للمسلمين، المسلحة منها والمكائد، ولا يوالوا أعداءهم ولا يظاهروا أحداً عليهم.

لكن المعاهدة المبرمة مع قريش في مكة يوم الفتح، لم تصمد طويلاً، ونقضتها قريش. وقد تكون قريش استسلمت ظاهرياً للمسلمين يوم الفتح، وقد أضمرت الغدر، واتفقت مع جيوش الأحزاب الثانية. فنزلت سورة براءة لتخبرنا أن الله ورسوله براء من تلك المعاهدة التي خانتها قريش، وبالتالي فليس على المسلمين التمسك بها أو احترامها: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

ثم تخبر الآيات قريشاً أن لهم مهلة أربعة أشهر، من بعد نزول هذه السورة، لكي يعلنوا توبتهم ورجعوهم للحق: ﴿فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾(٢).

إعلان أن قريش نقضت عهدها

عندما يقف الحجاج على جبل عرفات، في الحج القادم، على الرسول أن يعلن على رؤوس الأشهاد، براءة الله والرسول من المعاهدة المعقودة مع قريش، وأن قريش مخيرة بين التوبة والرجوع للحق أو إعلان الحرب: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣).

وإعلان الرسول المهلة على رؤوس الأشهاد، حتى لا يقال بأن المسلمين خرقوا معاهدتهم وقاتلوا قريشاً بعدما أعطوها الأمان، وليعلم القاصي والداني أن قريش هي التي نقضت العهد.

ونميل للقول إن إعلان الرسول للمهلة في عرفات كان في السنة التي حج فيها الرسول وخطب فيها بالناس، وسماها الإخباريون خطبة الوداع. والوقوف

على جبل عرفات ركن من أركان الحج، يجب على كل حاج الوقوف عليه لذكر الله وتسبيحه والابتهال إليه: «فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ»[1].

والرسول إن كان قد خطب في ذلك اليوم فلأن الله أمره بذلك لسبب هام وهو إعلان براءة الله ورسوله من المعاهدة المعقودة مع قريش، وقراءة سورة براءة عليهم، وليس لأن خطبة الرسول من أعمال الحج. فالوقوف بعرفات يجب على الحجاج ليذكروا الله، دون أن يكون هناك خطيب يخطب فيهم. لكن يبدو أن الحكام من قريش فرضوا الخطبة على الناس لكي تكون فرصة لإعلان سياستهم على الجموع القادمين من أطراف دولتهم. وتوارثها الناس، كجزء من دين الله، الذي ليس للناس فيه شرك.

وكالعادة حول رجال الدين سياسة الحكام إلى جزء من دين الله، وقالوا إن الرسول في عرفات لم يعلن براءة الله والرسول من معاهدة قريش، كما يقول القرآن، ولكنه خطب في الناس كجزء من الحج. ونسبوا للرسول كلاماً ومواعظ كثيرة قالها في تلك الخطبة، مع أنه لم يزد عن إعلان ما أمره الله بإعلانه. وبعد موت الرسول أصبحت الخطبة على جبل عرفات جزء من الوقوف على الجبل. وهذا تقليد ابتدعه السلاطين، وليس عبادة. لأنه لا يمكن أن يتعبد الله بسماع خطبة سياسية يروج لها سلاطين بني أمية والعباس ومن جاء بعدهم، سواء خطب السلطان أو خطب رجل دين ينوب عنه.

بعد انتهاء المهلة

إن لم تتراجع قريش عن عدائهم للمسلمين بعد انتهاء المهلة المعطاة، فيجب حصارهم اقتصادياً، والترصد لهم، وملاحقتهم في كل مكان يتواجدون فيه، ومن عُثر عليه منهم فاقتلوه: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) ١٩٩ البقرة.

حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾.

والمهلة المعطاة لقريش والمحددة بأربعة أشهر تنتهي بنهاية آخر شهر من الأشهر الحرم، وهو المحرم، وهذا يدل على أن السورة نزلت في رمضان.

وإعلان الحرب بعد انتهاء المهلة، إن لم تعد قريش لرشدها، لا يشمل بعض القرشيين الذين التزموا ببنود المعاهدة معكم ولم يوالوا أعداءكم أو يتعاونوا معهم أو حرضوا عليكم: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴿٤﴾.

وقوله «ولم يظاهروا عليكم أحداً» دليل على أن نقض المعاهدة مع المسلمين كان بقيام بعض قريش بمعاونة وتشجيع أناس غيرهم لحرب المسلمين.

والمعاهدة التي خانتها قريش هي تلك التي أبرمتها مع المسلمين يوم الفتح، كما تشير لذلك الآيات التالية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴿٨﴾ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٩﴾ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴿١٠﴾.

فقد عقد أهل مكة معاهدة مع المسلمين عند المسجد الحرام، يوم الفتح. وقريش وقعت المعاهدة ليس حباً بالسلام، ولا موالاة للمسلمين، ولكن لأنها كانت الجانب الضعيف. فوقعت المعاهدة لحماية الأنفس والأموال، والإبقاء

على العقائد: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴿٢٤﴾.

إلّا أن قريشاً لم تبق على هذا الميثاق، طويلاً، وسرعان ما نقضته وعاد أغلب رجالها لسابق عدائهم للمسلمين بكل أشكاله، بينما أبقى القليل منهم على المعاهدة، ولم ينقضها.

وكما سبق وذكر، فالسورة أعطت قريش مهلة أربعة أشهر: «فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ».

وبعد ذلك فهم مخيرون بين إعلانهم التوبة، والعودة لما نصت عليه معاهدة الفتح، وإن لم يفعلوا فهو أذان بالحرب بينهم وبين المسلمين «فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

ومهلة الأربعة أشهر تنتهي بنهاية آخر يوم من شهر المحرم، لأن الأشهر الحرم: شوال، ذو القعدة، ذو الحجة، والمحرم. وهو ما سيعلنه الرسول يوم الحج الأكبر «الوقوف بعرفات»، على مسمع كل الحجاج القادمين من كل مكان من الجزيرة «وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».

فإن ثابت قريش لرشدها، قبل انتهاء المهلة، وأرادت الدخول في الإسلام، فأهلا بهم: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴿١٢﴾.

وإن انتهت المدة ولم تتراجع قريش فهذا يعني إعلاناً للحرب عليها، لأنها نقضت العهد، وخانت المسلمين: «وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ».

وفي هذه الحالة سيقاتلهم المسلمون بكل قسوة وسيلاحقونهم ويقتلوهم

ويأسروهم ويحاصروهم في كل مكان يتواجدون فيه. ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٥﴾﴾.

وقريش ليس فقط نقضت العهد مع المسلمين، بل حاولوا إخراج الرسول من مكة، أثناء تواجده فيها يوم الفتح. مثلما أخرجوه والمسلمين من مكة وأرغموهم على الهجرة: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ﴿١٣﴾﴾.

وإن أصروا على العداء وتحتم عليكم قتالهم فقاتلوهم بكل غلظة، ليعذبهم الله في الدنيا على أيديكم، وليشفي غيظ بعض مسلمي مكة من العبيد والمستضعفين السابقين الذين تعرضوا لأصناف التعذيب على أيدي القرشيين ليردوهم عن دينهم: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٥﴾﴾.

كما أن قتال المعاندين من قريش سيكون تمحيصاً وامتحاناً لمسلمة قريش: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٦﴾﴾.

ومسلمة قريش، كانت لهم مواقف تعاطف وولاء لأقاربهم من مشركي قريش، ومشاحنات مع مسلمي مكة المستضعفين، كما سبق وذكر في أحداث مراحل مكة الأخيرة وفي أول مراحل الدعوة في المدينة. وملاحقة المشركين وقتلهم والتضييق عليهم سيظهر إن كان مسلمة قريش لا زالوا يشعرون بالموالاة لهم. وتحذرهم الآيات مسبقاً من الشعور نحوهم بالولاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴿٢٤﴾.

عقوبات إضافية على قريش

لقد تم فرض عقوبات إضافية على قريش لنقضها للعهد، وأهم هذه العقوبات:

سحب شرف صيانة البيت منها

تقول السورة إذا كانت قريش تتباهى بأنها تقوم على خدمة بيت الله، فيجب أن يطهر بيت الله من الشرك والمشركين، ويتولى خدمة البيت من آمن بالله. ولا يمكن أن تقارن سقاية الحاج وخدمة البيت التي تقوم بها قريش مع الدخول في دين الله والجهاد في سبيله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿٢٢﴾.

ويبدو أن قريشاً قد احتجت على أن خدمة البيت والحجاج حق إلهي لها وحدها، توارثته من أبيها إسماعيل، ولا حق للرسول أن ينتزعه منها. فجاءت الآيات لتقول لهم إن صيانة البيت وخدمة الحجاج أعطيت لإسماعيل وبنيه

عندما كانوا مسلمين موحدين، أما قريش فمشركين، ولا يمكن أن يقوم المشرك على خدمة بيت الله «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ».

لذلك تؤخذ منهم وتعطى للمسلمين ولو من غيرهم «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

ولو آمنت قريش، فستبقى صيانة البيت لهم، لكن السورة تقول بوضوح إنهم حتى تلك اللحظة لم يؤمنوا وبقوا على كفرهم وشركهم، بعد مرور عام على فتح مكة. ومع كفرهم وإصرارهم عليه، فهم يطالبون بالاحتفاظ بحق صيانة البيت وخدمة الحاج.

والمستفاد هنا هو أن خدمة البيت لا تكون إلا بيد المتقين، ولا يجوز تسليمها للكفار والمنافقين والفاسقين.

ولأن قريش لم تؤمن فلم تكتف السورة بحرمانها من خدمة البيت بل كان هناك عقاباً أكثر صرامة صدر ضدها، يتمثل بالتالي:

حرمان قريش من دخول الحرم

حيث تختم السورة حديثها عن خيانة قريش بفرض عقوبة أزلية بحقهم، تتمثل بحرمانهم من دخول المسجد الحرام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٢٨﴾﴾.

وهذا الحرمان يبدأ سريان مفعوله بعد عامهم هذا أي بعد موسم حج ذلك العام، حيث تكون المهلة المعطاة لهم للتراجع قد انتهت.

والتحريم ينحصر بدخول المسجد الحرام، ولا يعني إجلاء قريش من مكة. فلهم البقاء في مكة، لكن يحرم عليهم دخول المسجد.

والفرق هام جداً، ويخالف ما هو متعارف عليه عند الناس من أن مكة يحرم دخولها على غير المسلم. والحقيقة أن القرآن يخلو من أي إشارة لذلك، والآية الصريحة حول حظر دخول غير المسلمين للمسجد الحرام هو في هذه الآية. وهو مقيد، وليس حظراً مطلقاً، بمعنى أنه يحظر على مشركي قريش دخول المسجد، كعقاب لهم على خيانتهم لمعاهدتهم مع المسلمين التي وقعوها يوم الفتح. لكن يمكنهم البقاء في مكة، كما يمكن لأي مشرك مسالم من خارج قريش أن يدخل مكة والمسجد الحرام دون قيود.

وتحريم دخول مكة على غير المسلمين، تحوير للحقيقة. حيث حور السياسيون الذين كتبوا التاريخ منع قريش لدخول المسجد الحرام بسبب خياناتهم للعهود مع المسلمين، ليكون منعاً لغير المسلمين من دخول كل مكة، وكأن قريش لا علاقة لها بالأمر. وتوارثناه كالعادة، ولم نلتفت لحكم الله كالعادة. وإلا فالحرمان لقريش الذين حكمت أجيالهم اللاحقة دولة الإسلام وحكمت مكة بمباركة رجال الدين.

وهناك موضوع آخر تطرقت له السورة في حديثها عما سيحل بقريش لو لم تنصاع، وهو:

التعامل مع اللاجئ السياسي

تقول السورة: في حال نشبت الحرب مع قريش، ولجأ أحد المشركين للمسلمين، فعليهم إجارته، حتى يسمع كلام الله، فإن آمن بالله ودخل الإسلام، وإلا يوصل إلى مكان آمن، لا يستطيع قومه الوصول له، ولا يبقى عند المسلمين، محمياً، معززا مكرماً، وهو عدو لله وللرسول، ولا يرقب في مسلم ولاء ولا ذمة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴿٦﴾﴾.

ومما سبق يمكن استخلاص العديد من القوانين وضوابط الجهاد، والتي منها:

* إذا وقعت دولة الإسلام معاهدة سلام مع الأعداء، فيجب الالتزام ببنودها، وبمدتها.

* إذا نقض الأعداء بعض أو كل بنود معاهدة سلام معقودة معهم، فيعطون مهلة لا تزيد عن أربعة أشهر، لمراجعة أنفسهم والعودة للالتزام بالمعاهدة.

* إذا جاء اليوم المحدد لانتهاء المهلة، ولم يتراجع العدو، يتم إعلان الحرب عليه. ويحارب بكل قسوة وبلا هوادة، ويلاحق ويحاصر، ويضيق عليه اقتصاديا وإعلامياً.

* إذا كان هناك بعض الأعداء التزموا بالمعاهدة ولم ينقضوها، فيجب أن يلتزم المسلمون بالمعاهدة معهم، ويستثنون من إعلان الحرب عليهم.

* يجب على المسلمين الالتزام بأي معاهدة مبرمة مع العدو ولا يجوز نقضها أو مخالفتها بأي حال من الأحوال.

* مكة والمسجد الحرام ليست محرمة على الكفار المسالمين.

* لا يجوز القتال والنزاع في مكة، إلا إذا استولى على مكة كافر وبدأ الحرب على المسلمين فيها، فيقاتل.

* لا يجوز القتال أثناء الأشهر الحرم، إلا إذا هاجم المسلمين عدو.

كما أن هناك قوانين للجوء السياسي وقوانين أخرى، سنتعرض لها في كتاب آخر عن التشريعات في القرآن، بعون الله، إن امتد بنا العمر.

وسورة براءة تخبرنا عن أحداث سكت عنها التاريخ، لأنها غيبت عن صفحاته المكتوبة لنا، أو حورت لأحداث لم تقع. وتبين السورة أن قريش لم يستكينوا لدولة الإسلام بعد الفتح، وأنهم كانوا ينقضون المواثيق مع المسلمين، واستمروا بحرب الله ورسوله.

ونتساءل إن كان القرشيون قد نقضوا معاهدتهم يوم الفتح مع المسلمين من عند أنفسهم أم بتحريض طرف أو أطراف أخرى؟

والآية الرابعة تؤكد أن قريش ظاهرت على المسلمين أعداء لهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي ساندت وعاونت أعداءً للمسلمين على حرب المسلمين. فقريش نقضت المعاهدة بمساندة أعداء آخرين، ولم تكن قريش هي التي طلبت العون والمساندة من الغير.

فمن الذين عاونتهم قريش أو حرضتهم على حرب المسلمين؟

بنو إسرائيل

بعد الحديث عما يجب فعله حيال قريش، تأمر السورة المسلمين بقتال بني إسرائيل، كجزء من تصفية الحسابات مع من تآمر على دولة الإسلام: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴿٢٩﴾﴾.

ومن الوهلة الأولى كأن الآية تقول للمسلمين: يجب قتال كل من ينتمي لبني إسرائيل حتى يعطي الجزية. لكن الواقع يقول إن المسلمين لم يتعرضوا لبني إسرائيل تيماء، أو وادي القرى، أو اليمن، وغيرها. وهذا يدل على أن المطلوب قتالهم من بني إسرائيل هم من تعاون مع أعداء الإسلام على حرب المسلمين. ولأن مجموعتين من بني إسرائيل قد خرجتا من يثرب قبل هذا التاريخ، فالأمر بقتال من كان لهم يد في الفتن الأخيرة وقلاقل ما بعد الفتح ضد المسلمين.

ويبدو أن من بقي من بني إسرائيل في يثرب، لم يقاتلهم المسلمون ولم يفرضوا عليهم الجزية، لأنهم بقوا مسالمين ولم يناصروا أعداء المسلمين.

ولأن كتب التاريخ تذكر أن المسلمين هاجموا خيبر، وفرضوا عليها

الجزية، فمن المحتمل أن هذا الهجوم تم بعد نزول هذه السورة وتلبية لأمر الله في الآية السابقة. وليس كما يزعم الإخباريون أن خيبر قد فتحت قبل فتح مكة. كما أن قولهم إن خيبر دخلها المسلمون عنوة، لا أساس له من الصحة. وقد أكدنا في سنة الأولين أنه لا يمكن أن يكون قد حدث قتال بين المسلمين وأهل خيبر.

وهنا نؤكد ما ذكرناه هناك، لأن السورة تأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون. ولو أعطوا الجزية والتزموا بعدم معونة الأعداء فلا يجوز قتالهم. وخيبر يبدو أنها أعطت الجزية.

أما لماذا فرضت الجزية على خيبر ولم تفرض على بلاد بني إسرائيل الأخرى المجاورة مثل تيماء ووادي القرى، فالسبب يعود إلى أن بعض من أجلي من يثرب استقر في خيبر واستمر يحيك المؤامرات على المسلمين، فتم طردهم منها، وتغريم أهل خيبر جزية تدفع لبيت مال المسلمين كعقوبة لهم لإيوائهم الأعداء.

وقد بقيت بقية بنو إسرائيل في يثرب، ولم يغادروها، ولم تفرض عليهم جزية، حالهم حال الكثير من بني جلدتهم في المناطق المجاورة للمدينة، لأنهم لم يعادوا المسلمين ولم يظاهروا عليهم أحداً. وفي عصور لاحقة هجرت تلك البقية بلادهم مختارين، أو نتيجة لضغوط سياسية أو اجتماعية لا شأن للإسلام بها. أو أنهم غادروا شمال جزيرة العرب إلى فلسطين مختارين، في أواخر عصر الأمويين وبداية عصر العباسيين، عندما قويت أصوات اليهود لقيام دولة لهم في فلسطين[1]. وهو الراجح، لأن التاريخ لا يسجل أي عنف حدث ضدهم من المسلمين كان السبب وراء رحيلهم على الإطلاق. ومن المهم هنا ملاحظة أن خيبر وقعت بعد الفتح، وليس قبله، كما يزعم المؤرخون.

---

(١) الرجاء الرجوع لفصل من كتب التاريخ / فقرة: الإسرائيليات

قتال كل من شارك في جيش التحالف

بعد قريش والروم وبني إسرائيل، تلتفت السورة لمن شارك في الأحزاب الثانية، وتصدر بحقهم ما يلي: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴿٣٧﴾.

والآيات دعوة للمسلمين لقتال كل من شارك بجيش التحالف الثاني، وكلهم مشركون، وهم: أهل الطائف، ومن عاونهم من القبائل، إضافة لجيش من الفرس «وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً». لكن يجب احترام العهود المواثيق الدولية، مثل تحريم القتال في الأشهر الحرم. فهو قانون دولي معمول به في كل أنحاء جزيرة العرب، لذا يجب على المسلمين احترامه وعدم خوض أي معركة خلال هذه الأشهر، إلا إذا ما تعرضوا لهجوم. كما يجب على المسلمين احترام المواثيق الثنائية. وعلى المسلمين أن يبطلوا عادة ابتدعتها قريش، في الأشهر الحرم، تتمثل بما يعرف بالنسيء. وهو تقديم أو تأخير شهر من الشهور الحرام باستبداله بشهر ليس بحرام، ليعود ترتيب الأشهر كما كانت في ترتيبها الأصلي.

والسورة تظهر بوضوح أن آخر عهد الرسول كان معارك مستمرة. وتكون تلك الغزوات التي ذكرتها كتب الأخبار وقعت في تلك السنة، ضد من حارب الإسلام وتعاون مع قريش. وليس هناك غزوات للتوسع أو لطلب الغنائم كان الرسول يشنها منذ وصل للمدينة على القبائل كما صور التاريخ الذي كتبته قريش لتمسخ الحقائق وتنسي الناس موقف الإسلام منها وأنها قد خانت معاهداتها مع المسلمين بعد الفتح وبقيت عدواً لله ورسوله حتى مات رسول الله.

وبراءة تنقل لنا الصورة التي كانت عليها الأوضاع في السنة التي توفي فيها رسول الله، وكان آخر ما تحدثت عنه، غزوة قام بها الرسول وحشد لها أكبر حشد لجيش مسلم في عصر الرسول، واعتبر التأخر عن الخروج مع ذلك الجيش بدون عذر خروج عن الدين. وفيما يلي تفاصيل ما تحدثنا به السورة عنه وعن نتائج تلك الحملة:

قتال الروم / أكبر الحملات العسكرية في عصر الرسول

بما أن براءة كانت آخر سورة نزلت من القرآن فيما عدا سورة الإخلاص. وبما أن سورة الإخلاص لا تتحدث عن أي معارك خاضها المسلمون. فإن هذه الغزوة التي تحدثت عنها سورة براءة تعتبر أكبر الحملات العسكرية في عصر رسول الله.

أهمية الحملة

لقد حشد لها الرسول كل ما أمكنه من رجال وعتاد، بدرجة فاقت أي حشد لحملة أخرى بما في ذلك فتح مكة. مما يدل على أهميتها القصوى للإسلام ودولته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٣٩﴾ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾ انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٤١﴾﴾.

فلم يكن مسموحاً لأحد يزعم أنه مسلم أن يتأخر عن الخروج، حتى من لا يملك السلاح والدابة «انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ».

واعتبر التخلف عنها خروج من الدين: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴿٤٥﴾.

لدرجة لم تقبل توبة من تخلف عنها سوى من ثلاثة فقط، كما سنرى.

وتلقى الرسول العتاب من ربه لسماحه لمن استأذنه في عدم الخروج، فقد كان يجب عليه انتظار الوحي ليعرف من كان صادقاً ومن كذب في اعتذاره: ﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴿٤٣﴾.

ونهي الرسول عن قبول توبة البقية من المتخلفين أو الصلاة على من يموت منهم أو قبول انضمامهم للمسلمين، بعدما يعود للمدينة، بل وأعلنت الآيات كفرهم: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴿٨٣﴾ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴿٨٤﴾.

وكانت موجهة لمكان بعيد وسفر شاق: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٤٢﴾.

وفي فصل الصيف الحارق، كما نتبين من كلام من تخلف عن الخروج: ﴿..... وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴿٨١﴾.

ما الذي جرى

القرآن وكتب الأخبار لا تذكر أن تلك الحملة قد التحمت في قتال مع الأعداء، برغم تكبدها مشقة عناء ترحال شاق ومنهك في فصل حار وغير مناسب. وقد ذكر في كتاب سنة الأولين أن السبب هو أن الحملة كانت تطارد فلول بني إسرائيل الذين استقروا في تبوك واستمروا في إثارة الفتن ضد المسلمين، وأن المطاردين استطاعوا الانسحاب لبلاد الشام التي تسيطر عليها روما، قبل إدراك جيش المسلمين لهم. لذا عاد الرسول بالجيش للمدينة لأنه لا يرغب في إثارة الرومان عليه لو دخل بلادهم لملاحقة بني إسرائيل.

وهنا يمكن القول أن ذلك الاحتمال قد لا يكون صحيحاً، وأن هناك احتمال آخر يتمثل بما يلي:

أن الحملة لتبوك هدفها محاربة الغساسنة، كجزء من أمر الله بمواصلة قتال كل من أعلن الحرب على الإسلام في جيش التحالف، وليس تتبع فلول بني إسرائيل قليلي العدد. لذا حشد لها أكبر عدد ممكن من المسلمين، ولم يقبل لأحد أن يتخلف عنها.

ورجوع الحملة من تبوك قد يشير إلى أن الغساسنة كانوا قد وجهوا جيشاً للغارة على المدينة، رداً على ما حدث في مؤتة. فقد اعتبروا إرسال المسلمين جيشاً لحربهم، ولو بحجم جيش مؤتة في الصغر، تحرش غير مقبول، فأرسلوا جيشاً لتأديبهم. وقد علم الرسول بنيتهم تلك فبادر بالخروج إليهم ليلقاهم بعيداً عن المدينة. لكن جيش الغساسنة فضل التراجع بعدما سمع أن حشود المسلمين هذه المرة كبيرة.

ولو كان الرجوع من تبوك بسبب خوف المسلمين أو تراجعهم عن لقاء الروم، لفضحهم القرآن.

العبرة

أجدني أميل أكثر الآن إلى احتمال أن غزوة تبوك موجهة للغساسنة، وأعتقد أن الحملة أوصلت رسالتها للروم مع أنه لم يحدث قتال بينهم وبين المسلمين في تبوك. فالحرب التي بدأوها على المسلمين في الأحزاب، دون أن يعتدي عليهم المسلمون أو يتسببوا بأي ضرر لهم، قد فتحت عليهم باباً لن ينغلق حتى يطردوا من بلاد العرب وكل الشرق الأوسط، كامتثال لأمر الله بتصفية الحسابات مع كل من اشترك في جيش التحالف الغازي: ﴿... وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿٣٦﴾ التوبة.

وفيما يلي ما أخبرتنا به سورة براءة عن حنين وما حدث فيها، والذي أخرناه إلى هنا:

حنين / الأحزاب الثانية

ما رسخته كتب الأخبار عن حنين لا يمكن أن يكون قد حدث بالفعل على أرض الواقع، ويتعارض مع عدد من المسلمات.

أسباب المعركة

سورة الفتح تتحدث عن فتح مكة وكيف دخلها المسلمون، وعن المتخلفين عن الفتح من الأعراب والمنافقين، لكنها لم تتحدث عن حنين. والفتح يقول الإخباريون إنه كان في أواخر رمضان من السنة الثامنة، وحنين بعده في شوال من نفس العام.

فهل كانت حنين نتيجة لتحريض قريش أهل الطائف، ومعهم جيش فارسي حضر لمعاونتهم بناءً على طلب من قريش التي ترتبط بالحيرة بروابط تجارية وعلاقات قديمة؟

وكانت الخطة تقضي أن يشن القادمون من الطائف هجوماً على المسلمين، وإذا ما احتدمت المعركة، تهاجمهم قريش من الخلف لتربكهم وتشتت صفوفهم، ويسهل القضاء عليهم.

ولو كان هذا ما حدث فهو صورة طبق الأصل للسيناريو الذي كان متفقاً على تنفيذه في غزوة الأحزاب. والمتمثل بأن تهاجم جيوش التحالف المدينة من الشمال، فإذا احتدمت المعركة، أو هرب المسلمون، تلقوهم بني إسرائيل من الجنوب. ومكان معركة حنين القريب من مكة، يؤيد تصورنا.

وبعد أن جرت المعركة وهزم أحزاب الطائف، وانكشف خداع قريش، لم يعد الرسول لمكة، بل سار بالمسلمين إلى المدينة، وهو ما تذكره كتب الأخبار أيضاً. ولو أن قريش لا يد لها فيما حدث في حنين، فالمنطق يقول إن الرسول وجيش المسلمين سيعودون لمكة ولو لبضعة أيام يرتاحون فيها بعد القتال ويضمدوا جراحهم الجسدية والنفسية قبل العودة للمدينة.

لكن الرسول عاد مباشرة للمدينة لينتظر نزول الوحي حيال ما حدث، لأن مكة لم تعد تحت حكم المسلمين، ولا بلداً مسالماً. وانشغل المسلمون لبعض الوقت بغزوات جانبية لتأديب القبائل المعادية، ثم خرجوا في جيش كبير لتأديب الروم، وهو جيش تبوك الذي تحدثنا عنه سابقاً، وفي طريق عودتهم للمدينة نزلت سورة براءة على الرسول.

ومعركة حنين حدثت بالقرب من مكة، وفيما يعرف اليوم بالشرائع العليا أو شرائع النخيل، والتي تبعد عن الحرم المكي بأقل من ٢٥ كم، بينما تزيد المسافة بينها وبين الطائف عن ١٠٠ كم عن طريق السيل الكبير، طريق القوافل. مما يعني أن تحالف الطائف هم من خرج لمهاجمة المسلمين أثناء تواجدهم في مكة، وبتدبير وتخطيط من قريش التي علمت بقدوم جيش الفتح لمكة. فقامت بالاتصال بأهل الطائف وتم الاتفاق على أن توقع قريش معاهدة

استسلامها ظاهرية للمسلمين، في الوقت الذي تتحرك فيه جيوش الطائف. وحالما تصل الجيوش مكة وتهاجم المسلمين، تقوم قريش بمهاجمة المسلمين من داخل مكة. لكن المسلمين علموا بخبر قدوم جيش الطائف وخرجوا لملاقاتهم، فحدثت المعركة في حنين خارج مكة التي قبعت فيها قريش بعد أن افتضح أمر خيانتها.



وكنت قد ذكرت في كتاب سنة الأولين أن الرسول عندما علم أن أهل الطائف ينوون مهاجمة المدينة، سارع هو بمهاجمتهم ونقل المعركة لبلادهم، بدلاً من انتظار مهاجمتهم له، ذلك أني بنيت تلك المرئيات على أساسين، هما:

* أن حنين وقعت بعد فتح مكة بعام على الأقل، وبالتالي فالرسول يفترض به أن يكون في المدينة، ومن هناك تحرك باتجاه الطائف، على افتراض أنه يريد نقل المعركة لهم بدل انتظارهم لمهاجمة المدينة.

* أن حنين الذي جرت فيه المعركة قد أغفلت كتب السير موقعه، فظننت ـ دون تمحيص ـ أنه قرب الطائف. إذ من المنطق أن تكون المعركة قرب الطائف على افتراض أن جيش المسلمين هو الذي هاجم الطائف.

لكن بعدما تبين لي أن المعركة حدثت مباشرة بعد فتح مكة وفي وادي حنين الملاصق لمكة، تبدلت المرئيات، خاصة أن سورة براءة تشير إلى حقائق واضحة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٧﴾.

وتكون حنين هي الأحزاب الثانية، والتحالف ضد المسلمين كان من هوازن وثقيف وما جاورهم ومعهم جيش فارسي، في محاولة يائسة وأخيرة من قريش للقضاء على المسلمين.

سير القتال

لقد خرج المسلمون لملاقاة الجيش الغازي الذي تواردت الأخبار أنه قادم لمكة، بعد أن عرفوا بالمخطط القرشي الطائفي المشترك. ويبدو أن المسلمين فوجئوا بالعدو وقد نصب لهم كميناً في أحد المضايق على الطريق. ولأن كثيراً من جيش المسلمين خرجوا من المدينة طلباً للغنائم، ظناً منهم أن الرسول سوف يستبيح مكة، ولم يخرجوا في سبيل الله، فإنهم لاذوا بالفرار بمجرد ما فوجئوا بكمين أهل الطائف. مما تسبب في بلبلة جيش المسلمين لبعض الوقت إلى أن استطاع المؤمنون لملمة صفوفهم، والاشتباك مع العدو وهزيمته: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ

الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٧﴾.

وقد أكدنا استحالة أن يكون الرسول قد سبى نساء أهل الطائف في كتاب سنة الأولين، واستحالة حدوث المعركة بالشكل الذي روته كتب الأخبار، التي شوهت الحقيقة لتغطية خيانة قريش.

كما أن الاستعانة بالمناذرة ـ عملاء فارس ـ لحرب المسلمين واردة ومحتملة، نظراً لقوة الروابط التي تربط قريش بهم، ووجود طريق قوافل مطروق بين مكة والعراق منذ القدم، والذي جدد بأمر من صاحبة السمو الملكي زبيدة زوج الرشيد.

تعرية الأوضاع

فيما سبق استعرضنا إعلان السورة ما يجب فعله تجاه كل من شارك في جيش التحالف، سواءً من كان منهم في جزيرة العرب، مثل قريش، وأهل الطائف، وبعض القبائل العربية، أو خارج الجزيرة كالروم والفرس. وبعد ذلك تتحدث الآيات عن مواقف الناس من حملة تبوك لتظهر الصورة الحقيقية للمجتمع في المدينة الذي يتسمى أفراده بالمسلمين، في أواخر أيام رسول الله، وتعريته من الزيف، وتسمية كل طائفة بما يليق بها:

وتقول السورة إنه إن كانت قريش أو القبائل الأخرى المتعاونة معها والبعيدة عن المدينة قد ثبت كفرهم، فمن المتوقع أن يكون أهل المدينة ومن يعيش حولها من الأعراب هم المسلمون حقاً: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴿١٢٢﴾.

لكن هؤلاء الذين يتسمون بالمسلمين، بوجه عام، منذ وجدوا أنفسهم مجبرين على القتال، وهم غير متحمسين له، ويخرجون للمعارك وكأنهم يجرون على وجوههم، كما سبق وأشارت السور المدنية. وهذه السورة تقول إنه كلما دعاهم الرسول للخروج لملاقاة العدو تثاقلوا وتباطأوا وتمنوا لو يجدون وسيلة تعفيهم من القتال، كرهاً بالموت، وخوفاً من فقدان الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴿٣٨﴾.

وقد نزلت آيات في سور سابقة تحذرهم من مغبة تصرفاتهم، إلا أن مشاعرهم نحو الجهاد بقيت دون تغيير، بدليل أن هذه السورة التي نزلت في آخر حياة الرسول تكرر تحذيرهم: ﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٣٩﴾.

وتقول لهم إن الله سينصر دينه بكم أو بدونكم، ولو امتنعتم عن نصرة رسول الله فسينصره الله، كما فعل فيما سبق، عندما لم يصحبه في خروجه من مكة سوى صاحبه (أبو بكر): ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾.

فإن كنتم مسلمون حقاً فـ﴿انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٤١﴾.

لأن القتال وبذل النفس هو الامتحان الحقيقي الذي يمكن التفريق بواسطته

بين المؤمن وغيره. لذا قامت السورة بوضع تصنيف لمن تسموا بالمسلمين بناءً على مواقفهم من حملة تبوك:

أولاً: المنافقون

وهم إما من أهل المدينة أو من الأعراب القاطنين حولها: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴿١٠١﴾﴾.

المنافقون من أهل المدينة

وهم عدة أنواع كما يلي:

* البعض تخلف عن الخروج، لأن الرحلة شاقة وبعيدة، وهي لقتال أناس ذوي بأس شديد، ولو حدث قتال ضدهم فنسبة القتل كبيرة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٤٢﴾﴾.

وقد حضرت هذه الفئة للرسول قبل خروج الجيش من المدينة، وحلفوا له أنهم يتمنون الخروج، لكن لديهم ما يمنعهم. وقد صدقهم الرسول وسمح لهم بالبقاء.

وقد وبخ الله الرسول على تسرعه وسماحه لهم قبل أن ينزل عليه الوحي: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴿٤٣﴾﴾.

وتقول الآيات للرسول إنه حتى لو كانت لديهم أعذار، فقد كان يجب عليهم تذليل الصعاب ونسيان المشاكل والخروج لهذه الحملة الهامة، لأن أي رجل يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يمكن أن يتخلف عن الخروج حتى ولو كانت لديه مصاعب: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴿٤٤﴾﴾.

وكل من يستأذن فهو ليس بمؤمن، بالله ودينه، ولا باليوم الآخر: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴿٤٥﴾.

ولو كانوا ينوون الخروج، وحصل لهم ما يمنعهم كما يزعمون، فستراهم وقد أعدوا للأمر عدته وتهيأوا وتجهزوا، ولكنهم لم يفعلوا أي شيء من هذا القبيل، لأنهم عقدوا النية على عدم الخروج، حتى لو لم تأذن لهم: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴿٤٦﴾.

ولو خرجوا مع الجيش المسلم، لأرجفوا ونشروا الخوف بين الأفراد، ولتسببوا في تدني المعنويات: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴿٤٧﴾.

وقد تكرر تأخرهم لأكثر من مرة في السابق: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴿٤٨﴾.

ومن ذلك ما تحدثت عنه سورة الفتح، وسورة الأحزاب.

* وهناك فئة حضروا للرسول أيضا، وطلبوا منه السماح لهم بالتخلف عن الخروج مع الجيش بحجة أن خروجهم فتنة لهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴿٤٩﴾.

وبطبيعة الحال تأخرهم هو الفتنة لأنه سيرديهم في نار جهنم.

وتسرد الآيات بعض مشاعرهم نحو المسلمين: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً

أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴿٥٤﴾ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴿٥٧﴾.

* ومنهم من أعلنوا إسلامهم للحصول على منافع دنيوية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴿٥٩﴾.

والصدقات تعني الإنفاق، الذي ليس لهم حق فيه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٦٠﴾.

* ونود أن نتوقف هنا قليلاً، لندعو القراء لملاحظة قوله «وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا». فهي المرة الأولى والوحيدة في القرآن التي يصنف العاملين على الصدقات، أي المكلفين بجمع الإنفاق، ممن يصرف لهم من الإنفاق.

وهو ما يشير إلى أن بعض المسلمين قد كلف بجمع الإنفاق والإشراف على صرفه في مجالاته. وإعطاؤهم منه يكون بما يكفيهم قوت يومهم، لأنهم تركوا البحث عن الرزق وتفرغوا لتحصيل الإنفاق. وعطاؤهم منه يجب أن يكون مماثل لعطاء المسكين وابن السبيل والفقير وغيرهم ممن يحق له الإنفاق. وللأسف الشديد فقد حور رجال الدين هذا المفهوم الواضح، وجعلوا لمحصل ما سمي بالصدقات الحق بأخذ حصة أكبر من حصة أي مستحق آخر. وفي هذا العصر، وفي بلاد الحرمين، نرى المسؤولين عما يعرف بالجمعيات الخيرية، التي تتولى الإنفاق على المحتاجين، لا بد وإلا

يصيبهم الثراء، إلا من رحم ربي منهم، وهم القلة. مقنعين أنفسهم أن من حقهم في دين الله أن يحصلوا على ما حصلوا عليه.

* وهناك فئة من المنافقين يتحدثون في مجالسهم عن الرسول أنه لا رأي له، ويتأثر بسهولة بما يقال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴿٦٣﴾.

وما يؤكد أن ما سبق فئات مختلفة من المنافقين، وليس فئة واحدة لها هذه الصفات المختلفة، أن الآيات تكرر لفظ «ومنهم». وكلهم على اختلافهم كفار لن يغفر الله لهم: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴿٨٠﴾.

المنافقون من الأعراب

وهم أنواع:

* بعضهم لم يؤمنوا وليست لديهم النية للإيمان: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٩٧﴾.

* وبعضهم أنفق، لكنه اعتبر ما أنفقه وسيلة ابتزاز ومنة على الرسول: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿٩٨﴾.

والمنافقون من الأعراب بمختلف أنواعهم تخلفوا عن الغزوة، وعن

غزوات سابقة: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿٩٠﴾﴾.

وكل فئات المنافقين حاضرة وبادية، كفار وإن تسموا بالإسلام: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴿٦٥﴾ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴿٦٧﴾ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿٧٢﴾﴾.

وقد نزلت الآيات ترشد الرسول للطريقة التي يجب التعامل بها معهم مستقبلاً: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

حرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴿٨٣﴾ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴿٨٤﴾ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴿٨٧﴾.

ولأنهم يعيشون وسط المسلمين فضررهم على الإسلام أكثر ضرراً من الكفار الآخرين، لذا نزل بحقهم في آيات سابقة ما يلي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴿٧٤﴾.

وهذا القانون يعني وجوب قتال كل من تسمى بالإسلام ولكنه لم يسلم، حتى لو أدى بعض العبادات والأوامر الإلهية.

ثانياً: المؤمنون

بعضهم خرج للقتال وقد جاهدوا بالنفس والمال:

وهم من أهل المدينة: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿٨٩﴾.

ومن الأعراب: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا

يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٩٩﴾.

وهم ممن أسلم فيما بعد وانضموا للمسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١٠٠﴾.

وهؤلاء هم من قامت عليهم دولة الإسلام، وهم من نصر الله بهم دينه: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴿١١٢﴾.

وحتى هؤلاء المؤمنون استمروا يكرهون الجهاد، وكاد البعض منهم أن يرفض الخروج مع حملة تبوك: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١١٧﴾.

ثالثاً: مسلمة قريش

هناك فئة من مسلمي قريش، برغم أنهم سارعوا لإعلان الدخول في الإسلام في مكة ومنذ المراحل الأولى للدعوة، وهاجروا مع من هاجر للمدينة، إلا لهم مواقف تظهر تعاطفاً وولاءً لأقاربهم من مشركي قريش، منذ أن كانوا في مكة قبل الهجرة. ولم يرغبوا أن يدخل المسلمون في حرب ضد

قريش في بداية الأمر، كما بينت سورة الصف ومحمد. ووقفوا ضد ملاحقة جيش المسلمين لفلول جيش قريش المنهزم في بداية معركة أحد، كما دلت سورة آل عمران. وغير ذلك من مواقف حدثتنا عنها سور سابقة، وذكرناها.

والآيات في بداية السورة تتحدث عن قريش قائلة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٦﴾.

وملاحقة قريش وقتلهم والتضييق عليهم سيظهر إن كان مسلمة قريش لا زالوا يشعرون بالموالاة لهم، أم أن الإيمان قد تمكن من قلوبهم ولم تعد تأخذهم بالحق لومة لائم.

وتخاطب الآيات في مكان لاحق من السورة هؤلاء المهاجرين، وتحذرهم من أن يشعروا بالموالاة لأقاربهم المشركين الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، ونقضوا العهد معهم، وعاونوا أعداءهم. فهم أعداء لله، ولرسوله وللمؤمنين، مهما كانت درجة قرابتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴿٢٤﴾.

وتنهى الآيات أن يستغفر لهم، ويترحم عليهم: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا

إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴿١١٦﴾.

ومع أن السور لم تتحدث عنهم منذ معركة أحد، إلا أن براءة عادت وذكرتهم. مما يعني أنه لم يظهر منهم أي موقف موالاة لقريش طوال تلك الفترة، ولا يعني أنهم توقفوا عن موالاتهم أو تابوا عن ذلك. بدليل أن براءة عادت فضحت أمرهم، وبينت أنهم لم يتغيروا ولم يتخلصوا من موالاتهم لأقاربهم مشركي قريش، حتى بعد أن كانت قريش وراء تجميع جيش التحالف، وبعد أن نقضت معاهدة مكة يوم الفتح مع المسلمين.

ولأنهم لم يتراجعوا عن مواقفهم المعاندة للإسلام، فلن يتراجعوا عنها بعد ذلك. وهذه السورة نزلت في أواخر عصر الرسول، وبالتالي فمن المتوقع أنهم سيظهرون مشاعرهم أكثر بعد وفاة رسول الله، وسيكون لهم دور فيما سيقع من فتن وأحداث بين المسلمين. وقد يكونوا ممن ساهم وساعد على تولي قريش حكم دولة الإسلام.

رابعاً: مؤمنون لم يخرجوا

ليس كل من تخلف عن الغزوة منافقين مكذبين، بل هناك من تخلف وهو صادق الإيمان، ومن هؤلاء:

* الضعفاء والمرضى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى.... ﴿٩١﴾.

* الفقراء والمعدمون الذين لا يجدوا ما ينفقون: ﴿.... وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٩١﴾.

* ومثلهم الذين لا يجدون دابة تحملهم ولا سلاحا يقاتلون به: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴿٩٢﴾﴾.

* وهناك ثلاثة من المؤمنين غلبهم الضعف الإنساني فعصوا ولم يخرجوا، لكنهم تابوا فتاب الله عليهم: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴿١١٩﴾﴾.

بعكس حال المنافقين: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴿٩٦﴾﴾.

خامساً: أصناف أخرى

يثرب ضمت أصنافاً أخرى من المسلمين بينتهم براءة كما يلي:

* ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴿٧٨﴾﴾.

* ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿١٠٥﴾.

* ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١٠٦﴾.

* ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿١٠٧﴾ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٠٩﴾ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿١١٠﴾.

ومهما بلغ عدد أهل المدينة فهم قلة، ومع ذلك فبينهم أصناف كثيرة ليسوا مسلمين برغم تظاهرهم بالإسلام. وهذه الصور التي نقلها لنا القرآن عنهم، تظهر ما كانوا عليه بلا زيف ولا مغالطة للحقيقة. فهم بشر كما البشر في كل زمان ومكان، يحبون الدنيا، وملذاتها، وأغلبهم لم يتمكنوا من جهاد أنفسهم طوال الوقت، فغلب عليهم شيطان التخاذل وتباطأوا في التضحية بالنفس والمال برغم أن من فعل ذلك فله الجنة.

وبين القرآن أنه ليس كل من تظاهر بالإسلام وتسمى مسلماً هو كما قال، ولو كان في زمن الرسول، ورأى الرسول وعاش معه وعايشه في بلدة واحدة.

كما أن المؤمن مهما بلغت درجة يقينه يعتريه الضعف والعصيان والشك، ولا وجود لأولئك البشر الخياليين الذين سموا بالصحابة، وصورتهم كتب الأخبار بمخلوقات لا يمسها لغب ولا نصب في القتال في سبيل الله، ويتسابقون على بذل النفيس من الأموال لتجهيز الجيش.

لقد كان المجتمع المدني هو المجتمع المسلم الوحيد زمن رسول الله في جزيرة العرب، ومع ذلك كان مجتمعاً يضم فئات متناقضة العقائد، والقلة منهم من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴿١٢٥﴾ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون﴿١٢٧﴾.

برغم أن الرسول قد جاء بالمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴿١٢٩﴾.

لكن وجود الحق ووضوحه وصدق الداعي له، لا يكفي للهداية. وسيبقى أكثر الناس بعيدين عن الإيمان: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾ يوسف.

وسورة يوسف نزلت في مكة في وقت لم يؤمن بالرسول سوى أفراد، وكان الرسول يعتريه شعور أن سبب عدم استجابة الناس للحق برغم وضوحه قد يكون أسلوبه هو في الدعوة. فنزلت هذه الآية وآيات غيرها في سور أخرى تؤكد له أن الحق واضح وطريقتك في الدعوة سليمة، لكن هذا لن يجعل

أغلب الناس يؤمنون. لأن الإيمان يتعارض مع المصالح، والمصالح محسوسة بينما وعود القيامة لا يمكن التأكد منها.

وسيبقى أكثر الناس معرضين، حتى لو تظاهروا بالإسلام: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴿٨﴾ البقرة. أ

المحصلة النهائية: لا وجود لمجتمع الصحابة المثالي الذي رسخته كتب الأخبار، ولا عبرة برؤية الرسول أو العيش بعده بقرون. فقد يكون هناك تقاة مؤمنين في أي وقت، يفوقون إيمان من رأى الرسول وصاحبه. والإسلام دين يتلاءم مع العصر الحديث أكثر من عصر الرسول، لأنه دين المنطق والعقل والتفكير، لذا فالمستقبل له وليس لأي عقيدة أخرى.

سورة الحشر

سورة براءة تأمر الرسول والمسلمين بتصفية حساباتهم مع كل من أعلن الحرب عليهم، كما سبق وذكرنا، ومن هؤلاء فريقان من سكان يثرب، هما: طائفة من بني إسرائيل، والمنافقين. ومما ورد في حق بني إسرائيل ما يلي: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿٣٣﴾.

كما ورد في حق المنافقين ما يلي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴿٧٣﴾﴾.

وبما أن السورة نزلت على الرسول وهو في طريقه إلى المدينة عائداً من حملة تبوك، فقد كان أول ما سيفعله بعد وصوله هو مهاجمة تلك الطائفة من بني إسرائيل والمنافقين في المدينة. وسورة الحشر في مجملها تخبرنا عما حدث.

جلاء آخر لبعض بني إسرائيل

تقول الآيات الأربع الأولى من السورة إن قبيلة من بني إسرائيل في يثرب قد اتصلوا بالرسول حال وصوله للمدينة من تبوك وأبلغوه رغبتهم بالجلاء عن المدينة، ولابد أن ذلك حدث بعد انتشار خبر افتضاح أمر خياناتهم للمسلمين: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٤﴾﴾.

وطلب بني إسرائيل الجلاء من يثرب بهذه الصورة، يجعل المثل الدارج ينطبق عليهم، والذي يقول: «كاد المريب أن يقول خذوني». لأن الآيات لا تشير إلى أن المسلمين قد هاجموهم، ومع ذلك ترك بنو إسرائيل أملاكهم وقصورهم ومزارعهم وخرجوا من يثرب بلا رجعة، وهو الجلاء الثاني والأخير لبني إسرائيل من يثرب.

وتعرفنا الآيات (١١ ـ ١٧) على نوع الدسائس التي حاول بنو إسرائيل، بمعية المنافقين، مفاجأة المسلمين بها حال وصولهم للمدينة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ﴿١٧﴾.

إذاً، لقد كان هناك اتفاق بين هذه القبيلة من بني إسرائيل وبين المنافقين على القيام بهجوم على المسلمين بعد عودتهم منهكين من تبوك، والقضاء عليهم. لكن المنافقين عندما حانت ساعة الصفر لم يفوا بوعدهم وتخلوا عن الإسرائيليين، بعد أن افتضح أمرهم، وعلم المسلمون بنيتهم، وما خططوا له.

عندها لم يكن بوسع بني إسرائيل إلا أن يدخلوا في حرب قادمة مع المسلمين، الذين لن يسكتوا عليهم بعد أن تبين لهم خيانتهم، أو ترك يثرب كما تركها بنو أعمامهم قبلهم. وبما أنهم يعلمون جيداً أنهم سيخسرون الحرب لو دخلوا في قتال مع المسلمين، فقد فضلوا شراء حياتهم بالجلاء.

تقسيم الغنائم

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٦﴾ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١٠﴾.

لما خرج بنو إسرائيل من ديارهم وغادروا يثرب، دخل المسلمون بيوتهم، واستولوا على ما ترك من متاع. وقد وجدوا الأرض قد حفرت فيها بعض الحفر، والجدران وقد هدمت بعض أجزائها، مما يشير إلى أن اليهود كانوا يخبئون أموالهم تحت الأرض، وفي الجدران. فقام المسلمون بحفر ما لم يحفر وهدم الجدران القائمة، علهم يجدون أموالاً متروكة هناك، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ».

وقد قسمت الغنائم بموجب قانون تقسيم الغنائم، على النحو التالي:

مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ: أي لدولة الإسلام ونفقاتها العامة.

وَلِلرَّسُولِ: أي لنفقات الرسول الخاصة.

وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ: أي لئلا يكون المال فقط متداولا بين الأغنياء منكم.

وتفصل الآيات من هم المساكين، فتقول منهم مهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴿٨﴾

ومنهم أنصار استضافوا المهاجرين: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٩﴾.

ومنهم بعض من أسلم بعد ذلك من أهل المدينة أو من مكة وهاجر لاحقاً أو من أي مكان آخر: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴿١٠﴾.

ولأن قسمة الفيء ثابتة، فقد جاء هذا التقسيم متوافقاً مع القسمة التي وردت في سورة الأنفال: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٤١﴾.

لكن يبدو أن بعض المسلمين ممن أعطوا لم يرضوا بما قسم لهم، والبعض ممن لا يحق لهم شيء من الفيء، قد وجدوا في أنفسهم لم يعطوا، برغم أن ما تركه الإسرائيليون وفير، فجاء الأمر بالرضى بالنصيب وعدم السؤال عن أكثر منه، أو ما لا يحق: ﴿. . . وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴿٧﴾.

وبعد جلاء بني إسرائيل الثاني والأخير، لابد أن الرسول قد هاجم المنافقين في المدينة، وأجبرهم على تركها، كما قام بتصفية حساباته مع القبائل العربية التي ابتدرت المسلمين بالعداء.

سورة النصر

لقد بدأ الوحي بسورة الفاتحة القصيرة في عدد آياتها الغنية بمعانيها، وختم الوحي بسورة النصر القصيرة في آياتها والغنية بأحداثها. فهي تروي كيف أن

قوات التحالف من داخل جزيرة العرب قد استسلمت لدولة الإسلام، وتقاطر زعماؤها على المدينة يعلنون ولائهم:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴿٣﴾.

وكتب السير والتاريخ تقول إنه بعد حنين وصل وفد من أهل الطائف للمدينة يطلبون من الرسول رد ما سباه من نسائهم ويعلنون استسلامهم، فقبل منهم الرسول ذلك، ورد لهم ما طلبوا. ولعل الحقيقة تتمثل في أن أهل الطائف بالفعل حضروا للمدينة وأعلنوا ندمهم على ما بدر منهم واستسلامهم لدولة الإسلام، ولم يحضروا لطلب رد النساء، لأن الرسول لم يسب لهم نساءهم لأنه لا يستطيع فعل ذلك. وقد سبق حضور وفد الطائف، إعلان قريش تراجعها عن نقض معاهدة الفتح.

ولما تسامعت القبائل الأخرى التي شارك بعض رجالها في جيش التحالف، سارع زعماؤها للحضور للمدينة وإعلان الاستسلام، بعد أن علموا أن الرسول لم يعاقب أهل الطائف ولا قريش.

ولما سمعت القبائل والتجمعات السكانية الأخرى في جزيرة العرب بما حدث، سارعت هي الأخرى لإرسال وفودها للمدينة لتقديم ولاء الطاعة لدولة الإسلام.

وفي خلال عام واحد، وقبل وفاة رسول الله، أصبحت جزيرة العرب كلها تحت حكم دولة الإسلام، ولو لم يسلم إلا عدد قليل جداً، يعيشون في المدينة ويشاركهم السكن فيها طوائف مختلفة ممن أعلن إسلامه ولم يسلم، وما بقي من قرى وبلاد جزيرة العرب فقد استسلموا ولم يسلموا.

ولو وافقنا على أن بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة، لأنه تقدير قريب من الواقع، وأحد حدثت في السنة التي تليها، أي الثالثة. والأحزاب في الرابعة، لأن القرآن لا يتحدث عن وقائع كثيرة وقعت بين أحد والأحزاب.

وبعد الخندق كان لابد من معاقبة قوات التحالف. فتم جلاء بعض بني إسرائيل وفتحت مكة، وحدثت خيانة قريش وتجمع جيش التحالف الثاني مع أهل الطائف ومن حولها، ومن عاونهم في السنتين الخامسة والسادسة للهجرة.

وفي العام السابع، أو الثامن، تم إرسال جيش للروم خاض معركة مؤتة. ثم قاد الرسول حملة تبوك لملاقاة الغساسنة، في نفس السنة السابعة، وفي طريق العودة نزلت سورة براءة في رمضان من نفس السنة.

وفي حج ذلك العام (السابع، أو الثامن للهجرة) أعلن الرسول من على جبل الرحمة في عرفة براءة الله ورسوله من معاهدة مكة التي أبرمت يوم الفتح من العام الماضي بسبب خيانة قريش لها.

ويبدو أن قريشاً سارعت بإعلان تراجعها واستسلامها قبل انتهاء المدة المعطاة لها، والتي تنتهي في آخر يوم من شهر محرم من العام الثامن أو التاسع للهجرة. وتبعها أهل الطائف ثم بقية القبائل والشعوب في جزيرة العرب. وهو ما تحدثت عنه سورة النصر، آخر سورة نزلت على الرسول قبل وفاته.

ولابد أن تتابع وفود القبائل قد استغرق قرابة العام الذي سبق وفاة رسول الله. أي في السنة الثامنة، أو التاسعة للهجرة، ويكون الرسول قد توفي بداية العام التاسع أو العاشر للهجرة، لأنه لو بقي مدة أطول لوقعت بعض الأحداث ولنزل الوحي يخبر عنها. وإن كان أبو بكر قد توفي في العام الثالث عشر، كما ورد في كتب السير والتاريخ، فيكون قد بقي في الخلافة مدة أطول مما قالت تلك الكتب.

وحتى لو كانت هذه الافتراضات خاطئة فلا عبرة لما ذكرته كتب التاريخ التي خطتها يد قريش.

وسورة براءة ليس فقط تصور لنا الوضع قبيل وفاة رسول الله بل تعطينا مؤشراً لما ستكون عليه الأوضاع بعد وفاته، وهو ما سنختتم به حديثنا.

استقراء المستقبل

بوفاة رسول الله انقطع الوحي الذي كان يعرفنا بالأحداث كما وقعت، دون المرور على مقص الرقيب السياسي في حكومةٍ قرشية. لذا كان لابد من أن نراجع، ولو باختصار، العوامل التي سترسم أحداث المستقبل بعد محمد، والمتمثلة بعاملين:

* أصناف المسلمين عندما توفي رسول الله.

* والأوضاع السياسية في جزيرة العرب في تلك الفترة.

أصناف المسلمين عندما توفي رسول الله

بالرجوع لسورة براءة يمكن أن نستبين أصناف المسلمين في أواخر أيام رسول الله، كما يلي:

المؤمنون حقاً

بالرغم أن جزيرة العرب إجمالاً قد استسلمت لحكم دولة الإسلام قبل وفاة رسول الله، إلا أن المؤمنين بدين الله كانوا في المدينة فقط، ويمكن تصنيفهم إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى

وهم إما من المهاجرين الأوائل من مكة، أو من الذين آمنوا من أهل يثرب قبل هجرة الرسول، ودعوه ومن آمن في مكة للهجرة إلى المدينة.

الفئة الثانية

هم من آمن بعد الهجرة، وحسن إسلامهم. وكلا الفئتين رضي الله عنهم ورضوا عنه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴿١٠٠﴾.

الفئة الثالثة

المؤمنون الأتقياء من الأعراب: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٩٩﴾﴾.

وأعداد هذه الفئات الثلاث قليلة ولا تزيد عن مئات، وهم من قامت عليهم دولة الإسلام، ومن سيقفون ضد أطماع الكفار والمنافقين ومن يناصرهم بعد وفاة رسول الله.

يأتي بعد هذه الفئات الصادقة، فئات تسمت بالإسلام ولكنها لم تؤمن، وهم:

المنافقون

وأعدادهم أكبر بكثير من أعداد المؤمنين الأتقياء وخطرهم أكبر على دولة الإسلام ممن بقي على الكفر، لأنه يعيشون بين المسلمين ويعلمون كل ما يحدث في المجتمع الإسلامي.

وهم بصفة عامة لا يريدون الخير للمسلمين ولا للإسلام، ودخولهم الإسلام كان ظناً منهم أنهم سيحصلون معه على فرص أفضل، لم يمكنهم أقوامهم الحصول عليها، مع أنهم يستحقونها كما يظنون.

وينقسمون لعدة فئات:

منافقون من الأعراب حول المدينة

وهؤلاء أعلنوا الإسلام كوسيلة للحصول على المغانم والمكاسب الدنيوية، ولا يعيرون أمر الدين أي اهتمام. ولكنهم فوجئوا في أول مقابلة مع الرسول بعد وصوله المدينة أن الإسلام لا يكسب المسلم المال والجاه، ولكنه يأخذ منه المال ويحرم عليه الكبر والخيلاء وعلى رأسها الجاه. لأنه يأمر بالمساواة بين الناس، دون وجود لأمير وحقير. وعندما توفي رسول الله كانوا

يمارسون كل أعرافهم المخالفة للدين ولم يقيموا أوامر الله أو ينتهوا عن نواهيه، ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

ويمكن اعتبارهم الأقل خطراً على الإسلام ومستقبل دولته، ذلك أنهم تشغلهم شؤون حياتهم المعيشية اليومية عن الاهتمام بالدين أو السياسة. ولأنهم اعتادوا إتباع من يرون أنه يمثل مصدر رزق لهم، فلم يشاركوا في حروب دولة الإسلام زمن الرسول لأنهم عرفوا أنها لا تمطر ذهباً ولا فضة، ولكن غنائمها في الآخرة، التي لا يهتمون بأمرها. بينما انخرطوا كجنود في كل جيش قام في دولة الإسلام بعد الرسول وبمختلف الميول السياسية، مع احتفاظهم بأعرافهم وتقاليدهم بعيداً عن التأثر بأحكام الدين. فهم جنود مرتزقة، قد يساهمون بنصرة جيش في معركة على آخر، لكنهم لا يؤثرون في السياسات ولا في الفكر والمعتقد.

منافقون يعيشون في المدينة

وينقسمون إلى:

منافقون من الأوس والخزرج، ومنافقون من بني إسرائيل، ومنافقو مكة.

منافقو الأوس والخزرج

كانوا يمتنعون عن الإنفاق وعن الخروج للحرب زمن رسول الله، إلا أن ضررهم محدود جداً على بقاء الدولة، ولم يتعاونوا مع أعدائها. وهم أقرب لمنافقي الأعراب، في عدم تأثيرهم بمجريات الأحداث التي مرت بالمسلمين بعد وفاة الرسول. لذلك أغفلهم التاريخ، ولم يعد لهم ذكر على الإطلاق بعد الرسول.

منافقو بني إسرائيل

أبقوا على موالاتهم لأقاربهم كفار بني إسرائيل ولم يغيروا من معتقداتهم بالرغم من أنهم كانوا يحضرون مجالس الرسول كمسلمين. وهم كمنافقي مكة، لم يؤمنوا أثناء حياة رسول الله، ولم يؤمنوا بعد وفاته. ومثلوا معهم

أكبر خطر على الإسلام ودولته في حياة الرسول وبعد وفاته، لقدرتهم على مخالطة المسلمين والتعرف على أحوالهم، وإفشائها لأعدائهم.

وهؤلاء ومن انضم إليهم من أجيالهم التالية أو من أعلن إسلامه من بني جلدتهم بعد رسول الله، هم من رسخ الإسرائيليات كجزء من دين الله وكبديل لأوامر القرآن الواضحة. بمعنى آخر هم من حمل سلاح حرب الإسلام العقائدي، بالكلمة بعد رسول الله، وأدخلوا فيه ما ليس فيه، وأبعدوا الناس عن الدين الحق وزرعوا بذور ما عرف بعلوم الدين فيما بعد، في محاولة للقضاء على الدين باسم الدين.

ودوافعهم لهدم الدين إما لما جبلوا عليهم من التمسك بالإسرائيليات على حساب دين الله، أو للانتقام من الإسلام الذي قوض ممالكهم في يثرب، وسفه عقائدهم، أو كلاهما معاً. وكان لهم تعاون وثيق مع قريش التي سعت للانتقام من دولة الإسلام. وقد تحدثنا عنه في باب من كتب التاريخ الإسلامي.

منافقو مكة (مسلمة قريش)

الذين أعلنوا إسلامهم في مكة وهاجروا للمدينة. وهؤلاء أظهروا أنهم ملتزمون بالإسلام في بداية دخلوهم دين الله في مكة، عندما لم يكن مطلوباً منهم سوى الإيمان بوحدانية الله والإنفاق والصلاة في أي وقت يشاؤون. لكن عندما تطورت الأحداث في مكة وبدأ القرآن يدعو الناس من غير قريش للإيمان ودخل الإسلام بعض بني إسرائيل وبعض مستضعفي مكة من عبيد وموالي، وثار كبراء قريش على هذا الوضع الجديد الذي شجع عبيدهم ومواليهم على الخروج عن طاعتهم. ولما أراد الكبراء تأديب أولئك المارقين، في نظرهم. تطاول العبيد على أسيادهم وأصبحوا يردون عليهم الشتيمة بالشتيمة والاعتداء الجسدي بمثله. فما كان من قريش إلا أن أعلنت الحرب عليهم ونصبت لهم الأخاديد لتكوي بها أجسادهم لإرغامهم على العودة

للعبودية والخروج من الإسلام. وكان لابد من إعلان البراء من المشركين والتضامن بين المسلمين. ولأن الأحداث بدأت تتسارع وقد يطال أذى قريش بقية المسلمين، بدأ بعض مسلمة قريش التقرب من المشركين تحت مسمى القرابة والدم المشترك وإثارة الحمية الجاهلية. وأصبح أولئك المسلمون من قريش ومشركوها وكأنهم في قارب واحد، ومن أسلم من عبيد قريش ومواليها وبقية المسلمين في قارب آخر.

ومنذ ذلك الوقت تولد عداء بين الطائفتين المسلمتين، وحدث بينهما نزاع في مكة، سبق وذكرناه في حديثنا عن أحداث المراحل الأخيرة في مكة.

وتكرر النزاع في المدينة بعد الهجرة، فنزلت أول آية من أول سورة نزلت في المدينة تخاطب أولئك المسلمين من مكة وتحذرهم من استمرار موالاة المشركين، إن كانوا بالفعل مؤمنين وهاجروا في سبيل الله حقاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴿١﴾.

وسورة الممتحنة تتحدث عن شجار وقتال وقع بين أولئك والعبيد والموالي السابقين، مما يعني أن مشاعر الكراهية بين الفريقين تزداد مع الأيام برغم تحذير الله ووعيده. فقد ورد في البقرة ما يفيد تجدد الشحناء والشجار بينهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٢٠٩﴾.

وتكرر مرة أخرى كما ذكر في سورة النساء (الآية ٥٩).

ولما فرض القتال في سورة البقرة، احتج مسلمة مكة الموالين للمشركين، على قتال أقاربهم، ودعوا الرسول لأن يدخل في حوار مع قريش بدل حمل

السلاح عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴿٣٧﴾ محمد.

وطلب الموالين للمشركين من الرسول أن يدخل في حوار مع المعتدين من مشركي قريش، أسلوب اتبعه كل معتد على مر التاريخ. حيث نجد أيام الاستعمار أن الدولة الأجنبية المحتلة تطلب من أهل البلد ألا يحملوا السلاح على المستعمر الذي قهرهم بقوة السلاح وسلب أرضهم بقوة السلاح واستعمرهم ومص خيرات بلادهم بقوة السلاح، أن يواجهوا ذلك كله بالكلام وكتابة المطالب وتقديمها للمحتل عله يجيز بعضها.

وهذا ما نراه اليوم في كل مكان. فالمحتل يحق له إخضاع البلد الذي احتله بقوة السلاح، لكن أهل البلد لو حملوا السلاح على المحتل فهم إرهابيون يجب أن يسحقوا. منطق أعوج بدأته قريش، عندما طلب منافقوها من الرسول ألا يقابل تعديات قريش المسلحة على المسلمين بالمثل، وإذا ما حضرت قريش لمهاجمة المسلمين فعليهم التحلي بالصبر ومحاولة إجراء مباحثات سلام معهم. وهذا المنطق الأعوج يرفضه القرآن: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿١٩٤﴾ البقرة.

ولما لم يلتفت الرسول لتثبيطهم، واستعد المسلمون لحرب قريش التي أخرجتهم من ديارهم وضيقت عليهم ولازالت تلاحقهم وهم في المدينة، لم يرغب أولئك المنافقون من قريش الخروج مع جيش المسلمين لأنهم لا يمكن

أن يقاتلوا مشركي قريش الذين يوالونهم ويعتبرون أنفسهم منهم: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴿٦﴾ الأنفال.

ولكنهم خرجوا وقد بيتوا النية لنصرة قريش بأي طريقة، وهو ما حدث أثناء القتال، حيث كانوا يسارعون بحماية المشركين، وذلك بإقناعهم بأن يستسلموا للأسر حماية لهم من أن يتعرضوا للقتل. مخالفين قانوناً إلهياً نزل قبل المعركة يحرم على المسلمين أن يأسروا أحداً من المشركين في تلك المعركة، لأن قتل أكبر عدد من كبراء قريش إضعاف لها وشل لقدرتها على الاستمرار بحرب المسلمين مستقبلاً: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٦٧﴾ لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾ الأنفال.

واستمر منافقو مكة بموالاتهم لمشركي قريش، برغم استمرار نزول الآيات بوعيدهم: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ﴿٣٠﴾.

بل واستمر منافقو مكة يعملون على حماية مقاتلي قريش من المسلمين، ففي معركة أحد كانت الغلبة في بداية المعركة للمسلمين، وتقهقرت قريش وبدأ رجالها يهربون، وما أن حاول المسلمون ملاحقتهم وقتل أكبر عدد منهم،

اعترضهم منافقو مكة ودخلوا معهم في جدال لإقناعهم أن المهم هو هزيمتهم وقد انهزموا ولا داعي لملاحقتهم وقتل من يستطيعون من جيش هارب. واشتد الجدل، ولاحظت قريش المنهزمة الفوضى التي تحدث في صفوف جيش المسلمين، فكرت راجعة عليهم وأعملت السيف فيهم وهم في غفلة يختصمون، فكانت الهزيمة: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١٥٣﴾ آل عمران.

وما سبق يظهر بوضوح أن مسلمة مكة كانوا عوناً للكفر على المسلمين في حياة رسول الله، وبعد رسول الله سيكون ضررهم أكبر وأكثر. وسكوت القرآن عن ذكر ممارسات لهم بعد حملة الأحزاب لا يعني أنهم تابوا وندموا على ما فعلوه بالمسلمين في أحد وما قبلها، ولكن يشير إلى أنهم قد شعروا بأن تصرفاتهم أصبحت مكشوفة وأن عليهم أن يتمهلوا لئلا «تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم». خاصة بعد موقعة الأحزاب التي تورط فيها مشركو قريش باستدعاء جيش أجنبي من الروم لمحاربة المسلمين الذين وإن كانوا يختلفون في المعتقد إلا أنهم من أبناء جلدتهم وينتسبون لقريش مثلهم.

لكنهم عادوا فيما بعد لنشاطهم، كما تظهر سورة براءة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴿٢٤﴾.

مما يعني أن الرسول عندما توفي كان مسلمة قريش أكثر ميلًا وموالاة لمشركي قريش، مما مضى، وبينهم وبين بقية المسلمين فجوة لا يمكن ردمها. وإن حدث خلاف بين قريش المشركة وبين المسلمين، بعد رسول الله، فلن يكتفي منافقو قريش بالموالاة والعمل كطابور خامس بين المسلمين، بل سيسارعون بالعون الفعلي للمشركين على المؤمنين وبكل وسيلة.

الأوضاع السياسية في جزيرة العرب

في السنة التي سبقت وفاة رسول الله، هزم المسلمون الأحزاب الثانية المكونة من أهل الطائف ومن عاونهم في حنين، مما حدا بأهل الطائف أن يرسلوا وفداً للمدينة لتقديم اعتذارهم وندمهم على ما حدث، وإعلان استسلامهم لدولة المدينة والانضواء تحت حكمها. وسبق ذلك إجبار قريش على احترام المعاهدات مع المسلمين وإعلان خضوعها لدولة الإسلام. وهذه الأحداث برهنت على أن كل قبيلة أو شعب أقدم على معاداة المسلمين، سيلاحقه المسلمون وسيعاقبونه بكل قسوة، ليعتبر غيره به. فما كان من القبائل التي هاجمت المدينة مع الأحزاب إلا أن اقتدت بأهل الطائف وأرسلت وفوداً لها إلى المدينة لتقديم أسفها وإعلان استسلامها لحكومة المدينة. ولما تسامعت بقية قبائل وشعوب جزيرة العرب أعلنوا انضمامهم لدولة الإسلام، وقاموا بإرسال وفودهم لتقديم الطاعة. وعندما توفي رسول الله، كانت حكومة المدينة تبسط سيطرتها على كامل تراب جزيرة العرب، دون أن تزيد أعداد المؤمنين الأنقياء. فكانوا قلة قليلة جداً، لها وضع الأفضلية في الدولة الشاسعة، المترامية الأطراف، المتنوعة الثقافات.

وكان من الممكن أن تستمر وحدة جزيرة العرب تحت الحكم الإسلامي، بعد رسول الله، دون مشاكل، لأن كافة سكانها لا يحملون أحقاداً على المسلمين ولا على دولتهم، فيما عدا قريش وبني إسرائيل.

قريش

عندما توفي رسول الله كانت قريش قد عادت للالتزام باتفاقية مكة يوم الفتح والقاضية بدخول مكة تحت حكم دولة الإسلام، وتطهير البيت من الأوثان، وعدم الدخول في مكائد ضد المسلمين. لكن مشاعر الكره والحقد على المسلمين ازدادت وتضاعفت. لأن المسلمين لم يكتفوا بإرغامهم على الرضوخ لحكمهم، بل وانتزعوا منهم خدمة البيت والحجاج وهي المهنة التي شرفت قريش ورفعت مقدارها في كل جزيرة العرب: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴿٢٢﴾ براءة.

وإمعاناً في الإذلال، مُنعت قريش من دخول المسجد الحرام، الذي كان لهم شرف خدمته طوال قرون ماضية ومنذ زمن أبيهم إسماعيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٢٨﴾ براءة.

كل هذا يحدث لسادة قريش الذين نالوا شرف النسب على كل سكان جزيرة العرب، من عبيدهم ومواليهم السابقين، ومن مستضعفي يثرب.

هذا الإذلال ضاعف ضغائنهم على الإسلام التي اشتعلت منذ بدأ محمد

دعوته في مكة ولم تخبو جذوتها على الإطلاق، لكنها بعد الفتح والاضطرار للاستسلام، زادت ضراوة. ولما فشلت الأحزاب الثانية، وأجبرت قريش على الاستسلام بصغار وذلة والتراجع عما بدر منها، تحولت الضغائن لحقد لا يمكن أن يمسحه سوى الانتقام من المسلمين ودولتهم، وإذلالهم كما أذلوهم في بلدهم مكة وحرموهم مما كان حقاً تاريخياً لهم لم يجرؤ أحد قبل محمد ومن معه من مستضعفين على منازعتهم إياه.

لقد كان حقد قريش ضد المسلمين كبيراً لدرجة لا يمكن أن تحده حدود، ولابد من تحين الفرصة واستغلال كل المناسبات والوسائل لتشفي قريش غليلها من أتباع محمد ودينهم ودولتهم.

ولو كان جيل كبراء قريش المعاندين لدعوة محمد قد انتهى وهلك أفراده، فقد تخبو مشاعر الحقد القرشي على الإسلام، لكن وجود بعض هؤلاء الكبراء على قيد الحياة بعد وفاة رسول الله، هو ما أجج مشاعر الحقد وأبقى عليها حية. وكان على رأس هؤلاء أبو سفيان ابن حرب، والعباس بن عبد المطلب.

وهذان الرجلان هما من قادا السعي لتقويض دولة الإسلام، واستطاعا الانتقام منها باعتلاء أبنائهم سلطتها والتحكم فيها وإلغاء حكم الله، والقضاء على دينه بمعاونة الفريق الحاقد الآخر.

بنو إسرائيل

كانوا سكان يثرب وسادتها، وما أن وصل رسول الله إليها هارباً من مكة، حتى وجدوا أنفسهم أغراباً في وطنهم. ثم طردوا من تلك الديار بعد سنوات قليلة وفقدوها إلى الأبد، مع أنهم هم من بنى أرضها وعمر بساتينها. ولم يستطيعوا القضاء على المسلمين برغم محاولاتهم المستميتة وتشجيع ومعاونة وإمداد قريش وكل من وافق على حرب المسلمين بالمال والسلاح والخطط.

فتولد لديهم شعور بالحقد والكراهية أجج حقداً دفيناً تاريخياً يكنه بنو

إسرائيل ضد بنو إسماعيل منذ طرد أبوهم إسحاق من مكة وعدم تمكينه من أن يكون له نصيب في شرف خدمة بيت الله.

وقد شكل بنو إسرائيل مع قريش، جبهة موحدة لحرب الإسلام ودولته منذ كان رسول الله على قيد الحياة، كما رأينا أثناء سرد الأحداث. وبعد وفاته قويت هذه الجبهة واستطاعت أن تحقق مآربها. فقد استولت قريش على السلطة، وقضت على حكم الإسلام، وفتح المجال لبني إسرائيل أن يستخدموا سلاح الإسرائيليات في تخريب الدين من الداخل، كيفما يشاؤون ويستطيعون.

الروم

تحدثنا عن تورطهم بنجدة قريش في تحالف الأحزاب، واعتبارهم دولة معادية لدولة الإسلام. وقد أرسل المسلمون لها جيشاً صغيراً، هزم في مؤتة، أعقبه جيش تبوك، وذلك في عصر رسول الله. ثم توالت الجيوش الإسلامية بعد رسول الله، حتى أخرجوا صاغرين من بلاد الشام التي احتلوها لقرون.

الفرس

أميل للاعتقاد بتواجد جيش فارسي في حنين مع أهل الطائف. ومجيئه لنصرتهم بناءً على طلب من قريش، التي تربطها بالعراق روابط تجارية قديمة.

ويكون الروم والفرس قد بادروا بإعلان الحرب على المسلمين ودولتهم نصرة لقريش، فحاربهم المسلمون زمن رسول الله، واستمروا بحربهم بعد وفاة رسول الله، حتى تم تقويض إمبراطورياتهم، لأن بقاءها سيكون خطراً محدقاً ومستمراً بدولة الإسلام الفتية.

سير الأحداث بعد الرسول

يمكن القول أنه بمجرد وفاة الرسول أظهرت الفتنة رأسها، وسعت قريش بقيادة أبي سفيان والعباس إلى الاستيلاء على الحكم بالقوة، منذ أن تولى أبو

بكر قيادة المسلمين، وذلك عندما أشار أبو سفيان على علي بإعلان نفسه حاكماً والخروج عن طاعة أبي بكر، وسيضمن له الخيل والرجال، كما روت كتب الأخبار. لكن مساعيهم لم تنجح لأن المؤمنين كانوا حاضرين، والمنافقين لا يستطيعون المجاهرة بالعداء بعد. واستمرت قريش تسعى للوصول لحكم دولة المسلمين ولو بشكل غير مباشر. وأحد هذه الطرق هو تنصيب أحد مسلمة قريش الموالين للمشركين حاكماً، يمكنهم بواسطته توجيه إدارة الدولة كما يريدون.

وعندما انتقضت القبائل والشعوب في كل جزيرة العرب على المسلمين، بمجرد سماعهم وفاة رسول الله، استطاع المسلمون بصرامة أبي بكر، استرداد السيطرة على أرض الجزيرة، بل والاستمرار بمعاقبة من عاون على حرب المسلمين من الفرس والروم، التي بدأت في عصر الرسول، وهو ما عرف تاريخياً بالفتوح.

وأبو بكر أحد تقاة المؤمنين، والذي وصفه القرآن بصاحب رسول الله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٤٠﴾ براءة.

وقد سمح لنفسه بتوجيه الجيوش كيفما ظن أنه أصوب. والتجاوزات التي حدثت من الجيوش في وقته، نقلتها لنا كتب التاريخ التي كتبتها قريش. لذا فهي محل شك وريبة، والأقرب أن جيوش ما سمي بالفتوح في عصر أبي بكر وعمر كانت تسير حسبما أمر الله دون تجاوزات. ولم تسع جيوش المسلمين للحرب، ولكنها فرضت من قبل المعتدين من مشركين عرب وخلفهم بني إسرائيل والفرس والروم. فكان على المسلمين أن يحاربوهم بكل قسوة لا رحمة فيها لمن يسعى للقضاء عليهم وعلى الإسلام، وهو ما أمر به الله: ﴿يَا

أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴿١٢٣﴾ براءة.

وهذه الغلظة موجهة للمحاربين دون المسالمين، لأنهم هم من ابتدر قتال المسلمين: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴿١٩٠﴾ البقرة.

ولا وجود للسبي أو الاسترقاق في حروب المسلمين، كما ذكرنا في مناسبات عدة. لذا يستحيل أن تكون جيوش المسلمين زمن أبو بكر وعمر قد اقترفت المخالفات اللا إنسانية التي نقلتها لنا كتب قريش التاريخية. والذي حدث هو أن جيوش قريش التي استولت على دولة الإسلام بعد ذلك هي التي اقترفت تلك المخالفات في حق الشعوب المغلوبة على أمرها. ولأن حروب التوسع التي قامت بها حكومات قريش باسم الإسلام، استمرت طوال قرون، فقد نسي الناس تلك الفترة القصيرة التي لم تتجاوز عشر سنوات من الحروب الإسلامية الإنسانية زمن أبو بكر وعمر، وحكموا على كل حروب المسلمين بما رأوه من حروب قريش باسم الإسلام، سواءً في شرق المتوسط أو شمال أفريقيا أو في الهند والسند والأندلس وغيرها.

ومحاولة قريش الاستيلاء على حكم دولة الإسلام بدأت منذ وفاة رسول الله، كما سبق وذكرنا، لكنها لم تظهر على السطح زمن أبي بكر، لأنه كان حازماً، ولأن الظروف المحيطة التي فرضتها الردة لم تكن مناسبة. وفي زمن عمر، قويت الدسائس لكنها لم تنجح، لا في استمالة عمر ولا في الثورة عليه، لأن عمر شديد مع الحق. فما كان من قريش إلا أن قتلته، بمعاونة بني إسرائيل. وعلى رأس من تورط في مقتله المغيرة ابن شعبة مولى أبو لؤلؤة الذي طعن عمر، وكعب الأحبار الذي أبلغ عمر أنه سيموت خلال ثلاث ليال، زاعماً أن هذا ما تقوله التوراة، كما سبق وأوردنا في الفصل الخاص بكعب.

وفي زمن عثمان، هناك احتمال أن تكون قريش قد استطاعت التغلغل للحكم بواسطة بني أمية الذين وصلوا لمنزلة مقربة من عثمان، كما يقول التاريخ[1]. والاحتمال الآخر هو أن عثمان قتلته قريش لأنها لم تستطع الاقتراب منه كما تريد. وتكون القصص عن تقرب بني أمية منه مختلقة، أو مبالغ فيها. لأن سيرته التي تقول أنه نسخ القرآن ووزع نسخها على الأمصار، وقام بحرق تلك المصاحف المشبوهة والتي من بينها مصحف لكعب الأحبار، تشير إلى أن الرجل كان يقاوم الباطل الذي تريد قريش وبنو إسرائيل فرضه على دولة الإسلام.

لكن مرور الوقت لم يكن بصالح المؤمنين الأتقياء، لأن أعدادهم تقل، وأعداد من يدخل في دولة الإسلام وهم لا يعرفون الإسلام يتزايد. مما يعني تعاظم تأثير السياسيين على حساب المؤمنين.

واستطاعت قريش الاستيلاء على حكم دولة المسلمين بالدسائس أولاً وبالقوة لاحقاً. ونجح محور الشر القرشي الإسرائيلي في تحويل حكم الله لحكم قبلي متوارث عضوض، وتحويل دين الله إلى سلاح مسلط يخضع الرقاب لسلطة قريش، وإلى خرافات وعبادات مبتدعة لم يأمر الله بها من سلطان. والشواهد كثيرة على أن الدين محرّف، وأن حكم دولة الإسلام لم يعد له وجود. لعل أوضحها أن القرآن بقي، وما فيه مخالف لما رسخ بيننا على أنه دينٌ لله، كما أن قوانين دين الله لا تسمح بتسلط الفراعنة على عباد الله.

وبعد مقتل عثمان تذكر لنا كتب التاريخ أن علي ابن أبي طالب بويع بالخلافة من قبل بعض المسلمين دون البعض الآخر. وتقول تلك الكتب أن ممن بايعه وفد الثوار القادم من الكوفة، ضمن من ثار على عثمان. وسواء

---

(١) ونحن هنا نستمد معلوماتنا من كتب التاريخ، التي لا نصدق ما جاء فيها، لأننا لا نملك مصادر غيرها. وقد لايكون عثمان بالفعل قد قرب بني أمية وقد يكون سار على المسار الصحيح الذي كان قبله. وقد يكون قتل كما قتل عمر بسبب تمسكه بالحق ومحاربته دسائس قريش وبني إسرائيل.

كان هذا صحيحاً أم لا، فالوقائع تشهد أن علي ابن أبي طالب كان أول من أعلن إسلامه قاتل المسلمين. ولو كان قتاله انحصر ضد معاوية القرشي، لأمكن أن يقال أن معاوية بلغت به الجرأة أن يحاول الاستيلاء على دولة الإسلام أو جزء منها (الشام)، فقام علي بالتصدي له ولقريش. لكن علي، وقبل قتال معاوية، لاحق أم المؤمنين عائشة، واثنين من أتقياء الصحابة، هما طلحة والزبير، إلى مكة التي خرجوا إليها هرباً منه للاحتماء ببيت الله الحرام، ثم طاردهم للعراق بعدما خرجوا إليها من مكة. واشتبك مع جيش من البصرة حاول حماية أم المؤمنين ومن معها في قتال، قتل فيه طلحة والزبير وعشرات الآلاف ممن يحسبون على المسلمين، قبل أن يتصارع مع معاوية. كما لاحق حفظة القرآن الذين أطلق هو عليهم الخوارج، وكأنهم خرجوا عن الإسلام لأنهم خالفوا طاعته، وسحقهم حرباً وصبراً. وهذه الوقائع تظهر علي كطالب للحكم، وأول من قام بالتصفية الجسدية لمعارضيه، وأول من قاتل المسلمين، وأول من أطلق ألقاب الكفر والتخريب على من يخرج عن طاعته كحاكم، وكأن طاعة الحكام طاعة لله.

والقول بأن طاعة الحاكم طاعة لله، ليست عقيدة إسلامية، لكن يستحيل أن تكون من إنتاج قريش. لسببين:

١. لأن قريش لا تعترف بحق الله في الحكم، ولا تعترف بدين الله.

٢. ولأن قريش لم يكن لها حاكم بشري في مكة على الإطلاق منذ وجدوا في مكة زمن إبراهيم.

ولابد أن هذه المصطلحات الجديدة من إنتاج بني إسرائيل المتواجدين مع قريش في حربهم على الإسلام والمسلمين، بقيادة كعب الأحبار وابن سلام وغيرهم ممن تحدثنا عن بعض رؤوسهم في باب من كتب التاريخ الإسلامي. وهم على دراية باستخدام الدين لخدمة السياسة.

فهل كان علي أول ضحية من المسلمين الأتقياء انقاد لدسائس قريش؟

أم أنه أول من وصل لحكم دولة الإسلام من مُسْلِمَة مكة ؟

ولو نظرنا من المستفيد من سياسة علي ابن أبي طالب لما وجدناه الإسلام ولا المسلمين، ولكنها قريش. فهي المستفيد من تلك المذابح، لأنها أضعفت المسلمين الأتقياء، وجعلت استيلاء قريش على حكم دولة الإسلام ممكناً.

والملفت هو أنه لو كان أحداً آخر اقترف هذه الحروب غير علي، لصب التاريخ عليه لعناته ولرجم قبره كما رجم قبر أبو رغال، الذي أرشد جيش أبرهة إلى مكة. لكن ما حدث هو أن الحقائق عُكِست، وتحولت هذه الكبائر إلى فضائل لعلي. كما تحول سعيه للحكم بأي وسيلة إلى حق إلهي أعطاه الله إياه. واقترنت نسبة الفضائل لعلي وأحقيته بتولي الحكم بتشويه تاريخ أم المؤمنين عائشة، مما يعني أن هذا التشويه والمسخ جاء متعمداً لطمس حقيقة أن قريشاً قد استطاعت الوصول لتصريف حكم دولة الإسلام، عبر علي. وإخفاء حقيقة أن عائشة كانت من أنشط المؤمنين الأتقياء الذين قاوموا محاولات قريش السيطرة على الحكم، فجاء القضاء عليها ومن معها على يد علي ابن أبي طالب سواءً كان ذلك بعلمه ورضاه، أو باستغلال قريش لغفلته. وهو ما يجعل العمل على تحقيق منصف للتاريخ وعلى درجة عالية من الشفافية والتجرد ضرورة، ليس فقط لكي نتمكن من الحكم على علي أو براءته، بل وللوصول إلى حقائق التاريخ المغيبة. ومعرفة لماذا سار تمجيد علي ابن أبي طالب بخط متواز مع تشويه سمعت وتاريخ أم المؤمنين عائشة.

وتشويه تاريخ أم المؤمنين اتخذ صوراً لا حصر لها، ومنها:

* القول بأن عائشة كانت في التاسعة عندما تزوجها رسول الله، وهذا الزعم لم يختلق من فراغ، ولكنه في الحقيقة تلبيسُ عُمْرِ فاطمة (المزعوم) عند زواجها بعلي، إلى عائشة.

ولكي يفهم القراء ما نرمي إليه هنا نورد حقيقة يجهلها الكثيرون وتتمثل في أن مؤرخي الشيعة ينقلون أن فاطمة ولدت في السنة الخامسة بعد بعثة

الرسول. أي أن عمرها كان سبع سنوات عند الهجرة، وتسع سنوات عندما تزوجها علي في السنة الثانية للهجرة.

قال بذلك أشهر مؤرخيهم، ومنهم: الطبرسي في تاج المواليد: الباب الثالث / فاطمة الزهراء. والمجلسي في بحار الأنوار ٢:٤٣ الحديث الأول، والشيخ الصدوق / الأمالي ٤٧٥ الحديث الأول، ومناقب ابن شهر: ٣٥٧ الحديث الثالث. والكليني في الكافي: ٤٥٧: الحديث الأول، والنيسابوري في روضة الواعظين: ١٤٣، والأردبيلي في كشف الغمة: ٧٥ :٢. وغيرهم.

وبقدرة قادر تصبح عائشة هي التي تزوجت في سن التاسعة وليست فاطمة، وترسخ هذا الزعم بين الناس حتى أصبح أمراً لا يقبل الشك[١]. مع أن فحص وتمحيص نصوص التاريخ يظهر استحالة أن تكون عائشة بنت تسع عند زواجها بالرسول، وأنها كانت ابنة ١٧ على الأقل.

* ترسيخ أن بنات خديجة، زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، أو على الأقل فاطمة، هن بنات للرسول، ولسن ربيباته وبنات زوجته من زواج سابق، برغم مخالفته لما يفهم من القرآن، الذي يؤكد أن محمداً لم يرزق بذرية في مكة، وقد أشرنا إليه في الحديث عن أزواجه عليه الصلاة والسلام.

ولو عدنا لما يقول التاريخ لوجدنا أن تواريخ ميلاد بنات خديجة متقاربة، مما يؤكد أن فاطمة كأخواتها بنات لخديجة وربيبات للرسول. فزينب ولدت قبل البعثة بعشرة أعوام وتوفيت في العام الثامن للهجرة، ورقية ولدت قبل البعثة بسبعة أعوام، وتوفيت في العام الثاني للهجرة، وأم كلثوم ولدت قبل البعثة بستة أعوام، وتوفيت في العام التاسع للهجرة، وفاطمة ولدت في كتب التاريخ عند السنة قبل البعثة بخمسة أعوام، وتوفيت في العام الحادي عشر.

---

(١) كتب السنة تقول أن فاطمة ولدت قبل البعثة بخمس سنوات، وبالتالي يكون عمرها عندما تزوجت علي في السنة الثانية للهجرة ٢٠ عاماً.

* ترسيخ القول بأن خديجة تزوجت الرسول وهي في الأربعين، وكان عمر الرسول خمس وعشرين عاماً.

وفي الفصل الذي يتحدث عن محمد، رأينا أنه لا يمكن أن يكون قد ولد عام الفيل، ولم يكن عمره أربعين عاماً عندما بعث. وبالتالي فلا يوجد لدينا سبب للتصديق بما قيل عن تاريخ زواجه بخديجة، خاصة أن إمكانية اختلاق هذه التواريخ واردة لتتواءم مع ما يراد الترويج له.

وإن كان محمد قد تزوج بخديجة وهو في العشرينات، كما تقول كتب التاريخ، فقد يكون زواجه بها قد تم بعد أن وصلت لسن اليأس، ولم تنجب منه كما يؤكد القرآن. وكان زواجه بها قبيل البعثة، وليس قبلها بخمسة عشر عاماً كما يقول التاريخ.

واستمرت عملية تشويه سمعة أم المؤمنين عائشة من كل جانب، واختلاق قصص ضدها، وصلت لاتهامها بالزنا، وتأويل بعض آيات سورة النور وكأنها تتحدث عن تلك التهمة المختلقة. كما تم تصويرها بالمارقة من الدين بعد رسول الله وأنها مثيرة للفتن وضد الحق الذي يمثله علي ابن أبي طالب، وقصص مخزية أخرى لا حصر لها. كل هذا ليسهل على الناس تقبل استحالة أن تكون أم المؤمنين عائشة أماً لبنات الرسول، ومن جهة أخرى ليسهل تصوير علي بأنه يمثل الحق وأن قتاله للمعارضين له كان لخدمة الدين.

ويبدوا أن بنات الرسول اللاتي ولدن له في المدينة قد اختطفهن الموت وهن صغيرات، وقبل أن يتزوجن وينجبن وانقطع نسلهن، مما سهل ترسيخ كل ما تم اختلاقه ضد أمهن عائشة.

ولكي نعرف من ابتدأ هذه الحملة على أم المؤمنين، علينا أن نبحث عن المستفيد منها، وهذا ليس بالأمر المستعصي. فأم المؤمنين عائشة كانت تتمتع بشخصية قوية جعلت منها سداً منيعاً مع المؤمنين المخلصين ضد محاولات قريش السيطرة على حكم دولة الإسلام بعد وفاة الرسول. ولأن قتل أم

المؤمنين سيجعل الناس يتمسكون بمبادئها، فقد قررت قريش سلب قوتها في التأثير على الناس بطريقة أخرى تمثلت بتشويه سمعتها، والقضاء عليها حية، وعلى سمعتها بعد وفاتها. فتم تشويه ومسخ تاريخها، وتم ترسيخ هذا المسخ وتوارثناه على أنه الحقيقة.

ويكون من تسموا بالشيعة لم يختلقوا التهجم على أم المؤمنين، لأنه بدأ قبل ظهور عقائدهم، ولكنهم عملوا على ترسيخه فيما بعد، لأنهم وجدوا في القصص المختلقة على أم المؤمنين ما يمجد علي ابن أبي طالب، الذي ترتكز عقائدهم على تقديسه. وقد بالغوا في تمجيد علي وأبنائه لدرجة وصفوا ابنيه بسيدي شباب الجنة، مع أن الجنة ليس فيها شباب وعجائز، وبرغم وفاة الرسول وهما طفلان لا يزيد عمر أكبرهما عن خمسة أعوام، ولم يبلغا سن الشباب. ووصفوا أمهما فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين في الدنيا والآخرة. وشاركهم غيرهم من المذاهب الأخرى بهذا الهوس، حيث نجد أنه لم يكتب لأحد في تاريخ الإسلام ما كتب لعلي من فضائل بما في ذلك رسول الله، فوصف بأنه ولي لله، ووصل الأمر ببعض الناس القول أنه لولا علي لما خلق الله الكون، وغير ذلك الكثير.

وإن كان هذا الاستنتاج صحيحاً، فهذا يجعلنا نعيد التساؤل: هل كان علي ابن أبي طالب ضحية لقريش وقام بما قام به من حروب تصفية وهو يظن أنه يخدم الحق وليس قريش؟

أم أنه كان أحد مسلمة قريش، وعمل على الاستيلاء على حكم دولة الإسلام؟

وفي كلا الحالين فقد قامت أم المؤمنين بحملة تحذيرية لمن بقي من المؤمنين المتقين من المخطط الذي يسعى له علي بعد قتل عثمان، وكان معها طلحة والزبير. وقد غادروا المدينة إلى مكة، ظناً منهم أن الاحتماء ببيت الله الحرام كاف لتوقف علي عن ملاحقتهم. لكن حرمة البيت لم تكن لتردع من

لم يردعه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴿٩٣﴾ النساء. فهربت أم المؤمنين وطلحة والزبير من مكة باتجاه العراق، أملًا بالاحتماء بالبصرة التي تبعد عن مكة بما يزيد عن ١٢٠٠ كليومتر، والتي لم تقبل بتولي علي للسلطة. فلحق بهم إلى هناك، مما جعل أهل البصرة يخرجون لملاقاة جيش علي حماية ودفاعاً عن أم المؤمنين، فوقعت المعركة على مشارف البصرة من جهة الغرب وفي مكان قريب من بلدة الزبير الحالية، التي سميت باسم الزبير ابن العوام الذي قتل بالقرب منها ودفن هناك. . وقد قتل طلحة معه في المعركة أيضاً، إضافة لآلاف غيرهم. وكانت أم المؤمنين معرضة للقتل لولا أن علياً على ما يبدوا منع ذلك لئلا يثور عليه مناصروه، لمكانة أم المؤمنين في قلوب الناس. وقد شوهت هذه الحقائق وقلبت فأصبحت أم المؤمنين وطلحة والزبير هم الأشرار، بينما أسبغ على علي ثوب الطهر والقداسة، وصورت حملات التطهير التي قادها للتخلص ممن يعارض توليه سلطة الدولة المسلمة لعلمهم بميوله، إلى حملات لخدمة الإسلام.

وما يشير إلى أن علياً كان يسعى للتخلص من كل من يكتشف حقيقة ما يسعى إليه، هو قيامه بعد معركة صفين بملاحقة مناصريه السابقين ممن يسمون بحفظة القرآن، والذين آثروا التخلي عن مناصرته لما عرفوا عنه أنه يسعى للاستيلاء على سلطة موالية لقريش وليس كما ظنوا أنه كان ممن يسعى لحماية الدين من قريش. ومع أنهم لم يعلنوا الحرب على علي وفضلوا التنحي والعيش في معزل عن الفتن والتطاحن على السلطة. إلا أن علياً لحق بهم لمسافة تزيد عن ٨٠٠ كيلومتر وأدركهم في النهروان (قرب بغداد الحالية)، وقضى عليهم. وأصبح حفظة القرآن خوارج على دين الله وليس على سلطة علي وقريش.

وما حدث لتشويه تاريخ أم المؤمنين ومواقفها الصارمة ضد استيلاء قريش

على السلطة، هو مماثل للتشويه الذي أسبغه بني إسرائيل على تاريخ بني إسماعيل ومكة وعموم تاريخ منطقة الشرق العربي.

ويكون الوقت قد حان لاقتحام الدائرة المحرمة التي أحاط التاريخ بها علي ابن أبي طالب وبنيه وعزلهم عن النقد أو حتى النظر إليهم كبشر، وستجد أنها دائرة سراب سرعان ما تتبخر بمجرد الاقتراب منها. ونقد سيرة علي ابن أبي طالب لا شأن لها بالإسلام، ولا تعني التعرض لدين الله. وعندما نحقق التاريخ بواقعية بما يكفي للنظر لعلي ابن أبي طالب كما هو، شخص كبقية البشر، خلقه الله بلا قدسية، ولا علاقة له بما ترسخ عنه في الموروث. عندما نفعل ذلك سيكون بمقدورنا تحقيق كل التاريخ لأن المفتاح لذلك هو تناول مواقف علي ابن أبي طالب والتوقف عند كل ما يستدعي التوقف عنده. والتعامل معه كأي شخص آخر، دون شعور بالذنب أو خوف من تجاوز المحظور. ويكون بالإمكان البحث عن إجابات لأسئلة لا تنتهي عنه، مثل اختفائه عن ساحة الأحداث زمن أبو بكر وعمر، وعدم مشاركته بحروب المسلمين ضد أعدائهم بعد وفاة رسول الله، فلم يكن قائداً لأي جيش من جيوش حرب الردة ولا الفتوح، وكأن ليس له وجود، فيما عدا زعم لا صحة له من أنه كان يقوم بدور مستشار ديني لأبي بكر وعمر. واختفاء علي عن تلك الحروب وعن الساحة السياسية مثله مثل اختفاء أبو سفيان الذي كان له لواء الحرب في قريش ولكنه لم يكن له وجود في حروب المسلمين لا زمن رسول الله ولا بعد وفاته، لأن المسلمين الأتقياء يعلمون أنه ليس منهم.

ولو حقق التاريخ بتجرد فسيكون بالإمكان التساؤل إن كانت فاطمة قد قتلت؟

وهل كان قتلها إسكاتٌ لصوتها لئلا تفضح بما قد تكون اكتشفته مما كان يدور بين علي وكبراء قريش وعلى رأسهم العباس وأبو سفيان أثناء اجتماعاتهم في بيتها بعيد وفاة رسول الله؟

وسيكون بالإمكان التوقف عند تواجد علي في المدينة أثناء حصار عثمان دون أن يحرك ساكناً للدفاع عنه، والتساؤل إن كان يقف وراء اغتيال عثمان، خاصة أن من بايعه بالخلافة هم من اشترك في قتل عثمان؟

ولماذا قام علي ابن أبي طالب بعمليات تصفية جسدية لكل من يعارضه؟

وهل معارضيه كانوا بالفعل يحاولون وقف اجتياح قريش لسلطة دولة الإسلام؟

ولماذا تجاسر على ترك عاصمة الإسلام المدينة، واستبدالها بالكوفة؟

ولماذا لم يسجل لنا التاريخ معركة واحدة خاضها علي مع أعداء الإسلام؟

ولماذا قتله أحد حفظة القرآن، الذين كانوا أول من بايعه، ولم يقتله عدو للإسلام، قرشي كان أو من بني إسرائيل أو من غيرهم؟

ولماذا لم يحسب علي ابن أبي طالب من بين الخلفاء الراشدين حتى جاء أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) الذي كان أول من طالب بأن يعتبر رابعهم، بعد موته بأكثر من ٢٠٠ عام؟

ولماذا كان أول شيء فعله علي ابن أبي طالب بعد توليه السلطة هو عزله لكل الولاة على الأمصار واستبدلهم بولاة جدد. منهم المغيرة ابن شعبة أحد من له يد في قتل عمر ابن الخطاب، وتعيين أربعة من أبناء العباس ابن عبد المطلب أحد كبراء قريش الذين يتربصون بدولة الإسلام، وهم: عبد الله على الكوفة، عبيد الله على اليمن، تمام على المدينة، وقثم على مكة.

وغير ذلك الكثير من الأسئلة حول سيرة علي ابن أبي طالب التي حُرِّم على الناس الاقتراب منها حتى أصبح تناولها كفراً أكثر من إنكار الذات الإلهية.

وتبقى تفاصيل كثيرة لحقيقة تاريخ المسلمين غائبة، وكشفها يبدأ بكشف حقيقة الدور الذي قام به علي ابن أبي طالب. وهل كان ذلك الدور للذود عن الإسلام أمام أطماع قريش أو أنه كان البوابة التي دخلت منها قريش لحكم

دولة المسلمين. وإبقاء الحقائق مخفية كما هي عليه الآن فيه تجن على الإسلام وأهله، أما كشفها فليس فيه تجن على شخص علي ابن أبي طالب. لأن البدء بتحقيق تاريخ علي ابن أبي طالب هو - كما سبق وذكرنا - المفتاح لتحقيق تاريخ المسلمين بعد الرسول، وكيف استطاعت قريش المشركة السيطرة على حكم دولة الإسلام، وكيف دخلت الإسرائيليات دين الله وأصبحت عموده الفقري، وكيف أصبح ابن عباس «حبر» في الإسلام، مع أن الإسلام لا حبر فيه ولا راهب. ومع أن ابن عباس، الذي كان من أهل مكة، ولم يعرف الرسول ولم يتواجد في المدينة، لأن العباس - والده - لم يغادر مكة ولم يقطن المدينة، وإن تواجد فيها مع أبو سفيان لما علما بمرض محمد وقرب أجله. وقد مات الرسول وابن عباس طفل.

ولو حقق التاريخ فسنعلم لماذا أصبح هناك تخصص لنقل أخبار الرسول من أشخاص معينين، هم من نقل لنا كل ما نسب للرسول من قول أو فعل، والذي نتج عنه التاريخ وما سمي بالحديث الذي قامت عليه معظم التشريعات التي يتبعها المسلمون باسم الإسلام. ولماذا أهملت روايات أشخاص مقربين للرسول عاشوا معه وآمنوا به، ولم يرو عنهم أخبار الرسول ولا أقواله.

ولابد من التأكيد على أن تقصي حقائق التاريخ لا يعني السعي لإلصاق التهم أو نفيها عن علي أو أم المؤمنين أو غيرهما، لأن تناولهم على أنهم أشخاص يجوز عليهم ما يجوز على بقية البشر من صواب وخطأ، ضرورة لإعادة الحق إلى التاريخ وكشف الزيف الذي لحق به. وترك البحث يقوي تقديس علي كشخص، ويبقي على تهم ألصقت بأم المؤمنين، وشبه كثيرة عالقة في التاريخ الإسلامي. خاصة أن تقديس علي قام على كونه زوج بنت الرسول، فإن كانت فاطمة ليست بنتاً للرسول فكل ما بني لعلي من قدسية سينهار.

ونكرر أن تحقيق التاريخ بتجرد ليس فيه تجن على علي ابن أبي طالب، أما إبقاء الحقائق مخفية كما هي عليه الآن فهو تجن على الإسلام وأهله.

وفيما يلي خارطة تبين أهم الأحداث التي وقعت في عصر علي:



ويمكن ملاحظة أن صفين تقع في بلاد الشام وأقرب لدمشق (عاصمة معاوية. ولم تكن تلك هي فقط حروب علي بل أرسل جيشاً لإخضاع اليمن وآخر لمصر، مما يعني أنه قضى مدة حكمه التي لم تزد عن أربع سنوات وتسعة أشهر في حروب مستمرة كلها موجهة ضد المسلمين.

والمؤكد أن قريشاً استطاعت رسمياً الوصول لحكم دولة الإسلام عندما دانت السلطة لمعاوية ابن أبي سفيان، الذي كان سيؤول له لواء الحرب في قريش، لولا أن الإسلام قضى على أحلامه. ومع ابن أبي سفيان، فُتح الباب على مصراعيه للقضاء على أشخاص المؤمنين القلة، أو إسكات أصواتهم على

الأقل. والقضاء على الإسلام كدين، و نجحت قريش من الانتقام من الدين، السياسي، ونجح حلفاؤهم ـ بنو إسرائيل ـ من الانتقام من الدين كتشريع، طوال القرون الماضية ولازالوا، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه.

لكن كتاب الله بقي، وبقاؤه خير دليل على أن الدين حي لم يمت. ما يعني أن نجاح قريش ومن عاونهم من بني إسرائيل وغيرهم لن يكون إلى الأبد، وإنما هو جولة للباطل ستزول بإذن الله، لأن الله لم يرسل محمداً بالإسلام لكي تستطيع قريش ومن عاونها أو تبع ملتها أن تقضي عليه، وسيعود قوياً كما بدأ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿٣٢﴾ براءة.

لأنه دينٌ لكل الناس في كل زمان ومكان، وسيبقى ولو كره المشركون: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿٣٣﴾ براءة.

ولأننا في عصر العلم والاتصالات المذهل، فالعقل البشري بدأ يعتاد التفكير الحر، وأصبح يعتمد البحث والتنقيب، ولم يعد بالإمكان حجب الحقائق، ولا وجود لشخص فوق الشك والشبهات. وهو ما يعني أن المستقبل للإسلام الحق، ولو كرهت قريش ومن عاونها من بني إسرائيل ومن حذا حذوهم وتبع ملتهم، في كل العصور: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴿٩﴾ الصف.

والحمد لله رب العالمين

الختام

هذا الكتاب لا يجب أن يؤخذ كمرجع للتاريخ الإسلامي، لذا تعمدنا أن يكتب بطريقة مختصرة ومختزلة ليلعب دور المؤشر والدليل على أن تاريخ الإسلام الموروث والمتداول بعيد عن واقع الأحداث التي وقعت بالفعل. وعلينا إعادة كتابة تاريخ عصر رسول الله والتاريخ القديم لمنطقة النصف الجنوبي لغرب جزيرة العرب، من يثرب شمالاً، إلى بحر العرب جنوباً، ومن البحر الأحمر غرباً إلى أطراف الربع الخالي شرقاً، بطريقة علمية وثائقية محترفة، بعيداً عن تلك الصور الخيالية والخرافية لتلك الأزمنة التي صورتها لنا الإسرائيليات، والخزعبلات التي أغرقنا بها القصاص، وفرضها علينا السلاطين كتاريخ.

ولكتابة التاريخ الصحيح يجب توفر العناصر اللازمة، والمتمثلة بمصادر مكتوبة، وشواهد أثرية، ونحن نملك هذه العناصر. فالقرآن الكريم يمثل المصدر الكتابي. وهو أقدم وأصدق وأدق مصدر مكتوب يتحدث عن تلك الحقب التاريخية، سواءً في عصر الرسول، أو الفترات التاريخية العتيقة للمنطقة. وكل ما علينا القيام به، قراءة القرآن بعيداً عن خزعبلات المفسرين، وتطبيق ما يخبرنا به هذا السجل الوافي، على جغرافية المنطقة، ثم الاستعانة بالعنصر الآخر وهو الشواهد الأثرية، وذلك عن طريق الحفر والتنقيب.

وأرض المنطقة حبلى بالشواهد الأثرية، ولاستخراجها من باطن الأرض، علينا إنشاء هيئة مستقلة للتنقيب عن آثار هذه المناطق، ليس لها علاقة بآثار

المناطق الأخرى، ولها سياساتها الخاصة والنافذة. ونقصد بالمستقلة أن سياساتها وقوانينها يجب أن ترقى فوق البيروقراطية المحلية وتبتعد عن المظاهر والتشريف، وتلتزم بالمسؤوليات والتكليف. وتحكمها الحرفية العالية بعيداً عن الارتجال والمحسوبيات، سواءً في الإدارة وسن القوانين الخاصة بها، أو في التعامل مع الآثار أو في التخطيط والتنفيذ للحفر والتنقيب. وبعقلية علمية بعيدة عن العقليات المحلية التي تسعى للظهور على حساب المخبر، أو المعتادة على :لاستخفاف بالعلم وتخريب الآثار تحت ذريعة أن الناس سيعبدونها من دون الله.

كما يجب أن يوفر لها سلطة تنفيذية تمكنها من سن القوانين الملزمة لحماية الأراضي التي تحوي الآثار، ومنع الحفر العشوائي، وأن يكون لها ميزانية وافية لتغطية كل المصاريف، بما في ذلك النشرات العلمية والبرامج الوثائقية التي تنتج عن نشاطات الهيئة، والاستعانة بالخبراء والاختصاصيين.

والتاريخ إرث عالمي، وليس ملكاً لشخص أو جماعات، وإخفاؤه أو القضاء عليه جريمة عالمية. والكشف عنه والحفاظ عليه مسؤولية إنسانية عامة تجب على الجميع. أما التاريخ الإسلامي والأمم السابقة المذكورة في القرآن فواجب إنساني على كل الناس كتاريخ، وواجب خاص على كل من يؤمن بالله. وما حدث في مكة والمدينة من تجريف للآثار بسبب عقليات مغلقة أو جشع مادي، لن يغفره التاريخ ولن ينساه. لذا من الواجب المطالبة بحفظ ما يمكن حفظه من تاريخ منطقة غرب جزيرة العرب الذي سيصحح تاريخ الشرق الأوسط كله والمتداول اليوم في العالم بصورة مغلوطة.

فهل سيتحقق هذا الحلم؟

ثقافتنا وإدارتنا المحلية وطغيان المادة على المبادئ يقولان: لا!

والسلام

مصادر الصور والخرائط

* الصور الفضائية بمختلف أنواعها مأخوذة من برنامج قوقل إيرث Google Earth .

* الخرائط الطبوغرافية مأخوذة من خرائط طبوغرافية من إنتاج إدارة المساحة الجوية ـ وزارة البترول والثروة المعدنية ـ الرياض، السعودية.

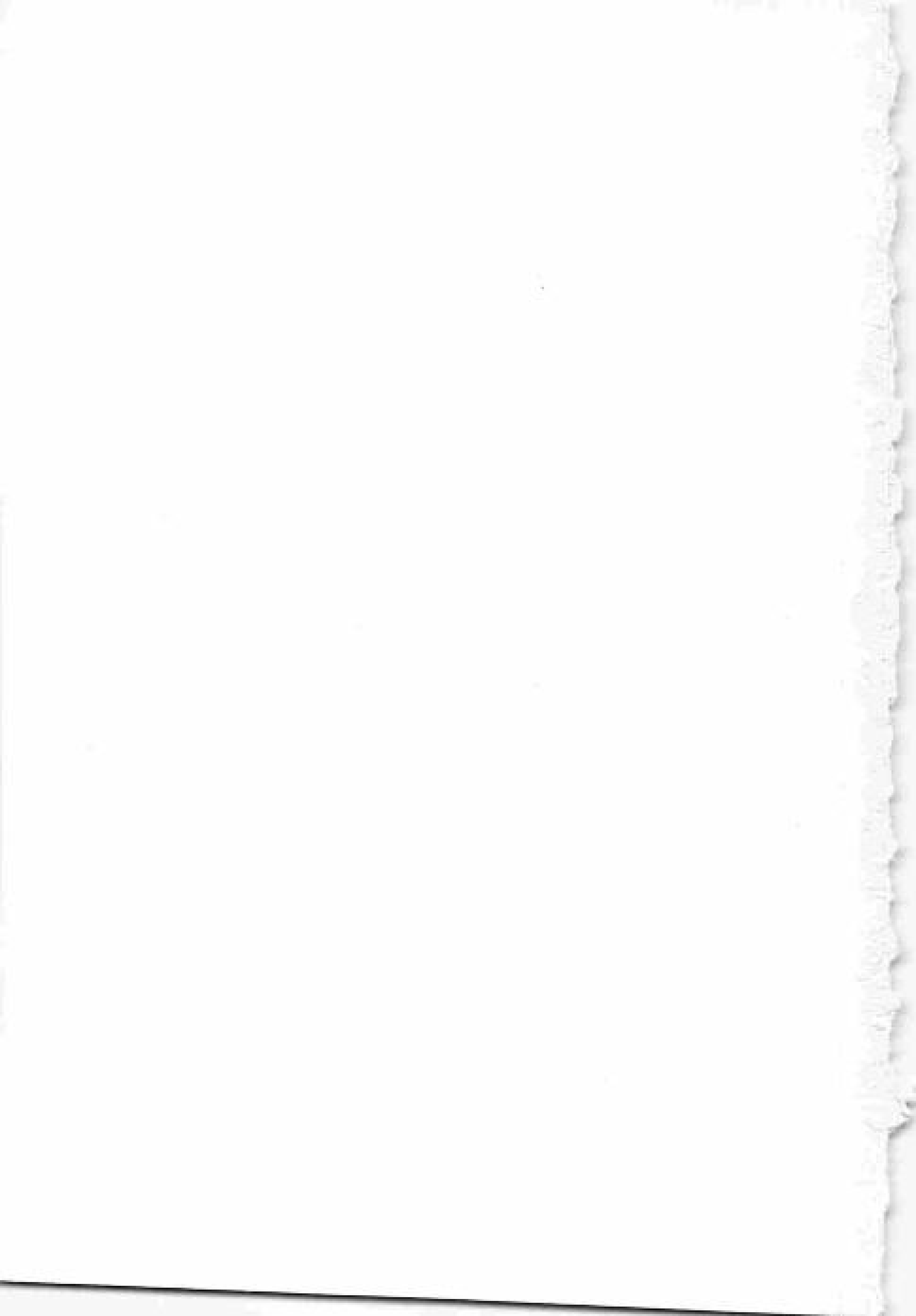
وهي كما يلي:

اسم الخارطة	رقمها	مقياس الرسم	سنة الإنتاج
بيشة	NF38 - SW	1:500.000	١٤١١هـ/ G١٩٩٠
أبها	NE38 - NW	1:500.000	١٤٠٤ هـ/ G١٩٨٣
مكة المكرمة	NF37 - SE	1:500.000	١٤١١هـ/ G١٩٩١
جيزان	NE38 - SW	1:500.000	١٤٠٥هـ/ G١٩٨٥
المدينة المنورة	NG37 - SE	1:500.000	١٤٠٥ هـ/ G١٩٨٥
الفاو	NE38 - NE	1:500.000	١٤٠٩هـ/ G١٩٨٩
مكة المكرمة	3921 - 21	1:50.000	١٣٩٥هـ/ G١٩٧٥
وادي نعمان	4021 - 34	1:50.000	١٣٩٠هـ/ G١٩٧٠
الطائف	4021 - 31	1:50.000	١٣٩٠هـ/ G١٩٧٠

* إضافة لرسم يدوي قام به الرحالة السويسري بوركهارت لمكة عام ١٩١٤م مأخوذ من كتاب سي سنوك هيرجرونجي/ مكة في أواخر القرن التاسع عشر/ ترجمة صبري محمد حسن/ طباعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ـ القاهرة ٢٠٠٧.



الفهرس



هذا الكتاب

هذا الكتاب يتيح لكل القراء، وليس للمسلمين فقط، الفرصة للتعرف على تاريخ الإسلام في عصر الرسول، بكل تفاصيل أحداثه، من مصدر مختلف لم يسبق لهم أن اعتبروه مصدراً للتاريخ.

فلأول مرة، وبأي لغة من لغات العالم، يكتب تاريخ الإسلام مباشرة من القرآن، دون الاستعانة بأي كتاب بشري. سواء كتبه محدث أو مفسر أو قاص أو مستشرق، قديماً أو حديثاً.

ولا يمكن معرفة إلى أي مدى سيصاب القراء بالذهول، عندما يعلمون أن القرآن يخبرهم بأن الرسول لم يتزوج بأكثر من أربع نساء، ولم يجمع في حياته أكثر من ثلاث. وأن أفراداً من بني إسرائيل يثرب آمنوا، هم من نشر الإسلام بين الأوس والخزرج.

أو عن تفاصيل لم يسمع بها أحد من قبل عما حدث قبل وأثناء وبعد بدر وأحد، وكيف أن الأحزاب عبارة عن قوات تحالف قدموا للقضاء التام على المسلمين، بقيادة قوات رومية، وأن حنين قوات تحالف أخرى بمعاونة من الفرس.

أو أن قريشاً نقضت معاهدة فتح مكة التي أبرمتها مع الرسول والمسلمين، وعوقبت بعقوبات لم يذكرها التاريخ.

كما يعرفهم على بلد النبي إبراهيم الذي ولد وعاش فيه، وعلى البلدة التي خرج إليها وعاش فيها بقية حياته. وفي تلك البلدة ولد له إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

ويعرّف القراء على موقع مصر، وأين غرق فرعون، وأين ولد عيسى ابن مريم، وأين كانت مملكة داوود وسليمان.

وتفاصيل كثيرة أخرى لم يسبق للناس السماع عنها، مع أنهم يقرأون القرآن صبحاً ومساء، ذلك أن هذا المصدر أبعد عن كتابة التاريخ، بحجة أنه سجلٌ للتشريع فقط، ولا شأن له بما حدث من وقائع صاحبت دعوة محمد أو سبقتها.

إضافة للتعرف على الترتيب الصحيح للسور حسب نزولها، وهو ما سيجعل فهم السورة وما تتحدث عنه أيسر وأكثر وضوحاً، وسيغني عن الحاجة لتفسير أو تأويل.

والكتاب يمكن تعريفه بأنه كتاب الحقائق المغيبة، وهو مدعوم بالصور والخرائط.

